

سليم حسن

مصر القديمة

في مدنية مصر وثقافتها

الجزء الثاني

الدولة القديمة والعهد الأهناسي



2000

مهرجان القراءة للجميع



الهيئة المصرية العامة للكتاب

موسوعة مصر القديمة
الجزء الثانى

الجزء الثانى

صورة الغلاف

رأس الملكة حتشبسوت

تمثال رائع لرأس الملكة حتشبسوت انعكست فيه التطورات السياسية، فقد تم تطويع شكل الإزميل لينجز ضرباته الناعمة محدثاً ثورة تكنولوجية هائلة وتغييراً جذرياً للأشكال الحادة، ورغم ذلك فالفنان المصرى حافظ على القيود الفنية الراسخة.

والتمثال يعد تحفة فنية نادرة تجمع بين البساطة والجمال الطبيعى. وقد عثر عليه فى المعبد الجنائزى لحتشبسوت بالدير البحرى. ويرجع تاريخه إلى الأسرة الثامنة عشرة. ويبدو الرأس قريب الشبه بأوزيريس، وهو منحوت من حجر الجرانيت.

محمود الهندى

موسوعة مصر القديمة

الجزء الثانى

فى مدينة مصر وثقافتها فى الدولة القديمة والعهد الإهناسى

سليم حسن



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(موسوعة مصر القديمة)

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الإدارة المحلية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

والمجموعة الثقافية المصرية

موسوعة مصر القديمة

الجزء الثاني

سليم حسن

الغلاف

والإشراف الفني:

الفنان : محمود الهندي

المشرف العام :

د . سمير سرحان

على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة، تلك الصيحة التي أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» في مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة» والذي فجر ينابيع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذي كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفي مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافي الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التي أصدرت في سنواتها الست السابقة ١٧٠٠٠ عنواناً في حوالى ٣٠٠ مليون نسخة لاقت نجاحاً واقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى ٣٠٠٠ ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الاثرى الكبير «سليم حسن» فى ١٦٠ جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وامهات الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. هدير هرحار

مقدمة الجزء الثانى

بسم الله والحمد لله وبعد فأقدم الجزء الثانى فى « مصر القديمة » وهو يبحث فى مدينة الدولة المصرية القديمة حتى الأسرة العاشرة وما يتصل بها من نظمها الاجتماعية والسياسية والثقافية وهو يعد كتابه يلم بجميع أطراف الموضوعات التى تعرض لها ، وكثيراً ما كانت الرغبة فى الاستيفاء والأجادة داعية إلى أن يتخطى فى بحوثه عصور الدولة القديمة وأن يستنجد بما عداها فى تدعيم نظرية أو توضيح رأى أو تقرير بحث . ولقد كانت مهمتى أن أفتح الطريق وأزال صعابه وأنبه إلى مخاطره ومزالقه . وعلى زملائى وتلامذتى أن يكملوا ما بدأت ويحققوا ما حاولت وأرجو أن يصلوا إلى خدمة الوطن والتاريخ من أقوم طريق والسلام ما

سلمى مس

الحكومة فى عهد الدولة القديمة

(١) المملكة الطينية واداراتها

(٣٤٠٠ - ٢٩٨٠ ق م)

كانت الحكومة فى العهد الطينى حكومة ملكية مطلقة قوامها ملك مؤله ،
ولذلك يجب البدء بالملك عند درس المدنية المصرية فى هذا العهد .
والذى نعرفه أن الملك فى هذا العصر كان يمثل الإله الأعظم للقطر ،
أى الإله « حور » وهذا هو السبب فى أن أول إسم ملكى هو الحورى .
وكان يكتب فى داخل رسم قصر يعلوه صورة إله الصقر « حور » . ولما
تم اتحاد القطرين كانت هذه الحادثة تخلد ذكرها برمز دينى ؛ فكان يوضع
الملك تحت حماية إلهتين كانتا مقدسان فى عاصمتى البلاد القديمتين . وهما
إلهة التسر التى كانت فى الكاب « نخت » وإلهة السل فى « بوتو »
« وازيت » وبذلك أصبح له اسم آخر وهو « نبتى » كما سبق ذكره .

ألقاب الملك

وكذلك عندما نذكر اتحاد شطرى القطر القديعين نعيد إلى ذاكرتنا

الاحتفال بتتويج
الملك

احتفال تتويج الملك . وهذا الاحتفال كان يمثل فى ثلاثة مناظر : (١) ظهور
ملك الوجه القبلى ، وملك الوجه البحرى . (٢) ثم اتحاد المملكة الثنائية . (٣)
والطواف حول الجدار . وكانت هذه الاحتفالات تقام فى مصر طوال
كل عصور التاريخ المصرى .

أما الاحتفال بهذه المراسم فكان كما يأتى : أولا كان يلبس الملك
التاج الأبيض لمصر العليا ثم يصعد إلى رصيف وضع عليه تاج . وكان
هذا المنظر يطلق عليه (طلعة ملك الوجه القبلى) . ثم يلبس الملك التاج
الأحمر للوجه البحرى ويصعد كذلك على الرصيف وهو لابس التاج الأحمر

وكان يطلق على هذا المنظر (طلعة ملك الوجه البحرى) واحتفال إتحاد المملكة
الثانية يتكون من دق وتد فى الأرض ، وحوله يزرع نبات رمز الوجه القبلى
ونبات رمز الوجه البحرى (البردى والبشنين) أما احتفال الطواف حول
الجدار فتفسيره غامض بعض الشيء ولكن يظن أن من أهم الأمور التى
قام بها ملوك طينة هو إقامة جدار بالقرب من المكان الذى أسست عليه
منف ، حماية للجنوب من هجمات أهل الدلتا ، ويقال إن الملك
عند ما كان يلف حول هذا الجدار ، يحى ذكرى الظروف التى
بشت على إقامته ، أى انتصار الجنوب على الشمال واتحاد البلاد .
ومنذ ذلك العهد كانت المملكة المصرية تجدد جزأ عظيما من قوتها فى
تذكر الماضى وما كانت عليه البلاد من التقاليد .

الطواف حول الجدار
رمز لاتحاد البلاد

ومن المحتمل جدا أن يكون الاحتفال بعيد « سد » من التقاليد القديمة ؛
لأنه يظن أن السلطة الملكية كانت لا تعطى فى الأصل للفرعون إلا لمدة
ثلاثين عاما ، يخلع عند نهايتها أو يقتل . ولذلك يعتقد أن العيد
« سد » لم يكن إلا عادة وحشية بقيت لنا من تراث الأزمان القديمة
ولكنها أخذت صبغة أكثر إنسانية مما كانت عليه من قبل . فبدلا من
عزل الفرعون كان يظهر (بعد مضى الثلاثين سنة) كأنه ملك جديد للوجه
القبلى والوجه البحرى وبهذا التجديد المصطنع كانت تبعث فيه قوة جديدة ،
بها يمكنه أن يبدأ عهدا جديدا . وهذا الاحتفال الذى كان فى الأصل
يحدث كل ثلاثين عاما يظهر أنه كان يقام منذ العصر الطينى فى زمن أقل
ولكن الاسم بقى كما كان قديما .

الاحتفال بعيد « سد »
وسيه

ولما كان الملك له صبغة إلهية فإن الأعياد التى كانت تقام تعظيما

للآلهة أصبحت لها أهمية عظيمة جدا . فكانت سننها تعتبر تاريخنا ثابتا
يؤرخ به ، كما يمكن مشاهدة ذلك على حجر « بلم » . وأهم هذه
الأعياد في بلاد يدعى الملك فيها أنه متقمص الإله « حور » هو العيد
الذى كان يقام تعظيما لهذا الإله ، وكان يحتفل به كل عامين . وكذلك
كان يحتفل في فترات غير منظمة بعيد الولادة للإله « سكر » إله سقارة
والإله « مين » رب قفط « وأنوبيس » و « سد » (يحتفل أنه لقب للإله « وبوات »)
وهو يمثل على أية حال كهذا الإله الأخير في شكل ابن آوى مرفوعا على
حامل . والإلهة « سشات » إلهة الكتابة ؛ وأخيرا يذكر لنا حجر بلم
عدة مرات عيدا يدعى « زت » وقد اختفى في العهد الطينى ولا نعرف عنه شيئا .
وقد كانت المعابد تقام لهذه الآلهة المختلفة ، وعند بنائها ووضع أساسها
كانت تعقد الاحتفالات ، وقد حفظت لنا واجهة باب عشر عليها في
هيراكنبوليس منظرا لا يحدى هذه الاحتفالات ولكنه لسوء الحظ وجد
متا كلاً ناقصا والمنظر ينقسم قسمين : فى الجهة الشمالية يرى الملك قابضا
بيده على عصا عظيمة وعلى صولجان ، وهو واقف أمام اثني عشر رجلا
من عظماء القوم ولكنهم رسموا بصورة مصغرة عنه . وهذه الشخصيات
موزعة على ثلاثة صفوف فى الرسم ومن المحتمل أنهم يمثلون الشعب أو
رجال البلاط . وفى الجهة اليمنى تشاهد الإلهة « سشات » والملك وجها لوجه
وهما يدقان بمطرقة وتدا فى الأرض . وهذا المنظر أصبح متبعا فى تأسيس
المعابد إلى عهد البطالمة .

وكان الفرعون يعيش هو وأسرته ورجال حاشيته فى القصر الفرعونى
وقد مثلت واجهة هذا القصر بكل عناية ودقة على لوحة الملك زت « ثعبان » ،

ويمكن الإنسان أن يأخذ فكرة عن هذا المبنى رغم أنه رسم رسماً تخطيطياً والواقع أنه كان يتألف في الأصل من بايين عظيمين وهما يذكران بالملكة المصرية الثنائية القديمة ومحيط بهما أعمدة مرتفعة من الخشب . وكانت العادة المتبعة أن يقيم كل ملك لشخصه قصراً جديداً والظاهر أن ابتداء إقامة هذا المسكن الجديد كان في السنة الرابعة من حكم الفرعون . وكان الملك يأمر بإقامة قصر جديد في السنة الرابعة بعد عيد « سد » وتلك نتيجة منطقية وذلك لأن العيد « سد » كان فاتحة حكم جديد .

الملك يقيم لنفسه
قصر في بداية حكمه

وكان الملك يحكم البلاد بموظفين مختلفي الدرجات وهذا كل ما يمكننا أن نجزم به في العهد الطيني عن الإدارة . وليست لدينا معلومات عن هؤلاء الموظفين إلا ما وجد على الأختام التي كانوا ينقشون عليها أسماءهم وألقابهم واسم الملك الذي عاشوا في عهده . ولحسن الحظ وجد معظم هذه الألقاب فيما بعد مضبوطة . وإذا اعتمدنا على هذه المعلومات التي حققناها فيما بعد عن هؤلاء الموظفين فإنه من الممكن بوساطتها أن نميز بين الإدارة الرئيسية والإدارة الإقليمية ؛ ولكن الواقع أننا لا نعرف لقب الموظف الذي كان يشرف على الإدارة الرئيسية العامة . ويظن بعض المؤرخين أن وظيفة الوزير كانت قائمة في العهد الطيني ؛ ويعتمدون في ذلك على الكتابة التي وجدت على لوحة « نمرمر » إذ يشاهد عليها شخصية صغيرة تتبع الفرعون مرتدية جلد فهد وهذه الكتابة تقرأ « تيت » وهي لفظة معناها وزير ولكن هذه مجرد نظرية لا يمكن الاعتماد عليها بصفة قاطعة ، فإن أول وزير عرف لقبه بالتحقيق على الآثار هو « كا نقر » الذي عاش في بداية الأسرة الرابعة في عهد الملك سنفر .

أهمية الاختتام في
العصر الطيني

الوزير في العهد
الطيني ؟

وإذا فرضنا أنه لم يكن في هذا العصر الذى نحن بصدده وزير، فإنه من المحتمل جدا أن يكون الملك نفسه على رأس الإدارة الرئيسية ولا نزاع فى أن جعل موظف كبير صلة بين مصالح الإدارة العامة المختلفة وبين الفرعون لا يمكن إلا أن تكون نتيجة وجود حكومة راقية تستدعى أعمالها المتشعبة وجود هؤلاء الموظفين الذين يقومون بجميع مراقبتها .

ويمجب علينا أن نعرف أن الملك كان يشرف على كل مختلف المصالح، أى على الوزارة والإدارة العامة الرئيسية . وكان يعاونه حاملا الخاتم وهما حامل خاتم الإله (أى ملك الوجه القبلى) وحامل خاتم الوجه البحرى وكنا يشرفان على الخزينة الثائية (مصر السفلى ومصر العليا) ومن ذلك نلاحظ أن الإدارة المزدوجة كانت لا تزال قائمة من حيث المبدأ وإن لم تكن فى الواقع، ونجد هذا النظام قائما فى الألقاب الفخرية للشخصيتين العظيمتين نائب الملك فى نحن (هيراكليوبوليس) ونائب الملك فى ب (بوتو) على أن وجود الموظف نفسه حاملا هذين اللقبين برهان على أن هذه الحكومة الثائية فى المملكة الطينية لم تعد العرف والتقليد فحسب . وكان يتبع الإدارة الرئيسية مكاتب السجلات الملكية ، التى كان لا بد من وجودها لإيداع الوثائق وحفظها وإلا لما بقيت لدينا سجلات تاريخية مثل حجر بلم الغنى بالمعلومات عن الأزمان السحيقة وهى التى دونت فيما بعد فى عهد الأسرة الخامسة . أما اللوحات التى من العاج والتى يحتمل أن تكون بطاقات أو أوانى فإنها تدل على أن الملوك كانوا متعودين على أن يدونوا بالكتابة سنة فسنة الحوادث الهامة فى عهد حكم كل منهم .

والآن نتكلم عن الإدارة فى الأقاليم أو المقاطعات فى هذا العصر

وإن كانت لا تزال معلوماتنا عنها ناقصة على أن تقسيم البلاد إلى مقاطعات في هذا العهد أمر مؤكد بل ويرجع إلى أقدم عهود التاريخ وإلى عهد ما قبل التاريخ . ففي بلاد مثل مصر حيث تكون الزراعة أهم ثروة للبلاد وحيث الحياة نفسها تتوقف على فيضان النيل ، فإنه من المستحيل ألا يتقدم نظام طرق الري تقدما سريعا نحو الكمال . ومن أجل ذلك يرجح أنه في هذه الفترة التي بدأ فيها العصر التاريخي في البلاد قد انتشرت فيها الترع العدة التي كان يعتنى بصيانتها . ولا بد أنه كان في كل مقاطعة موظف مكلف بالتفتيش على هذه الترع وتمهيد صيانتها والعمل على رقيها . ومن المحتمل أن يكون هذا هو الأصل في وجود وظيفة حاكم المقاطعة وقد اشتق اسمه من نوع عمله الهام فمنذ العصر الطيني ظهر أمامنا لقب « عز مر » ومعناه حرفيا (المشرف على حفر الترع) وهذا اللقب كان أهم ألقاب حاكم المقاطعة في بداية الدولة القديمة . والظاهر أن لقب « عز مر » الذي نشاهده على آثار العهد الطيني كان يطلق على حاكم المقاطعة ، وكان عمله ينحصر في الحصول من الأرض بالطرق المتبعة على كل ما يمكن الحصول عليه ليزيد من الثروة العامة وبمخاصة الخزنة الملكية . وكذلك كان يقع على كاهل حاكم المقاطعة الإحصاء وقد شوهدت هذه العملية لأول مرة في عهد الفرعون « عز إب » ومنذ بداية الأسرة الثانية قد اتبعت هذه العملية بانتظام في كل عامين مرة ، بل وقد استعملت لعد سني حكم الفرعون فيقال السنة س إحصاء أو السنة بعد س إحصاء .

تقدم نظام الري

مهام حاكم المقاطعة

يضاف إلى ذلك أن ارتفاع النيل كان يدون سنويا وبسبب هذه العناية كان من السهل أن يعرف الإنسان مقدما على وجه التقريب ما

ستكون عليه ثروة البلاد حتى تتخذ الاحتياطات إذا حدث انخفاض في النيل تجنبا لحدوث قحط أو مجاعة . وكان في عاصمة كل مقاطعة مجلس يدعى « زازات » موكل إليه الأمور القضائية وذلك مما يوحي بوجود قانون مدنى لم يصل إلينا منه أى شىء بكل أسف .

أما نظام الجيش في هذا العهد فإنه سر غامض . وأنه يكاد يكون من الصعب أن يعرف الإنسان إذا كان في البلاد جيش قائم أو أن الجنود كانت تجند وقت الحاجة فحسب . وكل ما يمكن أن نؤكد أنه أن لقب قائد كان موجودا منذ نهاية الأسرة الأولى وسنتكلم عن الجيش بالتفصيل في خلال الدولة القديمة .

الجيش

(٢) الحكومة في العهد المنفى (٢٩٨٠ . ٢٤٧٥ ق . م .)

كان نظام الحكومة المنفية نظاما ملكيا ثابت الأركان . فقد كان الملك هو القوة الرئيسية في البلاد وكان القوم يعدونه إلهًا أكثر منه إنسانا ، ولذلك كان يطلق عليه اسم (الإله الطيب) وكان قصره يدعى (البيت العظيم) « برعا » وقد اشتق منها فيما بعد كلمة فرعون التي استعملت في اللغات السامية ؛ وقد تكلمنا عن ألقابه فيما سبق .

وإنه لمن الأمور الصعبة جدا أن نعرف كيف كان الفرعون يدير شئون البلاد . حقا إن النقوش المصرية في العهد المنفى كثيرة جدا غير أنها غامضة إذ يتألف معظمها من الألقاب والعلاقات التي يتمتع بها حامل هذه الألقاب عند الملك فنقرأ في النقوش قول الموظفين : « إنهم قاموا بواجبهم حسب رغبة الملك ولهذا كوفتوا » . غير أنهم لم يعنوا قط بذكر عملهم ، ولذلك ليس

لدينا طريقة أو سند تتوكأ عليه في إعطاء فكرة عن إدارة البلاد في هذا العهد إلا «الألقاب» التي قرؤها على جدران المقابر غير مشفوعة بتفسير ما . والظاهر أنه كان في يد الملك السلطة التنفيذية والسلطة القضائية في عهد الأسرة الثالثة ، ولكن كان يساعده في القيام بهما موظفون كثيرون ، ليسوا أشرفا ، والظاهر أنه لم يكن بين المصريين في عهد الأسرة الثالثة (خلافا للفرعون) من يمكنه أن يتصرف في أى سلطة سياسية بحق الوراثة ، وقد كانت الوظائف التي يمنحها الملك لموظفيه هي مصدر السلطة الوحيد . غير أنه لا يفوتنا أن نذكر هنا أن الملك رغم ما لديه من قوة ، لم يكن يعين في هذه الوظائف بمحض رغبته ، بل كان خاضعا لنظام قائم ليس هناك من يستطيع التحويل فيه .

تحديد سلطة الملك

وكان الموظفون الذين ينتخبون من بين المعلمين يعينون بمرسوم . وكان الواحد منهم يتبدى بوظيفة كاتب ، ثم يتقلب في عدة وظائف إدارية حددها القانون ، ثم بعد ذلك يعين الواحد منهم بمرسوم آخر ليقوم بعمل إدارى هام يرمز له بحمل العصا . ويطلق عليه (نائب الملك) أولا في القرية ثم في المدينة . وقد كان الموظف الذى يتقلب في هاتين المرحلتين الإدارية والتنفيذية له الحق فيما بعد أن يشغل أعظم مناصب الحكومة ، فيكون إما حاكما لمنطقة ، أو مديرا لإحدى مصالح الحكومة الرئيسية أو أمينا للملك الخ .

نظام التوظف

والواقع أن كثرة الألقاب التي كان يحملها الموظف الواحد قد أخذت تزداد تدريجا حتى أننا أصبحنا لعدم وجود تفسير لكل في حيرة في ترتيبها حسب أهميتها وتقسيمها حسب نوعها إذ نجد أحيانا الموظف الواحد يحمل معظم ألقاب الدولة الضخمة وقد كان عدد ألقاب الواحد منهم تصل

إلى أكثر من أربعين (١). ولكن رغم ذلك يمكننا أن نقسم هذه الألقاب إلى مجاميع منفصلة أهمها ما يأتي :

أولا : ألقاب الشرف وهي ألقاب حقيقية بطل استعمالها فيما بعد . من ذلك نرى أن إقامة شعائر الملك الدينية قد جعلت بين الملك وكهنته علاقة وطيدة مما جعل لهم مقاما عاليا . وكذلك نشاهد أن أهم الشخصيات المكلفة بأقامة هذه الشعائر قد أغدق عليهم الملك أعظم الألقاب الفخرية في الدولة . فكان يطلق مثلا لقب : رئيس المرتلين ، والكاتب الإلهي ، ورئيس كل الوظائف الإلهية ، على أولاد الملوك . ومنذ عهد الأسرة الثالثة كان كهنة الملك يمنحون اللقب الفخري «رخ نيسوت» أي قريب الملك أو «المعروف لدى الملك» وفي عهد الأسرة الرابعة كان المرتلون الأول يلقب كل منهم «إري بت» أي أمير وقد كان هذا اللقب لا يطلق في عهد الأسرة الثالثة إلا على الكاهن الأكبر للإله رع فحسب ، الذي كان يعد أكبر شخصية في الدولة بعد الفرعون . ولكن الملك عندما أصبح يطلق عليه لقب الإله العظيم (أي أن رع قمص فيه) ، منح بسبب ذلك مرتله الأعظم الذي كان ينتخب من بين أولاد الملك ، لقب «إري بت» ، الذي لم يكن يتمتع به إلى هذا العهد أحد غير كاهن «رع» الأعظم .

وكذلك نشاهد أن الإله «تحت» إله العلم قد أخذ مكانة عالية حتى أن وظيفة إقامة شعائره قد منحت الوزير الذي كان دائما من أولاد الملك ، وقلده لقب «إري بت» أيضا .

(١) من المحتمل جدا أن الموظف كان يذكر كل الوظائف التي تقلب فيها مضافا إليها الألقاب الفخرية ولذلك يكثر عدد ألقابه كما سنشاهد ذلك فيما بعد .

وأخيرا نرى أن كاتب الملك الإلهي الخاص « شش تر » قد أصبح كذلك مساويا للكاهن الأعظم للإله رع وللإله تحوت والملك ؛ لذلك لقب « إرى بت » (أمير) . ومن ذلك يتضح أن لقب « إرى بت » قد فقد صبغته القديمة وأصبح لقباً فخرياً . وكذلك في كثير من الألقاب كالسمير الوحيد ولقب « حاتى عا » (أمير) ، ولقب « قريب الملك » وغيرها فقد كانت كلها قاصرة على أفراد معينين ثم أصبحت فيما بعد تمنح ألقاب فخرية لجم غفير من كبار رجال الدولة .

ثانيا : ألقاب خاصة بالملك وقصره من أهمها : مدير القصر ، وحارس الساج ، وحاكم القصر ، ومدير مالية القصر ، ومنذ الأسرة الخامسة كان يطلق على القصر لفظة « خنو » (أى الداخل) ويظهر أن هذا الاسم كان خاصا ببيت الملك الخاص وهو الذى كان يربى فيه مع أولاد الملك أولاد أمراء بعض المقاطعات ، وكانت له مالية خاصة وموظفون معينون . وكان للملك حامل نعل ، ومرجل شعر ، وطبيب خاص وغسال ومنظف أظافر « منكير » الخ .

ثالثا : ألقاب كهنوتية . كان القصر الملكى ، والهرم ومعبد الشمس ،

موظفو القصر الملكى

هى الأماكن الرئيسية المقدسة التى كانت تقام فيها الشعائر الدينية بكل عظمة وفخامة . فكانت تقام فى القصر للملك الحاكم ، وفى الهرم للملك المتوفى ، وفى معبد الشمس للإله « رع » الذى كان يعتبر والد كل الفراعنة على أن توحيد الملك مع إله الشمس جعله مرتبطا ارتباطا وثيقا بالشعائر التى كانت تقام للتاسوع فى معبد عين شمس المشهور الذى يطلق عليه اسم « برسنوت » .

ولما كان الملك هو الوارث لفراغة الوجهين القبلى والبحرى فقد استمر

تقديس الملك في
معبدى «نخب»
و «بوتو»

حلافا لما ذكرنا يقدس في الهيكلين العظيمين التاريخيين وهما معبد «نخب»
(الكاب) ويسمى «برور» (المعبد العظيم)، ومعبد «بوتو» ويسمى «برنسر»
(معبد النار). وقد كان الفراعة يفردونها بعناية خاصة ويهبونها الهدايا
العدة والقرايين الكثيرة.

ثم أصبحت إقامة شعائر الفرعون أهم الشعائر، ولم تكن يحتفل بها فقط
في الهياكل الملكية، بل في كل معابد آلهة البلاد حيث كانت تقام فيها
مذابح وموائد قربان للإله رع والآلهة حتحور والملك، يشيدها ملوك
الأسرة الخامسة.

وقد كان من الضروري لإقامة هذه الشعائر خدم كثيرون وعلى رأس
هؤلاء كان يشرف عدد من أعظم كبار الدولة. وأقدمهم كهنة معبدى
«نخب» و «بوتو». وقد كان معبد «نخب» تحت إشراف رئيس كهنة «نخب». ولم
نجد في عهد الأسرة الخامسة ذكر كهنة أرواح «نخن» الكوم الأحمر الحالية،
ولا كهنة أرواح «بوتو» وهم الذين كانوا يحتفلون بإقامة الشعائر الجنازية لملك الشمال
والجنوب مع أننا وجدنا ذكرهم في عهد الأسرة السادسة، ولكن ربما يعثر في
المستقبل على آثار تدل على وجودهم في الأسرة الخامسة أيضا.

أما الرئيس الأعظم لكهنة الملك فكان له مقام عظيم ربما كان
أعظم من كهنة «نخب» و «بوتو»، وقد كان مثلهم رئيس «إقامة الشعائر»
ويحمل لقب أمير، أو لقب الذى فى القلب (أى قلب الملك) وفى عهد
الأسرة الرابعة نلاحظ أن لقبى رئيس كهنة نخب، ورئيس المرتلين، لا
يلقب بهما إلا أولاد الملك، أما فى الأسرة الخامسة فلم نجد هـما، وسبب
ذلك أنه قبل هذا العهد كانت شعائر الملك الدينية لها صبغتان، صبغة

إلهية وصبغة جنازية ، وهذا من غير شك هو السبب الذي جعل كهنة الملك ينتخبون من بين أولاده ؛ لأن اتساعهم إليه جعل من الطبيعي أن يكونوا كهنة الجنائزين كما هو الحال في أفراد الشعب ، وعلى العكس في عهد الأسرة الخامسة لم تعد إقامة شعائر الملك أسرية ، بل أصبحت عامة ورسومية . وذلك أن القوم كانوا يعتقدون أن روح الإله « رع » تقمص الملك فهو إذن إله حي ، ولهذا أصبح كباقي الآلهة يجب أن يمده الشعب ويقيم شعائره . يضاف إلى ذلك أن أمراء البيت المالكي لم يصبحوا المحتكرين لوظيفة (المرتلين) وغيرها من الوظائف الدينية التي كانت وقفا عليهم في الكهنوت الملكي . إذ أخذ يشغل هذه الوظائف عظماء رجال الدولة كالوزير وغيره .

تأليه الملك

وفي عهد الأسرة الخامسة ظهر بجانب الكهنة المرتلين « خرحب » طائفة لقب « خرحب » أخرى من الكهنة تسمى « حنك نيسوت » وهم الذين كانوا يقومون بالقربان للملك وليس من بينهم من أولاد الملك من يحمل هذا اللقب ، ولا بد أنهم كانوا أقل من المرتلين .

والظاهر أن ظهور الكهنة « حنك نيسوت » ، يدل على علاقة وثيقة بين إقامة شعائر الإله « فتاح » وإقامة شعائر الملك ، وذلك أننا نجد كبار كهنة الإلهين « فتاح » و « سكر » يحملون لقب « حنك نيسوت »^(١) وعلى ذلك كانوا يساهمون بصفتهم هذه في إقامة شعائر الملك وقد كان هذا الصنف من الكهنة يؤلف طائفة خاصة على رأسها كبير كهنة « حنكو

طائفة كهنة

« حنك نيسوت »

(1) Excavations at Giza vol II p. 7.

حيث نجد شرحا وافيا لهذا اللقب الكهنوتي

نيسوت» . وهؤلاء الكهنة كانوا ينتخبون جميعهم من بين الشخصيات العظيمة وبخاصة من كبار رجال القصر الملكي .

« الكهنة المطهرون »^(١) . نجد في الواقع هذا الصنف من الكهنة في كل

المعابد ، وعلمهم أنهم كانوا يحتفلون يوميا بإقامة الشعائر ، ويؤلفون فرعا مميزة من رجال الدين لهم إدارة خاصة منفصلة تسمى « وعبتى » (بيت التطهير المزدوج) الذى يلحق به هؤلاء الكهنة وعلى رأسهم مدير بيت التطهير المزدوج ؛ وقد كان فى خلال الأسرة الخامسة ينتخب من بين الوزراء . وهذه الإدارة كانت تمثل الوجهين القبلى والبحرى ، وكان لها فروع يسمى كل منها « بيت » ، تحت إدارة مديرين يسمى كل منهم « إمرا وعبت » . وكان كل فرع مكلفا بضمان إقامة الشعائر فى هيكل بالقرب من هرم ، أو فى معابد الشمس الكبيرة الملكية ، وفيه موظفون مؤلفون من كتاب . وكان الكهنة المطهرون ورؤساؤهم ينتخبون من بين رجال القصر وعظماء رجال الدين فى الأسرة الرابعة ؛ أما فى الأسرة الخامسة فكان ينتخب بعضهم من بين كبار الموظفين .

الكهنة المطهرون
وكيفية انتخابهم

وأخيرا نجد نوعا من كهنة يسمى « حم كا » أى خدام الروح المادية وهم الذين كانوا يحتفلون بإقامة الشعائر الملكية فى القصر وفى معابد الأهرام ، وفى معابد الشمس ، وفى الهياكل العظيمة وكذلك فى المعابد المحلية حيث يوجد للملك مذابح . وما سبق يتضح أن الكهنة بوجه عام لم يكونوا طائفة قائمة بذاتها بل كانوا يعينون بطرق مختلفة من بين كبار رجال الدولة ولذلك نجد الألقاب الكهنوتية مختلطة بالألقاب الأخرى الحكومية .

كهنة الروح المادية
ووظائفهم

الكهنة ليسوا
طبقة معينة

(٣) الألقاب الادارية الرئيسية ، والقاب الادارة

الاقطاعية

لقد كان أهم مظاهر التجديد في الحكومة المصرية في عهد الأسرة الرابعة هو إنشاء وظيفة « وزير » . وقد كان يشغلها دائما أحد أولاد الملك الذي كان في الوقت نفسه كاهنا للإله « تحوت » وهو مع الإلهة « معات » إلهة العدل والإلهة « سشات » إلهة الإدارة ، الآلهة الرسميين الذين كان في يدهم السلطة الحكومية . وقد كان أهمهم « تحوت » إله القانون ، فكان الوزير كاهنه ، وفي الوقت نفسه رئيس الحكومة . والوزراء المعروفون في عهد الأسرة الرابعة هم « كافر » و « نفر معات » وهما ابن « سنفر » وحفيده على التوالي . ثم « حميون » بن « نفر معات » ثم « نى كا ورع » بن « خفرع » ، الخ .

الحكومة في أصل
نظامها إلهية

وقد ظن البعض أن إيمحوتب مهندس الفرعون « زوسر » كان يحمل لقب وزير ، ولكن يجب هنا أن نفرق بين اللقب والوظيفة ، فمن المحتمل جدا أن « إيمحوتب » كان يقوم بأعمال الوزير ومهامه ، ومع ذلك فإننا لا نعرف أن هذا اللقب قد منح له إلا من وثائق متأخرة ولذا يعد من الخطأ أن نعتبره أول وزير مصري ، بل على ما نعرف حسب ما جاء على الآثار هو « كافر » ثم « نفر معات » الخ والواقع أن الوزير كان الرئيس الأعلى للإدارة المصرية ، وكان لا بد له أن يدرس كل الأعمال الهامة في البلاد يساعد في عمله رئيس البعث ، وهو الذي كان يحمل أوامره ويضع أمامه كل التقارير الخاصة بمصالح المقاطعات ، وكذلك كان يشرف الوزير على السجلات الملكية التي كانت تحفظ فيها الأوراق الهامة كالمراسيم الملكية والعقود والوصايا .

« إيمحوتب » لم يكن
وزيرا للملك
« زوسر »

ومن أعمال الوزير أنه كان رئيس القضاة ، ولذلك كان هو الرئيس لمحكمة
السة العليا كما سنشرح ذلك فيما بعد . ولما كان الوزير بحكم
وظيفته يقوم بالأمر القضائي ، فإنه كان يجب أن ينسب إلى الإلهين الحاميين
للعدالة ، فكان يلقب أحيانا أعظم الخمسة القائمين على بيت « نحت » إله القانون ،
وكذلك كان يدعى كاهن إلهة العدل « معات » ، وذلك منذ ختام الأسرة
الخامسة وأخيرا كان في يد الوزير إدارة مصلحتين من أهم مصالح الدولة
وهما الخزانة ، ووزارة الزراعة اللتان سنتكلم عنهما فيما بعد . ويجب
هنا أن نلاحظ أن من بين ألقاب الوزير الرسمية الكثيرة ، عددا عظيما
لا يعتبر وظائف حقيقية يقوم بها ، ولكنها في الواقع ألقاب شرف تدل
على سلطانه العظيم في طول البلاد وعرضها . فنها أنه كان يلقب
بمدير كل أعمال الملك ، ورئيس بيت الأسلحة ورئيس حجر زينة
الملك الخ .

ومن أهم الوظائف في الدولة القديمة وظائف حاملي أختام الإله (أى
ملك الوجه القبلي) وحاملي أختام ملك الوجه البحرى . وهذه الألقاب
وجدت منذ عهد أواسط الأسرة الأولى و بقيت طوال الدولة القديمة ؛ ولكن
اللقب الثانى يظهر أنه أصبح لقب شرف أما الأول فكان له شأن عظيم .
والواقع أن هؤلاء الموظفين كانوا قبل كل شئ رؤساء بعثات . إذ كانوا
ينظمون ويديرون البعثات فى المناجم والرحلات التجارية فى الخارج ولهذا
السبب كان لديهم غالبا جنود مسلحون أو أسطول تحت إدارتهم وكانوا
يحملون أحيانا لقب قائد الجيش أو أمير الأسطول يضاف إلى ذلك أنهم
ربما كانوا يديرون الأوقاف الملكية .

أعمال الوزير

حاملو الاختام
وعملهم

(٤) طائفة الكتبة

وعلى أية حال فإن الإدارة في العصر المنفي كانت مشتقة من إدارة العصر الطيني مع فارق هو حدوث تقدم محسوس في عهد ملوك منف وذلك أمر طبعي تتطلبه سنة الرقي ، وبخاصة إذا علمنا أن مصر في عهد الدولة القديمة أصبحت من أعظم ممالك الشرق تقدماً ولذلك فإن نظام الإدارة البسيط الذي كان متبعاً في عهد ملوك الأسرتين الأوليين أصبح غير متكافئ مع مملكة قوية متحدة مثل المملكة المنفية . وربما كان هذا هو السبب في إنشاء وظيفة وزير . وزيادة عدد الموظفين ، فقد ذكرنا أنه كان بجانب مدير المصالح وكلاء وكتبه كثيرون . وكانت وظيفة الكاتب في كل عصور تاريخ مصر وظيفة مرغوباً فيها ، ولذلك كانت المدرسة عندهم تسمى « بيت الحياة » وهذا الاسم الجميل كاف في الدلالة على أهمية وظيفة الكاتب . والواقع أن الكتاب كانوا فخورين بمعلوماتهم وبخاصة أنهم كانوا يحكم عملهم واقفين على كل القرارات الهامة جداً في مصالح الحكومة العظيمة . والظاهر أن أهمية الكتاب ومقامهم في إدارة حركة مصالح الحكومة جلبتهم بألقاب خاصة ترفع من مكانتهم وتعظم من شأنهم . ولذلك نرى أن بعض الألقاب كانت تبتدىء بلقب رئيس الأسرار « حرى سشتا » وهذا اللقب يدل بطبيعة الحال على أن حامله عالم بالأسرار التي يرأسها ، ولكن مما يؤسف له أن اللقب في بعض الأحيان لم تحدد وظيفته أو السر الذي هو مشترك في كتابته . وقد وصلت إلينا من الدولة القديمة قائمة عظيمة بالألقاب موظفين يبتدىء كل منها « رئيس أسرار » وسنعطى هنا بعض الأمثلة :

أهمية وظيفة الكاتب

المدرسة تسمى
بيت الحياة

رئيس أسرار كل أوامر الملك ، رئيس أسرار كل القرارات القضائية (لمحكمة الستة العليا) ورئيس أسرار كل الأشياء التي يراها إنسان ، ورئيس أسرار الأشياء التي يستمعها رجل واحد ، ورئيس أسرار الملك في كل مكان ورئيس أسرار الكلام المقدس ، ورئيس أسرار محكمة العدل . وسنرى أن هذه الألقاب كانت لها معان خاصة في وظائف الدولة ولا يبعد أن يكون هذا اللقب (رئيس الأسرار) في الأصل نعتا يوصف به الكتبة ثم بعد ذلك عمم وأصبح يستعمل لتأليف عدة ألقاب تتميز بها ألقاب الشرف ومقدار علاقة كل لقب بالملك أو كبار رجال البلاط والدولة كما سنوضح ذلك كله في حينه .

إدارة مصالح الحكومة وتسييرها

(١) بيت الملك « برنيسوت »

وعلى الرغم من ارتباط هذه الألقاب والوظائف وإشتباك بعضها ببعض فإن الدرس الدقيق أثبت أنه كان للحكومة نظام قائم غاية في الدقة وحسن التنسيق منذ أقدم العهود . وقد كان الفضل الأول في إبراز هذا النظام الدقيق من بين آلاف الألقاب والوظائف التي ورثناها عن الدولة القديمة يرجع إلى الأستاذ « بيرن » القانوني البلجيكي وإلى بعض علماء الآثار المصرية ونحصر بالذكر منهم الأستاذ جردنر والأستاذ زيته والمرحوم الأستاذ برستد . والواقع أنه كان يوجد في عاصمة البلاد مقر رئيسى لإدارة حكومة البلاد

يسمى « بيت الملك » وهو غير القصر الملكي . « برعا » ويشمل أربع إدارات على جانب عظيم من الأهمية . وكان لكل إدارة منها فرع فى مختلف مقاطعات القطر وكان يطلق على كل منها لفظة بيت وهى :

أولاً : بيت التحريرات الملكية « برع » أو إدارة القيودات ، وهى مكلفة بتوثيق الروابط بين الإدارات الحكومية وضمان توصيل حركة نقل الأوامر ، وكان على رأسها الوزير . وقد كان هناك موظفون يحمل الواحد منهم لقب «مدير كتاب التحريرات الملكية» كالوزير نفسه، مما يدل على أن الوزير كان رئيس شرف فحسب. وكان مديرها ينتخب من بين أعضاء مجلس العشرة العظيم.

ثانياً : بيت المكاتبات أو إدارة المحفوظات . وتودع فيه العقود المسجلة

والمكلفات فى سجلات الزمامات . وكان مديرها يحمل لقب مدير كتاب السجلات (أمراش ع) . ولا شك فى أن الوزير كان مديرها كما كان مديرا للمحفوظات . والظاهر أن وظيفة بيت المحفوظات الأصلية هى نسخ كل العقود التى تحررها إدارة العقود المختومة ؛ وكذلك ضمان حفظ كل الأوراق التى تحدد حالة كل شخص وحقوقه ، وصقار كل مواطن مصرى .

ثالثاً : بيت العقود المختومة . (برخر ختم) . وينقسم إلى إدارتين

أحدهما للوجه القبلى والثانية للوجه البحرى ويديرها مدير إدارتى العقود المختومة وينتخب من بين أعضاء مجلس العشرة العظيم فى عهد الأسرة الخامسة. وهذا البيت يقابل عندنا إدارة السجلات ووظيفته تسليم العقود ونقل التكليف ، والسندات ، والوصايا ، وإعطاؤها صبغة رسمية وجعلها تأخذ صورة شرط ملكى ، وذلك بطبع خاتم الحكومة عليها ، وكذلك كانت تحافظ على نسخها فى دفاتر السجلات الخاصة بالزمامات ، هذا إلى أنها كانت

مكلفة بتسليم العقود والأوامر التي كان يجب نسخها وتسجيلها في الدفاتر إلى أصحابها.
رابعا : بيت رئيس الضرائب أو التوزيع (١) « بر حرى وزب » وهو
يكون مصلحة قائمة بذاتها من أهم مصالح الحكومة وأهم عمل لها جباية
الضرائب وسنتكلم عنها فيما يلي :

مصلحة التوزيع أو الضرائب (١) « بر حرى وزب »

وهذه المصلحة كانت تعد من أعظم مصالح الحكومة في عهد الدولة
القدية وكانت مقسمة في عهد الأسرة الخامسة إلى إدارتين ، تحت سلطان
موظف كبير يلقب مدير إدارتي التوزيع أو الضرائب . ومديرو هذه المصلحة
كانوا دائما من أعضاء المجلس التشريعي الملكي ، ومن أعضاء مجلس العشرة
العظيم . والمراسيم التي تصدر بتقرير مقدار الضرائب والقواعد التي يعمل
بها يصدرها موظف كبير إلى « رئيس الضرائب » ليقوم بتنفيذها . وهذا
الموظف الكبير ينتخب دائما من مجلس العشرة العظيم .

والواقع أن مصلحة التوزيع أو الضرائب تشمل إدارتين منفصلتين ، مهمة
إحداها جباية الأموال المستحقة على أهل المدن « رخت » والثانية لجمع ما يستحق
على الفلاح « مريت » . وقد كان هذا النظام قائما في عهد الأسرة الخامسة مما يدل
على أن سكان مصر كانوا ينقسمون إلى نوعين مميزين هما مديون وفلاحون .
والواقع أن الضرائب المصرية كانت لها صبغة مزدوجة ، فمن جهة كانت

(١) وقد فسر الأستاذ جردنر الأثرى الانجليزي العظيم لقب « حرى وزب » بأنه يدل على القائم بأعمال
القرايين الملكية وتوزيعها . والظاهر أن هذا القرب له علاقة وثيقة بالزراعة لأنه عثر على نقوش
للظيم « حنى » ويحمل لقب مدير كتاب الضياع ومدير كتاب بيت رئيس التوزيع (وزب) ولا
يعد أن يكون هنا بيت التوزيع هو ما يخزن فيه من دخل الضرائب

تفرض على كل شخص نوعا من الضرائب يشبه جزية الروس ، وهي بعض أعمال سخرة يقوم بها الشخص ، كان يعفى منها الكهنة ومن يماثلهم في عهد الأسرة الخامسة ، ومن جهة أخرى كانت هناك ضرائب تفرض على دخل التركة ، والجزية على حسب قيمة العقار .

أما مركز المولين ، ومقدار ما يدفعونه فتقرره السلطات المحلية وهم مجلس السراة وذلك بمقتضى أمر . وهذا الأمر يجب أن يكون وفقا للقانون من كل الوجوه ، حتى يكون نافذ المفعول ؛ وهذا الأمر يعرض على حاكم الجنوب . الذى يعطيه صبغة رسمية لينفذ ، بعد أن يتحقق من قانونيته ؛ وذلك بوضع خاتمه عليه . على أن الأمر لا ينتهى عند هذا الحد ، إذ بعد ذلك يسلم حاكم الجنوب هذا الأمر إلى « بيت الملك » حيث يسجله مدير العقود المحتومة حسب نوعه فى سجلات المحفوظات . وبيت الملك يحدد لكل ممول مقدار العقار الذى يدفع عليه الضرائب . متخذاً أساساً له فى ذلك دفاتر الحكومة ودفاتر الزمامات ، وذلك ليكون على تمام الأهبة إذا اقتضى الحال أى تحقيق مباشر .

كيفية وضع
الضرائب

وبعد ذلك يوضع أمر لكل ممول ، ويسلم إليه بقلم الضرائب . أما تحصيل الجزية والضرائب وأعمال السخرة فتقوم بها إدارة الضرائب التى تنقسم قسمين . الأولى إدارة التحصيل وهى التى تجمع الضرائب بالمعادن الثمينة ، أو المحاصيل الطبيعية .

أنواع الضرائب

والثانية : مكان السخرة وهو المكلف بتنفيذ أعمال السخرة . وقد كان الوزير والحكام مكلفين بوضع الشرطة ، وإذا اقتضت الأحوال ، الجيش تحت تصرف الإدارة ليضمن تطبيق الأوامر ؛ ولضمان تحصيل الضرائب بنظام .

مصلحة الحقول (الضياع)

لقد عثرنا على اسم هذه المصلحة على أختام الأسرة الثانية^(١).

وكذلك فى عهد الأسرة الثالثة وجدنا لقب « مدير الحقول » . وفى عهد الأسرة الرابعة نجد أن مصلحة الحقول كان يديرها موظف يسمى مدير كتاب الحقول . وفى عهد الأسرة الخامسة قسمت هذه المصلحة كباقي مصالح الحكومة قسمين ، وكان مديرها يلقب « بمدير كتاب الحقول فى البيتين (الإدارتين) ، وكان مدير هذه المصلحة عضوا فى مجلس العشرة العظيم . وكان تحت إدارته عدد من كبار الموظفين منهم : مدير وضياع الوجه القبلى والوجه البحرى ومدير وبيت زراع الوجهين القبلى والبحرى . ومصلحة الحقول تحتوى حينئذ على إدارتين عظيمتين ، إدارة الحقول وإدارة المستخدمين . وقد كانت كل ضيعة تحت إدارة بيت زراعة « بر سكا » المقسم إلى أربع إدارات : (١) بيت المحراث « بر شنو » وهو مكلف بإدارة الأراضى الزراعية (٢) بيت الراعى ومن اختصاصه المراعى (٣) بيت حيوانات الإنتاج (٤) بيت حيوانات الترية .

وكانت كل ضيعة مهما اتسعت مساحتها (وفى الغالب تكون صغيرة الحجم) توضع تحت إدارة مدير خاص . فمثلا نجد أن « ييبى الثانى » قد منح بمرسوم لمبعد « مين » فى قفط عقارا يبلغ نحو ثلاثة أرورا ؛ وقد أنشأ لإدارته « بيت زراعة » خاصا تحت إدارة مدير كهنة « مين » . ومما يسترعى النظر ، أن الحكومة أحيانا كانت تقسم جزءا من أراضيتها إلى مساحات صغيرة مستقلة لتستثمرها

تقسيم مصلحة
الحقول

(1) Petrie. Scar. pl. VI. No 151

مباشرة ، ومن ذلك يتضح أنها كانت تستعمل نظام المزارع الصغيرة المساحة ، التي تستوجب مصاريف كثيرة ولكنها عظيمة الإنتاج ، وذلك ما يشمر بإدارة فنية مرنة . وعلى حافة الصحراء كانت توجد مساحات من الأرض لا يغمرها الفيضان إلا نادراً ؛ وهذه الأراضي كانت تسمى «ختوشى» وكان يديرها ويرعى مصالحها موظف يسمى ختوشى أيضاً ، يظهر أنه كانت له أهمية في عهد الدولة القديمة . ويجب هنا أن نلاحظ وجود هذه الأراضي أحيانا في وسط منطقة الأهرام الملكية ، ولذلك كانت تعفى من كل أنواع الضرائب . وهذه الأراضي (ختوشى) (١) كانت تستعمل مراعى أو حدائق للبقول والخضر وكان لا يزرع فيها إلا محاصيل قصيرة الأجل . وهذه المحاصيل كانت تحتاج إلى عناية مستمرة من جهة الري .

المزارع الصغيرة

مصلحة الري

والواقع أنه كان لا بد من وجود مصلحة خاصة بأمور الري غير أننا لم نعثر على ألقاب تدل على وجود هذه المصلحة اللهم إلا لقب « رئيس بيت الماء » الذى كان يحمله « رع ور » الذى عاش في أوائل حكم الأسرة الخامسة (٢) وكذلك كان يحمله القزم « سنب » في عهد الملك « ددف رع » من الأسرة الرابعة (٣) . يضاف إلى ذلك أن « كام نفرت » الذى كان مديراً للقصر الملكى في أواسط الأسرة الخامسة ويحمل لقب رئيس تصريف المأكولات في بيت الحياة كان كذلك يحمل لقب مدير الترع .

(٣) مصلحة المالية

كانت الخزنة تتألف في بداية الأمر من البيت الأبيض (خزنة الوجه القبلى) ومن البيت الأحمر (خزنة الوجه البحرى) ولكنها اتحدت بسرعة

(1) Dykmans. Histoire Economique et Sociale de L'Ancienne Egypte, II, p. 108 - 112.

(2) Excavations at Giza Vol I P. 2

(3) Excavations at Giza Vol. II P. 105

تقسيم مصلحة المالية
قديمًا قسمن

وأصبحت واحدة وكان الاسم الذي أطلق عليها حينئذ البيت الأبيض
المزدوج؛ ومن ذلك نرى أن هذا الاسم حفظ لنا في ثناياه تقسيم
القطر قديمًا قسمن، وأظهر لنا بصورة واضحة تغلب الوجه القبلي على
الوجه البحري، وذلك لأن اسم الخزانة القديم للوجه القبلي تغلب وأصبح
مستعملًا لتكوين الأسم الجديد لهذه المصلحة. ومنذ الأسرة الخامسة كانت
الخزانة كباقي مصالح الحكومة مقسمة قسمن. وكان المدير العام للمالية
يحمل منذ ذلك العهد لقب «مدير البيت الأبيض المزدوج»، وكان
تحت إدارة الوزير مباشرة. وقد كان لهذه المصلحة فروع محلية يسمى
كل منها «البيت الأبيض» يديره مدير؛ وكان بعض الوزراء يحمل هذا اللقب
مع لقب «مدير البيت الأبيض المزدوج» للدولة؛ عامة وربما يرجع السبب في
ذلك، إلى أن اللقب الأول كان يحمله الوزير عند ما كان موظفًا صغيرًا وبقى
عالقًا به. كما حدث في بعض الحالات (١).

وكان البيت الأبيض المزدوج هو المصلحة الرئيسية لإدارة المالية ويجب
أن نعتبرها المصلحة المكلفة بحفظ المعادن الثمينة. وكل المواد غير القابلة
للغطب التي كانت تجبي بصفة ضرائب. وكذلك يظهر أنها كانت مركز
خزانة المالية والمحاسبة. والواقع أن البيت الأبيض المزدوج كان مكلفًا
بدفع المرتبات التي كانت تدفعها الحكومة للموظفين «والمقرين» من الملك
الذين كانوا يتمتعون بإقطاعات منظمة أو بإيراد هذه الإقطاعات.
والواقع أن وصية «ثنتي» تعلن صراحة أن قرابين والدتي «بي» «المعروفة لدى
الملك» وهي التي تحتوى على حبوب من «الثونة»، وملابس من البيت الأبيض.

(1) Mariette. Mastaba . D. 70, PP 370 & 220

قد استخرجها الكاهن الدائم « كام نقرت » هناك لأجل . والدتي ولأجلى (١) .
بيت الذهب « برنوب » . وفي عهد الأسرة الخامسة قد أكل نظام
الخزينة وذلك بإنشاء (بيت الذهب) حيث كان يخزن احتياطي الذهب
الحكومي . ويلاحظ أن في عهد الأسرة الرابعة كان هناك موظفون عظماء
في القصر الملكي يشغلون وظيفة بيت الذهب ومن ذلك يتضح أن « بيت
الذهب » كان يؤلف جزءاً من مصلحة خاصة بالقصر . ولكن من جهة
أخرى نلاحظ أنه في عهد الأسرة الخامسة كان مدير البيت الأبيض المزدوج
في الوقت نفسه « مديراً لبيت الذهب » ، ومن ذلك يمكننا أن نستنتج أن
« بيت الذهب المزدوج » كان ضمن مصالح المالية الرئيسية . ولا نزاع في
أن البيت الأبيض (المالية) كان له مصلحة كما كان للقصر مصلحة ؛ والظاهر
أن الذهب كانت تزداد أهميته في عهد الأسرتين الرابعة والخامسة في تكوين
مالية الحكومة . ولا يبعد أن يكون وجود هذه المصلحة دليلاً على ازدياد
مقدار الذهب الذي كان يدفع للحكومة بصفة ضرائب ، أو أن هذا الذهب
كانت الحكومة تجمعها إما باستثمار المناجم أو من الجزية التي كانت تدفعها
البلاد المشمولة بحماية مصر . وقد كان من جراء ذلك ازدياد ثراء
البلاد المنقول ، وذلك ما يبرهن على رخاء البلاد المطرد في عهد الأسرة
الرابعة ، وأكبر دليل تجلى فيه هذا المظهر المباني الفخمة التي أقيمت في عهد
الأسرتين الرابعة والخامسة ، ونمو المدن ، وبخاصة في مصر الوسطى .

أهمية الذهب في
المالية المصرية

وهذا الاحتياطي من الذهب على أي حال كان على ما يظهر من
ألزم ما يكون للبلاد لتحقيق الأعمال الضخمة التي كانت قائمة في هذا

العهد ، وهى التى كانت تحتاج إلى موارد عظيمة ، وكان لا يمكن أن يدفع أجرها بالمواد الطبيعية فحسب ؛ يضاف إلى ذلك أن مصر فى هذا العهد كان لها أسطول عظيم مصنوع من خشب الأرز الذى كان يجلب من جيل (يلو ص) منذ الأسرة الثالثة بكيات وافرة فمن المحتمل جداً أن الذهب كان يستعمل لدفع ثمنه ؛ وعلى أية حال فإن الذهب كانت له مكانة عظيمة فى الحياة الاجتماعية فى عهد الأسرة الخامسة . إذ نشاهد فى نقوش معبد الملك « سحورع » أنه كان يوزع أشياء من الذهب على موظفيه ، ولا بد من أن نرى فى منح المكافآت بهذه الطريقة نوعاً جديداً من صرف المرتبات ؛ وبخاصة أنه كان يطلق عليها لقب « توزيع الذهب » . وإذا كانت نقوش القبر الملكى تمثل الذهب وهو يوزع ، فإن هذا التوزيع كان يجرى من غير شك بطريقة منظمة قبل ذلك العهد .

توزيع الذهب
على الموظفين

إدارة (الثونة) المزدوجة

وقد كان للحكومة كذلك إدارة (شون) مزدوجة مثل إدارة بيت الذهب والبيت الأبيض . وكانت خاصة بمخزن مواد الجزية التى كانت تقدم من المحصولات الطبيعية ، ومن المحتمل أنها كانت كذلك لمخزن محاصيل أملاك الحكومة . وقد كانت وظيفة (الثونة) على الأخص تخزين الحبوب التى كانت تلعب دوراً هاماً فى حياة مصر الاقتصادية . وذلك أن الخبز كان أساس الغذاء فى مصر ، يضاف إلى ذلك أنه كان يؤلف جزءاً من مرتبات الموظفين وأجور العمال التى كانت تدفع حبوباً أو خبزاً فى

دفع الاجور عينا

عهد الدولة القديمة كما تشير إلى ذلك نقوش الموظف « متن » . ومن ذلك يلاحظ أن (الشون) كانت تحتل مكانة عظيمة في إدارة مالية البلاد . وقد كانت مصلحة (الشون) مزدوجة منذ عهد الأسرة الخامسة يديرها مدير مصلحة (الشونة) المزدوجة . وقد كانت الرئاسة العليا كما هو الحال في الخزينة وبيت الذهب ، في يد الوزير . وكذلك نجد بين مديري (الشونة) المزدوجة أعضاء من مجلس العشرة العظيم ، وحكام الجنوب . أما (شون) غلال الإدارة الحربية فكانت مستقلة . وقد كانت هناك (شون) أخرى لتموين القصر يديرها مديرو التشريفات الملكية وليس لها علاقة بالخزينة العامة .

وإدارة (الشون) تملك (شونا) عدة مقامة في مختلف المقاطعات ، كل واحدة منها تحت إدارة مدير خاص ، يساعده عدد عظيم من الكتبة والعمال ، والمثمنين كما يلاحظ ذلك من نقوش « متن » (١)

إدارة التموين

وتشتمل إدارة (الشون) على إدارة خاصة «إست زفا» تسمى إدارة التموين وهي تضمن المحافظة على المحاصيل القابلة للعطب التابعة للمالية العامة . وقد أصبحت مزدوجة في عهد الأسرة الخامسة ويديرها مدير إدارة التموين المزدوجة . وقد كان لهذه الإدارة فروع تدير المخازن المحلية يطلق على رئيس كل منها « مدير محل التموين » أما القصر فكان له كذلك إدارة

(1) Sethe Urkunden I, P. 1 etc.

للتموين خاصة تابعة للقصر الملكي مباشرة .
على أن (الشون) ومخازن التموين لم تكن مقسمة إلى إدارات محلية
فحسب بل كان يعين وظيفة كل منها إذ نجد منذ الأسر الأولى مخازن
الشعير ومخازن القمح ، وموظفين مكلفين بالمحافظة على البلح ، والعسل
والخضر . وفي مرسوم « بيبى الأول » يذكر لنا إدارة الخبز .

الجمارك والتجارة الخارجية

تدل شواهد الأحوال على أن المحصولات التي كانت تجلب إلى مصر
كان يفرض عليها ضرائب أو على الأقل كانت تحت مراقبة شديدة .
إذ نلاحظ منذ الأسر الأولى أن حامل الخاتم كان مديراً للقوافل ، وكان
على ما يظن مكلفاً بإدارة مرور القوافل التجارية ، فقد كان أهل الواحات
بصفة خاصة يحملون محاصيلهم بالقوافل إلى وادي النيل (١) .

ولما كانت الضرائب تجبي على مقدار الدخل ، فمن المحتمل أن
التجارة كان يفرض عليها جزية . وبخاصة إذا علمنا أن التجارة تلب في مصر
دورا هاما أكثر مما يمكننا أن نعرفه من النقوش الجنازية ، فقد كان الملاك
الاغنياء يصدرون الحبوب ، وكان في الدلتا عدة مدن تعد مراكز هامة
للتجارة ، واقعة عند ملتقى الطرق التي كانت تجارة الغلال تمر فيها وتربطها
بالبلاذ الأجنبية ، ولا أدل على ذلك من متن الملك « خيتي » أحد
فراعنة الأسرة التاسعة ، إذ يذكر لنا صراحة ثراء بعض المدن فيقول : أن

أهمية التجارة في
دخل البلاد

(1) Jéquier, Le Nil et la Civil. Eg. p. 261....

« أتريب » (بنها الحالية) يرجع ثراؤها إلى تجارتها في الغلال مع البلاد الأجنبية . ومع ذلك فإن البلاد في هذا العهد كانت في غاية الانحطاط^(١) وقد كانت الأساطيل المصرية تبحر إلى يלוص (جيل) في هذا العهد وكذلك كان يجلب إلى مصر الزيت من جزيرة كريت . على أن أهمية الملاحة كانت مؤكدة في البلاد ، وذلك باستمرار بناء السفن منذ الأسر الأولى .

وإذا صدقنا الأستاذ « بترى » فإن كل الصادر والوارد من التجارة كان مراقبا ، ففي البر كان يراقبه سكرتاريون يدوتون الوارد إلى موانئ الشمال وموانئ الجنوب^(٢) . وكان في الموانئ كتاب على جوانب السفن ، مكلفون بتسجيل كل ما يدخل وما يخرج ، غير أن رواية « بترى » هذه مشكوك فيها . ورغم ذلك فإنه يظهر أن بعض بعثات بحرية كانت تنظمها الحكومة ، مثل قافلة السفن العظيمة التي ذهبت إلى بلاد بنت ، وقد حفظت لنا النقوش ذكراها . فقد كان « يبي نخت » مدير القوافل في عهد « يبي الثاني » يلقب رئيس حسابات سفن يلوص (جيل) التي تذهب حتى بلاد بنت . وهذا المتن يدل صراحة على أن البعثات البحرية كانت تحت مراقبة الدولة المالية . وهناك نقش آخر على جانب عظيم من الأهمية وهو « لخنوم حتب » الذي قد مثل في قبر سيده « خوى » ويقول : أنه أنا الذي ظهرت مع أسيادى ، الأمراء وحاملى الختم المقدس ، « تيتى وخوى » في يلوص^(٣) و « بنت » إحدى عشرة مرة ، وقد عدت بهم في سلام وهذا القبر يوجد في أسوان . وتشير النقوش فيه بلا نزاع إلى أمراء الفنتين الذين كانوا مديري القوافل ، وكان الفرعون يعتمد عليهم

البعث التجارية
الى آسيا

1. J. Eg. Arc ; 1914. P 22-35.

2. Petrie. Scarabs Index. VI. Dyn. No. 1755.

3. Montet, Byblos p. 270.

في عهد الأسرة السادسة للمحافظة على سلطانه في البلاد التابعة له في الجنوب ،
ولأجل أن ينظموا البعث إلى البلاد الأجنبية . وهذه المعلومات رغم
ضآلتها ترسل بعض الضوء على العلاقات الأجنبية وبخاصة التجارة التي ربما
كانت تحت أشرف مالية البلاد .

حسابات الخزينة . ولم تكن الإدارة المالية محصورة في خزن المحاصيل
بل كان لها دفاتر حسابات منظمة تنظيما دقيقا . فلدينا صفحة من دفتر
حسابات منذ الأسرة الخامسة^(١) ويحتوي على بيان ضرائب من أنواع مختلفة من
الخبز ، والملح (الخ) يسلمها معبد ، وجرايات تعطى إلى موظفين مختلفين ،
ولا شك أن مثل هذه العمليات كانت تعمل في مخازن الحكومة وشونها .
وهذه الحسابات كانت قائمة على نظام معقول تماما . فنجد الجزء
الأول منها كان خاصا بالتحصيل . وقد وضع ذلك في أعمدة عمودية
ومجموعة في عمودين أقصيين ، واحد منها يدل على مجموع المال الذي يجب
أن يجبي والثاني على الخراج الذي أخذ وقد دون الحساب بالمداد الأسود ،
في كل ما يختص بتفاصيل الدفع أما المجاميع فقد دونت بالمداد الأحمر .
وهناك جزء آخر يدل على المنصرف ، ونجد فيه أسماء المنتفعين وأهمية
الجرايات التي تعطى . ويجوز أن الصحة بقيت لنا من دفتر حسابات
إدارة ضياع أو من مصلحة المالية نفسها . ولا شك في أنها قد سبقت علينا
فهم مقدار الدقة في مسك الدفاتر في عهد الدولة القديمة ومنها نفهم أن كل
فرد كان مفروضا عليه ضريبة معينة يدفعها للحكومة .

(١) Borchardt, Ein Rechnungsbuch. des Königlicher Hofes aus dem
alten Reiches. Ebers Festschrift Leipzig 1897.

مصلحة الاشغال العمومية

أن ما نشاهده من المباني الضخمة وقروره عن الأعمال العظيمة التي كانت تنفذ في عهد الدولة القديمة ، يشعر بوجود مصلحة خاصة للقيام بهذه الأعمال . والواقع أنه كانت توجد مصلحة للأشغال ، لها مكانة ممتازة بين مصالح الحكومة المصرية منذ بداية التاريخ في مصر ، بل هناك ما يدل على أنها كانت قائمة منذ عصر ما قبل الأسرات ، ولا أدل على ذلك من السور العظيم الذي أقيم في نخن^(١) (الكوم الأحمر) . وفي عهد الأسر الأولى نشاهد القلاع التي كانت تحيط بمصر والأسوار التي أقامها « زوسر » ، بين أسوان والفيلة ، لحماية الحدود^(٢) الجنوبية ، والأسوار التي كانت تسد خليج السويس لتقف غزوات البدو الوافدين من الشرق ؛ وكذلك إقامة المعابد والقصور والبوابات العظيمة ، هذا إلى بناء أسطول عظيم يحتوي على عدة سفن يبلغ طول الواحدة منها نحو ٥٠ متراً ، مما يحتاج إلى إدارة منظمة ودراية بفنون المباني وتنفيذ المشروعات العظيمة .

ومنذ الأسرة الرابعة أخذت أهمية الأشغال العامة تحتل مكانة أعظم مما كانت عليه من قبل ، إذ في عهدها أقيمت الأهرام الضخمة وتوابعها من معابد ومدن كما أسلفنا الكلام عنه . وكذلك اتسعت مساحة العاصمة بسرعة اتساعاً عظيماً يدل على مقداره مساحة جبانته المترامية الأطراف (هذه الجبابة تمتد من أهرام الجيزة إلى دهشور وما بعدها) .

(١) J. Eg. Arch. 1921, P. 54 etc...

(٢) Baillet. Régime Pharaonique P. 241 et 242

مصلحة الاشغال
لست مزدوجة

وفي عهد الأسرة الخامسة بدأ الملوك ينشئون معابد عظيمة للشمس
« رع » ، كل ذلك كان يستلزم نموا مطردا في مصلحة الأشغال العمومية .
ومن المدهش أن نظام الإدارة في عهد الأسرة الخامسة لم يحمل هذه
المصلحة مزدوجة كباقي مصالح الحكومة ، أى مصلحة أشغال الوجه القبلى
ومصلحة أشغال الوجه البحرى ، بل جعلها مصلحة واحدة تحت إشراف
الوزير الذى كان يحمل من بين ألقابه العدة لقب (مدير كل الأشغال
الملكية) « إمراكات نبت ن نيسوت » ، كما كان يحمل فى الوقت نفسه لقب
(مدير القيودات) « إمرا ششع نيسوت » . ولكن الواقع أن مدير مصلحة
الأشغال الفعلى كان أحد أعضاء مجلس العشرة العظيم الذى كان بدوره
تحت مراقبة الوزير . غير أن عضو مجلس العشرة العظيم للجنوب الذى
كان يشغل وظيفة مدير مصلحة الأشغال لم يكن يدير إلا شئون مصلحة
الأشغال المدنية ، وذلك لأنه كما سذكر فيما يلى كان للجيش مصلحة
للأشغال خاصة . وقد كان تحت إدارة مدير مصلحة الأشغال العمومية
مديرون آخرون يقومون بإدارة مصالح خاصة أو فروع للمصلحة الرئيسية ؛
وكان كل منهم يلقب مدير مصلحة الأشغال الملكية « إمراكات ن نيسوت » .
وأهم هذه المصالح هى مصلحة المباني التى كانت متصلة تمام الاتصال
بالمباني الجنازية للملك . ونشاهد فى الألقاب أن رئيس المماريين الملكيين
« مدح نيسوت » كان منذ الأسرة الثالثة ، من أهم شخصيات الحكومة
المصرية ، إذ كان يحمل الوزير هذا اللقب غالبا ، وكذلك كان يحمله
أولاد الملوك وأعضاء مجلس العشرة العظيم .

وعلى وجه عام كان مهندس المباني الملكى فى الوقت نفسه

يحمل لقب « مدير كل أشغال الملك » ، ولا غرابة في ذلك فإن وظيفته كانت في ترتيب المناصب الحكومية أعظم من منصب مدير كل أشغال الملك ، إذ كان يحمل قانونا لقب الشرف (السير الوحيد) ، وهذا اللقب لم يكن يلقب به « مدير كل الأشغال الملكية » قانونا .

بعوث مصلحة الأشغال
إلى المحاجر والمناجم

على أن هناك عددا من كبار الموظفين يحمل لقب مهندس معماري « مدح » وأهمهم مهندس القصر المماري « مدح ن بر عا » ومهندس السفن « مدح دبت » . والظاهر أن الأول كان تابعا لإدارة القصر ، والثاني لإدارة الجيش . ومنذ الأسرة الأولى كانت الحكومة المصرية ، ترسل البعث للمناجم سينا ؛ وقد عثر هناك على نقوش يرجع تاريخها إلى عهد الملك « سمرخت » من الأسرة الأولى ، وإلى الملك « زوسر » من الأسرة الثالثة ، وإلى الملكين « سنfro » ، « خوفو » من عهد الأسرة الرابعة ثم من عهد الملوك « سحورع » و « منكاو حور » و « زت كا إيسى » وكلهم من الأسرة الخامسة ومن عهد « يبي الأول » و « يبي الثاني » من الأسرة السادسة . وقد أرسلت حملات في عهد « يبي الأول » إلى محاجر حمامات ، كان الغرض منها البحث عن الأحجار الكريمة والذهب (حجر التوتيا الذي يستخرج منه النحاس) وأحجار البناء .

وهذه البعث كانت تديرها مصلحة الأشغال العمومية ، ففي عهد الملك « يبي » الأول قام مدير كل الأشغال الملكية بقيادة حملة إلى سينا ، لإحضار منتجات مختلفة لتستعمل في قربان الملك وإقامة شعائره ؛ وقد كان يصحبه موظفان عظيمان كل منهما يحمل لقب حامل الخاتم المقدس ، وكذلك مدير بعث لمصلحة القرايين الإلهية (١)

(١) (Br. A. R. (I), p.p. 298, 299 et 301)

وقد ذكرنا فيما سبق أن حاملي الأختام المقدسة كانوا يصحبون تأليف أعضاء البعوث البعوث البحرية إلى جيل (ييلوص) وإلى بلاد بنت لأحضر الخشب والمحاصيل الأخرى المختلفة^(١). وقد كان يصحب الحملة كتاب من إدارة القيودات « شش ع نيسوت » وقضاة ، هذا إلى تجريدة عسكرية هامة كانت تستعمل جنودها في قطع الأحجار وحراسة القافلة .

يضاف إلى ما سبق أنه كان من أعمال مصلحة الأشغال العامة ، استثمار المناجم والمحاجر ، فقد ذكرنا فيما سبق أن الملك « منكاورع » قد أهدى مقبرة إلى المقرب « دبحن » ؛ وقد أصدر جلالته الأوامر إلى مدير مصلحة الأشغال ليقطع الأحجار اللازمة لبناء هذه المقبرة من محاجر طرة . ولا بد أنه كان هناك عدد عظيم من العمال التابعين لهذه المصلحة . والواقع أن النقوش تدل على أن الجنود كانت تستعمل في قطع الأحجار ومعهم عمال ؛ ولكن لا نعلم بالضبط إذا كان هؤلاء العمال الذين يقومون بالأشغال العامة ؛ هم عمال قد استخدمتهم الحكومة لهذا الغرض أو من أسرى الحروب ولكن تدل الأحوال على أن الأسرى كانوا يستعملون في إقامة هذه المباني الضخمة وإلا ماذا كان يفعل الفرعون بهم . فقد ذكرت لنا الآثار أن « سنfro » أحضر معه من حملة واحدة أسرى يبلغ عددهم ٧٠٠٠ (٢) .

ومن الجائز كذلك أن مديري الأشغال العمومية كانوا يستعملون بعض العمال المصريين وبخاصة الذين كانوا يدفعون بدلا عن الضرائب أعمالا

(١) (Montet Byblos p. 270. Sethe Urk. (I) 134)

(٢) (Br. A. R. (I) n 146.)

أعمال السخرة يؤدونها سخرة للحكومة ، كما ذكرنا ذلك عند الكلام على مصلحة المالية .

حكومة المقاطعات

كانت مصر مقسمة إلى مقاطعات منذ فجر التاريخ كما ذكرنا ، وكان تقسيم البلاد بهذه الكيفية الأساس في إدارتها ، غير أن نظم الإدارة فيها كانت تتمشى بطبيعة الحال مع تطورات التقدم العمراني الذي يحدث في كل أمة ناشئة فتية تسير نحو الفلاح ؛ ولذلك نشاهد بعد انقضاء العهد الطيني حدوث تغير محسوس في نظام الحكم . وأول شيء يلفت النظر في المقاطعات هو ازدياد سلطان حاكم المقاطعة وذلك أمر طبعي ، إذ أعطى سلطة واسعة في عهد الفراعنة الضعفاء ، ولهذا بدأ يعمل على استقلاله من التاج . وهذه المحاولات كانت سهلة كلما كانت المقاطعة بعيدة عن العاصمة ، لأن طرق المواصلات لم تكن تسمح للسلطة الرئيسية بأن تقوم بتحقيقات مستفيضة . وقد كانت الطريقة الوحيدة عند الفرعون لتجنب استقلال حكام المقاطعات أن يعتبرهم حكاماً قابليين للنقل عدة مرات في أثناء خدمتهم ، غير أن هذا الحق لم ينفذ فعلاً . ومنذ ذلك العهد أصبح حاكم المقاطعة بمثابة موظف ثابت في مقاطعته ، ولذلك كان من الطبعي أن يفصل شيئاً فشيئاً عن التاج . وأول ظاهرة لذلك أن أخذ حاكم المقاطعة يقطع صلته بالبلاط الملكي فأصبح لا يكون جزءاً منه ، وبعد أن كان يدفن في الجبانة الملكية بالقرب من العاصمة أصبح يقيم لنفسه مصطبة في مقاطعته ليدفن فيها وحوله رجال بلاطه . ولقد كان من نتائج هذا التغير أن أصبحت

كيف استقل حكام المقاطعات

وذلك بأن يعين مديرا لأحدى المصالح الحكومية الرئيسية ثم تتوق نفسه في ختام حياته الحكومية إلى أن يكون عضواً في مجلس محكمة الستة العليا أو مستشاراً سرياً ، أو نائب الفرعون في «نخن» أو وزيراً .

أما الأمير «حاتى عا» حاكم المقاطعة فإنه لم يكن موظفاً بل كان من عليا القوم وأشرفهم ، وكان يتسلم بالوراثة حكومة مقاطعة معلومة هبة له ؛ وعلى ذلك كان أمير المقاطعة يرثها حقاً مكتسباً ، وكان من الضروري أن يكون من كبار رجال الملك حتى يتسلم إرث والده . وكان لا بد من أن يوافق الفرعون على هذا التعيين بمرسوم . وهذا المرسوم لا يشمل أمر تعيين فحسب ، بل كذلك يتضمن إطلاق يده في ريع هذه المقاطعة . وكان يقام عند صدور هذا المرسوم احتفال ، (يدشن) فيه الحاكم الجديد في حضرة أقرانه . ومنذ تلك اللحظة يصبح الحاكم الجديد مطلق التصرف في كل أمور المقاطعة ويحكم كيف شاء .

سلطة حاكم المقاطعة
الوراثية

وكان أمير المقاطعة يقسم منطقة نفوذه بين أفراد أسرته كحكام قلاع أو نواب له على أن يكون الفرعون هو الذى يصدر أمر تعيينهم . وقد أصبحت هذه الوظيفة وراثية في عهد الملك «دمزى باتوى» من أواخر ملوك الدولة القديمة .

وفي عهد الدولة القديمة كانت علاقة الملك بموظفيه في بادىء الأمر علاقة فرد يؤدي واجبه وفي مقابل ذلك كان الموظف يأخذ ما يقتات به ويحفظ كيان حياته . أما الموظفون أصحاب الكفايات فكانوا يوضعون في مناصب تليق بهم حسب أهمية كل منهم . وكان ذلك كل مكافأتهم . ولكن بعد زمن قليل أخذت محبة الملك لهم وعطفه عليهم

علاقة الفرعون
بموظفيه

يظهران بمظاهر أخرى ، وبخاصة في منحهم مكافآت جنازية . وذلك أن المصرى لما كان يعتقد أن الحياة فى الآخرة مثل الحياة الدنيا مع الفارق فى كون الثانية أبدية ، فإنه كان فى كل الأئمة يرغب فى أن يكون له قبر عظيم جميل مجهز بكل الاثاث المائى ؛ وكان الفرعون فى مثل هذه الأحوال يعطف على كبار موظفيه فيمنح الفرد منهم تابوتاً أو لوحة أو مائدة قربان . والواقع أنه كان من الصعب على موظف بسيط أن يقطع لنفسه من المحاجر النائية الكمية الكافية من الأحجار لبناء قبره ، وأن يتعهد نقلها من المحجر إلى الجبابة . فكان الملك يقوم بهذا العمل وقد كان ذلك أول عطف يظهره لخدمته . على أن الحصول على قبر جميل لم يكن كافياً بل كان من الضرورى أن يضمن صاحب المقبرة استمرار الترحم على قبره ، وإقامة الاحتفالات الخاصة به مما حتم أن يكون للقبر دخل ثابت ، جزء منه يوقف بوثيقة للمحافظة على الشعائر الدينية اللازمة لصاحب المقبرة ، والجزء الآخر كان يقسم بين الكهنة الذين يقومون بالصلاة وإقامة الشعائر الدينية اللازمة . وقد كان الملك كذلك فى هذه الناحية يعطى موظفيه « المقربين » أراضى كان القصد منها أن توقف للأغراض السابقة . وهذه المنح من الأرض كانت أحياناً عظيمة ؛ على أن الموظفين لم يكونوا هم الطائفة الوحيدة الذين كانوا يتمتعون بكرم الفرعون بل كان الكهنة كذلك يطلبون دخلاً عظيماً لمعابدهم . وكان من جراء ذلك أن الضياع الملكية أخذت فى النقصان شيئاً فشيئاً وبخاصة إذا علمنا أن معظم الأراضى التى كانت تمنح للمعابد بمراسم كانت تعفى من كل أنواع الضرائب . وهذا الانتقاص فى أملاك الفرعون كان بداية انحلال

منح الملك لموظفيه

لقب « المقرب »

سبب انحلال الدولة
القديمة

السلطة الرئيسية من يد الملك . وإذا لم تظهر بوادر هذا الانحلال بشكل خطر في خلال الأسرة الخامسة فإن الحالة أصبحت تهدد بالخطر، وإذا أضفنا إلى ذلك استقلال حكام المقاطعات الذي كان في ازدياد علمنا السبب الرئيسى الذى من أجله سقطت المملكة المنفية في نهاية الأسرة السادسة .

السلطة القضائية

العدالة تمثل على شكل
آلهة

لا نزاع في أن فكرة العدالة والحق كانت موجودة بين سكان القطر المصرى منذ أقدم العهود ، وقد كانت إلهة العدل تحمى المحاكم ، ويقوم بأداء شتماتها القضاة ، فمن ذلك يتضح أن العدالة كانت تمثل على شكل إلهة تعبد ، يضاف إلى ذلك أن المصرى كان منذ القدم يخاف عقبي الآخرة ، ويجتهد أن يعمل في دنياه ما يشعر بأنه ينتظر يوما يعاقب فيه على كل سيئة اقترفها أو ذنب ارتكبه . وقد عثرنا على وثيقة من عصر الملك « منكاورع » لأحد كبار موظفيه ورجال الدين ، نرى منها أن هذه الشخصية وقفت موقفا تبرئ فيه نفسها مما لا بد كان يرتكبه غيرها من الآثام وأنواع الظلم في هذا العصر . وهذا العظيم هو « رمنو كا » كبير كهنة الملك « منكاورع » وكبير كهنة هرمه^(١) . فهو من رجال الدين وممن يخافون الله . وقد ترك لنا عتبة باب علوية نقش عليها ما يأتى : « إن الذى يحب الملك والإله أنويس الذى على قمة جبله ، لا يأتى بأذى لمحتويات هذا القبر ، من القوم الذين سيصعدون إلى الغرب (مقر الآخرة) . أما من جهة هذا القبر الأبدى فإنى قد أقمته لأتى كنت « مقربا » لدى

(1) Sélim Hdssdn, Excavations at Giza vol II P. 173.

الناس والملك . ولم يحدث قط أنى اغتصبت أى شىء من أى إنسان لهذا القبر ، لأننى أذكر يوم الحساب فى الغرب (الآخرة) . وقد أقمت هذا

أول وثيقة تشير
بوجود الوازع
الخلقى والدينى عند
المصرى

القبر مقابل أجور من الخبز والجمعة التى أعطيتها العمال الذين أقاموه . تأمل ! لا نزاع فى أنى أعطيتهم أجورا عظيمة من السكتان الذى كانوا يطلبونه ، وقد دعوا الله لى من أجل ذلك » . وليست هناك وثيقة تدل على مقدار خوف المصرى من عقاب الدنيا وعقاب الآخرة مثل هذه . فصاحبها يقرر بأنه لم يغتصب شيئا من أى إنسان خوفا من حساب الآخرة ، وفى الوقت نفسه يشعر الأحياء بالألا يتعدوا على قبره لأنه أقامه من ماله ودفع أجورا عالية للعمال الذين أقاموه .

ولكن من سخرية القدر أنا وجدنا هذا الحجر الذى عليه هذا النقش قد اغتصب من مقبرة صاحبه ، واستعمل ثانية مع أحجار أخرى لأقامة قبر حقير بجوار قبر « رموكا » العظيم . وقد تكلمنا على اغتصاب القبور فى الجزء الأول بإسهاب (انظر صفحة ٣٤٦) .

على أنه ليست لدينا معلومات مدونة عن كيفية سير العدالة فى عهد الدولة القديمة ، وكل ما نعلمه عن سير القضاء فى مصر مشتق من الألقاب القضائية التى كان يحملها رجال الدولة ، أو مستخلص من الوصايا والعقود ، والسندات وشروط الأوقاف . ومما يؤسف له أنه لم يصلنا من الألقاب القضائية فى عهد الأسرة الرابعة إلا عدد محدود ، لم تتمكن من أن نستخلص منه الشىء الكثير .

مصادر النظام
القضائى

ففى عهد الأسرة الرابعة نلاحظ أن كل أمراء المقاطعات كانوا يحملون لقب « قاض » مضافا إلى وظيفة حاكم المقاطعة ، فكان الواحد منهم

يلقب « القاضى حاكم المقاطعة » . وقد كان ذلك سبب اختفاء لقب (حاكم القصر العظيم) « حكا حت عات » الذى كان يطلق على نائب الملك فى المقاطعة قبل ذلك العهد . والظاهر حينئذ أن السلطة التى كان يمثلها الأخير قد حل محلها لقب قاض فى اللقب الأول ؛ ومن المحتمل جدا أن « نائب القصر العظيم » كان يمثل السلطين القضائية والتنفيذية . وعلى ذلك يمكننا أن نستخلص أن « حاكم القصر العظيم » أو نائب الملك فى الأسرة الثالثة كان مثله كمثل حاكم القصر العظيم فى عهد الأسرة الخامسة يرأس محكمة المقاطعة ، وهذه النظرية لا غرابة فيها .

حاكم المقاطعة فى
يد السلطة القضائية

أما مدن الوجه البحرى التى كان لا يحكمها أمراء ، والتى كانت حكومات مستقلة تتألف كل منها من عشرة رؤساء ، فلها نظام قضاء خاص . ومهما يكن من أمر فإن إخضاع الملك « نعرمر (مينا ؟) » لهؤلاء الرؤساء وإدخال لقب (حاكم القصر العظيم) « حكا حت عات » فى نظام حكم الوجه البحرى (وقد كان يمثله نائب من قبل الملك) ، قد جعلهم تحت سلطة الملك التنفيذية والقضائية . وسنرى أن هذا الحاكم كان يعين رئيسا للحاكم المحلية . وتعدل النقوش أن « حاكم القصر العظيم » كان يحيط به موظفون من رجال السلك القضائى . فنجد من بين موظفى المقاطعة لقب (القاضى رئيس الشرطة) « ساب حرى سكر » والقاضى الجابى « ساب

نظام الحكم
فى الوجه البحرى

نخت خرو » . والواقع أن رئيس الشرطة كان رئيس قوة مسلحة ، وقد كان العظيم « متن^(١) » حارس إقليم ، وحاكم مقاطعة الحدود الغربية ، يطلق عليه لقب رئيس الشرطة أى أنه رئيس الجنود فى هذه الحكومة . وعلى

(1) Sethe, (Meten) Urk. (II) 1-17

ذلك يكون (القاضى رئيس الشرطة) قاضيا له السلطة على قوة مسلحة وهذه القوة كانت فى خدمة العدالة ويتألف منها رجال الشرطة .

وبجانب حاكم المقاطعة كان يوجد « قاضى جباية » مكلف بالفصل فى المخاصمات التى تقوم بين جابى مخازن الغلال والممولين . وكما ذكرنا يمتثل جدا أن محكمة المقاطعة كان يرأسها حاكم القصر العظيم (أى حاكم المقاطعة) . وكانت تتألف من أشرف يطلق على كل منهم لقب « سر » . وكانوا يجلسون فى المحكمة بصفتهم قضاة . وقد جادت الصدق بوثيقة من أوائل الأسرة الرابعة . عرفنا من منظورها اختصاصات هذه المحكمة وإجراءاتها^(١) .

وتتلخص هذه الوثيقة فى أن أحد رؤساء كهنة « نخب » (الكاب الحالية) وقف عينا على أغراض جنازية وجعل نظارتها إلى جماعة من الكهنة ، وقد نص فى صلب العقد على الشروط التى كانت واجبة على هؤلاء الكهنة بالنسبة لوقفه . فحدد أولا مدى الحقوق التى يجب أن تكون « للشخص المدنى » على العقار الذى سلمه إياه . ومن أجل ذلك اشترط الواقف أنه « فيما يختص بكل شئ قد تصرف فيه قبل عمل الهبة لهم (أى الكهنة) فإنه ستجرى محاكمة معهم فى المكان الذى يحاكم فيه الناس »

والمكان الذى يحاكم فيه الناس هو محكمة « السراة »^(٢) كما يقول المتن . يضاف إلى ذلك أن الواقف قد أبعد اختصاص « محكمة السراة » فيما

1. Acte de Fondation d'un dignitaire de la Cour de Khefren Rec. Tr. XIX PP. à 75-91

(٢) استعملت لفظة سراة جمع سري للدلالة على أعضاء مجلس المحكمة . وذلك لقرب اللفظة المصرية من اللفظة العربية شكلا ومعنى .

يختص بالمنازعات التي يمكن أن تحدث بين أعضاء طائفة الكهنة أى بين الشركاء أنفسهم . ولذلك يقول المتن : « كل كاهن أبدى يرفع دعوى ضد زميل له ، فلا بد للمدعى من أن يقدم ما يدل على أنه كاهن من الموقوف عليهم ، وإذا حدث أن نصيبه قد قيس ووجد أنه لا يتفق مع شكواه ، نزع من يده ، الأرض ، والناس ، وكل شيء قد أعطيته له ليقدم لى قربانا هنا . (وذلك بوساطة طائفة الكهنة التي ينتمى إليها هنا) . وهذا يكون آخر إجراء له حتى لا نرفع دعوى أمام محكمة السراة فيما يتعلق بالأرض ، والناس ، وكل شيء قد خصصته للكهنة الأبديين ليقوموا لى يعمل القربان هنا فى القبر الا زلى» .

غير أن الواقف لا يمكنه أن يمنع خصما آخر من رفع دعوى ضد الكهنة أمام محكمة السراة ولكنه مع ذلك كان يراعى عدم إلحاق أى ضرر بأوقافه . فيقول : كل كاهن يحضر أمام « السراة » لسبب آخر (فلا بد له أن يعلمهم بأنه قد حضر لسبب آخر . على أن نصيبه يكون حسب الطائفة التي ينتمى إليها ، وأن تقدر الكهنة الأرض والناس ، وكل شيء أعطيتهم إياه العمل القربان لى هنا فى القبر الذى فى جبانة « خفرع ور » ، وكل يخصه بصفة دخل له .

ومن هذه الوثيقة نرى أن محكمة السراة كانت المحكمة المختصة للفصل فى المسائل الخاصة بالعقار .

أما الإجراءات التي كانت تتبع لرفع الدعوى فكانت تنحصر فى أن يقدم المدعى عريضة « ع » يشرح فيها طلبه . وإذا كان الموضوع خاصا بعقار فإن المحكمة ترجع فى حكمها إلى الأوراق الخاصة بهذا العقار المستخرجة من مصلحة الزمامات . والواقع أننا كنا نرى الواقف يضع

الاجراءات لرفع
الدعوى

أمام المحكمة قائمة بعقاره بطريقة واضحة تفصل بين أملاكه وأملاك الكهنة الذين يدخلون في مقاضاة مدنية . ومن ذلك يتضح أن الإجراءات القضائية تركز على أساس مكتوب يحتوى على وثائق لها أصل محفوظ في السجلات ، وقد كان من حق المتخاصمين أحيانا أن يتفاديا اختصاص محكمة السراة وذلك بعمل تحكيم إذا نص على ذلك في صلب عقد الوقف كما جاء في عقد وقف « رئيس كهنة نجب » السابق الذكر إذ يقول : أن كل المحاصمات التى يمكن أن تحدث بين أعضاء الوقف تعرض على لجنة تحكيم من جماعة الكهنة الذين يمثلون هذا الوقف ؛ ويكون حكمها هو النهائى أى أنها تبعد فى هذه الحالة عن اختصاص المحاكم العادية . ومن ذلك يتضح أن القانون المصرى يجيز التحكيم ويعترف به بمثابة سلطة قضائية ، ولا نزاع فى أن الاجراءات التى شرحناها فى هذه الوثيقة كانت بطبيعة الحال تستدعى وجود مستخدمين و إدارة قضائية . ولا نذهب بعيدا فإن والد « متن » كان « موظفا قضائيا » ، وتقرأ كذلك فى عهد الأسرة الرابعة فى النقوش الألقاب الآتية : قاض كاتب « ساب سش » وقاض كاتب أول « ساب سحر سش » وقاض مدير الكتبة « ساب امرا سش » ولا نزاع فى أن لقب كاتب ؛ وكاتب أول ومدير الكتاب ، كلها تدل على درجات مختلفة يحملها موظفو الإدارة ، فنستخلص من ذلك أنه كان للعدالة مصلحة خاصة قائمة بذاتها بجانب المصالح الإدارية ويتميز موظفوها عن الأخيرة بلقب قاض قبل كل لقب إدارى كما ذكرنا .

السلطة القضائية فى عهد الأسرة الرابعة .

تدل النقوش فى عهد الأسرة الرابعة على أن لقب حاكم القصر العظيم « حكا حت عات » قد حل محله لقب إدارى آخر « مدير القصر الكبير » وسنرى عند درس الألقاب القضائية أن القصر الكبير « حت ورت »

هو المحكمة وإنه في عهد الأسرة الخامسة كانت المحكمة العليا للدولة تسمى محكمة الستة العليا « حت ورت سو » ، وهي التي حلت محل المحكمة الكبيرة ، التي كانت تعد المحكمة العليا للدولة في عهد الأسرة الرابعة ، ولم يكن الوزير رئيسها الأعلى في هذا العهد . ولكن من جهة أخرى كان في عهد الأسرة الخامسة يحمل لقب مدير محكمة الستة العليا « امرا حت ورت سو » والواقع أن الوزير رغم أنه لم يرأس أى جلسة ؛ فإنه كان القاضى الأعظم أى القاضى للباب الملكى . وهذا الباب يعلوه الصل (الثعبان) الذى يمثل به الوزير سلطته القضائية ، وهو فى الحقيقة تجديد فى عهد الأسرة الرابعة ، ويمكن تفسير ذلك بكل سهولة وذلك أننا نعرف أن اسم المحكمة « حت ورت » مؤلف من كلمة « حت » التى فى الأصل معنى قصر السيد « حكا » . وقد كانت السلطان القضائية والتنفيذية مختلطتين ببعضهما ، قبل توحيد البلاد بين أيدي الأُمراء المحليين . ولكن تجمع السلطة فى يد الملك تدريجاً جعلت محل هؤلاء الحكام ، موظفين من قبل الملك ، وبقيت فى يدهم السلطة القضائية ، غير أنهم كانوا يستعملونها بصفقتهم مثلين للملك . ومن ذلك يتضح ان السلطة القضائية انتقلت من يد الأُمراء الحكام إلى يد الملك . فكان حينئذ أعظم القضاة هو الذى يجلس فى قصر الملك نفسه . وهذا القاضى هو الوزير كما يبرهن على ذلك الباب الذى يعلوه الصل الملكى الذى مثل فى لقبه ويسميه « قاضى باب الصل » أى القاضى الملكى بكل مدلول العبارة . وتدل الألقاب التى فى متناولنا أن كلا من الوزير والمحكمة العليا « حت ورت » كان مستقلاً عن الآخر فى السلطة . فكان الوزير ينتخبه الملك ليكون ممثله المباشر وفى يده السلطة

سلطة الوزير القضائية

القضائية العليا التي كانت فوق كل المحاكم القضائية ، على أننا لا يمكننا أن نحدد اختصاصاته . ولا بد من أن نرى في هذا الإصلاح مظهراً لسياسة الملك الاستبدادية إذ الواقع إن في تعيين الملك للوزير قاضياً أعلى ، قد ألقى في يده إدارة القضاء في البلاد مباشرة .

قاضي المدنيين « ملوخيت »

يدل الدرس الدقيق على أن هذا اللقب كان يطلق على الموظف الذي كان يقود هذه الطائفة من سكان القطر ، ويتكلم بلسانهم ، ويحكمهم . و« الرخيت » هم في الأصل سكان المدن في الوجه البحري ثم عمم فيما بعد وأصبح يطلق على سكان المدن في البلاد كلها في عهد الأسرة الخامسة كما سنشرحه .

وتدل الدراسات الدقيقة في تتبع ظهور هذا اللقب على حادث من أهم حوادث سياسة تجمع السلطة في أيدي الملوك . فعلم أن الملك « نعرمر » قد أمر بقطع رقاب عشرة رجال من « متليس » ، غربي الدلتا (فوه ؟) . وكذلك منذ ذلك العهد قد عثرنا على أختام عرفنا منها أن المدن كان يحكمها حكام يطلق على كل منهم لقب « عزمر » . وفي عهد الأسرة الثالثة أصبحت مقاطعات الدلتا تحت سلطان حاكم يلقب (حاكم القصر العظيم) وحاكم الفلاحين « مريت » « حكا حت عات عز مر » .

وفي عهد الأسرة الرابعة أصبح حاكم المقاطعة « عزمر » يلقب « القاضي وحاكم المقاطعة » ، وبذلك أصبحت له سلطة قضائية على السكان الذين يحكمهم . وفي نفس العصر وكل الملك للوزير رئاسة السلطة القضائية العليا ، وأول وزير أسندت إليه الوزارة هو « كانفر ^(١) » ؛ وكان يحمل لقب

(1) Journ. Egypt. Arch. 1918 P.P. 146 etc.

« مدو - رخيت » (أى قاضى المدنيين) ، وربما كان منحه هذا اللقب دليلا على أن اختصاصه القضائى قد امتد إلى سكان المدن « رخيت » .

وفى عهد الأسرة الخامسة كان مستشارو (محكمة الستة العليا) يلقب كل منهم « مدو رخيت » . وكذلك كان يمنح هذا اللقب كل حكام المقاطعات الذين كانوا رؤساء للحاكم الإقطاعية . ومن ذلك يتضح أن السلطة القضائية التى كانت فى يد حكام المقاطعات ، وكذلك سلطة المحكمة العليا ، قد فرضت منذ ذلك العهد على سكان المدن « رخيت » ، ومنذ ذلك الوقت فقد سكان المدن امتيازاتهم القضائية التى كانوا يتمتعون بها . ولا أدل على ذلك من أنه فى عهد الأسرة الخامسة كان حكام الوجه القبلى يحملون لقب « مدو رخيت » . ويمكننا أن نستنتج أن الأسرة الخامسة قد أعادت تنظيم قانون التشريع الخاص بالسكان المدنيين الذين أصبحوا منذ ذلك العهد يلقبون فى الوجه القبلى والوجه البحرى على السواء بإسم « رخيت » . ومن المحتمل جدا أن هذا اللفظ فى معناه اللغوى الأصيل يدل على الأفراد الذين كانت تقيد أسمائهم فى قوائم خاصة .

الاصلاح التشريعى ونظام العدالة فى عهد

الاسرة الخامسة

وفى عهد الأسرة الخامسة حدث إصلاح بعيد المدى فى نظام العدالة وفى نظام السلطة التنفيذية ، إذ ظهرت محكمة جديدة تسمى محكمة الستة العليا يرأسها الوزير الذى كان وحده يلقب مدير محكمة الستة ، وبهذه الصفة كان هو القاضى الأعلى للبلاد ، ويحمل لقب « مدير كل المحاكمات »

وظيفة محكمة
الستة العليا

أى أنه كان صاحب السلطان على كل محاكم البلاد ، وأعضاء هذه المحكمة كانوا يلقبون « رؤساء أسرار » ويقومون بدور المستشارين ، وكانوا يحملون لقب « رؤساء الكلام السرى الخاص بمحكمة الستة » ، وينتخبون من بين أعضاء مجلس العشرة العظيم . وكان هناك آخرون يطلق عليهم رؤساء أسرار المحاكمة فى محكمة الستة وكلهم كذلك يحملون لقب « أعضاء مجلس العشرة العظيم » أو لقب موظف ممتاز للإدارة القضائية « ساب سحر سش » . والظاهر أن من أهم شخصيات هذه المحكمة القاضى فم « نحن » وهذا الموظف كان يحمل لقبين آخرين يحددان بالضبط أعماله ، « فهو رئيس الأسرار الذى ينطق بأحكام محكمة الستة » ، وكذلك يحمل لقب « رئيس الأسرار الذى يجلس وحده فى محكمة الستة^(١) » وتفسر لنا نقوش « ونى » هذا اللقب فيقول « ونى » : « أن جلالة قد نصبنى قاضى فم « نحن » . وقد جلست وحدى مع القاضى الأعلى فى كل الأمور السرية أعمل باسم الملك . . . فى محكمة الستة^(٢) العليا » . والواقع أن « ونى » بصفته « فم نحن » قد كلفه الملك أن يساعد الوزير وهو القاضى الأعلى فى التحقيق فى محضر مع زوجة الملك العظيمة « إمتس » فى عهد « يبي الأول » . وقد قام بهذا التحقيق وحده مع قاضى فم « نحن » . والظاهر أن الأخير كان رئيس جلسة فى محكمة الستة .

والواقع أن محكمة الستة كانت المحكمة العليا للقطر ، وكانت تحت سلطة الوزير مباشرة وقد كان له وحده الحق فى رياستها . وقد

1. Mariette. Mast. D. 56, p. 329.

2. A. R. (1) p. 30.

كانت تحتوى على جلسات مختلفة تحت رئاسة قضاة ، كل منهم يحمل لقب قاضى « فم نحن » ورؤساء الجلسات هؤلاء « سمو هايت » ، كان يحيط بهم مستشارون « حرى شتا » ، فتمهم من يلقب « رئيس الأسرار للتحقيق الحقيقى » وهم مكلفون خاصة بالتحقيق فى القضايا ، ومنهم من يلقب « رئيس أسرار الأحكام » وهم مستشارون ، وظيفتهم تنحصر فى تحضير الأحكام التى ينطق بها الرئيس . والظاهر أن القضاة المحققين كانوا يؤلفون طبقة خاصة منفصلة تمام الانفصال عن قضاة الجلسة ، فالطبقة الأولى تحقق القضايا التى يقدمها لهم قلم كتاب المحكمة ، وبعد انتهاء التحقيق تقدم القضية أمام إحدى جلسات المحكمة ، وبعد ذلك يقوم مستشارو المجلس الذى يرأسه القاضى فم « نحن » بمناقشة القضية وتحضير الحكم الذى ينطق به الرئيس .

وقد كان القاضى فم « نحن » بصفته رئيسا لمجلس منفردا فى عدة قضايا سميت فى متن « ونى » (أمور سرية) . ومن المحتمل أن هذه لم يكن فيها أى تحقيق . وكذلك تنبأ نقوش « ونى » أنه فى بعض الأحيان كان يجلس الوزير نفسه على كرسى القضاء يساعده أحد رؤساء جلسات المحكمة . وهناك قضايا خاصة فى غاية الدقة يحقق فيها الوزير مباشرة ومعه القاضى فم « نحن » . والحكم الذى ينطق به الوزير أو رؤساء الجلسات كان يدون باسم الملك^(١) كما جاء ذكر ذلك فى متن « ونى » وقد كانت محكمة الستة العليا تؤلف من بين أهم أعضاء عظماء الموظفين فى الدولة .

فكان الوزير الرئيس الأعلى ؛ أما رؤساء الجلسات فكان كل منهم

له ماض مجيد فى القضاء فمثلا نجد فى عهد الأسرة الخامسة أن كل ألقاب القاضى « فم نخن » كلها قضائية^(١). أما قضاء التحقيق فكانوا كلهم يفتخبون من بين أعضاء مجلس العشرة العظيم، على حين أن قضاء الجلسة كانوا إما من مجلس العشرة العظيم أو قضاء خدموا فى السلك القضائى ويحملون ألقابا عظيمة مثل قاض ممتاز « ساب سحرشش » .

وقد عثرنا حديثا على نقش من الدولة القديمة لموظف يحمل لقب مدير محكمة العشرة العظيمة « حت ورت مز » ولا نعلم كنه هذه المحكمة بالضبط لأن الأمثلة لدينا تنحصر فى هذا المثل الوحيد ومن المحتمل أنه كانت هناك محكمة أخرى مؤلفة من عشرة أعضاء أو عشر دوائر. ولكن على أية حال فإنها لا بد كانت مؤلفة على نمط محكمة الستة العليا .

محاكم المقاطعات « حت ورت »

من دراسة ألقاب حكام المقاطعات فى عهد الأسرة الخامسة يمكننا أن نستنتج أن كل حكام المقاطعات فى الوجه القبلى ، أو الوجه البحرى ، كانوا يرأسون محكمة المقاطعات « حت ورت » ، وهذا الإصلاح على ما يظهر قد أحدث تجديدا قانونيا عظيم الشأن ، وذلك أن الحقوق التى كان يتمتع بها سكان مدن الوجه البحرى « رخيت » إلى هذا الوقت قد اكتسب مثلها سكان مدن الوجه القبلى . ولا أدل على ذلك من أن كل حكام المقاطعات فى القطر عامة فى عهد الأسرة الخامسة كانوا يحملون لقب « مدو رخيت » قاضى المدنيين . وهذا العمل قد تم

(1.) Mariette, Mastabas, D. 56. P. 329.

توحيد القانون في كل بلاد الدولة .

ومن المحتمل جدا أن محكمة المقاطعة لم تكن إلا تغييراً شكلياً لمحكمة السراة القديمة التي كان يطلق عليها « المكان الذي يحاكم فيه الناس » . وقد تكلمنا عنها في عهد الأسرة الرابعة . والواقع أن « السراة » كانوا قد حافظوا على حقهم حتى في الأسرة السادسة على النطق بالأحكام ولكن اختصاصهم القضائي كان خاضعاً لأحكام الوزير القاضي الأعلى لمحكمة الستة العليا . وحق مراقبة الوزير أو بعبارة أخرى استئناف الوزير لأحكام محاكم السراة قد ذكره الوزير « مرا » ^(١) صراحة إذ كان يلقب « رئيس الأسرار لأحكام السراة » . ويمكننا القول بأن محكمة المقاطعة « حت ورت » كانت على شكل محكمة يرأسها حاكم المقاطعة يساعده السراة بصفتهم مستشارين .

المجلس « هاييت »

أن لفظة « هاييت » لم نثر عليها قط إلا في الألقاب القضائية فمثلاً نجد أن لقب « سمسوهاييت » أي كبير ال « هاييت » كان دائماً يطلق على القاضي فم « نمخن » رئيس الجلسة . وكذلك نجده في لقب « الناطق بالحكم في ال « هاييت » . ومن ذلك يمكننا نستخلص أن لفظة هاييت هي قاعة تجلس فيها المحكمة . وقد أخذت في الألقاب القانونية معنى مجلس المحكمة . وعلى ذلك يجوز أن المحكمة « حت ورت » كانت تشمل عدة مجالس أي عدة دوائر .

1. Gunn, Cemetery of Teti pp. 133 etc.

وفي محكمة الستة كان لقب كبير المجلس « سمسو هاييت » هو القاضى فم « نمخن » . وفي محاكم المقاطعات كان رئيس المجلس قاضيا يلقب « كبير قضاة المجلس » .

الادارة القضائية « وسخت »

يلاحظ أن الوزير كان يلقب كثيرا « خرب وسخت » أى رئيس القاعة العظيمة أو « إمرا وسخت » أى مدير القاعة العظيمة . وقد لاحظنا من جهة أخرى فى مصالح الحكومة المختلفة أن لقب « إمرا » لمدير يدير الإدارة أما « خرب » فيطلق على رئيس الموظفين ، وربما ينطبق ذلك على الإدارة القضائية « وسخت » . والواقع أن « وسخت » متصلة اتصالا مباشرا بالعدالة . فنرى فى الحقيقة أن « عنخ إرس »^(١) أحد عطاء الأسرة الخامسة كان يلقب ! مدير الأحكام فى القاعة العظيمة « وسخت » . فلا ندهش إذن إذا رأينا أن رئيس القاعة العظيمة « أى الإدارة القضائية » ، ومدير القاعة العظيمة كان إما الوزير وهو بطبيعة الحال رئيس محكمة الستة العليا أو حاكم مقاطعة أى رئيس محكمة المقاطعة . وعلى أية حال فلا يمكن توحيد محكمة الستة العليا مع القاعة العظيمة « وسخت » ، لأن كثيراً من الوزراء كانوا فى الوقت نفسه مديرين لمحكمة الستة العليا ورؤساء للقاعة العظيمة . وكذلك الحال مع حكام المقاطعات والظاهر من ذلك أن القاعة العظيمة كانت من ملحقات المحكمة وأعتقد أنها كانت مقر الإدارة القضائية بما فى ذلك الموظفون الذين كانوا يديرونها .

والواقع أن القاعة العظيمة أو الإدارة القضائية كانت تتألف من عدد عظيم من الموظفين منها رئيس كتبة الإدارة القضائية ، وكبار كتّاب . وعلى ذلك لا تكون القاعة العظيمة محكمة مؤلفة من رؤساء أسرار بل مصلحة إدارية أى مكتباً مؤلفاً من كتّاب .

وقد شرحنا فيما سلف أن المجلس الذى يصدر الأحكام كان يسمى « هايت » ، وعلى ذلك يجب أن نستنتج هنا أن المحكمة كانت تشمل المجلس « هايت » والإدارة القضائية « وسخت » .

وكان القانون فى مصر يدون فى كتب ، وهذه الكتب كانت تودع المحكمة العليا^(١) وبخاصة فى قاعة « حور » العظيمة « وسخت حر » أى « الإدارة القضائية » . ومن ذلك يمكن أن نستخلص أن قاعة « حور » العظيمة (الملك) التابعة للمحكمة العليا هى الإدارة المكلفة بتسجيل قوانين الدولة والمحافظة عليها . ولا شك فى أن قاعة « حور » العظيمة (أى الملك) كانت تابعة للمحكمة العليا . ولا نزاع أذن فى أن قاعة « حور » العظيمة كانت من أهم إدارات مصلحة الإدارة القضائية ، إذ كانت تودع فيها القوانين وتسهر على تنفيذ إدارة حور (أى الملك) ؛ ومن ذلك اشتق اسمها « قاعة حور العظيمة » أو بعبارة أخرى إدارة الملك القضائية . ومن كل ذلك يتضح أن الإدارة القضائية هى مجموع المصالح القضائية التى تؤلف ال « وسخت » ، وكان من أهم أعمالها المحافظة على القوانين والأحكام القضائية .

1. Admonitions d'un Vieux sage, dans Moret, Le Nil, p. 262

ادارة العرائض أو الشكاوى « سبر »

تشمل الإدارة القضائية إدارة قلم كتاب المحكمة ؛ وقد كانت كل قضية تقدم للمحكمة بعريضة « سبر » والموظفون المكلفون بتسليم هذه العرائض يلقبون « المشرفين على العرائض » « إرى سبر » وكانوا تحت إدارة « رئيس الكتاب ، والمشرف على العرائض » .

ويظهر أنه كان هو رئيس كتاب المحكمة . وقد كان هذا الأخير تحت السلطة العليا لرئيس المحكمة ، الذي كان في الوقت نفسه رئيسا للإدارة القضائية أى الوزير أو حاكم المقاطعة .

على أنه من المؤكد أن الوزير لم يكن هو الرئيس الفعلى للإدارة القضائية رغم أنه كان يحمل لقب رياستها اسما . وقد عثرنا على كثير من لقب « رئيس الإدارة القضائية » يحمله أحد أعضاء مجلس العشرة العظيم . والظاهر أن الوزير بصفته الرئيس الأعلى لمحكمة الستة العليا كان يساعده أحد أعضاء مجلس العشرة العظيم في إدارة قلم كتاب المحكمة والإدارة القضائية . وكذلك كان الحال مع حاكم المقاطعة فقد كان بجانبه لتسيير أعمال الإدارة القضائية في مقاطعته « موظف كبير » أو قاض مدير كتبة .

الادارة الرئيسية للعدل « حتى ورتى »

كانت مصلحة العدل كباقي مصالح الحكومة لها مركز رئيسى . فقد كان في كل مقاطعة محكمة يرأسها حاكم المقاطعة . ولكن كان يوجد في مقر الإدارة الرئيسية مصلحة قائمة بناتها مكلفة بإدارة العدالة في البلاد

قاطبة على رأسها أحد أعضاء مجلس العشرة العظيم . ولا أدل على ذلك من أن «وسركاف عنخ»^(١) كان يحمل لقب «امرا مخاوت» وهو على ما يظهر يعنى «مدير العدل» . ومن جهة أخرى نرى أن «ورخو»^(٢) الذى عاش فى عهد الملك وسركاف ، كان «رئيس كتاب ومشرفا على الشكاوى» وكان يلقب بأنه «قاض وكاتب أول للمحكمة المزدوجة» . على أنه يلاحظ منذ الأسرة الخامسة أن كل مصلحة من مصالح الحكومة مزدوجة ، أى أن السلطة الإدارية كانت تمتد على الوجهين القبلى والبحرى ولا بد لذلك من أن تكون «حتى ورقى» المحكمة المزدوجة ، وهى المقر الرئيسى لإدارة كل محاكم مصر .

قلم قضايا العدل والادارة

ذكرنا أن «متن» فى أواخر الأسرة الثالثة الذى كان يشغل وظيفة حاكم المقاطعة كان فى الوقت نفسه ، رئيس الشرطة ، وكذلك رئيس المنازعات القضائية^(٣) ؛ وقد كان من اختصاصه أن يفصل فى المنازعات التى تقوم بين الإدارة والمولين فيما يختص بحججهم عن ممتلكاتهم وضرائبهم . ومنذ الأسرة الثالثة وجد هذا النظام القضائى فى مقر حكومات المقاطعات ؛ غير أنه فى الوقت نفسه كان يشمل موظفين قضائين فى مقر الحكومة الرئيسى الذى كان يشرف عليه مجلس العشرة العظيم ، وذلك يشعر بأن المولين كان لهم الحق فى استئناف قرارات القاضى

(1) Borchardt, Grabdenkmal des konigs Neussere. pp 113-114

(2) Sethe, Urk I., 47

(3) Sethe, Urk. P, I

حاكم المقاطعة « في المنازعات ، أمام الحكومة الرئيسية . والواقع أن « ورخو » الذي كان يشغل وظيفة « رئيس كبة » وكان مشرفا على الشكاوى في المجلس العظيم ، كان في الوقت نفسه قاضيا ممتازا للحجج والضرائب ، ولذلك كان يحمل لقب « قاض ممتاز في الإدارة الرئيسية للعدل » . وعلى ذلك يمكننا أن نستخلص أنه كان هناك قضاة ممتازون ، مكرم مكاتب الإدارة الرئيسية ولهم الحكم الأخير في المنازعات الخاصة بالضرائب أو للحجج التي يقدمها الممولون وكذلك نلاحظ أن القاضي حاكم المقاطعة ، كانت في يده سلطة تأديبية ينفذها على الموظفين الذين تحت سلطته ، وقد كان ينفذ هذه العقوبات بوساطة « قاض مدير كتاب » .

ولدينا دليل مادي على ذلك في مقبرة الوزير « مرا » (١) إذ نجد منظر موظفين يقودهم رئيس الإدارة التابعين لما . ليوقع عليهم العقاب أمام « قاض مدير كبة » على ما اقترفوا من ذنوب .

النظام القضائي في عهد الأسرة الخامسة

ومن كل ما سبق يمكن أن نضع هيكلا تقريبا للنظام القضائي في البلاد في عهد الأسرة الخامسة ليمكن رجال العدل في عهدنا قرنه بنظامنا القضائي الحالي . كانت المحكمة العليا « حت ورت سو » أي محكمة الستة العليا ، يرأسها الوزير بصفته القاضي الأعلى في البلاد وتدل النقوش على أنه من المحتمل

(1) Pirenne, Institutions, Vol. III P 515-19

جدا أنها كانت تنقسم إلى ستة مجالس «هايت» كل منها يرأسه قاض «فم نحن» ، وكان يساعد الوزير ورؤساء الجلسات مستشارون «حرى شتا» ، ومن بين هؤلاء المستشارين : «مستشارو التحقيق» وكانوا ينتخبون من بين أعضاء مجلس العشرة العظيم «مستشارو الجلسة» وينتخبون من بين أعضاء مجلس العشرة العظيم ومن بين القضاة كبيرى الكتاب .

وكان فى كل مقاطعة محكمة يرأسها حاكم المقاطعة «ساب عز مر» ومن المحتمل أنها كانت تحتوى على عدة دوائر تحت رئاسة «القاضى رئيس المجلس» «ساب سمو هايت» . أما «السراة» الذين كانوا يمثلون السلطات المحلية فكانوا يجلسون فيها بصفة مستشارين .

ومن المحتمل أن هذا هو السبب فى أن كلا كان يلقب رئيس أسرار المحكمة «حرى شتا إن حت ورت» ، اللهم إلا إذا اعتبرنا رؤساء أسرار المحكمة بمثابة قضاة محترفين يساعدون «السراة» .

وكانت كل محكمة لها إدارة «وسخت» تحت إشراف مدير الإدارة القضائية «وسخت» ، وكذلك كان للإدارة رئيس «خرب وسخت» . وكان تحت يده كتاب وكبيرو كتاب، وقد كانت الإدارة القضائية «وسخت» تشمل مكتب الشكاوى^(١) «سبر» وقلم كتاب المحكمة . والأخير كان يشمل مستخدمين خصوصيين منهم المشرفون على الشكاوى «ارى سبر» ويديرهم موظف يلقب «رئيس الكتبة والمشف على الشكاوى» .

(١) لعل مكتب الشكاوى هو ما يقابل الآن قلم المحضرين ولعل قلم كتاب المحكمة هو الاصطلاح المصوب به الآن وهو ما يطلق على القلم المدنى .

إدارة المحفوظات

وكذلك تحتوى الإدارة القضائية على محفوظات مودع فيها أوراق قضائية والسجلات « مزات » التى كانت فيها على ما يظهر تنسخ الأحكام ؛ ويقوم بالمحافظة عليها موظفون لقب كل منهم « قاض مشرف على السجلات » ، « ساب ارى مزات » وقاض ممتاز مشرف على السجلات .

أما حاكم المقاطعة فكان كذلك رئيس الشرطة ، ورئيس قلم قضايا ورئيس الإدارة فى مقاطعته ، وكان ينب عنه فى هذه الإدارة موظفا قضائيا . « ساب سش »

مصلحة العدل
وتأليفها

وكانت الإدارة الرئيسية فى العاصمة تحتوى على مصلحة للعدل مهمتها إدارة محاكم كل القطر ، وهى التى يطلق عليها « حيتى ورتى » ، وهذه المصلحة تشتمل على إدارة خاصة للشكاوى تحت سلطة « رئيس كتبه ومشرف على الشكاوى » وعلى قلم قضايا يتألف من « قضاة ممتازين للمنازعات الخاصة بالحجج » « ساب سحرش ن وب ت » ، ومن قضاة ممتازين للفصل فى الضرائب « ساب سحرش ش حرى وزب » ، وكانت وظيفة هؤلاء بلا شك الفصل فى الأحكام التى قضى بها الموظفون القضائيون الذين يجلسون بجانب حاكم المقاطعة ، فيما يختص بالمنازعات القانونية .

الألقاب القضائية

ويلاحظ أن موظفى المحاكم وإدارة العدل يحملون الألقاب الآتية « ساب » قاض ، « ساب سحرش » قاض ممتاز . « ساب سش » موظف قضائى . « ساب سحرش ش » موظف قضائى ممتاز ؛ « ساب . إمرا . سش » مدير الإدارة القضائية .

الاجراءات القضائية

الظاهر أن الاجراءات التي كانت تتخذ أمام تلك المحاكم التي وصفنا نظامها فيما سبق كانت لا تختلف كثيرا عن الاجراءات التي شرحناها عند ما كان يفصل في المنازعات بالتحكيم . فقد كان المدعى يرفع دعواه أمام محكمة السراة بتقديم عريضة مكتوبة « سبر » يشرح فيها بالضبط طلبه الذي كان يتخذ أساساً للرافعة . وكانت المحكمة تحكم بمقتضى مستندات ، فإذا كان الموضوع مسألة حقوق عقارية أو أملاك فإنها ترجع إلى العقود الأصلية (وفي الموضوع الذي نحن بصدده هو عقد الأوقاف الذي يقرر حق كل من الطرفين) ؛ فإذا كان هذا العقد يظهر في صالح المدعى فالمحكمة تحكم له ، أما إذا كان الأمر على العكس فالمحكمة ترفض طلبه . ويستنتج من هذا الاجراء أنه كانت ثمة دفاتر أو سجلات لقيد التصرفات العقارية .

كيفية
رفع الدعوى

وهو نظام يقضى بإعطاء كل طرفي العقد نسخة من العقد الذي أبرم بينهما ، ومن ثم نفهم الدور الهام الذي يقوم به الكتاب المشرفون على العرائض في الاجراءات ، وقد استخلصنا كل ذلك من فحص الألقاب القضائية ، وقد أثبتنا كذلك عند تحليل عقد الأوقاف في عهد « خفرع » أن الشخص المعنوي (٢) يمكنه أن يترافع أمام المحكمة كالشخص الحقيقي ، كما يمكن لشخص ثالث أن يدخل خصما في دعوى لحفظ حقوقه ، وأخيرا وصلنا إلى أن الطرف الذي حكم لصالحه يمكنه أن يحجز على عقار الطرف المحكوم عليه .

(1) Person, Morales.

صفات المحقق
النزيه

وبردية « بريس »^(١) تثبت وجود عريضة افتتاحية لرفع دعوى ، إذ نعلم منها ، أنه بعد تقديم عريضة الدعوى ، يسأل المدعى أمام قاضى تحقيق ، ولذلك يقول الوزير « فتاح حتب » : « إذا كنت أنت الذى يتسلم الشكوى فكن هادئا عندما تسمع كلام المدعى « سبرو » ولا تعامله بقسوة (أى دعه يتكلم) حتى يفرغ قلبه ، وحتى يمكنه أن يقول لماذا قد حضر . أن المدعى يجب الذى يسمع ظلاماته ، حتى ينتهى من سرد السبب الذى من أجله حضر . أن المجلس الباش يسر القلب » ، وعلى ذلك يجب أن يكون القاضى المحقق متحليا بكثير من الفضائل حتى يودى مهمته كما يجب ؛ وهذا بلا جدال هو السبب الذى من أجله كان القضاة يعتلون المكانة الأولى فى مصر قديما ، بين موظفى الحكومة ، وقد حفظت لنا الصدف محاكمة يرجع عهدها إلى الأسرة السادسة وقد أجرى فيها تحقيق من نوع خاص قبل النطق بالحكم . وذلك يجعل أحد الطرفين يحلف اليمين ومعه كذلك ثلاثة أشخاص شهود . والموضوع أن « سبك حتب »^(٢) ادعى أن « وسر » قد أوصى له بحق الانتفاع بعقاراته ، وأنه قد نصب بوصية ليكون صاحب حق ، وأن يكون مريا لأطفاله . ومن جهة أخرى كان « تاو » ابن « وسر » الأكبر ، ينكر انكارا باتا صدور هذه الوصية من والده ، وأن الوثيقة التى يقدمها « سبك حتب » مزورة . ولما لم يكن فى وسع المحكمة أن تحصل على الوثيقة الأصلية أصدرت الحكم الآتى : قدم « سبك حتب » عقدا كتبه « المعروف لدى الملك » ،

فضية
« سبك حتب »

(1) Pap. Prisse. The Lit. of the Ancient Eg. PP. 59 - 60

(2) Sethe, Ein Processurteil aus dem alten Reich Z. A. S. LXI (1926) P.72.

مدير القافلة « امرا ع » « وسر » . وقد وكل فيه أمر زوجته وأولاده ؛ وكل عقار بيته ، ليستخدمه في حسن تربية أولاد « وسر » معاملا الكبير ، والصغير ، كل على حسب سنه ، أما « تاو » فيقول إن والده لم يكتب هذا العقد قط في أى مكان وإذا حضر « سبك حتب » ثلاثة شهود محترمين ، يمكن أن يوثق بهم على أن يحلفوا اليمين القانوني : لتكن قوتك ضده « تاو » يا الله ! لأن هذه الوثيقة حقيقية وقد عملت طبقا لما قاله « وسر » في هذا الصدد ؛ أى أن العقار يبقى في بيت « سبك حتب » ، بعد أن يكون قد قدم هؤلاء الشهود الذين قلت في حضرتهم هذه الأشياء ، وفي هذه الحلة لا يبقى عقار « وسر » معه ، بل يبقى مع ابنه (أى ابن وسر) « المعروف لدى الملك » ومدير القافلة « تاو » ونرى في هذا أن الحكم هنا كان تمهيدا . إذ في الواقع يلخص أولا طلبات الطرفين ، ثم قبل أن ينطق بالحكم أمر بعمل تحقيق .

والواقع أن هذه الوثائق المختلفة تسهل لنا وصف إجراءات محكمة السراة ؛ وذلك أن المدعى الذى يرفع دعوى « شن » يحرر شكوى « سبر » ثم يودعها قلم كتاب المحكمة حيث يتسلها المشرف على العرائض « إرى سبر » . وبعد ذلك يسلم قلم الكتاب الشكوى إلى قاضٍ يجلس بصفة قاضٍ تحقيقات ، وهو الذى بدوره يطلب حضور الطرفين ويسألها ويفحص المستندات ويسمع الشهود بعد حلف اليمين . وعلى أثر انتهاء التحقيق تعرض القضية على المحكمة ، وكل من الطرفين يقدم طلباته في ملفٍ يحتوى على نسخ العقود الأصلية التى تقرر أحقية هذه الطلبات . وإذا أمكن حكمت المحكمة حسب المستندات ، ولكن إذا لم يكن الموضوع واضحا بمقتضى المستندات

الادوار
التي تمر بالقضية

المودعة ، فيمكن للمحكمة أن تأمر بإجراء تحقيق جديد أو بسماع شهود .
وأخيرا يصدر الحكم النهائي ويحتوى على ملخص أقوال الطرفين ، وأسباب
الحكم ، ثم نص الحكم .

اختصاصات
محكمة السراة

والواقع أن اختصاصات « محكمة السراة » تمتد إلى كل مسائل العقار ،
وكذلك تشمل كافة المنازعات المدنية الأخرى والسندات ؛ فنعلم أن كل
عقود انتقال الملكية من بيع وهبة ، ووصايا كانت مسجلة ، وكذلك نعلم
أن كل المصريين كانت حالتهم المدنية مقيدة في دفاتر ، وأن سندات
العمل ، والإيجار كانت كذلك تدون . وكانت كل المنازعات الخاصة بهذه
العقود ، وكل الأحوال التى تنجم عنها كانت من اختصاص محكمة السراة .
وفى حالة عدم وجود عقد مثبت حق المدعى كانت المحكمة تقرر بطريق
الأمر ، بمقتضى شكوى من المدعى ، الحالة المدنية للمدعى والخصم الثالث .
وقد كان كذلك من اختصاصها عند تقديم شكوى من طرف ، أن
تقرر ما هى حقوق الارتفاق والالتزامات التى قيد العقار ؛ وبهذه الكيفية
نجد أن كاهن « نخب » الأعظم قد وقف ضيعة لشخص مدنى أى معنى
ليقوم بنفقات مؤسسته الجنازية . فيقول : أما فيما يختص بكل شئ ، قد حدث
فيه تصرف قبل أن أعمل لهم الهبة فستجرى محاكمة معهم « الموهوب لهم »
فى المكان الذى يحاكم فيه الناس ^(١) . والمكان الذى يحاكم فيه الناس
هو محكمة السراة كما يشير إلى ذلك عقد الوقف بصراحة ، وكذلك كان فى
يد محكمة السراة اختصاص رادع . ويثبت هذا متن من عهد الأسرة
السادسة للوزير « ييى عنخ » الذى أصبحت أسرته أمراء فى قوص فى عهد

(1) Br. A. R. (1) No. 200 & Urk (1) p p. 11-15

الملك يبي الأول ^(١) إذ يقول : « لم يقبض على قط ، ولم أحبس قط ؛ ولقد برئت تماما من كل مانسب إلى أمام محكمة السراة » ، كما أن التهمة التي وجهت لي قد وقعت على عاتق من اتهمني ، إذ عند ما طلبت من أجل ذلك أمام السراة ، ظهر أن ما قاله متهمي كان محض قذف . وقد كنت مقربا لدى الملك ولدى الآلهة . وقد بقيت كل الأشياء حسنة في يدي عند ما كنت كاهنا للإلهة « حتحور » سيدة قوص ، وحينئذ كنت أحافظ على الآلهة . ويدل المتن على أن « يبي عنخ » قد اتهم بلا شك في جريمة كان يعاقب عليها بالسجن ، لو ثبتت ضده ؛ إذ يفتر بأنه لم يسجن ؛ ونرى هنا أن محكمة السراة قد دخلت بصفة هيئة قضائية تأديبية . وأهمية هذه الوثيقة لا تنحصر في شخص ارتكب جنحة ، بل أهميتها العظمى أن « يبي عنخ » كان موظفا كبيرا أصبح فيما بعد وزيرا وأميرا لمقاطعة قوص في آن واحد . ويفهم من تاريخ خدمته أنه خلف والده في كهنة الإلهة حتحور في مقاطعته ، وأنه قد طلب أمام محكمة السراة للدفاع عن نفسه في التهمة التي وجهت إليه . ومن ذلك نعلم أن محكمة السراة كان من اختصاصها محاكمة أكبر رجال الحكومة والكهنة أنفسهم ، وأصدار الأحكام ضدهم بمقتضى القانون العام . ويؤكد ما استنتاجناه من هذا المتن ما جاء في نقوش تاريخ حياة « نزم إيب » ^(٢) رئيس الأسرار الذي عاش في عهد الملك إيسى إذ يقول : أنى لم أضرب قط منذ ولادتي أمام سرى (عضو من أعضاء المحكمة) .

(1) Blackman, The Rock Tombs of Meir, P. 25-26 Pl. IV, A,

(2) Br. A. R. (1) No 279.

استئناف
حكم محكمة
السراة

وتدل النقوش على أن أحكام محكمة السراة كان يمكن استئنافها . ولا أدل على ذلك من لقب الوزير « مرا » : « رئيس الأسرار لمحاكمات السراة » (١) وذلك يقرر أن الوزير يتصرف بحكم استئنافي للحكم الذي حكمت به محكمة السراة . ومن ذلك يمكننا أن نعتبر أن المحاكمة التي كانت تجري أمام محكمة السراة يمكن استئنافها أمام المحكمة العليا التي يرأسها الوزير .

اجراءات محكمة الستة العليا . تدل الألقاب التي يحملها موظفو محكمة الستة العليا ومحكمة السراة على أن الأجراء في كل كان واحدا . غير أن كل موظفي محكمة الستة العليا كانوا يتألفون كلهم من قضاة عظماء جدا قد حددت اختصاصاتهم على ما يظهر بكل وضوح كما أسلفنا من قبل . وعلى ذلك فإن كل طلب يقدم أمام محكمة الستة العليا كان يقدم بصفة وثيقة مكتوبة « سبر » بين يدي المشرف على الشكاوى أو في قلم كتاب المحكمة ، وبعد ذلك كان يوكل أمر التحقيق إلى مستشار محقق « حري سشتا ن مدو شتاو » . فيأخذ في فحص القضية ثم يجيئها أمام إحدى جلسات « هاييت » المحكمة . ثم بعد ذلك يسمع الرئيس « ساب را نخن » القضية يساعدته مستشاروه في الجلسة . وفي النهاية ينطق رئيس الجلسة بالحكم باسم الملك « مرن نيسوت » . وفي بعض الأحوال كان يوكل التحقيق إلى رؤساء المجلس مباشرة عند ما يكون الموضوع دقيقا .

قانونه العقوبات

أن مالدينا من الوثائق الخاصة بقانون العقوبات في عهد الدولة القديمة قليل جدا حتى الآن .

(1) Pirenne, Institutions p. 516

وقد استخلصنا من نقوش الوزير « مرا » ونقوش الأمير « يبي غنخ »
الذين تكلمنا عنهما فيما سلف أنه كان هناك عقاب بالضرب والحبس ولدينا
بعض صور في مقبرة الوزير « مرا » يظن أنها تدل على وجود المعاقبة بقطع
الرقبة غير أن هذه النظرية قد عارض في صحتها بعض علماء الآثار،^(١)
ولكن الظاهر أن هذا العقاب كان مقررا للجرائم السياسية . إذ في لوحة الملك
« نعرمر »^(٢) نشأه ممثلا وهو يعيد سلطانه على إقليم « متليس » الثائرة في غربي
الدلتا وقد قطع رؤوسا العشرة طرحهم أرضا وأذرعهم مكبله ورءوسهم
مقطوعة وموضوعة بين الفخذين . ومن جهة أخرى نشاهد على رأس دبوس
الملك « عقربا » ممثلا سكان مدن الدلتا « رخيت » وهو يخضعهم وقد ظهروا
مشنوقين في رموز مقاطعاتهم المختلفة^(٣) . ولكن خلافا لهذا الشئ السياسي لا
نعرف أن عقاب القتل كان موجودا في القانون العام . ولا يفوتنا أن نذكر ورقة
« وستكار »^(٤) التي تقص علينا أسطورة « خوفو » والسحرة ، وتشير فيها إلى مجرم
قد حبس حتى ينفذ عليه حكم الإعدام بضرب رقبته ، وكان هذا العقاب
لا بد موجوداً في مصر ولكن لا يمكننا أن نعرف في أى وقت بالضبط كان
يطبق ولا عن أى جريمة يحكم به . وكذلك نعلم من نفس الورقة أن المرأة
الزانية كان يحكم عليها بالحرق حية . حقا إن العصر الذي تحدثنا
عنه هذه الورقة هو عصر الدولة القديمة ولا بد إذن من أن يكون هذا
العقاب نافذا في هذا العصر ولكن من جهة أخرى نعلم أن القصة من أولها
إلى آخرها حديث خرافة ، هذا فضلا عن أن النسخة التي في أيدينا قد كتبت

(1) Klebbs, Reliefs des alten Reiches, P. 24.

(٢) أنظر الجزء الأول من (١٥٦)

(3) Pirenne, Institutions Vol. I. Annex. II Chap. II. & III

(4) Maspero, Conte de Cheops et des magiciens, P. 34.

محكمة المقربين^(١) مقاضاة الاشراف .

لقد تكونت في البلاد طبقة من المقربين لدى الملك وهم كهنة إقامة شعائره ، مما أوجد رابطة متبادلة بينهم وبين الملك ، وكانوا يلقبون « بالمقربين » له . وقد كان المقرب يأخذ على نفسه أن يقوم بالاحتفال بشعائر الملك وأن يكون له بمثابة الكاهن للإله . وقد كان الملك مقابل ذلك يسبغ عليه نعمة تكون إما « دخلا » أو أرضا ، ويعطيه امتياز دفن جثته في الجبانة الملكية ، وهذا الإيثار كان يكسبه مشاطرة أبدية الفرعون في مملكة الآلهة الأخيرة . وفي عهد الأسرة الخامسة أصبحت طائفة « المقربين » وراثية ، وكونوا طبقة اجتماعية جديدة قائمة بذاتها تتمتع بأحكام قانونية خاصة بهم ، أخذت تنمو بعيدة عن القانون العام بامتيازاتها الخاصة . ومنذ حكم الملك « نفرار كارع » ثالث ملوك الأسرة الخامسة ، كانت هذه الطائفة الوراثية تتمتع بمحكمة منفردة اختصاصها بالحكم في المنازعات التي يمكن أن تنتج من وظيفة المقربين ، فمن ذلك أن خرق الالتزامات التي قد تعاقد عليها « مقرب » مع كهنة وقفه ، كانت تفصل فيه هذه المحكمة الخاصة . وكان يرأس هذه المحكمة الملك نفسه ، الإله العظيم « نرعا » يحيط به مستشارون يلقبون « رؤساء أسرار التحقيق الإلهي » ، وهم مقربون عظام وكانت مأموريتهم تنحصر في مساعدة الملك عندما يحاكم أندادهم . والواقع أن هذه المحكمة وقد نشأت من إجراءات التحكيم كانت ، أحيانا توقع عقابات صارمة مستندة إلى القانون العام مما يركى إنشاءها . إذ لا نزاع في أنه كان من اختصاصها أن تنزع من المقرب الخائن كل ما يربحه من وظيفة المقرب . .

والواقع أنه بعد عهد الأسرة السادسة بقليل نجد مرسوم الملك « دمر
با تاوى » يهدد الموظفين الذين يعتدون على الضياع التى كان يملكها ال
« خنت شى » وهم أهم المقربين للملك ، بأن يحرمهم كل الامتيازات التى كان
يتمتع بها المقرب ، او ينتزع منهم أبدىا إمكان حصولهم على لقب مقرب
لدى الملك ، ويمكن القول بأن عقوبات محكمة الإله العظيم التى كانت توقعها
منذ البداية تشمل نزع ممتلكات الشخص بصفته مقربا ومنعه من الدفن فى
الجبانة الملكية (1) .

على أن كل هذا النظام القضائى العظيم أخذ يتدهور شيئا فشيئا
خلال عهد الأسرة السادسة حتى أصبح يكاد يكون منعدما ، ولم يبق أحد
بجوار الملك فى يده السلطة المدنية
متجعة إلا الوزير الذى كانت تزداد
قوته وتنمو ، ولكن كل هذه كانت
مظاهر اسمية إذ أن البلاد فى هذا العهد
كانت مقسمة إلى ولايات مستقلة
ليس للملك عليها سلطان إلا الاسم .



جزء من تمثال لقاضى يحمل قلادة وسطها
رمز آلهة العدل « معات » وكان كبير القضاة فى
مصر يلبس صورة من اللازورد تمثل الآلهة
معات « آلهة العدل » وكان من عادته أن
يدير رمز العدالة هذا نحو المحق عند النطق
بالحكم . ويوجد ثلاثة تماثيل صغيرة من هذا
النوع فى متحف برلين (2)

(1) Moret, C.R. Insc. 1914 p.p. 565...

(2) Z. A. S. Vol 56 p. 67. 68.

مصادر فصل نظام الحكم والقضاء

أن أول من بحث موضوع نظام الحكم في عهد الدولة القديمة بحق هو الأستاذ « بيرن » في كتابه المشهور :

J. Pirenne, Histoire des Institutions de l'ancienne Egypte
3 vol Bruxelles 1935.

وقد كتب قبله وبعده عدة علماء بعض مقالات متفرقة في مجلات
وكتبهما ما يأتي :-

(1) Moret, L'administration locale sous l'ancien Empire. Comptes-rendus de l'Académie des Inscriptions, Paris, 1916. P.P. 378 et suiv.

(2) Moret et Boulard. Donations et fondations en droit égyptien (Rec. Tr. XXIX pp. 57-95.)

Petrie (a) The palace titles. (Ancient Egypt. 1924, PP. 109-122).

(b) The royal officials. op. cit. 1925, pp. 11-18.

(c) Justice and revenue op. cit. 1925, pp. 45-54.

(d) The rulers op. cit. 1925, pp. 79-88.

(3) Revillout (E.) Cours de droit Egyptien, Paris, 1884.

(4) Revillout (L.) La propriété, ses démembrements, la possession et leurs transmissions en droit égyptien, comparé aux autres droits de l'antiquité Paris, 1897.

(5) Sethe (a) Ein prozessurteil aus dem alten Reiche (Z.A.S. LXI pp. 72 et suiv).

(b) Urkunden des alten Reichs 4 vol. 1932.

(c) Geschichte des Amtes im alten Reiche (Z. A. S. XXVIII pp. 43-49)

(6) Vinogradoff. (P.) Historical jurisprudence 1, Oxford 1920.

(7) Breasted. The Dawn of Conscience, New-York, 1934, (pp. 115-151).

(8) Jean Sainte Fare Garnot, L'Appel aux vivants.

وفي هذا الكتاب نجد بعض الآراء التي تخالف ما في كتاب الأستاذ « جاك بيرن » في موضوع محكمة القريين إذ يعتقد بعض العلماء أنها خاصة بالآخرة مثل الأستاذ زيتة والأستاذ جردنر ، هذا إلى أن « جردنر » مؤلف هذا الكتاب قد كتب مقالا خاصا بحث فيه هذا الموضوع تحت عنوان :

Le tribunal du Grand Dieu sous L'ancien Empire Egyptien (Revue de l'histoire des Religions 1937).

ثروة مصر الطبيعية ومنتجاتها

لقد وهبت الطبيعة أرض مصر تربة خصبة ، وجواً صالحاً ، وجبالاً زاخرة بالأحجار والمعادن ، ونهراً فياضاً يعم أرضها كل عام ، وحيواناً انتشر في أرجائها ، وطيوراً اختلفت أنواعها . كل ذلك هياً لأهل البلاد أن ينشئوا مدينة منذ أقدم العهود لم تضارعها مدينة في الشرق ، ولا في الغرب في تلك الأزمان السحيقة . وكان أول ما وجه إليه المصري هم زراعة الأرض ، وتربية الماشية؛ ثم إقامة المباني لسكنه ، واستثمار الأحجار الصلبة ، والمعادن في صناعاته ، وحرفه المختلفة التي كانت نتيجة طبيعية لتدرجه نحو الحضارة والعيشة الهنيئة . وسنتكلم عن الزراعة أولاً ، إذ هي في الواقع الأساس الأول لحياة سكان وادي النيل .

الزراعة

إن أهم ما يجب على الباحث في الزراعة عند قدماء المصريين ، أن يعرفه أولاً أنواع الأشجار ، والنباتات التي كانت تنمو في تربة البلاد ، وكذلك النباتات والأشجار التي كان يجلبها المصري من الخارج ويتفع بها في بلاده .

الأشجار الكبيرة : كان المصري منذ أقدم العهود يستعمل خشب الأشجار العظيمة في إقامة مبانيه وفي صناعاته فكان منذ فجر التاريخ وما قبله يصنع سقف مقبرته من الخشب ، كما يشاهد ذلك في سقارة ، وفي نجع الدير (1) ، وكذلك كان يستعمله في بناء السفن ، وفي الأدوات المنزلية ، غير أن مصر طوال تاريخها لم يكن لديها الخشب الكافي لسد حاجاتها ، لذلك لجأت منذ الأزمان السحيقة إلى جلب

(1) Reisner, The Early Dy. Cemeteries of Nage- el Deir Part I, t II P. 16, 19 & 22.

الأخشاب اللازمة لها من البلاد المجاورة وبخاصة من بلاد سوريا وما جاورها
وأكثر الأشجار التي وجدناها مرسومة على جدران المعابد المصرية ، والمقابر
لم يتسن تعرفها وتميزها بصفة قاطعة في كثير من الأحيان . وذلك لأنها كانت
ترسم دائماً بصورة مختصرة . وأهم ما عرف منها على وجه التأكيد ما يأتي :

السنط (*Acacia Nilotica Del*) وقد عثر على أجزاء منه في عصور ما قبل
التاريخ ، وبخاصة في البداري،⁽¹⁾ وفي العصر التاريخي من عهد الأسرة الثالثة⁽²⁾
والأسرة الخامسة ، ثم في الأسرة السادسة⁽³⁾ ، وكان يجلب من «حتوب» . وقد عثر
على رسم شجرة سنط في عهد الأسرة الثانية عشرة في مقابر بني حسن .⁽⁴⁾ وكان
خشبه يستعمل في بناء السفن الحربية ، والقوارب ؛ كما يستعمل الآن في مصر لهذا
الغرض ، وكان يجلب كذلك من بلاد « وولت » بالنوبة . كما كان زهر السنط
يدخل ضمن صناعة أكاليل الموتى ، وثماره المعروفة بالقرض كانت تستخدم في
الطب ، وبعض الصناعات الأخرى كالديباغة .

النخيل *Phoenix Dactliphere* : عثر على بقايا من جذوع النخل في
مصر منذ العصر الحجري القديم العلوي في الواحة الخارجة⁽⁵⁾ .

والواقع أنه كان يزرع في مصر منذ أقدم العهود ، وكانت تستعمل جذوعه في
السقف ، وقد عثر على سقف مقبرة من فلول النخل في سقارة ، يرجع عهدها إلى
الأسرة الثانية ، أو الثالثة⁽⁶⁾ ، وكذلك عثر على سقف من الحجر مقلدة عليه جذوع

(1) Brunton., Badarian Civil. P. 95.

(2) Br. A. R., I, P. 336.

(3) Rec. Tr. XVIII. P. 85. & Br. A. R. I, 323 & 234

(4) Beni-Hassan IV Frontspiece.

(5) Caton Thomp. & Gard. Geog. of Kharga oasis in the Geog.
Journ. IV P. 27

(6) Ex. Saq. (1912-1914) P. 21.

النخل في حفائر الجامعة بمنطقة الأهرام بالجيزة في مقبرة « رع ور » من الأسرة الخامسة ، وفي مقبرة من الأسرة الرابعة ، وفي مقبرة « فتاح حنب » بسقارة .

ونخيل الدوم (*Hyphaene thebaica* Nart) أول رسم عثر عليه لهذه النخلة وجد في مقبرة العظيم « كا إم نفرت » في عهد الدولة القديمة (1) . ولا شك أنها كانت موجودة في مصر منذ عهد ما قبل الأسرات ، إذ عثر على بذورها في مقابر البداري (2) . وفضلا عن أكل ثمار النخل والدوم ، فإن خوص أشجارها كان يستعمل في عمل السلال ، وليفها لعمل الحبال والشباك . ويلاحظ أن عمل حبال أسطول الفرعون « سحورع » (3) ، التي كان يبلغ طول الحبل منها نحو ٣٠ ذراعاً كانت تصنع من ليف النخيل ، وكان يصنع من خوص الدوم وفروعه السلال والحصير ، والأطباق ، والنعال والعصى والأقفاس .

الجميز (*Ficus sycomorus*) لا جدال في أن شجرة الجميز كانت تزرع في مصر منذ عصر ما قبل الأسرات إذ عثر على خشبها (4) في مقابر نقادة وبلاص ، وعلى ثمارها في عهد الأسرة الأولى (5) . ويوجد في المتحف المصري ستة نماذج لشجرة الجميز ، عثر عليها « ونلوك » في نماذج حدائق من عهد الأسرة الحادية عشرة (6) وكذلك عثر على قطع من خشب الجميز يرجع عهدها إلى الأسرة الخامسة وشجرة الجميز كانت تعتبر عند المصري القديم من الأشجار المقدسة (أنظر الجزء الأول ص ١٩٧) هذا فضلا عن أنه كان يعتقد أن تابوت الإله أوزير نفسه

(1) Selim Hassan, Ex. Giza, Vol II P. 136.

(2) Brunton., Badarian Civil. P 63.

(3) Borchardt, Grabden., mal des Konigs Sahure Pl 12 & 13

(4) Flinders Petrie & Quibell, Nagada & Ballas, P. 54.

(5) Petrie. Royal Tombs of the Earliest Dy. II P. 36, 38.

(6) Win'ck. Bull. Met. Museum of Art New York, II (1922) P. 26,

صنع من خشبها ؛ وكانت تظله بفيها من اليوم الرابع والعشرين من شهر كيهك⁽¹⁾ إلى نهايته ، وهذه المدة هي عيد الإله أوزير . وكان خشب الجيز يستعمل عادة لعمل تماثيل الإلهات ، ولصنع الأثاث والتوايت والتماثيل على العموم . أما ثماره فكانت تؤكل وتقدم قرايين . وتستعمل المادة التي تتقاطر من لحاء هذه الشجرة عند قطعها بمديّة في الأدوية⁽²⁾ ، وبخاصة للعين وأمراض الجلد (القوب) وكان يصنع منه نوع من الخمر يسمى⁽³⁾ نيزد التين .

ولما كان الجيز في مصر لا يتكاثر بنفسه فإن زراعته كانت تتوقف على نشاط الإنسان ، مما يدل على تعرف قدماء المصريين على طرق الإكثار الخضرى ، كما أنهم عرفوا طريقة التختين . وتوجد عينة من الجيز المختن ، وجدت بمخازن هرم «زوسر» المدرج بسقارة من عصر الأسرة الثالثة وهي محفوظة الآن بقسم الزراعة القديمة بمتحف فؤاد الأول الزراعى .

البرساء (اللبخ عند العرب) (*Mimusops Schimperii Hochst*) وكانت هذه الشجرة مقدسة للإله أوزير .

وقد عثر على فروع منها يرجع عهدها إلى الدولة الوسطى⁽⁴⁾ وكان يصنع من خشبها الأثاث وتماثيل المجاوبين ، وتؤكل فاكهتها . وهي غير اللبخ المعروف في مصر الآن . وكانت أوراقها تدخل في صناعة معظم

(1) Fêtes d'Osiris au mois de Khoiak Chap. V Rec Tr. t III P. 66.

(2) Loret, la Flore, P. 47. & Von Bissing, Gennikai.

(3) Newberry, Proc. Soc. Bib. arch. XXI P 304.

(4) Moret, Rois et Dieux d'Egypte, 2^o Ed. P. 9.

الأكاليل الجنائزية . وعثر في مقابر دير المدينة بالاقصر على طاقات كاملة من أفرع هذه الشجرة من الأسرة الثامنة عشر ووجدت ثمارها بمقبرة «توت عنخ آمون» . وقد اقترضت من مصر حوالى القرن السابع الهجرى .
شجرة النبق (Zizyphus Spina Christi) وقد عثر على فاكهتها في قبور عصر ما قبل الأسرات⁽¹⁾ ويستعمل خشبها كثيرا في التجارة المصرية حتى الآن .

شجرة الأثل (Tamarix nilotica) يوجد من هذه الشجرة أنواع عدة في مصر ؛ وقد عثر على قطع متحجرة منها في وادى قنا منذ العهد الحجري القديم ، وكذلك عثر على خشبها منذ العصر الحجري⁽²⁾ الحديث وفي البدارى⁽³⁾ ، وفي عهد ما قبل الأسرات ؛ وقد جاء ذكرها منذ عهد الأهرام⁽⁴⁾ . وقد كانت مقدسة للإله أوزير . لذلك زرعوها على بعض القبور . ولا تزال تنمو بكثرة في مصر وكان يصنع من خشبها كثير من أدوات الفلاحة .

شجرة الصفصاف (Salix safsaf Forsk) هذه الشجرة يرجع تاريخ وجودها في مصر إلى عصر ما قبل الأسرات ، إذ عثر على يد سكين من خشبها⁽⁵⁾ ، وعلى صندوق من الأسرة الثالثة وكانت أوراقها تستعمل

(1) Flinders Petrie, Prehistoric Egypt, 44.

(2) Sandford, The Pliocene & Pliostocene Deposits of Wadi Qena in Quart. J. G. S. LXXXV (1929) P. 503.

(3) Caton Th. The Neolithic Ind, of the N. Fayum Desert in Journ. Royal Anth. Inst. LVI (1926) P. 314 No. 2 & Brunton & Caton op. cit. 38 & 62.

(4) W. M. t III, P. 349.

(5) Mollers & Scharff, Das Vorgeschitliche Graberfeld Von Abusir El Meleq P 47.

فى عمل الأكاليل فى عهد الأسرة الثامنة عشرة وما بعدها . وهذه الشجرة كانت مقدسة فى دندرة ، وكان الملك يأتى فى أحد أعياد السنة المقدسة وينصب شجرة صفاف أمام الإلهة حتحور (1) ويخاطبها .

شجر المحيط : Cordia Myxa وجدت فروعه فى مقابر الأسرة الثانية عشر بطيبة كما صنعت من ثماره بعض أنواع الخمر ، واستعمل ثمره فى صيد الطيور .

أشجار التين : Ficus Carica توجد منقوشة على جدران المقابر ، وخصوصا فى بني حسن والأقصر ، وقد تسلقها القردة لقطف ثمارها .

المجلىج أو تمر العرب : Balanites aegyptiaca وجدت ثماره فى كثير من المقابر وخصوصا منذ الأسرة ١٢ وكان يستخرج منه زيت يستعمل فى التطيب ومحفوظة منه عينات بمتحف فؤاد الأول الزراعى .

وتدل الأحوال على أن صناعة التجارة لم تقدم تماما فى مصر إلا منذ كشف معدن النحاس . والآلات التى كانت تستعمل فى التجارة وجدت مرسومة على المقابر أو وجد منها نماذج صغيرة فى المقابر كالمجاميع التى عثر عليها فى سقارة فى مقبرة ابن « تى » وفى مقابر حفائر الهرم السليمة ، وهذه الآلات بعضها معروف استعماله ، وبعضها لم يعرف بعد ، وأهم ما عرف منها القدم ، والبلطة ، والمحرز ، والإزميل أو المنقار ، والأجنة ، والمطرقة والمنشار . ونشاهد صناعة الأخشاب فى مقابر الدولة القديمة فى سقارة من عهد الأسرة الخامسة . (2)

ومن أهم الأمثلة التى تبرهن على مهارة المصرى فى صناعة الخشب

(1) Bull. I. Eg. 1882. 2e Serie t. III P 68.

(2) Das Grab des Ti (Steindorff) Pls 119, 120, 132, & 133.

تمثال شيخ البلد ، ونجارة الملكة « حنب حرس » من عهد الأسرة الرابعة
فى المتحف المصرى .

الأخشاب الأجنبية

ظلت مصر منذ أقدم العصور حتى الآن فى حاجة إلى جلب الأخشاب
من البلاد المجاورة لها . وأهم البلاد التى كانت تجلب منها الأخشاب عدا
الأبانوس ؛ بلاد آشور ، وأرض الإله « البت » ، وبلاد الحثيين ،
ولبنان ، والتهرين ، وبلاد زاهى « سوريا » وفلسطين . وكل هذه البلاد
ماعداء بلاد « بت » التى كان يأتى منها خشب الابانوس ، وبعض الأخشاب
ذوات الروائح العطرية التى كانت تستعمل « بنجورا » واقعة فى غرب آسيا .
وقد ذكرت لنا المتون المصرية أنواعا عدة من الأخشاب ، والأشجار
لم يحقق منها إلا عدد يسير جدا .

وأهم الأخشاب التى جاء ذكرها فى نصوص الدولة القديمة ما يأتى : —

الأرز ، والسرو ، وشجر العرعر ، والبلوط والصنوبر .

وقد ذكر خشب الأرز فى المتون المصرية باسم « عش » . ولكن
علماء الآثار اختلفوا فى بادىء الأمر فى ترجمة هذا الاسم . فمن قائل
أنه السنط المصرى ، ومن قائل إنه اللبخ . ولكن الرأى الأخير أثبت
أنه الأرز الذى يكثر فى جبال لبنان . وقد جاء اسمه فى متون الدولة
القديمة وبخاصة فى متون الأهرام . وكانت هذه الشجرة مقدسة للإله
« أوزير » إله الموتى الذى كان ينتحب مثل صوت شجرة الأرز ، والذى كان

مختبئا في قلبها في جبال يبلوص (١) « جيل » . ورغم كل ذلك فإن الأستاذ « لوريه » يقول إنها شجرة الصنوبر ، ويقال إن خشبها يستعمل في مصر منذ عهد ما قبل الأسرات . وكان خشب الأرز يستعمل في عمل الأبواب وفي صنع أثاث المعابد ، والقصور وغيرها .

الابانوس « هبني » : وتدل النقوش على أنه كان يجلب من بلاد كوش وبلاد النوبة ، وبلاد بنت ، والممالك الجنوبية . والظاهر أنه كان لا ينمو في كل هذه الجهات ، ولكنه كان يصل إلى مصر من الجنوب فقط ، وكان يستعمل منذ عهد الأسرة الأولى (٢) ، إذ عثر على لوحة منه ، وعلى خاتم أسطوانى الشكل منه أيضاً . ولكن اسم الخشب ذكر أولاً على ما نعلم في عهد الأسرة السادسة (٣) ، وكان يستعمل في أغراض شتى كعمل الصناديق ، والتوايت وآلة الطرب (العود) . والمحاريب الصغيرة ، والتماثيل والعصى ، ولكننا لا نعرف إذا كانت هذه الأشياء صنعت في مصر أو كانت تجلب إليها من الخارج . ويقول الأستاذ لوريه أن المصريين عرفوا الابانوس عن طريق الحبشة (٤) .

البخور والروائح العطرية : مما لا جدال فيه أن البخور كان يستعمل في مصر في المعابد ، والمقابر . وقد جاء ذكر استعمال البخور في مصر في نقوش الأسرتين الخامسة والسادسة (٥) . وأهم ما كان يجلب منه إلى مصر « الكندر » ، وهو نوع من الصمغ « عنتى » لونه أبيض مائل إلى الصفرة أو أسمر ، وهو شفاف ، وأشجاره تنبت في الصومال ، وجنوبي بلاد العرب .

(1) Sethe A. Z. t XLV P. 13 & L X L VIII P. 71

(2) Flinders Petrie, Royal Tombs of the First Dy. P P. 11, 22, 40.

(3) Br. A. R. I. P 336.

(4) Agr. A. E., Hart, P 34.

(5) Frankfurt, The Cemeteries of Abydos, 1925-1926 in J. E. A., XVI 1930, P 217.

ومن أهم مواد البخور التي كانت تجلب إلى مصر المر ، واللبان الذكر . وكانت من أهم مستلزمات الطقوس الدينية كما كانت تستعمل الأصماغ والراتينجات من الأشجار الصنوبرية . وهناك نوع آخر يأتي من بلاد شرق السودان بالقرب من جلابات ، ومن البقاع المتاخمة لبلاد الحبشة . وقد ذكرت لنا المتون المصرية أنه كان يجلب من بلاد قبائل العبيد في عهد الأسرة السادسة (1) ، ومن بلاد بنت . وقد ذكر الأستاذ «نيوبري» أن اللادن كان يستعمل في مصر منذ الأسرة الأولى (2) .

النباتات ذات الالياف

كان المصري يستعمل النباتات ذات الألياف في حاجاته اليومية . وأهمها الكتان وألياف النخيل والحلفاء التي كانت تستعمل في عمل الحبال منذ أقدم العهود (3) .

الغاب أو البوص : كان يستعمل منذ الأزمان السحيقة ، وكان نباته يتخذ وهو مزهر شارة تدل على الوجه القبلي لكثرة نموه فيه . واستعمل في بناء مساكن فقراء القوم ، وكانت أزهاره تعمل طاقات منذ عهد ما قبل الاسرات ، وكان كثير الانتشار في مناقع الدلتا وعمل منه بعض الأثاث كالسلال ؛ وكذلك السهام ، وأنايب للنفخ في كور الصائغ ، واليراع المثقب ، والاقلام ، والحراب . هذا إلى أنه كانت تصنع منه قوارب صغيرة في الأعياد والاحتفالات الدينية على طراز القوارب التي كانت تصنع من البردي (4)

(1) Br. A. R. t P 336, 369.

(2) J. E. A., XV, 1929, P 94.

(3) Loret. La Flore P 106.

(4) Agr. A. E. Hart., P 41.

السعد وحب العزيز : وهما من الفصيلة البردية ، وينموان في أراضي الجزر الرملية والجهات الرطبة وهما على أنواع شتى ، ويعتقد الأستاذ شفينفورت أنه ينبت منهما في مصر ثمانية عشر نوعاً (1). والنوع المسمى حب العزيز كان ولا يزال يؤكل زيتفكه به. والسعد نبات مثلث الشكل كالبردى له رائحة طيبة ، ولذلك كان يستعمل في التحنيط ، وقد وجدت منه حبوب ترجع إلى عهد ما قبل الأسرات .

البردى Cyperus papyrus : هو النبات الدال على الوجه البحرى ، وكان يستعمل في أغراض شتى . فكان يصنع منه الورق كما سند كر بعد ، ويؤكل ويعمل من سيقانه الحصر والسلال والغرايل الخ .

البشنين Nymphaea وهو اللوتس وكان ينمو في مصر بنوعيه الأزرق N. coerulea ، والأبيض N. Lotus منذ أقدم العصور ، وكانت جذوره تؤكل على ما يظهر منذ عهد ما قبل التاريخ كما كان يصنع من بذوره نوع من الخبز . أما أزهاره فكانت تستعمل في صنع الكاليل ، والطاقت . كما كان لها المقام الأول في الحفلات والزينات (2) .

أما البشنين Nelumbium spiciosum المعروف باسم «الفول المصرى» فهو من أطف أنواع البشنين وقد أدخله الفرس في مصر حوالى سنة ٥٢٥ ق . م . وقد ذكر « هردوت » (3) أن المصريين كانوا يتزينون به . ومما هو جدير بالذكر أن زهر اللوتس على الإطلاق اتخذ محوراً للزخرفة ورمزه إلى الجمال والرقة . ولا يزال إلى يومنا هذا يتحكم في الفنون الجميلة .

النباتات الطيبة : يظهر أن المصرى منذ أقدم العهود قد برع في استعمال النباتات

(1) Illustration De la Flore d'Egypte N. 1079-1096.

(2) Agr. A. E. Hart., P 42.

(3) H. II, P 92 & W. m. t. III P 346.

للطب . ويمكن القول حسب رأى الأستاذ موريه أنه جاء فى الأوراق الطيبة أكثر من ٥٠٠ نبات استخرجت منها مواد طيبة (١).

الحبوب التى كانت تزرع فى مصر .

لما اهتدى الإنسان أول الأمر إلى النباتات الغذائية التى كانت تنبت بالطبيعة ، وعرف فائدتها ، أخذ فى زرعها وتعهدها بالرى والسماذ وأهم هذه النباتات على ما نعلم هى الحنطة وهى نبات يشبه الشعير ، ولكنه فى الواقع نوع من القمح . وقد بقى يزرع فى مصر طوال عهودها التاريخية ولعله انقرض من البلاد فى القرن الأول المسيحى ويعرف عند الفرنج باسم Emmer . وقد وجدت حبوبه فى مقابر « مرمدة » كما ذكرنا ذلك آنفاً فى عهود ما قبل التاريخ . وكذلك عثر عليه فى مقابر عصر الأسر الأولى وما بعدها . ويعزى استعماله فى الأساطير إلى الإله « أوزير » الذى يقال إنه وجد الشعير نامياً بين النباتات البرية بطريق الصدفة فدرس طبائعه (٢) ثم صنعت له أخته وزوجه إزيس منه الخبز ، ولذلك تعتبر سنابل القمح والشعير من الأشياء المقدسة التى يرمز بها لهذه الآلهة ؛ وقد وجد الشعير فى المقابر القديمة مع الحنطة منذ عصر ما قبل الأسرات ، وكذلك عثر على سنابل شعير منذ عهد الأسرة الخامسة ولكن فى حالة تحلل وقد استعمله قدماء المصريين خبزاً فى عهد بناء الأهرام ولعمل الجعة حسب رواية هردوت (٣) .

(1) Moret, L'Egypte au temps des Pharaons, 1890, P 220

(2) Deodore II P. 8.

(3) Herodote II, 77.

ورغم كل ما ذكر فإن الرسوم التي وجدناها على مقابر الدولة القديمة لم تعطينا فكرة معينة عن أنواع الحبوب ، كما أن قوائم موائد القربان لم تترجم إلى الآن ترجمة تجعلنا في مركز نحكم به على أنواع هذه الحبوب . وعلى أية حالة فإننا نعرف على وجه التقريب الحبوب الرئيسية من النماذج التي حفظت لنا في المقابر المختلفة منذ عصر ما قبل الأسرات ، وهي التي نسبها القوم كما ذكرنا للإله أوزير⁽¹⁾ وقد كشف عن نوع من القمح منذ عصر نقادة ، وهو ما تسميه النقوش

في الدولة القديمة « بدت »⁽²⁾ Triticum, Decoccum

وكذلك عثر على نوع من الشعير أطلق عليه المصري في النقوش اسم «أت»^(2bis) وهذا النوع قد حققه العالم شفينفورت تحت اسم (Hordeum Hexastichum) وقد ذكر «موتيه» نوعاً آخر يسمى «بش»⁽³⁾ يتعرفه في مقبرة « مرا » بسقارة وفي مصطبة ليدن . ويقول الأستاذ بترى أن القمح النشوى يرجع تاريخ وجوده في مصر إلى العصر الحجري الحديث ولا يزال يزرع الآن في ممالك أوربا ، وعلى حسب قول المؤرخين كان يصنع منه الخبز المصري المعتاد⁽⁴⁾ . أما الحنطة أو الجاودار (Triticum Vulgare) فتعد أنها أقدم نوع من الحبوب بذل الإنسان فيه مجهوداً لتحسينه بعد أن كان نباتاً برياً . وقد عثر على حبوبه محفوظة في الأواني وفي الإقداح وهو ما يطلق عليه في النقوش لفظة « سوت »⁽⁵⁾

أما الذرة (Sorghum Vulgare) فقد أنكر العالم شفينفورت وجود الذرة في

(1) Breasted, The Place of the Near Orient in the career of man, PP. 174.

(2) Junker Giza I, pp. 178, 246.

(3) Montet, Scène de la vie Privée, P. 200.

(4) Petrie, Descriptive Sociology Col 211 n 2,

(5) Kees Aegypten P. 32 et n 2. & Junker Giza I, P. 178.

مصر ولكن «مسبرو» يظن أنه قد عبر عنها في كلمة «ديراني» أو «دوراني» وهي المذكورة في ورقة بردى من عهد الأسرة التاسعة عشرة، وشاركه في رأيه «ولكنسون» و «إرمن» وغيرهما ممن ظنوا أنهم حققوا وجود هذا النبات على الآثار المصرية⁽¹⁾ ومهما يكن من أمر فإن زراعة الذرة في عهد الدولة القديمة لم تقم على دليل قاطع وهذا خلافاً للقمح فإن وجوده كان مميزاً في كثير من المتون، فأحياناً يذكر المتن حبوباً بيضاء وأحياناً يذكر حبوباً حمراء وفي متون أخرى نجد ذكر شعير الوجه البحرى وشعير الوجه القبلى⁽²⁾

وقد تساءل الأستاذ «إرمن» عن سبب هذه التسمية دون أن يجاب⁽³⁾ والواقع أن قمح الوجه البحرى له طابع خاص في أيامنا هذه وقمح الوجه القبلى له ميزة خاصة (قمح بحيرى، وقمح صعيدى) وربما كانت هذه التسمية جاءت عن طريق التسمية الثنائية للقطرين .

الخضر : كان المصرى منذ أقدم العهود يستعمل الخضر في طعامه لفائدتها من جهة واقتصادا في أكل اللحوم من جهة أخرى ، وكان يقدم كثيرا منها على موائد القربان التى منها تعرفنا على كثير من أنواع الخضر المصرية القديمة ، وأهمها الخس ، والبصل ، والفاقوس ، كما عرفوا الكرفس ، والحميض ، والفجل ، والكراث ، والثوم الخ .

الفول Faba Vugaris : وقد ذكر هردوت أن أكله كان محرما في بعض الجهات . وقد عثر على حبوب منه ، ولكن من عهد الأسرة الثامنة عشرة⁽⁴⁾

(1) Schweinfurth. Bull. Inst. Eg. t VII P 422.

Maspero, Histoire t I, P 66. (3) Wilkenson, Manners & Customs, t II, P 27.

Hartmann, Agriculture, P 53. (4) Kees, Aegypten, P 338 note 7 .

(2) Kees, Aegypten, p p 31, 36, n 2,40-41, 207 th 294

(3) Erman-Ranke, Aegypten P 522.

(4) Loret, la Flore Phar. II P.94

العدس *Lens esculenta* ذكر «هردوت» أنه كان يستعمل طعاماً لبناء الأهرام ، وقد عثر على إثناء فيه عدس مطبوخ في مقبرة في دراع أبو النجا بالأقصر ، وهذا الإثناء موجود الآن بمتحف القاهرة (1) .

الحمص : عرف بمصر منذ عهد الدولة القديمة . ويوجد نموذج منه من عصر الأسرة الثامنة عشرة محفوظ بقسم الزراعة القديمة بمتحف فؤاد الأول الزراعى الباميا . لم يثبت وجودها في العصر الفرعونى ، ولكنها وجدت في العصر الإغريقى الرومانى .

الفاقوس : وجد كثيرا ممثلا على موائد القربان المصرية في العهد الفرعونى (2)
البطيخ : *Citrullus Colocynthoides* Schwf. : ويقال إن رسم البطيخ شوهد على موائد القربان ، إلا أن البطيخ الذى عرف أيام الفراعنة ، يرجح أنه من النوع البرى الصغير الذى ينمو الآن في بلاد النوبة ، وشرق السودان . وربما كان هنا هو أصل الأنواع الكبيرة . وقد ذكره «أنجار» فى كتابه عن النباتات ، وكذلك «لبسيوس» ، وأعطى صورا منه منذ عهد الأسرة الخامسة (3) . وكان ورقه كذلك يوضع على تابوت المتوفى . وقد ذكر اسمه فى قصة البحار الغريق من عهد الدولة الوسطى .
الكراث : وهذا النبات الذى لا يزال يؤكل فى مصر إلى الآن كان يزرع فى مصر منذ الأسرة الخامسة على الأرجح ، إذ أن اسمه باللغة المصرية القديمة قد وجد فى تركيب اسم إحدى ضياع العظيم «تى» (4) .

(1) Bull. I. Eg. 1884. P. 7, No. 18.

(2) Agr. A. E., Hart., P. 55.

(3) Lep. Denk. II, Pl. 69 Saqqara, V th, Dyn.

(4) Loret, Rec. Tr. t. XVI, p p. 1, Sqq., t. XVII, p. 184.

الذى يرجع عهده إلى الأسرة الخامسة وقد وجد هذا الاسم ثانية في عهد الدولة الوسطى (١) .

الكرفس : عثر على حبات من بذوره محفوظة في متحف فلورنس ، وكانت أوراقه وزهوره تحمل بها الموميات . وتوجد قلادة منه من العصر الفرعوني محفوظة بقسم الزراعة القديمة بمتحف فؤاد الأول الزراعى ؛ وكان يستعمل كثيرا مادة طيبة .

الحس : وهو من النباتات ذات الأنواع العدة ، وكان يزرع في مصر منذ أقدم عهود الفراعنة . وقد مثل في سلال القرايين بورقه الأخضر . وقد عثر على حبات من بذوره ، وهي محفوظة الآن بمتحف برلين ، وكذلك بمتحف فؤاد الأول الزراعى ، وهذا النبات هو الذى يرسم أمام المعبود «مين» إله التناسل ؛ لأنه يعد من النباتات التى فيها قوة حيوية . وقد عثر على نباتات أخرى عدة بعضها على الموميات ، وبعضها ممثل على موائد القربان ، أو مذكور فى قوائمها ، وأهمها الحبيض ، والفجل (٢) والشبث وقد ذكر «بترى» فى كتابه Descriptive Sociology من ١٤٥ - ١٤٦ جدولا لكل أسماء هذه النباتات والمصادر التى استقاها منها . أما البصل فإنه رغم كثرة زراعته فى مصر فلم يظهر على موائد القربان إلا فى عهد الأسرة الخامسة (٣) . ويظهر أن المصريين كانوا يأكلونه بكيات عظيمة إذا صدقنا ما ذكره « هردوت » . (٤) وقد كان يستعمل

(1) Sphinx, t. VIII, p. 145.

(2) Agr. A. E. Hart. P. 56 op. P 57.

(3) Sphinx, t. VIII. p. 144.

(4) H. 125.

في الوصفات الطبية كثيرا لشفاء عدة أمراض . (1) ولا نزاع في أن عادة أكل البصل ، وتعليقه في عيد شم النسيم ترجع إلى عادة مصرية قديمة . وقد كان عند المصريين عيد خاص يسمى عيد « تريت » يحلى فيه جيد الناس بالبصل في ليلة العيد وذلك في ٢٥ كيهك . ويمشون وراء تماثيل الإله فتاح « سكر » .

الثوم : وكان المصري يستعمل الثوم كثيرا في أكله كما هو الحال الآن ، وفي الوصفات الطبية وقد عثر على جباته منذ عهد ما قبل الأسرات (2) على شكل نماذج من الحجر والماج ، وتوجد عينات منه طبيعية محفوظة بمتحف فؤاد الأول الزراعى .

التوابل : وتدل الكشوف الأثرية على أن المصري كان يستعمل كثيرا التوابل ، التي لم يستعملها الأوريون ؛ إلا بعد الحروب الصليبية ، عندما نقلوها معهم من الشرق . وأهم هذه النباتات هي الكزبرة (3) ، وقد وجدت ضمن مخلفات الملك « توت عنخ آمون » كما وجدت كذلك في قوائم القران منذ عهد الأسرة الخامسة مذكورة هي والكراويا .

وكذلك استعمل المصري الينسون ، والكمون الذي كان يستخرج (4) منه الزيت .

أشجار الفاكهة : كانت أشجار الحدائق ، والكروم تزرع في مصر منذ أقدم العهود . ونخص بالذكر منها أولا . الكرم (العنب) وقد عثر

(1) Rec. Tr. XVI, p. 101. & Egyptian Religion, 1933, p. 52 etc.

(2) Petrie, Prehis. Egy. Pl. 46 No. 24 and Ayrton, & Loat, Predyn. cemetery at El Mahasna, 1911, p. 17.

(3) Louvre, Bas Relief, B. 49. V. Dyn.

(4) La Flore, p. 57 & 415.

على رسم عصارة نبيذ العنب من عهد الأسرة الأولى (1) . وكذلك عثر على أواني نبيذ ترجع إلى هذا العهد ، ولكن أول ما ذكر اسم العنب بالمصرية ، كان في الأسرة الثالثة (2) في تاريخ حياة « متن » (ص ١١ الجزء الأول) وما كان له من الكروم العظيمة المساحة ؛ وكان النبيذ يستعمل قربانا إلهيا ، في قرابين المساء ، وفي قرابين الأعياد ؛ والقرابين المأتمية ، كما كان يؤخذ شرابا ويحصل ضريبة . ومناظر جمع العنب ودهسه بالأرجل ، أو عصره تشاهد على جدران مقابر عصور مصر المختلفة منذ الأسر الرابعة والخامسة (3) والسادسة (4) ، وقد كانت عملية عصر العنب في غاية من البساطة ، والظاهر أن لون النبيذ كان أحيانا أسود ، وأحيانا أبيض ، وربما كان ذلك هو السبب الذي دعا الأستاذ « إرمن » ؛ إلى أن يقول بوجود صنفين من النبيذ الأبيض ، والأسود (5) في عهد الدولة القديمة .

ومن المرجح أنه كان يسود في العصور الفرعونية ، العنب الأحمر القاتم لأن معظم الثمار التي وجدت كانت بيضية الشكل ، ذات لون أحمر قاتم . قرية الشبه من الصنف الذي يزرع في مصر العليا ، والفيوم الآن . ويوجد نموذج من الزبيب (من النوع الأسود) محفوظ بقسم الزراعة القديمة بمتحف فؤاد الأول الزراعى . يرجع عهده للأسرة الثامنة عشرة عثر عليه في مقابر دير المدينة بالاقصر .

(1) Flinders Petrie, Social life, p. 102, 135.

(2) Br. A. R., I, P. 173.

(3) Davies, Ptah hotep at Sakkara, I, P. XXIII.

(4) The Tomb of Meruka (Mera).

(5) Erman, Life in Anc. Egy. 1894, p. 196.

وبهذه المناسبة نذكر أنه كان يستخرج من نخيل البلح نوع من الخمر، ذكر منذ عهد الأسرة السادسة في متون الأهرام. (1) وهذا يختلف عن النبيذ الذي كان يستخرج من البلح منذ الأسرة السادسة (2) أيضا، وهو المعروف الآن بالمرقي .

الزمان : وجد اسمه في اللغة المصرية « زمن » غير أن أقدم رسم له كان في عهد اخناتون (3) ؛ وكانت منتجاته كثيرة . أما النبيذ الذي كان يستخرج منه فلم يذكر إلا في المصور (4) المتأخرة ..

زراعة نباتات الالياف

الكتان : هو النبات الوحيد ، الذي استعملت أليافه في صناعة النسيج ، طوال عصور مصر الفرعونية ؛ للاعتقاد السائد وقتئذ بأن « أوزير » كفن في الكتان بعد موته . وتدل بقايا الأقمشة التي عثر عليها منذ عصر البداري ، على أن صناعة نسيج الكتان كانت منتشرة في مصر منذ أقدم عهودها ، وبخاصة عند ما نعلم أن الأستاذ « ينكر » عثر في مقابر مرمدة (بني سلامة) على قطع من غزل الكتان أقدم مما وجد في البداري (5) وكذلك عثر على أقمشة من العهد الحجري الحديث في الفيوم (6) . ولا

(1) F. F. Bruijning, The Tree of the Herakleopolite Nome in Anc. Eg. 1922, p. 1-8.

(2) Lucas, Ancient Egyptian Materials, p 22.

(3) Petrie, Tell-el Amarna, Pl. 32.

(4) Hunt. The Oxyrhynchus Pap. VIII, P. 241.

(5) Badarian Civil. Brunton, P. 46-7.

(6) Caton Thompson The Neolithic Ind. of the N. Fayum Desert, in Jour. Royal. anth. Inst. LVI, (1926) P. 315.

نزاع إذن في أن الغزل والنسيج كانا من أقدم الحرف في مصر. ولكن تمثيل هذه الصناعات لم يعثر عليه منقوشاً إلا في عهد الأسرة الثانية عشرة في مقابر بني حسن ، حيث مثلت الأدوار التي تمر على النبات من تعطين ، ودق ، وتمشيط ، وغزل ، ونسيج . هذا إلى أنه كشف عن نماذج لنساء يشتغلن بالغزل والنسيج في مقابر الأسرة الحادية عشرة في طية وهذه النماذج محفوظة الآن في متحف القاهرة (1)

وتدل البذور الكثيرة التي عثر عليها في المقابر المصرية على أنه كان هناك نوع خاص من الكتان يختلف عن النوع الذي يزرع في البلاد الآن (2). وقد تكلم مؤرخو اليونان عن نسيج الكتان المصري ودقة صنعه ، وخصوا نوعاً منه دقيقاً جداً حتى أنهم قالوا إنه نسيج بالهواء ويطلق عليه اسم Byssus (3) ، ويعتقد الأستاذ « لوريه » أن هذه اللفظة تقابل في اللغة المصرية القديمة كلمة « نيسوت » ، أي ملكي للدلالة على أوفر نوع من نسيج الكتان (4)

زراعة القطن ، واستعماله في مصر (5) : لقد تضاربت الأقوال ؛ والآراء في موضوع استعمال القطن في مصر ؛ ومعرفة المصريين له ؛ فمن ذلك أن « روزليني » يقول بوجود بذور هذا النبات في مقابر المصريين القدماء (6) . وكذلك عثر على بعض أكفان فحست ويقال إنها

(1) H. E. Winlock, The Egy. Exp. 1918-1920, In Bull. Met. Mus. of Art New-York, 1920, P. 22.

(2) Bull. I. Egy., 1884, P. 5.

(3) Décret de Canope, Ligne 17.

(4) Loret, L'Egypte au temps des Pharaons, P. 178.

(5) Griffith & Crowfoot. On the Early use of Cotton in the Nile Valley in J. E. A. XI, 1934, P. 5-12.

(6) Rosellini, Mon. Civ. t. I, P. 60. Monum. della Egizia P. 2.

مصنوعة من القطن ؛ يد أنه لم نثر على وثائق حتى عصر الرومان تدل على صناعة القطن في مصر أو زرعه فيها . غير أن الأستاذ « ريزنر » اكتشف قطع نسيج قطنية من العهد الإغريقي الروماني في السودان في بلدة « مرو » (1) وكذلك ذكر لنا « هردوت » الذي عاش في القرن السادس قبل الميلاد (٥٦٩ - ٥٢٥ . ق . م) أن « أحسن » أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين أهدى قميصين من القطن (2) . وكذلك ذكر لنا « بليني » الذي عاش في العصر الأول بعد الميلاد ؛ أن الجزء العلوي من مصر المجاور لبلاد العرب كان يزرع نباتا يسمى *Gossypium* ؛ وأن أحسن ملابس يلبسها الكهنة كانت من قنابل هذا النبات (3) ؛ غير أن كلام « بليني » لا يعتمد عليه كثيراً . ويمكن القول بأن القطن لم يعرف في مصر الفرعونية .

النباتات التي تستعمل في الصباغة : أهم النباتات التي كانت تستخرج منها الأصباغ في مصر هي النيلة ، والمصفر المستخرج من زهر القرطم وقد عثر على اسمه منذ عهد الملك « تيتي » في الأسرة السادسة كما ذكر الأستاذ « لوريه » ؛ وكان يزرع (4) في حقول القمح ؛ وكذلك الحناء (5)

شجرة الزيتون وزيتها : كان أول من عثر على اسم شجرة الزيتون في المتون المصرية هو « نيوبري » في متون الأسرة الثالثة (6) . غير

(1) Loret, la Flore, P. 105.

(2) E. Massey, A note on the early history of cotton in Sudan. Notes and records, VI, (1923) P. 231-3.

(3) H., t. III, P. 47.

(4) Rec. Tr. t. XVI, p. 1

(5) Agr. A. E. Hart, p. 64 .

(6) Meidum, pl. 13, col. I .

أن اسم زيت الزيتون لم يعثر عليه إلا نادراً جداً في عهد الدولة الحديثة (ويعتقد الأستاذ « نيوبرى »^(١) أن الزيتون كان يزرع في مصر منذ بداية العصر التاريخي غير أن ذلك مشكوك فيه) . وأول تمثيل عثر عليه لشجرة الزيتون يرجع عهده للأسرة الثامنة عشرة^(٢) . ويدعى « بليت »^(٣) أن شجرة الزيتون قد أحضرت إلى مصر في عهد فتوحها العظيمة من آسيا ؛ وقد واقفه على ذلك « كير » ، إذ يقول : إن هذا النبات أحضر إلى مصر في عهد الأسرة الثامنة عشرة^(٤) ، وقد عثر على بعض فروع صغيرة من الزيتون في مقبرة « توت عنخ آمون » .

نبات البردى : كان البردى ينبت في مناطق الدلتا ، ولكنه اختفى منها الآن . ويكثر نموه في السودان . وكان المصري القديم يستخدمه لأغراض شتى ، قد ذكر بعضها « هردوت » و « تيوفرسطس »^(٥) و « بلينى »^(٦) . ولكن أهم استعمال له هو صناعة الورق منه الذي جاء على غرار الورق المعروف لنا الآن ؛ ويبلغ طول نبات البردى من سبعة إلى عشرة أقدام ؛ هذا عدا الزهرة ؛ والجذور ، ويبلغ عرض البردية نحو بوصة ونصف وقطاع الساق مثلث الشكل ؛ ويحتوى على : لحاء رفيع خشن ؛ ولب له أنسجة خلوية ؛ ومن هذا

(1) Ancient Egypt. t III, P.97 to 103.

(2) Nina de G. Davies, The Mural Painting of El-Amarna PL IXc.

(3) Bloemen en plante nit oud Egypte in het Meuseum te Leiden p. 13. Leiden, 1882.

(4) Bull. I.F.A O XXXI. 1931. p 133

(5) Bull I.F.A.O. XXXI. p. 133.

(6) Haward Carter, The Tomb of Tut-Ankh-Amon Vol II, p, 33.

كيفية صناعة
ورق البردى

اللب كان يصنع ورق البردى ؛ وقد وصف لنا « بلينى » كيفية
صنع ورق البردى ، بأنه كان يقطع ساق النبات قطعاً رفيعة
كانت توضع جنباً إلى جنب على لوح من الخشب ؛ وكان يوضع فوقها
عدة قطع أخرى متقاطعة تكون مع الأولى زوايا قائمة ، ثم تبلل بماء
النيل ؛ وبعد ذلك تضغط ؛ وتجفف فى الشمس . وأضاف بعد ذلك
« بلينى » أن ماء النيل عند ما يكون معكراً يحتوى على مادة لزجة . ولكن
طريقة « بلينى » هذه على ما يظهر غامضة ؛ وخاطئة ، إذ لم يذكر لنا
أن اللحاء الخارجى كان يزال قبل تقطيع اللب ، إلى أجزاء صغيرة ،
وإن كان ظاهراً فى كلام له أتى بعد ذلك ؛ إذ يقول إن اللحاء كان
يستعمل فقط لعمل الحبال . هذا إلى أن ماء النيل لم يكن فيه مادة لزجة
عند ما يكون عكراً . وقد عملت تجارب لعمل ورق البردى كما كان يصنعه
المصريون القدماء فلم تفلح إلى أن توصل الأستاذ « بتسكوم جن » إلى
عمل ورق بردى مماثل لما كان يصنعه قدماء المصريين .

والطريقة التى اتبعها أنه قطع النبات الأخضر من البردى إلى عدة قطع
يمكن تناولها ثم أزال اللحاء الخارجى ، وبعد ذلك قطع اللب الداخلى
قطعاً غليظة ووضع نسيجاً ماصاً على لوحة من الخشب ؛ ثم رتب عدداً
من هذه القطع موازياً بعضها لبعض ، ومماساً بعض الشئ . ثم وضع فوقها طائفة
أخرى من هذه القطع متلاصقة ، ومكونة زوايا قائمة مع القطع التى
تحتها ، ثم غطى الجميع بنسيج رفيع ماص ودقه لمدة ساعة أو ساعتين بطريقة
من الخشب ؛ وبعد ذلك وضع هذه المادة فى مكبس صغير عدة ساعات وعند
الكشف عنها وجد أن القطع قد التأمت وكونت ورقة رفيعة متجانسة صالحة للكتابة ،

ثم صقلها بعض الشيء مما جعلها أكثر ملامسة ، وكان لون الورق الذى نتج من هذه العملية يكاد يكون أبيض . غير أنه كان فيه بعض عيوب أمكن إصلاحها قبل أن توضع المادة فى المكبس .

على أننا لا نعرف بالضبط التاريخ الذى بدأ فيه استعمال الورق وصناعته ، وأقدم ما عثر عليه قطع من وثائق البردى يرجع عهدا إلى الأسرة الخامسة والسادسة وهى محفوظة بالمتحف المصرى الآن (١) .

زراعة البساتين

لقد صورت النقوش والرسوم التى بقيت من عهد الدولة القديمة وغيرها صورة واضحة تفسر لنا بجلاء أن المصرى القديم ، كان مغرما بالأزهار وزراعة البساتين ، فكان يذكرها فى شعره ، ويتخذها رموزا وشارات ، ويمجملها تلعب فى حياته دورا هاما ؛ حتى أن أحد فلاسفة اليونان كان يتغنى بالعناية التى أظهرها المصريون فى تربية الأزهار . ولا غرابة فى ذلك فإنهم كانوا يزينون بها جدران قاعات أعيادهم ويحلون بها موائد قربانهم حتى أننا وجدنا مائدة قربان أمام صاحب المقبرة ، وليس عليها شئ سوى الزهور (٢) . وكانت تحمل أواني الخريتيجان من الزهر ؛ تشبه قلائد الأزهار التى كان يضعها الخدم حول نحر الضيوف . أما النساء فكان يضعن الزهور فى شعورهن وفى أيديهن . وقد ذكر المصرى القديم فى الوثائق التى تركها لنا أنه كان يتفيا ظلل الأشجار اليانعة عند ما كان ينتظر حبيته وهى آتية إليه وصدرها مكلل بالزهور ، وكان الفرعون نفسه يذهب إلى ساحة

(١) Cairo Museum, Nos. 49625, 5804, 58063, & 58064.

(٢) مقبرة « دواكا » بمخائر الجامة المصرية بمنطقة الهرم .

القتال في عربته ونحره مزين بأكاليل الزهر المختلف الأشكال والألوان .
على أن فقراء القوم لم يهملوا التزين بالأزهار ؛ إذ نجد غالباً في رسوم
الدولة القديمة أن الفلاحين كانوا يعلقون الأزهار حول نحرهم ؛ وكذلك
كانوا يزينون بها الحيوانات ، كما نجد الثيران العظيمة التي كانت تربي
لتذبح قربانا تحلى رقابها بأكاليل الزهر وتلف حول نحرها زهور البشتين
كما يشاهد ذلك في مقبرة « تي » في سقارة والاثميرة « حمت رع » في
مقابر أهرام الجيزة .

وكانت المومياة توضع على أسرة من الزهور الياقة وحول جباها
تيجان من الزهور مثبتة بدبابيس ؛ وفوق صدورهما كانت توضع الأكاليل
وطاقات الأزهار .

وكانت تصنع هذه الزهور أحياناً من الخشب ؛ أو من الورق المقوى
وتوضع بجانب المتوفى . وكانت توجد بجوار طاقات الزهور الطبيعية التي
نسقتها يد الزهار . وكانت النائمات في يوم الدفن يحملن الزهور أمام عربة
المتوفى حتى يصلن إلى القبر ، ومن ثم كانت تأتي حاملات القرايين بالزهور
كل يوم إلى المقبرة . كما يشاهد ذلك في نقوش الدولة القديمة ؛ وكان
أحب الزهور إلى المتوفى زهرتا البردى والبشتين (اللوتس) .

ومنذ أقدم العهود كانت تزرع البساتين وتقام في وسطها البرك ؛ التي
تحيط بها أحسن زهور المشاتل كالبشتين والعنبر والبقلة المباركة ؛ والأقحوان
والنرجس ، والزنبق الأبيض ، وشجرة الغار الوردية اللون ، والخشخاش ،
وكانت الزهور تقطف وتوضع في زهريات من كل الأنواع وتمنق بطريقة
تكسيها هيئة طاقة الزهر ، كما يشاهد ذلك في مقبرة العظيم « تسن » بمنطقة

الأهرام ومقبرة « بتاح حنب » في سقارة .
ومن كل ذلك يتضح لنا أن المصرى بحكم البيئة الزراعية التى كان يعيش فى وسطها عرف كيف ينشئ لنفسه زراعة وطنية قوية منقطعة القرين فى تلك العهود ، فلم يفلح فى الوصول إلى ذلك بتأثير الموارد الطبيعية التى هياها له وادى النيل الخصب فحسب ، بل كان الفضل فى ذلك أيضا إلى جهوده التى لا تعرف الملل وإلى ذكائه الموروث ، وإلى حبه للبحث وراء التقدم والنمو فى هذه الناحية . ولا أدل على ذلك من بذله المجهود فى تحسين آلات زراعته ، وطرق استثمار أرضه ، مما جعل وادى النيل فى عهد الدولة القديمة البقعة التى ازدهرت فيها زراعة الحقل فى وقت كانت فيه كل بلاد العالم عامة (اللهم إلا وادى نهر دجلة والفرات) لا تزال فى طفولتها فى فن الزراعة . ولا شك فى أن تقدم مصر ونفوقها فى هذه الناحية أهم العناصر المادية التى جعلت مصر منبعاً لمدينة العالم . ولا أدل على سرعة تقدم مصر فى الزراعة من اختفاء أنواع النباتات النجيلية فى مدة وجيزة ، تلك النباتات التى لاحظ وجودها العالمان « شفينفورت » « وانجار » فى فوالب اللبن التى بنى بها أهرام دهشور منذ الأسرة الرابعة وحل محلها أنواع الغلال . حتى أن الأستاذ « بترى » لم يجد فى خرائب « كاهون » فى عهد الأسرة الثانية عشرة أى أثر لهذه النباتات السالفة الذكر . وقد كان المصرى فى كل عصور تاريخه يعمل جهد طاقته لجلب الأشجار والنباتات من الأقاليم المجاورة ليستثمرها فى بلاده . ويبدل جهده لجعلها صالحة للنمو فى أرضه الخصبة فلا تلبث أن تستقر فى مصر وتزدهر وتأتى أكلها ولا أدل على ذلك من جملة الأشجار والزهور والنباتات التى جلبها « تحتمس

الثالث « معه من آسيا وصورها على جدران قاعة الأعياد التي أقامها في الكرنك والمعروفة بحجرة الزراعة . كما سنتكلم عن ذلك في حينه .

آلات الفلاحة

جرت العادة بل وسنن الطبيعة على أن تكون الآلات التي يستعملها الإنسان في حرقه من الحرف خاضعة في تقدمها وتحسنها إلى درجة الرقى التي يبلغها الإنسان في الطرق التي يتبعها في إبراز منتجات حرفه وهذه القاعدة تنطبق بنوع خاص على الرقى الزراعى . فالآلات الزراعية في الواقع تتقدم بتقدم الزراعة والصناعة والتجارة . على أن تقدم العلم نفسه الذى يؤثر بطريقة غير مباشرة في طرق الزراعة لا يؤثر على تقدم الآلات إلا من بعيد . فنجد أحيانا آلة جديدة تظهر مستعملة في زراعة بلدا لما لكشف صناعة جديدة بها وأحيانا نجد أن هذه الصناعة الحديثة تستعمل مادة جديدة تمتاز بسرعتها أو خفتها أو سهولتها أو غير ذلك فتكون ذات فائدة محققة عن المادة التي كانت تستعمل من قبل ، فيؤثر الفلاح استعمالها على غيرها .

وأحيانا تجلب من البلاد الأجنبية آلات من مادة أرقى أو في شكل أصح مما يستعمل في البلاد ، غير أن هذه الآلات الجديدة تحتاج إلى مران طويل حتى يمكن استعمالها ويتعود الأهليون عليها .

ومنذ عهد ما قبل الاثرات نجد في مصر آلتين . أصليتين خاصتين بالزراعة ، وهما الفأس لفلح الأرض والمنجل لقطع المحصول وضمه . أى أن الأولى تجهز للفلاح عمله ، والثانية تهين له حصده محصوله ، وإذا فحصنا

كلا من هاتين الآلتين نجد أن الطبيعة قد ساعدت على اختراعها ،
فالفأس في الواقع حلت محل اليد عند ما يراد نبش الأرض لزرعها ، وإذا
تخيل الإنسان هذا المنظر فأن يده تمثل شكل الفأس عند حفر الأرض .
أما المنجل فقد اخترع على غرار أسنان الحيوان وهو يأكل الحشائش .
فأسنانه هي أسنان الحيوان . وقد تقل الإنسان هذا في المادة وأصبح
يستعمله في كل أغراضه لضم محصوله .


وقد ظهرت الفأس للمرة الأولى في التاريخ المصري على طوابع الاختام
الأسطوانية الشكل التي كانت تجلى سدادات الاثواني العظيمة التي عثر
عليها في قفادة (1).

ومنذ الأسرة الأولى الفرعونية ، أصبحت الفأس شائعة الاستعمال في
الحقول وأعمال البناء وغيرها ، وقد استعملت الفأس من الخشب واستعين
على تثبيت مشطها في اليد بالخلفاء أو الليف ؛ إذ كان الخشب أقرب
منالا للفلاح وأسهل صنعا . واستمرت الفأس تصنع من الخشب حتى العصور
المتأخرة وهي لا تزال تصنع أحيانا من الخشب في الواحات كما صنعت
الفأس من النحاس في عهد الأسرة الخامسة (2) وأخذت تدرج في التحسن
شيئا فشيئا حتى أخذت أشكالا عدة .

ولست أدري إذا كان لاسم رسم الفأس باللغة المصرية القديمة « مر »
علاقة بالاسم الذي أطلق على كل مصر الزراعية وهو « تامرى » أى
أرض الفلاحة أو أرض الفأس ، وربما كان ذلك هو السبب في نسبة

(1) De Morgan, Rech. t. II P. 151, 166.

(2) Petrie, Tools & weapons, 1917. pl. 19 No 3.

مصر كلها لاسم الآلة التي كانت أول شيء استعمل في فلاحتها . ومن المحتمل جداً أن لفظة « دميرة » التي يطلقها فلاحو الوجه القبلي عندما يكون الفلاح قد هباً أرضه للزراع في وقت بداية الفيضان في النصف الأول من شهر مسرى ، يرجع أصلها إلى لفظة « تامرى » أى أرض الزراعة أى الأرض التي هيئت للزراعة بالفأس . ومن ذلك يمكننا أن نفهم بسهولة معنى لفظة « مروت » التي تكتب بنفس الإشارة ويخصصها رجل وامرأة  أى الفلاحون وهنا يمكننا أن نفهم جيداً معنى المثل القائل « كل فلاح مصرى وليس كل مصرى فلاحاً » .

المحراث : تقص الأساطير أن مصر مدينة بالمحراث للإله « أوزير » إله النبت والزرع . والواقع أن المحراث هو فأس مكبرة من اختراع المصرى عند ما أراد أن يقتصد في الوقت في شق أرضه . ويدل شكله على أنه كان يحرك بواسطة الإنسان لا بالحيوان في بادىء الأمر ، وقد عثر في الرسوم المصرية القديمة على ما يثبت ذلك .

وقد عثر على محراث في شكله المعروف لأول مرة يحجر بالثيران في آثار ميدوم^(١) في عهد الأسرة الثالثة ، وكان يستعمل في بادىء الأمر بسلاح واحد ثم استعمل بسلاحين .

المحشة (المنجل) : من الطبيعي أن الإنسان الأول سواء أ كان صياداً في البر أم في البحر لم يهتم بأمر النباتات واستعمالها لأغراضه الخاصة إلا في اليوم الذي أصبح في يده آلة من الطران صالحة لقطع الحشائش البرية أو نشرها ليستفيد منها ، ومنذ أتقن المصرى صناعة المحشة أصبح

(1) Meidum, PL. 18.

يصنعها بكثرة في معامل خاصة . وقد جمع الأستاذ « دى مرجان » في بحثه عن الآلات بين المنجل والمنشار ، لأن وظيفتهما تكاد تكون واحدة وقد عرفنا شكل المنجل من الأشارات المصرية القديمة التي حُفرت على مقابر الأسرات الأولى^(١) والدولة القديمة . إذ نجد في النقوش الملونة في ميدوم رسماً دقيقاً للمنجل . فالمقبض والسلاح قد لونا باللون الأخضر على حين أن الظران الأبيض يظهر في داخل المنجل ، وكذلك نجد هذه الإشارة محفورة بهذا الشكل في عهد الأسرة الخامسة^(٢) ولكن الرسم لم يبين لنا من أى عهد بدأت صنعها من النحاس

وتوجد آلات أخرى كانت تصنع من الظران كالبلطة التي يرجع عهد استعمالها إلى العصر الحجري القديم . وقد بدأت تصنع من النحاس في عهد الأسرة الثالثة ، كما يشاهد ذلك على آثار ميدوم^(٣) . إذ أن لونها الأصفر ، أو الرمادي الأخضر يبرهن بوضوح على أن سلاحها كان مصنوعاً من هذا المعدن .

أما السكينة فكانت تصنع في مصر ، وكذلك في كل البلاد الأخرى من الظران ويهذب سلاحها حتى يصير قاطعاً ، وقد وجدت السكاكين بين الإشارات الهيروغليفية وسلاحها من الظران ويدها من الخشب^(٤) ، وقد وجدت نماذج منها من عهد الأسرة الخامسة^(٥) .

وهناك آلات أخرى كان يستعملها المصري كالأمشاط التي كان

(1) Meidum, PL. 28 & Ptah-hotep t. I, p. 9 No. 210.

(2) Tombeau de Ti, Ed. Steindorff, PL. 47.

(3) Meidum, pl. 10, 13 & 14.

(4) Weill, Les Origines d'Egypte. Phar. p. 247.

(5) Petrie, Tools, pl. 24, No. 35.

يمشط بها ألياف الكتان والمطارق والمجارف والمكانس والمناخل والفرايل وألواح التذرية . أما المذراة فقد اخترعها لفصل التبن عن القمح وأصابها تبرهن على أن الإنسان قد أخذ شكلها من يده عند ما كان في أول الأمر يستعملها لفصل القش عن القمح ، ثم اخترع المذراة على غرار اليد اقتصاداً في الوقت والمجهود .

وقد وجدت في بعض مقابر الدولة القديمة حديثاً عدة مجاميع من نماذج الآلات النحاسية التي كان يستعملها الإنسان في حياته اليومية . غير أن بحثها يحتاج إلى دراسات خاصة ، وقد عثر على مجاميع منها سليمة أهمها مجموعة حفيد الملك « منكاورع » في حفائر الجامعة بالجيزة إذ تبلغ نحو ٩٠ قطعة ؛ ومعظمها لم يعرف بعد كيفية استعماله . وقد تعرفنا من بينها الأبر الدقيقة المثقوبة والموسى والمقطع .

طرق الزراعة

لا نزاع في أن طرق الزراعة في بلد ما تتوقف قبل كل شيء على مقدار مدنية أهلها . ثم تتدرج معها ، ولكن في أقاليم محدودة نجد أن استثمار الأقاليم من حيث النبات أو الحيوان خاضع إلى البيئة وبخاصة الجو وصلاحيته لنمو أنواع خاصة من النبات أو تربية نوع خاص من الحيوان ولذلك فإن الطرق التي يجب أن يستعملها أهل بلد ما تراها مرتبطة بهذه الأحوال . وقد استقينا معلوماتنا عن طرق الزراعة في مصر في عهد الدولة القديمة من مقابر عظماء القوم ، والنقوش التي وجدت على جدران الطرق

الجنازية للملك الأسر الخامسة والسادسة ، وأهمها منطقة أهرام الجيزة وسقارة وميدوم وكذلك مقابر أمراء أسوان من الأسرتين الخامسة والسادسة .

وطرق الزراعة في مصر في عهد الدولة القديمة لا تختلف كثيرا عن باقي ممالك العالم ، وبخاصة في بذر الأرض .

وكان المصري حسب ملاحظاته الشخصية ، وما تقتضيه طبيعة كل نبات يقسم السنة الزراعية ثلاثة أقسام متساوية تقابل ثلاث مراحل مختلفة في زراعة الأرض . فالفصل الأول وهو الشتاء عنده يبتدى من أواسط أكتوبر إلى بداية فبراير وهو فصل بذر الأرض وزراعتها ويسمى بالمصرية « برت » (أى الخروج) أى ظهور الأرض من تحت ماء الفيضان ثم من فبراير إلى يونيو وهو فصل الحصاد ويسمى بالمصرية « شمو » (أى الصيف) ؛ ثم فصل الفيضان ويسمى بالمصرية « أخت » وذلك من منتصف يونيو إلى منتصف أكتوبر . والفلاح المصري الحالى لا يزال محافظا على حساب مواقيت زراعته بالأشهر المصرية القديمة التى كان يستعملها أجداده منذ أقدم العهود وهى المعروفة الآن بالأشهر القبطية ؛ ففى وقت الانقلاب الشتوى يبدأ زراعته الشتوية وهى الشعير والقمح ثم يحصد محصوله بعد ذلك فى شهرى مايو ويونيو ثم يزرع بعد ذلك الذرة ، وقبل حلول الانقلاب بشهر يزرع الصيفى (الذرة العويجة) .

وكان الفلاح يستعمل الفأس فى عزق أرضه ، والمحراث فى شقها والشادوف فى ريها . والظاهر أن الشادوف استعمل عند قدماء المصريين منذ عصر بداية التاريخ كما يدل على ذلك رسم فى مقبرة فى

هراكنبوليس (1) وكذلك عثر « ولكنسون » (2) على رسوم للشادوف في الآثار المصرية القديمة . أما الساقية فلم يعثروا عليها على رسم ، ولكن من المحتمل أنها كانت تعمل منذ العصر الأغريقى الرومانى ويظن العالم « دارسى » أنه رأى ساقية عندما كان ينظف بئرا فى الدير البحرى (3) .

أما النورج فلم يستعمله قدماء المصريين فى درس الغلال واستعاضوا عنه بأرجل الماشية كما هى الحال الآن فى التوبة وبعض جهات السودان ومصر والواحات .

أما كيفية زراعة الأرض بأنواع الأشجار والحبوب المختلفة فقد رسمها قدماء المصريين على مقابرهم منذ أقدم العهود ، وهى لا تختلف كثيرا عن زراعة الفلاح وحصده وتخزينه لمحصولاته فى أيامنا هذه . وليس هناك ما يلفت النظر إلا صناعة النيد من العنب وغيره فأنها قد اختفت فى عصرنا هذا . ومن المحتمل جدا أن يكون السبب فى ذلك هو دخول الدين الإسلامى فى البلاد وهو يحرم شرب الخمر بكل أنواعها . يضاف إلى ذلك زراعة الكتان وطرق تحضير خيوطه ونسجها فأنه قد قل من البلاد بدرجة عظيمة وذلك لتغلب زراعة القطن وكثرة الواردات من منسوجاته من الخارج .

(1) Quibell and Green, Hierakonpolis, 1902. t. II pl. 74, 75.

(2) W. M. I, p. 281.

(3) Mem. Inst. Egypte 1915 t. VIII, Daressy, L'eau dans l'ancienne Egypte. p. 205.

صيد الحيوان وتربيته

كان المصري في بادىء حياته يقات من صيد حيوانات البر والبحر وقد اجتهد منذ القدم في أن يستأنس من حيوانات البر النافع منها لأغراضه الحيوية ، ثم أخذ بعد ذلك يضيف إلى تلك الحيوانات التي أخضعها له ما كان يجلبه من الخارج من الحيوانات المفيدة .

وقبل أن نتكلم عن الحيوانات التي استأنسها المصري القديم يجب أن نبحث أولاً عن الحيوانات المتوحشة التي كان يعيش على لحومها أو يحاربها خوفاً من سطوتها ، إذ كان وادى النيل ، بما حته الطبيعة من جبال ووديان يرونها هذا النهر ، يجلب إليه الحيوانات المتوحشة الكثيرة ، هذا إلى أن ماء النهر كان يحوى أسماكاً متنوعة الأشكال ومن أجل ذلك كله كان المصري مضطراً بطبعه إلى أن يتعلم طرق الصيد للتغلب على هذه الحيوانات التي كان يتألف منها غذاؤه الرئيسى .

لحوم الصيد

يلاحظ أن الإنسان قبل أن يتسلح لصد غارات الحشرات المؤذية والحيوانات الضارية التي كانت تعترضه في حياته اليومية وينحشى فتكها به ، كان يجول بوازع الحاجة في المستنقعات رغم ذلك ليحصل على الحيوانات التي تقيم أوده .

وأهم هذه الحيوانات الثور الوحشى وهو قصير القامة له سنام في ظهره

وقرنه قصير وقد ظهر مرسوما على الآثار منذ الدولة القديمة (1) . أما الثور المستأنس فقرناه عظيمان وهو أجب (2) .

فصيلة الأيائل : Cervidae . وهذه الفصيلة هي حيوانات لبون مجترة مصصة القرون ورسومها على الآثار المصرية قليلة جدا ، وقد شوهد الأيل Stag على لوحة في « اللوفر » ، وكذلك في رسوم « نقادة » (3) وبلاص « فيما قبل الأسرات » وفي مقبرة « مير » (4) ، وما يمثله الفنان دائما هو « أيل آدم Cervus dama » الذي يصطاده الملك « سحورع » (5) نفسه كما هو ممثل على جدران معبد الجنازى . وبعد عصر الدولة الوسطى نجد أن هذا الحيوان بدأ يختفى من مصر .

عشيرة الظباء . Antilopinae . هذه الحيوانات تعيش معا في قطعان عدة ، وأنواعها مختلفة ، ولحومها مرغوب فيها جدا . وقد عثر على قرابين مطبوخة منها تدل على أنها من لحوم الظباء (6) . وفي عهد الدولة القديمة نشاهد مناظر اصيد الظباء من كل الأنواع (7) . وكانت تعد عند قدماء المصريين من بين اللحوم المختارة التي تقدم قربانا .

المها : Oryx . ويسمى في أيامنا « أبو عقص » أو « أبوسيف » . وقد وجد على الآثار المصرية نوعان منه الأول « مها ييسة Oryx Beisa » وهو نحيل القوام عظيم القرنين مستقيهما . وقد عثر عليه منذ عصر ما قبل

(1) Davies, Ptah hotep, t. II P. 21.

(2) Loret et Gaillard, La Faune momifiée. P. 43.

(3) Petrie, Nagada & Ballas, P. 29. Vase No 91.

(4) Blackman, Rock tombs of Meir, t. II, pl. 7.

(5) Sahourâ, t. II P. 15 see especially t. I P. 167,

(6) Recherches. t. II P. 97

(7) Ptah hotep, t. I pl, 22, & Meir, t. I pl. 6.

الأسرات ؛ والنوع الثاني « أبو حراب *Oryx leucoryx* » وهو عظيم الجسم قصير الشعر مائل إلى البياض ومعروف بقرنيه الطويلين الرشيقين المتوازيين وقد يكونان أحيانا مستقيمين أو منحنيين بعض الشيء ومديبين وفي أسفلها حز في الذكر وفي الأنثى ، وقد استعمل قرن الييسة أقواسا للرمية ، وذلك بوصل قرنين بقطعة خشب من قاعدة كل منها . ومن أجل ذلك يكون القوس لنا سهل الاستعمال .

المؤذر أو الديشون أو الهاة الوضيحي : Addax وهو في جلته يشبه الهاة وقرناه طويلان منفرجان بعض الشيء ، ومحرزان إلى ثلثيها ، وفي فصل الصيف يكون جلد هذا الحيوان مائلا إلى الصفرة ، وفي الشتاء يكون كل شعره رمادي اللون وهذا الفرق يمكن ملاحظته في إقليم منف حيث يكون تغير الجو محسوسا ، وقد رسم الفنان على آثار ميدوم ⁽¹⁾ هذا الحيوان في الفصلين .

التيتل : Bubalis buselaphus . وهو نوع من بقر الوحش عظيم الرأس قصير القرنين وفي معظم الأحيان يختلف القرنان بعضهما عن بعض ، وظهره منحدر ، وهو كالهاة يغير لونه في وقت البرودة يكون فراؤه رماديا قائما وفي الأوقات المادية يكون لونه أسمر مائلا إلى الصفرة ماعدا بطنه فإنه يكون أبيض ، وقطعانه تسير من خمسة إلى عشرة في الأماكن الصحراوية ⁽²⁾ المشقة . وقد شوهد شكل هذا الحيوان على أواني عصر

(1) Meidum, pl. 14, 27 & 28.

(2) Schweinfurth, Au cœur de l'Afrique, t. I, p. 192.

ما قبل التاريخ (1) ويوجد له هيكل محفوظ بقسم الزراعة القديمة بمتحف
فؤاد الأول الزراعى .

غزال آدم : Gazella dorcas . وقد وصفه العرب فى كتب اللغة
(الأدم من الظباء غير الألوان تعلوهن جدد طوال القوائم والأعناق
بيض البطون سمر الظهر) أما علماء الحيوان ، فقد وصفوه بأن له جسم
الحيوان الذى يقفز ، وقائمه طويلتان رشيقتان ، ومتصلتان بصدرة
الضيق ، وهو خفيف . أما رجلاه الخلفيتان فأقصر ، ورقبته طويلة ،
ورأسه تحلى بقرنين منحنيين إلى الأمام ؛ والأنثى تتميز عن الذكر بقرنيها
الرقيقين ، وحزهما القليل ، وفراؤه قصير أسمر اللون أو أغبره ، وبطنه
أبيض وفى أرجله بعض خطوط بيضاء ، وسوداء .

غزال - إزابيل (2) (جسا) : قرناه منحنيان (3) أحدهما نحو الآخر عند
طرفيهما . وكان منتشرا فى مصر العليا فى عهد الدولة القديمة . وكان
رأسه يوضع على موائد القربان (4) . وقد عثر على موميات لغزال آدم ،
وغزال إزابيل فى كوم مير (5) بالقرب من إسنا من العصر المتأخر .

الوعل أو البدن أوتيس الجبل (6) : (Ibex) Niaou . وهو جنس من
الماعز الجبلى ، وقرناه طويلان قويان منحنيان كسيفين أحدين يلتقيان حول
ذنبه من أعلاه ، وله لحية ، ولحومه كانت تقدم قربانا . وشكله يزين

(1) Petrie, Prehist. Eg. 1920, pl. 22. No. 47.

(2) Loret & Gaillard, La Faune momifiée p. 85.

(3) Mastaba of Ti, pl. 128.

(4) Deir el-Bahari t. III pl. 2.

(5) Loret, La Faune momifiée p. 81

(6) Meidum, pl. 9, 24.

كثيراً من أواني عصر ما قبل التاريخ^(١) ، ولا يزال يوجد بكثرة في شبه جزيرة سيناء .

الكبش البري (مفلون) : Ammotragus tragelaphus ولله ذكر

والأنثى منه قرنان غليظان مديان قويان يتجهان إلى أعلى متباعدين ثم ينحنيان في اتجاه مضاد ؛ أما شعره فأشقر اللون خشن قصير ما عدا المعرفة ونهاية الذيل ، وقد عرف الكبش البري مرسوماً على أواني عصر ما قبل التاريخ^(٢) ، وقد عثر على عدد من هذا الحيوان محنطاً في « كوم مير »^(٣) ، ويوجد له هيكل عظمي بمتحف فؤاد الأول الزراعى .

الماعز : Hircus mambrinus . وقد عثر الأستاذ « دى مرجان » على

بقايا منه ترجع إلى عصر ما قبل التاريخ ، وكذلك يشاهد في نقوش مقبرة « مرا » بسقارة ، وهو في حجم المهابة . ولكن قرنيه على شكل حلزوني عمودي تقريباً ، ولكنها ينفرجان عندما ينحنيان إلى الخلف بصورة تكون شكل مثلث . أما أذناه فكبيرتان ، ومدلاتان . وقد عثر على رسمه منذ الأسرة الرابعة^(٤) .

العزلا أهلية : Hircus thebaicus وجسمها أقل من جسم الماعز السالف الذكر

وتتميز بأذنيها الطويلتين المتدليتين ، وقرنيها الصغيرين اللذين لا يكونان إلا للذكر^(٥)

الزرافة : وقد عثر على رسمها في عصور ما قبل التاريخ^(٦) ، وكانت تصاد

لكي تستأنس ، وكان يظن أنها لم تعرف في عهد الدولة القديمة ؛ ولكن عثر على

(1) Petrie, Prehist. Eg. pl. 18, No. 73.

(2) Petrie, Prehist. Eg. pl. 18 No. 73.

(3) Loret, La Faune momifiée, p. 81

(4) Lepsius Denk. II, pl. 104 t. 31, Saqqara IV Dyn.

(5) Loret, La Faune momifiée, p. 78.

(6) X = Lieblein, Z. A. S. t, XXIII p. 130.

رسم لها في الطريق الجنازى للملك «وناس» في سقارة في عام سنة ١٩٣٨ (١).
التعلب: وقد وجد على الآثار المصرية في ميدوم، وفي سقارة (٢).
الأرنب الجبلى: أذناه طويلتان، وجسمه أكبر من جسم الأرنب الأهل
وقد عثر على رسمه في ميدوم وفي سقارة في الطريق الجنازى للملك «وناس» (٣).

الحيوانات التى تصاد لجلدها أو فرائها .

كان المصرى مغرما دائما بلبس الفراء الوفيرة، وبخاصة فراء الحيوانات التى كان يصطادها هو بنفسه من الصحراء، وكان يعرف جيدا كيفية تحضير الجلود، ودبها ويلاحظ أنه فى عهد العصر الحجرى الحديث كان يستر عورته بكيس من الجلد (٤) معلق بحبل مربوط حول وسطه. ثم استعمل بعد ذلك الجلد فى صناعة نعليه، وقمص عمله. ثم جدل منه سيورا دقيقة وعمل منه درعه، وكناته، وقربة مائه.

الفهد (٥): وهو من بين الحيوانات المتوحشة التى عثر على رسمها فيما قبل الأسرات، وكذلك عثر عليه فى «ميدوم» (٦)، وكان جلده يستعمل لصنع الأبسطة، وغطاء الكراسى؛ وأهم من كل ذلك أنه كان يستعمل لباسا للكهنة فى الشعائر الدينية منذ الدولة القديمة. فكان يلبسه الكهنة، ومن بينهم

(1) Ann. Ser. Ant. t. XXXVIII p. 520.

(2) Meidum, pl. 9 & Leps. Denk. II, pl. 46.

(3) Ann. Serv. Ant. t. XXXVIII pl. XCVII.

(4) Capart, Les débuts de l'art en Egypte,, PL. 37, 44.

(5) Rosellini, Mon. Civ. t. II, pl. 20.

(6) Meidum, pl. 17.

الكاهن الأعظم للإله « فتاح » في منف . ولم يكتف المصريون بصيده من مصر . بل كان يجلب كذلك من الخارج ، كما فعل ذلك « حرخوف » في رحلته الثالثة .

العسنت أوفرس النهر : وكان قدماء المصريين في عهد ما قبل الأسرات يستعملون أسنانه في صناعة مقابض الختاجر ، وسكينة جبل العرق مقبضها مصنوع من سن هذا الحيوان ، أما جلده السميك ، فكان يستعمل لصنع الدرق ، والزخمة وقد وجد مرسوما على الآثار المصرية ، وكان يصاد في الماء منذ الأسرة الخامسة الذئب (ونش) : وجد مرسوما على لوحة الشيست الموجودة في متحف « اللوفر »⁽¹⁾ ذئبان من طائفة الحيوانات التي كانت تصاد . وكان يقدس في أسبوط في صورة الإله « وبوات » كما ذكرنا آنفا .

الفيل : كان الفيل الأفريقي يصاد في مصر في عصور ما قبل الأسرات ، وقد عرف في الرسوم الساذجة ، وعلى مقابض السكاكين المصنوعة من العاج⁽²⁾ . ومن المحتمل جدا أنه كان يصاد في الوجه القبلي في إقليم « إفتين » (أسوان) ، وربما اشتق اسم هذه الجهة من اسم الفيل الذي كان منتشرا هناك . على أننا لم نجد بين حيوانات الأسرة الثالثة في مصر ؛ ولذلك كان المصريون يجلبون العاج من الخارج ، من بلاد النوبة في عهد الدولة القديمة .

وحيد القرن أو الحريش : ويعتقد الأستاذ « دي مرجان » أنه كان يصاد في مصر في عصر ما قبل الأسرات ، ويظن أنه مثل على قطعة

(1) Gapart, Débuts de l'art en Egypte, 2e, éd. p. 222.

(2) J. E. A., 1916, p. 229.

من العاج من هذا العصر^(١). ولكتنا لم نشاهده في مصر: بعد ذلك العهد. وقد عثر أخيراً في معبد « متو » بأرمنت على رسم وحيد القرن اصطاده « تحوتس الثالث » من بلاد آسيا، وقد وضع في الرسم مقاسات هذا الحيوان، وكيفية صيده وكان من أهم مفاخره في براعة الصيد.

الحيوانات التي تصاد دفاعاً عن النفس أو للتسلية

الأسد، واللبؤة: مثل الأسد على آثار ما قبل الأسرات التي وجدت في « تقادة وبلاص »، وكذلك في « هراكنبوليس »^(٢)؛ وكان من بين الحيوانات التي تصاد في الصحراء في عهد الدولة القديمة، وقد عثر على رسوم له في الطريق الجنازي للملك « وناس »، وكذلك في مقابر « مير »^(٣) إذ كان يصاد بالسهم، وسرى أن صيده في عهد الأسرة الثامنة عشرة كان من مفاخر الملوك وكان المصري يجتهد في أن يستأنس الأسد في عهد الدولة القديمة، فكان يصطاده حياً ويضعه في قفص للفرجة^(٤)، وسرى أيضاً أن الملوك كانوا يصطخبونه معهم في ساحة القتال وذلك بعد استئناسه.

التمساح: كان هذا الحيوان يمثل إله الشر « ست » في بعض جهات القطر، ولذلك كان يطارد فيها، وفي جهات أخرى كان يعبد بصفته الإله « سبك » إله الخير، فكان يقدس كما كان الحال في الفيوم وفي « كوم امبو » كما سبق ذكره.

(1) Hierakonpolis, t. I, pl. 16, No. 4 2d, reg. from up to down.

(2) Nagada & Ballas, pl. 60 & Hierakonpolis t. II, pl. 28.

(3) Meir, Vol. I, pl. 6.

(4) Davies, Ptah-hotep, t. I, p. 21. & 24.

الصل أو الثعبان : وهو ثعبان سام طوله نحو مترين ، وكان يعتبر حارسا للملك ومفيدا جدا للزراعة وكان يعبد بهذه الصفة باسم «رنتوت» إلهة الحصاد ، وكان يترك في وسط الحقول المزروعة دون أن يصاب بأى أذى ، يأكل الفيران الكثيرة التى كانت تهلك الحرث والزرع وتسبب القحط التام (١) وكان لكل مقاطعة كما كان لكل بيت ثعبان حارس .

كلمه عامة عن المراعى وتربية الحيوان

يجدر بنا أن نبرز هنا بنوع خاص ميل الموليين المصريين إلى تربية قطعان الماشية المختلفة الانواع وهذا الميل يمكننا أن نلمسه فيما نشاهده من الثروة الطائلة من رؤوس الأنعام التى كانوا يصورونها على جدران مقابرهم موضحة بالأرقام الدالة على عدد ما كان يمتلكه صاحب المقبرة لينعم به فى آخرته . فمن ذلك نرى أن أحد الأشراف فى عهد الدولة القديمة كان يملك ٢٢٣٥ رأسا من الماعز و ٩٧٤ من الضأن و ٦٧٠ من الحمير (٢) حقا أننا نشاهد أحيانا أن المصرى كان يبالغ فى ثروته أو فيما استحوز عليه من بهيمة الأنعام فمثلا نجد فى نقوش الملك « سحورع » أنه عاد من غزوته فى بلاد لوبيا ومعه أكثر من ٧٠٠٠٠٠ رأس من الماعز والضأن والحمير وأكثر من ١٢٠٠٠٠ من الماشية الكبيرة (٣)

(1) Loret et Gaillard, La Faune Momifiée p. 171.

(2) Lepsius Denkmaler, II, p. 9.

(3) Borchardt Grabdenkmal des konigs Sahure, t. II, p. 74.

يضاف إلى ذلك أننا وجدنا في مقبرة العظيم سنبل بالجيزة أنه كان يملك أكثر من ٢٠٠٠٠ ثورا ومثلها من الماعز وعددا عظيما من الحمير^(١) ورغم ما في هذه الأرقام الأخيرة من المبالغة فإنه يمكننا أن نعتبر الأرقام الأولى في حد المعقول ؛ ومنها نستطيع أن نعرف على وجه التقريب أهمية أنواع البهائم التي كان يشارك فيها الممولون الكبار الرعاة الذين اتخذوا الرعى حرفة لهم ولا نزاع في أن الرعاة المصريين الحاليين يعدون فقراء إذا قيسوا بأجدادهم القدماء . وسبب ذلك يرجع إلى التطورات التي حدثت في أراضي وادي النيل . وذلك أنه كان لا بد من وجود مراعى شاسعة لتربية عدد عظيم من الماشية وكانت هذه بطبيعة الحال موجودة في مصر في العصور القديمة . أما في أيامنا هذه فليس لها أثر ، وتفسير ذلك أنه في الأزمان القديمة كانت المراعى الخضراء تظهر بعد نزول الفيضان وتعم البلاد عدة شهور ، وقد كان هذا يلاحظ بنوع خاص في الدلتا التي كانت غنية في مساحتها الشاسعة التي ينبت فيها كل أنواع الحشائش طيعيا وبخاصة البردى ، وفي هذه المراعى كان الرعاة يطلقون سراح قطعانهم العظيمة لتتو وتكاثرو ولذا يقول باران^(٢) .

إن وادي النيل قبل تنظيمه الذي جاء تدريجيا ، كان مغطى جزئيا بالمستنقعات التي كان ينمو فيها البردى والبشنة بكثرة . وهذه النباتات كان فقراء المصريين يعيشون على لبائها وجوبها في عصور التاريخ المصري ؛ هذا

(١) Junker, Vorbericht Giza, p. 316.

(٢) Ch. Parain, L'agriculture dans l'ancienne Egypte, Revue des études Juives, t. 97, 1934 VII Sqq.

إلى أنها كانت ترعاهما البهائم ؛ ولا نزال نشاهد إلى يومنا هذا في مستنقعات الدلتا السفلية لبلاد كلدية نوعاً من الحياة الفطرية إذ يعيش سكانها على تربية الماشية . فالسكان هناك يتجولون في المستنقعات بجاموسهم ويأكلون ما تأكله أنعامهم وينحصر ذلك في نبات الغاب والقصبات اللينة ، ويتخذون مأوى لهم أكواخاً من الغاب على الجزر أو أشباه الجزر ومن المحتمل أن المستنقعات التي بقيت زمناً طويلاً في الدلتا ، كانت تستعمل في فصل الصيف مراعى للقطعان التي كانت تفتد من المناطق الزراعية في هذا الفصل ، ثم تعود ثانية عند حلول الفيضان . وكذلك كان الحال في الوجه القبلي ، إذ كان شريط الأرض الذي يقع بين الأراضى المغمورة بالفيضان وبين الصحراء يتخذ مرعى لتربية الحيوان الصغير غير أنه تجب هنا ملاحظة أن انتقال القطعان إلى الدلتا لم يكن في عهد الأسرة السادسة وهو عصر ازدياد سلطان الأشراف وانتشار ضياعهم واستثمار الأراضى الصالحة للزراعة بالرى الصناعى .

الحيوانات التي كانت تنتخب لترويضها وتربيتها

وهى التى كان يجتهد المصرى فى استئناسها لما تنتجه ، أو لمساعدته . فمنها الثور والبقرة ، والعجول . وكلها من النوع الأفريقى مختلفة القرون ، وعلى أثر حدوث طاعون الحيوان فى البلاد كان المصريون يجلبون أنواعاً جديدة من إفريقية وآسيا . كما تدل على ذلك النقوش^(١) . ولا أدل على ذلك من

(١) Loret et Gaillard, La Faune momifiée, p, 8,25 & 65.

الثيران التي أحضرها الفرعون « سحورع » عند غزوه بلاد لوبيا ، وكذلك ما ذكره « يبي ناخت » في رحلته (انظر ص ٣٨٩ من الجزء الأول) .
ولإ تكاد تخلو مقبرة من مقابر عظماء القوم في الدولة القديمة من منظر ذبح الثيران ، أو سحبها للذبح ، سواء أكانت من الثيران ذات القرن الطويل ، أم الثيران التي لا قرن لها . ويجب أن نشير هنا إلى أن عملية ذبح الثور لأجل القربان كانت تجري حسب قواعد وشعائر خاصة لا بد من اتباعها بكل دقة .^(١)

أما جلود الثيران فكانت تدبغ ، وتستعمل لصنع النعال ، وفي صناعة السفن ، وغير ذلك أما أنواع الغزلان والمها ، والظباء فإنها كانت تستأنس وتسمن للذبح . وتوجد في مقبرة « مروكا » أنواع للغزلان ، والمها مربوطة إلى المذاود في شكل ينبي باستئناسها وتسمينها للذبح . وقد شوهد على قطعة من الحجر رسم يبين كيفية ذبح مهاة في ميدوم^(٢)

الخنزير : وجدت آثاره في « كوم السيل » من عصر ما قبل التاريخ كما ذكرنا أنه عثر عليه في « مرمدة » من عصر ما قبل التاريخ فيما سبق . وكذلك في « هراكنبوليس »^(٣) من عصر ما قبل الأسرات وفي عهد الدولة القديمة وجد اسم هذا الحيوان مقرونا باسم الملك « سنفرو »^(٤) ثلاث مرات . وكذلك رسم هذا الحيوان منذ الأسرة الثالثة في الإشارات المصرية القديمة في مقبرة « متن » .

(1) Hart., Agr. A. E. p. 198-199.

(2) Meidum, pl. 22.

(3) Hierakonpolis, II pl. 76.

(4) Proc. S. B. A. 1892 t. XIV th. Dyn.

الضبع : لقد اختلفت الآراء في تجدير الضبع ، وذلك بجلء بطنها بالأكل بواسطة اليد في عهد الدولة القديمة ؛ فيظن العالم « جيار » أن هذا الحيوان كان يسمن بأكل الطيور واللحوم لإزالة الروائح المكريهة التي تنصاعد من فيه ، ولعدم التهام لحوم الصيد . وبذلك يمكن استعماله كالكلب للصيد . ولكن من جهة أخرى نشاهد في قبور الدولة القديمة أنه كان ضمن الحيوانات التي تساق لتقدم قربانا ؛ كما يشاهد ذلك في مقبرة الكاهن « دوا كا » بالجيزة . وقد جاء في بعض النقوش (1) أنه كان يساق ليقدّم قربانا .

الدواجن : تدل الرسوم القديمة في عهد ما قبل الأسرات ، على أن المصري قد اجتهد في استئناس الطيور الكبيرة الحجم كالنعامة (2) ، والغرنوق (الكركي) . وقد عثر على بيض للنعامة منذ عصر ما قبل التاريخ وفي عهد الأسرات الأولى كانت أفنية الدواجن تحتوى على أنواع عدة من الكراكي تعرف في اللغة المصرية بالأسماء الآتية : « زات » ، « أو » ، « وز » ؛ ثم الأوز « سا » وكان على نوعين ويقدم طعاما للملوك ، والكهنة . وكانت توجد كذلك أنواع عدة من الأوز الصغير يشبه البط ، وقد عُدّت أسماؤه على مقابر الدولة القديمة . ونخص بالذكر منها ما يأتى . « را » ، « ترب » ، « خبت » ، « حز » ، « حاب » ، ومن البط الحقيقى وهو على أنواع منها : « سمن » ، « تست » ، « سا » ، « منوت » ، « سب » ، « سر » (3) .

(1) Leps. Denk. II, 15 b. Gizeh, VI th. Dyn.

(2) Capart, Les débuts de l'Art en Egypte fig. 144.

(3) Leps. Denk. II, pl. 69, 70, 74. Ti. p. 129. & Pth.hotep t. I, pl. 27.

على أن المصري كان مفرما بصيد الطيور في حقول البردى بمصايد المشهورة « البومرايح » وأهم هذه الطيور ما يأتي : الطائر « إيس » (أبو منجل) ، أو اللقلق الأسود^(١) ، ومالك الحزين وهو طائر من طيور الماء طويل العنق والرجلين ، وسمى بهذا الاسم لأنه على زعمهم يقعد بقرب المياه ، ومواقع نبعها من الأنهار فإذا جفت حزن على ذهابها ، ويبقى حزينا كثيرا ، ويعرف في مصر كذلك بالبشون^(٢) . ثم أبو ملقة أو الدواس ، والغرة ، والمهدد ، والغطاس ، والنكات ، والبيجة ، وفرخة البرك أو حمار الحجل وأبو مغازل ، والقاق ، والصرد أو الدقاس ، والحجل أو فرخ النيط ، واليمامة ، والقنبرة ، والحمامة بأنواعها ، وعصفور الجنة ، والزقزاق ، والسنان ، والسلوى ، والبط ، والقطا .

الدجاج : والظاهر أن الدجاجة لم تكن معروفة في مصر القديمة وليس لدينا أية صورة للدجاج إلا قطعة من الشيت^(٣) لطائر له عرف يشبه الديك ، ويظن « شميليون »^(٤) أنه عثر على رسم دجاجتين ، في مقابر « بنى حسن » . وقد جاء في تاريخ « تحوتس الثالث » عند ما كان يعدد المحاصيل التي حصل عليها بعد غزوته الثانية^(٥) طائران غير معروفين يبيضان كل يوم . والواقع أن الدجاجة والديك ، لم يظهرأ على الآثار المصرية إلا في العهد الإغريقي^(٦) وفي مقبرة « بتوزيريس » الواقعة

(١) معجم الحيوان ص ١٣٢

(٢) معجم الحيوان ص ١٢٥

(٣) Capart, Débuts de l'Art en Egypte, p. 231.

(٤) Champollion, Notices, II, p. 387.

(٥) Sethe, Urk. IV, p. 700.

(٦) Erman.Z. A. S. t. XXI, p. 97.

بالقرب من « تونا الجبل » نجد أن حاملة القرايين تحمل ديكا . (1)
البيض : كان يستعمل البيض للأكل منذ العهد الحجري الحديث . (2)
وقد شوهدت سلات البيض بين القرايين التي كانت تقدم للموتى (3) ،
وقد عثر في جبانة الجيزة في حفائر الجامعة على أوان ، وجرار من الفخار
مملوءة بالبيض المختلف الأشكال . وتدل أوانيها على أنه كان من عهد
الأسرة الثامنة عشرة ، ولكن للآن لم تحقق أنواع هذا البيض .
النحل وتربيته : تدل الآثار المكشوفة حديثا في سقارة (4) في طريق
هرم الملك « وناس » ، على أن تربية النحل ، وقطف شهبه . كانا من الأمور
التي يعتنى بها وكانا يعدان من المحاصيل التي يعتمد عليها . إذ نشاهد في هذا
المنظر جمع الجميز وحصد الغلال وحنى النحل إلخ وقد عثر في « زاوية الميتين » (5)
على حجرة فيها خلية نحل ، وقد اجتهد المثل في رسم هذا الإِناء ليظهر
دخول النحلة فيه لتضع شهبها ، وهذه العملية نشاهدها إلى الآن متبعة
عند فلاحي الوجه البحري إذ يتخذون من (القادوس) خلية يأوى إليها النحل ،
وكان المصريون يأكلون الشهد كثيرا . إذ عثر على رسوم في معبد الشمس ،
تمثل رجلا منهمكا في وضع الشهد في أوان ثم يخبثها (6) .

(1) Ann. S. A. vol. XX p. 105, pl. 4.

(2) Loret, La faune momifiée p. 309.

(3) Mission du Caire, t. V, pl. 3, hors textes.

(4) Hamy, Les ruches en poterie dans la Haute Egypte, 1901.

(5) Ann. S. A. t. XXXVIII p. 520.

(6) Z. A. S. 1907, t. XXXIX p. 9; p. 78, In the temple of Neouserrà
& Z. A. S. 1900, pl. 5,

الحيوانات التي كانت تربي لمنتجاتها الصناعية

أهم هذه الحيوانات النعام ، والخراف ، والطيوس ؛ إذ كان ريش النعام يستعمل حلية للرأس منذ عصر ما قبل الأسرات ؛ ومنذ العصر التاريخي ؛ نجد أن الإله « أوزيريس » كان يحلى لباس رأسه بريشتين جانبيتين ، وكذلك الاثنان والأربعون قاضيا الذين كانوا يجلسون في قاعة المحاكمة ؛ وعلى رأس كل منهم ريشة من ريش النعام علامة على العدالة والحق . ومع كل فيظهر أن النعام لم تشاهد في الآثار المكشوفة للآن في الدولة القديمة ؛ والظاهر أن ما كانت تحتاج إليه مصر من ريش النعام كان يجلب إليها من بلاد النوبة .

الغنم : تدل الآثار على أنه لم يكن يوجد في مصر قديما إلا نوعان من الضأن يختلفان اختلافا بينا .

والنوع الأول هو *Ovis longipes palaeoaegyptiacus* وهو ما يعرف بالكبش الوثاب (الكبش منديس) . وهو نوع من الضأن المستأنس وقرناه يرمزان للقوة على رأس الملك . ويمتاز بقرنين عموديين على محور الجسم ملتويين التواء حلزونيا يكاد يكون خطا عموديا مستقيما . وهذا النوع من الخراف وجد في مصر منذ عصر ما قبل الأسرات . ويمتاز بطول قدميه وذيله . والخراف من هذا النوع عفرة عظيمة تغطي مقدمة العنق . وأذناه متدليتان في بعض الأحيان والأنثى من هذه الفصيلة ليس لها قرنان . وقد عثر على هذا النوع في مصر منذ عصر ما قبل الأسرات . والظاهر أن شعره كان قصيرا ولذلك لم يكن صوفه يستعمل في صناعة الملابس .

وتدل شواهد الأحوال على أن هذا النوع قد انقرض من مصر منذ الدولة الحديثة وحل محله نوع آخر ظهر في مصر منذ الأسرة الثانية عشرة ، وقد تكاثر نتاجه تكاثرا عظيما حتى قضى على النوع الأول وهذا النوع الجديد يعرف باسم *Platyra aegyptiaca* 15، ويوجد عدد عظيم من بقايا هذا النوع وبخاصة قرونه ، وهي مخنطة تخنيطا متقنا . ويوجد في متحف فؤاد الأول الزراعى مجموعة جميلة منها .

ويمتاز هذا النوع من الخراف بقامة اعتيادية ووجه مقوس وأذنين متدليتين متوسطة الطول . وله قرون غليظة القاعدة متجهة إلى الخلف ثم تنحني إلى أسفل ثم إلى الأمام وله ذيل طويل ، ضخم (الية) عريض وقد جلب هذا الحيوان على ما يظهر إلى مصر حوالى ٢٠٠٠ ق . م . ومن المحتمل أنه كان محبباً للأهلين بسبب (ليته) العظيمة . والظاهر أن شعره كان كذلك قصيرا . ومن ذلك يمكننا أن نستنتج أن المصريين كانوا يأكلون لحم الضأن ولم يكونوا يعرفون الملابس الصوفية ؛ إذ كان ضأنهم لا ينتج صوفا صالحا للغزل . والحقيقة أن كل الأقمشة القديمة التى عثر عليها للآن فى المقابر المصرية القديمة كانت مصنوعة من الكتان . ولم يعرف أن الملابس الصوفية استعملت فى مصر أحيانا إلا فى العهد الإغريقى . وكانت تلبس كثيرا فى العهدين الرومانى والقبلى . غير أننا لا نعلم إذا كانت قد صنعت فى مصر أم كانت تجلب من بلاد سوريا أو اليونان وغيرها من بلاد البحر الأبيض المتوسط ، إذ كان الصوف يوجد فيها بكثرة . ولا يبعد أن يكون قد جلب إلى مصر صنف آخر منتج للصوف أو حسن نوع الشعر الذى كان يكسى به الجنس الجديد من الضأن حتى

أصبح صالحا لصناعة الملابس الصوفية .

ويقول « هردوت » أن المصريين كانوا يلبسون قباء من الكتان موشى بصور من الصوف الأبيض غير أنه في الوقت نفسه يقول أن دخول المعابد بملابس صوفية غير مباح . وقد كان بعض علماء الآثار يظنون أن الشعر المستعار الذى وجد فى المقابر من الصوف ولكن البحث العلمى أثبت أنه لا توجد واحدة من بينها من الصوف .

وقد عثر على كمية من الصوف فى تل العمارنة يرجع عهدها إلى الأسرة الثامنة عشرة ، مما يدل على احتمال استعمال الصوف والملابس الصوفية فى مصر فى هذا العهد غير أنه من المحتمل جدا أن هذا الصوف قد جلب إلى مصر من آسيا وبخاصة فى هذه الفترة التى كانت فيها مصر هى المسيطرة على هذه البلاد من كل الوجوه .

الحمار : كان الحمار يستعمل فى مصر لحمل الأثقال منذ عهد الدولة القديمة . وقد عثر له على رسوم عدة ، أهمها فى مصطبة « ورخو » ، من عهد الأسرة الخامسة ^(١) بالجيزة إذ نشاهد حمارين يحملان محفة بينهما لجلوس موظف للتفتيش على أعمال الحقول . وقد كانت أهمية الحمار عظيمة فى القوافل التى كانت تعد عند قدماء المصريين أهم طرق المواصلات مع خارج البلاد .

ولا نزاع فى أن البعثات التى قام بها المصريون فى عهد الدولة القديمة إلى سينا ، وفى مصر العليا كانت بوساطة الحير . وفى عهد الأسرة السادسة

(1) Leps. Denk. II. pl. 43,

عند ما قام « حرخوف » برحلته للبحث عن البخور ، والعاج من أعلى بلاد النوبة كان معه ٣٠٠ حمار . وقد عاد بها محملة بالنفائس من هذه الجهات (انظر ص ٣٨٢ وما بعدها من الجزء الأول) .

الثور : كانت الثيران ذوات القرون الطويلة تقوم بكل الأعمال التي يتطلبها الفلاح . فكانت تستعمل في حرث الأرض ، ودرس القمح ، وجر عربة الدفن ونقل الأحجار الثقيلة ^(١) من المحاجر إلى الأماكن التي كانت تبني فيها ، كالمعابد ، والأهرام .

الحصان : لم يظهر الحصان إلا في عهد الدولة الحديثة وستكلم عنه في حينه .

الجل : تدل الأحوال على أن المصري لم يستعمل الجل في العهد التاريخي على الأقل ^(٢) . ولكن عثر على تمثال صغير له من الفخار من عصر « نقادة » ^(٣) . وكذلك عثر على تمثال صغير آخر من عهد الأسرة الثامنة عشرة ^(٤) يمثل الجل حاملا إناءين متدلين على جانبيه . وقد ذكر أحيانا في متون الدولة الحديثة ؛ مما يدل على أنه كان مستأنسا « الجل يسمع الكلام » كما جاء في ورقة « بولوني » ^(٥) . وقد قال عنه « فيدمان » أنه هو الحيوان الذي يمثل الإله « ست » .

ويظهر أن الجل كان مكروها عند قدماء المصريين لصلته بالعرب (؟)

(1) Griffith, Pap. of Kahun, pl. 15, l. 14 ; pl. 31, l. 25.

(2) Congrès des Orientalistes, 1907 Art. Lefebure, Le chameau en Egypte, et Wiedmann, Sphinx, t. XVIII. p. 174.

(3) Mariette, Abydos, t. II P. 40.

(4) Petrie, Giza, & Rifeh, 1907 pl. 27.

(5) Gr. pap. de Bologne, No. 1086

ولذلك لم يستعمل عندهم . أما في العصر الإغريقي الروماني فقد استخدم
الجل بكثرة .

الحيوانات التي تربى لمساعدة الانسان وحمايته

الكلب : لقد استؤنس الكلب في مصر منذ عصر ما قبل الأسرات (1) ،
ودفن بالقرب من صاحبه كما ذكرنا ؛ وكان الأول من بين حيوانات العالم
التي استأنسها الإنسان . ولا شك في أن الإنسان في باديء الأمر قد لاحظ
فائدة هذا الحيوان في مساعدته على اقتناص فريسته حتى أصبح إخلاص
الكلب ، وتقانيه في حب صاحبه دافعا له ليتخذ منه صديقا ، إذ كان
حاميا له ، ومدافعا عن ماشيته عند إغارة الحيوانات المفترسة عليها . ومن
ذلك ما وجدناه في أحد مقابر « مير » (2) من عهد الدولة القديمة لرسم
كلب جالس في مؤخرة القارب بجوار الصياد . ويقص علينا « ديدور الصقلي »
أن الكلب قد ساعد « إزيس » في العثور على جثة « أوزير » (ربما
يقصد « أنوب ») ؛ ولذلك تأتي الكلاب في احتفال عيد إحياء « أوزير »
بعد الإلهة « إزيس » تخليدا لذكرى مساعدتها لها ، وقد كان نباح
الكلاب النذير بالخطر في الأرياف مما كان يؤكد لرجال الشرطة
القائمين بالحراسة في المنطقة بقرب وقوع خطر كما ذكر لنا كاتب مريض
كان يستشفى في الأرياف إذ يقول « كان على باب دارى مائتا كلب

(1) De Morgan, Recherches, t. II p. 162, No 8.

(2) Meir, t. II, 4.

من الكلاب العظيمة ، وثلاثة كلب سلوقي واقفة على باب بيتي طيلة اليوم . فيكون مجموعها خمسة ، وفي أثناء النهار لا تقول شيئاً . ولكن أثناء الليل عند ما تقلق أثناء نومها فإنها تضايق المار وتقوم جماعات لترجعه من حيث أتى بنباحها ، وإذا أمكن نهشته بأنيابها « (1) .

وقد كان الكلب يستخدم كالأسد في ساحة القتال . فعند ما كان الفرعون يحصد رؤوس الأعداء ، كان الكلب السلوقي (2) يمزق ثيابهم . وتوجد أنواع عدة من الكلاب المصرية قد جاءت عن طريق التناسل مع ابن آوى ، والذئب ، والضبع ، وكل فصيلة الكلب الأخرى المتوحشة ومنها الكلب السلوقي . وهو مشهور باقتفاء الأثر ؛ ومهاجمة الغزلان ؛ والثعالب وقد كان مشهوراً في الصيد في الصحراء خلال عصر الدولة القديمة . (3) وتشاهد كلبة في ضيعة العظيم « زاو » من هذا النوع ترضع جراءها (4) الثلاثة ورقبتها محلاة بطوق ، ويوجد نوع آخر يشبه الضبع ، وفيه كل صفاتها ولا يمتاز عنها إلا ببلو مؤخرته ، (5) ولم يرسم هذا الكلب قط جالساً . وفي وقت الصيد لا يهاجم بل يبقى بالقرب من سيده الذي لا بد أنه كان يستعمله مثل الضبع لاقتفاء الأثر بشم رائحة الفريسة فيرشد سيده إلى مكانها .

(1) Pap. Anastasi, V, pl. 99 trad. Maspero, Notes au jour le jour, Bib. Egy. t XXXII p. 316.

(2) Rosellini, Mon. Civ. pl. 66. & Champ. mon. III pl. 63.

(3) Ann. S. A. E. t XXXVIII pl. XCVII.

(4) Deir el Gabrawi, t. II pl. II. & Ptah-hotep, I p. XXII.

(5) Lenormant, Comptes-rendus de L'Académie des Sciences. 1870 p 593, 632. Sur les Animaux employés par les Anciens Egypt. à la chasse et à la guerre, & Virey, Rekhmara pl. 6,

أما الكلاب العادية في مصر ذات اللون الأسود ، والاعضاء النحيلة والأذن المنتصبة . فيقال إنها هي التي تمثل الإله « أنوب » . ولكن ذلك مشكوك فيه جداً . وهناك أنواع أخرى من الكلاب رسمت على مقابر بني حسن وبخاصة الكلب السلوقي ، الذي يشبه الثعلب ، ونوع الكلب الذئبي الذي ظهر في عهد الأسرة الثانية عشرة .

وقد أصبحت كل هذه الأنواع من الكلاب رمز « الاتباه » ، وقد استعمل نابحا في تسمية الشعرى النجم « سريوس » (نجم الكلب) الذي يظهر عند بداية الفيضان ، وينبه الزارع المصري إلى حلول الفيضان⁽¹⁾ . وقد كانت هناك كلاب صغيرة للهو والتسلية ، تكون دائماً مراقبة لأصحابها ، وهذه الكلاب تلاحظ كثيراً على اللوحات المائتية . وكان الكلب دائماً مع الأسرة لا يفارقها ، جالساً على مؤخرته . وقد كان أحياناً يؤدي دور الرجل فيتكلم عن نفسه مفتخراً بأمانته : « أنا الكلب الذي ينام في الفراش ، كلب السرير الذي يحب سيده »⁽²⁾ .

وكانت الكلاب الصغيرة تدفن في توايت ، ويوجد في متحف « بروكسل » تابوت من هذا النوع⁽³⁾

القطعة : كان قدماء المصريين يربون نوعين من القطط⁽⁴⁾ : نوعاً عظيم الحجم وهو الذي يمثل الإلهة « باست » ، ويقول « استرابون » :

(1) Loret & Gaillard. Faune mom. p. 3.

(2) Stèle du Caire, Grab und Denks Lang & Schäfer, No. 20,506 p. 96.

(3) Capart Z. A. S. t XLIV (1908, p. 13)

(4) Loret, la Faune mom. pl. 4 & 19.

أنه لذلك السبب كانت قدس القطة في كل مصر وتسمى (Felis Maniculatas) ونوعا آخر صغيرا يشبه القطة التي نراها بيننا الآن مستأنسة .
أخذت القطة تعتبر كالقرد حيوانا مدللا عند قدماء المصريين في عهد الدولة الحديثة . (1)

وفي عهد الدولة الوسطى تشاهد القطة مستخدمة في صيد الطيور ، وذلك للقبض على الطيور التي اصطادها سيدها ، أو لصيدها (2) بقفزة واحدة ؛ وأحيانا يرسم القط متحفزا للوثب على فأر (3) .

النمس المصرى . (أو فأر فرعون) : (معجم الحيوان ص ١٢٧) .
وهو مضر للتمساح ، والحية ، والظاهر أنه كان مستأنسا في مصر حسب قول بعض العلماء (4) منذ الدولة القديمة ، وهو يتقصد روح الإله « آتوم » الذى يمثل الشمس الغاربة عند قدماء المصريين . وذلك لأنه يظهر عند الغروب ، ويتلع الثعبان (5) الذى كان يعتقد أنه يلتهم الشمس عند الغروب (أى الإلهة آتوم) .

القرد : تدل الآثار المكتشفة إلى الآن على أن المصرى كان يستأنس نوعين من القردة منذ الدولة القديمة (6) : نوعا منها لونه أخضر ، وهو كلبي الرأس ويسمى « ميمون » أو « قردوح » Papio hamadryas

(1) Mem. Miss. du Caire, t. V p. 552.

(2) W. M. t. II p. 108.

(3) Leps. Denk. II pl. 130.

(4) Lifebure Bib. Egyp. t XXXIV. Le nom Egyptien d'Ichneumen p. 314

(5) Leps. Denk. II, pl. 12, 60 & 77.

(6) Meidum, pl. 17. Mefermaat pl. 24 & Rock tombs of Sheikh Saïd Urana, pl. 4.

وهو عظيم الخلق قبيح المنظر ؛ أما الثاني فيرسم بلون أصفر ، وهو أصفر من الأول بكثير ، ويلاحظ في رسوم « ميدوم » (1) أن قردين يلعبان مع طائر من فصيلة أبي منازل ، وقزم ، وذلك لتسليّة الميت في قبره ، كما كان يتسلى به في دنياه . ومن الطريف أن الأقزام كانت موكلة في العادة بحراسة القردة (2) . وفي رسوم أخرى يشاهد القرد مربوطا في كرسي سيده بطوق أحمر حول وسطه (3) . وقد لوحظ في مقبرة « تسن » من الأسرة الخامسة أن القرد كان يصحب سيده مع الكلاب للصيد ، والقنص (على الجدار الشرقى من مصطبة « تسن » بمقابر الجامعة المصرية) .

الرفق بالحيوان والعناية بتربيته

إن أظهر دليل على رقى أى شعب من الشعوب ، أو أى فرد فطرى ، هو معاملته للحيوان الذى يستخدمه فى عمله ، وفى غذائه ، وفى تسليته . وسنعرف الآن كيف كان المصرى يعامل الحيوانات التى يربها ، وكيف كانت يعمل جل ما فى طاقته لقضاء كل ما تحتاج إليه فى رفق ورحمة . كان الفلاح منذ استأنس الحيوانات يقودها إلى الحقل ، والمراعى فى أغلب الأحيان حرة طليقة ، وأحيانا كان يربطها بجبل ، ويقودها . أما الجامحة فكانت توكل إلى خدم معينين . وعند ما يدعو الأمر الراعى

(1) Meidum, pl. 24.

(2) Deir el Gabrawi, t. 3, pl. 17, Sheikh Saïd, pl. 4 & 6.

(3) Mem. Miss. Arch. 1889, t. I, p. 3. Tomb d'Amenhotep.

إلى عبر قناة كان لزاما عليه أن يستخدم قارين لنقل البهائم من شاطئ إلى شاطئ (1) . وذلك عندما تكون القناة عميقة . لكن عند ما يكون الماء ضحضا . فإن الراعى ينحوض الماء بجانب قطيعه حاملا العجل الصغير على كتفيه خوفا عليه ، وليجعل البقرة تتبعه شفقة على رضيعها ، وكان الفلاح دائما يخاف عبر القناة العميقة . ولذلك كان يقرأ تعويذة لحفظ ماشيته من شر التماسيح التي كانت تسبح في الماء (2) .

أما رعى البهائم فكان لا يختلف كثيرا عن عصرنا هذا . إذ كان الراعى يترك قطيعه في المراعى الخضراء ، ويتفيا ظلال الأشجار ، ولكن الحيوانات السريعة العدو مثل الوعول ، والظباء والغزلان ، كانت لا تترك حرة للرعى . بل كانت تبقى في الحظائر وتأكل في أوقات معينة بوساطة راعيها في مزاود خاصة . وفي الغالب يطعمها الراعى بنفسه (3) . وأما الطيور (4) مثل أنواع الكراكي ، وغيرها . والأوز والبط ، وأنواع الحمام فإن حوصلتها كانت تملأ بالحبوب يد راعيها (الجفر) .

الحظائر : كانت البهائم تعود كل ليلة لتنام في حظائرها كما يقول المصرى نفسه ، ولكن في وقت الحصاد كانت تبقى في الحقول ويقيم لها الفلاح حظائر من غصون الأشجار وذلك للمحافظة عليها من الحيوانات الضارية . وكانت الحيوانات تربط في أوتاد مغروسة في الأرض وأمام كل حيوان مذوده الذى يأكل فيه ، وكذلك الطيور كانت لها أبراج خاصة

(1) Ti. p. 188.

(2) Agr. A. E. Hart. p. 250 Fig 65 & fig 65 P. 251.

(3) Agr. A. E. Hart. p. 255 fig. 67.

(4) Ti. pl. 122.

فسيحة الأرجاء كما يشاهد ذلك في مقبرة « نى » و « بتاح حنب »^(١) بسقارة .
العناية بأجسام الحيوان : لم نشاهد على الآثار قط جزءا وبر الحيوانات
أو تطهيرها ، ولكن « ديودور »^(٢) يقول أن النعم كانت
تجز ثلاث مرات في العام وإذا حكمنا بالظواهر فإننا نعتقد أن
الحيوانات لابد أنها كانت تنظف دائما ، يضاف إلى ذلك أننا نعلم أنه
وقت تفضية الحيوان كانت حوافره تنظف بفرجون كان يصنع في عهد
الدولة القديمة من ليف النخل^(٣) ، كما هو الحال في عصرنا الآن ، إذ
يستعمل ليف النخل في غسل الحيوان والأنسان في الأرياف . وقد ذكر
لنا « مسيرو »^(٤) أن الثيران كانت تغسل مرة كل يوم على أقل
تقدير عند الظهيرة .

وكان الراعى يخصى ثيرانه ليسمنها وكذلك لجعلها صالحة للعمل ؛
وربما كانت هذه العملية تجري في مكان خاص يسمى « مكان الخصى »^(٥)
ويتساءل « جيار » هل المصرى كان يخصى الثور لأجل أن يشب بدون
قرن ليقدمه هدية لصاحب الضيعة العظيم وبذلك يتفادى كى الحيوان
مرات عدة وهو صغير حتى لا يكون له قرنان كبيران ؛ وهذه الطريقة
الأخيرة هى التى يستعملها أهالى أوساط أفريقيا حتى الآن ، فإذا كانت
هذه النظرية صحيحة فأنها تدل على مقدار عناية الرعاة المصريين بالحيوانات

(1) Agr. A. E. Hart. 260.

(2) Diodore t. I, 36.

(3) Loret, La Flore. 2 édit. p. 35.

(4) Maspero, Etudes Egyptiennes, t. II p. 40,

(5) Pyr. Pepi, t. I, 605.

التي يملون إليها ورقهم بها ؛ على أن الرعاة كانوا دائما كثيرى الاهتمام
بحيواناتهم وما عسى أن ينالها من البرد بعد أى عمل شاق ؛ ففى
« ميدوم » (1) نشاهد ثورين مغطيين بغطاء مربع مزين بخطوط سوداء
وحمر. يخيل للإنسان أنه حصير من القش ؛ وكان هذا الغطاء يوضع
دائما على العجول الصغار . (2) وكانت حيوانات الحمل لا يوضع على ظهورها
شئ ، إلا إذا غطت ظهرها بردعة مربوطة على وسط الحيوان وكان
معظم الحمير يزود بالبرادع (3) عندما كانت تحمل المحصول من الحقل .

وكان كل من الراعى وحارس الثيران يفتخر بالزينة التى كان يحلى بها
حيواناته ؛ فكان الواحد منهم يتقن فى تأنيق قلائدها (4) التى كانت
أحيانا قطع زينة حقيقية تستعمل تعاويذ لمنع الحسد (العين المؤذية) ،
وعندما كانت الحيوانات تذهب إلى المراعى كان سائقها يضع زهرة من
البشنين فى قلادة الحيوان (5) زينة له .

أما حراس الحيوانات المدللة التى كان يعتز بها سيد البيت فكان جلّ همهم
أن يتفانوا فى تجميل لباسها وتزيينها . ففى مقبرة فى « زاوية الميتين » (6)
نشاهد قردا مقيدا ومنطى بلباس على شكل (البرنس) محكم
رشيقي المنظر .

وكان المصرى يعتنى بتمية تاج ماشيته وقد رسم لنا عدة مناظر لهذه

(1) Meidum, pl. 28.

(2) Miss Murray, Mastaba Saqqara, pl. 23.

(3) Beni Hassan, I, p. 29.

(4) Leps. Denk. II, pl. 102

(5) Ti, pl. 129

(6) Leps. Denk. II pl. 107.

العملية واجتهد في تحسينها بالطرق المتبعة الآن ؛ فنشاهد مثلا في مناظر إحدى مقابر « دشاشة » ⁽¹⁾ ثورا بقرنين على شكل هلالين يلفح بقرة ذات قرنين رباعي الشكل (أى ملتوين) وفي مقابر « دير الجبراوى » نشاهد بقرة ذات قرنين جميلين يلفحها ثور بدون قرنين ؛ وفي مقابر « بنى حسن » نشاهد قطعانا من الماعز والحير ⁽²⁾ تلفح . والواقع أن المصرى كان يفرح فرحا عظيما عند ما كانت ماشيته تلفح وتنتج نتاجا حسنا ؛ وكانت الماشية تضع حملها في الحقول وفي المراعى ، وقد رسم المصرى كل ذلك منذ الدولة القديمة ؛ كما يشاهد في مناظر طريق الملك وناس « وقد كان المصرى أول من اخترع التفريخ الصناعى كما ذكر ذلك لنا « ديدور » ⁽³⁾ وغيره وكان المصرى يتبع في حلب البقرة طريقة فنية إذ كان لا يحلب حمة حمة بل كان يحلب حمتين أو ثلاثا أو أربعا ⁽⁴⁾ دفعة واحدة ويجتهد في ألا يترك حمة واحدة دون أن يبتز لبنها لأنه كان في ذلك شل للعضو الذى لا يحلب و تقليل من إنتاج اللبن بشل الثدي الذى يهمل ولعمري فإن الإنسان في عصرنا هذا يجتهد في تلافى هذا الخطر وكان المصرى يخلط لبن البقرة بالشهد ويقدم للمتوفى قربانا مرطبا ⁽⁵⁾

أمراض الحيوانات : تدل كل الظواهر على أن المصرى كان يعنى بترية

(1) Leps. Denk. t. II, pl. 132.

(2) Ann. S. A. E. t. XXXVIII pl. XCVII.

(3) Diodore, t.I. 74. Pline, X 54. & Bull. I. Eg. 5 Série, t. V, 1911, p. 177.

(4) Deir el Gabrawi, Tomb of "Aba" pl. 11, — 187.

(5) Pap Ebers, pl. V, 1, 1.

حيواناته إذ في الواقع كانت لها الأهمية الكبرى في حياته حتى أن الفرعون كان يعد سنى حكمه حسب التعداد الذى كان يعمل للحيوانات كل عامين وقد عثر على ورقة لأطب الحيوان من عهد الأسرة الثانية عشرة^(١) وهى فريدة فى نوعها ؛ غير أنها لبوء الحظ ممزقة ولكن من البقية الباقية منها يمكننا أن نحكم بأن كل فلاح كان يهتم بحيوانه والأمراض التى تنتابه وطرق علاجه . ففى مقبرة « تى » لاحظ الراعى أن أحد العجول لم يكن فى نشاطه المعتاد فى شد حبله ولذلك كتب الفنان أن الراعى يفحص ما الذى حدث لهذا العجل^(٢) . والظاهر أن فن معالجة الحيوان قد بلغ شأوا عظيما عند الأطباء البيطريين إذ قد لاحظ « Cuvier »^(٣) عندما فحص بعض عظام مكسورة فى الحيوانات التى تعيش فى وادى النيل أن هذه العظام قد ضمت إلى بعضها بطريقة فى منتهى ما يكون من الخدق والمهارة تدل على نبوغ المصرى فى جبر العظام المكسورة بطريقة عملية ليسهل للحيوان استعمال العضو الذى حدث فيه الكسر .

معاملة الحيوان برفق : لم نر فى النقوش المصرية أن المصرى كان يعامل خيواناته معاملة سيئة اللهم إلا الحمار الذى كان يضرب لعصيانه وجموحه ، أما باقى الحيوانات فكانت تعامل على وجه عام برفق وحنان إذ الواقع أن العصا أو السوط (الفرقلة) كانت تستعمل للأرهاب فحسب . أما صغار الحيوانات فكانت موضع عناية وحنان إذ كانت تحمل على

(1) Griffith, Hieratic Papyri from Kahum, p. 12, Vol 3.

(2) Maspero, Etudes égyptiennes, t. II p. 105.

(3) Cuvier, Mémoires sur l'Ibis des Anciens Egyptiens dans les annales du Musée, 1804, p. 116 etc.

الأغناق أو في حضن حاملة القرايين كما يلاحظ ذلك في رسوم مقابر الدولة القديمة إذ نرى الغزال الصغير أو العجل محمولا بين ذراعى حامل القرايين (1) كما نشاهد أميرات يلاطفن بأيديهن عصافير صغيرة قد سقطت من أوكارها . وأطفالا يداعبونها كذلك (2)

وقد كان الراعى يقود ماشيته إلى الحقل وهو ينشد لها الأغانى بحدا . خاص . وقد كتب الفنان بعض هذه الأغانى التقليدية ، والظاهر أن هذه الأغانى كان لها تأثير على البقرات وقت حلبها مما يزيد في مقدار اللبن الذى كانت تعطيه يوميا ، إذ عملت تجارب لذلك في أمريكا فوجد أن البقرة تعطى ١٥ ٪ من اللبن زيادة على إنتاجها الطبيعى عندما تحلب والراعى يحدو لها بقاء يهدى من أعصابها (3) ويدخل عليها السرور . وكان الفلاح وهو يرعى ماشيته لا يكتفى بملاحظتها بل كان ينمت كلا منها بصفة تغلب عليها فكان يسمى « الذهبية » و « الجميلات » و « اللامعة » (4) إلخ .

وعند اشتداد الخطوب في البلاد بسبب الثورات مما يسبب أهال الحيوان وعدم العناية به يصف الكاتب هذه الحالة بقوله : « الحيوان يشكو من الشكوى قلبه يئس أو ينتحب بسبب حالة البلاد » (5) .
وعند ما يتناطح ثوران أو تشبك قروها معا كان الراعى يتدخل فى

(1) Ptah-hotep, pl 15, 25. (2) Mémoires, Inst. Egypte, t. III p. 528, 532 & 555 (3) Journal du Paysan, Mars 1921.
(4) Lefebure, Recueil Champollion, 1922, Tombeau de Petosiris p. 83. (5) Admonitions, pl. III, I, Ed. Gardiner; et Maspero, Causeries d'Egypte, p. 267.

الحال بينهما برفق (1) .

ولما كان المصرى يخاف ضياع حيوانه بين الحيوانات عند ورود الماء كما يخاف عليها من السرقة فإنه كان يعلمها بعلامة خاصة ، بكتيتها فى الغالب على الكتف أو على القرن وتوجد قرون كباش من نوع *Ovis platyra* مختومة على قرونها وهى محفوظة بقسم الزراعة القديمة بمتحف فؤاد الأول الزراعى . وقد عثر على مناظر لهذه العملية (2) كما عثر على حيوانات تحمل علامات خاصة .

ومنذ الدولة القديمة نجد أن الكهنة كانوا يختمون الحيوان ، ومن المحتمل جدا أن هؤلاء الكهنة كانوا ينتخبون من بين الحيوانات ما يصلح للمعابد وما هو صالح للذبح . ويجب أن تكون هذه الحيوانات خالية من كل مرض أو تشويه مما يدنس لحمها . ويقول « هردوت » أنه على أثر موت أى عجل « أيس » ترسل المعابد مفتشين عند مربى الحيوانات فيفحصون كل حيوان فى حالته وقوفه ورقاده على ظهره ثم يسحبون لسانه ويرون إذا كان سليما وخاليا من العلامات التى ذكرتها الكتب المقدسة فإذا لم يجدوا فى جسم الحيوان شعرة واحدة سوداء مما يجعله مقبولا فى أعين الآلهة فإن الكهنة تعلمه بوضع جبل حول قرنيه مصنوع من ألياف نبات البردى ويضعون عليه طينة ويختمون عليها بخاتم خاص .

تعداد الحيوان : ذكر على حجر « بلم » الذى يرجع عهده إلى الأسرة الخامسة أن الحيوانات كانت تحصى فى عهد الدولة القديمة كل عامين

(1) Deshasha, Tomb of Shedû, pl. 28. (2) Rosellini, Mon. Civ. t. II, pl. 42 & Wilkenson, Manners t. II, p. 84.

مرة وذلك أمام ممثلين للإدارة الملكية ، كانوا يرسلون إلى الأرياف
لعدد الحيوان حتى تقدر الضرائب بمقتضى ذلك ، ولكن منذ عهد الدولة
الوسطى كان التعداد يعمل كل عام (١). فكان يقدم كل فلاح الحيوانات
التي فى حراسته ، وهى التى يرعاها لحساب صاحب المقبرة حيث قد
رسم المنظر ؟ ، الذى يمثل ذلك آثارهم وأحسن مثال لدينا عن تعداد
الحيوانات وأهميته. ، عثر عليه فى « البرشة » من عهد الدولة الوسطى فى مقبرة
أحد أمراء مقاطعة «هرمو بوليس» ، وهو « تمحوت حتب » (٢) . وفى مناظر
هذه المقبرة نجد تعداد كل أنواع الحيوان والطيور ، وحتى البيض .

أسماك النيل والبحيرات

تدل مناظر صيد الأسماك العدة التى نشاهدها على الآثار المصرية منذ
أقدم العهود على أن النيل كان يحتوى على أنواع أسماك مختلفة استعملها
المصرى طعاما له . وقد كان صيد الأسماك من الأشياء المحيية للمصرى منذ
عصر ما قبل الأسرات ، وقد رسمت الأسماك التى كانت تصاد فى النيل
بالشبكة أو بالشص بكل دقة ومهارة كل نوع بتفاصيله وخواصه ؛ وقد
استعمل المصرى منذ فجر التاريخ عشرة أنواع من سمك النيل إشارات
فى اللغة المصرية القديمة لكل مميزاتها ؛ ولذلك عرفنا اسم كل سمكة

(1) Hieratic Papiri Kahun. 1898.

(2) El Bersha, Part, I, Plates XVII — XIX.

بلغت القوم (١) وقد رسم « روزليني » كل أنواع السمك المصرى النيلى بألوان الطبيعة وسنسردها هنا بأسمائها بالعربية واللاتينية والمصرية حسب ما وصلت إليه البحوث العلمية حتى الآن .

(١) « عحا » : *Lates niloticus* وهذا النوع يطلق عليه اسم « لاطس » أو « القشر » أو « الفرخ » أو « حمار البحر » وأول ما عثر على رسمها في « ميدوم » (٢) وهذه السمكة يبلغ طولها أحيانا نحو ١٨٥ سنتيمتراً : وقد كانت هذه السمكة تقدر في بلدة « لاتوبوليس » (إسنا) وكانت تخطط هي وصغارها (٣)

(٢) *Tilapia nilotica* : وهو السمك « البلطى » أو « المشط » وله زعانف طويلة على الظهر . وأقدم رسم عثر عليه في « ميدوم » (٤) وكذلك في مصطبة « بتاح حنب » (٥) بسقارة .

(٣) « عز » *Mugil cephalus* : وهذا النوع يعرف في مصر باسم « البورى » ويمكن تمييزه بزعانفه الأربعة التى تشاهد كل اثنين على جانب . وقد رسم أولا على آثار « ميدوم » (٦) ورسمت كثيرا في كل مناظر صيد الأسماك (ويقول عنها « جاردنر » أنها البورى) .

(٤) « خا » *Mormyrus Kannume Oxyrinque* : وهي سمكة تعرف في مصر باسم « قنومة » وهي طويلة ، لينة الزعانف ، صغيرة الفم لها خطم

(1) Montet, Bull Inst. Franc. d'Arch. 1913 t. XI p. 39. & Resellini, Mon Civ. t. II, pl. 25 : (كل أنواع سمك النيل ملونة .)

(2) Petrie, Meidum, pl. 12 & Von Bissing, Gem-ni-Kai, T. pl. 26, fig 39. (3) Loret. La Faune Mom. p. 5 (4) Meidum, pl. 11

(5) Ptah-hotep I, pl. 9 (6) Meidum pl. 9. pl 26, fig 44-

طويل دقيق ويحكى أنها مزقت الإله «أوزير» . ونشاهد مرسومة في مقبرة «تى» وفي مقبرة «جنى كاي» بسقارة .

(٥) «نعر» *Clarias anguillaris* : وهو المعروف في مصر باسم «القرموط» (في اللغة العربية) «الجرى» و «السلور» .

(٦) *Synodontis schall.* : وهو المعروف عندنا باسم «الثال» وهو سمك سلوى من أسماك النيل .

وقد عثر على رسم هذه السمكة في مقبرة «تى» وكذلك في مصطبة «لیدن» وأيضا في مقبرة «جنى كاي» بسقارة . (1)

(٧) «بوت» *Schilbe mystus* ذكره «الدميرى» في باب السمك وسماه «شلبا» وصاحب «المحيط» سماه «شلبة» (معجم الحيوان صفحة ٢١٨) والظاهر أن هذا السمك كان له رسمان . وقد وجد رسم هذه السمكة على جدران مقبرة «جنى كاي» (2) بسقارة .

(٨) «شبت» *Tedreodon. Fahaka* وتسمى عند الصيادين «الفقاقة» . ويطلق عليها كذلك اسم «فهكة» ، و «فهقة» (3) .

(٩) «بس» بنى (جردنر ٤٦٧) *Barbus bynni*

وقد شوهد مرسوما على جدران مقبرة «مرا» بسقارة وعلى آثار الأسرة الثانية عشرة من عهد «سنوسرت الأول» (4) .

(1) Gem-ni-Kai, I, pl. 26, fig 45. (2) Gem - ni - Kai, I, pl. 26, fig 48.

(3) معجم الحيوان ص ٢٤٦ .

(4) Buli. I. Eg. t. XI p. 41 fig 3.

وكذلك توجد أنواع أخرى كانت تصاد من الماء المالح والعذب على السواء وبخاصة الفرخ *Perca* ويسمى « فرخ نيلي » .
وكانت هذه الأسماك التي ذكرناها يتكون منها الطعام الأساسي لسكان وادي النيل في عهد العصر الحجري الحديث كما تدل على ذلك بقايا المطابخ التي درسها العالم « دي مرجان » (1)
والظاهر أن السمك كان من الأطعمة الأساسية عند المصريين في العصور التي تلت حسب قول « هردوت » (2) إذ يقول : إنه كان يوزع على العمال جزية من السمك يبلغ وزنها نحو ٩١ جراما وفي بعض الأحوال كان يحرم أكل السمك إذ كان يعد نجسا (3) وفي نتيجة « سليه » أو نتيجة الأسرات كان يحرم أكل السمك عامة في أيام مخصوصة من السنة ولعلمهم أرادوا بذلك إفساح المجال لإكثار السمك في النيل لأنه في هذا الوقت تقل الأسماك لقلة المياه . مثال ذلك في ٢٢ تموت (توت) : « لاتأكل السمك في هذا اليوم إذ فيه الكفرة يصيرون سمكا في الماء » (4) وكذلك في ٢٨ كيهك و ٢٥ برمودة وفي ٢٩ كيهك ينصح بطرد العامة

(1) Recherches t. I, p. 99.

وقد عثر كذلك على تعاويذ كثيرة المدد وعلى أوان في شكل أسماك من عصر ما قبل الاسرات أنظر ص. ٨٤ الجزء الأول .

Diospolis Parva, pl. 3, pl 116. Nagada & Ballas pl. 12, No. 82 pl 27, No. 68 a. b. c. pl. 48 & Hierakonpolis, t. II pl. 64, Abydos, t. II pl 39. (2) H., II 72 & Strabon XVII 812 & 72.

(3) William Radcliffe, Fishing from the Earliest times, London 1921. p 319 to 326.

في هذا الكتاب خمس المؤلف طرق صيد الأسماك في مصر وعند كل الاسم .

(4) Calendrier Sallier, p. 1 & 2.-Chabas, Le calendrier des jours fastes et néfastes de l'année, Paris.

الذين أكلوا سمكا . أما في المقاطعات التي تكون تحت حماية أى نوع من هذه الأسماك فإن القوم كانوا يمتنعون عن أكله فمثلا في « إيسنا » كان يحرم أكل « اللوطس » (1) الذي يقدس في هذه الجهة.

وقد جاء في « بلوتارك » (2) أن في مقاطعة « القنومة » « أكسرنك البهنسا » لا يأكل القوم أى نوع من السمك وكذلك يقول متقا (3) مع « هردوت » (4) أن الكهنة كان محرمًا عليهم أكل السمك الذي كان يعد لحمه نجسًا ، (5) يضاف إلى ذلك أن فصل التعاويذ السرية من كتاب الموتى (6) لا يمكن أن يتلوه إلا رجل طاهر مطهر لم يكن قد أكل لحما ولا سمكا . وقد كان الكهنة يحرمونه أمام بابهم في اليوم التاسع من الشهر الأول من السنة على حين أن كل مصرى كان يأكل على عتبة بابه سمكة مشوية . (7)

وكان يجفف السمك ويحفظ وكذلك كانت البطارخ تستخرج منه كما يشاهد ذلك في رسوم مقبرة « نبكاو وحر » في سقارة .

(1) William Radcliffe Sacred fishes. p. 327 - 332 (2) Isis & Osiris p. 18. (3) Isis & Osiris p 7. (4) H. II p. 37.
(5) La Stèle de Piankhi I, 151, & Lacau, Z. A. S. t. XI 42.
(6) Todtenbuch, Facsimilies of Papyri, 1889 pl. 26 The Chapter of Coming 1898 p. 145, 146. (7) H. II. 37

طرق الصيد وأنواعها

صيد الأسماك : كان لصيد الأسماك عند قدماء المصريين طرق عدة : وهى الصيد بالشص ، والصيد بالشبكة ، والصيد بالسلال ، والصيد بالخطاف ، والصيد بالنشالة ، وكان صيد الأسماك محبباً عند القوم للدرجة كبيرة كرياضة وتسلية كما أنهم قدسوا بعض الأنواع كالأنوم والياض والبنى لورودها ضمن أقاصيصهم الدينية المتوارثة ، وكانوا يتجنبون صيدها فى أيام انخفاض الماء فى النيل محافظة عليها ، وقد هدموا فى حفظ الأسماك وتعليقها كما يظهر ذلك على الأخص فى مقبرة « قى » بسقارة من الأسرة الخامسة .

أدوات صيد الطيور

عصا الرماية « البومراىج » : هذه الآلة كانت تستعمل لصيد الطير منذ عصر ما قبل التاريخ وهى تتكون من قطعة من الخشب رقيقة نوعاً ومنحنية عند ثلثها الأخير تقريبا فى شكل زاوية منفرجة ، وكانت تستعمل لصيد الطيور فى المستنقعات حيث يرى الصياد عادة واقفاً على قارب من البردى وسط النباتات المائية متحفزا لرمى العصا أو لاستعمالها وهو قابض عليها لضرب الطيور القريبة منه ثم القبض عليها بعد إصابتها . وهذه الآلة تشبه آلة البومراىج التى لا تزال تستعمل فى استراليا للصيد .

شباك صيد الطيور : تتكون هذه الشباك في مصر القديمة من

الجريد أو الخشب ونسيج الكتان وحبال الليف أو قشر جريد النخيل
١ - الشباك السداسية الشكل التي نراها ممثلة بكثرة على جدران الآثار
المصرية القديمة قرية الشب بالثب الشباك التي كانت إلى عهد قريب جدا ، ولا
تزال في بعض الجهات المصرية مستعملة خصوصا في بلدة « المطرية » .
« وأبو رواش » . وتتلخص طريقة استعمالها في تثبيتها في الأرض بأوتاد
وتركها مفتوحة بوساطة مضارب من الجريد تتحرك عند إغلاقها بوساطة
الحبل المعد للسحب بعدما تدخل الطيور مغرورة بالحب الملقى فيها ،
وتتحرك المضارب بعد إغلاقها ويبقى العمال يشدون الشباك حتى يلتقي القبض
على الطيور وتعباً في الأقفاص كما هو موضح على جدران المعابد والمقابر
القديمة في « سقارة وأهرام الجيزة وبنى حسن » .

ب - صيد السمك بشبك الحقول :

الطريقة التي كانت متبعة عند قدماء المصريين لصيد السمك
تتلخص في أن يسحب الرجال شباكا مربعة تقريبا بنظام : اثنان من
الأمم واثنان من الخلف وبين هؤلاء رجلان أو أكثر . والمعروف عادة
أن السمك يأوى إلى الزرع ليلا فعندما يشعر بحركة الشباك والصيادين
في أثناء سيرهم يهيم طائرا فيعوقه الشبك ويسرع الرجال الأوسط إلى
التقاط ما يحجزه الشبك ؛ وهذه الطريقة واضحة في مقابر « سقارة » من
عصر الدولة القديمة حوالي (٢٥٠٠ ق م .)

فخاخ الصيد :

كان قدماء المصريين مولعين بصيد الطيور بالفخاخ المختلفة

وكانت فى جملها تكون من الخشب أو الجريد ونسيج الكتان أو الليف والبوص ، وأهم هذه الفخاخ هو الفخ ذو الطارتين الذى يرى ممثلاً على الأخص فى مقابر « بنى حسن » التى يرجع تاريخها إلى عهد الدولة الوسطى حوالى (٢٠٠٠ - ق ٠ م)

ادوات صيد الحيوانات البرية

القوس والنشاب : استعمل القوس والنشاب منذ عصر ما قبل التاريخ وقد صنع من الخشب والجلد والكتان (أو الليف) . أما النشاب فكان يصنع من البوص أو الخشب ورأسه من الصوان ثم البرنز فيما بعد ، وفى بعض الأحيان كانوا يصنعونها من عظام الحيوانات أو من سن الفيل إذ كانت تثبت القطعة بعد تشذيبها فى عود رفيع من البوص تربط فيه بخيط أو بقطعة من الجلد .

ولقد كان القوس والنشاب من أهم أدوات الصيد ويستعملها هواة الصيد والرمية الذين يرغبون فى أظهر مهارتهم .

فخاخ صيد الفزلان والتيال :

تكون هذه الفخاخ من حلقة من الجريد يخرج منها شوك النخيل من المحيط إلى المركز حيث تجتمع الأطراف المدية وتكون بوّرة ويتصل بالحلقة حبل ذو عروة (خية) حول البوّرة ينهى بقطعة من الخشب أو الجريد . وطريقة استعمالها هى أن يلقى عدد منها فى طريق الحيوانات وعند ما تطوؤها بأقدامها ينزلق ظلف الحيوان فى البوّرة فتنجبس على التجويف الواقع أعلى الظلف فيضغط

الشوك على رجل الحيوان وتطبق الحية عليه ، وتعاكسه قطعة الخشب والحبل فتعوق جريه ، وفي هذه الحالة يسرع الصياد إلى القبض عليه .

الحية : استعمل قدماء المصريين ضمن أدوات الصيد الجبال ذات الحية وهي تحتاج إلى مهارة في الرمي لإحكام تطويق الحيوان بها . وهذه الطريقة كانت تستعمل غالبا في حالة ما إذا أريد اقتصاص الحيوان حيا دون إصابته بضرر ما . وكان الصياد في هذه الحالة يختبئ وراء الكثبان أو الشجيرات ويأخذ الحيوان على غرة . وهذه الطريقة تشبه ما هو متبع الآن في جنوب إفريقية ، والفارق بينهما أنهم في الأخيرة يستعملون الجبال ذات الحية وهم على ظهور الخيل .

ولأجل أن نربط الماضي بالحاضر نذكر هنا على وجه الأجمال الحيوانات والطيور التي لا تزال باقية في صحارى مصر وما جاورها من البلدان ويصطادها غواة الصيد والقتص حتى الآن . وسنرى أن بعض الحيوان والطيور قد انقرض أو تقهقر إلى الشمال بسبب قلة المرعى والجفاف وغير ذلك من الأسباب . .

وأهم أنواع الطباء التي لا تزال تصاد في مصر حتى الآن هي العفر والآرام والأولى سمراء الظهر بيضاء البطن تعلوها حمرة وتعيش في الصحراء الغربية بعيدة عن الساحل الشمالى بعشرين كيلومترا في الصيف وأربعين في الشتاء . أما الرثم فهو الغزال الأبيض الذى يسميه عرب الصحراء الغربية « الآريل » ، والمعروف عنه أنه يسكن الرمال ويوجد فقط في منخفض القطارة الجنوبية حتى الواحات البحرية . ويرى كثيرا في الكثبان الرملية بين تبغى والعرج وفي رمال خميسة بواحة سيوة وفي أم عشاق حتى الققب .

والآريل أكبر من الفرجسما وأقل منه عدوا . ويصطاد الآن العرب هذه الغزلان بالبنادق ، وكانوا من قبل يطلقون في صيدها الكلاب والعقاب والفهود . ومنهم من كان يصطادها بإيقاد النار ليفشى بصرها فينقضون عليها . وتكثر الغزلان كذلك في سهول البحر الأحمر بالصحراء الشرقية حيث يصيدها العبايدة والبشاريون بالشراك ويأكلون لحومها .

ويوجد في جبال العوينات الخراف البرية المعروفة بالودان وكذلك الماعز البرى أو البدن في جبال سيناء والصحراء الشرقية وبخاصة في وادى الرشراش القريب من حلوان .

أما الحمر الوحشية فتوجد في الصحراء الشرقية الجنوبية في منطقة جبال العلبة ويمتاز هذا النوع من الحيوان بأنه ينصب على القطيع واحداً منها يحرسها وهي نائمة فإذا اشم رائحة الخطر أعطى إشارة تنبئ بذلك ومن حيوانات الصحراء الشرقية الارنب البرى المسمى بالوبر ويكثر في وادى أبرق وجبال العلبة وجنوب سيناء وقد ورد ذكره في التوراة وكان محرماً أكله على بنى اسرائيل . أما المها فهو معروف في الصحراء الغربية وكان يصطاد بوساطة الخيل والكلاب .

ويوجد النمر في الجبال العالية ويندر ظهوره لأن من طباعه الانفراد والعزلة وهو يخاف الانسان إلا إذا هاجمه ومما يذكر عنه أن يحب اقتراس ، مايلقاه من غنم وغزلان ويحب لحوم الحمر ، ولذلك يصيده بها العرب في جنوب سيناء . والفهد يعيش في جهة تبغ بمخفف القطارة وكذلك يوجد أحيانا بالصحراء الغربية بالقرب من منطقة أهرام الجيزة . وكذلك يوجد القط البرى في كل الصحراء وبخاصة بالصحراء الغربية وفي الواحات ووديان

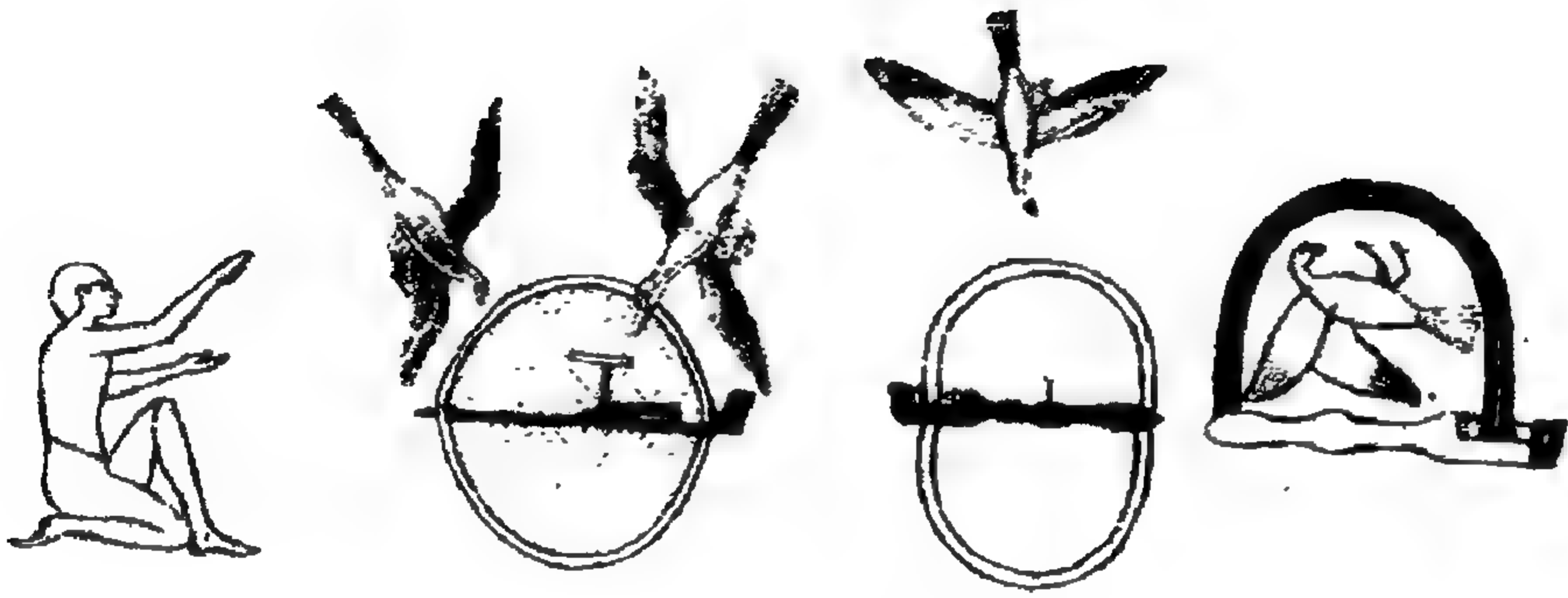
الواحات الشرقية . اما الثعالب فتوجد فى الصحارى المصرية كلها على ألوان شتى منها الأبيض والأسود وهى تعيش على الفيران الصحراوية . والذئب يوجد فى الواحات والوديان المتاخمة لوادى النيل وأحيانا تكون قرية من المساكن .

والضبع يوجد فى الصحراء الغربية ويقل فى الصحراء الشرقية ؛ ويعد الضبع عدواً لدوداً للحمير والأغنام فى الصحراء الغربية ويمكن العرب له ليرموه بالرصاص ويأكلون لحمه لاعتقادهم أنه دواء للكبد وربما كان ذلك من الأسباب التى دعت قدماء المصريين لاستئناسه .

أما الطيور التى تعيش فى الصحارى المصرية فمنها السمان . ويكثر فى الساحل الشمالى من مصر ويصاد بأنواع مختلفة من الشباك . ومن عادته أنه ينزح إلى الواحات الجنوبية والبحرية وسيوه ويصاد بنوع من الفخاخ يسمى « المردخ » .

وأما جوارح الطير فتوجد فى مصر منذ أقدم عصورها ولا تزال إلى الآن ، وأهمها العقاب والنسر والصقر ، والشاهين ؛ وكذلك يوجد الكركى والبط البرى واللغز والحبرج ، والغرنوق ، والكروان ، والقمرى ، وأنواع من القطا والقطقاط ، والجلم ، وأبو حوام ، والهدهد ، وأبو صفير وأبو حواح وأبو قطقاط وأبو رقيص . ويوجد فى وادى النطرون الحضارى والبلبول ، والفرفور ، والشرشير ، والغر ، والكركى والعنز والبشوروش ، وأبو قردان والنسر والصقر والشاهين والباقة ، والبومة والمصاير على اختلاف أنواعها . ومن المدهش أن سكان الصحارى لا يأكلون لحم الطير الحر أى الصقور لما يكنونه له فى صدورهم من الأجلال والتعظيم فنراهم يدفنونها

كما تدفن (١) موتاهم لأن الصقر في عرفهم طير كريم حر وفي لصاحبه
وقد يكون لهذا الاحترام علاقة بعبادة هذا الحيوان عند قدماء المصريين
منذ أقدم العهود .



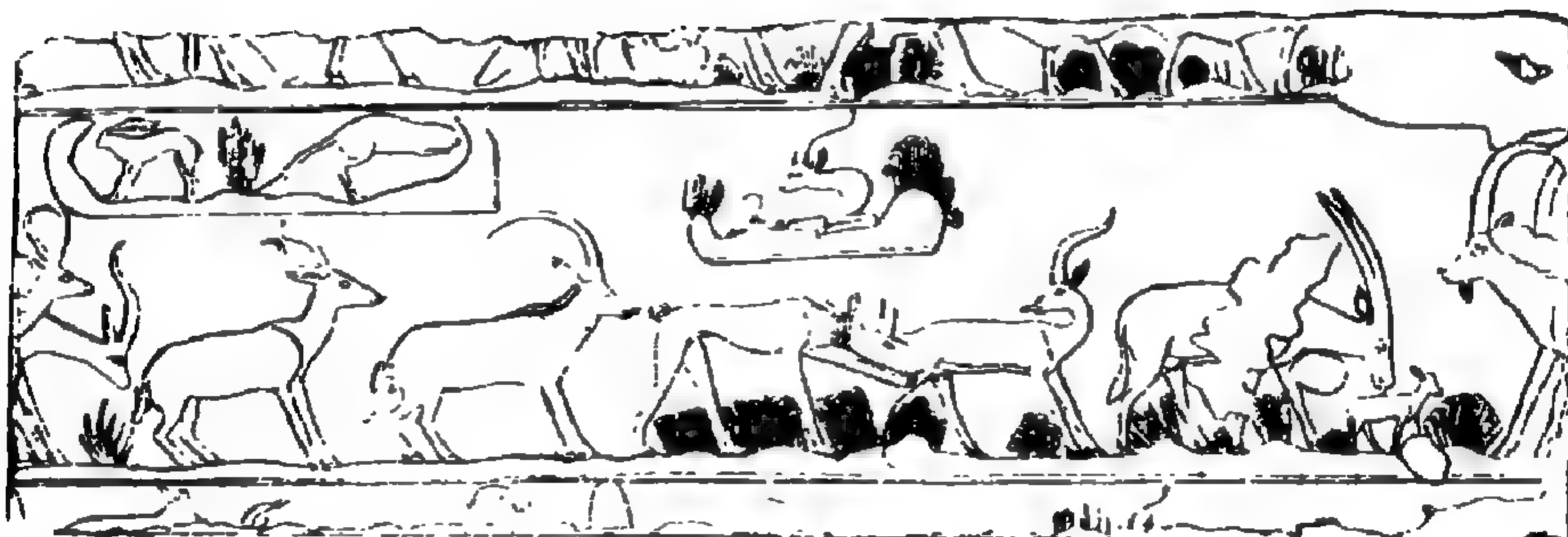
منظر يبين طريقة من طرق صيد الطيور بالفتاخ

(١) عن محاضرة ألقاها حسين بك عنان في نادي الصيد ومقال كتبه الدكتور مأمون عبد
السلام في جريدة الاهرام .



الطائر « مالك الحزين »

الطائر « أبو منجل »



منظر وجد في سقارة منقوشاً في طريق هرم « وناس » ويمثل مجموعة من طباء العبيد وهي من اليمين : الوعل ، ومهابة بيته ، وغزال آدم ، ومهابة أبو حراب ، والتيتل ، وغزال إزابيل .



منظر يمثل جنى عمل النحل

أنواع الأحجار التي استعملت في مصر قديماً

حب الطبيعة أرض مصر أنواعاً عدة من الأحجار الجميلة منها ما هو لين ومنها ما هو صلب ، مما جعل مصر منبت صناعة الأحجار واستعمالها في كل العالم . ولا غرابة إذن ، إذا وجدنا مصر أعظم أمم العالم إتياناً وحذاً لفن البناء . وقد ضربت بهم صائب في هذا المضمار منذ أقدم العهود وبخاصة أنها قد توصلت إلى استعمال الآلات النحاسية لتقطعها منذ عصر ما قبل التاريخ . وقد جاء على أثر ذلك استعمال الأحجار في البناء منذ عهد الأسرة الأولى كما ذكرنا ذلك عند الكلام على الفن وستكلم هنا أولاً عن الأحجار التي استعملها المصري في البناء ثم تتبع ذلك الكلام عن الأحجار التي استعملها لصنع الأواني ، والتماثيل والأثاث . ثم نفرد فصلاً خاصاً للأحجار التي كان يعدها المصري ثمينة ، أو شبه ثمينة وهي التي لا يعد بعضها في نظرنا اليوم كذلك .

وأهم أحجار البناء ما يأتي : -

الحجر الجيري الأبيض ، ويكثر وجوده في التلال التي تحف وادي النيل من القاهرة إلى ما بعد مدينة إسنا بقليل ، وكذلك يوجد في نقط مختلفة ما بين إسنا وقرب أسوان . فمثلاً يوجد على شاطئ النهر في « فرس » بجوار السلسلة ، وبالقرب من كوم امبو . أما في الوجه البحري فيوجد بالقرب من الاسكندرية عند المكس وفي جوار السويس وقد ظل المصريون يستعملون هذا النوع من الحجر ، حتى منتصف عهد الأسرة الثامنة عشرة ، إذ أخذ وقتئذ يحل محله بكثرة الحجر الرملي ، غير أن

استعماله لم يهمل دفعة واحدة ، إذ استعمله « سبتى الأول » فى بناء معظم معبده بالعراصة المدفونة ، وفى بعض أجزاء معبد « رعسيس الثانى » فى هذه البقعة أيضا ، يضاف إلى ذلك أن بعض المقابر من كل العصور كانت تنحت فى صخور هذا الحجر ، كما يشاهد ذلك فى الجيزة ؛ وسقارة وطيبة ، وغيرها .

وأحسن أنواع هذا الحجر كانت لها محاجر خاصة تقطع منها كمحاجر طرة والمعصرة (١) ؛ والجبلين ؛ وهى التى يمكن مشاهدة آثارها القديمة إلى يومنا هذا . وقد عثر فى محاجر طرة على نقوش يرجع عهدها إلى الأسرة الثانية عشرة وتمتد إلى الأسرة الثلاثين (٢) . غير أنه لدينا وثائق ونقوش ، تدل على أن قطع الأحجار من طرة يرجع عهده إلى الأسرة الرابعة (٣) ، ولكن مما لا شك فيه ، أن أحجار هذه الجهة كانت تستعمل فى بناء آثار سقارة منذ الأسرة الثالثة ، بل ومن المؤكد منذ الأسرة الأولى ، إذ وجدت بعض أحجار من طرة داخله فى مباني هذه الفترة .

أما محاجر المعصرة ، فالنقوش التى عليها ترجع إلى الأسرة الثامنة عشرة (٤)

(1) Br. A. R. V, pp. 101, 154. & pp. 87, 73, 78.

(2) op. Cit 1, 7 39, & II p. 799, 875, & Flinders Petrie, A History of Egypt, t. I, (1923) p. 192, & II (1924) p 36 & III (1918) pp 166, 375, 385. & S. Birch, Tables found in the Quarries at Turah. & H. Vyse, Maasara in the pyramid of Giza III pp 93-103, & G. Daressy, Inscriptions des Carrières de Tourah et Maasarah dans Annales du Serv. XI (1911) pp. 257-68.) . & Spiegelberg Dic. Demotischen Inschriften der steinbrüche Von Tourah & Maasara dans Annal. du Serv. VI (1905)p. 219-33.).

(3) Br. A. R. II p. 26. (4) Flinders Petrie, op. cit. III p. 375

حتى عصر البطالسة . وفي محاجر الجبلين نجد نقوشا من الأسرة التاسعة عشرة حتى العصر الرومانى .

وهناك محاجر أخرى عليها نقوش فرعونية ، فنجد فى البرشا مثلا محجرا عليه خرطوش من عهد الأسرة الثلاثين (1) ، و بالقرب من العرابة عثر على محاجر قديمة ، وفى قاو الكبير (2) توجد محاجر عليها نقوش ديموطيقية وفى بنى حسن توجد محاجر تمتد أكثر من ثلاثة أميال على حافة التلال . وقد كسيت أهرام الجيزة بأحجار من طرة . أما البناء الأصيل فكما ذكرنا قد قطعت أحجاره من محاجر محلية ، عثر عليها حديثا حول الأهرام نفسها أما قول الأستاذ « بترى » بأن أحجار الهرم قطعت من طرة فلا صحة له (3) . كما أثبتنا ذلك فيما سبق . وربما كان لكتاب الأغريق والرومان العذر فى قولهم أن أحجار الأهرام قطعت من طرة ، وذلك لأن الأهرام فى عصرهم كانت لاتزال مكسوة بأحجار طرة ، ولذلك حكموا بأن كل الأهرام قد بنيت من هذا الحجر .

والظاهر أن أحجار طرة كانت أجود أصناف الأحجار الجيرية ، ولذلك لا يبعد أن يكون الملوك قد استعملوها فى بناء معابدهم . حتى بعد نقل العاصمة إلى طيبة التى لم يكن بجوارها صنف ممتاز لبناء معبد كعبد « امنحتب الأول » الذى تشبه أحجاره كثيرا أحجار طرة .

على أن الحجر الجيرى لم يقتصر استعماله على البناء فحسب بل كان

(1) Fraser, in E. Newberry El Bersheh, P. II p. 56. (2) Somers Clarke & Engelbach, Ancient masonry, p. 15. (3) Flinders Petrie, The pyramids & temples of Giza, p. 209.

يستعمل فى أغراض أخرى كنجحت التماثيل ، وذلك لسهولة العمل فيه .
وقد تجلى فن إتيان التماثيل فى هذا النوع من الحجر فى عهد الأسرتين
الخامسة والسادسة فى الجزيرة وسقارة ، وكذلك كانت تصنع منه الأبواب
الوهمية وموائد القربان ، وغير ذلك من الأثاث المائى .

الحجر الرملى : وهو مركب من كوارتز رمل ناتج من تحلل صخور
قديمة ومتناسك بعضه مع بعض بكميات قليلة من الطين والجير والحديد ، وتتألف
منه التلال الممتدة من إسنا على حافى النيل حتى أسوان ، ثم من
« كلبشا » إلى وادى حلفا . على أن المصريين لم يستعملوا الحجر الرملى مادة
للبناء إلا منذ الأسرة الثامنة عشرة . ولكن رغم ذلك وجدت منه بعض
كتل مستعملة فى المباني يرجع عهدها إلى ما قبل الأسرات ، وكذلك
استعمل فى عهد الأسرة الحادية عشرة فى الأساس ، وفى رصف الأرضية
وفى العمدة ، وفى أحجار السقف ، وفى حجرة العمدة فى معبد « متوحتب »
فى الدير البحرى .

على أن انتشار استعمال هذا الحجر لم يبدأ إلا فى منتصف الأسرة
الثامنة عشرة إذ الواقع أن بناء معظم معابد الملوك منذ هذه الفترة حتى
العصر الرومانى كان من هذا الحجر ؛ وأهم هذه المعابد ما يأتى : معبد
الأقصر ، والكرنك والقرنة ، والرملسيوم ، ومدينة هابو ، ودير المدينة ،
ودندرة ، وإسنا ، وأدفو ، وكوم امبو ؛ والفيلة ، وكذلك المعابد التى فى بلاد
النوبة ما بين أسوان ووادى حلفا ، يضاف إلى ذلك معابد الواحات الواقعة
فى الصحراء الغربية . على أن هناك معابد قد بنى بعضها بالحجر الجبرى
الأبيض وبعضها بالحجر الرملى ، ونخص بالذكر منها معبد « تحوتس الرابع »

ومعبد « مفتاح » أما معبد « حثبوت » بالدير البحري فقد بنى كله
بالحجر الجيري الأبيض..

وأهم محجر رملي يقع عند السلسلة على النيل على مسافة ٤٠ كيلو
مترا شمالي أسوان بين أدفو ، وكوم امبو ، و يوجد عليه قهوش منذ
الأسرة الثامنة عشرة حتى العصر الروماني (1) ، وكذلك توجد محاجر
سراج على مسافة ٢٠ ميلا جنوبي اسوان ؛ وفي بلاد النوبة في قرطاس
على بعد ٢٥ ميلا جنوبي أسوان أيضا ، وهذه المحاجر الأخيرة كانت
مستعملة حوالى الأسرة الثلاثين حتى العصر الروماني ، وبخاصة لقطع
الأحجار التي بنى بها معبد قرطاس ، ومعبد الفيلة (2) . أما الأحجار
التي بنيت بها معابد بلاد النوبة فكانت تقطع من محاجر بالقرب من تلك
المعابد نفسها ، كما يشاهد ذلك في المحاجر الصغيرة القريبة من دابور ،
وتافا ، وبيت الوالى .

حجر الجرانيت : تطلق لفظة جرانيت على فصيلة كبيرة من الأحجار المتبلورة
البركانية الأصل ، وهي ليست منسجمة في تركيبها كالحجر الجيري ، أو
الحجر الرملى بل في الواقع تتركب من عدة عناصر مختلفة أهمها الكوارتز
والفلسبار ، والميسكا ، غير أن السلكون هو المادة السائدة في
تكوين هذا الحجر .

وقد استعمل الجرانيت مادة للبناء ، منذ بداية عصر الأسرات ، وقد

(1) Weigall, A guide to the Antiq. of Upper Egypt, 1913 p. 358-360., & Br. A. R. II, 348, 932, ; III, 205, 552, 627. ; IV, 18, 702. & Flinders Petrie, A Hist of Eg. III, 1918 pp 8, 119, 143, 144.
(2) Borchardt, Travels in Nubia, pp 113-116 & Weigall., op. cit. pp. 496-497.

ذكرنا فيما سبق استعماله في البناء ، وفي كسوة الهرم الثالث وفي بناء معبد الهرم الثانى لحفرع ، وفي داخل الأهرام . والجرايت الذى كان يستعمل في أقدم العهود ، هو الجرايت المحبب المستخرج من أسوان وكان الجرايت الرمادى يستعمل كذلك ، ولكن بقلّة .

ولا نزاع في أن الجرايت السيني التي ذكره « بليني » نسبة إلى قطعه من « سيني » (1) (أى أسوان) هو الحجر الجرايتى الأحمر . غير أن لفظة « سيني » الآن تستعمل للدلالة على الصخور الجرايتية ذات اللون الرمادى القائم .

ويوجد الجرايت منتشراً في أماكن عدة في جهات القطر ، ولكنه يكثر في أسوان ، وفي الصحراء الشرقية ، وفي سيناء ، وبكميات قليلة في الصحراء الغربية . وأهم محاجره في أسوان اثنان أحدهما على مسافة كيلو متر جنوبى المدينة والثانى يقع على الجانب الشرقى من الهضبة . غلى أنه توجد محاجر صغيرة في جزيرتى الفتين وسهيل ، وكذلك في أماكن أخرى قليلة . وقد ذكرت محاجر أسوان والفتين والمحاجر التى عند الشلال الأول في الوثائق القديمة منذ الأسرة السادسة (2) ، يضاف إلى ذلك محجر في مكان يدعى « إيهت » لم يعين مكانه بالضبط بعد ، غير أنه من المحقق أنه يوجد بمجوار الفتين .

ولا نعرف محاجر للجرايت استعملها قدماء المصريين خلافاً لمحاجر أسوان وماجاورها ، إلا محجر الجرايت الأحمر في وادى الفواخير (3) ، وهو

(1) Pliny. XXXVI p. 17. (2) Breasted, op cit. 1, 42, & 1, 322, 324, 321. (3) Barron & Hume, The Topog. & Geol of the Eastern Desert of Egypt, Central Portion, pp. 49, 118, 119, 265.

جزء من وادى حمامات بين قنا والقصير . ولا يعرف تاريخ بداية العمل فيه ولكن من المحتمل أنه فتح في عهد الرومان .
وقد كان الجرانيت يستعمل بقلّة منذ عهد ما قبل الأسرات لأغراض أخرى غير البناء ، وبخاصة في صنع الأواني ^(١) ، والأطباق ؛ وفي بداية عصر الأسرات كثر استعماله ، وذلك لكثرة استعمال الآلات النحاسية . وكان كذلك يستعمل لعمل التوايت ثم لنحت التماثيل والمسلات ، واللوحات ، وأشياء أخرى .

حجر المرمر : يعرف اسم المرمر عادة بكلسيوم السلفات (الجبس) . ولكن المرمر المصرى يختلف عنه تماما إذ يتركب من كربونات الكلسيوم . والمرمر المصرى هو حجر مكون من كربونات الكلسيوم المتبلور . والمضغوط ، ويكون لونه أبيض ، أو أبيض مائلا إلى الصفرة وقطاعاته الرقيقة تكون شفافة بعض الشيء ذات عروق في غالب الأحيان ، وقد كان المرمر يستعمل في رصف الممرات وكسوة الحجر ، وفي عمل المحاريب ، وبدى استعماله منذ الأسرات الأولى إلى عهد الأسرة التاسعة عشرة ؛ فمثلا استعمل في حجرة في هرم سقارة المدرج ^(٢) (الأسرة الثالثة) وفي حجرة في معبد الوادى الملك « خفرع » ، وفي هرم « وناس » بسقارة (الأسرة الخامسة) . وكذلك في عهد ملوك الأسرة السادسة ^(٣) في رصف الجزء الأوسط من معبد هرم « تيتى » وفي الأسرة الثانية

(1) Lucas, Egyptian predynastic, stone vessels. in J. E. A. t, XVI 1930 p. 202. (2) Firth, Annales du Ser. t. XXV, 1925 pp. 153-154. (3) Quibell, Excav. at Saqqara. 1907-8 p. 19.

عشرة في محراب معبد الملك « سنوسرت الأول » (1) في الكرنك الخ .
ويوجد المرمر في سينا ، وفي أماكن أخرى مختلفة في الصحراء على
الشاطئ الشرقى للنيل . فنجد منه محاجر في وادى جراوى القرب من
حلوان يرجع عهدها إلى الدولة القديمة (2) ، وفي الصحراء الواقعة بين القاهرة
والسويس ، وفي مغاغة ، حيث قطعت منه الأحجار في عهد محمد على (3)
وفي الأقليم الواقع ما بين المنيا وجنوبى أسيوط ، وفي هذا الأقليم تقع
أهم المحاجر القديمة لهذا الحجر ، وأهمها محجر «حتوب» الواقع على بعد ١٥
ميلا شرقى المارنة ، وفيه نقوش يرجع عهدها إلى الأسرة الثالثة ، حتى
الأسرة العشرين (4) وهناك محجر آخر في الجنوب واقع في وادى أسيوط
استعمل في أوائل الأسرة الثامنة عشرة ، ثم استعمل ثانية في عهد محمد
على وقد ذكره الكتاب الأثرى منذ القرن الرابع قبل الميلاد .

والواقع أن هذا النوع من الحجر كان محيا لدى المصريين القدماء
وذلك لأنه كان جميل المنظر بعد الصقل هذا إلى أنه كان لنا يسهل العمل
فيه . وفوق استعماله للبناء فإنه كان يتخذ لأغراض أخرى فقد عثر على
أدوات منه في عهد ما قبل الأسرات (5) إلى أواخر العهد الفرعونى وما
بعده ، فكانت تصنع منه الأواني العدة ، ورسوم الدبابيس الجميلة الأشكال

-
- (1) Chevrier, Annal. S. A. XXVIII p. 120. (2) Flinders Petrie,
& Mackay. Heliopolis, Kafr Ammar & Shurafa pp. 39-40.
(3) Dr, Hassan Sadek Bey. Controller, Mines & Quarries Dep.
Egypt & Hume, Notes to the Geological Map. of Eg. p 46.
(4) Breasted, op. cit. I, 7, 305 690. & Fraser. Hatnub. in proc. Bib
Arch. XVI (1893-4) p. 73-82. (5) Lucas, Egyptian pre-
dynastic stone vessels in, J. E. A. XVI p. 201.

وتنحت منه التوايت منذ عهد الأسرتين الثالثة والرابعة كتابوت الملكة « حتب حرس » وتابوت الفرعون « سبتى الأول » ؛ يضاف إلى ذلك أن الأواني التي كانت توضع فيها أحشاء المتوفى وموائد القربان ، والأطباق والجرار ، والتماثيل كانت تصنع منه أحيانا ، وبخاصة في عصر الدولة القديمة إذ وجدت كميات ضخمة من الأواني في هرم « زوسر » مصنوعة من هذا الحجر .

حجر البازلت : هذا الحجر لونه أسود ثقيل الوزن متماسك الذرات تظهر حياته في أغلب الأحيان بريقا ، وهو على نوعين ، النوع الأول حياته دقيقة جدا لا يمكن تمييزها إلا بآلة الميكروسكوب وهو البازلت الحقيقي أما النوع الثانى فيمكن تمييز حياته بالعين العادية ، وهو ما يسمى « الديوريت » ، ونوع البازلت الذى يستعمل في مصر هو في الواقع ديوريت ذو حبات دقيقة ، وكان يستعمل في عهد الدولة القديمة لرصف بعض أجزاء من المعابد كما يشاهد ذلك في رقعة هرم «خوفو» التى لا يزال جزء منها باقيا إلى الآن ؛ ومن هذا الحجر كذلك رصفت بعض أجزاء من معابد ملوك الأسرة الخامسة في سقارة كالردهات والطرق الجنازية ، وبعض الحجرات وكذلك بعض أجزاء معابد الشمس في «أبو صير» الواقعة بين الجيزة وسقارة (1) .

ويوجد حجر البازلت في جهات عدة من القطر كمحاجر «أبو زعبل» والمحاجر الواقعة في الشمال الغربى من أهرام الجيزة في منطقة أبو رواش وفي الصحراء الواقعة بين القاهرة والسويس ، وفي الفيوم ، وعلى مسافة قريبة من الجنوب الشرقى من

(1) Firth, Annal du Serv. XXIX p. 65, 68.

سمالوط ، وفي أسوان ، وفي واحة البحرية ، وفي الصحراء الشرقية وسينا. (1)
والظاهر أن البازلت الذى كان يستعمل فى عهد الدولة القديمة فى
الجبانة الممتدة من الجيزة إلى سقارة قد جلب من الفيوم . إذ ليس هناك
أى دليل على أن البازلت الذى كان يستعمل فى هذه الجبانة قد جلب
من « أبو زعبل » ، وبخاصة إذا علمنا أن نوع البازلت الذى استعمل فيها
يقرب من النوع الذى فى الفيوم ؛ وقد ذكر الدكتور حسن بك صادق
فى خطاب له سنة ١٩٣٣ بأنه ليس هناك أدلة على أن محاجر بازلت
أبو رواش قد استعملت قديما ، هذا رغم أن نوع البازلت الذى فيها
من صنف ردىء متحلل .

وقبل أن يستعمل حجر البازلت فى البناء كان يستعمل رغم صلابته
فى عمل الأواني التى يرجع بعضها إلى العصر الحجري الحديث ، وعصر البدارى
وعصر ما قبل الأسرات . يضاف إلى ذلك أنه عثر على رؤوس بلطات منه
من العصر الحجري الحديث ، وقد استعمل البازلت أحيانا فى عمل التوايت ،
ومن المحتمل أن تابوت الملك « منكاورع » الذى غرق فى البحر كان
من هذا الحجر ، غير أن هناك عدة توايت ظن أنها من البازلت ؛
ولكنها فى الواقع من الشيست الرمادى الأزرق الخفيف (2) .

وكان البازلت يستعمل كذلك فى عمل التماثيل ، والناس أحيانا يخلطون
بين الجرانيت الرمادى ، والجرانيت الأسود ، والشيست ، وبين البازلت . ومن
أجل ذلك كانت تعرف أشياء بأنها بازلت ، والواقع أنها ليست ببازلت .

(1) Lucas, in J. E. A. t. XVI p. 202

(2) Lucas, Ancient Egyptian materials & Industries p. 357.

حجر الكوارتسيت : وهو أحد أنواع الحجر الرملى المتماصك الحبات وقد تكون من الحجر الرملى العادى متماسك بالسليكا المتداخلة باختلاط كوارتس متبلور بين حبات الرمل ، وتختلف ألوانه ونسجه فيكون أبيض أو مائلا إلى الصفرة أو أحمر كما وتكون حباته دقيقة أو غليظة ، ويوجد فى الجبل الأحمر⁽¹⁾ القريب من القاهرة ، وفى الصحراء الواقعة بين القاهرة والسويس ، وفى مغارة على طريق بير حمام⁽²⁾ وفى منخفض وادى النظرون وكذلك على قم تلال الأحجار الرملية فى النوبة فى شرق النيل⁽³⁾ حتى شمال أسوان ، وفى سيناء⁽⁴⁾.

ولم يستعمل فى المباني بكثرة ، ومعظم ما نعرفه أنه صنع منه بعض أعتاب أبواب لهرم الملك « تيتى » فى سقارة وفى كسوة حجرة الدفن فى هرم هواره . (الأسرة الثانية عشرة) . وكذلك فى الهرم الشمالى والهرم الجنوبى فى مرغونة (الأسرة الثانية عشرة) . ومحاجر الجبل الأحمر لا تزال مستعملة وقد كان على صخورها نقوش ، ولكنها اختفت الآن ، وهذا الحجر والأحجار التى كانت تقطع منه قد جاء ذكرها مرات عدة فى الوثائق القديمة⁽⁵⁾ .

وكان يستعمل هذا النوع من الحجر خلافا للمباني فى عمل التوابيت والتماثيل كالتابوت الذى فى هرم هواره من (الأسرة الثانية عشرة) ، وتابوت « تحوتس الثالث » ، و « حتشبسوت » ، و « توت عنخ آمون »

(1) Barron, Topog. & Geol. of district between Cairo & Suez p. 56.

(2) op. cit. p. 61, 62, 103, 104. (3) Lucas op. cit. p. 61.

(4) Barron. Topog. & Geol of Peninsula of Sinai. Western portion, pp. 163, 199. (5) Breasted, op. cit. V p. 78, 130.

وكلا من الأسرة الثامنة عشرة ، وكرأس الملك « ددف رع » من الأسرة الرابعة ، وتمثال الملك « سنوسرت الثالث » من الأسرة الثانية عشرة ، و « منحوتس الرابع » ، و « سنموت » (الأسرة ١٨) وتمثال الإله « فتاح » (الأسرة ١٩) . وهناك شك في أن تمثال « ممنون » (المنحوتب الثالث) مصنوعان من هذا النوع من الحجر .

الأحجار التي استعملها المصري في غير البناء

وهناك أحجار أخرى استعملها المصري غير ما ذكرنا في صنع التوابيت والتماثيل ، والأشياء الصغيرة كالكنوس والأواني ، والآلات والأسلحة . وأقدم شيء بقي لنا في مصر إلى الآن هو ما صنع من حجر الطمران . والواقع أن أنواع الأحجار التي استعملت في مصر وتتميز بعضها عن بعض من أعقد الأشياء التي تعترض عالم الآثار في بحوثه ؛ وسنكتفي هنا بذكر هذه الأحجار واستعمالها على أبسط وجه ، غير متدخلين في التفاصيل الفنية .

حجر البرشيا : هو حجر مركب من قطع ذات زوايا حادة ، وتوجد منه أنواع مختلفة في مصر فمنها الأحمر المائل إلى البياض ، والنوع الأخضر وهو صخر مختلط بأم من مادة أخرى ، أما البرشيا الحمراء والبياض فتتألف من قطع بيضاء مختلطة بأم حمراء ويوجد بكثرة على الشاطئ الغربي للنيل في مواطن عدة . فيوجد في شمال النيا ، وبالقرب من أسبوط (1) .

(1) Hume, Explan. notes to Geol. Map. of Egypt. p. 46.

وفي طيبة ، وبالقرب من أسنا ، وكذلك في الصحراء الشرقية (١) ، وهذا الحجر كان يستعمل على وجه خاص في عهد الأسرات الأولى في صناعة الأواني (٢) ، ثم اختفى بعد ذلك حتى العهد الروماني إذ كان يصدر وقتئذ إلى إيطاليا.

أما البرشيا الخضراء فتحتوي على قطع من صخور ذات أوصاف مختلفة جدا مدفونة في أم مختلفة اللون . واللون الأخضر هو السائد غير أنه ليس بالبرشيا الأصلية :

وتوجد البرشيا الخضراء في مواطن عدة ، وأحسن المعروف منها في وادي حمامات ، غير أن هذا المكان لم يستعمل إلا في العصور المتأخرة وتوجد البرشيا كذلك عند فم وادي ديب ، وفي المنطقة الواقعة غربي جبل دارا ، وجبل منقول ؛ في سلسلة العرف ، وفي جبل حمادة (٣) . وكل هذه الأماكن واقعة في الصحراء الشرقية ، وكذلك يوجد في سيناء (٤) .

حجر الديوريت ، أو حجر جبل النار : ويطلق على فصيلة من الحجر المتبلور ذي الحبوب ، ويتألف من الفلسبار الأبيض والهرنبلند الأسود وتكون حياته دقيقة أو غليظة ؛ ويوجد في مصر بكثرة في مواطن عدة وبخاصة في أسوان وفي الصحراء الشرقية والغربية وفي سيناء (٥) ، ويرجع استعمال الديوريت إلى العصر الحجري الحديث . إذ عثر منه على قطع

(1) Barron. & Hume, The Topog. & Geol. of the Eastern Desert. of Eg. Cent. Portion, p. 171. (2) Lucas. J. E. A. t. XVI p. 201.
(3) Ball. The Geog. & Geol. of South-Eastern Egypt, p. 351.
(4) Hume, Explan. notes to Geol. Map. of Eg. p. 49.
(5) Lucas, op. cit. p. 202.

من لوحات وعلى رأس بلطة (١) والديوريت الذى كان مستعملا فى مصر قديما على أنواع عدة مختلفة؛ فواحد منها جباته غليظة ، ولونه أسود أبيض ، وكان يستعمل فى عصر ما قبل الأسرات ، وفى الأسرات الأولى لعمل رؤوس الدبابيس والكؤوس والأواني (٢) ، وأحيانا لعمل اللوحات الصغيرة . وهذا النوع الخاص كان يجلب من أسوان ، وكذلك كان يجلب نوع مشابه لذلك من الصحراء الشرقية من التلال الواقعة بين قنا والقصر فى وادى سمّة . وقد استغل الأخير فى العهد الرومانى ، وهناك نوع آخر سماه علماء الآثار ديوريت ، وهو الذى نحت منه تمثال الملك « خفرع » المشهور بالمتحف المصرى ، وقد استعمل هذا النوع فى عهد الدولة القديمة . وهو ذو بقع بيضاء وسوداء ، ويختلف كثيرا فى ظاهره حتى فى القطعة الواحدة ، ولكن فى معظم الأحيان يكون رماديا قاتما ، أو رماديا فاتحا ، أو أبيض معرقا بالأسود والنوع الأخير كان يستعمل كثيرا فى صناعة الأواني والكؤوس . أما الأنواع الأخرى فكانت تستعمل فى عمل التماثيل وبخاصة فى عهد الأسرة الرابعة .

وقد عثر حديثا على المكان الذى كان يستخرج منه هذا النوع من الحجر فى الصحراء الغربية على مسافة ٤٠ ميلا فى الشمال الغربى من أبو سنبل ببلاد النوبة . (٣)

وهناك نوع آخر من الديوريت البروفيرى ، يتركب من أم لونها

(1) Caton-Thompson, Journal Royal Anthropol. Inst. LVI pp. 313 pl. XXXV, 3 (2) Lucas op. cit. p. 202. (3) Ann. S. A. t. XXXIII p.p. 65-74.

أسود فيه بلورات كاملة التكوين كبيرة في وسط أم سوداء فيها قطع
بيضاء ناصعة .

حجر الديوريت : وهو نوع من البازلت الحشن ، وليس بينهما
فوارق محدودة ؛ ويوجد في الصحراء الشرقية بالقرب من القصير (1) ،
وبالقرب من جبل الدخان وفي سيناء . ومن أهم استعماله صنع المدقات
التي كانت تستعمل في صناعة الأحجار الصلبة ، ويمكن رؤية كرات كبيرة
منه ملقاة في محاجر الجرانيت القديمة في أسوان ؛ وفي محاجر الكوارتسيت
بالجبل الأحمر القريبة من القاهرة . وقد بقيت هذه الآلات منذ عهد
قدماء المصريين دليلا قاطعا على استعمالها آلات صالحة لصناعة هذه الأحجار .

حجر الدوليت : (Dolomite) وهو كما عرفه « فلنדרز بترى »

حجر صلب غير شفاف لونه أبيض يتخلله عروق تكون أحيانا ناصعة
البياض ، ولكن في معظم الأحيان تكون رمادية ، وأحيانا تكون سوداء
ويقول الكيميائي « لوكاس » أن كل الأنواع التي فحصها بيضاء يتخللها
عروق أو بقع رمادية قاتمة ، ويوجد في الصحراء الشرقية في عدة أماكن ؛
وكان يستعمل في عصور الأسرات الأولى لعمل الكؤوس والأواني ؛
ثم أستعمل فيما بعد في أشياء أخرى وقد ذكر « بترى » أنه عثر على أربعة
وأربعين (2) إناء مما يسميه هو بالمرمر الدوليتي من عهد
الأسرة الأولى .

(1) Barron & Hume, op. cit. p.p. 52, 263.

(2) Flinders Petrie, The Royal Tombs of the Earliest Dynasties
II, p. 41, pls. IX (2-10) LI (c, d, e). & Flinders Petrie,
Abydos I p. 7; pl. IX (5, 6, 7, 10)

حجر الظران أو الصوان : وهو أول حجر استعمل في مصر وفي باقي أم العالم قبل معرفة النحاس . وقد صنع إنسان العصر الحجري أسلحته وأدواته من هذا الحجر حتى بعد كشف النحاس ، ولكن بكميات قليلة ، وقد استمر استعماله في عمل أدوات الزينة التي كانت لمجرد اتباع التقاليد المحضة ؛ ويشتمل الظران على نوع متماسك جدا من السليكا وهو رمادى قاتم ؛ أو أسود اللون ، وينكسر على شكل شظايا ؛ ويكون حده قاطعا ، ويوجد بكثرة في أماكن مختلفة في مصر على هيئة عقد صغيرة وطبقات في صخور الحجر الجيري وكذلك يوجد مبعثرا على سطح الصحراء ، وذلك بعد أن تخلص من الصخور الجيرية بفعل التعرية .

الجبس : هو المادة التي كان يستعملها قدماء المصريين بدلا من الجير لياض الجدران حتى عرف استعمال الجير في عهد البطالسة ؛ وهو مادة طبيعية تختلف كثيرا في اللون والتركيب ، فقد يكون لونها أبيض أو رماديا متنوع الألوان ، أو أسمرًا خفيف السمرة وأحيانا يكون ورديا خفيفا وهو يوجد في الطبيعة على شكل قطع بلورية مبعثرة غير صالحة للحفر عليها كما يوجد على هيئة صخور متماسكة التركيب . كالتى توجد في منطقة مريوط غربى الأسكندرية ، وبين الإسماعيلية والسويس ، وفي الفيوم كما توجد بكثرة زائدة قرب ساحل البحر الأحمر .

ويشبه الجبس في شكله المرمر ، ولذلك يسمى أحيانا مرمرًا . وفضلا عن استعماله ملاطا فإنه كان يستعمل بقلّة في مصر القديمة في عمل الأواني والأطباق ، كما أشارت إلى ذلك « مس كيتن تومسن »

في عهد الأسرة الثالثة (1) ، وكذلك عثر الأستاذ بترى على أوان عدة من عهد الأسرتين الثانية والثالثة من مصنع الفيوم وكذلك عثر على أشياء من محتويات قبر « توت عنخ آمون » مصنوعة من هذه المادة ، وعثر بترى على طبق من (2) عصر ما قبل التاريخ من الجبس .

ويمتاز الجبس عن المرمر بأنه أكثر نعومة ، ويمكن التأثير فيه بالظفر في حين أن المرمر لا يمكن التأثير فيه بأي شيء أقل متانة من الصلب .

الأبسديان Obsidian وهو حجر البج أو حجر البحيرة : وهو مادة

زجاجية الشكل (الزجاج الأسود) وعند ما تكسر تكون قطعها غير منتظمة كالزجاج ، وهو في الواقع زجاج طبيعي بركاني الاصل لونه في العادة أسود ، ولكن قد يكون أسمر قاتما ، أو رماديا قاتما ، أو أخضر داكنا ، وعند ما يكسر على شكل قطع يكون شفافا بعض الشيء ، و إلى الآن لم يوجد طبيعيا في مصر ، ولكنه يوجد في بلاد العرب والحبشة (3) في الوديان ، وفي شبه جزيرة عدن وفي أما كن أخرى في بلاد العرب (4) ، وفي أرمينيا ، وفي جهات مختلفة من جزر البحر الأبيض المتوسط .

وكان يستعمل بقلة منذ عصر ما قبل الأسرات آلات وأسلحة مثل رموس الحراب ، ثم استعمل تعاويد وجعارين وأواني صغيرة وأعيان للتماثيل . ومن أهم الأمثلة التي بين أيدينا رأس « أمنمحيث الثالث » (الأسرة الثانية عشرة) (5) إلخ

(1) G. Caton Thompson, Recent. Excav. in the Fayum in Man. XXVIII p. 80. (2) Petrie, Prehist. Eg. p. 36. (3) H. Salt., A voyage into Abyssinia p.p. 190-194 (4) R. F. Burton, The Land of Midian I, p. 282 (5) J. E. A. IV (1917) p.p. 71-73

وقد فحص موضوع مصدر الأبسديان فقال أحد علماء الآثار إنه يجلب إلى مصر من أرمينيا (1) . ولكن المرجح أنه كان يجلب إليها من الحبشة وبلاد العرب لقربيها .

الصخر البورفيرى : ولفظة بورفير معناها فى الأصل أرجوانى وكان يطلق فى الأصل على نوع من الصخر له هذا اللون (البورفير الأمبراطورى) . ولكن اسم بورفير فى الجيولوجيا يطلق على أى صخر بركانى فيه بلورات ظاهرة منتشرة فى أجزائه فى أم من مادة منسجمة اللون . والصخور البورفيرية تختلف كثيرا من حيث طبيعة بلوراتها الظاهرة وحجمها ، وكذلك فى لونها ؛ ويوجد منتشرا فى أنحاء القطر بالقرب من أسوان وفى الصحراء الشرقية (2) وفى سيناء .

وكان يستعمل البورفير فى عصر ما قبل الأسرات ، وفى عهد الأسرات الأولى لصنع الأواني ، وكان اللون المختار لذلك هو الأسود والأبيض أى بلورات بيضاء فى أم سوداء . وليست لدينا معلومات تنبثنا عن المصدر الذى كان يأخذ منه قدماء المصريين ما يلزم لهم من هذا الحجر ، وكل ما يمكن الإشارة إليه فى هذا الصدد أن الدكتور «هيوم» يقول إن صخورا من هذا الحجر تشبه التى صنع منها المصريون أوانهم توجد فى الصحراء الشرقية .

وأحسن نوع من الصخر البورفيرى قطع فى الأزمان القديمة هو بلا شك البورفير ذو الحبات الدقيقة الأرجوانى اللون الذى يطلق عليه عادة

(1) G. A. Wainwright, Obsidian in ancient Egypt, 1927. p.p. 77-93. (2) Lucas, J. E. A. XVI p. 202.

البورفير الأمبراطورى ، وهو الذى كان يستخرجه الرومان ويستعملونه بكثرة فى إيطاليا أحجاراً للزينة ، وهذا النوع من الحجر يوجد فى ثلاثة أماكن فى الصحراء الشرقية ، وهى جبل الدخان ، وجبل عش (1) وبالقرب من ساحل البحر الأحمر عند العرف بالقرب من وادى ديب . وقد كان الرومان يأخذون ما يحتاجون إليه من هذا الحجر من جبل الدخان (2) . وليس لدينا ما يثبت أن المصريين كانوا يستعملون البورفير الأمبراطورى إلا قطعة من كأس قيثارى الشكل ، وجدت فى بلاص فى مصر العليا ، وربما يرجع عهدها إلى الدولة القديمة . وهذا لا يعنى أن المصريين كانوا يستعملون هذه المحاجر فى عصور تاريخهم القديم .

حجر الشيست والأردواز :-

الشيست نوع من الصخر مركب فى طبقات ، وهو قابل للتشقق ، وليس لأسمه علاقة بتركيبه الصخرى ، والشيست الخاص الذى استعمل فى مصر القديمة هو صخر حباته دقيقة متماسكة صلبة متبلورة ، يشبه كثيراً الإردواز فى الشكل ، وتختلف ألوانه من الرمادى الخفيف إلى الرمادى القاتم تعلوه أحياناً خضرة . ويوجد الشيست ، والإردواز فى مواطن عدة فى الصحراء الشرقية . وكان الشيست يستخرج فقط من وادى حمامات حيث وجد أكثر من ٢٥٠ نقشا من الأسرة الأولى إلى الأسرة الثلاثين (3) ؛

(1) T. Barron & W. F. Hume, Topog. & Geol of the Eastern Desert. of Eg. p. 118, 238, 241, 622. (2) Hume, Geol of Egypt. II, part I, p. 273-282

(3) Weigall, Travels in the Upper Egyptian Desert p. 39, & Gouyat et Montet, Les Inscriptions hierog. & hierat. du Ouadi Hammamat. dans Mem. de l'Inst. d'Arch, Orientale du Caire XXXIV p. 122-3 & Breasted op. cit. I, 7, 10, 295-301, 286-9, 427-56, 466-8, 674-5, 707- 9., & IV, 457-68.

وهذه المحاجر قد ذكرت كثيرا في الوثائق القديمة . وقد اعتقد علماء الآثار إلى عهد قريب أن الشيست الرمادى المستخرج من وادى حمامات هو حجر « بنجن » القديم كما ذكر على ناووس الملك « قطانب الثانى » المتخذ من هذا الحجر ، أنه من حجر « بنجن » . ولكن البحوث العلمية أظهرت أن لفظة « بنجن » تطلق على أحجار أخرى مثل ناووس الملك « أحسن الثانى » المصنوع من حجر الجرانيت الرمادى الدقيق الحبات إلخ . وكان الشيست يستعمل فى عصر ما قبل الأسرات ، وعصر الأسرات الأولى فى صناعة الكؤوس ، والأوانى ، والألواح ؛ ثم فيما بعد فى التوايت والمحاريب ، والتماثيل . أما الإردواز فهو من فصيلة الشيست فى التركيب ، ويكون فى العادة صلبا ، وكان يستعمل فى العصور الأولى لعمل الألواح الإردوازية .

حجر الثعبان ، وحجر استايتيت (الطلق) : وهما يتشابهان فى معظم التركيب غير أنهما ليسا من نوع واحد . ويوجدان مع بعضهما فى الصخور . وحجر الثعبان صخر قائم ليس بشفاف ، وهو فى لون جلد الثعبان يبقعه ويكون غالبا أخضر قائما إلى حد السواد ، وهو لين بعض الشيء إلا أنه أصلب من حجر استايتيت ؛ ويمكن قطعه أو خدشه بسهولة . ويوجد فى الصحراء الشرقية ، وأهم مراكزه هى منطقة براميا (١) ودونجاش (١) فى وادى شايت ، وبالقرب من جبل درارا ، وفى التلال الواقعة شمال سكيت . وجبل سكيت ، وفى منطقة مقسم ، وفى أقاصى الصحراء الشرقية حيث تشغل مساحة نحو ٤٠٠ ميل من رأس بنارس جنوبا إلى رأس علبة (٢) .

(1) Hume, A prelim. Report on the Geol. of the East. Desert. p. 34.

(2) Hume. Geology of Egypt. II, part I, p.p. 144-159 .

ويوجد نوع من حجر الثعبان أخضر في وادي أم ديسى الواقعة بين قنا والبحر الأحمر ، وعند سفح جبل الربشى ، ونوع أسود في وادي «صدمن»^(١) ، وهما في الشمال الغربى من القصير ؛ وكان حجر الثعبان يستعمل في عمل الأواني^(٢) ، وأشياء أخرى^(٣) منذ عصر ما قبل الأسرات وقد عثر «لأمنحيت الثالث»^(٤) على رأس من هذا الحجر .

أما حجر استاتيت فهو نوع من الطلق ، وهو أبيض اللون عادة أو رمادى وأحيانا يكون أسود دخانيا ، وهذا النوع الأخير طبيعى لا صناعى كما يظن البعض ، وملسه كالصابون ، وكان يستعمل منذ عصر ما قبل الأسرات وما بعده لعمل الخرز ، والأشياء الأخرى الصغيرة^(٥) التى كانت تغطى بطبقة زجاجية ، والجزء الأعظم من الجمارين المعروفة فى العالم هى من الأستاتيت المطفى ، ويوجد هذا الحجر بالقرب من أسوان^(٦) فى همر ، وفى جبل الفطيرة^(٧) التى على خط عرض طحطا بالقرب من النيل وفى وادي غولان شمال رأس بنارس ، وهى تستغل الآن^(٨) .

قطع الأحجار

كان من الطبيعى ألا تنتشر صناعة قطع الأحجار إلا بعد معرفة المعادن وصناعة الآلات ، التى بواسطتها يسهل قطع الأحجار الصلبة .

-
- (1) Barron & Hume, op. cit. p. 265. (2) Lucas. J. E. A. t. XVI 201.
(3) Petrie, Prehist. Eg. p. 44. (4) J. E. A. t. IV, p. 211-212.
(5) Petrie, op. cit. p. 44. (6) Hume, Geol. of Eg. II, part I p.p. 131-2, 164-5.
(7) Mines & Quarries Department, op. cit. p. 37. (8) Lucas, Ancient Eg. Materials & Indust. p. 375.

ومن أجل ذلك لم يستعمل المصري في بادئ الأمر الأحجار للمباني بل كان يستعمل اللبن . أما الأحجار التي كانت تستعمل في عصر ما قبل الأسرات لعمل الأواني ؛ فإنها كانت قطع من الصخور التي فصلتها الطبيعة بمؤثرات العوامل الجوية ، وبفعل تآكل المياه ، ولا تزال قطع من الجرانيت في أسوان مفصولة عن الصخرة الأصلية تشهد بذلك . أما طريقة قطع الأحجار بالآلات التي كان يستعملها الإنسان فيمكن استنباطها من أما كن التحجير القديمة التي لا تزال باقية إلى الآن في منطقة أسوان .

كان قطع الأحجار السهلة اللينة كالمرمر والحجر الجيري ، والحجر الرملي يتم بفصل الكتلة المرغوب في قطعها من جهاتها الأربع عن الصخر الأصلي ، وذلك بنحواير من الخشب ، وعروق مبللة بالماء . والآلات التي كانت تستعمل في ذلك من المعدن هي أزاميل أو مناقير من النحاس حتى الدولة الوسطى ؛ إذ حلت محلها وقتئذ آلات من البرنز ؛ ومن ثم كان الاثنان يستعملان جنباً لجنب ، وكذلك كانت تستعمل مدقات من الخشب ومطارق من الحجر (١) .

أما قطع الأحجار الصلبة فلم يبدأ فيه إلا في عهد الدولة الوسطى عند ما أخذ المصريون في قطع الكتل الضخمة الطويلة لصنع المسلات والتماثيل الهائلة . أما قبل ذلك فإنهم كانوا يسدون حاجتهم من القطع التي فصلتها الطبيعة لهم ، وهي التي لا تزال باقية إلى الآن في منطقة أسوان . وقد أخذ منها بعض الأحجار اللازمة لبناء خزان أسوان . وقد درس بعض المهندسين المماريين طريقة تحجير الجرانيت والكوارتسيت ، ويقال أن

(1) Ancient Egyptian Masonary, p.p. 12-22.

الجرانيت كان يفصل بالدق بكرات من الديوريت ، وباستعمال الخواير
التي كانت تجهز بواسطة آلات من المعدن ، وكذلك كان يستعمل الدق ،
والخواير في قطع الكوارتسيت مع استعمال آلة أخرى ربما كانت معولا .

كيفية صناعة الأحجار

يمكن استنباط طريقة صناعة الأحجار بعد قطعها من المحاجر من الآثار
التي تركتها الآلات على القطعة المصنوعة ؛ وبخاصة التماثيل التي وجد منها
عدد عظيم لم يتم صنعه بعد ، ومن الإيضاحات التي وجدت مرسومة
على بعض المقابر ، وقد درس هذا الموضوع طائفة من علماء الآثار نخص
بالذكر منهم « بترى » (١) و « ريزنر » (٢) .

والواقع أن التماثيل المصنوعة من الحجر ، وبخاصة النحوت منها في
الأحجار الصلبة كالديوريت والجرانيت ، والكوارتسيت ، والشيت .
كانت مشار إعجاب الكل لدقة صنعها . ولا يزال العالم متأثرا بجمال
تلك القطع الفنية ، غارقا في عالم التخيلات والظنون في كنه الآلات التي
استعملت لإبرازها في ذلك الثوب البهيج حتى أن بعضهم ذهب به الخيال
إلى أن معدن الصلب كان يستعمل في صنعها ، وأعجب من ذلك أن
بعضهم ظن أن آلات النحاس أو البرنز التي كانت تستعمل في صنعها كان

(1) Petrie, On the mechanical methods of the Ancient Egyptians
in Journ. Anthrop. Inst. XIII, 1883 ; Arts and Crafts of An-
cient Egypt p.p. 69-82. (2) Reisner, Mycerinus, p.p. 69,
232, 236.

يركب فيها قطع من الماس أو غيره من الأحجار الصلبة لصناعتها ؛ ولكن ثبت أن الأمر أسهل من كل ذلك إذ لخص لنا الأستاذ « ريزنر » (1) العمليات الهامة التي كانت تتخذ لإبراز التمثال أو غيره من القطع الفنية حتى مرحلته الأخيرة .

أولا : اللق بالحجر ، ومن المحتمل أن ذلك وجد ممثلا في مقبرة « تي » في سقارة .

ثانيا : الحك بوساطة حجر في اليد ومعه مسحوق مقتت . وقد كان يظن احتمال وجود المسحوق المقتت ؛ غير أنه قد وجدت صورة ناطقة ثبت وجود هذا المسحوق ، وهو الرمل في حفائر الجامعة بمنطقة الأهرام في مقبرة صهر الملك ومدير قصره (2) « وب إم نفرت » إذ نشاهد في مناظر الحرف والصناعات صانعين يصقلان تابوتا وفي يد واحد منهما حجر يحك به غطاء التابوت ، وفوق الصورة كتب ما يأتى : صقل التابوت ، ثم كتب بعد ذلك . « صب الماء وضع الرمل » . ونشاهد بعد ذلك الصانع يحك سطح غطاء التابوت بوساطة هاتين المادتين الماء والرمل . وإذا علمنا أن الرمل يحتوى على ١٥ ٪ من مادة السنفرة سهل علينا فهم النقوش . وهناك منظر آخر من هذا القيل عثر عليه في حفائر سقارة في طريق هرم الملك « وناس » .

ثالثا : النشر بوساطة سلاح من النحاس ومعه مسحوق مقتت ، ولم يعثر على صور لذلك .

(1) Reisner, op. cit 117-18.

(2) Selim Hassan, Excavations at Giza, vol II, p. 195.

رابعاً : الثقب بثقب أنبوبي الشكل ، ومعه مسحوق مقت ، وهذا الثقب أنبوبة جوقاء من النحاس تستعمل بإدارتها بين اليدين أو بوتر ، أو قبضة متحركة ؛ وهناك أنواع أخرى من المثاقب تدار بطرق خاصة عثر عليها في سقارة من الأسرة الخامسة ، ومن عهد الأسرة الثانية عشرة في دير الجبراوى (1) ، وكان الثقب يستعمل في تفريغ الأواني المصنوعة من الحجر ، وبخاصة الأواني الأسطوانية الشكل التي كانت تتخذ من الأحجار الصلبة كالبارزيت والديوريت .

خامساً : الثقب بالنحاس ، أو حجر مدبب معه مسحوق مقت ، وقد شوهد في ثلاثة مقابر من عصر الأسرة الثامنة عشرة في طيبة (2) مثاقيب تدار بوساطة أوتار لثقب خرز ، وفي مقبرة رابعة لثقب شئ مجهول .
سادساً : الحك بآلة نحاسية معها مسحوق مقت ، ولكن ذلك مشكوك فيه .

غير أن الذين يعتقدون باستعمال آلات من الصلب لهذه الأغراض يمكن أن يحتج عليهم بأن الصلب مهما طرق لتزيد متاته فإنه لا يمكن أن يقطع به أحجار صلبة مثل الديوريت والجرانيت ، والشيت . هذا فضلاً عن أنه لا يمكن استعمال مثل هذه الآلات ، ومعه مسحوق مقت كالسنفرة ، وهذا الرأي لا غبار عليه . يضاف إلى ذلك أن القواديم

(1) The Rock Tombs of Deir el Gabrawi I, pl. XIII

(2) Newberry, The life of Rekhmara pl. XIII ; Davies, The tomb of two sculptors at Thebes pl. XI ; Davies, The tomb of two officials of Tuthmosis the Fourth pl. X ; Davies, The tombs of Menkheper-Rasonb & another p. 25, pl. XXX.

المصنوعة من النحاس كانت لا تستعمل إلا في الأحجار اللينة فحسب ؛
أما من جهة استعمال المناشير والمثاقب بما فيها ما كان على شكل
أنبوبي ، فإن هناك براهين واضحة على الأحجار المشغولة تدل على أنها
استعملت لهذا الغرض فمثلا نجد علامات للمناشير في رقعة معبد « خوفو » (1)
المصنوعة من البازلت ، وعلى تابوته المصنوع من الجرانيت الوردي ،
وكذلك على تابوت « خفرع » .

أما آثار المثقب الأنبوبي الشكل فنشاهدها على تمثالين للملك « منكاورع »
أحدهما من المرمر كامل النحت والثاني لم يتم نحته بعد ، وكذلك نشاهد
أثر المنشار في مثال الملك « خفرع » المشهور المصنوع من الديوريت (2).

الأحجار الكريمة وشبه الكريمة

كان قدماء المصريين كثيرهم من أمم العالم مغرمين بالزينة ، ولذلك كانوا
يبحثون وراء الحقول على الأدوات التي يتبرجون بها منذ ما قبل التاريخ ،
وقد عثرنا في مقابرهم على أنواع شتى من الأحجار الكريمة ونصف الكريمة
مما لم تسبقهم إليها أمة في العالم حسب معلوماتنا إلى الآن . وهذه الأحجار
لا يزال بعضها إلى الآن يعتبر في نظرنا كريما ، والبعض الآخر لا يعتبر
إلا حجرا عاديا لا قيمة له من الوجهة المادية ؛ وكان يستعملها المصري
لعمل التعاويذ ، والخرز ، والمجوهرات ، والجعارين ؛ وكذلك في تطعيم

(1) Petrie, The Pyramids and Temples of Giza p.p. 46, 84, 106.

(2) Petrie, op. cit. p.p. 46, 84, 106.

وترصيع صناديقه ، وتوايته ، وأثاثه بما يشعر بحسن الذوق والأناقة
وأهم هذه الأحجار ما يأتي :-

العقيق Agate ، والجمشت Amethyst ، والزمرد المصرى Beyrl وحجر
الدم ، Carnelian ، والحلكيدوني أو العقيق الأبيض Chalcedony
والمرجان ، Coral العقيق أو حجر سيلان Garnet ، وحجر الد
Haematite واليشم ، Jade ، والسرد أو العقيق الأحمر Sard واللازورد
Lapis lazuli ، والذهنج Malachite ، وحجر الزبرجد Olivine ، والجزي
(حجر الظفر) Onyx ، واللؤلؤ ، Pearl ، والبلورات الصخرية Rock crystal
وجزء عقيق Sardonyx ؛ ثم الفيروز Turquoise.

ويلاحظ أن المصرى لم يكن يعرف الماس أو حجر الأوبال أو
الباقوت الأحمر أو الأزرق . وقد جاء ذكر الأحجار التي ذكرناها في
الوثائق القديمة المصرية بأنها كانت تستعمل لاغراض خاصة للحلى والزينة
أو أنها وردت للبلاد جزية ، أو أخذت ضمن الغنائم الحربية .
ورغم أن هذه الأحجار قد سميت بأسمائها في النقوش المصرية كل
على حدة ، إلا أن ترجمة بعضها لا يزال مشكوكا فيه ، وقد ذكر لـ
« بليني » نحو ثلاثين اسما من الأحجار الكريمة التي كانت ترد من
مصر وبلاد الحبشة ، إلا أنه لم يحقق إلا عددا قليلا منها . وستكلم على
كل من هذه الأحجار وماهية في الحلى المصرية وفي الصناعة بقدر ما
وصلت إليه معلوماتنا .

العقيق ، والجزع ، وجزع العقيق ، وكلها أنواع من الحلكيدوني
المجزع أو المرقق . وكل هذه الأحجار منسوب بعضها إلى بعض ، ويطلق

عليها غالبا اسم عقيق فحسب ، وكلها تحتوى على السليكا ، وليس بينها
رق غير لون العروق أو التجزيع . ففي العقيق نجد أن هذه العروق غير
منتظمة ، وفي العادة تكون بيضاء وسما ، يخالطها بعض الزرقة ، أما في
الجزع وجزع العقيق فنجد أن العروق مستقيمة ، ومنتظمة على وجه
مقريب ، ويكون لون الجزع لينا متبادلا مع الأسود ؛ وفي جزع
عقيق يكون الأبيض متبادلا مع الأسمر المائل الى الحمرة . ويوجد العقيق
بكثرة في مصر ؛ وبخاصة في شكل حصوات ، وكذلك وجد بكميات
كبيرة مختلطا باليشب ، والحلكيدوني في وادي أبو جريدة في الصحراء (1)
شرقية . ومن المحتمل أن الجزع وجزع العقيق موجودان في مصر طبيعيا ،
بما أنهما لم يذكر في تقارير مصلحة الجيولوجيا .

في وقد وجدت حصوات العقيق وخرزه في قبور ما قبل الأسرات (2) ،
وكذلك وجدت في هذا العصر خزرات من الجزع ، وأقدم تاريخ معروف
لستعمال جزع العقيق هو عهد الأسرة الثانية والعشرين ، ويجوز من الأسرة
تاسعة عشرة . وقد عثر حديثا على آنية من العقيق ربما يرجع
بهدا إلى العصر الروماني في قفط ، ستة منها في المتحف المصري ،
وإثنان عظيمان اشتريا حديثا .

حجر الجشت (أمست) : ويتركب من الكوارتس الشفاف
للون بآثار من مركب الماغنزيوم . وكان يستعمل قديما على وجه خاص
لعمل القلائد ، وكذلك للأساور ، وأحيانا تعمل منه الجعارين ، ويرجع

(1) Barron & Hume, The Topog. & Geol. of the Eastern Desert of Egypt, Central portion, p. 266. (2) Petrie, Prehistoric Egypt. p. 44.

تاريخ استعماله إلى عهد ما قبل الأسرات (1) وقد وجد منذ عصر الأسرة الثانية عشرة وفي عهد الدولة الحديثة . فثلا وجد في مقبرة « توت عنخ آمون » جعرانان من هذا الحجر ، وكان يستخرج قديما من جبل أبو ديابة ومنطقة (2) سفاجة في الصحراء الشرقية ، وكذلك عثر على مناجم له في الجنوب الشرقى من أسوان (3) ، وأخرى من عهد الدولة القديمة على مسافة ٤٠ كيلو مترا من الشمال الغربى لأبو سنبل.

الزمرد المصرى : هذا الحجر الكريم يكون لونه أخضر أو أزرق باهتا أو أصفر أو أبيض . غير أننا لا نعرف منه إلا الأخضر الذى كان يستعمل فى مصر قديما ، ويوجد الزمرد فى منطقة سقاية زبارة فى تلال البحر الأحمر (4) حيث توجد مناجم عظيمة له ربما كانت من عهد الأغريق الرومانى . ومن المحتمل أن أنواعا جميلة من هذا الحجر قد وجدت قديما ولم يمكن العثور عليها الآن . والزمرد يكون دائما شفافا ، ولا يكون قط مظلما ، وكان المصرى يستعمله دائما فى قطعه الطبيعية السداسية الشكل ، وذلك لأنه أصلب من حجر الكوارتز فكان يصعب عليه قطعه بطريقة منظمة .

والظاهر أن الزمرد المصرى لم يستعمل قط فى مصر القديمة قبل عصر

-
- (1) Petrie, op cit. p. 44. (2) Mines & Quarries Department, Report on the Mineral Industry of Egypt, 1922 pp. 37-9.
(3) Nassim, Minerals of Economic Interest in the Deserts of Egypt, in Congrès Int. de Géog, Le Caire, Avril 1925, III 1926 p. 167. (4) Mines & Quarries, Report on the Mineral Industry of Egypt, 1922 p.p. 37-9 ; Murry, in J. E. A. t. XI 1925 p.p. 144-145.

البطالسة ولذلك فإن الأحجار الكريمة التي وجدت في مجوهرات دهشور⁽¹⁾ وكان يقال عنها أنها من الزمرد عند ما فحصت لأول مرة كانت في الواقع من الفلسبار الأخضر، وكذلك كل الأحجار التي أطلق عليها اسم زمرد «أوزبرجد» قبل عصر البطالسة فإنها ليست منها بل من أحجار أخرى، وذلك بعد أن فحصها العالم الكيميائي «لوكاس» فحسا فنيا.

حجر الدم، والعقيق الأحمر Carnelian and Sard

حجر الدم هو خلكيدوني أحمر شفاف بعض الشيء، وترجع حمرة إلى وجود مقدار قليل من أوكسيد الحديد فيه، وهو يوجد بكثرة على شكل حصوات في الصحراء الشرقية، وقد استعمل كثيرا منذ عصر ما قبل الأسرات⁽²⁾.

أولا : لعمل الخرز والتعاويد، وثانيا لتطعيم الأثاث والمجوهرات، والتوايت. وقد قلد في عهد الدولة الحديثة، كما يشاهد ذلك في تابوتين من أثاث «يويا»، وفي تابوت «سمنخ كارع»، وكذلك في كثير من الأشياء التي وجدت في مقبرة «توت عنخ آمون».

أما حجر السرد فهو نوع من حجر الدم غامق اللون، وبعض أنواعه تقرب في لونها إلى السواد وكان يستعمل قليلا منذ عصر ما قبل الأسرات⁽³⁾ وما بعده؛ ويقول «بليني»⁽⁴⁾ أن السرد كان يوجد في مصر. الخلكيدوني أو العقيق الأبيض : وهو نوع من السليكا الشفاف

(1) J. D. Morgan, Fouilles à Dahchour en 1894-1895 p.p. 51, 53, 58-65 (2) Petrie, op. cit. p. 44. (3) Petrie, & Wainwright & Mackay, The Labyrinth of Gerzeh & Mazghouneh. p. 22. (4) Pliny, XXXVII, 31. Barron & Hume op. cit. p. 266.

بعض الشيء شمسى اللون ، وعند ما يوجد قريبا يكون لونه أبيض ، أو أبيض رماديا فيه بعض الزرقة . على أن هذا الحجر قد يكون بألوان متعددة ، ولكل لون اسم خاص . ويوجد في مصر في وادى صاغه ، (1) وفي وادى أبو حريدة في الصحراء الشرقية ؛ وفي الواحة البحرية في الصحراء الغربية . وكذلك على مسافة ٤٠ ميلا من الشمال الغربى من أبو سنبل ، وفي الفيوم . وكان يستعمل أحيانا في مصر القديمة لعمل الخرز والجعارين ، والدلايات ؛ ويرجع تاريخ استعماله إلى عصر ما قبل الأسرات (1) .

المرجان : وهو عبارة عن هياكل صلبة لمخلوقات بحرية ولونه يكون أبيض أو أحمر في ألوان شتى ، أو أسود ، والمشهور منها هو الأبيض والأحمر . ولم يعثر على المرجان الأبيض في الآثار المصرية إلا مرة واحدة في أدفينا (2) ، ويرجع تاريخه إلى القرن السابع قبل الميلاد . وقد عثر «بتري» على كمية كبيرة منه في شكل فروع طبيعية . والمرجان الثمين يستخرج من الجهة الغربية للبحر الأبيض المتوسط ، وكل ما عثر عليه في مصر من المرجان يرجع عهده إلى عصر البطالسة ، وما بعده . أما المرجان الأنبوبي الشكل فقد عثر عليه منذ عصر البدارى (3) ، وعصر ما قبل الأسرات . وكذلك عثر على هذا النوع في مقابر بلاد النوبة ، التي يرجع عهدها إلى عصر الدولة القديمة (4) .

حجر الأمزون أو الفلسبار الأخضر .

هو حجر غير شفاف أخضر باهت ، وليس منسجما في لونه ؛ وقد

(1) Petrie & Wainwright, op. cit p. 22.

(2) Petrie, Nebesheh & Defenneh p. 75.

(3) Brunton & Caton Thompson, The Badarian Civil. p.p. 38, 56.

(4) Reisner, Arch. Survey of Nubia, Report for 190s-1907 p. 42.

وجد بكيات قليلة في جبل مجيف في الصحراء الشرقية (1) ، وكان يستعمل لعمل الخرز منذ العصر الحجري الحديث (2) ، وكان يستعمل كثيرا في عهد الأسرة الثانية عشرة . كما يشاهد ذلك في مصوغات دهشور واللاهون . وقد كان يظن أنه هو الزمرد في هذه المجوهرات ، وكثيرا ما يختلط هذا الحجر بأنواع الأحجار الأخرى الخضراء ، حتى أنه يسمى أحيانا أم الزمرد .
حجر سيلان : والنوع الذي استعمل في مصر منه لونه أحمر قاتم أو أسمر مائل إلى الحمرة شفاف بعض الشيء ، ويوجد بكثرة في جهة أسوان في الصحراء الشرقية ، وفي سيناء ، وأحجاره صغيرة جدا للاستعمال ؛ وبخاصة ما عثر منها في أسوان . أما الكبيرة فوجدت في غرب سيناء ، وقد استعمل حجر السيلان لعمل الخرز منذ عصر ما قبل الأسرات .

حجر الهمتيت : (حجر الدم) وهو أكسيد الحديد ، ويوجد في الطبيعة بألوان مختلفة . فيكون أسود ، وأحمر ، ، وأسمر ، أو ذا صفائح رقيقة تكون طبقات لامعة بعضها فوق بعض ، والنوع الخاص الذي يستعمل في مصر من الهمتيت لصنع الخرز ، والتعاويد ، والمكاحل وأدوات الزينة الصغيرة ، هو الأسود القاتم ذو اللمعة المعدنية . وقد استعمل منذ عصر ما قبل الأسرات (3) . ورغم أن الهمتيت يوجد بكثرة في مصر في الصحراء الشرقية لاستخراج الحديد منه (4) إلا أننا لانعرف من أين جلب المقدار

(1) J. Ball. The Geog. & Geol. of South-Eastern Egypt, p. 272.

(2) Caton-Thompson. The Neolithic Industry of the Northern Fayum Desert, in Journ. Royal Anthropol. Inst. LVI 1926 p. 313
Petrie, op. cit. p. 43. (3) Petrie, op. cit p. 43. (4) Hume. The Distribution. of iron (ores) in Egypt, p. 8.

الذى استعمل فى صنع تلك الأشياء .

اليشم أو حجر الجاد Jade ويطلق هذا الاسم على نوعين متميزين من المصنوع ، أحدهما اسمه « نفريت » ، أو اليشم الحقيقى . والثانى شبه اليشم ، وهو فى مظهره مثل اليشم الحقيقى ؛ ولا يمكن تمييزه عنه إلا بالتحليل الكيماوى ، وكلاهما لونه أبيض ، أو رمادى ، أو أخضر على ألوان شتى . وهو شفاف شمسى اللمعة . وقد عثر منه على رأس بلطتين يرجع عهدهما إلى ما قبل الأسرات ، (1) ، واحدة منهما فى المتحف المصرى ، والأخرى فى متحف لندن . وقد عثر الأستاذ « ينكر » حديثاً فى مرمدة بنى سلامة (2) على رأس بلطة يرجع عهدهما إلى العصر الحجري الحديث وكذلك وجد فى مقبرة « توت عنخ آمون » خاتم من هذا الحجر .

حجر اليشب : Jasper وهو نوع من السليكا الكثيفة غير النقية ، ويكون لونه أحمر أو أخضر ، أو بنيا ، أو أسود ، واللون الأحمر هو الذى كان يستعمل فى مصر قديماً لصناعة الخرز والتعاويذ ، وأحياناً لتطعيم المصوغات وعمل الجمارين . وقد عثر على قطعتين من إناء مفرطح من اليشب الأحمر يرجع عهدهما إلى الأسرة الأولى (3) . أما اليشب الأسمر ، والأسود فقد عثر على أشياء مصنوعة منهما من عهد الدولة الوسطى (4) ، وقد عثر على جمارين كذلك من ذلك العهد . أما اليشب الأخضر فعثر منه على أشياء ترجع إلى عهد الأسرة الرابعة (5) .

-
- (1) Quibell, Archaic objects, p. 235-6. (2) Junker, Merimde Beni-salame, Von 7 Februar bis 8 April 1936, p. 80 pl. VII.
 (3) Quibell, Excav at Saqqara (1912-1914) p.p. 16, 17, pl. XII.
 (4) Petrie, Scarabs and Cylinders with names, p. 8. (5) Brunton, Qua & Badari II, p. 20.

ويوجد اليشب الأحمر في بعض الصخور ، على شكل عروق في الصحراء الشرقية . مثال ذلك تلال الحضيرية (1) ، وبالقرب من وادى صاغة Saga ، وفي وادى أبو حريدة . أما اليشب الأخضر المبع بالأسمر فقد عثر عليه في طريق قنا والقصر (2) .

اللازورد Lapis-lazuli وهو حجر مظلم ذو لون أزرق قاتم يتخلله أحيانا بقع أو عروق بيضاء ، وأحيانا تكون فيه سط صفراء دقيقة ، تظهر كأنها ذرات من الذهب ، والظاهر أن هذا الحجر لم يثر عليه في مصر . غير أن الأدريسى قد ذكر أنه يوجد منه منجم في الواحة الخارجة . وأهم منبع له هي بلاد أفغانستان في بلدة بدخشان Badakshan (3) ، والظاهر أن هذا هو المنبع الأصلي لهذا المعدن . وكان يستعمل اللازورد في مصر منذ عصر ما قبل الأسرات (4) ، وما بعده لصنع الخرز والتعاويد ، والبطارين ، والأشياء الأخرى الصغيرة . وكذلك لتطعيم المجوهرات ، وبخاصة في عهد الدولة الوسطى والدولة الحديثة ، وقد ذكر هذا الحجر في النقوش المصرية منذ الأسرة الثانية عشرة وما بعدها (5) . في عدة جهات مختلفة

حجر الدهنج (التوتية) : Malachite وهو النحاس الفل ولونه أخضر جميل ولم يثر عليه في المقابر المصرية ، إلا على هيئة مسحوق يستعمل

(1) Barron & Hume, op. cit. p.p. 52, 22, 228, 266. (2) J. Bruce, Travels to discover the sources of the Nile II, 2nd Ed. 1805, p. 85. (3) The Travels of Marco Polo the Venetian, p. 84 (Everyman's Library). (4) Petrie, Prehistoric Egypt, p. 44. (5) Br. A. R. (I) 534, 663, & op. cit. II, p.p. 446, 493, 447, 484, 509, 518, 536; III, p.p. 116, 434, 448; IV, p. 30.

للتكحل به ، وقد عثر عليه منذ عهد البدارى وعهد ما قبل الأسرات حتى الأسرة التاسعة عشرة (١) . وقد كان يستعمل أحيانا لصنع الخرز منذ عصر ما قبل الأسرات ، وفي عهد الأسرة الأولى (٢) ، وقد اتخذ منه تعاويذ ، وجعارين من عصر الأسرة التاسعة عشرة . وقد فأت على بعض العلماء التميز بين هذا الحجر ، وحجر الزبرجد ، والزمرد الأخضر ، وحجر الفلسبار الأخضر كما حدث فى القلادة المستخرجة من دهشور فى الأسرة الثانية عشرة ، والسوارين اللذين وجدأ فى هذا العهد أيضا . واتضح أن السوارين أحدهما من الفلسبار الأخضر ، والثانى من الفيروز ، ويوجد الدهنج فى سيناء وفى الصحراء الشرقية (٣) ، وقد استعملت مناجمه فى العصور القديمة لاستخراج التوتية أولا ، وثانيا لاستخراج النحاس .

وقد كان النحاس يستخرج من وادى مغارة ، وسراية الخادم ، ومن هذين المكانين كان يستخرج الفيروز قديما . ومن هنا جاءت الصعوبة فى التميز بين الدهنج والفيروز ؛ وبخاصة أنهما كانا يستخرجان من مكان واحد ، ولا يتميزان عن بعضهما فى اللون . ومن هنا جاء أيضا الخطأ فى أن بعض العلماء ترجم كلمة « مفكات » ، وهى اسم الفيروز باللغة المصرية القديمة بلفظة دهنج .

اللؤلؤ Pearl : ويستخرج من شواطئ البحر الأحمر ، وكذلك الخليج الفارسى ، وعلى مسافة من سواحل سيلان ، وأما كن أخرى . ورغم أن الأصداف قد استعملت فى مصر منذ عصر ما قبل التاريخ

(1) J. E. A. XVI 1930 p.p. 41-4. (2) Petrie, Royal tombs II, p. 37 pl. XXXV. (3) J. E. A. XIII, 1927, p.p. 162-7.

فإن اللؤلؤ نفسه لم يستعمل حتى عهد البطالسة ؛ اللهم إلا أزرار قلادة الملكة « أعح حنب » أم الملك « أحس الأول »^(١)، وهي ليست بلؤلؤ حقيقى .

حجر الكوارتس والبلور الصخرى Rock crystal : والكوارتس نوع من

السليكا البلورية ، ولا لون له عند ما يكون نقيا ، وقد يكون شفافا بعض الشيء أو مظلما ، ويطلق على النوع الأول اسم البلور الصخرى ، وعلى الثانى الكوارتس اللبى . وأحيانا يكون لون الكوارتس أسمر حتى السواد ، وفى هذه الحالة يسمى الكوارتس الدخانى اللون ، وهذا النوع يوجد فى منجم ذهب قديم فى « روميت » Romit فى الصحراء الشرقية^(٢) . ويوجد الكوارتس بكثرة على هيئة عروق فى الصخور البركانية فى الصحراء الشرقية ، وبالقرب من أسوان^(٣) . وكان يستعمل بكية قليلة فى عهد ما قبل الأسرات^(٤) ، وما بعده ، إذ كان يصنع منه الخرز وأشياء أخرى ، كالأواني الصغيرة ، وقرنات العيون التى كانت تصنع للتأثيل وكذلك كانت توضع فى أعين التوايت ، التى كانت على شكل آدمى ؛ وكل أنواع الكوارتس أصلب من الزجاج ، وكذلك أكثر مقاومة من الصلب ، ولذلك لا يمكن أن يؤثر فيها هذا المعدن .

الفيروز أو الفيروزج Turquoise : ولونه أزرق سماوى ، وبعضه يكون

أزرق مائلا إلى الخضرة ، وبعضه أخضر ، وهو يوجد على هيئة عروق فى أم الصخر . ومناجم الفيروز هى وادى مغارة وسراية الحادم فى شبه جزيرة

(1) The Necklace of Queen Aah-hetep, in, Annales. Sev. A. XXVII (1927) p. 69-71. (2) J. Ball. The Geog & Geol of south eastern Egypt. p. 353. (3) J. Ball. The Aswan cataract, p. 84. (4) Petrie, Prehistoric Egypt. p. 44.

سيناء (١) . ويوجد على هيئة طبقات في صخور الحجر الرملى . وقد استعمل في مصر منذ عهد البدارى (٢) ، وما قبل التاريخ ، وكان يستعمل في صياغة الأساور منذ الأسرة الأولى ، وكذلك للحبال فى الأسرة الرابعة ، إذ عثر على أحجار منه فى مقبرة الملكة « حنب حرس » من عهد الأسرة الرابعة فى الجيزة (٣) ، وقد ظن البعض أولا أنه دهنج . ووجد بكثرة فى عهد الأسرة الثانية عشرة فى مجوهرات دهشور . وقد ظن البعض أنه فيروز صناعى ، وذلك لجمال لونه . وكذلك وجدت بعض قطع منه فى مقبرة « توت عنخ آمون » منها جعران لونه أزرق جميل ، وقطع زرقاء مائلة للخضرة رصعت فى صداريتين .

المعادن

تدل الآثار المكشوفة فى مصر على أن سكان وادى النيل كانوا يستعملون منذ القدم معادن مختلفة الأنواع بعضها موجود طبيعيا فى تربة البلاد ، وبعضها جلب إليها من البلاد الأجنبية التى كانت تربطها بها روابط التجارة أو الاستثمار ؛ وأهم هذه المعادن النحاس ، والذهب ، والحديد ، والقصدير ، والفضة ، والرصاص . يضاف إلى ذلك استعمال البرنز ، وهو فى الواقع خليط من النحاس والقصدير ، والألكترولوم ، وهو خليط من الذهب والفضة

(1) Mines & Quarries Department Report on the Mineral Industry of Egypt. 1922 p. 38. & J. Ball. The Geog & Geol of West-Central Sinaï, p.p. 11, 163. (2) Brunton & Caton Thompson op. cit. p.p. 27, 41, 56, & Petrie, Prehistoric Egypt, p. 44. (3) Lucas, Anc. Egyp. Materials, p. 204, note 7.

وفي العهود المتأخرة جدا استعمل النحاس الأصفر ، وهو خليط من النحاس الأحمر والزنك . وهناك خامات أخرى استعملها المصريون ، وسنتكلم عن كل فيما يلي .

النحاس : هذا المعدن لا يوجد عادة في الطبيعة بشكل معدني بل يستخرج من خامات مختلفة ، ويعد من أقدم المعادن التي عرفها الإنسان ، وقد استعمل في مصر قبل الذهب . ويرجع تاريخ وجوده في مصر إلى عهد البداري ، ثم عهد ما قبل الأسرات . وأقدم أدوات نحاسية عثر عليها هي الخرز ، والمثاقب ، والدبابيس من عصر البداري (١) ، وقد استمر استعمالها إلى عهد ما قبل الأسرات الذي عثر فيه كذلك على أساور ، ومعاول صغيرة ، وخواتم ، ورؤوس خطاطيف ، وإبر ، وملاقط ، وغير ذلك من الآلات الصغيرة ، وفي نهاية عصر ما قبل الأسرات أصبح في متناول المصري أسلحة من النحاس ليدافع بها عن نفسه ، ولم يأت عصر الأسرات الأولى حتى استعمل المصري رؤوس بلط ضخمة ، وقواديم ومعاول ، وسكاكين ، وخناجر ، وحرايب ، وحلى ، وأدوات منزلية كالطست والإبريق وكل هذه كانت من النحاس بكيات وافرة ، ولم يوجد النحاس طبيعيا قط في أرض مصر بل كان يستخرج من خامات . أهمها الدهنج الذي كان يستعمل منذ أقدم العصور لتكحيل العين ، ولذلك كان من السهل أن يكشف عن هذا المعدن بسهولة بعد صهر هذه المادة . وتوجد خامات النحاس في داخل حدود القطر المصري في شبه

(1) Brunton & Caton Thompson, The Bad. Civil. p.p. 7, 27, 33, 41, 56, 60, 71, & Flinders Petrie, Prehist. Egypt p. 25, 26, 47.

جزيرة سيناء ، وفي الصحراء الشرقية . ففي شبه جزيرة سيناء عثر على مناجم يظن أنها كانت لاستخراج النحاس ، أو لاستخراج الفيروزج في وادي مغارة وفي سراية الخادم . وهما يقعان في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة ، وبينهما نحو اثني عشر ميلا (١) .

وتدل الأحوال على أن خام النحاس كان يعدن قديما ، في وادي مغارة ؛ إذ وجدت بقايا مستعمرات للتنجيم يرجع عهدها بخاصة إلى الدولة القديمة ، وكذلك الدولة الوسطى . إذ وجدت كميات عظيمة من الرواسب ، وبقايا الصهر من مخلفات الدولة القديمة ، وكذلك وجدت قطع من خام النحاس ، وعدة أوان للصهر وجزء من قالب لسبك النحاس .

أما من عهد الدولة الوسطى فقد وجدت كميات من رواسب النحاس ، وقطع مصهورة ، وقطع من أواني الصهر ، وكذلك وجد جزء من آنية صهر لا يزال فيها مسحوق الخام . هذا إلى وجود قالب لسبك نصال أسلحة . أما في سراية الخادم ، فإن آثار التعدين فيها أقل ، وذلك لأن هذا المكان لم يفحص بعد .

وأهم خام كان يعدن في سراية الخادم ، وفي مغارة هو الذهب الأصفر اللون ، ومعه قليل من الأزوريت الأزرق اللون .

وقد كانت البعثات ترسل للبحث عن هذا المعدن وغيره . في وادي مغارة ، وفي الوادي والمناجم القريبة من سراية الخادم منذ الأسرة الأولى ،

(1) Maples, The Copper Axe in Ancient Egypt, 1929, p. 97; Petrie, Researches in Sinaï, p.p 18, 19, 27, 46-53, 154-62 & Mines and Quarries Department of Egypt, Report on the Mineral Industry of Egypt, 1922 p.p. 36, 38.

وقد عثر في وادى مغارة على ٤٥ وثيقة منها ٣٦ نقشاً على الصخر ،
وثمانية جرافيتي ، ولوحة . وأقدمها يرجع للأسرة الأولى حتى الأسرة
التاسعة عشرة .

أما في الوادى والمناجم القريبة من سرابة الخادم ، فكان يوجد فيها
خمس عشرة وثيقة ، معظمها من الأسرة الثانية عشرة وبعضها من الدولة
الحديثة . أما في المبد المقام في هذه البقعة وما حوله ، فقد عثر
على ٢٨٨ نقشاً (١) معظمها على كتل من الحجر ، وتماثيل صغيرة ولوحات ،
ومن بين هذه النقوش واحد باسم الملك « سنfro » ؛ غير أنه يظهر من
نقوشه أنه كتب في عصر بعد عصر هذا الملك . ومعظم هذه النقوش
يرجع إلى عهد الدولة الوسطى ، والدولة الحديثة . ويلاحظ أن تعدين
الفيروزج قد ذكر كثيراً في هذه الوثائق ولم يذكر تعدين النحاس إلا
مرة واحدة ، وفي الغالب نجد أن البعثات الأولى التي كانت ترسل إلى
هذه الجهات لم يترك رؤساؤها في قروشهم إلا اسم الملك ، وألقابه ؛ وبعد
ذلك أضيفت أسماء رؤساء الحملة وضباطها . وقد بدأ ذلك منذ عهد الأسرة
الخامسة . وبعد ذلك نجد أن الغرض من البعثة كان ينقش على الصخور .
ولذلك يصعب علينا في بادىء الأمر معرفة الأغراض التي من أجلها أرسلت
الحملة من النقوش نفسها ، أكانت لاستخراج الفيروزج ، أم لاستخراج
النحاس أم لتأديب العصاة فحسب ؟ .

على أن تعدين النحاس لم يكن في وادى مغارة وسرابة الخادم فحسب بل

(1) Gardiner & E. Peet, The Inscription of Sinai I, p.p. 7-16.

كان يمتد إلى الجهات المجاورة للجهة الأخيرة مثل جبل أم رنة ، ووادي ملحة ، ووادي خارج . وكذلك في الجنوب الشرقي من شبه الجزيرة كانت توجد مناجم للنحاس ، حيث وجدت خامات ورواسب منه في عدة أماكن أهمها بالقرب من سهل سند ، وفي التلال الواقعة غربي سهل بنق شرم ، وفي وادي رمائي أحد روافد وادي نسب . وتوجد خامات النحاس ، في عدة أماكن في الصحراء الشرقية أهمها وادي عربة وفي جبل عطوى ، وفي جبل دارا ، وفي مناجم ذهب دونجاش Dungash ، وفي التلال الواقعة جنوب وادي جمال Gemâl ، وفي أبو سيال Absciel ، وغيره .

ويختلف مقدار كمية النحاس التي تستخرج من الخامات حسب الأماكن التي يعدن فيها . فمثلا في الأماكن التي في الجنوب الغربي من شبه جزيرة سيناء وجد أنه يستخرج من الخام من ٥ إلى ١٨ ٪ أما في الصحراء الشرقية فوجد أن مقدار ما يستخرج من الخام ما بين ٣٦ و ٤٩ ٪ ووجد في أبو سيال أن النسبة ٣ ٪ وفي أماكن منه وجد أن النسبة ارتفعت حتى ٢٠ ٪ (١) .

ولا بد أن النحاس الذي كان يستخرج في مصر من مناجمها حتى الأسرة الثامنة عشرة عند ما بدأ يجلب إليها هذا المعدن من الخارج كان كافيا لسد حاجتها لأن البقايا التي وجدت في مناجم النحاس ، وامتداد مساحتها يشيران بأن الكميات التي كانت تستخرج عظيمة ، وإذا اتخذنا رواسب مناجم وادي نسب مقياسا لما يستخرج من النحاس فإن أقل

1 J. Wells, Report of the Dep. of Mines, 1906 p. 34.

مقدار من هذا المعدن استخرجه معدنوسينا حتى تاريخ رواسب هذا الكوم
أى الأسرة الثانية عشرة فإنه لا يقل عن ٥٥٠٠ طن بل أكثر . يضاف
إلى ذلك ما كان يستخرج من مغارة وغيرها .

وأقدم وثيقة لدينا تشير إلى جلب النحاس من الخارج يرجع عهدها
إلى الأسرة الثامنة عشرة ، ثم التاسعة عشرة (١) . إذ نعرف أنه كان
يأتى إلى مصر من « رتنو » و « زاهى » وكلاهما فى سوريا ، ومن جهة
« أرابختيس » ، وهو مكان غير معروف فى آسيا ، ومن أرض « الإله » ، وهو
اسم استعمل ليدل على أماكن مختلفة تشمل جهات فى غربى آسيا ،
والصحراء الشرقية من مصر ، وبلاد بنت ، ومن « إيسى » وربما كان
يقصد بها قبرص .

وخامات النحاس فى مصر هى : الآزوريت ، وخام الكرسوكولا
والدهنج ، والكبريتور .

أما الآزوريت فهو خام أزرق غاسق جميل ، من القاعدية النحاسية
ويوجد فى رواسب النحاس ، ويكثر وجوده فى سيناء والصحراء الشرقية
ويكون دائما على سطح الأرض أو بالقرب من السطح ولذلك يسهل
استخراجه ؛ ولا يوجد بكثرة كالدهنج الذى يكون معه فى العادة وكان
الأزوريت يستعمل فى مصر القديمة لاستخراج النحاس وللأصباغ ثم استغنى
عنه المصرى عندما اخترع صبغة زرقاء (٢) صناعية .

الكرسوكولا : أو البورق أو ملح الصاغة : وهو خام أزرق أو

(١) Br. A. R. II, 447, 471, 491, 509, 790, 459, 462, 490.

(٢) Anc. Egypt. Materials, p. 283.

أخضر مائل إلى الزرقة ، وهو يحتوى كيمائيا على سليكات ، ويوجد فى سيناء ، وفى الصحراء الشرقية ، وقد استعمل مادة للكحل ، ولم يثر منه إلا على تمثال صغير لطفل يرجع عهده إلى ما قبل الأسرات (1)

الدهنج : وهو قاعدة خضراء من كربونات النحاس ، وهو أول خام استخرج منه النحاس ، ويوجد على سطح الأرض فى سيناء وفى الصحراء الشرقية . ويرجع تاريخ استعماله إلى عصر البدارى إذ ؛ منذ ذلك العهد كان يؤخذ منه مادة الكحل (2) حتى الأسرة التاسعة عشرة وكذلك كان يستعمل لتلوين الجدران (3) والفاشاني والزجاج . يضاف إلى ذلك أنه كان يعمل منه أحيانا الخرز والتعاويد ، وأشياء أخرى صغيرة ، ولكن فى الواقع كان أهم استعمال له فى مصر استخراج مادة النحاس إذ يحتوى على مقدار كبير منها.

البرنز (الشبه) : يعرف البرنز عند المصريين بأنه خليط من النحاس والقصدير ، ولكنه فيما بعد كان يحتوى فضلا عن ذلك على كمية من الرصاص . على أن هذا الخليط لم يكن يطلق على البرنز فى عصرنا على ٩ ٪ أو ١٠ ٪ من القصدير ؛ أما البرنز القديم فكانت النسبة فيه متغيرة اذ يكون القصدير فيه من ٢ الى ١٦ ٪ ولكن اذا قلت نسبة القصدير عن ذلك فلا يطلق عليه لفظة برنز بل تكون هذه الكمية موجودة فى المعدن طبيعيا .

ويمتاز البرنز على النحاس بأنه اذا أضيف للأخير مقدار ٤ ٪ من القصدير زادت صلابته ومقاومته وبخاصة عندما يطرق ، على أن رفع هذه

(1) Quibell & Green Hierakonpolis, II p. 38.

(2) Lucas, Ancient Materials, p. 79. (3) op. cit. p. 287.

النسبة إلى ٥٠٪. تجعل النحاس سهل الكسر عند طرقه ، هذا إلى أن الإكثار من نسبة القصدير تقلل من مقدار ذوبان النحاس ، وتزيد في سيالته وبذلك يسهل تشكيله في القالب . والواقع أن هذه هي أهم فائدة في تحويل النحاس إلى البرنز ، إذ الواقع أن النحاس معدن رديء الصب ، لأنه ينكش عند ما يبرد وكذلك لأنه يمتص الغازات وبذلك يصبح ذا مسام ولكن وجود القصدير يمنع امتصاص الأكسجين والغازات الأخرى .

وتاريخ البرنز غامض في مصر ، إذ أنه لم يكشف في مصر ، وذلك لأنه فضلا عن عدم معرفة خامات القصدير في مصر قديما فإنه كان مستعملا في آسيا قبل أن يعرف في مصر بزمان طويل ، فقد عرف استعماله في « اور » منذ ٣٥٠٠ ق.م. ، ولا بد إذن أن يكون المصريون قد عرفوه عن طريق آسيا .

ولا يزال عصر الانتقال من استعمال النحاس إلى استعمال البرنز مجهولا إلى الآن ، والواقع أن البرنز لم ينتشر استعماله في مصر إلا منذ الأسرة الثانية عشرة ، غير أنه توجد أشياء يرجع تاريخها إلى عهد الدولة القديمة مصنوعة من البرنز فقد عثر على قطعة من عهد الملك « سنfro » (1) أي منذ بداية الأسرة الرابعة ، وكذلك عثر السير « روبرت موند » (2) على موسى يقال أنها من عهد الأسرة الرابعة . وقد وجد أن كمية القصدير فيها نحو ٨٥٪ .

(1) Petrie, Meidum, p. 36. (2) Report of British Association 1933, Abstraction Nature 132 (1933) p. 448.

والواقع أنه منذ عهد الدولة الوسطى (١) وجدت قطع تاريخها ثابت ولذلك يمكن تسمية هذا العصر عهد بداية استعمال البرنز . ومنذ الأسرة الثامنة عشرة وما بعدها عملت تماثيل صغيرة من هذا المعدن غير أن استعماله لم يعترض استعمال النحاس بل كانا يستعملان جنبا لجنب .

صناعة البرنز : كان البرنز مثل النحاس يشكل بالطرق ، أو بالسبك في قوالب ، ويمكن معرفة ما لهذا المعدن من الميزة إذا علمنا أن مقدار صلابته بعد الطرق يزداد ازديادا عظيما . فمثلا وجد أن قطعة من البرنز فيها كمية القصدير ٣٤ و ١٠٪ . كان مقدار صلابتها قبل الطرق ١٧١ ؛ وأصبحت بعد الطرق ٢٧٥ . وقد كان البرنز يستعمل في العصور المتأخرة في مصر لعمل التماثيل الصغيرة ، وهي التي كانت تسبك صماء ، أو مفرغة ؛ وكانت التماثيل الصغيرة في العادة تصب صماء ، أما التماثيل الكبيرة فكانت تسبك جوفاء .

وطريقة السبك هي المعروفة بطريقة الشمع المفقود . وذلك أن يعمل نموذج من شمع النحل من الشكل الذي يراد سبكه ثم يغطى هذا الشكل بمادة تأخذ شكل القالب . ومن المحتمل أن هذه المادة كانت تصنع من الطين ، أو من الطين المخلوط بمواد أخرى . ثم يدفن الكل في الرمل ، أو في الأرض ؛ التي تقوم مقام حامل للقالب . ثم يحرق الكل بدرجة تذيب الشمع ، أو تحرقه ، ويخرج من الثقوب التي كانت تعزل خصيصا ليصب فيها المعدن المصهور من البرنز . وبعد ذلك ، يصبح القالب صلبا جامدا معدا للاستعمال ، فيصب فيه المعدن المصهور من

(1) Lucas, Ancient Materials, p. 426.

البرنز ، ثم يترك ليبرد . وبعد ذلك يقت القالب ، وينكشف عن الشكل المطلوب فتعمل فيه التصليلات النهائية بآلة خاصة . وقد رسمت مناظر تمثل سبك البرنز في مقابر الأسرة الثامنة عشرة (1) ، وتوجد قوالب للسبك في المتحف المصرى وبخاصة لصب أشكال الطيور ولا نعرف إذا كانت لسبك الذهب ، أو البرنز ، أو هي قوالب لعمل القاشانى ، والزجاج .
النحاس الأصفر : وهو خليط من النحاس ، والزنك ، وقد وجدت خامات في مصر تحتوى على المعدنين ، وكان يصدر هذا المعدن إلى مصوع في القرن الأول بعد الميلاد . وقد عثر على خواتم منه وأقراط في مقابر بلاد النوبة (2) من العصر المتأخر .

الذهب : يوجد الذهب في الطبيعة منتشرا بكثرة على هيئة معدن ، ولم يوجد قط في حالة تقيية . بل يكون دائما محتويا على كميات من الفضة أو النحاس ، وأحيانا نجد فيه آثار حديد ، ومعادن أخرى . ويوجد الذهب في الطبيعة عادة في شكلين ، إما في عروق غير منتظمة ؛ في ثانيا صخور الكوارتس ، أو في الرمال الغريانية ، والحصى . وهذا ناتج من تفتت صخور تحتوى على مادة الذهب ، قد حملها تيار ماء جف فيما بعد . وقد عثر على الذهب في هاتين الحالتين . ولما كان من السهل معرفة الذهب بلونه الأصفر البراق ، وكذلك بسهولة استخراجة فقد عرفه المصرى واستعمله منذ عصور سحيقة ترجع إلى ما قبل الأسرات .

(1) Newberry, The Life of Rekhmara, p. 37 pl. XVIII (2) Firth, Arch. Survey of Nubia, Report for 1910-11 p.p. 115, 157, 159, 165.

والذهب يوجد فى مناطق شاسعة فى مصر بين وادى النيل والبحر الأحمر ؛ وبخاصة فى الصحراء الشرقية جنوبا من طريق قنا والقصر إلى حدود السودان . يضاف إلى ذلك أنه قد وجدت مناجم ذهب شمالى خط عرض قنا حتى دقنة فى السودان تقريبا ومعظم هذه المناطق تقع فى بلاد النوبة ، وهى اثيوبيا القديمة التى ذكرها الكتاب الأقدمون ، والجزء المصرى الحالى منها هو بلاد النوبة السفلى ، أى من أسوان (١) إلى وادى حلفا . أما القسم السودانى فهو بلاد النوبة العليا ، أى من حلفا إلى مرو . ولم يعثر إلى الآن على ذهب فى شبه جزيرة سيناء .

وقد وجد أن عدد المناجم التى شغلت قديماً فى الكوارتس لاستخراج الذهب يبلغ عددها نحو المائة ، والواقع أن المصريين كانوا من أمهر الباحثين عن هذا المعدن ، إذ لم يوجد مكان يشعر بوجود الذهب فيه ، إلا وجدنا المصريين قد سبقوا إليه ، وقتلوه فحسا وتنفيا . وقد أحييت صناعة تعدين الذهب منذ مدة وجيزة ، ولكنها أهملت ثانية لأسباب اقتصادية .

وقد ظن الأستاذ « بترى » (٢) أن الذهب كان يجلب إلى مصر منذ الأسرة الأولى ، وعزا ذلك لوجوده مخلوطا بالفضة . غير أنه نسي أن الذهب المصرى كان يحتوى أحيانا على مقدار عظيم من الفضة طبيعيا ، وكذلك ذكر الأستاذ بترى أن الذهب يحتوى على مقدار من الإثمد منذ عهد الأسرة الثانية ، وبذلك استنتج أنه لا بد أن جلب إلى مصر من ترنسلفانيا موطن الإثمد ، ^٣ ولكن ذلك محض خطأ .

(1) Stanley C. Dunn, On the Mineral deposits of the Anglo-Egyptian Sudan p. 13. (2) Petrie, The Arts & Crafts of Ancient Egypt. (1910) p. 83. (3) Petrie, Descriptive Sociology Anc. Egypt. p. 57.

والواقع أن الوثائق المصرية القديمة تخبرنا أن الذهب كان يجلب إلى مصر من أقاليم الجنوب في عهد الأسرة الثانية عشرة . على حين أنه ليس لدينا وثائق ، تدلنا على أنه كان يجلب إلى مصر من الشمال قبل الأسرة التاسعة عشرة .

وقد كان يؤتى بهذا المعدن إلى مصر في الأسرة الثانية عشرة من قفط ، وبلاد النوبة ، وفي عهد الأسرة الثامنة عشرة من الأراضى العليا ، وكاروى ، وقفط ، وكوش ، وبنت ، والأقاليم الجنوبية . وفي الأسرة التاسعة عشرة من أكيثا ، وأرض « الإله » ، وكاروى وبنت ؛ وفي الأسرة العشرين من إدفو ، وإيمو ، وقفط ، وبلاد الدهنج ، وأراضى العيد ، وأميو ، ومن الشمال في عهد الأسرة التاسعة عشرة من لويا ، وفي الأسرة العشرين من آسيا ، وفي الأسرة الثانية والعشرين من « خنت نفر » (1) . وأقدم خريطة في العالم هي الموجودة الآن في متحف تورين . رسمت على ورق بردى . وقد ظهر عليها مواقع مناجم الذهب في الصحراء الشرقية . ويرجع تاريخها إلى عصر الملك « سبتى الأول » من الأسرة التاسعة عشرة . ولا نزاع في أن المصرى منذ الدولة القديمة كان في متناوله مقدار عظيم من الذهب كما تدل على ذلك مخلفات الملكة « حتب حرس » ، وبخاصة قبتها الذهبية وكذلك ما وجد في بعض مقابر عظماء القوم وقد زاد مقدار الذهب في عهد الدولة الحديثة كما يشاهد في مقبرة « توت عنخ آمون »

(1) Br. A. R. (I) 520, 521. & op. cit. II 263, 373, 502, 514, 522, 526, 774, 889,. op. cit. III, 37, 116, 274, 285 286,. op. cit. IV, 30, 33, 34, 228, 409, 26, 770.

إذ نجد أن وزن تابوته فقط ما يقرب من ١١٠٠ كيلوجرام من الذهب الخالص . وكان الذهب يصاغ بالطرق والسبك . وكذلك كانت تنقش صفائح بالبارز والفاثر ، وتحلى صفائح الرقيقة الآثاث ، والتوايت الخشبية ، وغير ذلك من أدوات الزينة ، وكذلك كان يذهب النحاس . هذا إلى أنه كان يصنع من الذهب سلوكاً رفيعة لنظم العقود .

ولوحظ أن الذهب كان يطرق إلى أوراق رقيقة ، واستعملت للتذهيب وكذلك كان يلون الذهب ويلحم ، وبالاختصار فإن معظم الصناعات الحديثة لصياغة الذهب كانت مستعملة عند قدماء المصريين ، وقد شرح كل من « ويليمز وفرنيه » (١) تفاصيل طرق صناعة المجوهرات وكذلك قاس الكيماي «لوكاس» صفائح من الذهب يختلف سمكها ما بين ١٧ ر. ١٠ ، ٥٤ ر. من المليمتر ، ٠٩ ر. من المليمتر وذكر « بترى » أن سمك الورقة كان غالباً $\frac{1}{10}$ من البوصة أو ١٢٧ ر. من المليمتر .

وعند ما كان يراد استعمال ورق الذهب في تزيين الشكل البارز في الخشب كانت توضع الصفائح مباشرة على الخشب المشغول ثم تثبت فيه بمسامير صغيرة من الذهب ، ولكن عند ما كانت توضع أوراق رقيقة جداً على الخشب ، كان يغطى الخشب أولاً بطبقة رقيقة من جس خاص كان يلصق عليه الذهب بمادة مثبتة ربما كانت الغراء . وعند ما كان يراد استعمال ورق أرق مما سبق ، كانت توضع كذلك طبقة من الجص غير أن

(1) C. R. Williams, Gold and Silver Jewelry and Related Objects.; Vernier (a) Bijoux et orfèvreries dans Cat. Gen. du Musee du Caire ; (b) La bijouterie et la foaillerie Egyptienne dans Bull. de L'Inst. Franc. d'Arch. Orient. du Caire, II, 1907.

نوع المادة المثبتة التي كانت توضع فوقها لم تعرف بعد بالضبط وقد قال الأستاذ « لورى » (1) إنه لاحظ في حالة من تلك الحالات ، أن المادة كانت ياض بيضة وكان كل من معدني النحاس والفضة يجليان أحياناً بقشرة من الذهب ، وكانت هذه القشرة توضع على النحاس بإحدى طريقتين ، الأولى بطرق ورقة رقيقة من الذهب على النحاس ، والثانية تثبيت ورقة الذهب على النحاس بمادة لاصقة ، ربما كانت الغراء وقد عثر على أمثلة من النوع الأول ، وهي أزرار استعملت كأختام من عهد الأسرة السادسة تقريباً ؛ وكذلك عثر على تعويذة تمثل الإله « تحوت » أما تذهيب الفضة فقد عثر على أمثلة منه في عهد الأسرة الثانية والعشرين . (2)

وقد لوحظ في الآثار التي عثر عليها من الذهب القديم أنها تكون على ألوان شتى فنجد من بينها الأصفر الفاقع ، والأصفر القاتم ، والأحمر المختلف الألوان كاللون اللبنى المائل إلى الحمرة ، والطوبى الخفيف ، والدموى ، والأرجوانى القاتم ، ثم الأحمر القرمزى . وكل هذه الألوان عرضية ما عدا الأخير إذ قد نتج من مزج الذهب الخالص بكمية بسيطة من الحديد . كما يقول بعض علماء الكيمياء . أما الذهب الأصفر الفاقع فهو نضار خالص أما الأصفر القاتم المبقع فيحتوى على نسب من معادن أخرى كالفضة والنحاس . أما الذهب الرمادى فيحتوى على نسبة كبيرة من الفضة تغير لون مسطحه الخارجى .

الآلكتروم : وهو مزيج من الذهب ، والفضة ، وقد يكون طبيعياً .

(1) Laurie, Methods of testery minute quantities of material from pictures & Works of Art, in the Analyst, LVIII (1933) p. 468.

(2) Vernier, op. cit. p. 240-1, 378-9 pl. LVIII-IV, LXXVII

أو صناعياً ، والنوع الذى استعمل فى مصر القديمة يحتمل أنه كان دائماً من صنع الطبيعة . وقد تحتوى سبيكة هذا المعدن على أى نسبة من الذهب والفضة ، غير أنه عند ما تكون نسبة الذهب عالية فيه يكون لونه كلون الذهب الطبيعى . وعند ما تكون نسبة الفضة عالية يكون لون المعدن أبيض فضياً . ويمكن فى هذه الحالة أن يعتبر المعدن أنه فضة : وفى كلتا الحالتين لا يمكن أن يسمى الكتروم لأن هذا الاسم قد وضع ليدل على المعدن ذى اللون الأصفر الباهت ، وهو ما أطلق عليه الأغريق الكترون ، وسماه الرومان الكتروم . ويقال إنه سمي بهذا الاسم لمشابهته بلون الكهرمان . وهو الاسم الذى أطلقه عليه كل من « هومر » ، « وهزيود » (الكترون) . وقد ذكر فى الوثائق القديمة أن الألكتروم كان يجلب إلى مصر من بلاد بنت (١) ، « وآمو » ، والأراضى العالية ، والممالك الجنوبية ، ومن المناجم الواقعة شرق رادسية ، ومن الجبال وكلها أماكن واقعة فى جنوب مصر ، وليس هناك ما يدل على أنه كان يجلب من الشمال ، أو من « بكتولس » كما ذكر الأستاذ « بترى » .

والواقع أنه ليس هناك فاصل حقيقى بين الذهب والألكتروم بل هو محض اصطلاح . فعند ما تكون السبيكة محتوية على أقل من ٢٪ من الفضة فإنه يطلق عليها كلمة ذهب وعند ما تكون النسبة ٢٠ أو أكثر فإن لونها يكون أصفر ، وبهذا يطلق على المعدن لفظة الكتروم . وهذا التعريف يتفق مع ما قاله « بلىنى » .

ولا نزاع فى أن الألكتروم كان موجوداً فى مصر طبعياً وأن المقادير

(١) Br. A. R. (I), & II 272, 298, 387, 374, 377.

التي استخرجت منه كافية لسد حاجة البلاد ؛ وقد كان المصري يفضل عمل مجوهراته منه أكثر من الذهب ، وذلك لصلابته ، وربما كان ذلك هو السبب الذي جعله كثير الاستعمال في مصر القديمة . وكان يستعمل في نفس الأغراض التي كان يستعمل فيها الذهب ، أى في صنع المجوهرات ، وتذهيب الخشب ، والتوايت الخشبية والآثاث ؛ ويرجع بداية استعماله إلى الأسرات الأولى .

الحديد : لا نزاع في أن مركبات الحديد توجد بكثرة عظيمة في الطبيعة ، على حين أن معدن الحديد الخالص لا يوجد إلا بكميات قليلة . والحديد على نوعين مختلفين أولهما يوجد على شكل بلورات معينة من أكسيد الحديد في بعض الصخور البركانية ، ويندر وجوده في شكل قطع كبيرة . والنوع الثاني هو ما يسمى بالحديد السامى وهو تراب أو قطع من شهب تحتوى على حديد ، ويمتاز هذا النوع الأخير بأنه يحتوى على كمية من معدن النيكل تتراوح بين ٥ و ٢٦ ٪ على حين أن الحديد الأرضى أى الذى يوجد في الصخور البركانية لا يحتوى على هذا المعدن إلا في الصخور فوق القاعدية نادرا وبكمية قليلة جدا .

والمعادن التي تحتوى على مادة الحديد كثيرة في مصر ، وأهمها خام الهيماتيت ، وقد تكلمنا عنه فيما سبق ، وكذلك توجد بعض مركبات الحديد في المغرة الحمراء والصفراء ، ويستعملان للتلوين وهذه الخامات توجد على الأخص في الصحراء الشرقية وفي سيناء^(١) وفي المغرة القريبة من أسوان ،

(1) Hume, The Distribution of iron ores in Egypt. & Nasssim, Minerals of Economic Interest in the Deserts of Egypt, in Report of Congrès Inter, de Geol. Le Caire, 1925, III, 1926 p.p. 164-5.

وفي واحات الصحراء الغربية .

والواقع أنه لا يوجد موضوع ~~كثير~~ فيه النقاش ، والتضارب أكثر من تحديد العصر الذي بدأ فيه استعمال الحديد بصفة عامة ويزعم بعض العلماء أن الحديد كان حتما مستعملا في مصر منذ أقدم العصور لثقل الأحجار الصلبة وحفرها ، إذ لم يعرف للآن أية وسيلة أخرى استخدمت للوصول إلى قطع هذه الأحجار وصنعها إلا إذا كان الحديد أو الصلب قد استعمل لهذا الغرض ويعتمد الذين يميلون لهذا الرأي ، على وجود بعض قطع من الحديد يرجع تاريخها إلى ما قبل الأسرات ، وأن عدم وجود كميات عظيمة من هذا المعدن إلى يومنا هذا في الآثار المكشوفة يرجع إلى أن الحديد يغمسه الصدأ ويتآكل وتختفي معالمه . وقد عثر على قطعة من الحديد بالقرب من الهرم الأكبر ، والظاهر أنها ليست قديمة بل قد تركها الذين كانوا يعملون في تكسير أحجار هذا الهرم حديثا لاستعمالها في مبانيهم .

وأهم القطع التي عثر عليها منذ عصر ما قبل الأسرات هي بضع خرزات (1) ولكنها عند ما حلت وجد أنها من الحديد السماوي أى من بقايا الشهب المتساقطة ، وكذلك عثر «مسبرو» على عدة قطع (2) من بلطة في أبو صير ذكر أنها يجوز أن تكون من عهد الأسرة السادسة ، ولكنه لم يجزم بشئ قاطع في تحديد تاريخها .

بعد ذلك عثر « بترى » على كمية من الحديد الذي يعاوه الصدأ ومعه

(1) Wainwright, The Labyrinth, of Gerzeh and Mazghuneh p.15-16. (2) Guide au musée de Boulaq, 1883. p. 296

معاول من النحاس يرجع عهدا إلى الأسرة السادسة (1) في أساس
معبد في العراة المدفونة . ومن المحتمل أن الحديد الذي وجد هنا لم يكن
على شكل آلة للاستعمال لأن كيفية صهر الحديد لم تكن قد عرفت بعد .
يلي ذلك العثور على رأس حربة من الحديد في بلاد النوبة يقال
إنها من عصر الأسرة الثانية عشرة (2) . غير أن هذا التاريخ ليس
مؤكدًا . وكذلك عثر على جزء من معول ، وجزء من فأس يقال إنهما
من عهد الأسرة السابعة عشرة ، ولكن ذاك لم يؤكّد بعد .

وفي مقبرة «توت عنخ آمون» (3) أي في أواخر الأسرة الثامنة عشرة
عثر على عدد من قطع الحديد ، وهو خنجر ونموذج مخدة وتعويذة للعين
مرصعة في سوار من الذهب ، وست عشرة آلة لها مقابض من الخشب ،
وأسلحتها صغيرة جدا رقيقة وكلها من الحديد ، ووزن كل هذه الأسلحة
لا يزيد على أربعة جرامات ، وهذه كانت بلا نزاع تستعمل آلات
سحرية لفتح قم مومياء «توت عنخ آمون» غير أننا لا نعرف إذا كانت هذه
من حديد الشهب أو من حديد الأرض .

ومنذ عهد «توت عنخ آمون» أخذ عدد قطع الحديد يزداد وجوده
حتى الأسرة الخامسة والعشرين (4) ، وفي هذا العهد عثر على كمية من
الآلات مصنوعة من هذا المعدن ؛ ومن ثم أصبح الحديد كثير الاستعمال
إذ لوحظ في آثار بلدة تقراش وبلدة إدفينا في عهد الأسرة السادسة

(1) Petrie, The Arts & Crafts of Anc. Egypt. p. 104. (2) Randall-Mac-Iver & Woolley, Ruben p.p. 193, 211, pl. 88. (3) Carter, The Tomb of Tut-Ankh-Amen, II, p.p. 109, 122, 135, pls LXXVII, LXXXII, LXXXVII; III, p.p. 89-90, pl. XXVII.

(4) Petrie, Six Temples at Thebes p.p. 18-19.

والعشرين أن الحديد كان مستعملا كالتحاس بل أكثر ، وكان يصهر في البلاد ، وفي منتصف القرن الثالث قبل الميلاد عثر على آلات من الحديد في المحاجر .

ومن كل ما سبق يتضح أنه وجد في مصر في العهود الأولى مقدار صغير جدا من الحديد المتخلف من الثوب صنع منه خرز ، ولكن لم يكن يعرف الحديد بمعناه الحقيقي ، أو كيف يستخرج من خاماته . ولكن مما لا شك فيه أن لفظة معدن السبا كانت موجودة عند قدماء المصريين . وخلافا لذلك فإن كل القطع التي عثر عليها من الحديد تاريخها مشكوك فيه حتى نهاية الأسرة الثامنة عشرة ، عند ما عثر على قطع حقيقية من الحديد في « مقبرة توت عنخ آمون » ، ولا نزاع في أنها كانت قد أهديت له من ملوك غرب آسيا موطن صناعة الحديد .

ولا بد أن الحديد نفسه كان كشفا جديدا في سوريا وفلسطين في عهد أوائل الأسرة الثامنة عشرة ، إذ لم نثر على اسم الحديد من بين الهدايا التي كان يقدمها ملوك هذه الجهات . وأقدم تاريخ عثرنا عليه لصناعة الحديد في مصر يرجع إلى القرن السادس قبل الميلاد ، وذلك عند ما كشف « بترى » معملا لصهر الحديد في قراش^(١) الواقعة في الشمال الغربي من الدلتا . غير أننا لانعرف من أين أتى بخاماته .

ومن جهة أخرى نعرف أن خامات الحديد قد استخرجت قديما من الصحراء الشرقية ، وبالقرب من أسوان ، ويحتمل أن المكان الأول

(1) Petrie, Naukratis p. 39.

قد استعمل في عهد الرومان ، وأهم سبب في تعرف الإنسان على النحاس قبل الحديد رغم كثرة خامات الحديد عن خامات النحاس ، أن الأخير يمكن طرده باردا أما الحديد فلا يمكن طرده إلا بعد أن يحى بدرجة عظيمة .

الرصاص : وجد هذا المعدن في مصر منذ عصر ما قبل الأسرات والسبب في ذلك يرجع إلى أن خامات هذا المعدن توجد في مصر منها الجليئة (فلز الرصاص) ، وتظهر بشكل معدنى يسترعى النظر هذا إلى أن هذا المعدن يمكن الحصول عليه بسهولة من خاماته .

وأهم الأماكن التي توجد فيها خامات الرصاص هي جبل الرصاص (1) الواقع على مسافة سبعين ميلا جنوب القصير . على أنه توجد رواسب منه في أماكن أخرى مثل رنجما على ساحل البحر الأحمر ، ومنطقة سفاجا بالقرب من البحر الأحمر ، وكذلك يوجد بالقرب من أسوان (2) .

وأهم خامات للرصاص هي الجليئة التي كانت تستعمل في مصر قديما لتكحيل العين منذ عصر ما قبل الأسرات حتى العهد القبطى ، وكان الرصاص يستعمل لأغراض شتى فصنعت منه تماثيل صغيرة للإنسان ، والحيوان (3) ومثقلات لشباك صيد السمك ، وخواتم ، وحلى ، ونماذج أطباق ، وصوان وسدادات . وأحيانا كان يستعمل لعمل الأواني وغير ذلك . ولا نزاع في أن معظم الرصاص الذى كان يستعمل في مصر حتى عهد الأسرة

(1) Mines & Quarries Dep, Report on the Mineral Industry of Egypt, 1922 p. 24. (2) Hume, Explan. notes to the Geol. Map. of Egypt. p. 38-9. (3) Petrie, Prehist. Egypt. p. 27 & Petrie, Objects of daily use, p. 49.

الثامنة عشرة كان يستخرج من مصر وليس هناك ما يدل على أنه كان يجلب من سوريا حتى عهد الفتح المصرية في آسيا، إذ تدل الوثائق على أنه كان يجلب من « زاهى » ، و « رتنو » ، و « إيسى »⁽¹⁾ ، ويظهر أن الأخيرة ليست قبرص بل هي إقليم واقع في شمال سواحل سوريا ، وذلك لأن خامات الرصاص لا وجود لها في قبرص .

الفضة : كانت الفضة نادرة في مصر منذ أقدم العصور وكل ما عثر عليه هو بعض نماذج يرجع عهدها إلى عصر مدينة نقادة من عهد ما قبل التاريخ ، فقد كشف عن غطاء إناء صغير وملقعة صغيرة بمقبض مجدول⁽²⁾ وكذلك عثر على آثار من الفضة في مقبرة الملك « سمرخت » . وفي مقبرة الملكة « حنب حرس »⁽³⁾ نجد أن الأدوات المصنوعة من الفضة كانت نادرة جدا بالنسبة للأدوات التي صيغت من الذهب ولذلك كانت تعد أنفس منها وأعلى قيمة ، إذ نشاهد أن الذهب كان يستعمل بسخاء لتذهيب الأثاث ، ولعمل أطباق صغيرة وأقداح للشرب وسكاكين وأمواس ، على حين أنه لم يصنع من الفضة إلا ٢٥ حجلا مرصعة بالفيروز واللازورد والعقيق . وترى في ظاهرها كأنها قطع صماء ولكنها في الواقع مفرغة . يضاف إلى ذلك أنه حتى في مقبرة « توت عنخ آمون » أى بعد عصر « حنب حرس » بنحو ١٥٠٠ سنة نجد أن الذهب لم يستعمل في أثاثه إلا بمقدار طفيف . فمن ذلك نرى أن الفضة كانت مادة نادرة حتى عهد

(1) Br. A. R. II, 460, 462, 471, 491, 509, 494. 521.

(2) Petrie, Metals in Egypt. p. 16, Prehistoric Egypt, p.p. 27 & 43.

(3) G. A. Reisner, Tomb of Queen Hetep-Heres in Bull. Mus. Arts, Boston, 1917, XXV.

الأسرة الثامنة عشرة ولكن يظهر بعد ذلك أنها استعملت بعض الشيء وبخاصة أن الكشف الحديثة من عهد الأسرة الثانية والعشرين برهنت على أن بعض الفراعنة كانوا يصنعون قوايتهم من هذا المعدن . ولكن كثر استعماله في عهد البطالة .

ولم يعثر على معدن الفضة في مصر حتى الآن لا في حالته الطبيعية ولا في حالته المعدنية . والفضة الطبيعية تكون تقريبا نقية ، وتوجد بكميات صغيرة في حالة متبلورة كالأبر والخيوط ، وكذلك توجد نادرا على شكل شنور وألواح رقيقة ، وتوجد الفضة في كل نوع من الذهب وتكون أحيانا بكمية عظيمة . وأهم خامات الفضة هي كبريتات الفضة ، وتوجد وحدها أو مختلطة بكبريتات الإثمد أو الزرنيخ وكلورور الفضة . ومن هذه الخامات يستخرج نحو $\frac{1}{3}$ من محصول فضة العالم . أما الثتان الباقيان فيحصل عليهما من خامات الرصاص ، والزنك ، والنحاس وهي تحتوى على نسبة قليلة جدا من الفضة .

والذهب المصرى يحتوى في العادة على نسبة كبيرة من الفضة بين ١٠٪ و ٢٣٪ وهذه النسبة هي التي وجدت في الذهب المصرى المستخرج حديثا ، وكذلك وجدت نسبة عظيمة من الفضة في الذهب الذى عثر عليه في الكشف الأثرية .

ويقول الأستاذ بترى^(١) إن الفضة التى استعملت في مصر منذ عهد ما قبل الأسرات يحتمل أنها جلبت من سوريا وهذا هو السبب في

(1) Petrie, Metals in Egypt, p. 16 8 Prehistoric Egypt, p. 27.

ندورة استعمالها ويعزز هذا رأى الوثائق التى وصلتنا من الأسرة الثامنة عشرة وهى عصر الفتوح العظيمة فى آسيا . فلا يعد إذن أن السفن التى كانت تخر عباب البحر قاصدة سواحل فنيقية فى العهد المنفى لتحضر الخشب البنائى كانت تحمل معها أيضاً الفضة . غير أن « لوكاس »^(١) يقول إن هذا المعدن مستخرج من مصر نفسها حتى عهد الأسرة الثامنة عشرة وهذا هو السر فى أننا نجد الوثائق القديمة صامتة عن أصل مصدر الفضة حتى هذا العهد ، ومن ثم ذكرت لنا أنها كانت تجلب إلى مصر من آشور وبلاد الخيتا والنهرين وبلاد « الرتنو » ، و « زاهى » (سوريا) وكل هذه الأقاليم فى آسيا . وفى عهد الأسرة ١٩ كانت الفضة تجلب من أرض الإله (بنت) وبلاد الخيتا والنهرين وكذلك من لوبيا الواقعة فى الشمال الغربى لمصر . وفى اعتقاد « لوكاس » أنه لا شك فى أنه كان يوجد فى مصر وفى آسيا سبائك من الذهب والفضة تشبه فى طبيعتها معدن الأكلتروم وهذه السبائك كانت كمية الفضة فيها عظيمة مما أكسبها لون الفضة الأبيض ، وأن هذه السبائك كانت هى الفضة القديمة وقد سماها المصريون « الذهب الأبيض » . والظاهر أن هذا القول يقرب من الحقيقة ، إذ نجد أن كل الفضة التى عثر عليها فى مصر قديماً تحتوى على نسبة عظيمة من الذهب تبلغ أحياناً ١ ر ٣٨٪ .

وقد عرف المصريون تفضيض النحاس بورق من الفضة إذ عثر « برتن » على إبريق من النحاس عليه طبقة رقيقة من الفضة يرجع تاريخه

(1) Lucas, Ancient Eg. Materials p. 204 sq.

إلى عهد الأسرة الثانية (1)

وأهم إستعمال للفضة قديماً كان لصنع الخرز ، والمجوهرات ، والأقذاح والأواني . وكانت تطرق كالذهب الى ورق رفيع وتستعمل لتغطية الخشب كما يشاهد في أحد توابيت « يويا » من الأسرة الثامنة عشرة وقد عثر على مثال واحد لاستعمال الفضة للحام النحاس (2) .

القصدير : إن تاريخ كشف القصدير في مصر غامض جداً وكذلك لا نعرف على وجه التحقيق أى المعدنين استعمل أولاً : البرنز أم القصدير ولكن المحتمل جداً أن البرنز قد استعمل قبل اعتبار القصدير معدناً منفرداً وهو في ذلك كالنحاس الأصفر (مزيج من النحاس الأحمر والزنك) الذى كان معروفاً قبل الزنك . وعلى أية حال فإن أهم استعمال للقصدير في مصر كان لعمل البرنز .

ورغم أن خام القصدير لا يوجد في مصر ، فإن أقدم استعمال لهذا المعدن كان في وادى النيل . فأول شيء معروف في العالم صنع من القصدير على ما نعلم خاتم (3) وزمزية ماء عثر عليهما في المقابر المصرية من عهد الأسرة الثامنة عشرة (١٥٨٠ - ١٣٥٠ ق م) .

وقد كان القصدير يستعمل في مصر بمقدار قليل منذ عهد الأسرة الثامنة عشرة وما بعدها لتبييض الزجاج (4) . وقد عثر على هذا المعدن

(1) Brunton, Qua & Badari, I, 67 pl. XVIII (10)

(2) Lucas, Ancient Eg. Materials, p. 173. (3) Flinders Petrie, The Arts & Crafts of Ancient Egypt. 1910 p. 104. (4) E. R. Ayrton C. T. Currelly & A. E. P. Weigall, Abydos 14, p. 50. Neumann and G. Katyga Z. für Angew Chem. 1925 p.p. 776-80, 857-64. & H. D. Parodi, La Verrerie en Egypte p.p. 34, 45.

في مقبرة «توت عنخ آمون»^(١). وأقدم إشارة لمعدن القصدير في النقوش المصرية جاءت في ورقة هرس التي يرجع عهدها إلى الأسرة العشرين^(٢). غير أن معنى الكلمة التي ترجمت بالقصدير مشكوك فيه.

وقد اختلف العلماء في مصدر القصدير الذي كان يستعمل في مصر فطائفة تقول إن مصدره أوروبا وأخرى تقول إفريقية وطائفة ثالثة تجعل مصدره آسيا . ولكن البحوث التي عملت تدل حتى الآن على أن كلا من معدني القصدير والبرنز كان يجلب من غربي آسيا وأنها كانا يستخرجان من الشمال الشرقي من بلاد الفرس حيث يوجدان بكثرة^(٣). وقد كتب «وينزايت» مقالا دلل فيه على أن مصدر القصدير المصري من مكان بالقرب من الشمال الغربي من بلدة بيروت الحالية^(٤).

الشب : إن أول إشارة إلى وجود الشب في مصر قد جاءت على لسان «هردوت» عندما ذكر أن الملك أمازيس^(٥) (٥٦٩ - ٥٢٦ ق . م) قد أرسل كمية منها لبلاد اليونان عند إعادة بناء معبد دلفي وسماه مادة قابضة (الشب) وكذلك ذكر هذا المعدن الكاتب الروماني « بليني » في القرن الأول المسيحي . فقال إن من أهم مصادر الشب مصر^(٦) . ويوجد الشب في الواحة الداخلة والواحة الخارجة .

وقد جاء ذكر استخراج الشب في كتب المحدثين كالمقريري^(٧)

(1) Lucas, Appendix II Carter, The Tomb of Tut-Ankh-Amen III p.p. 176-7. (2) Br. A. R. IV, p.p. 245, 302, 385, 929.

(3) Lucas, Notes on the Early History of tin & bronze. in J. E. A. XIV 1928 p.p. 100-101. (4) Wainwright, in J. E. A. XX 1934, p.p. 29-32. (5) H. II, 180. (6) Pliny, XXXV, 32.

(7) Meqrissi, Descrip. topog. II et Hist. de l'Egypte dans Mem. Mission Arch. au Caire, 1900, p.p. 17, 691, 697, 698.

الذى يقول أنه كان يرسل إلى مصر من الواحات نحو ١٠٠٠ قنطار من الشب، وكذلك يوجد على مسافة من الجنوب الغربى من الشلالات على مسيره عشرة أيام فى الصحراء، وكانت الكمية المستخرجة تكون جزءاً من دخل البلاد كما ذكر ذلك « هملتون » فى سنة ١٨٠٩ (١) . وأهم استعمال لها الآن هو تثبيت الألوان .

النطرون : توجد هذه المادة الآن فى ثلاث جهات من القطر المصرى وهى وادى النطرون ومديرية البحيرة وجهة الكاب فى الوجه القبلى . وقد ذكر القلقشندى الكاتب المصرى الذى عاش فى القرن الخامس عشر مكانين آخرين يستخرج منهما النطرون أحدهما بالقرب من البهنسا فى الوجه القبلى وكان يستغل فى عهد احمد بن طولون (٨٣٥ - ٨٨٤) م والثانى فى مركز فاقوس . على أن أهم مكان كان يستعمله قدماء المصريين هو وادى النطرون وماجاوره من مديرية البحيرة وبخاصة بالقرب من دمنهور . وقد كان النطرون يستعمل فى مصر قديماً فى احتفالات التطهير (٢) وبخاصة لتطهير الفم (٣) ولعمل البخور ، ولصناعة الزجاج ، والطلاء ، وفى الطهو (٤) ، إذ يقول « بلىنى » أن المصريين كانوا يستعملون النطرون فى طبخ الفجل ، وكذلك كان يستعمل فى الطب وفى التحنيط (٥) .

(١) W. Hamilton, *Ægyptiaca*, Remarks on several parts of Turkey, Part I, p. 428.

(٢) Br. A. R. IV, 865. A. M. Blackman, Some notes on the Ancient Egyptian Practice of Washing the Dead, in J. E. A. X, 1918 p.p. 118-20. (٣) Blackman, The House of Morning in J. E. A. V (1918) p. 156-7, 159, 161-3.

(٤) Pliny, XXXI. (٥) Breasted, The Edwin Smith Surgical Papyrus I, p.p. 412, 491.

الشنون الاجتماعية

نظام العمل وقانون العمال في عهد الدولة القديمة

الاعمال الحكومية .

يمكن تقسيم العمل في عهد الدولة القديمة إلى ثلاثة أنواع . وهي الأعمال الحكومية أو الأعمال الحرة كالخرف والصناعات ، ثم أعمال أصحاب الضياع العظيمة . وسنتكلم عن كل منها حسب ما لدينا من المعلومات . كانت الأعمال العظيمة التي تتطلب مجهودا كبيرا ومصاريف باهظة تقوم بها الحكومة بل أصبحت تحتكرها .

وأهم هذه الأعمال استغلال المناجم النحاس ، والذهب . وكانت الحكومة وحدها هي التي تشرف على هذه المناجم وتصريف الأعمال فيها على أكمل وجه . فكانت تجهز طوائف من العمال المختصين تحت إشراف رؤساء عمال ومفتشين ، وتعد الأساطيل والقوافل لنقل العمال وما يلزمهم من آلات ومهام . وقد كان لها إدارة خاصة لتزويد العمال ، وحامية من الجنود لحماية الطرق والمناجم من هجمات القبائل التي كانت تغير على بقاع المناجم في الصحراء .

وكذلك كانت الحكومة منفردة باستغلال المحاجر التي كانت تستوجب بطبيعة الحال انخراط عدد عظيم من الأيدي العاملة فيها ، واستعمال مهات عظيمة من كل الأنواع . وذلك لأنها كما نعلم كانت الأساس الأول لأقامة المباني الضخمة التي بدأت تظهر بشكل جلي في عهد الملك « زوسر » .

فأقيمت الأهرام الملكية ومقابر القرين ، ومعابد الآلهة ، ومعابد الشمس مما كان يستلزم استخراج الأحجار من كل الأنواع ، ويتعذر على عظماء البلاد القيام به .

وتدل كل النقوش من أقدم العهود والتواريخ الملكية وكل الوثائق المكتوبة على أن الملك كان المحتكر لاستخراج المعادن والأحجار .

وقد كان لإقامة المباني بالأحجار شأن عظيم منذ بداية الأسرة الثالثة ، ولا أدل على ذلك من أن المهندس المعمارى الملكى (مدح نيسوت) كانت له أهمية ممتازة فى إدارة البلاد . فقد كان « إمحوتب » مستشار الملك « زوسر » يحمل لقب مهندس معمارى ^(١) ملكى وكذلك كان كل المهندسين المماريين الملكيين الذين خلفوا « إمحوتب » من كبار الشخصيات فى عهد الأسرة الثالثة نجد « نزم عنخ » وكان يحمل لقب نائب الملك فى « فنخ » ^(٢) ، « وحسى » ويحمل لقب (أحد أعضاء مجلس العشرة العظيم) ^(٣) ، وفى عهد الأسرة الرابعة كان يحمل هذا اللقب « حميون » وهو أحد أحفاد الملك ^(٤) . وفى عهد الأسرة الخامسة حمل نفس اللقب « سنزم إيب » وكان فى الوقت نفسه وزيرا ^(٥) .

وهذا المهندس المعمارى كان رئيسا لجيش من قاطعى الأحجار والمماريين والحفارين ، والمثاليين ، وكان كل ذلك يحتاج إلى إدارة تستوجب وجود

(1) Inscribed Statue of King Zoser, in Ann. Ser. A. 1926 p.p. 192 sq. (2) Garstang, Mahasna, pl. XXVI, 7. (3) Weill, Origines, p. 233. (4) Junker, Giza I, p. 150. (5) Pirenne, Institutions, t.II, Index No. 37.

عدد عظيم من الكتبة وإدارة منظمة ذات أقلام ومصالح^(١)؛ ولا أدل على ذلك من الألقاب التي يحملها الموظفون أو الكتّاب المماري الملكي والمشرف على الوثائق . ونجد البنائين خاضعين لأوامر مديري (إمرا كدو) عليهم ويساعدهم في ذلك رؤساء بنائين (سحر كدو)^(٢) . وقد ترك لنا الذين أقاموا المباني العظيمة في عهد الأسرتين الرابعة والخامسة علامات تدل على قطع الأحجار في طرة وتكشف لنا بعض الشيء عن نظام العمل في عهد « خفرع »^(٣) ومنكاورع وسحورع ونوسرع . وقد كان العمال يقسمون إلى فرق « عبرو » ثم إلى زمر (سا) وقد كانت القطع التي تفصل من الصخر تحمل طابع العمل الذي قطعها في الحجر^(٤).

وقد عثر في منطقة الأهرام نفسها على مساكن للعمال الذين كانوا يقومون بالبناء . وهي قاعات ضيقة طويلة ، أو بعبارة أخرى دهاليز يبلغ عددها نحو المائة كل منها يأوي نحو خمسين عاملا^(٥) .

ومن ذلك يتضح أن الأعمال في مشاريع الحكومة كانت منظمة على طريقة حرية والواقع أن لفظة « عبرو » ولفظة « سا » من الكلمات الحرية . وقد ذكر لنا « هردوت » أن بناء هرم « خوفو » استلزم جيوشا من عمال المحاجر لقطع الأحجار من جبال صحراء العرب ، ثم جرها إلى النيل ،

(1) Weill, Origines, p.p. 232, 235. (2) Junker, Giza I, p. 150.

(3) Reisner, Mycérianus, app. E. p. 273-277; Chronique d'Egypte, No. 16, 1933 p. 240-2; Petrie, Meidum and Memphis, III, p. 9; Borchardt, Sahure, t. I, p.p. 85 sq.; Neferirkare, p.p. 45 sq.; Neuserre, p. 146. (4) Chronique d'Egypt, p.p. 45 sq.; Neuserre, p. 146. (5) Holscher, Das Grabdenkmal des Königs Chephren, p.p. 36, 70; Junker, Giza I, p. 124-125.

ووضعها في سفن لعبور النهر ، ثم نقلها الى قمة هضبة الجيزة . وفي هذه الجهة كان يشتغل ١٠٠٠٠٠٠ عامل يعملون بالتناوب كل ثلاثة أشهر وقد استمر العمل عدة أعوام في بناء الطريق المائى من معبد اللوادي إلى الجنازى وعشرين سنة لبناء الهرم نفسه (1)

ويظن المؤرخ الأغرريقى أن هذا البناء الضخم قام على أساس الاستبداد الفرعونى وأثرة « خوفو » التى بلغت مبلغا عظيما . والقسوة المنقطعة النظير التى استعملها الفراعنة فى استعباد الشعب لأقامة مدفن لهم هائل .

والواقع أنه إذا كانت المقابر العظيمة التى أقامها الفراعنة تمثل المجهودات التى بذلتها آلاف النفوس البشرية ، وإذا كان كل ملك أعاد هذا المجهود الجبار ؛ وإذا كنا لم نر أية معارضة ملموسة للآلام التى لاحد لها التى قاساها العمال ؛ فإن ذلك برهان كاف على أن الأهرام ليست بأية حال من الأحوال رمزا للعبودية « والقسوة » بل رمزا للطاعة الإلهية يعمل الفرد وهو يشعر بأنه يؤدي واجبا مقدسا لإلهه الفرعون على الأرض (2)

ويجب هنا ألا نحكم بأفكارنا الحالية إذ الواقع أن بناء هرم أو معبد للشمس عمل من أعمال الحكومة ، ومشروع من المشروعات الأصلية الهامة فى حياة الدولة . ولأجل أن نفهم كنه هذا العمل لابد أن نعرف معتقدات القوم الدينية فى العهد المنفى ، وكذلك مهارتهم فى البناء واعتقادهم فى طبيعة الفرعون الإلهية ومقدار مهارتهم فى تنظيم العمل .

والواقع أن صبغة الفرعون الاستبدادية كانت مؤسسة على طبيعته

(1) Herodote, II, p. 124-125. (2) Jéquier, Hist. Civ. Eg. p. 163; Meyer, Histoire de l'Ant. t. II, p. 221.

الإلهية وقد برزت هذه الظاهرة في قوته السياسية والإدارية . وذلك أن الأسرار الأوزيرية وديانة عين شمس كانتا الأساس الذي يبنى عليه معتقدات القوم ، ومنها نشأت نسبة الملك إلى أصل إلهي وأبديته حسب عمله الدنيوي ، ، فلم يكتف الملك بأن تكون له شعائر دينية تقام له في مدة حياته ، بل كان يعمل كذلك لحفظ جثمانه المادي بإقامة مقبرة على غرار الآلهة . فكان الفرعون يعتقد أن جسمه الذي لا يلى سيقى ساهرا على أقدار مصر من أعماق هرمه فكانت إقامة شعائره لا تنقطع وكانت تحبس الأوقاف لتكون ضمانا أبديا لاستمرار تقديم القرбан له .

المصانع الحكومية . وخلافا للمناجم والمحاجر الحكومية ، كان للملك عدة مصانع تصنع فيها محاصيل الضياع ، والضرائب التي كانت تورث خامات . فمنذ العصر الطيني نرى على الآثار أن الذهب والنحاس كانا يصنعان بواسطة صياغ يعملون برقابة رؤساء قد ذكرت وظائفهم على جدران كثير من المقابر مثال ذلك رئيس صياغ البيت الملكي « خرب نبو برعا » وقد عثر على هذا اللقب في مقابر الملوك « دن » ، و « مريابن » ، و « قع » ، و « حتب سخموى » و « نبرع » (1) .

وقد كان هؤلاء الصياغ والجوهريون ، يصنعون مجوهرات الأسرة المالكة وكذلك يصنعون عدة أشياء من الكماليات ، كان يقدمها الفرعون إلى المقربين له ورجال قصره . هذا إلى أنواع النبيذ المختارة ، والمنسوجات

(1) Weill, Origines, p.p. 154, 157-159.

الكتانية الدقيقة ، وورق المحفوظات والأثاث المرصع والمطعم ، وأنواع الزيوت والطور ، والأواني الفاخرة المصنوعة من الأحجار الصلبة الجميلة ، والأواني الخزفية المطلية ، كل هذه الأشياء وغيرها كانت تخرجها الأيدي الماهرة التي كانت تعمل في المصانع الملكية . وتدلنا الألقاب التي نجدها على مختلف الآثار على وجود نظام وإدارة مرتبة لحسن سير هذه الأعمال . مثال ذلك أننا نجد من الأسر الأولى ألقابا هامة كرئيس إدارة العمال « خرب حمت إس » (1) ورئيس الخبازين ، « خرب رنح » ورئيس صناع الحلوى « خرب بنر » ومدير مصنع الطحن (2) « إمرا بر إنز » ومدير صناع احتفال (3) الملك ومدير المرطبات (4) . والمشرف على الفطور « إرى خت ان سننى » (5) . وكبير صياغ القصر « إمى خت اموتى بر عا » (6) .

قانون العمال الملكيين

تدل النقوش على انه كان للعمال نظام غاية في الدقة قائم في البلاد منذ فجر التاريخ ولدينا من الألقاب ما يشير بقيام هذا النظام ، وأن هؤلاء العمال كانت تدون اسمائهم في سجلات خاصة فقد ذكر لنا « بترى » أنه كان للعمال المدونة اسمائهم مراقب خاص (7)

-
- (1) Weill, Origines, p.p. 238 sq. (2) Pirenne, Institutions t. I, Index III No. 42; Maspero, Carrière administrative dans Journ. Asia. t. XV, 1890 p.p. 405 sq. (3) Mariette, Mastabas, p.100. (4) Borchardt, Sahure, p.p. 89. (5) Mariette, Mastabas, p. 322. (6) Pirenne, t. III, & Index No. 66. (7) Ancient Egypt, 1926, p. 74.

وقد كان هؤلاء العمال مقسمين إلى فرق صغيرة ، أو جماعات كبيرة ، أو هيئات صناعية والظاهر أن أسرى الحرب كانوا يخصصون لأشق الأعمال في المناجم أو في ضياع الحكومة أو المصانع الملكية . وهؤلاء بلا نزاع لم يكن لهم أية حقوق بل كان سيدهم له الحق في التصرف فيهم كيف شاء ويقومون له بأي عمل يريد ، على أنهم في مقابل ذلك لا يأخذون إلا مايسد رمقهم . وعلى أية حال فإن ما قام به أسرى الحروب من الأعمال لم يكن إلا ثانويا . وعند الحاجة كان يطلب الجنود للأعمال الهامة وبخاصة إذا علمنا أن الحروب في هذه الأوقات كانت قليلة ولذلك كانت تستخدم الجنود في الأعمال الحكومية وقد ذكرنا فيما سبق أن الجنود كانوا يرافقون البعث التي كانت ترسل إلى مناجم سيناء . وقد عثرنا على بردية من عهد الأسرة السادسة علمنا منها أن الجنود كانوا يشتغلون في قطع الأحجار من طرة (١)

ورغم كل ذلك فإنه لم يكن في استطاعة الجيش والأسرى العبيد أن يكونوا النواة الحقيقية لطائفة الصناع الذين كانوا يشتغلون في المصانع والمعامل الحكومية ، وبخاصة في الأعمال التي كانت تحتاج إلى مران ومهارة فنية ؛ ولا بد إذن من أن نبحث عن هؤلاء الصناع والعمال في الطبقة التي تعلمت الحرف والصناعات الدقيقة وكانوا يقومون بهذه الأعمال سخرة ، لأنهم كانوا عبيدا تابعين لأعظم القوم ، أو بأجر لأنهم كانوا أحرارا يشتغلون بعقود تكتب بينهم وبين صاحب العمل . وربما كان الرأي الأخير هو الذي يمكننا

(1) Gunn, A sixth dynasty letter from Saqqara, in An. Serv. A. t. XXV, 1925, p.p. 242.

أن نسلم به وبخاصة إذا علمنا أن في مراسيم دهشور وقفنا ما يوجب على الأهالي تأدية التزامين للحكومة وهما الضرائب وأعمال السخرة .

والواقع أن حياة البلاد الزراعية كانت تتطلب تنظيم المياه والجسور وكذلك كان على الفلاحين أن يدخلوا المحاصيل في مخازن الحكومة ، فكانت كل هذه الأعمال تسخر فيها السكان . على أننا من جهة أخرى لم تصادفنا أية وثيقة للآن فيها أن أى عمل صناعى كان مفروضا على صناع معمل ما . هذا إلى أن نظام التأجير لم يدخل في هذا الباب ، وذلك فضلا عن أنه ليس لدينا أية إشارة تنبئ بذلك ، ولكنه من الصعب أن يتصور الإنسان أن العامل يرضى بأن يكون (تمليا) كالفلاح الذى كان منذ الأسرة الثالثة بل وقبلها يتمتع بالحرية الشخصية ، فكان فى قدرته أن يتعاقد مع التاج أو مع أصحاب الضياع لاستثمار الأراضى . والواقع أن المدن كانت تحوى بين جدرانها طبقة من العمال اليدويين لهم حقوقهم الخاصة ، وكان يجند من بينهم العمال المملكون . ولدينا ثلاث وثائق تثبت أن هذه الطبقة من العمال كان أفرادها أحرارا وليسوا عبيدا . الوثيقة الأولى يرجع عهدا إلى عهد الملك « خفرع » وهى عقد بيع عقار يظهر فيه أن شخصا يدعى « محى » وصناعته عامل فى الجبانة ، كان من حقه أن يوقع شاهدا مع كهته على عقد البيع (1) .

بما يدل على أنه كان متمتعاً بكل حقوقه المدنية . وحوالى هذه الفترة أمر الملك « منكاورع » ببناء قبر للمقرب « دبجن » وقد خصص

(1) Sottas, Etude critique sur un acte de vente immobilière du temps des Pyramides, Paris 1913, p.p. 5-21.

لهذا العمل خمسين رجلا وأمر جلالة بالآلا يسخر واحد منهم بل يشتغل فيه برضائه . أما الوثيقة الثالثة فيرجع عهدا إلى عصر الملك « نوسررع » : وهى وصية العظيم « وب إم نقرت » رئيس القصر الملكى لابنه الأكبر « إبي » ليشراف على وقف مقبرته . وقد جاء فى ذيل هذه الوصية رسم خمسة عشرة شاهدا كل باسمه وصناعته . فنجد من بينهم رئيس البنائين ، والصانع ، والحفار والنقاش (1) .

وهذا مما يدل دلالة واضحة على أن أصحاب الحرف والصناعات كانوا طوائف أحرارا ليسوا تابعين لفرد معين ولا للحكومة . على أن هناك من علماء الآثار من يعتقد بأن سكان الضياع الملكية كانوا يقدمون للمصانع الملكية أصحاب الحرف الذين كانوا يعملون فى هذه المصانع هذا فضلا عن الأيدى التى كانت تشتغل فى الزراعة . وهذا لا يتفق مع الواقع كما ذكرنا (2) . والحقيقة أن أصحاب الحرف كانوا شرعا رجلا أحرارا وكان فى مقدورهم أن يتعاقدوا مع أى رئيس عمل ، أى يعملون لحسابهم الخاص مستقلين . والنقوش التى تظهر لنا كل يوم من جوف أرض مصر تؤكد لنا هذه النظرية فى مقبرة « رموكا » كاهن الملك « منكاورع » تقول لنا النقوش : لقد أقيمت هذا القبر مقابل الخبز والجمعة التى أعطيتها كل الصناع الذين أقاموا هذا القبر . تأمل حقا لقد أعطيتهم أجورا عالية من الكتان الذى طلبوه وشكروا الله على ذلك ، (3) وفى عهد الملك « نوسررع » نجد فى نقوش « اخت حرى حتب »

(1) Excavations at Giza, Vol. II, p. 191. (2) Moret, Histoire de l'Orient, p. 218. (3) Excavations at Giza, II, p. 169.

أحد رجال القضاء وكاهن معبد الملك ما يثبت ما ذكرناه إذ يقول على نقوش قبره : إن كل الذين عملوا في مقبرته . صنعوا ذلك في مقابل الخبز والجمعة والمنسوجات والزيوت والجبن بكية عظيمة . (1)

وكذلك ترك لنا « إنتى » أمير المقاطعة في دشاشة نقوشا قال فيها : إن كل رجل عمل في هذا « القبر » لى لم يكن غير راض ، اما من جهة العمال وفعلة الجبانة ، فانى قد أرضيتهم (2) .

ولا يفوتنا أن نذكر هنا ما قاله الكاهن الملكى في مقبرته بالجيزة « لقد جعلت المثال ينحت هذا التمثال ، على شرط أنى جعلته مرتاحا للأجر الذى أعطيته مقابل عمله (3) .

وفى هذا برهان واضح على أن الأغنياء كانوا يكلفون أصحاب الحرف بالقيام لهم بأعمال خاصة يؤجرونهم عليها . على أن نفس دفاع صاحب العمل عن نفسه سواء أكان بحق أم بغير حق ، بأنه لم يسخر أحدا للقيام له بعمل ، فيه ما يشعر بكل وضوح بأن العامل كان له حقوق من جهة عمله يتمتع بها وتحفظه من ظلم ينزل به .

ومما يؤسف له جد الأسف أنه لم تصل إلينا وثيقة حتى الآن تفهم منها أن أحد الصناع كان له مصنع خاص يعمل لحسابه ، ولا نزاع فى أن مثل هؤلاء كانوا موجودين فى المدن العظيمة ، ولكن لم يصلنا شئ عنهم وربما كان أهم سبب لذلك أنهم لم يكونوا من طبقة (المقربين) فيمنحون مقابر ويتقشون عليها كل مفاخرهم وأعمالهم بل كانوا يدفنون

(1) Seth, Urk. t. I, p. 49.

Institutions, vol. I, p. 322.

(2) Sethe, Urk. I, p. 70; Pirenne,

(3) Kees, Ægypten, p. 164.

في مقابر حقيرة ، وهكذا توارت عنا صفحة مجيدة عن حياة القوم الاجتماعية من طبقة أصحاب الحرف والصنائع في عهد الدولة القديمة . ومع ذلك فإن ذلك لا يمنعنا من أن نعتقد أن أصحاب الحرف كانوا يعملون لحسابهم الخاص ما دما قد وصلنا إلى أنهم كانوا رجالا أحرارا يتمتعون بحقوقهم اللهم إلا إذا فرضنا أن الحكومة كانت تحتكر كل هذه الأعمال ، ولكن ليس لدينا من الأدلة ما يعزز هذا الفرض يضاف إلى ذلك أن مدن عصر ما قبل الأسرات في الوجه البحرى كانت مدنا حرة تجارية وكان يطلق على سكانها اسم « رخيت » (سكان المدن) ويحكم كلا منها جماعة من العظماء عددهم عشرة وقد كان الملك يقوم بإخضاع ثوراتهم من حين إلى آخر ، وليس لدينا من الوثائق ما يشير إلى أن مدن الدلتا الصناعة كانت في يوم من الأيام محرومة حقوقها الاقتصادية بل على العكس نقرأ في معبد الشمس للملك « سحورع » أن أحد الآلهة يقول للملك : لقد جمعت لك قلوب « الرخيت » (سكان المدن) (1) .

وكذلك نرى في متون الأهرام أن « يبي الثانى » يقول إنه « أراضى الرخيت » (2) .

والظاهر كما ذكرنا أن تقدير قيمة الضرائب بالذهب كان منتشرا في عهد الدولة القديمة إذ نرى في تاريخ حجر بلم أن قيد الحسابات الموسمية كان يعمل على أساس الذهب ومنتجات الحقول منذ العصر الطينى . وهذا الإجراء كان بلا نزاع موجودا بوجه خاص في المدن ، ولم يكن قاصرا على

(1) Borchardt, Grabdenkmal des Koings Sahure, p. 80. (2) Pyramiden textes, 1068.

الموظفين بل كان يجبي على أكثر الإنتاج الصناعى والتجارى فى البلاد الصناعية والتجارية . ويقول « ادوارد مير » عند كلامه على العهد الطينى أن هذا النظام كان يوجد فى المدن التى فيها صناع وتجار أحرار وهم الذين كانت ثروتهم خاضعة لجباية الضرائب بالدفع ذهباً (1) .

وقد جاء فى تعاليم « فتاح حنب » ما يأتى : كان الفقير والغنى فى المدن على قدم المساواة فى الحقوق ، فإن الفقير كان فى إمكانه أن يصبح غنيا بنفسه ، ولا يمكن أن ينسب ذلك طبعا إلى أعمال الفلاحة (2) . ومن كل هذه المعلومات المختلفة يمكننا أن نستنتج أنه كان يوجد فى البلاد طبقة من صغار العمال والصناع الأحرار يشتغلون للحكومة ، وللمعابد ولكبار الملاك ، وكذلك كان يوجد معهم رؤساء صناع وحرف ، يعملون بكل حرية واستقلال فى مصانعهم الخاصة وحوانيتهم ومعاملهم فى المدن ويعزز هذا الرأى أنه فى عهد الأسرتين الثالثة والرابعة كانت الملكيات الصغيرة ونظام الفردية منتشرين فى البلاد ، ولم تكن طبقة الأشراف التى ابتلعت ثروة البلاد واستحوذت عليها قد تم تكوينها .

ومنذ بداية الأسرة الخامسة أخذ ينتشر فى البلاد نظام اقتصادى جديد وأعني بذلك صناعات الضياع التى نشأت فى البلاد . وقد كان سبب ظهور هذا النظام تكوين طبقة كبيرة فى البلاد تسيطر على ضياع شاسعة فى مختلف الجهات . وقد تكلمنا فيما سبق عن كيفية ظهور طبقة الأشراف المولدين فى البلاد . وفى العصر الذى كانت فيه

(1) E. Meyer, Histoire de l'Antiquité, t. II, p. 173.

(2) Jéquier, Le pap. Prisse et ses variantes, Paris, (Geuthner), 191

تقسم الأملاك العقارية بدون انقطاع وتنقل من يد لأخرى بسرعة بالبيع أو بالقسمة ، أو بتنفيذ وصية ، لم يكن هناك مجال لوجود صناعات ريفية ذات أهمية . فلم يكن للصناعات نصيب خارج المدن التي نشأت وترعرعت فيها لأن سكانها يشترون معظم منتجاتها . على أن نفس الحالة لم تتغير منذ أخذ نظام الأسرة يتغير وأصبح عقارها متجمعا في يد الابن الأكبر بصفته المشرف العام على أفراد الأسرة كلها . وقد أصبح كل مالك في ضيعته سيدا مطلقا التصرف ، وقد كان حوله أقاربه وأصدقاءؤه ومحاسبيه ، وكتابه ، وخدامه وزرّاعه وهؤلاء جميعا بدءوا يفقدون شيئا من حريتهم . حقا أن ما تنتجه الضياع كان يغذى هذا المجتمع ، ولكن من جهة أخرى كان لا بد من وجود أيد عاملة باستمرار مكلفة بصناعة المواد الأولية التي كانت حتى هذا الوقت تقوم بصناعتها على وجه عام مصانع المدن . وقد بدأ منذ ذلك العهد الجديد يلف الصناع تدريجا حول قصور العظماء أصحاب الضياع ، في المصانع التي كانوا يقيمونها لهم . ولذلك نجد على القوم يصورون على مقابرهم مناظر هذه الحرف كل على حسب قدرته وثروته . فنجد فيها . الصياغ والمثالين والجوهريين والنحاسين ، وصناع الأبنوس ، والنجارين ، والدباغين ، وصناع الأحذية ، والنساجين ، وصناع الفخار ، والجمعة والخبازين ، والصاقلين ، وصناعاً آخرين من كل أنواع الحرف وكل هؤلاء قد استوطنوا هذه الضياع الشاسعة الغنية .

فبدلاً من عمل عقود مع هؤلاء الصناع للقيام بإتمام العمل يظهر أنهم كانوا يأخذون مرتباً طوال مدة حياتهم ، وتدل النقوش على أن كل صناعة

كان يرثها الابن عن الأب وبذلك تكونت في البلاد طائفة صناعية وراثية يظهر أنه كان لها حقوق شرعية تحدد بعقد مدى الحياة وكان يجدد باستمرار . وقد كان صاحبه يعتبر كأنه شبه (تملى) في الضيعة ومن بعده يخلفه ابنه . وقد نتج عن ذلك تطور يشبه التطور الذي ربط قانون الفلاح الذي يشتغل في أراضي الضيعة ، وهذا القانون جعل كل فلاح خاضعا للتشريع الخاص الذي يسنه صاحب الملك ، وبذلك خرجت طائفة العمال من النظام القديم الخاص بالحقوق العامة مما أرخى العنان للموجة التي كانت ترتفع نحو عصر الإقطاع ونظامه .

وهذا النظام الصناعي قد تجلى لنا بأكل مظاهره في مصاطب الأسرتين الخامسة والسادسة . ولا غرابة في ذلك فإن كل معلوماتنا عن الحرف والصناعات في عهد الدولة القديمة قد استخلصت من المناظر التي عثر عليها في مقابر الجيزة وسقارة وغيرها في هذا العصر . إذ نرى في كثير من هذه المصاطب صاحب الضيعة واقفا أو جالسا وهو يشرف على كل ما يدور في ضيعته من مختلف الأعمال الزراعية والتجارية والصناعية ويدل الدرس الدقيق لهذه المناظر والنقوش في مقابر الدولة القديمة والدولة الوسطى على أن المتوفى كان يأمل في أن يحتفظ في حياته الآخرة بما كان يملكه في دنياه ، ولذلك كان ينقش أسماء زوجته وأولاده وألقابهم كما كان ينقش بالضبط اسمه وألقابه هو ، وكذلك كانت الحال مع أهم موظفي بيته . . .

هذا إلى أن الفلاحين الذين كانوا رمز الضيعة كان يكتب اسم كل منهم وليس هناك ما يحملنا على الظن بأن هذه الأسماء كانت خيالية ولذلك لانكون مغالين إذا قلنا إن مارسمة المتوفى في قبره كان يمثل الواقع مدة حياته ولذلك

كان يريد ان ينقل معه كل شئ إلى الآخرة ، فكان يرسم معه نفس خدام الحياة الدنيا دون زيادة واحد أو نقصان آخر ؛ وكذلك كانت ثروته تحدد حسب ما كان له في الحياة الدنيا (١)

على أن حالة الصانع في هذا العصر لم تنحط عما كانت عليه من قبل ، بل كانت أعماله تدون في دفاتر منظمة ويأخذ أجرا محددًا في مقابل إنجازها ولكن على وجه عام كان حظه محددًا في أن يشتغل بالوراثة الابن بعد الأب لما لك الضيعة صاحب السلطان والنفوذ . وقد كان حظه مرتبطًا بحظ الضيعة التي يعمل فيها . ولما كان العامل مقيدا مع صاحب الضيعة بشرط ورأى كان عليه أن يطيعه وينتقل معه اذا أفتضت الأحوال الإدارية ذلك .

طرق المواصلات

طبيعة وادى النيل تحتم ان تكون الحركة العامة للمواصلات بوساطة نهر النيل صعودا وهبوطا لحمل الانسان والبضائع . والواقع أن النيل كان في الأزمان القديمة أحسن وسيلة للمواصلات لأنه كان في متناول كل إنسان في كل وقت ولذلك كانت تغطي مياهه طوال العام القوارب العدة والسفن المشحونة التي كانت تقل البضائع والحيوان والمحاصيل ، ومواد المبانى والصناعات هذا في الوجه القبلى أما في الوجه البحرى فكان النهر مقسما الى افرع وترع مزدحمة تحفها المستنقعات ؛ يضاف إلى ذلك أن الأقليم الساحلى كان يحتوى على بحيرات وبرك ، وفى هذه الحالة كانت الملاحة تسهل التجارة وتجبر الاهالى على استعمالها .

(1) Montet, Scènes de la vie privée, p.p. 406-407.

على أن تنظيم طريق للمواصلات في هذا العصر كان يعد مجهودا ضائعا في بلاد تغطي بالفيضان معظم السنة ولذلك يقول « هردوت » (1) :

« عندما يفيض النيل على البلاد ، لا تظهر إلا المدن فقط من وسط الماء ويكون مثلها كمثل الجزر الصغيرة في بحر « إيجة » وباقي مصر يصير بحرا وعندما يحدث ذلك ، فإن القوارب لا تمشي في مجرى النهر الطبيعي بل تسير في طول السهل وعرضه فالمسافر من قراش متجها نحو منف يمر بالضبط بالقرب من الأهرام . »

أما في انتقالات الأهلين اليومية والذهاب إلى الأسواق فكان الراجلة وراكبو الخمر يستعملون الجسور التي تربط بين القرى والبلاد وكان الحمار يلعب دورا هاما في المواصلات وذلك لأن الحصان والجل لم يستعملا إلا فيما بعد . وكان الحمار هو دابة الحمل العادية لصبره وتحمله وشجاعته وقد استعمل منذ أقدم العصور في القوافل والبعث التي كان يرسلها الملوك إلى الجهات النائية . وكذلك كانت تستعمل الثيران لجر الأحمال الثقيلة وبخاصة الأحجار الضخمة التي كانت تحمل على جرارات . على أن المصري نفسه كان يستعمل للقيام بهذه العملية ولدينا مناظر نشاهد فيها صاحب الضيعة محولا في محفة على الأغناق متجولا في حقوله (2) .

ولكن على العموم كانت الطرق النيلية هي أهم وسيلة في التجارة المصرية حتى أن القوم أصبحوا يعبرون عن سياحاتهم في النهر شمالا وجنوبا بالنزول من النيل والصعود فيه . وقد تغلب هذا التعبير حتى أصبح يستعمل للطرق البرية (3) .

(1) Herodote, II, p. 97. (2) Excavations at Giza, vol. II, p. 220, fig. 240.

(3) Erman-Ranke, *Ægypten und Ægyptische Leben*, p. 571.

وقد كان للملاحة أثر فعال في معتقدات القوم الدينية وفي شعائرهم (١) . فكان في نظرهم الإله « رع » يسير في الفجر في سفينة الصباح وعند الغروب يسبح في سفينة الليل أما النجوم فكانت تسبح في قواربها الخاصة وكان للموتى قوارب لخدمتهم وكانت توضع نماذج منها في مقابرهم . وهذه القوارب كما يقول « جوتييه » كانت تستعمل منذ الاحتفال بالجنائز لنقل رفات المتوفين في توابيتهم وكذلك لنقل تماثيلهم وأقاربهم وأصدقائهم وخدمهم والكهنة والبكاثين . والطعام اللازم للولائم الجنائزية ، والصناديق التي تحتوى على الأثاث المائتي الذي كان لا بد منه لضمان بقاء المتوفى في عالم الآخرة ولحمل الموسيقيين والمغنين والرقاصين الذين كانت مهمتهم إدخال السرور على أقارب المتوفى الذين كانوا يشاركونه آخر وجبة (٢) . والواقع أن أقدم الآثار تدل على أن النيل كان له تأثير أدبي ومادى في الحياة المصرية : وسنرى فيما يلي أن المصرى من العصور القديمة جدا كان بحارا ماهرا مجدا . وقد ذكر لنا « شارل بورييه » في كتابه عن الملاحة المصرية « أن الملاحة لعبت في مصر في كل عصور التاريخ دورا هاما جدا ، حتى أن عددا عظيما من المسائل السياسية والاجتماعية والدينية التي كانت تظهر كل لحظة خسن سير الإدارة في هذه البلاد الغرية التي خلقها نهر النيل ، كانت لا بد يتوقف فلاحها من قرب أو . من بعد على القارب والسفينة (٣) .

(1) Kees, *Ægypten*, p. 108.

(2) Gauthier, *Les transports dans l'Anc. Egypte*, dans "Égypte Contemporaine" No. 139 Janvier 1933, p. 232. (3) *Etudes de Nautique Égyptienne*, t. I, 1925, cf. Préface, p.p. VI-VII.

طرق النقل بالقوارب وصناعتها

منذ عصر ما قبل التاريخ كان المصري يصنع زوارقه بطريقة ساذجة وذلك بربط حزم من سيقان البردى ببعضها ، وكان يصنع نماذج طين من هذه الزوارق في المقابر حتى يتمكن المتوفى من أن يسبح بها في عالم الآخرة حسب اعتقاده ، كما كان يعمل في مدة حياته في مياه المستنقعات (١) . وهذه الزوارق الخفيفة كانت شائعة الاستعمال في عهد الدولة القديمة . وقد كانت صغيرة الحجم لا تتسع أكثر من شخصين ، وقد عثر على أشكال زوارق أخرى أدق صنعا يحمل الواحد منها ثورا (٢) . وهذه الزوارق كانت تسير بالمدرّة والمجداف ، وكانت صالحة للنقل في المياه الهادئة . إذ كان يستعملها صيادو الطيور في المستنقعات ، وصيادو الأسماك . وكذلك لنقل الأبقار يوميا (٣) .

أما في مياه النيل التي غالبا ما تكون سريعة وشديدة الأمواج فإن هذه الزوارق البردية كانت لا تستعمل إلا نادرا . وكذلك لم تستعمل لنقل المسافرين ، أو الحيوان ، أو البضائع الثقيلة الوزن ، إذ كان يلزم لذلك سفن من الخشب الصلب ، ونحن نعلم أنه منذ عصر ما قبل الأسرات كانت تصنع في مصر مثل هذه السفن ، ولا أدل على ذلك من الرسوم التي وجدناها مع الأواني الفخارية التي يرجع عهدها إلى عصر

(١) Capart, Débuts de l'Art, fig 141; The Earliest Boats on the Nile in J. E. A. 1917 p. 174 (2) Petrie, Meidum pl. 23; Egyptian shipping ap. Anc. Eg. 1933 pl. 12 (3) Boreux, Etudes de Nautique Egyptienne, p.p. 175 sqq.

تقادة (1) على أننا نصادف أحيانا في مقابر عهد الدولة القديمة مصانع للسفن تعمل بكل نشاط ، فنشاهد مثلا على الجدران عددا لا بأس به من التجارين يشتغلون حول قفص السفينة الذى قد تم بناء جانيه ، وكذلك نرى تجميع الألواح ، ونشاهد الثقوب التى تقرت لتلبس فيها القطع الثانوية ، وكذلك تنسيق حواف السفينة ومؤخرتها ليركب فيها المجاديف والسكان . والواقع أن ألواح قفص السفينة لم تكن مثبتة على هيكل بل كانت موضوعة بعضها فوق بعض كالبن الجدران ثم تضم على هيئة عاشق ومعشوق (2) . وقد كانت السفن المصرية فى عهد « هردوت » تصنع من الخشب المصرى فيقول : « كانت سفن ثقلهم تصنع من خشب السنط المصرى الذى كان يشبه الجلبان السيرينى (برقة الحالية) ، الذى يستخرج منه الصمغ . فكان يقطع السنط ألواحاً يبلغ طول الواحد منها ذراعين ويصفها كما يصف اللبن . وهما هى الكيفية التى كانت تتركب بها السفن : توضع عوارض طويلة متقاربة ويركب فيها ألواح طول الواحد منها ذراعان ، وبعد أن يتم صنع قفص السفينة بهذه الكيفية ، كانت تربط حافتا السفينة بلوح يركب فوق العوارض . وكانوا لا يسندون جانبي السفينة بقطعة خشب ذات فرعين ، بل كانوا يقلفون بمتانة اللحامات التى فى داخل السفينة بالبردى . وكانوا يصنعون دقة واحدة تثبت فى سهم قاعدة السفينة . أما السارية فكانت تصنع من خشب السنط والشرع من البردى . وهذه السفن كان عددها عظيما وبعضها وكان يزن ما حولته آلافا من التلت

(1) Boreux, Etudes de Nautique Eg. p.p. 7 sqq. (2) Montet, Scènes de la vie Privée p.p. 334 sqq. Boreux, Etudes de Nautique p.p. 236 sqq.

(نصف قنطار) (١) .

ونشاهد في مقبرة « تي » القارب الذي قد تم صنعه يسير على النيل فيرى الشراع منتشراً ومعلقاً في عارضة السارية كأنه قب الميزان . ونشاهد كذلك جماعة المجدفين في وضع منتظم ، وكان لابد من ثلاثة رجال على الأقل في مؤخر السفينة لإدارة السكبان (٢) .

والسفن النيلية التي كانت تصنع بهذه الكيفية كان في مقدورها أن تحمل شحنة عظيمة وتسير في مياه أمواجها هائجة وقد ذكر لنا « وني » في تاريخ حياته أنه أحضر مائدة قربان ضخمة محمولة على سفينة مصنوعة من خشب السنت طولها ٦٠ ذراعاً وعرضها ٣٠ ذراعاً وقد تم صنعها في سبعة عشر يوماً فقط (انظر ص ٣٧٩ جزء أول) ولا شك في أن هذا يعد مثلاً رائعاً في سرعة بناء السفن ؛ وليس لدينا أي مجال للريبة في ذلك عند ما نفحص تركيب السفن النيلية الجميلة المثلثة في مناظر مقابر الدولة القديمة (٣) . وهذه الشواهد تدل رغم فقر مصر في الأخشاب ، على أن المصريين لم يكونوا قط في حاجة لخشب البلاد الأجنبية ليقوموا بأعمال الملاحة ، وإن كان إحضار الأخشاب السورية يسمح لهم بتمية بناء السفن ويسهل لهم تجهيز أساطيل عظيمة للقيام بتجارة بحرية خارج بلادهم في عرض البحار .

(١) Hérodote II, 96.
p.p. 347 Fig. 45.

(٢) Montet scènes de la vie Privée
(٣) Erman Ranke, Aegypten und
Aegyptisches Leben, Fig. 242 - 245; & Gauthier Transport
dans l'ancienne Egypte, p. 232.

الملاحه

تدل النقوش حتى الآن على أن أول أسطول بحرى عرف فى تاريخ البشر يرجع عهده إلى الملك « سنفرو » أول ملوك الأسرة الرابعة إذ يخبرنا حجر « بلرم » أنه فى عصر هذا الملك قد عاد من بلاد سوريا أربعون سفينة محملة بخشب « عش » (الأرز) . وفى مدى عامين - كما جاء على هذا الحجر نفسه - قد صنعت عدة سفن يبلغ طول كل منها نحو ١٠٠ ذراع من خشب الأرز ومن خشب « مر » الذى كان يجلب من لبنان ، هذا عدا ٦٠ سفينة أقل حجما (١) .

وهذه السفن التى كانت تجرى فى البحر الأبيض المتوسط ، نراها ممثلة على جدران معبد الملك « سحورع » والملك « وناس » من عهد الأسرة الخامسة . وقد كانت هذه السفن تشحن بالبجارة ومعهم فصيلة من الجنود لحماية البعثة من هجمات أهالى سورية ، أو لتكون مظهرًا من مظاهر سلطة الفرعون ، وهذه السفن كانت تبنى على نموذج السفن النيلية غير أنها كانت أكبر حجما وأثقل وزنا ، حتى يمكنها أن تقاوم هياج البحر من جهة وكذلك لتحمل شحنة عظيمة من السلع من جهة أخرى (٢) .

ومن كل ما سبق يتضح جليا بطلان النظرية القديمة القائلة بأن الفينيقيين هم أول قوم مخروا عباب البحار وأن المصريين لم يبحروا على الملاحه إلا بعد الفينيقيين بزمان بعيد جدا . وينسبون ذلك إلى موقع فينيقية الجغرافى من جهة وإلى ثروة بلادها فى الأخشاب الصالحة لبناء السفن

(1) Br. A. R. t. I, 146-147. (2) Boreux, Etudes de Nautique Eg. p. 465.

من جهة أخرى مما جعلها سيدة التجارة على شواطئ البحر الأبيض (١) ومن يقرأ الكتب القديمة يعرف مقدار انتشار هذا الرأي الذي أثبتت الكشف الحديثة بطلانه . ومما قيل في هذا الصدد وثبت أنه خرافة : « أن هناك أسبابا تدعو المصرى لعدم التوغل في البحر والتجارة مع بلاد الشاطئ ، منها : تكوين مصر الطبيعي ، والخوف من أهوال البحر ولصوصه » . وتورط كذلك بعض المؤرخين في القرن السالف فقال :

« لا بد أن الملاحة كانت تعتبر في حين العدم في عهد الفترة الأولى من تاريخ مصر ، وذلك لأن عزلة أهلها عن باقى العالم قد منعتهم عن المغامرة في عرض البحار ، وأنهم لم يقوموا بالملاحة إلا في أواخر الأسرة الثامنة عشرة » ثم قال : « والسبب الذى منع المصريين أن يكونوا ملاحين عظماء هو السبب الذى حال دون عظمتهم التجارية . وفي الوقت الذى كان فيه الفينيقيون يقومون بكل أعمالهم التجارية بطريق البحر مع جميع الدول كانت تجارة مصر محصورة في بلادها وجعلتهم تحت رحمة الأجانب الذين كانوا يقومون بالأعمال التجارية الخارجية لهم (٢) . وقد فات قائل ذلك أن سكان وادى النيل منذ أقدم العهود قد وجدوا في نهرهم المنقطع القرين مدرسا عظيما يتعلمون على يديه أول دوس في الملاحة عرف في تاريخ البشر ، فقد كانوا يعيشون طوال العام على شاطئيه الخصيبين ، وكان فيضانه السنوى يجبرهم على خوض الماء في

(1) Koster, Schiffahrt und Handelsverkehr des Oestlichen mittelmeeres im 3 und 2 Jahrtausend vor Chr. (Beihefte) zum Alten Orient, Heft I, 1924 cf. p.p. 1 sqq.

(2) Henry, L'Egypte pharaonique, ou histoire des Egyptiens sous leurs Rois nationaux t. II, p.p. 443-444 et 467.

كل وقت ، ولا يظن أن الملاحة في النيل كانت دائما سهلة لا يعثرها أى خطر . بل كانت في مدة الفيضان وهبوب الرياح تخفها مخاطر جمة . ولم يكن المصرى بالشخص الذى يخاف هذه المخاطر ويحجم عن اقتحامها إذ كان النيل أهم طريق المواصلات ، وقد كان لديه العدة لاقتحام أهوال هذا النهر بما صنعه من السفن المتينة التى أخذ في تحسينها على مر الزمن حتى جعلها صالحة لتمخر عباب البحر نفسه . على أن الملاحة في البحار كانت ساحلية على وجه عام يقوم بها الملاحون في أحسن فصول السنة الملائمة عند ما يكون الجو هادئا والرياح رخاءا ، بالقرب من الشاطئ كما سنتكلم عن ذلك في حينه (1) .

وقد ذكرنا فيما سبق أنه كان يوجد في مصر موان زاهرة غنية على شاطئ الدلتا منذ عصر ما قبل الأسرات كمدينة متليس (قوة) التى رمز لها بالخطاف والقارب على لوحة «نعرمر» ، وكانت أساطيل هذه المدن تقوم برحلات تجارية مع السواحل السورية (2) .

على أننا من جهة أخرى لا ننكر أن الفينيقيين كانوا يتجرون مع جزر البحر الأبيض المتوسط قبل ذلك العهد ولكننا ننكر أنهم أساتذة المصريين في تعلم فن الملاحة الذى تفوق هؤلاء فيه ، ولدينا براهين ساطعة تدل على أسبقيتهم الأمم الأخرى بعدة قرون . منها أن المدن المذكورة وجدت قبل أن يكون للفينيقيين شأن في عالم الملاحة البحرية .

(1) Cf. Koster, Schiffahrt und Handelsverkehr p.p. 10 sqq.

(2) Koster, op. cit. p. 19.

إذ الواقع أنهم لم يظهروا في هذا الأفق إلا في النصف الأول من الألف الثانية قبل الميلاد ، هذا إلى أن سقهم قد بنيت على الطراز المصرى (1) . وعلى ذلك تكون النظرية القائلة بأن سفن « سفرو » و « سحورع » كانت فينيقية لا أساس لها من الصحة (2) . يضاف إلى ذلك أن تمثيل السفن البحرية في معبد « سحورع » الجنائزى يشير بأصل مصرى . وقد لاحظ البعض أن اسم السفينة « كبت » نسبة إلى « كبن » (يلوص بالمصرية) ؛ ورأوا في هذا أن أصل صنع السفينة كانت في هذه الجهة ، ولكن لا يلزمنا أن نستنتج من هذا أن أهالى النيل قد تعلموا فن بناء سفنهم والملاحة من يلوص . إذ الواقع أن لفظة « كبت » تفسر بوضوح أن أول سفن بحافة عالية كانت تلك التى سافرت إلى يلوص أو أن هذه السفن قد صنعت من خشب لبنان الذى كان يشحن من شاطئ يلوص وما يعزز ذلك أن السفن التى كانت تمخر عباب البحر الأحمر إلى (بنت) في عهد « ييبى الثانى » وما بعده كانت تسمى كذلك كبت (3) . وعلى أية حال فهناك حقيقة لا مرأى فيها وهى أن المصريين منذ فجر تاريخهم بل منذ عصر ما قبل التاريخ كانوا يسبحون فى البحر . وأن البعث التى كانوا يقومون بها فى عهد الدولة القديمة ما هى إلا استمرار لتجاراتهم الخارجية التى كانوا يقومون بها من موانئ النيل فى عصر ما قبل التاريخ ، يضاف إلى ذلك أن نشاطهم البحرى هذا كان نتيجة التجارب التى كانوا يقومون بها فى نيلهم وما قاموا به من بناء السفن مما جعلهم

(1) Koster, zur Seefahrt den Alten Aegypter ap. Z. E. S. t. 58, 1923, p. 131. (2) Sethe, Z. E. S. t. 45 p. 7 sqq.

(3) Kees, Aegypten p. 22.

ليسوا في حاجة إلى أن يتعلموا من الخارج فن الملاحة .

التجارة الداخلية والعملية .

لقد بقي سر طرق المعاملة مجهولا في مصر القديمة وبخاصة في عصورها الأولى حتى الآن ، وقد بذلت محاولات عظيمة للوصول إلى حل هذا اللغز ، ولكن كل ما وصل إليه العلماء لا يزال مبهما وذلك لقلة المصادر وغموض ما لدينا منها ، والرأى السائد أن المصريين كانوا يتعاملون بالمبادلة ، تلك الطريقة الساذجة التي يتبعها سكان مجاهل إفريقيا حتى الآن ، ولكن كل ما وصلت إليه مصر من الحضارة في مختلف نواحيها لا يجعلنا نصدق أن طريقة المبادلة كانت طريقة المعاملة الوحيدة في عهد الدولة القديمة ولذلك يقول « بيرن » (1) : « يظهر لي أنه من الأمور الصعبة أن أعترف بأن مدنية متقدمة من الوجهة التشريعية مثل المدنية المصرية في عهد الدولة القديمة لا تعرف إلا نظام المبادلات بالمواد الطبيعية دون مقياس متفق عليه يحدد قيمتها مع أنها كانت تعرف بيع النسبته ، ومع أن لها نظام ضرائب ناضجا ، غاية في الإيقان . على أن نظام المبادلة بلا نزاع لا يتفق في سذاجته مع كل الدقة التي نلاحظها في نظام الوراثة ، والبيع والوصايا ، والقضايا التي كانت تنجم عن ذلك عديم » .
والواقع أن كل ما لدينا من النقوش عن سير المعاملات ينحصر

(1) Pirenne, Institutions, t. II p. 344.

ظاهرا في المبادلات . ففي كل مدينة وفي كل قرية كان يقام سوق في المحال العمومية وكان المدنيون والفلاحون يتقابلون هناك في أوقات معينة ويتبادلون سلهم المتنوعة ؛ فكان القوم يأتون من كل حذب وصوب راجلين ، أو على ظهور حميرهم أو في زوارقهم النيلية ، كل منهم يحمل منتجاته الزراعية أو الصناعية فكان الفلاح يحمل مكنل خضره . والصياد يحمل سلة سمكه ، والصانع الصغير الحر يحمل النعال التي صنعها أو أواني الفخار ، أو قطع التجارة والزيت والطور ، والحلي من الخزف ، وعصى الخيزران والمراوح ، والشص ، ومثات من الأشياء الأخرى التي كانت تستعمل في الحياة اليومية العادية . ولدينا مقابر عدة من عهد الدولة القديمة قد رسم عليها مناظر الأسواق في نشاطها كما نشاهدنا الآن هذه كما ذكرنا هي المصدر الوحيد لدينا عن المعاملات المصرية (١) .

والظاهر أن كل المناظر المعروقة من هذا القيل كانت كلها خاصة بالضياء المائمية التي كانت تتبادل فيها سكان هذه الجهات سلهم ولكن لا بد من أنه كان للمدن العظيمة أسواقها وسنشرح ذلك في حينه .

ونشاهد في هذه الأسواق أن الذين كانوا يحملون سلعا ثقيلة الوزن كانوا يجلسون القرفصاء خلف سلالمهم وقفافهم وفي منظر واحد شاهدنا

(١) . Leps-Denk. II, 96; Capart Rue De Tombeaux à Saqqara, pl. 32 p.p. 31.; Steindorff, Das Grab des Ti, pl. 133.; Klebs, Relief I, 116.; Von Bissing, Gem ni-Kai I, 23.; S. Hassan dans Ann. Ser. A. t. XXXVIII p. 52 pl. XXVI.; Etudes de Myth. et Arch. Eg. t. IV p.p. 253-257; Montet, Scènes de la vie privée p.p. 319-326; Erman, Reden, Rufe und Leider auf Graberbilden des Alten Reiches p.p. 48 sqq.

البائع جالسا على مقعد مرتفع وأمامه سلعته ويأتى إليهم المشترون لشراء حاجاتهم أما من خفت أحلامهم فيسيرون فى أنحاء السوق ويتبادلون فيه سلمهم ، ويمكننا أن تصور منظر هذه الأسواق فى أسواقنا الحالية بكل ما فيها من محاولات ، ومكر ودهاء وتحيات وإغراء ، ومشائبات .

ولكننا نساءل هنا هل يدل تمثيل كل هذه الأشياء على الجدران حقيقة على أن كل شار فى الوقت نفسه بائع أو بعبارة أخرى أن النقود كانت على ما يظهر مجهولة ، وأن الأسواق المصرية كانت تنحصر فى مبادلات دون قوانين ودون تقاليد تجرى على مقتضاها ؟ إذا نظرنا إلى السوق المصرية وجدنا صاحب مكتل من البصل يقابله شخص آخر يريد أن يتخلص من مروحة ، أو من قلادة وبائع قيثارات ، أو أدوات للصيد يريد أن يبدل بها ما كولات وصانعا يعطى قلادة بدلا من نعلين ، وامرأة تقدم لمخاطبتها قارورة من الروائح العطرية من صنع يدها . وبائع عصى من الخيزران وقد فرغ صبره أمام مشتر متردد ، وبائع السمك ناشراً سلعته أمام امرأة معها صندوق . وبائع مرايا يفخر بسلعته وبائع قرد يسوقه أمامه وييده حبسه الذى يقوده به ، وبائع بصل يتأهب لمبادلة حزمة منه برغف من الخبز المصنوع من الدقيق الجيد ، (ولكن لا نعرف إذا كان المبادل يريد حقيقة بصلا أو لا) . والظاهر أن النعال كانت سوقها رائجة وعلى أية حال نشاهد فى رسوم سفارة أن فلاحا كان يبادل إسكافاً بكيل من الحبوب زوجا من النعال ، وقد كان كل منها ينتظر صاحبه أو يبحث عنه وقد انتهى الأمر بإتمام الصفقة .

وفي الجملة كانت السوق العامة للأفراد رقيقى الحال المكان المختار لقيام المبادلات بينهم فيما يحتاجون إليه من المأكولات والمصنوعات وقد كان سكان المدن يدخرون ما يكفيهم طيلة الأسبوع من الخضر كما كان الفلاح يبيع ما عنده ويعود حاملاً معه قلادة جميلة ، أو قارورة من العطر ، أو حذاء يتعله في الأعياد ، ففي هذه الأحوال لم تكن الحاجة ماسة للمعاملة بالنقد ، وتدل التجارب على أن محاصيل الحقل كانت تجد من يبادل بها من أصحاب الحرف والصناعات وأن هؤلاء الآخرين كانوا متأكدين من أن يجدوا معاملهم من الصيادين والفلاحين . والواقع أن مثل هذه المعاملات لم يكن فيها ما يدعو للارتباك عند ما تكون صغيرة القيمة أو قليلة العدد ، حيث تكون الحاجة لها نطاق ضيق ، وأنه يكفي لصنعها بعض المختصين لعدد محدود من الناس .

وعلى هذا يمكننا أن نجيب بأن المبادلات كانت موجودة في مصر ولا تختلف فيها عن البلاد الأخرى الفطرية قبل أن يدخل فيها التعامل بالنقد . ولا بد أن القوم كانوا قد وضعوا فيما بينهم بحكم العادة بعض قواعد للمبادلة اللهم إلا في بعض سلع لم يجز عليها التعامل من قبل كانت تحتاج لأخذ ورد ، ومناقشة ومساومة .

التجارة الداخلية : والواقع أن الأمور كانت تجري في سيرها الطبيعي عندما تكون المبادلة من الأشياء العادية ذات القيمة الضئيلة .

ولكن يتساءل الإنسان ماذا تكون الحال عند ما يكون موضوع المبادلة ، شيئاً عظيم القيمة كمنزل أو ثور أو قطعة أرض ، إذ لا يمكننا أن نتصور ما يصنعه فلاح يريد أن يبيع ثوراً ليشتري بثمنه مقداراً

من الحبوب ، وبعض آلات للفلاحة معينة وأشياء أخرى ، فهل كان في قدرته أن يجد مبادلا عنده كل هذه الأشياء في مقابل ثوره ؟ وماذا تقول في رجل يريد أن يبيع عقارا حتى ولو كان الثارى حاضرا ومتلها على إتمام الصفقة فإنه لابد أن يكون في حيازته المقدار والنوع من البدل الذى يرغب فيه المستبدل ويجب ألا ننحى هنا أن التجارة بمعناها الحقيقى - شراء سلعة مقابل أخرى أغلى ثمنًا - قد أصبحت في هذه الأحوال مرتبكة لدرجة لا يمكن معها أن ينمو رأس مال التاجر بعض الشيء . فيمكننا أن تصور مثلا أصحاب حرف أحرار يعملون في مصنعهم في أحد أحياء (منف) ، ويعيشون مما يمكن أن يجلبه لهم معاملهم الدائمون أو ما يأتى إليهم به المترددون على الأسواق ، ولكن لا يمكننا أن تصورهم بسهولة يشترون سلعهم ويتممون مصنوعاتهم حتى يمكنهم أن يتجوا محصولا من النعال أو من المراهم تؤهلهم لشراء بهائم ، أو بعض أفدنة حتى يكون لهم في النهاية منزلة كبيرة بين أقرانهم . وكذلك لا يمكن لثرى يده رأس مال من أى صنف كان ، أن يشرع في المبادلة به في مقابل شيء آخر يبادل به كرة أخرى وهكذا حتى يجد في النهاية أن رأس ماله الأصلى قد ازداد ، ثم يستمر على هذا المنوال . وتلك هى صفات التاجر الحقيقى الذى يدب في نفسه حب الكسب ؛ ولكن لا نزاع في أن المبادلة ليست هى الطريقة التى تشبع أغراض مثل هذا التاجر بصفة دائمة مرضية .

وليس معنى ذلك أنه لم تكن توجد تجارة داخلية في عهد الدولة القديمة ، وأن النظام الاقتصادى في هذا العصر لم يكن في مقدوره أن ينتج

نظام الاتجار ، الذى يمكن به أن يصبح التاجر غنيا بفضل حركة التعامل بالنقد . والظاهر أن حركة التعامل بالمبادلة فى هذا العصر لم تلعب إلا دورا محدودا جدا إذ كانت محصورة فى أصناف معينة وهى التى كان يصنعها أصحاب الحرف الحرة الذين لهم مصانع صغيرة فى منازلهم أو فى الأسواق العامة . وتوجد اعتبارات عامة اجتماعية تبرز هذه الاستنتاجات .

إذ فى الواقع كان يوجد فى عهد الدولة القديمة طوائف اجتماعية تتلخص فيما يأتى : أولا : طائفة الأشراف ، أو كبار الموظفين الذين يملكون ضياعا وبخاصة فى عهد الأسرتين الخامسة والسادسة ، وقد كانوا منتشرين فى الوجه القبلى أكثر من الوجه البحرى . ثانيا : طبقة الكتاب من درجات مختلفة . ثالثا : طبقة الفلاحين . رابعا : طبقة الصناع .

فطائفة الأشراف لم تكن فى حاجة لأى شىء خارج ضياعهم إذ كان ، محصول الأرض يمدهم بأكثر مما يحتاجون . وكان كل ما يريدون صنعه يعمل فى مصانعهم الملحقة بقصورهم . أما طائفة الكتبة فكانوا يشرفون على ميزانية الحكومة فى كل الأماكن التى يؤدون فيها وظيفتهم ، أى أنهم يعاونون فى تصريف جزء ضخم من العقار الذى يدفع عنه جزية أما الفلاحون وأصحاب الحرف فكانوا تابعين للضياع التى كانت تتمتع بمعيشتهم أو كانوا يعيشون أحراراً من كسبهم الخاص فى الحالة الأخيرة كان الفلاح يستثمر أرضه ، ويهتم بأحواله الاقتصادية . ويذهب إلى السوق لبيع ما يزيد عن حاجته من منتجات أرضه أما الصانع الصغير فكان من جهته يبادل فى حانوته أو فى السوق كل منتجات صناعته بما يفتت به أو ما يحتاج إليه من المصنوعات الأخرى . وهكذا كان سير الحياة فى نطاق

ضيق في الضياع أو المدن الصغيرة ، مما يدل على أنهم ربما كانوا يجهلون حركة التجارة بالمعنى الحقيقي التي كان لابد من استعمال العملة فيها . ومع كل ما ذكر فلا يمكن أن نعتقد بوقوف المصري عند هذا الحد في معاملاته إذ لا يعقل أن شعبا قد شاد مدينة مثل التي قامت في « منف » لم يكن في مقدوره تحسين حالة المبادلة التي تدل على منتهى السذاجة والتأخر ولا بد أن الواقع كان على قبيض ذلك ، إذ كان يوجد منذ العهد الطيني كمية لا بأس بها من المعدن الذي يحبه كل القوم ، وأعني بذلك الذهب فكان المصري في مقدوره أن يجزئه أو يحوله إلى سبائك دون أن يفقد شيئا كثيرا في هذه العملية ، وكذلك كان يمكنه ادخاره دون أن يصيبه عطب ما وتأثيره كان واحدا على كل فرد في أى وقت كان . على أن المشاريع التي كانت تقوم لاستخراج هذا المعدن ، والهبات من الذهب التي كان يهديها الملك للمقربين له ، وقطع المصوغات التي كانت تصاغ للزينة ، أو تكون علامة على الثراء ، كل هذه الأشياء تؤكد لنا أن الأصفر الرنان لم يكن موضع احتقار أى شخص ، وأنه كان يمكن المبادلة به مقابل أى شئ في كل الأحوال ويعزز ذلك أن حجر « بلم » قد ذكر لنا أن ثروات الأفراد المنقولة كانت تشمل على معادن ثمينة كانت تحصى في أوقات معينة . فكيف والحالة هذه لا يمكن أن نعتبر الذهب عاملا ثالثا في المبادلات . ولا يبعد أن تجود لنا تربة مصر بنقش أوبردية تكشف لنا الغطاء عن التعامل بالذهب في التجارة وتحل لنا كل مسائل المبادلة التي لاتزال معقدة . على أنه مما يؤسف له جد الأسف أنه لم يعثر على تمثيل ظاهر واضح في مناظر الأسواق القديمة التي عثرنا عليها حتى الآن على المبادلة

بالذهب ، ولكن هذا لا يعنى شيئاً كبيراً إذا علمنا أن كل ما وصل إلينا من تمثيل الأسواق المصرية مصدره مناظر المقابر أو المعابد ، وهذه بالطبع لم يقصد منها قط أن تمثل لنا كل حياة البلاد الاقتصادية في كل تفاصيلها وكل مآلينا عن الحياة الاقتصادية قد عرفناه من المناظر التي تركها لنا علي القوم . وليس من حقنا أن ننكر وجود كل شيء لم يتركه لنا عظماء القوم في مناظر مقابرهم . وقد يكون من الدهشة بمكان أن نجد الصدف بالشور على مقبرة أحد أغنياء التجار الذين نهمل وجودهم حتى الساعة ، بل والذين يعتقد البعض عدم وجودهم كلية ، وبذلك يهدم لنا النظرية القائلة بأن بناء المقابر في الجبانة الملكية كان وقفاً على المقربين .

النقود

لقد ذكرنا فيما سبق أن المصريين في العهد المنق لم يجهلوا استعمال المعادن الثمينة مقياساً لتقدير قيمة الأشياء غير أنه لم يبق دليل قاطع مادي على كيفية استعمالها في عهد الدولة القديمة وقد أشار إلى استعمال النحاس والذهب أساساً للمبادلات في ذلك العهد الأستاذ « برستد » (١) : « يحتمل في بعض الأعمال التجارية وبخاصة التي كانت قيمتها عظيمة ، أن كان النحاس والذهب يستعملان على هيئة خواتم لكل وزن معين كعملة . »

أما الأستاذ « بترى » فعلى العكس إذ يقول إنه لم يحدث ذكر

(1) Breasted, History of Egypt, p. 97.

أى معيار متفق عليه للتعامل . . . وأن هذا المعيار المشترك من النحاس لم يظهر إلا فى عهد الدولة الوسطى عند ما كانت السلع والماشية تقدر بقيمة مساوية لثمنها من النحاس (١).

وقد كتب الأستاذ « مسبرو » مقالا ممتعا عن وصف منظر فى سوق لاحظ فيه أن المتبادلين يحملون صناديق صغيرة تحتوى على سلع مجهولة ويعتقد أن هذه الصناديق فيها قطع من المعدن كانت تستعمل عملة للمبادلة ، إذ يقول بعد أن فحص المناظر بدقة : « وبالاختصار أظن الصندوق يحتوى على معدن ، مشغول على هيئة مجوهرات صغيرة ، أو على شكل سبائك معروف وزنها ؛ وهذه هى الوسيلة الوحيدة لتفسير وجود هذا الصندوق فى ثلاثة مناظر من مناظر السوق التى تشمل على عشرة مناظر ، وكذلك أكد هذه النظرية عدم وجود أى شئ للمبادلة فى أيدي الذين يحملون مثل هذا الصندوق مضافا إلى ذلك صفر حجمه (٢) . وهناك من الأدلة ما يعزز هذا الرأى ؛ فقد كشف الأستاذ « شتيندورف » لوحة صغيرة فى عام ١٩١٠ ، فى جبانة الجيزة عليها نقوش غامضة خاصة بموضوعنا هذا غير أنها لم تفش أسرارها تماما رغم المحاولات التى بذلها علماء الآثار .

فترجمها الأستاذ « زيته » (٣) ؛ ثم أدخل « سوتاس » (٤) بعض

(1) Social life in ancient Egypt, p. 154. (2) Gazette Archéologique, 1880 p. 97-100; Mythe et Arch t. IV p. 257.

(3) Das Grabdenkmal des Königs Chephren, Leipzig, Heinrich 1912 p.p. III sq. (4) Sottas, Etude critique sur un acte de vente immobilière du temps des Pyramides, Paris 1913, p.p. 5-21.

تحسينات على ترجمته وكذلك تناولها بالبحث « فون بسنج »^(١) ويرجع الفضل أخيرا إلى الإصلاحات والتعليقات التي كتبها كل من العالمين « شاسيناه »^(٢) و « فايل » Weill^(٣) مما جعل هذه الوثيقة مفهومة . فأنارت لنا الطريق في موضوع استعمال العملة في عهد الدولة القديمة وسنرى في هذا الموضوع آراء الأستاذ « فون بسنج »^(٤) الحديثة وكذلك رأى الأستاذ « بيرن »^(٥) . وموضوع هذه الوثيقة ، على أحسن وجه ، أنها خاصة بعقد بيع عمل في عهد الملك « خوفو » بين الكاتب « تنتي » الذي كان يبيع يتا ، وبين الكاهن « كباو » الشارى . ولأجل أن تقرب للقارى فهم هذا العقد سنضع ترجمته الحرفية في لغة سهلة . يقول « كباو » : لقد اشتريت هذا البيت في مقابل مكافأة للكاتب « تنتي » ، وقد أعطيته عشرة « شعت » . وهى كما يأتى : قطعة أثاث (؟) من خشب « أتى » قيمته ثلاثة شعت وسرير من خشب الأرز من أجود صنف قيمته أربعة شعت وقطعة أثاث من خشب الجيز قيمتها ثلاثة شعب^(٦) ثم يقول « تنتي » (يعيش الملك) ، سأعطى ما هو حق لأنك قمت بالدفع بطريق التحويل ، وستكون

(1) Von Bissing, Ein Hauskauf im IV Jahrtausend Von Chr. Sitz. der Bayer. Akad. der Wiss. zu München Phil. Hist. Kl. 1920 Abh. 14 p.p. 1 sqq. (2) Chassinat, Un

type d'étalon monétaire sous l'ancien Empire dans Rec. Trav. t. XXXIX, 1920 p.p. 79-88. (3) R. Weill, L'unité de valeur, « Shat » et le papyrus de Boulaq n. II, Revue de l'Egypte ancienne t. I. 1925 p.p. 45-87. (4) Von Bissing, Das aelteste Geld (Chronique d'Egypte) No. 9 1930 p.p. 102-105.

(5) Pirenne, Institutions, t. II p. 293-296, 349-344.

(٦) فى الطبعة الأخيرة من كتاب Urkunden للدولة القديمة يظهر أن الأشياء الثلاثة التى أعطيت تمنا للبيت هى قطعة أثاث وقطعتان من القماش كما ذكر ذلك الأستاذ زيتة .

مرتاحا من البيت ثم ختم في إدارة بلدة « خبوت خوفو » أمام شهاد تابعين لإدارة « تنى » ولطائفة كهنة « كباو » الشهاد . « محى » عامل بالجبانة ، « سبنى » ، « إنى » ، « ونى عنخ حور » كهنة جنازيون .

ولأول نظرة سطحية يخيل للإنسان أن هذا البيع لا يتخطى المبادلة وهى عبارة عن ثلاث قطع من الأثاث والنسيج فى مقابل بيت ولكن الواقع ليس كذلك . إذ لو جعلنا البائع وهو « تنى » شاريا ، والشارى وهو « كباو » بائعا لما رضى كل منهما بإتمام الصفقة فالتفسير المعقول لعقدهما أنهما قد تفاهما على أن ينفذا فى عقد واحد إجراء عمليتى بيع كان يمكن عمل كل منهما على حدة . وهذا التفسير يمكن إدعاه بهجتين . أولا : لو كان الموضوع هو عقد مبادلة فحسب لما كان هناك داع لذكر لفظة « شعت » التى لا بد قد قيلت عن قصد ، واكتفى المتعاقدان بذكر الأثاث فى مقابل البيت فقط . وثانيا : يعترف لنا « تنى » أن « كباو » قد جعل الدفع بالتحويل « وزب » وهذا الترتيب يحمل فى ثناياه طريقة أخرى ممكنة غير التحويل ، وليس هناك إلا دفع عشرة الشعت . والنتيجة أن الـ « شعت » كان بلا جدال معيارا لتقدير قيمة بيت ، أو أثاث ونسيج ، أو أى عقار مهما كان نوعه .

ولانزاع إذا ، فى أن أهل عهد الدولة القديمة كانوا يعرفون النقود وكان يمكن لكل أن يكون له رأس مال من الـ « شعت » ويشترون سلعا لبيعوها ويكسبون فائدة منها تقدر بالـ « شعت » وخلافا للاحتكار الذى كانت تفرضه الحكومة ، وهذا ما لا نعلم بالضبط ، كانت حرفة التجارة تجرى حسب طرقها الأولية فكانت تنمو فى الحدود

التي تسمح بها أحوال الضياع الاقتصادية والمبادلات الأهلية التي كانت تجري في الأسواق العامة . وبقى علينا الآن أن نعرف ال « شت » فقال عنه « زيتة » أنه (مكبال للفظائر) . وهذا تفسير غريب في بابه ، وقد أراد كل من « سوتاس » و « فون بسنج » أن يعزز رأى « زيتة » ولكنهما لم يوفقا ، وبقى الحال كذلك حتى جاء العالم « شسيناه » وتجاهل كل ما كتبه من سبق وأثبت في بحثه أن « شت » هو معيار قيمي يمثل وزنا معيناً من المعدن الثمين ، ولذلك لا نشك الآن في النظرية التي أشار إليها « مسبرو » وهي الخاصة بأولئك الذين كانوا يذهبون إلى السوق بدون أية بضاعة معهم إلا صندوق صغير يحتوى على معدن ومن بين التفسيرات التي كتبت على المناظر في السوق ما يلفت النظر في موضوعنا ونصه هو : هاك « لأجلك » شت « حسن جدا وهو ما تستحقه » تلك الكلمات قد فاه بها مشتر لبائع خضر . ولا نزاع في أن المشتري عند ما قدم « شت » واحدا ثمنا للسلعة كان يدفع الثمن قدا .⁽¹⁾

العملة الحقيقية والعملة الحسابية

والآن لدينا مسألة عويصة يجب حلها بقدر ما لدينا من المعلومات وهذه المسألة هي هل كان ال « شت » قدا حقيقيا أو معيارا فقط للمعاملات ، وهل ال « شت » كان يتبادل بين جميع الطبقات في شكل من المعدن أو سبيكة صغيرة ذات وزن معين ، أو كان مجرد معيار متفق عليه لتقدير

(1) Pirenne, Institutions t. II 343.

كل عقار ؟ ويلاحظ أننا في بحثنا في عقد « تنق » عرفنا أن « الشعت » كان نقدا ماديا ، إذ كان عشرة منه تساوي ثمن بيت وثلاثة منه تساوي قيمة أثاث . وقد وضع لنا ذلك الأستاذ « شسيناه » في بحثه لهذا الموضوع إذ يرى أن « الشعت » معيار من المعدن ويشاطره هذا الرأي الأستاذ « بيرن » (1) غير أن الأستاذ « فايل » Weill يعتقد العكس إذ يقول : « أن المصريين كان لديهم طريقة لتقدير قيمة الأشياء بمعيار حسابي ويدخل في ذلك كل الأشياء على كافة أنواعها ومنها المعادن وغيرها . » وقد جاء « فون بسنج » معززا رأي الأستاذ « فايل » قائلا : إن الـ « شعت » هو وحدة حساية ولا يدل على مادة حقيقية كما يشير إلى ذلك مخصص الكلمة المصرية الذي هو عبارة عن ملف بردي (وهذه الإشارة تخص الأشياء المعنوية فقط) .

ولكن كل ذلك لا يمنعنا من أن نفحص الموضوع من بعض نواحيه لتبين مقدار ما في قول هذين العالمين من الصحة .

لقد شاهدنا في السوق مشترى يقول للبائع : « ها هو حقك » شعت » واحد حسن » . وهذا طبعا يشعر في الحال بأن الذي يقدمه المشتري للبائع ليس بالشئ المعنوي بل شئ مادي محسوس من النقود ، وكذلك عند ما كان الكاهن « كابو » يشتري يته بالتحويل ، فإن ذلك يشعر أنه كان يمكنه أن يشتريه بطريقة أخرى وبالتحقيق لم يدخل في ذلك طريقة حساية معنوية فحسب . ولا أظن بعد هذا أن هناك من يقول بأن المصريين في عهد الدولة القديمة كانوا يتعاملون بمعيار حسابي يسمى

(1) Pirenne, Institutions t. II p.p. 296 et 343.

« شعت » بل الواقع أن هذا المعيار كان مقدارا معيناً من المعدن يستعمل وحدة هامة في تصريف أمور التجارة في مصر في عهد الدولة القديمة .

وإذا سلمنا أن الـ « شعت » قد استعمل في بداية الأمر على شكل ما (حلقة أو سبيكة) فمن المشكوك فيه جداً أن قيمته الأصلية قد ضبطت بسكة لها طابع خاص على وجهه ، وإذا فرضنا جدلاً حسب رأى « فون بسنج » ، أنه كان يوجد على هذه العملة علامة خاصة تميزها فإن هذه العلامة لم تكن قد عملت بطريقة تضمن عدم الغش ، إذ أن ذلك في الواقع كان يسبب حدوث غش مما كان يدعو من وقت لآخر ، أن يزن البائع هذه العملة . وهذا هو السبب الذي جعل لنظرية الأستاذ فايل Weill بعض الاعتبار ، إذ كانت الضرورة لوزن هذا المعيار قد جعلت حياته قصيرة ، وذلك لأن شكل الشعت الخاص لم يكن له وزن متفق عليه . وهذا هو السبب الذي كان يجعل النقود الفطرية بعد مدة قصيرة ينقص استعمالها في المجتمع فمثلاً توريد دفعة قدرها ثلاثة « شعت » لم تكن تعمل بدفع ثلاث وحدات من الشعت معروفة مسكوكة ، ولكن بدفع قطعة أو عدة قطع من المعدن وزنها قدر وزن « شعت » ثلاث مرات أو بدفع بضائع من أى نوع كانت تقدر قيمتها بثلاثة « شعت » . ومن ذلك يتضح أن النقود الأصلية لم تكن حافظة لقيمتها ، ومن هنا جاءت الفكرة أن الشعت كان معياراً حسابياً . والظاهر أن الشعت كان يستعمل لازماً في الحسابات القانونية ، وفي العقود وفي كل أمور الإدارة الخاصة بالعقار ، وقد لاحظ ذلك الأستاذ « شيناه » عند ما قال : ليس من المؤكد أن الأموال الأميرية كانت كلها تنجي من المحاصيل

الطبيعية ، وكذلك لم تدفع الإدارة المبرتبات لموظفيها بالمحاصيل ، بل كانت العمليتان من غير شك تسيران جنباً لجنب على حسب الأحوال . ومن أجل ذلك قد اضطر الكاتب القائم بالحسابات أن يعمل الخصم من قيمة كل الأشياء التي يمكن أن تدخل الخزينة بصفة ضرائب أو تخرج منها بصفة مرتبات على هذا النمط . (وتدل لوحة) الجيزة ووثائق أخرى عدة من عصور أحدث منها ، على أن مصر كانت لها منذ زمن بعيد أو على الأقل منذ الأسرة الرابعة نظام قود رسمي ، وكان لا يتغير إلا عند ما تتدخل الإدارة فيه لعملية ما خاصة بها ، وذلك إما لفائدتها أو لإعطائها صبغة قانونية . فمثلاً كانت المالية تفرض الضرائب على المولين يجعلهم يدفعون قيمة تقدر بوزن خاص من المعدن . وكان المول يدفعها حسب ما في يده . من قمح ونيذ وزيت وحيوان أما الصانع فكان يدفع ذلك من منتجات صناعاته .

وقد كان المحصل يقيد الكل حاسبا كل مادة بالتعريف التي وضعت لها . وهكذا كان الحال في المعاملات الشخصية عند ما كان الأمر يقتضي إجراءات قضائية ، فكانت المواد تقدر حسب القواعد المتبعة في الحكومة غير أن قيمة الدفع ومقداره كان يترك لاختيار المتعاقدين ولكن قيمة الشيء نفسه الذي كان يدفع ثمنه كان يقدر على قاعدة معيار من المعدن يعتبر وحدة .

والعيار الرسمي « شمت » كان حينئذ يعد القيمة الحقيقية لوزن خاص من الذهب . وهذا الوزن قد وصل إلينا من مسأله حساية في ورقة « رند » التي يرجع تاريخها إلى نهاية الدولة الوسطى . وقد بقي مدة طويلة غير

مفهوم (١) . إذ يقول فيها : أن « الدين » من الذهب يساوى ١٢ « شمت » .
ونحن نعلم أن « الدين » يزن ٩٠ جراما وعلى ذلك يكون « شمت »
وزنه ٧٥ جراما . ونعلم فوق ذلك أن « الدين » من الفضة يساوى
٦ « شمت » . ومن الرصاص يساوى ثلاثة « شمت » .

وعلى ذلك كان الرصاص يساوى ثمة نصف ثمن الفضة في الوزن ،
وكذلك كانت الفضة تساوى نصف ثمن الذهب . وهذا طبعا لا يدهشنا
إذا علمنا أن كلا من الفضة والرصاص كان نادر الوجود في هذا العهد .
ومن جهة أخرى نعرف أن منذ بداية العهد الفرعوني كان نظام معيار
الوزن يستعمل حلقة وزنها عشرة جرامات (٢) .

والظاهر أن الشمت قد اتخذ وحدة تمثل نصف هذا المعيار من الذهب .
ولا بد أنه كان يعتبر بلا شك ذا قيمة عظيمة لتحديد أصناف كثيرة
من السلع . وبعد عهد الدولة القديمة أدخل على معايير الوزن نوع جديد
يسمى « كيت » ويزن تسعة جرامات ، وهو ما يساوى $\frac{1}{9}$ من « الدين » .
وفي عهد الأسرة الثامنة عشرة كانت « الكيت » شائعة الاستعمال
على حين أن الحلقة القديمة التي تزن ١٥ جراما كانت تختصر ؛ وكذلك
اختفى استعمال « الشمت » وأصبح القوم لا يستعملون في تقدير متاجرم
إلا « الكيت » من الذهب .

ولا نزاع في أن المصرى من كل ما سبق كان أول من فكر في

(1) Eisenlohr, Ein Mathematisches. Handbuch der Alten Aegypt-
ter, Leipzig 1877 p.p. 151-152 et No 62 pl. XX. (2) The
Rhind Mathematical papyrus, Liverpool, 1923; Weill, La "Kite"
d'or de Byblos dans Rev. Egypt. t. II fasc. 3-4. 1924, p.p. 21-37.

العالم في إيجاد وحدة لها وزن معين للتعامل في كل أمور الدولة .
أما القول بأن هذا الميعار كان حاسيا فحسب فثله كمثل الذي
بنى نظرية على حقائق معكوسة وسنتظر لعل تربة مصر قد تخرج
من بطنها ما يوضح لنا الطريق في هذا الموضوع الذي يريد علماء الآثار
المصرية أن يعقدوه رغم وضوحه .

تجاره مصر الخارجية وعلاقتها بالأقاليم المتاخمة .

العلاقات بين مصر وآسيا .

تدل التطورات التي حدثت في الدلتا في عصر ما قبل الأسرات على أنه
قد نشأت مدن عظيمة عند مصبات فروع النيل قديما ، بالقرب من البحر
الأبيض المتوسط . وقد كان رخاء هذه البلاد وثراؤها مثل « متليس »
(فوة) وصا الحجر وأبو صير وغيرها يرجع بلا نزاع إلى تبادل سلمها مع
مدن سواحل سوريا في الخارج ، ومع مقاطعات الوجه القبلي في داخل
البلاد . وقد كان من نتائج تبادل التجارة الداخلية اختلاط سكان الوجه
القبلي الذين تنسب ثقافتهم إلى مدينة قاده القديمة ، بسكان مدن الشمال
التجارية الذين كانوا أكثر منهم تحضرا واعرق مدينة وأرقى ثقافة . وقد
جاء مؤكدا لهذه الاستنتاجات التي تتركز على وثائق قديمة وبحوث أثرية
حديثة ، ما أسفرت عنه حفائر يلووس (جيل)^(١) إذ وجد مودعا في
أساس معبد هذه البلدة ، يلط من الحجر المصقول ، وسكاكين من

(1) Montet, Byblos et l'Egypte, p. 272 ; Montet, Les Egyptiens à Byblos, p. 243.

الفران ، ولوحات ، وخرز من الذهب ، والبلور الصخرى ، ومن العقيق ومن المرمر هذا إلى صور أشياء أخرى مختلفة ، وبالاختصار عثر على عدة أشياء وجد مايمثلها بين التي كشف عنها في عصر ما قبل الأسرات ومحفوظة الآن بالمتحف المصرى .

وستكلم فيما يلى عن العلاقات التي كانت قائمة بين مصر وسوريا في عهد الدولة القديمة ، وذلك حسب الآثار والشواهد التي عثرنا عليها في خلال تاريخ هذا العصر .

والظاهر أنه بعد انتصار أمراء « نخن » (الكوم الأحمر) على مدن الدلتا لم تتوان هذه المدن في إعادة علاقاتها التجارية الخارجية ولكن تحت سيطرة ملوك طينة الأول . إذ الواقع أنه عثر في مقابر جيل (يلوص) على بعض آثار من طراز صناعة عصر ما قبل الأسرات في مصر . وقد استمر استعمالها في وادى النيل بعد عهد الملك « مينا » ، وبخاصة إذا علمنا أنه عثر على اسم الملك « خع سخموى » ⁽¹⁾ منقوشا على قطعة أثرية أى إنها ترجع إلى عهد الأسرة الثانية . يضاف إلى ذلك أن حجر « بلرم » قد ذكر لنا وجود علاقات بين مصر وآسيا في عهد الملك « سنفرو » أول ملوك الأسرة الرابعة . إذ قص لنا عودة اسطول مؤلف من أربعين سفينة محملة بأخشاب لبناء السفن البحرية ولأتمام إقامة القصر الملكى . هذا فضلا عن أنه عثر في أساس معبد يلوص على قطع أثرية متنوعة عليها أسماء ملوك من الأسرة الرابعة؛ منها إناء من حجر الديوريت ،

(1) Montet, Byblos et l'Egypte, p. 271; Br. A. R. t. I, p.p. 55, 146-147.

وقطع نقش عليها خرطوش الملك « خوفو » (1) وكذلك عثر على قدح من البلور الصخري مهشم حفر عليه بإتقان فائق اسم الملك « منكاورع » ، وقطعة من المرمر عليها ألقاب الملكة « مريت اتس » زوج « سنfro » ، ثم زوج « خوفو » من بعده (2) . وقد عثر كذلك في نفس المكان على إناء آخر من المرمر نقش عليه ملك الوجهين القبلي والبحري « وناس » عاش أبديا . (3) وهذا يتفق مع صور السفن البحرية التي عثر عليها في طريق معبد « وناس » الجنازي في حفائر سقارة (4) وكذلك يتفق مع ما عثر عليه من الرسوم في معبد الملك « سحورع » (5) إذ نشاهد تمثيل الأسطول المصري عائدا إلى مصر يحمل الأسويين من رجال ونساء وأطفال ودبتين مقيدتين في أغلال من غابات لبنان . أما في عهد الأسرة السادسة والآثار التي عثر عليها يرجع تاريخها إلى عهد « تتي » و « يبي الأول » ثم « يبي الثاني » وكلها على وجه عام أوان وتمائيل صغيرة نقش عليها اسم الفرعون (6) .

ويوجد في متحف بيروت نقش غائر من عهد الدولة القديمة له أهمية خاصة . وهو مقسم إلى منظرين مثل فيهما الملك « يبي الأول » أو الملك « يبي الثاني » يقدم قربانا إلى إله ثم إلى إلهة وقد نقش عليه ما يأتي : « محبوب حتحور سيدة يلوص » ، هذا إلى قطعة أخرى محفورة

(1) Montet, Byblos et l'Egypte, p. 73 No. 58. (2) Op. Cit. p. 69, No. 46; Les Egyptiens à Byblos p. 255. (3) Ann. Serv. A. t. XXXVIII, p. 520.

(٤) أنظر الجزء الأول صفحة ٣٥٢ وما بعدها .

(5) Borchardt, Das Grabdenkmal des Königs Sahure, t. II, p.p. 25-28, 86 et pl. XI, XII (6) Montet, Byblos et l'Egypte p.p. 70 No. 47-63.

حفرا غائرا قد أحضرها معه الكاتب الشهير « رينان » الفرنسى وهى الآن فى متحف اللوفر (١).

وقد مثل عليها فرعون يقدم تضحية إلى إلهة لاسة ملابس مصرية . ولا يتردد الأثرى عند رؤية هذا النقش فى نسبه إلى عصر الدولة القديمة وليس هناك مجال للشك فى أن كل هذه الأشياء تدل دلالة واضحة على مقدار تأثير الحضارة المصرية فى بلاد سواحل سوريا فى عهد الدولة القديمة . على أننا من جهة أخرى نجد فى قوش عطاء المصريين فى عهد الأسرة السادسة ما يضع أمامنا تفاصيل غاية فى الأهمية عن العلاقات بين القطرين ، ولا أدل على ذلك من متون « ونى » التى تكلمنا عنها بأسباب فى الجزء الأول (انظر ص ٣٧٩ وما بعدها) ، وكذلك فى عهد الأسرة الخامسة شاهدنا حاكم المقاطعة « إيتا » قد مثل فى مقبرته بدشاشة كيفية الاستيلاء على مدينة (نديا) وحصنها من أعمال سوريا (جزء أول ص ٣٣٦ - ٣٣٧) .

وتدل كل ظواهر الأمور على أن فراعنة مصر كانوا يراقبون عن كثب كل حركات الأقوام والقبائل التى كانت تهدد البلاد من حين إلى حين وتكون سببا فى قطع العلاقات التجارية الخارجية وما ينجم عنها من نضوب موارد الدولة . فكانوا يقضون على كل حركة عدائية من هذا النوع كما كانت الحال فى سيناء التى كانت منبعاً فياضاً لاستخراج النحاس والفيروز . وذلك يفسر لنا مناظر نزول الجنود المصرية الممثلة فى معبد « سحورع » مقلعة إلى يلو ص . ولا شك فى أن الجنود فى هذا العصر كانوا أهم عامل فى تسيير التجارة ؛ إذ كان كل بحار فى الوقت نفسه

(1) Montet, Byblos et l'Egypte, p. 35 pl. 24, 27; p. 38, pl. 28.

جنديا يستولى على كل المحاصيل التى لم يسلمها الأهلون طائعين وقد كانت هذه نفس الطريقة التى تستعمل فى البعوث التى ترسل إلى شواطئ البحر الأحمر وبلاد النوبة والسودان (1) .

والظاهر أن نفوذ المصريين وسلطانهم لم يكن عظيما فى بلوص كما كان فى فلسطين ، ولكن على الرغم من ذلك لاحظنا أن نفوذهم كان ناميا فى بلوص لدرجة أنهم قد أقاموا هناك بعض آثار مصرية ، ولا يبعد أنه قد أسست هناك مستعمرة صغيرة لربط العلاقات التجارية بين البلدين وبخاصة لتحضير البضائع وشحنها فى السفن إلى مصر ، وكانت فى الغالب تحتوى على الأخشاب السورية التى لا نظير لها فى مصر كخشب الأرز والصنوبر وخشب الوشح والبان والسرو وغيرها من الأخشاب التى كان يحتاج إليها النجلرون وصانعو السفن ، والمهندسون المماريون للقصر الملكى ، ومطعمو العاج الذين كانوا يصنعون الأثاث الفاخر هذا إلى الأخشاب ذات الروائح العطرية والصمغ التى كانت لها أهمية عظيمة فى تحنيط الأجسام وفى الشعائر الدينية والقرايين الجنازية . والواقع أن الأخشاب وأنواع الصمغ كانت تجلب من منحدرات جبال لبنان التابعة لإقليم « جيل » وهى بلوص القديمة . وقد سميت قديما بلاد « نجا » (2) . وإله هذه الجهة المحلى كان يسمى « خاى تاو » وقد توحد معه الملك « ييبى » فى متون الأهرام : « أن ييبى هو « خاى تاو » وسا كن بلاد نجا » (3) .

(1) Boreux, Etudes de Nautique Egyptienne, p. 469.

(2) Montet, Byblos et l'Egypte, p. 268. sq. (3) Sethe, Pyr. 518 d.

وكذلك يقول أحد أمراء بني حسن في عهد الدولة الوسطى : لقد صنعت بابا ذرعه سبعة أذرع من خشب (الأرز) « عش نجا » لمدخل مقبرتي الأول .

وقد كان وقوع أى حادث يكون من جرائه شل حركة تجارة يبلوص يظهر تأثيره المباشر في نظام مصر الاقتصادى ، والاجتماعى ، فيلاحظ أن في عهد التدهور الذى أعقب سقوط آخر ملوك الأسرة السادسة كان المصرى يتحسر على تبدد شمل التجارة البحرية : « والآن وقد أصبح ولا أحد يمكنه أن يبحر إلى يبلوص ، فكيف يمكننا أن نجلب لمومياتنا خشب الأرز الذى كنا نصنع منه توايت الكهنة ، والذى كان يستعمل صمغه لتحنيط العظام ؟ (١) . »

ومن هنا نفهم السر فى حرص المصريين على المحافظة على حسن سير نظام البعوث البحرية ، وفى اهتمامهم بذكر الشحن التجارية فى نقوشهم .

على أن المصرى لم يجلب إلى بلاده من سوريا الأخشاب والعطور المستخرجة منها فحسب ، بل كان يستورد زيت الزيتون ، والنبذ الذى كانت تنتجه هذه البلاد بكثرة ، والواقع أن كروم فلسطين قد ذكرها « ونى » فى نقوشه (صفحة ٣٧٢ جزء أول) . ورغم أن النبذ المصرى كان من مختلف الأنواع الجيدة جدا فى الغالب ، فإن النبذ الأسيوى كان يجلب إلى مصر . أما زيت الزيتون فقد كان ضمن المحاصيل التى شحن بها أسطول الملك « سحورع » (٢) .

(1) Gardiner, Admonitions, p. 32. (2) Borchardt, op. cit. t. I, fig. 13.

ويلاحظ في نقوش هذا الملك أن الأواني الأجنبية كانت تحتوى على سوائل مختلفة الأنواع جئ بها من بلاد سواحل سوريا . ومن المدهش أنه عثر في مقابر العصر الطيني على أوان تدل أشكالها حسب فحص المختصين على أنها غير مصرية (1).

وعلى أية حال فإن المصريين كانوا يجلبون سلعا أخرى لم تكن معروفة أو متداولة في مصر إلا قليلا ، ولم يصل إلينا منها شيء قط اللهم إلا الذهب الذى أحضر من جبال لبنان ليوضع في حديقة حيوان الملك « سحورع » . ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن اللازورد الذى كان معدوما في جبال مصر قد استعملت منذ عصر ما قبل الأسرات ، ولا بد أنه كان يستورد من آسيا ، ولا غرابة في ذلك إذ سنجده ضمن النفائس التى كانت تقدم جزية للفراعنة في عهد الدولة الحديثة .

ولا بد أن البحار المصرى كان ينتخب الوقت المناسب للإبحار إلى هذه الجهات . وأحسن الأوقات الصالحة كانت في شهرى مايو ويونيه ، إذ في تلك الآونة كان يقلع البحارة بسفنهم عندما كانت تهب رياح جنوبية وجنوبية غربية فتملأ قلاع سفنهم وتزج بها في البحر نحو سوريا ويصل المسافرون إلى يبلوص في مدى أربعة أيام ، ويبلغ طول هذه الرحلة نحو ٥٥٠ كيلو مترا . وكان البحار المصرى في خلالها يتوخى محازاة الشاطئ غير مجازف بالتوغل في البحر . وقد كان أكبر خطر يخافه البحارة هو هبوب ريج غربية أو شمالية غربية إذ كانت تمنح بالسفن إلى الشاطئ ولكن ذلك لحسن الحظ كان نادرا جدا ، اللهم إلا في شهرى يناير

(1) Petrie, Royal tombs, t. I, p. 8.

وفبراير. وقد كانت « جيل » مجهزة بمرفأ ترسو فيه السفن لتشحن .
أما عند العودة فكانت السياحة متعبة شاقة ، إذ كان لا بد للسفن من أن تمر
عباب البحر في تيار معاكس وريح غير ملائمة ، ولذلك كانت تجهز السفن
بمجدفين أشداء وتستغرق السياحة مدة لا تقل عن ضعف مدة الذهاب ،
وفي أغلب الأحيان كانت تنقضى هذه المدة دون حدوث أى عائق (1) .
ومن كل ما سبق يمكننا أن نستخلص بحق أن العلاقات التجارية بين
مصر وسوريا كانت من الحقائق التاريخية التي لا تقبل الجدل أو الشك ،
وكان لها أثر فعال في نمو مصر وتقدمها في عهد الدولة القديمة ، وهذه
العلاقات لم تكن بحرا فحسب بل كانت كذلك بالطرق البرية أيضا ، وبخاصة
إذا علمنا أن هناك ما يحملنا على الظن بأن بلاد فلسطين الجنوبية كانت تابعة
للفراعنة بعض الشيء ولا سيما في خلال النصف الأخير من عهد الدولة القديمة .

علاقة مصر بجزر البحر الأبيض المتوسط .

تدل الكشف الأثرية على احتمال وجود بعض علاقات تجارية
معية بين مصر وجزر البحر الأبيض المتوسط ولا سيما بين مصر وجزيرة
كريت منذ عهد ما قبل الأسرات . غير أن الآراء متضاربة في هذا الصدد
بين علماء الآثار فبعضهم يرجح وجود هذه العلاقات (2) ، وبعضهم ينكرها
إنكارا باتا (3) .

(1) Koster, Schifffahrt und Handelsverkehr, p. 14.

(2) Hall, The relation of Aegean with Egyptian Art, in J. E. A. 1914, p.p. 110-118. (3) Herman Kees, Ægypten, p.p. 109-110.

ولكن من جهة أخرى تعوزنا النقوش والوثائق المدونة عن المصريين
الطيني والمنقى معا لإثبات وجود علاقات تجارية بين مصر وجزر البحر
الأبيض المتوسط ، وكل ما لدينا من المعلومات ينحصر في المواد الأثرية
فقط . وقد غالى بعض علماء الآثار في أهمية هذه الآثار وبنوا عليها
نظريات هائلة في علاقات مصر مع جزر البحر الأبيض المتوسط ، على
حين أن البعض الآخر كان على العكس إذ نظر إلى هذه الكشف
نظرة سطحية دون أن يعيرها أى اهتمام جدى . وسنعرض نحن للموضوع
دون التحيز لأحد الطرفين .

يقول المؤرخ الألمانى « كوستر » (١) :

« أن الأسباب التى حدثت بالمصريين إلى التوغل فى البحر حتى جزيرة
قبرص هى نفس الأسباب التى حدثت بهم إلى شق عباب اليم حتى سواحل
سوريا . ولا نزاع فى أن السياحة إلى هذه الجهة كانت أكثر خطرا
ولذلك كانت قليلة ، ولكن وجود معدن النحاس فى هذه الجزيرة كان
من الأشياء التى تستحق المجازفة بمثل هذه الرحلة . والواقع أن قبرص
كانت تورد للنحاس لفراعنة مصر ، فى عهد الدولة الحديثة عند ما كانت
مصر صاحبة فتوح عظيمة وسلطان ضخم وتجارة نامية فى آسيا وجزر
البحر الأبيض وغيرها ، غير أنه لا يمكننا أن نقول مثل هذا القول عن
مصر فى عهد الدولة القديمة ، إذ كان النحاس الذى يستعمل
فى ذلك العهد يستخرج من مناجم سيناء كما شرحنا ذلك

(1) Koster, Schiffahrt und Handelsverkehr p. 23; Seefahrten der
Ägypter, p. 17.

في مكانه ، بل إنه ليس لدينا أى دليل في مصر ولا في قبرص على ما ظنه العالم « كوستر » ولذلك نعتبر كل ما قاله غير مقطوع من هذه الناحية ، وعلى أية حال فلا يمكن المؤرخ أن يطبق ما وجد في عصر من عصور التاريخ على عصر آخر وبخاصة إذا كان أقدم منه بعدة قرون . وعلى الرغم من كل ذلك فإنه توجد بعض علاقات بين مصر وكريت ولكن يجب ألا نبالغ في أهميتها .

وذلك أن الأستاذ « بترى » قد كشف في مقابر العهد الطيني بالعراة المدفونة بعض أنواع من الفخار يعتقد هو من أشكالها وطرار صنعها أن موطنها الأصلي جزر بحر إيجه (كنوسوس)^(١).

غير أن هذا رأى لم يشاطره فيه معظم العلماء المتخصصين فقال « إرك ييت » : إن الفخار الذى عثر عليه الأستاذ « بترى » لا يتنى إلى أية صناعة إيجهية^(٢) ولكن من جهة أخرى يوجد بالمتحف البريطانى آية صغيرة من الفخار الأسمر اللون المحرز كشف عنها فى انتباروس Antiparos يدل نموذج صناعتها على أنها مصرية بدون شك ، ويرجع عهد صناعتها إلى ما بين الأسرتين الثالثة أو الرابعة^(٣)

هذا إلى أنه عثر على أوان فى مصر وجد لها مثل فيما كشف عنه فى حفائر سهل مسارا (Messara) وفى كنوسوس . وفى الأخيرة عثر

(1) Petrie, Royal tombs, t. II, pl. 54, p. 46.; Abydos, t. I, pl. 8, p. 6; t. II, p. 42, 28; Social life in Ancient Egypt, p. 164-5.

(2) E. Peet, Early Egyptian Influence in the Medit. (Ann. of the British school of Athens,) XVII (1910-1911) p. 253-254.

(3) Hall, Relations of Aegean with Egyptian Art in J. E. A. 1914, p. 114 pl. XVII, Fig. 2.

السير « ارثر ايفانز » على قطع ذات أهمية أثرية بعضها أجزاء آنية من اللديوريت ، بينها وبين الأواني التي عثر عليها في عهد الملك « سنفرو » شبه عظيم . وقد عثر على أوان أخرى من نموذج نفس العصر ولكنها مصنوعة من الطلق الأيوليتي (في آسيا الصغرى) . (1)

وأنه لمن الصعب جدا أن تنسب القطعة الأولى لمصدر غير مصر ، إذ الواقع أن المادة التي صنعت منها والشكل الذي ركبت به عليها الطابع المنفى ، أما الثانية فإنه من المحتمل جدا أن نقلها الصانع الكريتي عن نموذج مصري كان لديه . ورغم ذلك فإن الأستاذ « بيت » قد عارض في ذلك أيضا ، ولكن حجته ضعيفة (2).

وأهم من كل ماسبق أنه قد عثر على أختام على شكل أزرار في مصر في عهد الدولة القديمة وكشف عن مثيلاتها في « كريت » (3)

ولكن ذلك لا يهم في موضوع بحثنا ، إذ الحقيقة التي وصلنا إليها والتي لا تقبل الشك هي استعمال هذه الأختام في البلدين وفي عصر واحد وهذا ما يؤكد الرأي القائل بوجود علاقات بين مصر وكريت في عهد الدولة القديمة ، يضاف إلى ذلك ، أنه عثر على بعض آثار مصنوعة من حجر الأبديات (الزجاج البركاني) في المقابر المصرية منذ عصر ما قبل الأسرات ، وهذه المادة لا توجد في جبال مصر قط ، ولكنها من جهة

(1) Evans, Palace of Minos, t. I, (Oxford 1921) p.p. 85 sq. 54-55; Early Nilotic, Lybian and Egyp. Relations with Minoan Crete p.p. 11 sq.; Peet, Early Egyp. Influence p. 255.

(2) Peet, Early Egypt. Influence p. 255. (3) Fimmen und Reisinger, Die Kretisch Mykenische Kultur, p. 154; Evans, Scripta Minoa, p. 121; Newberry, Scarabs, p.p.56 sq.

أخرى توجد في جزر بحر إيجة بكثرة في (ميلو) ولذلك ظن بعض العلماء أنها قد جلبت من هذه الجزر ، وهذا الرأي يعارضه طائفة أخرى من العلماء إذ يقولون إن هذا الحجر يوجد في بلاد الحبشة وفي أرمينيا ويجوز جدا أن مصر كانت تستورده منها . يضاف إلى ما ذكرنا أنه عثر على بعض أشياء مصنوعة من مادة الصفرة في مقابر عصر ما قبل الأسرات ، ولا يمكن أن يكون أصلها إلا من جزر الأرخبيل وبخاصة جزيرة (نكسوس) أو آسيا الصغرى (1) .

ومما سبق يجوز لنا أن نستخلص وجود رابطة بين مصر وجزر البحر الأبيض المتوسط وبخاصة مع (كريت) في عهد الدولة القديمة ، غير أنه لا يمكننا بحال ما أن نؤكد أهمية هذه العلاقات أو استمرارها أو صبغها بصبغة تجارية أو ودية ولكن كان المصريون على أية حال يعرفون جزر « البحر الأخضر جدا » (البحر الأبيض المتوسط) ، إذ ذكر في ورقة بردى محفوظة الآن في برلين ويرجع تاريخها إلى الأسرة الثانية عشرة ، أن هذه الجزر كانت معروفة سماعا لدى عصر الدولة القديمة . وقد جاء ذكر سكان هذه الجزر « حاو نبو » في متون الأهرام حتى أن « مسبرو » قال عنهم : « إن وجود هؤلاء القوم كان معروفا منذ أمد بعيد قبل تدوين متون الأهرام (2) .

وليس بعيدا أن البحارة المصريين بما لهم من الجرأة في اقتحام البحار

(1) Perrie, Nagada and Ballas, p.p. 29, 44, 45, 48; Petrie, Prehist. Egypt p. 41. (2) Maspero, Histoire Ancienne, t. I, p. 391 No. 3.

قبل أية أمة في التاريخ كانوا يخاطرون أحيانا في عرض البحار عند ما تسمح الأحوال الجوية لهم بخوض غمارها . والواقع أنه توجد ريج شمالية في البحر الأبيض عند ما تهب بشدة تقود السفن من جزر « سيكلاد » Cyclades إلى (كريت) ، ومن ثم إلى مصر (١) .

أما الأستاذ « برستد » فيقول أن الثلاثة والأربعين ميلا البحرية التي تفصل مصبات النيل عن سهل (مسارا) يمكن قطعها في مدة ثلاثة أيام أو أربعة . وفي هذه الأحوال لا نظن أن البحارة المصريين كانوا يجمعون عن القيام بمثل هذه الرحلات وبخاصة إذا كانت تعود عليهم بالفائدة ولا سيما أنهم قد شقوا غمار البحار من قبل الى يלוص وسواحل فينيقية عامة . على أن مثل هذه السياحات لم تكن وقفا على المصريين بل لا بد كان يقوم بمثلها أهالي كريت ، إذ كانوا متعودين الملاحة بين جزر بحر إيجه فكان من الجائز أن يندفعوا في سياحاتهم نحو الجنوب حتى الدلتا أو يتقابلون مع السفن المصرية على الساحل السوري . كل هذه النظريات والفروض ممكنة في ظاهرها ، ولكن ليس هناك ما يلزمنا على أن نقرر هنا مع السير « ايفانز » ان الكريتين كان لهم الشرف الأول في شق عباب اليم حتى السواحل المصرية والسورية (٢) .

علاقة مصر بالبحر الأحمر وبلاد بنت في

عهد الدولة القديمة

إن أقدم وثائق في متناولنا عن ملاحة المصريين في البحر الأحمر يرجع تاريخها إلى الملك « سحورع » أحد ملوك الأسرة الخامسة . وتدل

(1) G. Glotz, La Civilisation Egéenne. p. 5.

(2) Evans, Early Nilotic Relations, p. 6 sq.

الأحوال على أن البحر الأحمر لم يركب المصريون منه في سياحاتهم إلا نادرا ، إذ كان معظم ملاحتهم في البحر الأبيض المتوسط ، وذلك أنه منذ العهد الطيني وربما قبله ، كان يجلب النحاس من شبه جزيرة سيناء بالسفن ، ولكن بعد شحنها عند سواحل سيناء كانت تسلك أحد طريقين في العودة إلى مصر ، إما طريق الشمال حتى خليج السويس ، وإما طريق الجنوب حتى القصير . وفي الحالة الأولى كانت الشحنة تنقل إلى البر مارة بالبحيرات المرة ووادي طميلات حتى مدن الدلتا أو مقر الملك « منف » . أما الذين يتبعون الطريق الثاني فكان لزاما عليهم أن يقطعوا صحراء العرب من القصير حتى النيل عن طريق وادي حمامات ، ومن ثم يركبون النيل ، ولا يبعد أن يكون هذا الطريق الأخير هو الذي كان متبعا في عهد ملوك العصر الطيني ، لأن العاصمة كانت في الوجه القبلي ، إلا إذا كانوا يفضلون الطريق الطويل عن وادي طميلات لأنها كانت أقل متاعب وعناء وخطراً وقد لاحظنا فيما سبق أن هذه السياحات البحرية كانت تستلزم عدة وعتادا وجما غفيرا من الموظفين على اختلاف أنواعهم ، كالبحارة والضباط ، وعمال المناجم ورؤساء الأعمال ، والحجارة ، ورؤساء القوافل والجنود وضباطهم . هذا عدا رجال الإدارة الذين كانوا يرافقون البعثة . وكانت هذه البعث بطبيعة الحال حكومية ، أما أهميتها أو كثرتها فكانت تتوقف على حاجيات العصر الذي أرسلت فيه ، وعلى أمان الطرق التي كانت تهددها القبائل المتمردة ، ثم على مقدار نفوذ الفرعون وقوة بطشه . ويلاحظ أن التجارة البحرية مع هذه السواحل الفاحلة المتاخمة لخليج السويس لم يكن لها أهمية تذكر إذا

استثنينا جلب النحاس من شبه جزيرة سيناء ولكن منذ أن خاطر البحارة المصريون الشجعان متجهين في سياحتهم نحو الجنوب ، باحثين عن بلاد الآلهة الخرافية ، التي وصلوا إليها وأحضروا منها بعض محاصيل كانت إلى ذلك العهد مجهولة في مصر ، والملاحاة في البحر الاحمر بدأت تأخذ شكلا جديدا وأهمية خاصة . وعلى أية حال فلا نعرف بالضبط الوقت الذى بدأ المصرى يبحر فيه عباب البحر قاصدا بلاد (بنت) ، وكل ما نعرفه أن أول رحلة دونت هى التى أرسلت في عهد الفرعون « سحورع » وقد دون فيها أن قد أحضر إلى مصر منها المر ، ومعدن الالكتروم ، والأخشاب الأجنبية بكميات وافرة (1)

وقد كان المصريون يتخيلون بلاد (بنت) ذات أشكال غامضة سرية كما كان القوم يتخيلون بلاد الهند وغيرها من البلاد النائية في الأزمان السالفة ولم يكونوا لأنفسهم عن كنهها رأيا قاطعا .
والحقيقة أن موقع بلاد (بنت) كان موضوع بحوث عدة عند علماء الآثار .
فقد تكلم عنها « بروكش » ، و « مريت » و « بللين » و « كرال » ، و « مسبرو » وغيرهم (2) .

(1) Br. A. R. t. I, p. 5, 161.

(2) (a) Lieblein, Handel und Schiffahrt auf dem Rothen Meere, p.p. 52-75. (b) Krall, Studien zur Geschichte des Alten Aegypten, IV, Das Land Pounit, Litz des Kais Akad. der Wiss in Wien Phil. Hist. Kl. Band CXXI Abh II, 1890. (c) Maspero, Le pays de Pouanit, Etudes de Myth. & Arch. Eg. t. VI p.p. 38-41; De Quelques Navigations des Egyptiens sur les Côtes de la mer Erythrée, Même Ouvr. t. IV. p.p. 75-118. (d) Paul-Wissowa Article Saba.

فبعضهم يقول إنها بلاد العرب وبعضهم يقول إنها بلاد الصومال أو
الاثنان معا . والظاهر أن بلاد (بنت) كانت عند المصريين أنفسهم
غير محدودة العالم ، بل كانوا يعدونها البلاد العجيبة التي يصل إليها
الإنسان عند ما يسبح في البحر الأحمر متجها نحو الجنوب . وهذه البلاد
كان يجلب منها البخور والروائح العطرية والصمغ المقدسة التي كانت
تفتقر إليها مصر ، وكما ذكرنا فإن هذه البلاد لا بد كانت في نظر المصري
كما كانت بلاد الهند والشرق في نظرنا حتى عهد قريب ؛ إذ كانت هذه
الجهات ليس لها معنى جغرافي معين ومن أجل ذلك لا يجدر بنا أن نشخذ
القريحة في تعيين موقع بلاد (بنت) عند المصريين أنفسهم إذ لم يعنوا هم أنفسهم
بضبط موقعها ، لأنها كانت عندهم من الأماكن التي يحيط بها الغموض
والخيال والرغبة ، ولا غرابة في ذلك فقد كانوا يعتقدون فيها أنها الأماكن
المقدسة التي نشأت فيها آلهتهم .

وكل ما يهنا عمليا في هذا البحث أن بلاد (بنت) كانت تقع في المنطقة
التي تشمل بلاد الإترية ، والصومال من جهة . وشواطئ بلاد العرب السعيدة
من جهة أخرى . والآن بقي علينا أن نعرف الأماكن التي كانت تشحن
منها السفن المصرية على ساحل البحر الأحمر . وتدل الأحوال على أن
المر والبخور كانا يشحنان من اليمن ، والأقاليم الإفريقية الواقعة على البحر
الأحمر . أما الذهب والأبنوس فكانا على العكس يجلبان من القارة السوداء
(إفريقيا) . ولا بد أن المصريين كانوا في عهد الدولة القديمة يتبعون
في سياحاتهم إلى هذه البلاد طريق وادي طميلات حتى خليج السويس (1) .

(1) Meyer, Histoire de l'Antiquité, t. II, p.p. 256, 265.

وذلك لأن عاصمة البلاد كانت في هذا الوقت « منف » . والواقع أن « يبي نخت » في ترجمة حياته (جزء أول ص ٣٩١) يقص علينا أن « يبي الثاني » قد أرسله إلى بلاد « العامو » لإحضار جثة « عنخت نيني » . وقد كان الأخير ضابطا بحريا لسفينة ومعه جنود وبحارة ، وكلف ببناء سفينة للإبحار بها إلى بلاد بنت . ومما يؤسف له أن الحملة قد داهمها سكان الرمال « حريوشع » وقتلوا رجالها . ومن ذلك يتضح أن الملاحة إلى بلاد بنت كانت تبتدىء من ساحل خليج السويس ، لأننا نعلم أن « العامو » و « الحريوشع » هم القبائل السامية الرحل الذين كانوا يسكنون في هذه الجهات . على أن كل البعث التي كانت ترسل إلى (بنت) لم تتخذ هذا الطريق ، اللهم إلا إذا كانت كل البعث تجهز في عاصمة البلاد القريبة من خليج السويس ، إذ كان حكام مقاطعة (الفتين) العظماء مشهورين بالقيام بمثل هذه الرحلات كحرخوف وغيره . وكان السفر من المقاطعات الجنوبية في الوجه القبلي حتى خليج السويس يضع على البعثة وقتا طويلا في النيل حتى منف ، ومن أجل ذلك كانوا يتخيرون طريق وادي حمامات الذي يؤدي من قفط على النيل إلى إقليم « ساو » (القصير) على البحر الأحمر وهذه كانت الطريق التي سلكها ملوك الأسرة الحادية عشرة ومن جاء بعدهم . وقد ترك لنا رجال بعوثها بعض تفاصيل عن هذه الطريق (1)

ولا نزاع في أن هناك طرقا أخرى جنوبى قفط تصل بين النيل وشاطئ البحر الأحمر ، ولكننا نجعل تماما ما إذا كان المصرى قد استعملها ولكن المؤكد لدينا هو أن طريق الصحراء الذي يمر بوادي حمامات كان

(1) Erman Ranke, *Ægypten und Ægyptisches Leben*, p. 600 sq.

مستعملا منذ عهد الفراعنة حتى يومنا هذا .

والظاهر أن السفر إلى بلاد (بنت) لم يكن بالشىء المعتاد ، إذ كانت القوافل تقطع المسافة فى مدة أربعة أيام من قفط إلى البحر الأحمر سالكة طريقا وعرا لأماء فيه ، شمس محرقة ، وفى النهاية يصل الإنسان إلى ساحل قاحل لاسكان فيه ولا حياة ، ومن أجل ذلك كان أول هم للبعثة أن تحمل معها كل المعدات لبناء السفينة أو السفن التى كانت تطلع إلى بلاد (بنت) ، إذ لم يكن هناك مرفأ للسفن ميثا كما كان الحال عند مصبات النيل على البحر الأبيض المتوسط حيث المدن العظيمة ، ولذلك كانت كل بعثة تريد الابحار إلى بلاد بنت تبتدىء بتجهيز المعدات من جديد فكانت تحضر معها المواد الغذائية ، والماء بمقادير عظيمة كما كانت تحضر سلعا للتبادل ورجال من كل نوع ، كالبحارين والجنود ، والحمار الخ . ولا بد أن تصور كل المشاق التى يجب أن يتحملها رجال البعثة قبل بدايتها ؛ والواقع أنه حتى فى أيامنا نجد الملاحة فى البحر الأحمر مشهورة بصعوبتها ، إذ الجو فى مياه هذا البحر الواقع بين شاطئين قاحلين حار جدا ، هذا إلى وجود جزر صغيرة قاحلة ، وعقبات من المرجان وغيرها مما يجعل الملاحة محفوفة بالمخاطر . ولا شك فى أن بحارة الدولة القديمة كانوا يتخيرون الأوقات المناسبة للسفر فى هذا البحر حتى لا يتعرضوا إلى مخاطره ، وذلك حسب هبوب الرياح . فمن شهر يونية إلى شهر أغسطس تهب رياح شمالية غربية على البحر الأحمر ، وفى سبتمبر جنوبى خط عرض ١٦ شمالا ، تكون الرياح نادرة ، ومن اكتوبر إلى إبريل كانت الرياح تهب من الشرق إلى الشمال الشرقى فى خليج عدن ، ومن الجنوب الشرقى فى بوغاز

« باب المندب » ثم يتجه نحو الشمال في الجهة الشمالية من البحر الأحمر (١). وفي هذه الأحوال كانت البعوث تبحر من القصير في شهر يونية وبذلك يمكنها أن تقطع ٢٠٠٠ كيلو متر في ثلاثين يوما أو أربعين يوما وهي المسافة التي تفصل القصير عن باب المندب . وفي منتصف شهر يولية كان في مقدور البعثة أن تستمر في سيرها نحو الشرق حتى رأس جردفوى . ولكن كان لابد من العودة حوالى أكتوبر بعد انتهاء عمليات التبادل التي كانت تحتاج إلى زمن . وإذا سار الإنسان بسرعة مع ربح رخاء . فقد يصل في نهاية ديسمبر عند خط عرض ٢٠ شمالا ، وعندئذ لا تبقى إلا مسافة ٥٠٠ كيلومتر تقطع بالمجاديف في رياح مضادة وإذا كانت الأحوال الجوية حسنة . تصل البعثة أخيرا إلى القصير في شهر يناير أو فبراير أى إلى النقطة التي أبحرت منها بعد غياب عام بأكمله .

ومما سبق يتضح أنه كانت هناك سلسلة عقبات للوصول إلى هذه البلاد وذلك على فرض أن البحارين يعرفون أوقات هبوب الرياح الملائمة للسياحة والمعاكسة لها طوال العام ، وأنه يمكنهم أن يوجدوا علاقات حسنة مع أهالى (بنت) يضمنون بها شحن البضائع اللازمة لهم في مدى بضعة أسابيع ، وألا يجدوا في طريقهم بحرا ، أية عقبة من العقبات الخطرة وعلى أية حال فإنه يوجد شك كبير في أن معظم البعوث التي أرسلت إلى بلاد بنت في عهد الدولة القديمة قد تعدت تجارتها بلاد « الأثرية » أو بلاد العرب السعيدة . هذا إلى أن الوصول إلى هناك كان يعد من

(1) Koster, Seefahrten der Alten Ägypter, p. 26.

الأعمال العظيمة في نظر سكان وادي النيل وما لدينا من المعلومات يحملنا على الظن بأن الملاحه إلى هذه الجهات الخيالية لم يبدأ المصريون القيام بها إلا بعد أن عرفوا بلاد سوريا ووصلوا إليها ويدل على ذلك أن السفن التي كانت تمخر عباب البحر الأحمر كانت تسمى « كبت » وهو اسم بلدة جيل (يلو ص) ، إذ يبرهن ذلك على تابع تاريخي (١) .

وعلى أية حال فقد ذكرنا أن أقدم بعثة معروفة لنا إلى هذه البلاد قامت من مصر في عهد الملك « سحورع » كما جاء ذكر ذلك في حجر « بلرم » ، ولا نزاع في أنها لم تكن أول شيء من نوعه إذ نشاهد رسم أحد سكان (بنت) مع أحد أولاد « خوفو » الذي كان أميراً للبحر في هذا العهد . وهذا الرسم يشبه أسرى بلاد بنت الذين أحضرهم « سحورع » من هذه الجهة . ولا بد إذن أن يرجع عهد هذه الرحلات إلى زمن بعيد ، ورغم ذلك فليست لدينا معلومات تدل على أن مثل هذه البعثات كانت ترسل إلى هذه الجهات قبل العهد المنفي . ومن آخر بعثة ذكرناها إلى هذه الجهات لم نعثر على وثائق تمكنا من أن نتحقق منها بصفة قاطعة على قيام بعثات معينة ، ففي نقوش مقبرة بأسوان من عهد « يبي الثاني » قرأ أن « خنوم حتب » يفخر قائلاً : « لقد رافقت سيدى خوى » إحدى عشرة مرة إلى بلاد بنت (٢) .

على أننا لا نعرف إذا كان « خوى » هذا مختصاً في قوله أو أن هذه الرحلات لو سلمنا أنها تمت فعلاً قد نفذت عن طريق البحر ، إذ يجب أن

(1) Kees, *Ægypter*, p. 122.

(2) Br. A. R. t. I, p. 361; Sethe, *Urk. I*, p.p. 140-141.

نلاحظ هنا أن في الامكان الحصول على منتجات بنت عن طريق بلاد النوبة والسودان . وسنرى عند الكلام على هذه الجهات أن المصري قد توغل نحو الجنوب والجنوب الشرقي من الفتين منذ زمن بعيد . وقد كان أمراء هذه الجهات لهم شهرة عظيمة بصفاتهم رؤساء القوافل . وقد كان منهم « حرخوف » الذي عاش في عهد « يبي الثاني » ، وقد قص علينا في تاريخ حياته رحلته إلى أعالي النيل وفي خلالها أحضر قرما مماثلا للذي أحضره « باوردد » من بلاد بنت في عهد إيسى أحد ملوك الأسرة الخامسة (جزء أول ص ٣٤٨) . وكذلك أحضر البخور ومعدن الالكتروم ، والخشب الأجنبي الذي ذكر في تاريخ « سحورع » أنه أحضر من بلاد (بنت) ، وذكر كذلك بين قوائم المحصولات السودانية التي جلبتها القوافل التي أعدت في « الفتين » . وما سبق يحتمل جدا ألا تكون البعوث البحرية إلا مكملة للتجارة البرية . وقد كانت هذه تعد لجلب كميات عظيمة من الصمغ والعطور ، لسد النقص الذي كان عساه يحدث من تأخر المبادلات التي تقوم بها القوافل . على أن هذه البعوث ربما كانت أحيانا ترسل على سبيل التقليد بمثابة إعلان لبداية حكم الملك الذي أرسلها .

العلاقات التجارية مع البلاد المتاخمة

لم تكن تجارة مصر مع البلاد المجاورة لها ذات أهمية تذكر ؛ إذا استثنينا بلاد النوبة ، إذ كانت تجارتها مع فلسطين وبلاد سوريا تجري معظمها بطريق البحر . على أن هذا لم يكن عائقا لقيام التجارة بينها

وبين مصر بالقوافل عن طريق الصحراء مارا بالقنطرة وشرقي بحيرة المنزلة .
وعلى أية حال فإن المصري كان في كل عهود تاريخه يعمل كل ما في
وسعه ليتحصن ضد أية غارة تأتي له من جهة البلاد المتاخمة ، ولذلك
كان يقيم الحصون والقلاع .

ولما أصبحت حدود الأرضين قوية الحصون ، أخذت منطقة نفوذ
البلاد تمتد تدريجيا حتى ضمت شبه جزيرة سيناء وسهول فلسطين
الواقعة بين البحر الميت وساحل يافا وعسقلان وغزا ، بل لقد سار « وني »
الشهير بجنوده حتى سفح جبال الكرمل . وقد كانت المحاصيل المصرية
ترد إلى هذه الجهات ويؤخذ بدلا منها النيذ وزيت الزيتون وهما من أهم
محاصيل هذه الأقطار . وقد كان يجتمع في هذه التخوم رجال القوافل
السورية الذين كانوا يوثقون الروابط التجارية مع بلاد نهر الأرنط (العامى)
بسهل (سارون) . ومن المحتمل جدا أن انتشرت بوساطتهم بعض السلع
أو الصناعات الفنية بين مصر وبلاد دجلة والفرات منذ عصر
ما قبل الأسرات (1) .

أما من جهة بلاد لوبيا وهضبة برقة فقد كان فيها قبائل رعاة ثور
أحيانا ، مما كان يحمل الفرعون على الهر على حماية نخوم الدلتا الغربية وقد
كان يجلب منها الزيت الذي يطلق عليه الزيت اللوبي ، وكان يستعمل
حسب التقاليد لذلك الأجسام (2) .

وقد كانت هجمات هؤلاء اللوبيين تدعو الفرعون للقيام بحملات ضدهم

(1) Meyer, Histoire de l'Antiquité, t. II, p. 182. (2) Newberry,
Ta Tehenou, Oliveland in Anc. Eg. (1915) p. 97-102.

فينكل بهم ثم يعود إلى مصر ولا يلبث أن يقوم بهجمة أخرى فينقض عليهم كرة ثانية وهكذا . وقد ترك لنا الفرعون « سحورع » ، نقشا غائرا يمثل انتصاره على اللويين وفيه نرى جماعة المهزومين من قبيلتي « باقت » و « باسن » ومعهم قطعانهم من البقر والماعز والحمر تعد بالآلاف . (1) وقد كان سكان الواحات وهم من الجنس اللوبي أيضا خاضعين لسلطان الفراعنة . وكانت صناعتهم رعى بعض الحيوان وجنى ثمار نخيلهم هذا إلى أنهم كانوا يزرعون الكروم التي كانت لها شهرة خاصة (2) وكان الفرعون كذلك يخضع من شوكتهم إذا قاموا بأى عصيان .

أما سكان « ايوتيو » وهم سكان الكهوف في صحراء العرب فلم يكن لهم أية شوكة أو سطوة لأنهم كانوا قوما جياعا وأهم ميزة لهم أنهم كانوا قواد قوافل مجيدين عند ما كانوا يفضلون هذه المهنة على القيام بغارات على بلاد النيل المجاورة وكان الفرعون في هذه الحالة يرسل عليهم صواعق من جنوده فيرتدون إلى كهوفهم مدحورين .

وفي الجملة كانت العلاقات التجارية تجري بدون عناء كبير بين لوبيا والواحات وشبه جزيرة سيناء وبدو صحراء العرب على أنه في الواقع كانت الأقاليم الخارجة عن وادى النيل والمتاخمة له تعتبر أنها جزء من الدولة المصرية ولكنها في الوقت نفسه كانت تتطلب يقظة مستديمة من قبل الفرعون وغالبا ما كان يقوم بهذه المهمة رجال من بين رجال هذه القبائل نفسها مقابل أجر يدفعه الفرعون لهم .

(1) Borchardt, Das Grabdenkmal des Königs Sahure, t. II, pl. I, p. 72 sq. (2) Kees, Aegypten p. 50.

العلاقات التجارية بين مصر وبلاد النوبة والسودان .

كان إقليم أسوان منذ أقدم العهود المصرية يعتبر الجهة التي تتجمع فيها تجارة سكان القطر المصري وبلاد النوبة السفلى . ولا غرابة في ذلك فإنه كانت بين البلدين روابط جنسية وثقافية إذ نجد أن نحو البلدين وثافتها العامة من الشلال الأول قد بقيت واحدة شكل ظاهر ، ولكن الوحدة الثقافية التي كانت بين البلدين انقسم عراها حوالى العصر الذى بدأ فيه ملوك « نخن » (الكوم الأحمر) يتولون عرش البلاد المصرية . ومنذ العهد الطينى أخذت بلاد النوبة السفلى بما هو معروف عن أهلها من بطء الحركة تباعد عن الصعيد وتنحاز إلى السودان فغلب عليهم في ذلك عوامل الدم .

وعلى أية حال فإن مقاطعة « الفتين » المتاخمة لحدود بلاد النوبة رغم أنها كانت تابعة لمصر سياسيا ، فقد بقي سكانها من الجنس النوبى حتى هضبة السلسلة وكان هذا الإقليم يطلق عليه اسم (أرض سنت) « تاسنت » أى نوية أو مقاطعة النويين . وقد بقيت صبغة إقليم أسوان كما هى حتى يومنا هذا ، وذلك لأن موقعها الجغرافى قد جعل منها إقليم انتقال بين البلدين من الوجهة الجنسية ، وكذلك من الوجهة التجارية ويدل على ما كان بين مصر وبلاد النوبة من النشاط التجارى نفس كلمة « آب » (الفتين) ومعناها العاج . وكذلك « سونت » أى أسوان الحالية ومعناها التجارة (1)

(1) Erman Ranke, *Ægypten und Ægyptisches Leben*, p. 592.; Kees, *Ægypten* p.p. 107, 339. sq.; Meyer, *Hist. de l'Ant.* t. II, p. 44.

والواقع أن إقليم بلاد النوبة السفلى كانت أهميته تنحصر في أنه الطريق الموصل إلى الصحراء التي كانت تحتوى على مناجم الذهب الواقعة في الشرق وكذلك نحو الأقاليم اليانعة الواقعة في أعلى النيل . وقد كان سكان قبائل هذه المقاطعة يعيشون على تربية الماشية ومن تسهيل سبل المبادلة بين القطرين . ولما كانوا بطبعهم ينجحون إلى العصيان كما هو الحال مع كل الأقوام المتاخمة لمصر ، فإن الفرعون كان يرسل عليهم حملات شديدة لكبح جماحهم ، على أنهم كانوا دائماً على استعداد للقيام للهيئة الحاكمة بقيادة القوافل أو الانخراط في سلك الجيش بصفاتهم جنوداً مرتزقة (١) . وقد كان ملوك الدولة القديمة يرسلون الحملات المسلحة إلى هذه الجهات لتأمين الطرق التي تؤدي إلى السودان ، أو لإخضاع أهالي النوبة المغيرين على بلاد القطر . وقد كانت هذه الحملات تأتي بفوائد من كل جهة إذ كانت أحيانا تستولى على ما لديهم من العاج والأبنوس . فتدلنا الآثار على أن الملك « خع سخموى » أحد ملوك الأسرة الثانية وبعده الملك « زوسر » ، قد توغلا في بلاد النوبة وقد أخضع الأخير منهما لسلطانه ما يقرب من اثني عشر فرسخاً من أسوان إلى المحرقة ؛ وهذا الإقليم أطلق عليه اليونان اسم « دوديكاشين Dodecashene » . وجاء في تواريخ حجر « بلم » أن الملك « سنفرو » أول ملوك الأسرة الرابعة ذهب لإخضاع هذه الجهات وقد رجع معه ٧٠٠٠ أسير و ٢٠٠ رأس ، من الحيوانات الكبيرة والصغيرة (٢)

(1) Moret, Des clans aux empires, p. 196; Meyer, Hist. de l'Ant. t. II, p. 46. ; Cf. Meyer, op. cit. t, II, p.p. 155, 185 et 233.

(2) Br. A. R, t. I, p. 146.

وفي عهد الملك « يبي الأول » نجد في النقوش بعض أسماء القبائل النوبية التي جند منها « وني » جيشه لإخضاع الأسويين . منها قبائل : « إرتت » و « مجا » ، و « أمام » و « واوات » و « كاوو » . وقد ذكر « مسبرو » أن قبائل « واوات » ، و « المجا » كانوا في شرق النيل ، أما البقية فكانت على الضفة الغربية (١) .

ومن المحتمل جدا أن هذه القبائل لم تمتد قط نحو الجنوب ، ولم تصل الفتوح المصرية إلى الشلال الثاني . أما الأقاليم السودانية التي كانت تقع في الشرق فاتها لم تكن معروفة إلا عن طريق روايات النوبيين ، من الخدم والجنود الذين قاموا برحلات متوغلين في داخل هذه البلاد مع عظماء الفتن .

وفي عهد الملك « مرزوع » خلف « يبي الأول » ، كلف « وني » بحفر خمس ترع عند شلال أسوان لتسهيل مرور السفن والقوارب . وقد صنعت هذه القوارب من خشب السنط من بلاد « واوات » . وقد قدمه له رؤساء هذه الجهة . وفي السنة الخامسة من حكمه ذهب الملك « مرزوع » بنفسه ليتقبل خضوع رؤساء « المجا » و « إرتت » و « واوات » . وقد وجد ذكرى هذا الحادث ممثلا في نقش غائر على صخور الشلال وهو في كنف الإله « خنوم » إله الشلال (٢) .

وكذلك في عهد حكومة الملك « مرزوع » قام « حرخوف » برحلاته الأولى نحو الجنوب كما سبق ذكر ذلك (الجزء الأول ص ٣٨٢) .

(1) Msspero, Etudes de Myth. et d'Arch. Eg. t. VI, p. 36.

(2) Lepsius Denkmaler, t. II, p. 116 b.

ومن منطوق نقوش سياحات « حرخوف » ، يمكن الوصول إلى بلاد « بنت » بالتوغل من الفتين نحو الجنوب الشرقى . على أن العقبة الوحيدة في عدم إمكاننا تتبع « حرخوف » في مخاطرته والبعوث التي قام بها هي عدم معرفتنا بالضبط المواقع الجغرافية التي ذكرها لنا أى أننا لم نوفق للآن إلى تحديد أقصى نقطة وصل إليها في حوض نهر النيل الأعلى .

وعلى أية حال فإن حفائر الأستاذ « ريزنر » في السودان قد أظهرت أن الأسرة السادسة قد بلغت في توغلها حتى (كرمه) عند الشلال الثالث (1) إذ أقيم هناك متجر .

ولا نزاع في أن وعثاء الطريق ومخاطرها كانت عظيمة جدا ، ولذلك كان يعد التوغل في هذه الجهات من أعظم الأعمال الجليلة بالنسبة لهذا العصر . ولذلك يقول « مسبرو » كان الطريق البرى متعبا ولا نهاية له ولم يكن لدى القوم غير الحمير من حيوانات الحمل ، ولم يكن في مقدورها غير قطع مسافات قصيرة ، فكان الإنسان يقضى الأشهر تلو الأشهر في السير في أقاليم ، كانت قوافل الجمال تقطعها في بضعة أسابيع . أما الطرق التي كان المسافرون يقتحمونها فهي التي كان قد حفر فيها آبار للماء على مسافات متقاربة وقد كانت الحاجة لإرواء ظمأ الحمير كبيرة ، واستحالة نقل المياه معهم بكميات وفيرة من الأسباب التي أجبرت المسافر على أن يسلك طرقا ملتوية مرتبكة . وقد كانوا ينتخبون لأجل التبادل ما خف حمله

(1) Reisner, Excav. at Kerma (Harvard African studies) t. V-VI (1923); Kees, *Ægypten*, p. 346.

وغلا ثمنه فكان المصري يحمل معه من بلاده الخرز المختلف الأنواع ،
والمجوهرات والسكاكين الخشنة الصنع ، والروائح الشديدة الشذى ، ولقافات
النسيج البيضاء أو الملونة التي لا تزال تروق في أعين هذه الجهات الإفريقية
حتى الآن . أما أهالي النوبة والسودانيون فكانوا يدفعون ثمنا لهذه الذخائر
التي لا تقدر بثمن في نظرهم ، الذهب على هيئة تبر أو قطع ، أو ريش
النعام ، أو جلود الأسود أو الفهود ، أو العاج ، والودع ، وقطع خشب الأبنوس ،
أو البخور ، أو الصنع العربي . وكذلك كان يهتم المصريون بأخذ القرود
والسنايس التي كان الملوك والأمراء يتسلون بها ويعرضونها موثوقة في قوائم
كراسيهم في أيام المقابلات الرسمية ؛ أما القزم الذي كان من السلع النادرة
(دنج) فكان دائما يطلب ولكن دون الحصول عليه قط .

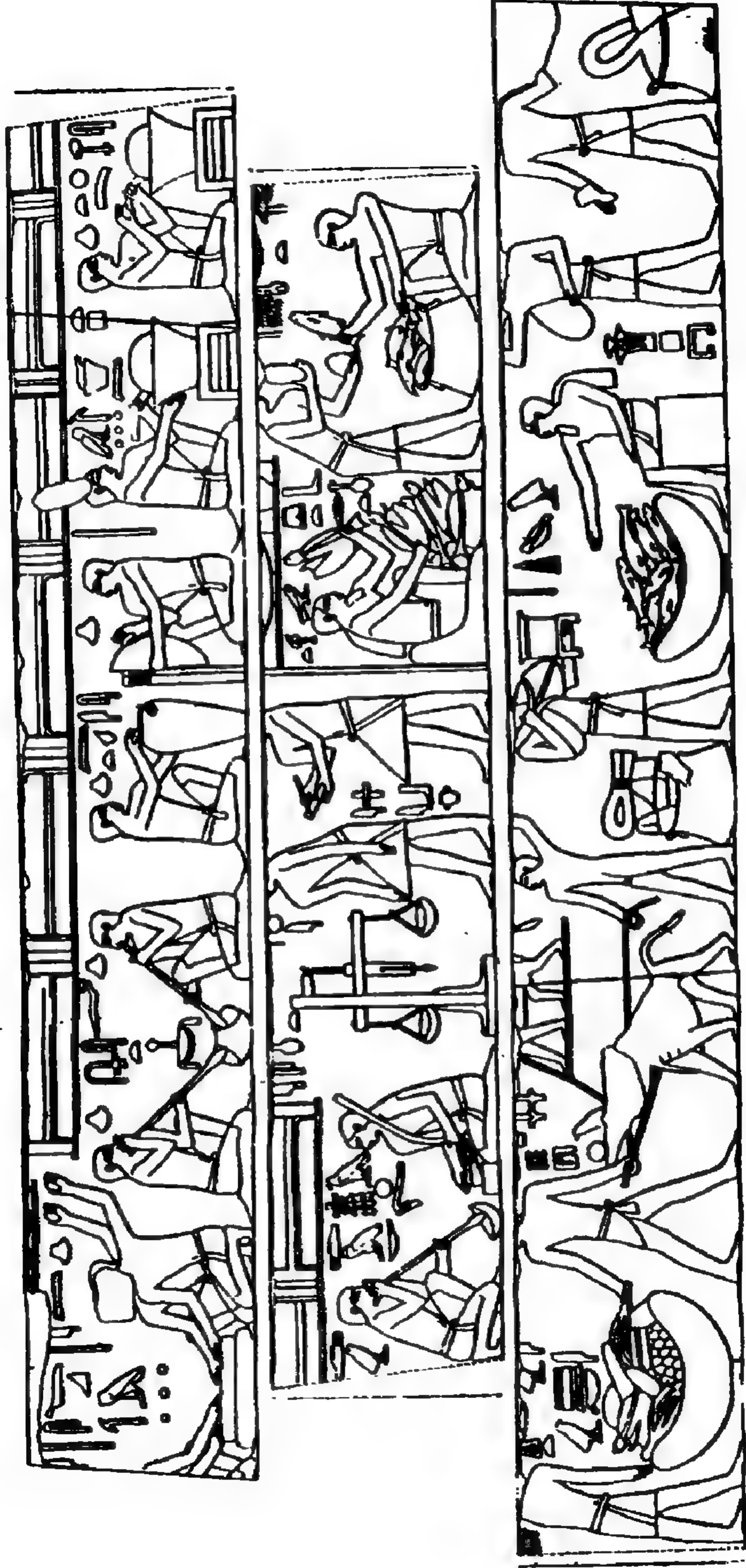
وقد أصبح أمراء « الفنتين » من أهل اليسار وذلك إما بالنهب أو
بالتجارة وصاروا يعدون من عظماء أشراف الصعيد (1) .

وكذلك يقص علينا « يبي نخت » أمير « الفنتين » أعماله العظيمة
في بلاد النوبة (انظر جزء أول ص ٣٨٩ الخ) إذ يقول إنه بناء على أمر الملك
« يبي الثاني » قام بمهاجمة بلاد « واوات » ، و« إرت » الثائرة وذبح من أهلها خلقا
كثيرين وقد أحضر معه رؤساءهم رهينة ، وعددا عظيما من الأسرى
والمالشية وقد قام بعده بفترة « سبني » بحملة لإحضار جثة والده (انظر
جزء أول ص ٣٩١) « نحو » الذي مات في بلاد « واوات » ليخطفه ويدفنه
في بلده الأصلي .

(1) Maspero, Hist. Anc. des Peuples de l'Orient, t. I, p.p. 426;
Pirenne, Hist. des Inst. t. III, p.p. 127 sq.

وقد انتهز هذه الفرصة وحمل مائة حمار من محاصيل هذه البلاد الأجنبية وهذا آخر عمل من نوعه نعرفه في عهد الدولة القديمة وربما ما خفي كان أعظم .

وهكذا نرى أنه منذ العصر الطيني حتى نهاية الدولة القديمة كان ثراء البلاد الاستوائية يجذب المصريين إلى بلاد النوبة والسودان ويحملهم على القيام بعثات بالقوافل محفوفة بالمخاطر . ويلاحظ في خلال تلك الفترة أن الرسل الذين كان يرسلهم الفرعون وأمراء أسوان كانوا يتبعون بلا هوادة سياسة حكيمة قبلتها توسيع نفوذ الفرعون في هذه الجهات ، وقد كان هذا يتطلب من وقت لآخر إرسال حملات تأديبية لإخضاع الثوار كما كان الحال في سيناء وسوريا وفلسطين .



مناظر صناع مصريين يؤدون عملهم وسوق مصرية تجرى فيها المبادلات

الفن

الفنون والحرف الدقيقة في العصر الطيني

وما بعده .

تكلّمنا في عصر ما قبل الأسرات عن بداية ظهور الفن عند المصريين وقد تمثل ذلك في بعض الصور المنحوتة في العاج أو على الأحجار الصلبة كحجر البازلت وغيره ، وكذلك في صنع بعض أوان من الفخار والأحجار الصلبة وغيرها كالديوريت والشيست والمرمر مما يدل على ذوق سليم ، ولكن أمارات الفن الصحيح بدأت تظهر في أوائل عصر الأسرات وأخذت في التدرج والرقى بخطوات واسعة ، حتى بلغت أوجها في عهد الأسرتين الرابعة والخامسة .

ويجب أن يراعى عند الكلام على الفن في القطر المصري في هذه الفترة البحث في جميع نواحيه ، إذ في الواقع لم يكن يجري على نظام معين في التقدم والرقى ، بل كان خاضعا لمؤثرات عدة ، أهمها المكان أو البيئة التي نشأ منها ، والمعتقدات الدينية التي تحيط بهذه البيئة ، وكذلك الفرعون الذي كان يسيطر على البلاد في ذلك الوقت . ومقدار تشجيعه للفنون والحرف والصناعات الدقيقة المختلفة . فقد يحدث أن تكون الفنون مثلا في عهد أحد الملوك نامية زاهرة لتشجيعه لها ، ثم يأتي بعده عدة ملوك آخرين ينحط في أيامهم الفن ، ولا أدل على ذلك مما نشاهد في عهد الملك « زت » (ثعبان) . إذا حكمنا على عصره بمقدار ما وجدناه من الذوق الفني في لوحته ، إذ كانت الفنون في عهده زاهرة ، ثم جاء من بعده خلف انحطت في عهدهم الفنون الجميلة حسب ما وصل إلينا من الآثار التي كشفت ، كما سيأتى شرح ذلك .

فن العمار

لم يبق لنا الدهر من مباني هذا العصر الدنيوية شيئا يذكر ، ولذلك تنحصر كل معلوماتنا عن المباني فيما بقي لنا من مبانيهم الجنائزية من قبور ومعابد وهياكل الخ . ولحسن حظ التاريخ أقام المصريون هذه المباني على حافة الصحراء بعيدة عن مياه الفيضان ، ولذلك بقيت لنا محفوظة حتى عصرنا هذا في الوجه القبلي مما لم توفق اليه أمة أخرى في العالم .

سبب حفظ المباني
الجنائزية

أما مبانيهم الدنيوية فكانت على العكس تقام في وسط المزارع من اللبن ، ولذلك كان اختفاؤها محتما ، لعدم صلابة المادة التي تبنى منها أولا ، ولتعاقب المدينيات ثانيا ، وكان ظهور أول مميزات واضحة في فن المعمار المصري في خلال الأسرتين الأولى والثانية ، انتشار استعمال اللبن في إقامة الجدران وصنع الأبواب والعمد والسقف من الخشب وهما المادتان اللتان كانتا في متناول المصري في ذلك العصر . ولا غرابة في ذلك فطمي النيل الذي كان يخلط ببعض مواد أخرى وخاصة التبن كان صالحا لعمل قوالب من اللبن صلبة ، قاومت عدة آلاف من السنين كما يشاهد ذلك في مدن الأهرام المكشوفة حديثا ؛ إذ نجد أن القالب منها يبلغ طوله أحيانا نحو ٤٥ سنتيمترا في عرض ٢٥ سنتيمترا ولا يزال باقيا على حاله . وقد بقيت أقامة المعابد باللبن تقليدا متبعا في كل عصور التاريخ المصري وذلك لأن المصري كان بطبعه محافظا . يضاف إلى ذلك أن طبيعة البناء باللبن في جو حار كجو البلاد المصرية لا يمتص الحرارة بسهولة كالأحجار الصلبة ، وربما كان ذلك من أهم الأسباب التي جعلت المصري العادي بل الملك أيضا يحافظ على إقامة مبانيه

انتشار المباني باللبن
ومتانتها

الديوية باللبن ، وقد لاحظ المصري هذه النظرية أى أن اللبن موصل ردىء للحرارة فى أمور طبقتها هو بنفسه ، وذلك أنا شاهدنا فى مقبرة العظيم «رع ور» أنه قطع لنفسه مائدة قربان عظيمة من المرمر ووضعها فى مقبرته ، ولكنه لاحظ أن تعرضها لحرارة الشمس يجعل حجرها يتفتت ، فأحاطها بقوالب من اللبن فبقيت محفوظة لنا للآن ، أما الجزء الذى تدعى من حوله اللبن فقد وجد مفتتا . ومن ثم نقل المهندس الممارى المصرى شكل المبانى التى كانت باللبن إلى تلك التى شيدها بالحجر الجيرى عندما اهتدى إلى كيفية استعماله (1) . ولا غرابة فى ذلك فإن المصرى كان دائما يريد أن يمثل مايقع تحت حسه فى حقله ومزارعه ، فى بيته وفى معبده وفى قبره ، وهذا أمرطبيعى وقد لازمته هذه التقاليد طوال تاريخه العظيم رغم التقلبات والرقى والفتوح والمؤثرات الخارجية التى تناولت حياته .

سبب إقامة المبانى
باللبن

بداية استعمال الحجر
فى المبانى

ويرجع الفضل فى ذلك إلى مهندس الممار العظيم «إمحوتب» إذ قد استعملها فى بناية معبدى الهرم المدرج وملحقاته وكذلك فى إقامة قبر «زوسر» نفسه أول ملوك الأسرة الثالثة . وقد استعمل «إمحوتب» على وجه عام قطعا صغيرة من الحجر الجيرى الأبيض فى مبانيه الجميلة الصغيرة الحجم ، أما فى المبانى الضخمة فكان يستعمل فى بنائها قطعا صغيرة كذلك من الحجر المحلى كما يشاهد ذلك فى هرم سقارة المدرج . وبعد حوالى قرن من الزمان من حكم «زوسر» ؛ جاء كل من الملكين «سنفرو»

«إمحوتب» المهندس
المصرى
وبناء هرم سقارة
المدرج

(1) Maspero, Ars Una p. 41.

(وقد بنى محافظا على تمثيل الخشب فى الاحجار حتى أنه كان يمثل جذوع النخل فى أحجار السقف والاعمدة .)

و « خوفو » في بداية الأسرة الرابعة ، واستعملا قطعاً ضخمة من الحجر في بناء الهرم وفي كسوته وفي بناء جدران المعابد ، وقد شوهد أن بعض القطع الفردية يبلغ طول الواحدة منها أربعة عشر متراً في ارتفاع سبعة أمتار (كما يشاهد ذلك في معبد الوادي والمعبد الجنائزي لهرم « خفرع ») ويرجع الفضل في ذلك إلى كثرة استعمال النحاس لتسهيل قطع الأحجار في البلاد كما سنفصله فيما بعد .

استعمال الأحجار
المختلفة في المباني
في عهد الاسرتين
الرابعة والخامسة

وفي عهد « خوفو » بدأ المهندسون المماريون يستعملون حجر الجرانيت الذي كان يجلب من أسوان وحجر البازلت بدلاً من الحجر الجيري في إقامة الجدران وفي كسوتها ، وهذا التقدم في فن المعمار قد استمر في عهد ملوك الأسرة الرابعة الذين خلفوا « خوفو » ، وكان من نتائج استعمال هذه الأحجار الصلبة القطع أن أقام منها الملك « خفرع » معبد الوادي الساذج التصميم ، البسيط المنظر ، وعمده المربعة الشكل ، المصقولة صقلاً بديعاً ورصف رقعة مدخله بالمرمر (١) .

وفي عهد الأسرة الخامسة ازداد استعمال الجرانيت ، وتقن المصري في صنع الأعمدة منه ، كما يظهر ذلك في معبد « سحورع » حيث صنعت عمده على شكل سيقان النخيل وغيرها من الأشكال النباتية ، مما يشعر بحافظة المصري على استعمال الأشكال القديمة التي كانت مألوفة لديه قبل معرفته الأحجار الصلبة .

أما كثافة الجدران - وتلك كانت من المميزات الضرورية في أشكال المباني المقامة من اللبن - فأنها بقيت على حالها في المباني الحجرية التي

(١) كان يستخرج من محاجر قرية من حلوان .

سادت في عهد الأسرة الرابعة ، وكذلك صنعت من الحجر في أواخر الدولة القديمة الأجزاء التي كانت تصنع من الخشب في المباني كالسقف والعمد ، ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن المصري كان يمثل الأبواب المصنوعة من الخشب في الحجر كما يشاهد ذلك في معبد الملك « زوسر » فإن أبوابه كانت مصنوعة من الحجر وإن كانت لا تستعمل ، وذلك محافظة على القديم من جهة ، ورغبة في طول بقائها من جهة أخرى .

تقليد الحجر للأجزاء الخشبية

وقد استعمل « شيسكاف » ابن الملك « منكورع » المباني الضخمة المميزة للأسرة الرابعة بإقامة مصطبة الغريبة الشكل في دهشور « مصطبة الفرعون » (انظر جزء أول ص ٣١٣) ورغم أن الأهرام في عهد الأسرة الخامسة أصبحت أقل حجما وصلابة في تركيبها ، فإن استعمال الأحجار الصلبة كان سائرا نحو الرقي ، وبخاصة في إقامة العمد وتنوع أشكالها ، ونقوشها ، ونحتها وليس هناك أي مجال للشك في أنه كان يوجد في أسوان ، وفي محاجرها مصانع ، ومدارس لإيقان فن النحت وقطع الأحجار وتوريدها للمعابد الملوك في ذلك العصر ، ولا أدل على ذلك من السفن التي كانت تشق عباب النيل محملة من أسوان بالأعمدة ، والشرفات ، والأفاريز المجهزة لتقام في الأماكن التي أعدت لها (انظر جزء أول ص ٣٥٤) .

المصانع المصرية في أسوان لقطع الأحجار وتجهيزها

ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن المصري في ذلك الوقت قد توصل إلى اختراع البكرات التي تستعمل لرفع الأحجار الضخمة ، وقد عثر حديثا في منطقة الأهرام على بكرة كاملة مصنوعة من حجر الجرانيت تدار بواسطة ثلاثة حبال ، وقد وجدت في إحدى منازل مدينة الهرم الرابع ، وكذلك عثر على جزء كبير من بكرة أخرى في معبد الهرم الثاني الجنائزي كما ذكرنا

استعمال البكرات

آتاً (انظر جزء أول ص ٢٨٨) وبهذا الكشف هدم كثير من النظريات التي كان ينسجها خيال المهندسين في كيفية رفع الأحجار إلى ارتفاع شاهق

جبانات هذا العصر ومقابره

كانت الجبانات تقام في هذا العصر كما ذكرنا عند حافة الصحراء ، ولم يختلف القبر في بداية العهد الطيني عن قبر ما قبل الأسرات ، إلا في إدخال بعض التحسينات ، فمثلاً نجد أن في عهد الأسرة الأولى أخذ القوم يقيمون قبورهم على شكل حجرات مستطيلة عظيمة الحجم بالنسبة لقبور ما قبل الأسرات ، وقد زادوا في تنميقها وتجميلها ، فكسوها من الخارج باللبن ، وأحياناً كانت تكسى بكساء ثان من الخشب . وكان يتوصل إلى حجرة الدفن من أعلى أو بواسطة سلم مبنى في صلب المقبرة . وهذا الشكل المستطيل للمقبرة قد أطلق عليه العلماء لفظة « مصطبة » فيما بعد ، وذلك لوجه الشبه بينها وبين المصطبة التي تبنى أمام بيوت الفلاحين في عصرنا هذا ، والمتأمل في الجدران التي تحيط بهذه المصطبة يجد أنها مائلة بعض الشيء . ويلاحظ أنه من أول الأسرة الأولى إلى الأسرة الثالثة كانت جدران المصطبة من كل نواحيها محلاة بكوى على هيئة أبواب أطلق عليها علماء الآثار « الأبواب الوهمية » أو « الأبواب الكاذبة » . وكانت هذه الأبواب تمحذف في المصاطب الصغيرة من الجهة المقابلة للصحراء ، أي من الجهة الغربية . وأحياناً كانت تمحذف من كل الجهات إلا جهة الوادي ، وقد انحصر وضعها في الجهة الشرقية فقط منذ الأسرة الرابعة بدون أي استثناء .

تركيب المقبرة في
العهد الطيني

المصطبة وشكلها

موضع الباب الوهمي

أما القرايين التي كانت توضع حول جثة المتوفى في حجره دفنه في عصر ما قبل الأسرات ، فقد أصبحت الآن توضع في حجرات صغيرة ؛ أقيمت حول حجرة الدفن في مقابر عظماء القوم . وكان القبر يغطى بسقف مصنوع من ألواح خشبية ، ترتكز على كتل عظيمة من الخشب كذلك ، وفوق هذا السقف كان يقام مبنى من الحصى والرمل مغطى بكساء من اللبن ، وقد كشف عن مقابر عدة من هذا النوع في سقارة في السنين الأخيرة ، وحوها بعض مبان إضافية . على أن هذا لايعنى أن المصرى في هذا العهد لم يكن يستعمل الأحجار ، فقد وجد في سقارة أن الحجر كان يستعمل في بناء أجزاء من هذه المقابر ، كالعتب ، واللوحه المائتية وقد عثر على مقبرة من عهد الأسرة الأولى كسيت جدران إحدى حجراتها بالحجر الجيري وكذلك سقفا .

موضع القريان
في القبر

استعمال الحجر في
بعض أجزاء مقابر
هذا العصر

وأول بناء شوهد من الحجر الصلب كان في عهد الملك « ودمو » رابع ملوك الأسرة الأولى ، إذ وجد أن رقعة مقبرته مرصوفة بالجرايت . وفي نهاية الأسره الثانية وجدنا قبر الملك « خع سخموى » مكسوا بأكمله بالحجر الجيري الأبيض . ويلاحظ في هذا العهد أن باب القبر كان يوضع في الجهة الشرقية ، وكان يدل على موقعه لوحان جنازيتان ، وربما كان وجود الباب في هذه الجهة دليلا على انتشار عبادة الشمس ، إذ يستقبلها المتوفى عند شروقها في الصباح .

أول استعمال للحجر
بصفة ظاهرة

وقد كشف حديثا في سقارة عن مقبرة رئيس وزراء الملك « ودمو » ويدعى « حم كا » ، وهى تحتوى على مبنى علوى مؤلف من ٤٢ حجرة خاصة بكل الأدوات المائتية من مأكولات ، وأسلحة وأوان ، وكل

ما يحتاج إليه المتوفى في حياته حسب اعتقاد المصريين في ذلك العهد . وكانت جدران القبر الخارجية ، مزينة بأبواب وهمية ، أو كما يعبر عنها بعض علماء الآثار بواجهة أبواب القصر الملكي . والظاهر أن المصرى كان يعتقد أن لكل من محتويات هذه الحجرات قرينا ؛ أو روحا مادية يتقمصه كما يتقمص القرين جسم المتوفى في حياته الثانية ، وإلا فليس لوجود هذه الأبواب في واجهة كل حجرة أى تفسير آخر ، إذ هى فى الواقع المرشد للقرين عن مكان الجسم الذى لابد من أن يتقمصه ليحيا حياة ثانية .

الفرض من الباب
الوهمى

أما مقابر ملوك هذا العصر فتقسم إلى نوعين الأول مبنى بالبن على شكل مصاطب ضخمة تتألف من عدة حجرات ، وقد عثر عليها فى جهة العراة وقادة . وهى للملوك الأسرة الأولى (انظر جزء أول ص ٢٦٩ الخ) ، وبعض ملوك الأسرة الثانية . والثانى عثر عليه فى « سقارة » بجوار أهرام الملك « وناس » وهى جبانة نحتت فى الصخر تحت الأرض ، وتبلغ مساحتها المكشوفة إلى الآن عدة أفدنة ، ويرجع تاريخها إلى عهد الأسرة الثانية ، إذ عثر فيها على عدة أوان من الفخار مقلدة بسدادات عليها خاتم الملك « ترمو » أحد ملوك الأسرة الثانية ومن المحتمل أن المعبد الذى أشير إليه فى حجر « بلرم » ، والذى بناه هذا الملك من الحجر ، كان مقاماً فوق هذه الجبانة ثم اختفى على مر الأيام ، وهذه النظرية تنطبق على قبره المنحوت تحت الأرض وفيه بقايا آثار من عهده .

أنواع المقابر
فى هذا العصر

كشف جبانة شاسعة
منحوتة فى الصخر
فى سقارة

وكذلك عثر على بقايا أوان من الرمر ، وحجر الشيست ، والديوريت ؛ عليها نقوش من عهد ذلك الفرعون . وعلى قطعة منها ألقاب إحدى نسائه ،

وهذه القطع الصغيرة من الجرانيت ، والبورفير ، والمرمر تشبه في صنعها ما عثر عليه في الهرم المدرج .

ولكن مما يؤسف له جد الأسف أن هذه الجبانة قد استعملت في العصور المتأخرة مرة ثانية وعلى الأرجح في العصر الفارسي ، إذ وجدت فيها آلاف من الجثث المكدسة بعضها فوق بعض ومعظمها محروق . ومن جهة أخرى أوقف البحث فجأة في العام الماضي فلم يتم فحصها وستبقى محتوياتها غامضة إلى أن يتم بحثها بحثا علميا . غير أنه مما لا شك فيه أنها كانت للملوك والعظماء ، وكانت تعتبر بقعة مقدسة حتى أن ملوك الأسرات التي تلت ، وعظماءها أقاموا فوقها وحولها المقابر ، والمعابد ، وبخاصة في عهد الأسرتين الخامسة ، والسادسة .

محتويات هذه الجبانة

أما مساكن الأحياء التي كان لا بد من أن توجد بالقرب من مقابرهم فلم يعثر على شيء منها قط ، للأسباب التي ذكرناها آنفا . ولقد عوضنا عن ضياع هذه المدن ما وجدناه من تخطيط بيوتها على اللوحات التي عثر عليها في مقابرهم . فقد عبر عنها المصري بسور ذي شرقات ، ومن المحتمل جدا أن المدن كانت مقامة داخل سور من اللبن ذي شرقات . ولا يبعد أن قلعة « هرا كنبوليس » (الكوم الأحمر الحالي) التي يرجع تاريخها إلى ذلك العهد كانت محوطة بمجدار مزدوج ، الداخلي منها أعلى من الخارجي . وليس لدينا أية فكرة عن بيوت تلك الفترة ، وكل ما نعلمه أننا عثرنا على قطعة من العاج من عهد الملك « عحا » قد مثل عليها كوخ من القصب مستقوف بجريد نخل . وكذلك نشاهد أكواما أخرى من هذا النوع تقريبا منقوشة على رأس دبوس من عصر الملك « نعرمر » . ولا شك في أن أشكال هذه

شكل البيوت في
هذا العصر

البيوت كانت موجودة في ذلك العصر ثم درجت نحو الرقى كما هو الحال في المقابر .

وفي عهد الأسرة الثالثة نجد أن فن بناء المقابر قد تطور تطورا عظيما جدا وخاصة عند الملوك وعلية القوم ، وافراد الشعب .

ففي أوائل عصر الأسرة الثالثة نجد أنه قد حل محل القبر الذي يعلوه بناء آخر من اللبن في عهد الأسرتين الأوليين بناء آخر من اللبن على شكل مستطيل عظيم الحجم في غالب الأحيان ، ويطلق عليه العامة لفظة مصطبة . ويختلف شكل المصطبة في هذا العهد عنها من قبل فقد أصبح بناء المصطبة مستطيلا وجدرانه من الحجر الجيري المذهب الذي أخذ ينتشر . أما داخل هذا المستطيل فكان يملأ بالحصى وبقايا المباني وكان أحيانا يبنى في هذا المستطيل بعض مبان باللبن لمنع شدة الضغط على السور الخارجى الذى يحيط بالمصطبة .

المصطبة وشكلها

ومنذ ذلك العهد كان لايقام الباب الوهمى إلا في الجهة الشرقية ، وقد تحتوى المصطبة على أكثر من باب واحد . وذلك حسب عدد من دفن فيها ، فإذا كانت زوجة المتوفى مدفونة معه في مصطبه أقيم فيها بابان وهميان ، وكان في العادة باب الزوجة أصغر حجما من باب الرجل ، وقد جرت العادة أن يكون باب الزوجة في الجهة اليسرى من المصطبة وكان الباب الوهمى يصنع من قطعة ، أو قطعتين فأكثر من الحجر الجيري المجلوب من طرة أو من الحجر المحلى حسب ثراء المتوفى ومركزه في البلاط الملكى ، وكان يثبت في أصل الجدار الشرقى من المصطبة كما ذكرنا وقد كان الغرض منه إرشاد القرين أوالروح المادية « كا » إلى المكان

محتويات المصطبة

الذى وضعت فيه الجثة أى حجرة الدفن لتتضم إليها بعد الموت ، إذ بها كان المتوفى يحيا ثانية فى القبر .

وكان الباب الوهمى فى بادىء الأمر خاليا من كل نقش ثم كتب عليه اسم المتوفى ، وبعد ذلك نقش عليه صلوات دينية ، وتضرعت للمتوفى ؛ وبعد ذلك تدرج فرسم عليه المتوفى ، وزوجته وبعض أفراد أسرته ، وبخاصة الابن الأكبر ، الذى أخذ يلعب دورا هاما فى تقديم القرابين لوالده منذ الأسرة الرابعة . وفى النهاية كان يرسم فى الجزء الأعلى من الباب الوهمى المتوفى وحده ، أو هو وزوجته ، وأمامه مائدة قربان صور عليها كل مالد وطاب من أنواع المأكولات ، والشراب .

نقوش الباب الوهمى

وخلف هذا الباب الوهمى كان يوجد البئر الذى كان يؤدى إلى حجرة الدفن ، وكان يصل عمقه أحيانا ، إلى نحو أربعين مترا ؛ وهذه الآبار كان الجزء العلوى منها مبنيا بالأحجار إلى أن يصل إلى الصخر فينحت فيه إلى العمق المطلوب ؛ ثم تنحت فى النهاية حجرة الدفن فى إحدى جوانب البئر . وكانت مساحتها تختلف حسب مقدرة المتوفى . فكانت تبلغ أحيانا ٧ فى ٦ مترا ، وكان يدفن المتوفى إما على رقعة الحجرة مباشرة ، أو فى تابوت من الحجر الجيري ، أو الجرانيت حسب الأحوال . وكان يوضع حول هذا التابوت كل الأثاث المائى الذى كان يظن المتوفى أنه فى حاجة إليه فى آخرته . وأحيانا كانت توجد حجرة الدفن سليمة لم يمساها إنسان من قبل ، ومع ذلك لم نجد مع المتوفى أى أثاث مائى . مع أنه كما نستنتج من ألقابه ودقة صنع مقبرته من عليه القوم . وليس هناك أى شك بعد ذلك فى أن موضوع

مكان حجرة
الدفن ومحتوياتها

كوضع الأثاث المأتمى فى حجرة الدفن ، ان يتوقف على الاعتقادات الدينية لصاحب المقبرة نفسه .

وليس من الضرورى أن يكون عدد آبار الدفن التى كانت تقام فى المقبرة بقدر عدد الأبواب الوهمية التى كانت مثبتة فى الجدار الشرقى منها ؛ وقد يحدث أن يقيم صاحب المقبرة لنفسه بابين وهميين ، ويكتب على كل منهما اسمه وألقابه . وفى هذه الحالة تكون حجرة الدفن موضوعة بينهما فى أعماق الصخر . وأحيانا كان يستعاض عن حفر بئر عمودى فى قلب المصطبة بحفر منزلق فى إحدى جوانب المصطبة يودى فى النهاية إلى حجرة الدفن التى كان موقعها دائما خلف الباب الوهمى . وكان هذا المنزلق يصنع لسبيين ، أولهما لتسهيل إدخال التابوت فى حجرة الدفن ، وثانيهما لتضليل اللصوص ، وفى كلا الحالين سواء أكان البئر ، أو المنزلق مؤديا إلى حجرة الدفن ، فإن اللصوص كانوا يعانون المشاق المظيمة فى الوصول إلى مكان حجرة المتوفى ، وذلك لأن البئر كان يملا بعد الدفن بالبقايا المتخلفة من نحته

ويظهر أن ذلك كان من الطقوس الدينية ، إذ لم نجد قط بئرا قد ملئت فوهته بغير المخلفات التى نتجت من نحته فى الصخر . وهذه من الوسائل التى تساعد الحفار على معرفة عما إذا كان البئر سليما أو سطا عليه عليه اللصوص من قبل . فإذا وجد أن الأحجار الصغيرة والحصى التى تملأ فوهة البئر مكونة كلها من مخلفات النحت لم يخالطها شئ آخر عرف أن حجرة الدفن سليمة . وقد ثبتت هذه النظرية فى الآبار التى وجدت على هذه الحالة . أما الآبار التى نهبت فنجد فى فوهها أجساما غريبة :

علامات حجرة الدفن
التي لم تمس

وهذا دليل على أنها نهيت من قبل . هذا إلى أن حبر الدفن كان يسد بابها بأحجار ضخمة : أما المنزلق فكان يقفل من أوله إلى آخره بأحجار ضخمة من الحجر ؛ الواحدة تلو الأخرى مما يجعل انتزاعها من المنزلق صعبا .

ومن المدهش أن الحفائر التي عملت في منطقة الأهرام حديثا كشفت لنا عن ظاهرة جديدة : فقد وجد بجوار البئر التي تؤدي إلى حجرة الدفن بئر أخرى لا تؤدي إلى حجرة دفن ، وتعم هذه الظاهرة في أكثر من مائة وخمسين مصطبة ؛ أى أنه يوجد بجوار البئر الحقيقية بئر أخرى لا تؤدي إلى حجرة دفن ، ولا يعرف السبب الذي من أجله حُفرت ، وقد ظن البعض أنها بئر قد ابتدئ فيها ولكن لم يكمل حفرها غير أن تكرار هذه الظاهرة يدحض هذا الزعم . وفي اعتقادنا أنها بئر وهمية للمصطبة كما أن لها بابا وهميا ، وكما أنه كان للمصطبة باب وهمي تدخل منه القرينة (الروح الجسمية) لتحل في الجسم وتغذيه حتى لا يموت أبديا ، كذلك كان للجسم ظل « خو » كما يعبر عنه المصريون ، مقره البئر الوهمية يصل منها إلى الجسم الحقيقي ، ويحل محله إذا أتلفه الدهر ، وبذلك كان المصري يحتاط لنفسه من كل الوجوه . وإلا فليس هناك أى تفسير آخر لهذه البئر الوهمية ، على أن وجود هذه البئر كان شائعا في الدولة القديمة ، وبخاصة عند عليّة القوم . كما تدل على ذلك مقابر أهرام الجيزة ، ومنطقة سقارة .

البئر الكاذب
وسبب حفره

السبب في تقدم بناء المصاطب وتعدد

مجراتها .

كان أقارب المتوفى يجلسون أمام الباب الوهمي عند زيارتهم له في أيام

الأعياد والمواسم ؛ ومعهم القرايين التي كانوا يضعونها على مائدة قربان مصنوعة من الحجر ، وبتقدم العمران والمدنية أخذ القوم يفكرون في الاعتناء بمقابرهم عناية تتفق مع مكانتهم في الهيئة الاجتماعية . فبدلاً من الجلوس أمام الباب الوهمي بنوا حجرة للجلوس ولتقديم القربان في صلب المصطبة ، وجعلوا الأبواب الوهمية في جدارها الغربي . أما باب هذه الحجرة فكان في العادة في الجهة الشرقية ، أو البحرية وأحياناً يكون في الجهة القبليّة ولكن لم نثر على باب للحجرة في الجهة الغربية لمقبرة ، إلا في واحدة بجبانة الأهرام ، وهذا كان لضرورة ملحة وهي ضيق المكان . أما الباب الوهمي فكانه لم يتغير قط ، إذ كان دائماً يتجه إلى الشرق ليواجه الشمس عند الشروق ، وتسطع عليه عندما تطلع ولذلك كانت تصنع في القبور المسقوفة فتحة في الجهة الشرقية قبالة الباب الوهمي . بطريقة تجعل أشعة الشمس تنفذ منها في الصباح ، وترسل خيوطها على الباب الوهمي وهذه الحجرة كانت على ما يظهر في بادئ الأمر لجلوس أقارب الميت ، وللقرايين وبعد ذلك نشاهد أن مدخلها أخذ ينقش عليه صلوات دينية ، واسم المتوفى وألقابه على العتب العلوي ثم تدرج بعد ذلك فنقش جانباه الخارجيان برسم المتوفى ثم بأقاربه ، وبعد ذلك نقش جانباه الداخليان بما يشبه ذلك . ولما كان المصري يعتقد أنه سيحيا حياة أخرى في القبر مماثلة لحياة الدنيوية ، أراد أن يمثل كل ما كان يتمتع به في الدنيا على جدران هذه الحجرة التي كانت في الأصل لوضع القرايين ، وجلوس أقاربه ، فأخذ يعنى أولاً ببناء هذه الحجرة ، وكان أحياناً يشيدها من الحجر الجيري الأبيض أو ينحت مصطبة في الصخر محتوية

الزيادات التي أدخلت
في مباني المصطبة

الرسوم التي نقشت
على جدران المصطبة

على حجرة جميلة ، ثم أخذ ينقش على جدرانها كل مناظر الحياة اليومية ، وما كان ينعم به من بذخ وترف . ولما كانت الحجرة الواحدة لا تكفى لذلك أخذ يضيف إليها حجرات أخرى ، وممرات حتى إن واحدا من علية القوم كانت مقبرته تحتوى على أكثر من ثلاثين حجرة . وخص كلا منها برسوم معينة ، إذ كان يعتقد أنه بقوة السحر يمكن أن يتمتع بما تمثله هذه الرسوم . ويرجع الفضل في معرفتنا حياة المصرى القديم الاجتماعية والدينية من كل الوجوه لهذه النقوش ، فنشاهد على جدران هذه المقابر أنواع القرابين التى كانت تقدم للمتوفى ، وما كان يلهو به من صيد البر ، والبحر ، ومعيشته المنزلية وحقله وما فيها من زرع مختلف ألوانه ، ونوعه وكذلك الرياضة البدنية ؛ وغير ذلك مما سنتكلم عنه عند الكلام على فن النحت . وفى الواقع أصبحت هذه المقابر بمثابة بيوت للأموات تؤلف مدينة بشوارعها ، وأزقتها كما يشاهد ذلك فى جبانات الجيزة ، وسقارة ، وكانت هذه المدينة فى عهد الدولة القديمة تقام حول قبر الملك (الهرم) ، وذلك لأن عظماء القوم كانوا يريدون أن يلتفوا حول ملكهم فى آخرتهم كما كانوا يلتفون حوله فى دنياهم .

مقابر الملوك

أما مقابر الملوك فى هذا العصر . فكانت فى أول الأمر تبنى على هيئة مصطبة ، ومعظمها عثر عليه فى (العرابة المدفونة) ، و (نقادة) ؛ وقد عثر على أول قبر بنى للملك « زوسر » فى (بيت خلاف) القرية من العرابة وقد وجد فيه حجرة مبنية بالحجر الجيرى ؛ وهو على شكل

مصطبة حقيقية . غير أنه على ما يظهر لم يرض بأن تكون مقره الأخير ويحتمل أن « إمحوتب » مهندسه الممارى العظيم ، وجه نظره إلى منطقة سقارة المقدسة التي كانت تعتبر من هذا العصر مهبط العبادة ، والمقر الأخير لبعض الملوك كما أثبتت ذلك الكشف الحديثة . هذا إلى أنها كانت على مقربة من محاجر طرة حيث كان من السهل قطع الأحجار الجميلة لبناء القبور والمعابد ، وكذلك كانت قرية من مقر حكمه .

كيفية بناء الهرم
المدراج وسببها

وتدل الظواهر على أنه أقام لنفسه مصطبة من الحجر الجيري المحلي المذهب ؛ ثم بنى فوقها ثانية أصغر مساحة ، ثم ثالثة أقل مساحة من الثانية وهكذا ، حتى بلغ عدد المصاطب سبعا بعضها فوق بعض ، غير أن تعاقب الدهور قد أغار على السابقة منها فحماها من الوجود ، ولم يبق منها إلا ما يدل على أثرها . وقد أطلق على هذا المبنى خطأ اسم (الهرم المدرج) إذ أن شكله لا ينطبق تماما على مدلول الهرم الحقيقي . ولا غرابة في أن « زوسر » رفع بنیان قبره إلى هذا الحد ، لأن في ذلك معنى عميقا ، إذ كان يريد علوا في المات كما كان في الحياة . فكان غرضه أن يشرف قبره على قبور رجال بلاطه ، وعطاء دولته ، التي كانت حول قبره ؛ ويكون أول بناء ترسل الشمس أشعتها عليه من كل جوانبه عند ما تشرق في الصباح ، وبخاصة إذا علمنا أن الإله الأعظم لهذه المنطقة في هذا العصر هو الإله « آتوم » الذي أصبح فيما بعد إله الشمس بكل معانيها .

وقد أسفرت البحوث الأثرية التي قام بها علماء الآثار في الجزء الأسفل الذي تحت الهرم المدرج ، وما حوله عن معلومات ، وثروة أثرية لا تقدر بقيمة . فقد عثر في جوف الصخر الذي تحت مسطح الهرم ، على

حجرة الدفن العظيمة المكسوة بالجرانيت ، وعلى حجرتين مرصعتين بألواح صغيرة من القاشاني الأزرق ، وقد كاتتا معروفين منذ زمن بعيد . وتعد الطريقة الفنية الحاذقة التي نسقت بها هذه الألواح في الملاط باللغة حد الأعجاب والدهشة ودالة على ما وصل إليه القوم من المهارة الفنية في هذا العصر ، وهذه الألواح كان سطحها الخارجى مقوسا بعض الشيء ، وكان في ظهر كل منها ثقبان صغيران ، يوضع فيهما خيط من القنب يلصق بالملاط . وقد أمكن بالألقاب الرسمية التي وجدت منقوشة على إطارى باب الحجرتين ، أن نحدد بالضبط تاريخهما ؛ ولكن أحد علماء الآثار قد شك في أن لون القاشاني الأزرق ، والمهارة العظيمة التي رصعت بها هذه الألواح ، وكذلك كتابة اسم الملك « زوسر الحورى » « نب معات » يرجع عهدها إلى عصر هذا الملك . وفي اعتقاده أن هذه ترميمات ، وإصلاحات عملت في عهد الأسرة السادسة والعشرين ، أى في عهد النهضة المصرية الأخيرة . غير أن هذا رأى قد دحض نهائيا بالكشوف الحديثة ، ولم يأخذ به أحد من العلماء . وذلك لأنه في عام سنة ١٩٢٧ عثر في الجهة الجنوبية من الهرم في جوف الأرض ، على مقبرة أخرى تحتوى على حجرة دفن من الجرانيت ، وعلى عدد عظيم من الممرات ، والحجر المستطيلة الشكل معظمها مزين بألواح من القاشاني مشابهة لما وجد في المقبرة الأولى ، ووجد منقوشا على إطارات الأبواب « تترخت » ، وهو لقب الملك « زوسر » ، ووجد في إحدى الحجر ثلاث لوحات كل منها على شكل الباب الوهمي ؛ وعلى كل مثل الملك « زوسر » . ولا نزاع إذن في أن هذا القبر هو لمؤسس الأسرة الثالثة .

وصف الحجرتان
الثان تحت هرم
زوسر

العثور على حجرة
دفن تحت الهرم
الدرج

وفي عام سنة ١٩٣٧ اكتشف في رقعة إحدى هذه الحجرات ثقب
لصوص يؤدي إلى ردهات أكثر عمقا ، يظهر أن جدرانها كانت مكسوة
بالخشب . وقد عثر على تابوتين من المرمر ، يحتوي أحدهما على صندوق
من الخشب مغشى بورقة من الذهب مثبتة بمسامير صغيرة ، رؤوسها من الذهب
لا يبعد الواحد منها عن الآخر سوى بضعة ملليمترات . ولكن مما يوسف
له أن هذه الورقة كانت قد انتزعها اللصوص ؛ غير أنه لحسن الحظ
بقي منها جزء يمكن به معرفة كيفية تركيبها كما كانت في الأصل . وتدل
البقايا الآدمية التي بقيت في التابوت على أنها لطفلة صغيرة السن ، ويحتمل
أنها بنت الملك « زوسر » .

محتويات الردهات
التي كشف عنها
في الهرم المدرج

وعند ما كان البحث مستمرا في عام سنة ١٩٣٤ لتتبع الممرات المختلفة
التي تحت الهرم المدرج ، لاحظ بعض العمال وجود قطع عدة من أوان من
المرمر وغيره من الأحجار لاصقة في جدران إحدى الردهات ؛ فحول
العمل إلى هذه الجهة ، وفعلا عثر على ردهة مكدسة بأكوام من الأواني
المصنوعة من المرمر ، والإردواز ، والديوريت ، والبورفير ، وأحجار أخرى
صلبة . ثم على ردهتين أخريين مشابھتين للأولى . وقد استخرج من
هذه الردهات الثلاث ما يربو على الثلاثين ألف إناء ، ولكن مما يوسف
له أن سقف هذه الردهات قد خر على الأواني ، فلم يترك منها إلا عدداً
صئيلا سليما . وقد نقلت هذه القطع المشبعة حسب موضعها بكل عناية حتى
يمكن تركيب عدد عظيم منها وإعادة إلى حالته الأصلية .

الأواني المصنوعة
من المرمر وغيره
التي عثر عليها في
جوف الهرم

ولا نزاع في أن الأشكال المختلفة التي وجدت بين هذه الأواني ،
وتعدد أنواع الأحجار التي صنعت منها ، والنقوش الهيروغليفية التي وجدت

على مقاض الكثير منها دالة على أسماء بعض الملوك ، وعظماء القوم في هذا العصر وألقابهم ، كل هذا يجعل لهذه الأواني أهمية عظيمة ، وبخاصة عند ما تدرس درسا علميا مستفيضا ، وهذا طبعا يحتاج إلى بحث طويل ، وعمل شاق بضع سنوات ولكن على الرغم من ذلك فإن أصلح منها يدل على أن صناعة هذا العصر قد بلغت مبلغا عظيما في سلامة الذوق ، والحنق في تقليد صناعة الفخار للحفر في المرمر ، وأعجب هذه الأمثلة أواني المرمر التي كان يصنعها حفار هذا العصر لتحاكي آنية الفخار مثلا فيها الجبال التي كانت تربط بها لتعلق منها . هذا إلى أن الحفار قد تفتن في صنع أشكال جديدة خلاصة النظر لم تكن معروفة من قبل ، وهذه الأواني كانت تصنع بأحجام مختلفة . تبلغ الواحدة منها أحيانا ما يقرب من متر في عرض أربعين سنتيمترا . ولسنا نبالي إذا قررنا حسب رأى أحد الفنانين الحاليين أن الأتاء الواحد كان يحتاج إلى عمل نحات طول العام ، هذا إذا كان الفنان يشتغل بآلات ساذجة كالتي سنذكرها ، أما إذا كانت لديه آلات أخرى تفضل هذه الآلات ، كانت سرعته في إنجاز صنع الإتياء أقل مما ذكرنا .

هبة هذه الاواني

ولم نثر للآن على أهرام الملوك الذين خلفوا « زوسر » مباشرة على عرش الملك . والظاهر أن الهرم الذي ينسب إلى الملك « حوني » في « دهشور » آخر ملوك الأسرة لم يثبت بصفة قاطعة للآن أنه هو المشيد له أما هرم ميدوم الذي بناء الملك « سنفرو » فيشبه هرم « حوني » في الشكل ، أي أنه لا يمكن أن يسمى أحدهما هرما بالمعنى الحقيقي ، وربما سمي هرم « سنفرو » (الهرم الكذاب) .

ويعتقد « ماسبرو » أنه بنى هذا الهرم ليكون مأوى له بصفته ملك الوجه القبلى ، ولكن وجدنا أن هذا الملك قد أقام لنفسه هرما ثانيا فى « دهشور » تنطبق عليه كل صفات الهرم الحقيقى ، قاعدته مربعة الشكل ، وكل وجه من وجوهه الأربعة على شكل مثلث ، وهو مبنى بالحجر الجيري المذهب ، ومكسو بالحجر الجيري الأملس . وظاهر هذا الهرم يجمع بين الفخامة والبساطة فى آن واحد ، ومن ثم بنى خلفاؤه كثيرا على منوال هرمه هذا ، ولا تختلف عنه إلا فى الحجم وفى قطع الأحجار التى كانت تستعمل للبناء وقد شيد بعده « خوفو » و « خفرع » و « منكورع » أهرامهم على هضبة الجيزة . وقد تكلمنا عنها وعا يتبعها من الملحقات فى جينه .

أما الملك « دد فرع » الذى يعتبره بعض المؤرخين أنه جاء بعد « خوفو » (وهناك قول أنه جاء بعد « منكورع ») فقد بنى هرمه فى « أبورواش » لأسباب داخلية (انظر جزء أول ص ٢٩٥) .

معابد الأهرام : لم يكن القبر الملكى يشمل الهرم وحده بل كان لكل هرم معبدان ، وقد تكلمنا عن المعابد وماهىة كل منها فى عهد الأسرة الرابعة وكذلك عن معبد الشمس خلال الأسرة الخامسة (انظر جزء أول ص ٣٢٩ الخ) .

فنا النقش والنحت فى عهد الدولة القديمة

بدأ الفنان المصرى منذ عصر ما قبل الأسرات يظهر مهارة وحذاقا فى حفر الصور ، والأشكال المختلفة على الأحجار الصلبة والمهشة وعلى

العاج ، ولا أدل على ذلك من النقوش التي على لوحة الملك « نعرمر » التي أظهر فيها تفوقاً عظيماً بالنسبة للعصر الذي صنعت فيه ، وقد استمر الفنان يعمل في هذا المضمار بشيء من الدقة عند ابتناق فجر التاريخ في الألواح الجنائزية ، وفي صفائح العاج التي بقي منها بعض ما يدل على مبلغ ما وصل إليه من الإتقان في هذا الفن .

لوحة الملك « زت » وأدق قطعة جمعت بين الرشاقة والانسجام هي لوحة الملك « زت » (الثعبان) المحفوظة الآن بمتحف اللوفر ، وهي لوحة من الحجر الجيري الأبيض ، مستطيلة الشكل ، مقوسة من أعلاها ، وقد نقش على رقعتها صورة الإله « حور » واقفاً على بناء مستطيل يمثل واجهة القصر الملكي يحيط به سور ، وفي وسط هذا السور نقش اسم الملك بعلامة الثعبان وهذا الرسم وهذه الكتابة يرمزان للحماية التي يقوم بها الإله للملك والدولة المصرية ولا شك في أن عين الفنان تجدد في مجموعة رسوم هذه اللوحة الرشاقة في التفاصيل وكذلك البساطة ، والحدق والانسجام ، مما يشعر بالعظمة ويعت في النفس الإعجاب ، ويملاً النظر سروراً وراحة .

على أننا من جهة أخرى نشاهد من هذا العصر لوحات أخرى ليس فيها شيء من الجمال يثير الإعجاب في النفس رغم أنها ملكية . من ذلك لوحة الملكة « مرنيت » المائتية ، ولوحة الملك « بر إيب سن »

أما لوحات الأمراء فكانت في مجموعها خشة الصنع وليس عليها إلا صورة المتوفى ، وأهم مثل من هذا النوع لوحة « سا إف » الذي عاش في عهد الملك « قم » ومن المدهش أن هذه الألواح لم تكن وقفاً على بني البشر ، بل كانت كذلك تقام على قبور الكلاب ، وكانت هذه

اللوحات المائتية في
العصر الطين

الحيوانات تدفن في معظم الأحيان بجوار قبور أسيارها ، وقد عثر على أمثلة من هذا النوع في حفائر شمال سقارة من عهد الأسرة الأولى والثانية ، وقد استمر تصوير الكلاب على اللوحات طوال عهد الدولة القديمة وفي عهد الدولة الوسطى أيضا ، وذلك أن كبار موظفي هذا العصر كانوا يمثلون كلابهم على لوحاتهم الجنائزية لاعتقادهم أنهم سيتمتعون بها في حياتهم الآخرة كما كانوا يتمتعون بها في دنياهم . يضاف إلى ذلك أن لوحات الأقزام العدة التي كشف عنها تدل على أن هذه المخلوقات العجيبة كانت تتمتع بحظوة كبيرة في القصر الملكي وقد أظهر الفنان مهارة فائقة في تصوير هؤلاء الأقزام المشوهي الجسم بكل دقة ، وأمانة ، وحذق يفوق ما كان ينتظر منه في ذلك العصر السحيق في القدم ، ولا غرابة في ذلك فإن هؤلاء الأقزام كانوا أعظم أداة للسحر والسرور والترويح عن النفس عند الملوك في ذلك العصر (١) (انظر جزء أول ص ٣٨٦ الخ) .

أما لوحات العاج الصغيرة التي يرجع تاريخها إلى ذلك العصر ، فلها قيمة تاريخية عظيمة جدا ففيها حاول الفنان أن يتخلص من قيود العصر السابق ، ويظهر في الأشكال التي يحفرها الحركة والحياة وإن كان لم يوفق ويمكننا على وجه عام أن نحكم على فن النقش في ذلك العصر بأنه قد انحط عما كان عليه في عصر ما قبل الأسرات ؛ ولذلك لا يمكننا أن نقارن لوحة منقوشة من هذا العصر الطيني بلوحة من عصر ما قبل الأسرات الحديث مثل لوحة «نعرمر» ، ورؤوس الدبابيس ، وسكين جبل العرق فكل هذه تم عن جمال في الفن ، وحسن في الذوق مما لم يصل إليه فنان العصر الطيني (جزء أول ص ١٠٧)

لوحات مائمة للكلاب
والأقزام

قيمة اللوحات الفنية
في هذا العصر

(1) Devies, Rock Tombs, of Sheikh Said, p. 12.

سبب انحطاط الفن
في هذا العصر

والواقع أن هذا الانحطاط الفني لم يأت بسبب عدم ذكاء الفنان ، بل جاء نتيجة ميله لحب الاختراع ، والتجديد ، والخروج عن القيود القديمة ، إذ كان يحاول أن يرسم مناظر مفقدة تحتاج إلى -مران فني كبير ، حتى تبرز في عالم الفن قطعا فنية جميلة . وفي الحق يمتاز هذا العصر الطيني بتركه الصور التقليدية المقيدة بالموضوعات الخاصة ، التي كانت شائعة الاستعمال في عصر ما قبل الأسرات ، وأخذ يبحث عن فن جديد قوى راق ، ولا شك في أنه ليس هناك ما هو أدعى إلى الإعجاب والسرور من عصور التكوين الفني التي نرى فيها الفنان يتلمس طريقه في مجاهد الفن المتشعبة ليتهدى في النهاية إلى السبيل القويم ، بعد أن يضل مرات عدة في تجارب تنتهي بالفوز أخيرا .

على أن الكتابة المصرية القديمة نفسها كانت أكبر ساعد للمصري لينبغ في فن الرسم والنقش ، لأن طرق كتابتها ، وتمدد رموزها يحتاج لمهارة عظيمة قوامها الفنان السابقان ، إذ كانت المصرية عند تدوينها على الأحجار يرسمها أولا ؛ وبعد ذلك ينقشها ، وهذه الكتابة كلما كانت إشارات أقرب محاكاة للطبيعة ، كان جمالها أبهى ، وأعظم ، ولذلك كانت تعد من الفنون الجميلة . ورغم أن الكتابة في ذلك العصر لا تزال في طفولتها فإن تصوير الملك (ثعبان) ، وهو يمثل بحرف زاي في اللغة المصرية القديمة قد نقش على لوحته بإيتان مدهش بالنسبة للكتابة في العصر الذي نحن بصدده ويمكننا أن نتبع الخطوات التي خطتها الكتابة المصرية القديمة تدريجا نحو الرقي مما نشاهده على أختام الموظفين في ذلك العصر ، واستمرارها في طريق الإيتان حتى بلغت القمة في عهد الأسرتين الرابعة ، والخامسة ،

الكتابة المصرية
عامل من عوامل
تقدم الفن

إذ كانت تظهر الحروف منقوشة على الأحجار في مقابر بعض عظماء الدولة وكان كل حرف منها بمثابة قطعة فنية فريدة في بابها ، إذ كان ديدن الفنان في ذلك أن يحاكي الطبيعة في الطيور ، والأشكال المختلفة التي كانت تتألف منها الأشارات المصرية القديمة .

الابداع الفني الذي
ظهر في النقوش التي
على جدران المقابر

ولا شك في أن أكبر مجال أظهر فيه الفنان المصري براعته ، في النقش والتصوير . هي المناظر التي مثلها على جدران مصاطب الدولة القديمة ، وفي معابد ملوكها . وكانت بداية هذه النقوش ما كان يكتب على اللوحة التي كانت توضع أمام باب قبر المتوفى إذ كان يقتصر فيها أولا على اسم صاحب القبر ، ثم أخذت تتدرج شيئا فشيئا بتطور نظام الأسرة الاجتماعي (كما سيأتي بعد) ، حتى أصبحت تنقش كلها برسوم ، ومناظر تمثل صاحب القبر ، وزوجته ، وأسرته . ولما نمت الإعتقادات الدينية ، وازدادت ثروة البلاد الداخلية ، وأصبح القبر مؤلفا من عدة حجرات ، نقش على جدرانها رسوم ، ومناظر تمثل مواضيع مختلفة عن الحياة . وهذه الرسوم كانت في بادئ الأمر يقصد منها تأدية وظيفة نفعية محضة ، ولكن بقدر ما كان يظهره الفنان من المهارة والدقة في تصوير الأشياء على حقيقتها كانت المنفعة أكثر وأهم ، ولأجل أن نصل إلى كنه هذه المنفعة يجب أن نشرح الاعتقاد الديني الذي من أجله كانت تنقش هذه المناظر على الجدران . وتفسير ذلك أن المصري كان يعتقد أنه سيحيا حياة ثانية في قبره ؛ وكان يعتقد أن الإنسان مركب من عناصر مختلفة نذكر منها الجسم المادي « زت » ثم القرينة ، وهي الروح المادية ، وكانت تنضم إليه في قبره بعد مماته ، وبها كان يمكنه أن يعيش في قبره ويخرج منه نهارا ، ويعود

إليه ليلا ثم الروح النورانية ، وكانت تصعد إلى السماء وتنضم إلى عالم الأرواح ، الذى كان يمثل بالنجوم بالقرب من الإله « رع » إله السماء . وقد جاء فى متون الأهرام ما يثبت ذلك .

وكان هم المصرى طوال حياته أن يعمل لما فيه راحة قرينه فى قبره ، وذلك كان يتطلب أشياء عدة ، فكان لزاما على المصرى أن يحافظ على جسمه بعد الموت من التلف أو العطب ؛ لأنه إذا حدث فيه تشويه ، أو تمزيق ، لا يمكن للقرين أن يتعرف عليه ، ولذلك كان يصنع لنفسه قبرا فى أعماق الصخر ، ويضع جسمه فى تابوت ضخيم الغطاء محكم الإغلاق بعد أن يحنطه ، ويكفنه فى لفائف عدة ، ومعه كل حليه . وأثاثه الذى كان يتمتع به فى الحياة الدنيا ، أو الذى صنع خاصا بقبره ، وزيادة فى الحيلة كان يوضع بجانب تابوت المتوفى رأس من الحجر الجيرى الأبيض ، أو الجرانيت تحاكي رأس المتوفى بكل دقة ممكنة . فإذا ما جاء القرين إلى القبر لينضم إلى المتوفى كانت هذه الرأس المرشد له فى القبر . ولكن القرين لم يكن يكفيه ذلك بل كان يتطلب ما يعيش عليه ، وينقل منه للمتوفى . من أجل ذلك كان المصرى يحبس الأوقاف ويعين الكهنة للإشراف عليها ، وليكونوا فى خدمة الروح المادية « كا » ، (أى القرينة) ويعدون لها الطعام كل يوم عند الباب الوهمى للقبر الذى كانت تخرج وتدخل منه كل يوم لتأخذ الطعام من مائدة القربان التى كانت توضع أمامه . وهؤلاء الكهنة كان يطلق على كل منهم « حم كا » (أى خادم القرين) . وبدون هذه القرابين كانت القرين لا تنضم إلى المتوفى فى قبره وبذلك يفنى فناء أبديا ، وكان المصرى يحتاط

الاحتياطات التى كانت
تتخذ للمحافظة على
الروح المادية

لنفسه من جهة أخرى لتبقى حياته دائمة في القبر ، وذلك أنه خوفاً من أن يبلى جسده أو يمزق فتضيع معالمه ، وتضل القرين الطريق للوصول إلى معرفته ، كان يصنع لنفسه تمثالا يعتنى فيه بدقة تصوير ملامح الوجه لتحل فيه القرين بدلا من الجسم الحقيقي ، وستكلم عن ذلك فيما بعد . ورغم كل هذا كان المصري لا يهدأ له بال لما عساه أن يحل به في قبره بعد موته إذا أهل خدام القرين تقديم القرбан له ، أو اغتصبت الأوقاف التي حبسها ليقدم منها القربان كل يوم للقرين ، فكان يلجأ إلى فنون السحر وقوتها ، إذ كان يعتقد أن كل ما يرسم على قبره من مأكل ومشرب ، ومن مناظر مما كان يتمتع به في حياته ، وكتابة قوائم الطعام الذي كانت تتوق إليه نفسه ، كل ذلك يمكن أن ينقلب إلى صور حقيقية يتمتع بها في آخرته . وذلك هو السر في نقش هذه المناظر على جدران القبور فلم يكن يرسمها لحبه الفن أو سروره بالمناظر الجميلة ، بل لحبه التمتع بمحاثها بالطرق السحرية . ولعمري لست أدري من أين جاء الزعم بأن المصريين كانوا يعملون لآخرتهم طوال حياتهم ؛ وأنهم كانوا يفضلون الحياة الأخرى على الحياة الدنيا . فالأمر بالعكس إذ أن مجرد اعتقاد المصري بأن الحياة الأخرى صورة مطابقة للحياة الدنيا ، ورسمه في قبره كل ما كان ينعم به في دنياه ، وحمله كل ما كان يتمتع به من أثاث وحلى مدة حياته ليكون إلى جانبه في القبر ، لا كبر دليل على تعلقه بالحياة الدنيا ومتاعها وعدم قدرته على تصور الآخرة بصورة أخرى . ذلك أن أعظم ما كان يتمناه المصري في حياته عمراً طويلاً ومن كل ما تقدم يمكننا أن نحكم بأن المصري قد خصص كل جهوده

الاعتقاد في قوة
التأويذ السحرية

المصري كان متعلقاً
بالحياة الدنيا أكثر
من الآخرة

لخدمة القرين ، فنتج عن ذلك أنه توصل بطريق غير مباشر إلى النبوغ في فنى النحت والرسم وفن المعمار . فأقام المقابر الضخمة للمحافظة على جسمه لتعود إليه القرين ، وصنع التماثيل الجميلة لتحل فيها القرين ، وبنى المباني العظيمة لخدام القرين . ويوجد برهان مادي يثبت لنا تمسك المصرى القديم بأمر روحه المادية « الكا » واعتقاده أنه بدونها لا يحيا حياته الثانية ، وأن الجسم الفقير من أفراد الشعب في عهد الدولة القديمة كانوا يدخلون لفظة « كا » أى (الروح المادية) في تركيب أسمائهم مما لم نشاهده في أى عصر من عصور التاريخ المصرى بعد . فمثلا نجد اسم « سخم كا » (روحى قوية) و « جنى كاي » (وجدت روحى) وهكذا .

وظيفة الكا أو الروح
المادية

وربما كان السبب فى ذلك أن المصرى فى هذا العهد كان لا يزال قريبا من المادة ، ولم ترتق فكرته إلى الأمور الروحانية التى تخرج عن دائرة المادة ، ولذلك فأتى أظن أن المصرى كان فى الأصل يعتقد فى أن الروح مادية ثم تدرج فى الرقى واعتقد أن هناك أخرى روحانية وهى « با » ؛ فسار على تقاليد وحافظ على اللفظين وهما « الكا » وهى الروح التى تدل على طفولة عقله ، والثانية « البا » التى تبرهن على نضوج فكره ، وربما كان هذا سببا فى أننا نجد اندماج لفظة « با » فى أسماء الأعلام المصرية فى الدولة القديمة قليلا ، على حين أن اندماج لفظة « كا » فى الأعلام فى هذا الوقت كان كثيرا جدا كما ذكرنا . يضاف إلى ذلك أن الملوك فى عهد الأسرتين الخامسة والسادسة كانوا يعطون عناية خاصة للروح المادية « كا » أكثر مما كانوا يعطونه للروح النورانية « با » ولا أدل على ذلك من ذكر كلمة « كا » فى متون الاهرام

الفرق بين الروح
المادية والروح
النورانية

أكثر من ضعف ذكر كلمة « با » إذ الواقع أن الأولى ذكرت نحو ١٠٤ مرة أما الثانية فقد جاء ذكرها نحو ٤٧ مرة .

ولم يظهر على النقوش المصرية رسم القرين لأفراد الشعب ولا للأثراء ، ولكن وجدنا رسم قرين الملك عند ولادته ، وهي صورة طبق الأصل منه وهي لا ترى في الحياة الدنيا ولكنها تكون مع المتوفى في قبره ، وتعيش على المادة ولذلك سميتها الروح المادية . وكثيرا ما نشاهد القرين في شكل تمثال منحوت في أصل الباب الوهمي بخطو إلى الأمام خارجا من القبر ليأخذ الطعام من المائدة التي أمامه لغذاء المتوفى .

على أن بعض علماء الآثار يعتقد أن كل هذه المناظر قد مثلها صاحب المقبرة إرضاء لمزاجه الخاص ، ولما تبعه من السرور في النفس من الناحية الفنية ، وهذا طبعا لا يتفق مع المعتقدات المصرية سواء أكانت دينية أم سحرية ، ولا يكون هناك أى معنى لتمثيل المتوفى على الباب الوهمي جالسا على كرسيه وأمامه مائدة القربان عليها كل مالد وطاب لغرض اللذة الفنية فحسب ، ونرى تحت هذه المائدة نقشا يمثل ألفا من الخبز وألفا من الأوز ؛ وألفا من النبيذ ، وألفا من الجمعة ، وألفا من الثيران ، ويطلب صاحب المقبرة إلى زائر قبره والمارين به أن يقرأوا هذه القرايين . أليس ذلك لاعتقاده بأنها متى تليت أمكن أن يتمتع بحقائقها ؛ وذلك عن عقيدة ثابتة راسخة في أعماق نفسه ؟ ! . ولماذا كتبت قوائم أنواع الطعام وألوانه بما كان يبلغ أحيانا أكثر من ثمانين صنفا فوق صورته ، وقد بالغ بعضهم فجعلها تصل إلى مائة صنف ؟ ! ولماذا رسمت حاملات القرايين وحاملوا المأكولات من ضياع المتوفى وأوقافه الخاصة وكلهم متجهون في سيرهم نحو

المقبرة قاصدين الباب ؟ ! كل هذه الرسوم والنقوش لا يمكن أن يكون القصد منها مجرد الزينة فحسب بل كان هناك سر أعمق من ذلك وغرض نفى أكثر مما تصوره ، وذلك هو الاعتقاد بالحياة مرة أخرى ، وأن التعاويذ السحرية كان لها القدح الملقى في تحويل هذه الرسوم إلى حقائق يتمتع بها المتوفى .

النقوش التي
على جدران المقابر
ليست للزينة

ومما يؤكد أن المصرى لم ينقش هذه الرسوم في حجرات مقبرته لمجرد الزينة أننا وجدنا في إحدى مقابر عظماء القوم في جبانة أهرام الجيزة واسمه « حنبى » ويلقب بمدير الوثائق الملكية ورئيس كتاب الضياع الملكية ، أن صاحب المقبرة لم يشيد لنفسه حجرة للقرايين بل اكتفى بالباب الوهمى ، ولكنه من جهة أخرى صنع لنفسه تابوتا من الحجر الجيري الأبيض وزينه بالنقوش والأبواب الوهمية ، وكتب على حافته اسمه وألقابه ، ثم كتب على جدار تابوته الغربى من الداخل بالمداد الأسود قائمة بالمأكولات التي كانت تكتب عادة في حجرة القرايين فوق الباب الوهمى . يضاف الى ذلك أننا عثرنا على بعض مقابر في جبانتي أهرام الجيزة وسقارة قد نقشت على حجر دفنها كل ما يحتاج إليه من أوان ، وأثاث ، ومناظر أخرى ولم ينقش شئ من ذلك على حجرات القربان ، وأعتقد أن فى كل ما ذكرنا ما يدحض القول بأن هذه المناظر كانت تعمل للزينة والفرح فحسب ، لأنها فى الحالات الأخيرة عملت فى أعماق حجرة الدفن فلا يمكن لأحد أن يتمتع بجمال قها قط إلا نابشو القبور للبحث عن الكنوز أو الحقائق التاريخية .

يضاف إلى ذلك أن حرص المصرى على الاستفادة من هذه المناظر فى

حياته الأخرى جعله يفكر في صنع مجموعة عظيمة من الآلات النحاسية على شكل نماذج يبلغ عددها أحيانا أكثر من مائة قطعة كالتي عثر عليها حديثا في مقبرة ابن « تي » ، أو المجموعة التي عثر عليها للأمير « خنوم با إن » ابن « خفرع » ، أو لحفيد الملك « منكورع » في منطقة حفائر الجامعة بالأهرام ، فقد كانت هذه المجموعات الأولى من نوعها إذ عثر عليها في مقابر لم تمس بعد .

ومن ذلك يمكننا أن نستخلص أن المتوفى كان يحملها معه في قبره ليستعملها هو لنفسه أو ليستعملها أصحاب الحرف والصناعات عند الحاجة إليها في الآخرة كما كان يحتاج إليها في الدنيا ، والا فليس لوجود هذه الآلات مع المتوفى في القبر أى تفسير آخر .

سبب وضع النماذج
النحاسية وغيرها
مع المتوفى في القبر

على أن فكرة البعث هذه ثانية وقدرة السحر على قلب الصور إلى حقائق لم تكن وليدة أفكار عامة الشعب ، بل نبتت أولا عند الملوك ، ثم أصبح القوم فيما بعد على دين ملوكهم ، ولذلك نجد أن أقدم تعاويذ سحرية يرجع عهدها إلى ما وجد على جدران أهرام ملوك الأسرة الخامسة ، والمطلع عليها يجد أنها ترجع إلى عصور بعيدة في القدم ، وكذلك كان يظن بعض علماء الآثار أن المناظر متعددة التي نجدها على مصاطب الدولة القديمة كانت خاصة برجال البلاط وعامة الشعب ، وأنها لا توجد على الأهرام ومبانيها . ولكن الكشف الحديثة أثبتت أن كل هذه المناظر قد نقلت من معابد الملوك ومقابرهم ، إذ عثرنا أولا في المعبد الجنائزى للملكة « خنت كاوس » كما عثرنا في هرم « خوفو » على بعض نقوش جنائزية ، ومناظر لبعض الأعياد والاحتفالات ، ولكن أعظم مجموعة

المناظر التي على
جدران المقابر منقولة
عن مناظر معابد
الأهرام

من هذا النوع عثر عليها في الطريق المؤدى من المعبد الجنائزى إلى معبد
الوادي للملك « وناس » وذلك أنه وجد على جدران هذا الطريق المسقوف
مناظر تمثل كل الحياة الاجتماعية بأبهى مناظرها (انظر جزء اول ص ٣٥٣).
والآن بقى علينا أن نذكر كلمة عن المهارة الفنية فى نحت هذه المناظر
وتسقيها .

تدل الأحوال على أن الفنانين فى هذا العصر كانوا ينكرون ذاتهم
رغم ميل المصرى إلى حب الظهور والفخر بأعماله العظيمة وتقسها على
قبره . ومن الأمثلة النادرة التى نجد فيها الفنان يضع أمضاءه على أعماله ،
الفنان الملكى « بتاح خو » وهو الذى نحت المناظر التى على مقبرة أمير
مقاطعة الأشمونين « ورايرمن » الذى نحت لنفسه مقبرة فى جهة (الشيخ سعيد)
ويشاهد أن الفنان (١) قد رسم نفسه بين موظفى قصر هذا الأمير وكان
من بين الذين جلسوا على مائدته .

الفنان المصرى فى
ذلك العهد وندورة
ذكر اسمه على أعماله

ولا يبعد أن يكون مجبرا على عمل ذلك ، ولقد وجدنا أحد الفنانين
الذين تقشوا المناظر على طريق « وناس » قد كتب اسمه تحت أحد المناظر
والفنان الذى أبدع نقوش الأمير « نب إم آخت » ابن الملك « خفرع »
قد ذكر اسمه على هذه المقبرة . وكذلك عثرنا على مقبرة فى جبانة الجيزة
ذكر لنا فى نقوشها ذلك الفنان أنه هو الذى نحت مناظر كل مقبرة الأمير ،
والواقع أن مناظرها آية فى الإبداع ودقة الفن .

وكان الفنان فى هذا العصر يتبع إحدى طريقتين فى إبراز صوره :
الطريقة الأولى - كان يجهز سطح الحجر الجيرى ، ثم يرسم عليه المنظر بالمداد

(1) Davies, Rock Tombs, p. 18, pl. IV.

الأحمر أو الأسود بعد أن يقسمه حسب قانون الرسم ، وبعد ذلك ينحت المنظر بارزا أو غائرا حسبما يتطلب صاحب المقبرة ؛ ثم يأخذ في وضع التفاصيل التي يبرز بعدها المنظر في صورته الأخيرة .

الطريقة الثانية : كانت يتبع فيها وضع طبقة من الجص على الجدار الذي يريد تصوير المنظر عليه ، وكان يضطر إلى ذلك عندما يكون الجدار من اللبن أو من الحجر المحلي الهش الأصفر اللون ، وبعد ذلك يرسم مناظره بالألوان المختلفة . وقد عثر على مقبرتين من هذا النوع في جبانة الجيزة ولم نستطيع حفظهما لأن الملاط الأبيض الرقيق سقط واختفت معه الرسوم ، غير أننا تمكنا من نقله ، ولا يزال بعض هذا (الفرسكو) موجودا للآن يشهد بدقة رجال الفن ومهارتهم في مقبرة الأميرة « حمت رع » التي تنسب إلى بيت « خفرع » والتي أبدع الفنان في تصويرها في ثوبها الجميل ذي الألوان الزاهية التي تمثل عدة أنواع من الخرز المختلف الألوان ، مما يجعل الإنسان يقف مذهوشا أمام ما وصل إليه الفنان في ذلك العصر البعيد . هذا إلى أن الطيور التي رسمت في هذه المقبرة محاكاة ألوانها الطبيعية لشاهد عدل على ما وصل إليه من تذوقه للفن وجه لمحاكاة الطبيعة في أجمل صورها . وقد أظهر الفنان في المناظر والصور التي نقشها على الحجر الجيري الأبيض كل الأوضاع التي نشاهدها في الطبيعة للنبات ، والحيوان ، والإنسان ، ولم يستعص عليه إلا رسم الإنسان على الجدران من الوجه فإنه لم يفلح فيه قط كما سيأتى ذكر ذلك ، وكان دائما يرسمه بصورة جانبية حتى اقتضاء العصر الفرعوني . ويجب هنا أن نشير إلى كثرة هذه المناظر وتعددتها في مصاطب عليا القوم ، وكبار رجال الدولة مما يشعر

طرق رسم المناظر
على الجدران

بتحسن حالتهم الاجتماعية ، وازدياد ثروتهم مما يتفق مع الهبات الملكية
التي كان يمنحهم إياها الفرعون بمثابة وقف من أراضي التاج لما قاموا به
من الخدمات لجلالته ولذلك ترى أن كل واحد منهم ، بعد أن أصبح
ذا ثروة طائلة يقيم لنفسه مقبرة عظيمة ، ويحبس عليها الأوقاف الجمّة
ويباهى بذلك في النقوش التي يحفرها على جدران حجرات مقبرته . وقد بلغ
فن النقش الفائر والبارز قمته في أواسط الأسرة الخامسة ، إذ نشاهد الخدق
في رسم تفاصيل أجزاء الطيور ، والحیوان والنبات ، وانسجام الألوان
مع النوق الفائق في توزيعها مما يسبغ على هذه المناظر حياة وروحا ،
يعتان في النفس سرورا يفوق ما يشعر به الانسان أمام المناظر الطبيعية
الحقيقية .

تعدد المناظر واتقانها
في هذا العصر
يشعر بثروة أصحابها

تمثال القرين « كا » أو الروح المادية والتمائيل

الآخري التي توجد في قبر المتوفى

في العهد الذي وصلت فيه حجرات القربان إلى قمتها من الكمال في
النقش والرسم ، قضت المعتقدات الدينية أن يصنع المصري لنفسه قبل مماته
تمثالا أو تماثيل توضع معه في القبر كما كانت توضع أحيانا لأفراد أسرته ،
تعرف بتمثال أو تماثيل القرين وذلك لأجل أن تحمل فيه روحه المادية إذا
حدث لجثته تلف أو عطب ، أو اختفت لأي سبب ما حتى يحيا منها
في قبره . والظاهر أن هذه التماثيل أخذ عددها في الزيادة تبعا لثراء
صاحب المقبرة لأنه كان يخاف أن يتلف بعضها فلا تجد القرين لما مأوى
فكان يصنع عددا عظيما منها بصفة احتياطية حتى أتا وجدنا أحد عظماء

سبب صناعة تماثيل
القرين وغيرها مما
كان يوجد مع المتوفى

القوم قد صنع لنفسه أكثر من مائه تمثال فكان في ذلك يحاكي الملوك
كما ظهر منذ عهد الأسرة الرابعة أن عليه القوم أخذوا يحتاطون لأنفسهم
احتياطاً آخر ، وذلك أنهم زيادة على رسم أصحاب الحرف والصناعات
على جدران مقابرهم لخدمتهم في الآخرة ، أخذوا ينحتونها من الحجر
الجيري الأبيض ، ويصنعونها من الخشب ، فنجد بجانب المتوفى تماثيل
عجائته ، وصانع فخاره وصانع جعته ، وخبازته ، وطاهيته ، وطحانه . كل
هذه التماثيل كانت تصنع بشكل خشن مما يمكن الفنان الحديث أن يلمس
فيها صدق التعبير ، إذ لم تكن خشونتها لانتسابها إلى حالة
القوم ، بل لتمثيل شكلهم وزيمهم الحقيقي وتقاطيعهم الغليظة ، وهنا نجد أن
الفنان كان يرخي لنفسه العنان ، فكان يمثل كل صانع بجلسته الخاصة
وأمامه المادة التي يصنعها ممثلة معه في الحجر . وقد كانت مستلزمات الفن
تفرض عليه أحيانا أن يخرج عن حد المألوف في وضع التمثال ، ولا أدل
على ذلك من الوضع الذي وجدنا عليه تمثالا جالسا أمام موقد وقد لفت
رأسه تفاديا من الدخان الذي كان ينبعث من الموقد ، وهذا من عجائب
الفن المصري من جهة الخروج عن الأوضاع المألوفة . وكانت كل هذه
التماثيل توضع في أماكن خاصة عرفت فيما بعد بالسرايب أو بيت
« الكا » (الروح المادية) ، وكانت توضع في بادي الأمر - كما
يشاهد في ميدوم - في الكوة الكبيرة التي توضع فيها القرايين ، وكانت هذه
على شكل باب وهمي وتعتبر بأنها مقصورة ليحفظ فيها تماثيل المتوفى ،
وربما قل الأفراد ذلك عن الملوك الذين يصنعون لأنفسهم تماثيل
للقرين .

أما في مقابر الجيزة التي من عهد بناء الأهرام فكانت توضع التماثيل في حجرات بنيت خصيصا لها وراء الباب الوهمي . وفي مقبرة الكاهن المرتل « كاعبر » المعروف (بشيخ البلد) ، وضع تمثاله وتمثال زوجته في كوة عريضة في الجدار الجنوبي لمجرة خارجية ربما كانت مقصورة . وفي عهد العظيم « حسي » كانت التماثيل توضع في نهاية حجرة القربان ، وفيما بعد أصبحت للتماثيل حجرة خاصة منفردة في قلب المصطبة بالقرب من حجرة القربان . والواقع أنه في عهد الأسرتين الخامسة والسادسة كانت حجرات التماثيل توضع في أي جهة من جهات القبر ، كما يستدل على ذلك من السرايب التي عثر عليها في حناجر الجامعة المصرية بأهرام الجيزة ، إذ نجد سرايب في الجهات القبلى والشرقية والبحرية والغربية ، غير أنها جميعا كانت بالقرب من الباب الوهمي أو حجرة الدفن . وقد عثر للكاهن الأعظم « رع ور » على أكثر من خمسين سردابا ومقصورة ، بعضها مكشوف ، وبعضها مغطى ، وبعضها في واجهة المصطبة نفسها . والسرداب بالمعنى الحقيقى المعروف لنا هو حجرة مشيدة من جهاتها الأربع ومسقوفة وليس فيها أى منفذ غير ثقب صغير يمكن لزائر المصطبة أن يرى التمثال منه وهذا الثقب يوضع في الجدار الخارجى للسرداب ويختلف ارتفاعه من سطح أرض الحجرة . باختلاف حجم التمثال ، فإذا كان التمثال صغيرا عمل في أسفل الجدار ، وإذا كان مرتفعا عمل في أعلى الجدار بحيث يمكن أن يراه الناظر كله ، وأحيانا يكون في السرداب عدة تماثيل في صف واحد فيكون عدد الثقوب بقدر عدد التماثيل وهكذا . يضاف الى ذلك أن هذا الثقب كان من وظائفه أن يوصل البخور لتمثال المتوفى .

أنواع السرايب
وأوضاعها المختلفة
ووظيفتها

تاريخ فن صناعة التماثيل منذ أقدم العصور إلى نهاية الدولة القديمة

لم نثر على تماثيل ذات قيمة فنية بالمعنى الحقيقي في عصور ما قبل التاريخ للآن ، وقبل أن نتكلم عن تماثيل عصر الدولة القديمة ، يجدر بنا أن نبحث عن القواعد التي كان لزاما على كل فنان أن يتبها في صناعة تماثله ، ثم الخطوات التي كان يقفوها لإخراج تماثله كاملا .

والظاهر أن صانعتها لم تكن منتشرة في هذا العهد ، وكذلك في العهد الطيني لم تكن كثيرة . ويدل ما كشف منها حتى الآن على أن الفنان في هذا الوقت كان يقصر همه على صنع تماثيل صغيرة من العاج لم تحفظ لنا الأيام منها إلا أمثلة قليلة العدد ، وهي في جملتها على جانب عظيم من الإتقان والرشاقة ، ولا أدل على ذلك من دمي المرأة العارية المحفوظة الآن في متحف اللوفر ، وأقدم تماثيل بالمعنى الحقيقي يرجع تاريخها إلى نهاية الأسرة الثانية والواقع أن البحوث الفنية تدل على أن المصري كان لابد له أن يسير حسب قوانين وقواعد معينة عند تصوير التماثيل الإنسانية في الحجر . وكان أول من أشار إلى وجود قانون النسب في نحت التماثيل الآدمية المصرية هو العالم « لبيوس »⁽¹⁾ وقد حقق نظريته ماعثر عليه من الرسوم التي لم تكن قد تمت بعد على الجدران ، والتي لم تزل خطوط النسب الحمراء ظاهرة عليها ، وهذه الجدران يرجع عهدها إلى الدولة القديمة . وقد وجدت مثل هذه الرسوم كذلك على سدران مقابر (بنى حسن) المنحوتة في الصخر ، ويرجع عهدها إلى

(1) Lepsius, Denk. Erg. t. I, p. 234.

أمراء المقاطعات في عهد الدولة الوسطى . فيلاحظ في مصاطب الدولة القديمة أن النسب كانت تقاس برسم خط عمودي في محور الصورة الآدمية المنحوتة على الجدار وذلك بنقط وخطوط متقاطعة ، أما المقاييس الجانية فكانت تعلم بنقط على خطوط متقاطعة حمراء ، وهذه الخطوط الحمراء تدل على أن ارتفاع الشكل البشرى الواقف من أخمص القدم إلى منبت الشعر أو الشعر المستعار الذى على الجبهة كان مقسما إلى ست وحدات ، وكان طول القدم الأيسر الذى كان يرسم وهو يخطو دائما إلى الأمام في التماثيل والصور يقدر بأكثر من وحدة بقليل أما طول القدم الأيمن فكان يقدر بوحدة فقط ، أما ارتفاع الجسم إلى الركبة فيقدر بوحدين ، وإلى منبت الرقبة بخمس وحدات . أما التمثال الجالس فكان طوله خمس وحدات من أخمص القدمين إلى منبت شعر الرأس .

وفي عهد الدولة الوسطى شوهد أن الصور الإنسانية التى لم يتم فتحها كان مرسوما عليها شبكة مستطيلة الشكل من الخطوط الحمراء ، وحدتها تكاد تكون على وجه التقريب ثلث الوحدة القديمة ، وعلى ذلك كان يعتبر ارتفاع الشكل الآدمى الواقف ١٨ وحدة ، والشكل الجالس ١٥ وحدة . ولما كان الشكل يخطط على هذه الشبكة ، فقد سبب ذلك اختفاء المقاييس الجانية التى كانت ترسم على الشكل في الدولة القديمة . ومن المحتمل أن شبكة الخطوط المستطيلة كانت تستعمل في الدولة القديمة للمناظر المعقدة ؛ وقد بقيت مستعملة حتى نهاية التاريخ المصرى . وقد تغير عدد الوحدات كرة أخرى في عهد عصر النهضة أى في الأسرة السادسة والعشرين ، فكان ارتفاع الشكل الواقف مقسما إلى ٢١ وحدة إلى منبت الشعر ، و ٢١ و ١/٤

إلى قمة الرأس .

وعلى أية حال فإن عين الفنان كانت تستعمل في تخطيط الأشكال سواء أكان ذلك في الطريقة التي كانت متبعة في عهد الدولة القديمة ، أو في الطريقة التي كان يستعمل فيها نظام شبكة الخطوط فيما بعد ، وتوجد لدينا أمثلة عدة لإعادة الرسم كرة أخرى عند ما كانت عين الفنان لا ترتاح لمحاو له الأولى . وكذلك كانت ترسم تفاصيل الوجه والملابس بخطوط حمراء وسوداء ، ولكنها كانت تختفى أثناء المسح في هذه التفاصيل . وكانت التحسينات الأخيرة تتوقف على مهارة الفنان ، أما درجات حسن نقش الصورة ، ونحتها فكانت ناشئة من دقة عين الفنان ، وتعود يده مساعدة عنه له في انسجام الشكل . ومن أجل ذلك نجد اختلافات في مقاييس الأشكال المنقوشة ، وبخاصة في التفاصيل مما يخرج بها عن تلك النسب الأصلية التي اتخذت في الأصل أساسا .

قانون رسم الاشكال
الآدمية في مختلف
العصور

ويمكن مشاهدة ذلك عند فحص النقوش والصور التي لم تتم بعد على الجدران وغيرها . ويجب أن نلاحظ هنا بنوع خاص أن قانون النسب لم يكن عاتقا في سبيل رسم الأجسام الخارجة عن حد المؤلف ، أو الأجسام التي لم تكن في هيئة طبيعية معتادة كالأقزام ، وباني السفينة المسن ، والراعى النحيل الجسم الذي وجد مرسوما في مقابر (مير) ، أو الأشخاص الذين يحاربون البهائم ، أو الذين ينحنون ليحملوا أثقالا على ظهورهم أو البحارة الذين يحارب بعضهم بعضا في سقنهم ، أو العجانة ، أو الراقصة أو أصحاب الحرف ، والصناعات .

ويظهر أن تماثيل العصر الصاوى ، وما بعده حتى العصور الرومانية

في مصر ، التي لم يكن قد تم صنعها بعد ، كانت تتبع نظام المقاييس الذي كان شائعا في عهد الدولة القديمة ، وبخاصة إذا طبقناه على تماثيل الملك « منكاورع » . وذلك على رغم أن الامثلة التي لدينا من هذه العصور قليلة ؛ ونماذج التحت في هذا العصر المتأخر نشاهد فيها - رغم اتباعها نظام الدولة القديمة - بعض أمثلة استعمال فيها نظام شبكة الخطوط المقسمة إلى ٢١ وحدة ، وقد وجدت محفورة أو مرسومة على ظهر التمثال ، ومعها كذلك علامات خاصة لتفسير تفاصيل معينة ؛ ولا شك في أن القانون كان المقصود منه أن يستعمل في التماثيل ، والنقوش على حد سواء .

الطرق الفنية في صناعة التماثيل

رأينا فيما سلف أن الفنان المصري كان يتبع قواعد فنية منظمة عندما يريد تصوير الأشكال البشرية ، أو نحتها على الجدران ، أو التماثيل ؛ ولذلك كان لزاما عليه أولا أن يحفظ قانون النسب كما ذكرنا آنفا ؛ ثم يتبع خطوات معينة ، الواحدة تلو الأخرى في نحت تمثاله حتى يبرز في صورته النهائية ، كاملا من كل الوجوه . ولا شك في أن هذه الخطوات كانت تختلف باختلاف المادة التي يصنع منها التمثال تمثاله . وباختلاف درجة مهارته ، وما لديه من العدد والآلات .

وكانت تماثيل القرين تنحت في قطع من الأحجار ، أو في جدران حجرة القرين المقطوعة من الصخر أو من الخشب . ولحسن الحظ قد عثرنا على تماثيل كثيرة لم يتم صنعها ، وكذلك على تماثيل قد بدأ الفنان

المواد التي يصنع منها التمثال

في حفرها إلى درجة محدودة ثم أوقف العمل فيها فجأة فلم يتم صنعها ،
يضاف إلى ذلك أننا عثرنا على تماثيل أخذ الفنان ينحتها في جدار مقبرة
منحوتة في الصخر للكاهن « زدا » من عصر الملك خفرع في جبانة الجيزة ،
وهذه التماثيل تمثل لنا الخطوات التي كان يتدرج فيها الفنان لا يرازمثالها كاملاً^(١)

ف نجد في لوحة رقم ١ في المرجع المذكور أن المثال حفر أولاً في
الصخر هيكل التمثال دون أن يبين فيه أى تفصيل ، وفي اللوحة رقم ٢
نجد أنه أخذ يظهر أعضاء الجسم بشكل مختصر دون أن يعطى لكل
منها ما يميزها بالتفصيل ، وفي لوحة أخرى نجد أن المثال أخذ يظهر
أولاً ملامح الوجه بكل دقة ، وذلك لأنه كان يعتبر أهم جزء في التمثال ،
أما الجزء الأسفل منه فلم يتم صنعه . وفي نفس اللوحة رقم ٢ نجد أن
الفنان أظهر تفاصيل كل الجسم بكل وضوح ودقة ، ولا تزال الخطوط
الحمراء التي كانت ترشده ، باقية إلى الآن في التماثيل التي لم يتم صنعها .
ومن ذلك يتضح لنا أن النحات كان يضع التصميم أولاً برسم
الهيكال البشرى مختصراً ، ثم يأخذ في إظهار التفاصيل مبتدئاً بالرأس
فالصدر ، ثم الأطراف . وهذه المصطبة تكاد تكون الوحيدة من نوعها
من مصاطب الدولة القديمة ، التي يمكننا بواسطتها دراسة الخطوات التي
كان يضعها الفنان لنحت التماثيل في أصل الجدران الصخرية ، ومن
المحتمل أن هناك طرقاً أخرى لا نعلمها .

أما في تماثيل الملوك فقد كشف الأستاذ « ريزنر » في معبد الملك
« منكاورع » عن عدد عظيم من التماثيل التي لم يتم صنعها بعد بدرجات

الخطوات التي كانت
تتبع في نحت التمثال

(1) Excavations at Giza, Vol. I, p. 86, pls. LIII, LIV.

مختلفة ، وسبب ذلك أن هذا الملك كما ذكرنا آفا توفي قبل أن يتم بناء هرمه ؛ ومن التماثيل التي وجدت في معبد غير كاملة يمكننا أن نتبع الخطوات التي قام بها الفنان لإخراج تمثاله كاملا . وقد دل الفحص على أن الأشكال أو الحالات التي وجد عليها التمثال أثناء صنعه من البداية إلى النهاية ثمانية ، سنذكرها هنا لعلها تكون ذات فائدة لفنانى عصرنا .

الحالة الأولى : تمثل لنا قطع الحجر بمقاييسه المطلوبة ، فإذا كان المطلوب تمثالا جالسا ، يظهر من الحجر شكل غير واضح للكرسى أو القطعة التي تمثل مقعد التمثال ، ولا يظهر هنا في الحجر أى تمييز للوجه أو الذراعين ، أو الساقين . وبعد ذلك ينقر سطح تلك الكتلة الحجرية كأنها دقت بحجر صلب ، ثم تسوى بعض هذه الثغرات أو الثقوب المتخلقة عن الدق ، وفي أما كن كانت تملأ بمجينة تشبه مسحوقا معجوننا بالماء . وتسوية سطح هذه الكتلة بهذه الكيفية كان بطبيعة الحال يعمل بواسطة حجر خاص لذلك . ويلاحظ في هذه الحالة كذلك أن على الكتلة الحجرية خطوطا يبلغ طولها بين اثنين وخمسة مليمترات في العرض رسمت باللون الأحمر ، وهى تحدد الرسم المختصر للذراع الأيمن . ولا شك في أن كبير الفنانين فى المصنع كان يرسم كل خطوة فى نحت التمثال ويترك الأعمال السهلة التى لا تحتاج إلى مهارة ليقوم بها تلاميذه كما هى القاعدة المتبعة فى الصناعات المصرية فى كل العصور .

الخطوات التى اتبناها
التمثال فى خمر التماثيل
الملسكية

الحالة الثانية : فى هذه الخطوة كان يتقدم التمثال فى تشكيل تمثاله خطوة جديدة إلى الأمام فيرسم الوجه ، والذراع الأيمن ، والمقعد الذى يرتكز عليه التمثال بهيئة مختصرة . غير أن سطح الحجر كان لا يزال ظاهرا

فيه أثر العلامات والتسوية التي كانت في الحالة الأولى ، وكذلك الخطوط الحمراء التي تحدد الوجه ، والذراع الأيمن وجزءا من الذراع الأيسر .

الحالة الثالثة : في هذه الحالة ينحت الفنان الذراع الأيمن باليد مقفلة والوجه بلحيته ، والشعر المستعار بشكل واضح يمكن تمييزها به ؛ على حين أن الذراع الأيسر باليد مفتوحة يظهر هنا واضحا بعض الشيء ، وكذلك تظهر بنوع خاص الخطوط الحمراء التي ترشد الحفار إلى الحافة العليا للمساعد الأيمن الذي لم يكن قد تم تدويره بعد ، وكذلك إلى مقدمة الحافة اليمنى لقاعدة التمثال .

الحالة الرابعة : في هذه الحالة نشاهد تقدما محسوسا في إظهار مميزات أجزاء الرأس . فيلاحظ أولا أن الكتلة الحجرية التي سيشكل منها الصل الملكي أخذت تبرز ؛ وكذلك يلاحظ أن الجزء الأوسط من الوجه قد مهد إلى أربعة أسطح مستوية لتألف منها الجهة . ونهاية الأنف ، والسطح الذي من طرف الأنف إلى طرف الذقن ، وآخر من الذقن إلى نهاية اللحية ، وكذلك جانبا الوجه فإنهما عولجا بنفس الكيفية غير أن انحدارهما لم يظهرهما كبيرين أو مميزين . أما الخط الذي يفصل الساقين فقد نحت وميز بخطوط طويلة بوساطة حجر معد لذلك ، حافته منحنية بعض الشيء ، ويلاحظ هنا وجود بقايا خط أحمر على الذراع الأيمن .

الحالة الخامسة : في هذه المرحلة يلاحظ أن ملامح صاحب التمثال أخذت تظهر وتميزه عن غيره . وهنا يلاحظ أن الثغرات ، والتكاسير البسيطة لا تزال ظاهرة على سطح التمثال ، ولكن بحالة أقل مما كانت عليه من قبل ، والظاهر أن الضربات التي كانت توجه للسطح في هذه الحالة

لجعله مستويا كانت تضرب برفق حتى لا يكسر الأنف أو اللحية أو غيرها من أجزاء التمثال البارزة ، التي كانت عرضة للتشيم بسرعة . أما عملية المسح الخفيف ، وتسوية سطح التمثال فلا بد من أنها كانت تستعمل بوجه خاص لهذه الحالة وما بعدها ، ولم يشاهد هنا أى أثر للخطوط الحمراء .

الحالة السادسة : هذه الحالة هي التي تمثل الهيئة الخشنة التي يظهر فيها التمثال قبل أن يصقل فلا يظهر على سطحه الكسور البسيطة ، وعلامات المسح والتسوية التي كانت في الحالة الخامسة . وهنا يظهر التمثال صورة ناطقة لصاحبه ؛ غير أن أصابع القدمين ، واليدين لم تكن قد شكلت بعد بهيئة واضحة ، وكذلك الخطوط التي حول العينين كانت لا تزال مبهمة . وهذه التفاصيل الدقيقة كانت تعمل على ما ظهر خلال الصقل النهائي للتمثال .

الحالة السابعة : وهي التي يمكن أن يطلق عليها حالة بروز التمثال في هيئته التامة ، وهنا نشاهد أن التمثال أخذ يصقل بعض الشيء ، وذلك بإزالة كل آثار التنقير الخفيف ، ثم ظهور التفاصيل نوعا ما ؛ ولكن من الواضح أن عملية تجميل التمثال يمكن أن تستمر حسب نوع جودة الصنعة التي يرغب في أن يكون عليها التمثال في حالته النهائية ؛ ولا نزاع في أن هذه المرحلة هي التي يجب أن يصل فيها التمثال إلى درجة الإيقان الفني ؛ ولكن جمال مجموعه كان يتوقف على مقدار الوقت والعمل اللذين كانا يصرفان للوصول إلى هذه الغاية .

الحالة الثامنة : وهي خاصة بالتماثيل التي كان ينقش عليها اسم صاحبها وألقابه بعد صقلها صقلا بديعا ، والظاهر أن عملية الصقل الأخيرة كانت تتم باستعمال مادة جافة من المؤكد أنها مادة السفرة التي نستعملها الآن في صقل الأشياء .

وقد كان من أعظم ما يهتم به الفنان بعد الفراغ من عمل تمثاله أن يلونه بالألوان التي كان مصطلحاً عليها في عهد الدولة القديمة . وذلك أن البشرة عند النساء كانت تلون باللون الأصفر (من المدهش أننا وجدنا تمثال الملك « زوسر » ملونا باللون الأصفر ، والسبب في ذلك مجهول) ، أما الرجال فكانت بشرتهم تلون باللون الأحمر القاتم . والشعر المستعار كان لونه أسود فاحم ، والملابس لونت في معظم الأحيان باللون الأبيض ، أما المجوهرات التي كان يتحلى بها الرجال والنساء على السواء كالقلائد ، والأساور ، والحجول ، فكانت تلون بألوان مختلفة أهمها الأزرق المائل للخضرة لتحاكي لون الفيروز ، واللون الأحمر الباهت ليمثل لون الكرنيلين ، والحزام الذي كان يلبسه التمثال كانت ألوانه مختلفة تدل على حسن ذوق وانسجام في تركيب الألوان . وأحسن أمثلة لدينا في تلوين التماثيل يحتمل أن يكون تمثالا « رع حتب » وزوجته « نفرت » المحفوظان بمتحف القاهرة . وقد كان من الصعب جدا تمييز نوع الحجر الذي عمل منه التمثال عند ما يكون التلوين متقنا . على أن الدقة في نحت التمثال المصنوع من الحجر الجيري الأبيض كان يغطي عليها أحيانا بالتلوين .

ويرى فنانو عصرنا في تلوين التماثيل القديمة أن المصري كان لا يتذوق فيه ، ولا يقدره ، ولا نزاع في أن التمثال المصري في ذلك العصر لم يكن يحسب حساب التقدير الفني لتمثاله ، وذلك لأنه رجل حقائق ، جل همه أن يبرز قطعه الفنية حسب أفكار ذاك العصر ، أى أن كل غرضه أن يحصل للرجل الذي يمثله على صورة حياة مستقبلية هنيئة فكان لزاما عليه أن يجعل صورته طبقا للشخص لتحل فيه

روحه المادية بعد الموت ؛ ومن أجل ذلك كان تلوين التماثيل ضروريا ،
فإذا وضع اللون في ذلك الوقت بذوق يخالف ذوق عصرنا في استعمال
الألوان فإنه كان على أية حال يقوم بأداء ما تطلبه عين الرجل المصرى ،
وعقله حتى يصير تماثيل الرجل أو المرأة صورة كاملة . على أنه رغم ذلك
لم يكن يوضع إلا التزر اليسير من هذه التماثيل في حجر المقبرة أو المعبد
المكشوفة ، بل بالعكس معظم هذه التماثيل في الدولة لقديمة كانت توضع
في السرايب فلا يراها أحد بعد ذلك .

تكوين التماثيل
وضرورتها

ومن المدهش أن بعض التماثيل التي كانت تصنع من الجرانيت ،
والشيست ، والاردواز ، قد لوحظ فيها بعض الألوان ، وبخاصة حول العينين
وفي تخطيط الشارب أى أن التلوين وصل إلى هذه التماثيل أيضا .

يضاف إلى ذلك أن ملابس المتوفى كان يراعى فيها كل الدقة .
فكان كل شخص لابد أن يرتدى ملابسه التي كان يتقمصها مدة حياته
وإلا ضلت في معرفته الروح المادية . وقد كان من جراء اتباع الدقة في
إلباس كل تماثيل لباسه الأصلي أن عرفنا شيئا كثيرا عن ملابس القوم
في هذا العهد مما لم يكن في مقدورنا معرفته بدون ما وصل إلينا من
التفاصيل التي وجدناها على التماثيل مرسومة بكل دقة وأمانة . ولم نجد من
التماثيل العارية ، إلا قطعة من تماثيل لامرأة من عهد الأسرة الرابعة في
حفائر الجيزة ، وكانت من حظيات أحد ملوك الأسرة الرابعة . على
أننا وجدنا كثيرا من صور الأطفال المنحوتة على جدران المقابر
ترسم عارية . وقد عثر كذلك على بعض تماثيل الرجال قد نحتت
كذلك عارية .

تمثيل ملابس التماثيل

تماثيل الخشب

كان الفنان المصرى مرتبطا فى عمل تماثله على وجه خاص ، بالمادة التى كان يصنع منها التمثال . ولذلك نجده دائما يهتم بتلك المادة ويتخذ لها الشكل الذى يمكن أن تظهر فيه جميلة أنيقة فمثلا نجد أن الخشب والعاج والمعادن بين الأشياء التى لم يلق مقاومة فى تمثيلها بخلاف ما كان يعانيه مع الأحجار الصلبة ، لأن مادتها كانت سهلة التشكيل حتى أنه كان فى صنعها يتحرر من القيود ، والمصاعب التى كانت تعترضه فى نحت التماثيل من الأحجار الصلبة . غير أنه رغم ذلك كان مقيدا فى صنعها بقيود أخرى . فمثلا لم يستطع أن يصنع من العاج إلا تماثيل صغيرة الحجم كتمثال « خوفو » الذى عثر عليه « بترى » فى (العراة) رغم أن صناعته معتنى بها إلا أنه من الوجهة الفنية ليست له قيمة عظيمة .

سهولة نحت التمثال
توقف على المادة
التي يصنع منها

وكانت مصر فى ذلك العهد - كما هى الحال فى كل عهودها - لا تنبت أشجارا صالحة لعمل التماثيل ؛ أما ما كانت تشتريه من الشام من الأخشاب كالصنوبر والأرز والسرو ، فكان يصل إليها قطعا صغيرة ، أو كتلا لا يمكن عمل تماثيل كبير من قطعة واحدة منها . ولذلك كان يصنع الجذع والرأس ، وأحيانا الفخذان من كتلة واحدة ، أما النواغان فكانا يصنعان على حدة ويلصقان بالتمثال ، وكانت الحال كذلك فى الفخذين فى بعض الأحيان ، وكانت أجزاء التمثال تربط بوساطة (خوابير) دقيقة من الخشب مستطيلة الشكل ؛ ثم يغطى كل هذا بملاط خفيف يأتى فوقه اللون الذى

كيفية صناعة تماثيل
الحشب

يلون به التمثال ، وبذلك تختفى كل المعالم التي تشعر بأن التمثال مركب من أجزاء منفصلة عن بعضها . وذلك هو السر في أننا نجد التماثيل الحشب يدها اليسرى ممدودة إلى الأمام قابضة على عصا يتوكأ عليها . على حين أن هذا الوضع لا نجده في التماثيل المصنوعة من الحجر بل نجد دائماً أن ذراعى التمثال ملصقتين بجسمه مما يشعر بأن التمثال لم يكن حراً في تشكيل التماثيل الحجرية كما يريد لأن المادة كانت تقيد .

كيفية صناعة التماثيل
من المعدن

أما في المعادن كالذهب والنحاس والبرنز ، فكان يمكن صنع قطعة عظيمة واحدة منها إذ كانت صناعة صب المعادن متقدمة في هذا العصر ، والظاهر أن الصانع وقتذاك لم يجسر إلا على صب قطع صغيرة ، وربما كان من السهل عليه صب التماثيل الصغيرة ، وأشكال التعاويذ . أما التماثيل الكبيرة فكانت أجزاء منها تصنع بطرق المعدن . والأجزاء التي كانت تحتاج إلى عناية ودقة في الصنع كالوجه واليدين والرجلين ، تعمل لها قوالب خاصة تصب فيها . أما الجذع والذراعان ، والفخذان فكانت تصنع بالطرق ثم تتركب فوق قالب على الشكل المطلوب ، وتربط بمسامير وبهذه الطريقة صنع تماثلاً « يبي الأول » الموجودان بمتحف القاهرة . فرباط التمثال كان مصنوعاً من الحشب أما منطقته فكانت مصنوعة من الذهب ، ولباس رأسه من اللازورد ، وقد اختفى بطبيعة الحال الحزام ولباس الرأس لأن قيمتهما المادية أغرت اللصوص على انتزاعهما ورغم سذاجة الطريقة التي اتبعت في صنع هذين التمثالين والتمزيق الذي أصابهما فإنهما يعدان من أهم القطع الفنية التي يمكن وضعها في مرتبة تماثيل « خفرع » المنحوت من الديوريت .

الفرق بين صناعة
تمثال من الخشب
وآخر من الحجر

ولا يفوتنا أن نلفت النظر هنا إلى أن المصري نفسه كان يشعر ويعلم تمام العلم أن صناعة التماثيل من الخشب هي أسهل بكثير من صناعة التماثيل الحجرية ، ولا أدل على ذلك من المنظر الذي عثر عليه في مقبرة العظيم « وب إم فرت » وهو يمثل الحرف والصناعات ، وفيه فنانان أحدهما يصنع تماثلاً من الخشب والآخر يصنع تماثلاً من الحجر ، فالنحات الذي في الجهة اليسرى من المنظر يقول لرفيقه : « لقد انقضى شهر منذ الوقت الذي بدأت فيه العمل في التمثال الذي في يدي » فاجابه المثال الثاني الذي على يمينه قائلاً : « إنك رجل أحق في حسابك . أما كان الأجدر بك أن تقول هل الخشب مثل الحجر (؟) » يقصد بذلك أن صناعة الخشب لا تحتاج إلى العناء والوقت اللذين يتطلبهما النحت في الحجر (١) . كنا قد تكلمنا فيما سبق عن الأدوار التي كان يربها التمثال المنحوت قبل أن يصبح كاملاً ؛ ولنا أن نتساءل الآن عن الآلات التي كان يستعملها النحات المصري لإخراج تماثله . فنذ نهاية عصر الأسرات كانت الآلات النحاسية معروفة في مصر ، وكانت تصب في قوالب بسيطة مفتوحة ، ثم بعد ذلك كانت تشكل بالطرق ، وهي باردة بمطارق من الحجر المصقول وهذه الآلات كانت قليلة العدد في ذلك العهد السحيق ، وأهمها المقص الذي لا مقبض له ، وكان يرهف أحياناً من طرفيه ، أما طوله وسمكه فكانا يختلفان حسب الأحوال ، ومنها السكين المسطح العريض الذي ظهر منذ بداية العصر التاريخي ، ثم القدوم الذي كان يستعمل في صنع الأخشاب .

ولما كشف المصريون البرنز الذي هو خليط من النحاس ، والقصدير

(1) Excav. at Giza II, p. 194-195.

انتشرت الآلات المعدنية بكثرة وأدخل عليها تحسينات كثيرة ، فظهر خلافا
للآلات القديمة ؛ الآلة المديية التي كانت تستعمل لقطع كتل الحجر العظيمة
من الصخر ؛ والمناشير ذات الأحجام المختلفة ، والمثقاب الذي
كان يدار بالوتر . وهذا الأخير كان يستعمل في التماثيل التي تصنع
من الخشب ، غير أنه لم يكن آلة مجدية في الحجر ، وبخاصة
أحجار الجرانيت والديوريت التي كان يستعملها المصريون بكثرة في صنع
تماثيلهم وأوانيتهم .

الآلات التي كانت
تستعمل لنحت التماثيل

ومن المدهش أن المصريين لم يهتموا - أو على الأقل لم يظهروا
اهتمامهم - بالحاجة إلى اختراع آلات صالحة للحفر في الحجر أحسن مما كان
لديهم ؛ وقد بقيت الحال كذلك إلى أن اختلطوا باليونان فاستعملوا الآلات
التي تستعمل الآن .

وعلى ذلك فالمصريون لم يدخلوا تحسينات في الآلات المعدنية للحفر
في الحجر ، وذلك يعني أنهم لم يكونوا في حاجة إلى ذلك ، وأنه كان
لديهم آلات متقنة لهذا العمل .

والحقيقة أن سكان وادي النيل قبل معرفة النحاس كانوا ينحتون
الأحجار الصلبة جدا ويصنعون منها أواني . ففي ظهور المدنية الأولى في
عصر ما قبل التاريخ ، كان يستعمل البازلت ، والحجر السنتي (نسبة إلى
أسوان) ، وحجر البورفير ، وحجر الحية . ثم الديوريت ، وقد بقيت
الأحجار المختارة حتى عصر الأهرام . وفي العصر الثاني مما قبل التاريخ
كانت الأواني لها مقابض تثقب في الحجر لتعلق منه ، ولكن منذ بداية
الأسرة الأولى . عند ما أصبحت الآلات النحاسية شائعة ، لاحظنا أن

استعمال الأحجار الصلبة يقل على حين أن حجر الشيست والمرمر أصبحا
كثيرى الاستعمال ؛ وذلك لأن الأوانى كانت تصنع بطريقة ميكانيكية
بواسطة المثقاب والوتر ، ولكنها أقل جودة من صناعة ما قبل الأسرات .
ولدينا أمثلة من المهارة التى تفوق الوصف التى كان يظهرها مصرى ما قبل
الأسرات فى صناعة الظران ، ولم يبقه فيها أحد فى المدينيات الحجرية من
كل الوجوه ، وعند ما كان يريد الصانع المصرى أن يحضر الأوانى من
الحجر الصلب كان يستعمل سحاقيات من الحجر تستعمل فوق السفرة
(حجر من) . أما الأوانى التى كانت تصنع من الحجر اللين فكان يستعمل
لتفريغها المثقاب المصنوع من الظران الذى كان على شكل هلال . وعلى
ذلك كان السبازج (السفرة) معروفا منذ أقدم العصور مع أن موطنه
الأصلى (كنوسوس) أحد جزر أرخبيل اليونان ، وهو أحد حجر بعد الماس ؛
ولذلك عند ما يدب طرف هذا الحجر ، كان يثقب أصلب الأحجار .
وعند ما كان يستعمل مسحوقا كان يأكل الحجر عند ما كان يفرك أو
يحك به ، وكان حك الأحجار وصلبها بواسطة أحجار مختلفة فى الحجم
والشكل . وهذا الاستعمال الفنى قد بلغ من الكمال ما يفوق حد المؤلف
منذ أقدم العصور ؛ من ذلك أن الأستاذ « فلندرز بترى » عثر فى
« هرا كنبوليس » على إناء من الحجر السيتى الأبيض والأسود عظيم
الحجم ، يبلغ قطره نحو ٦٠ سم فى ارتفاع ١٥ سم ، ويزن نحو ٢٠٠ ك.ج .
وهو أصم . قد أفرغ بالحك ، وجدرانه بعد تفريغه أصبحت رقيقة
جدا ، حتى أن الإنسان يمكنه أن يرفعه بأصبع واحدة . ولا نزاع فى
أن هذه المهارة اليدوية ، وتلك الدقة المدهشة ، والحذق فى الحفر ، والصبر

طريقة صنع الاوانى
الحجرية

الذى لا حده . كانت كلها من العوامل التى تغلبت على الصعوبات التى اعترضت الفنان المصرى فى تلك الأحجار الصلبة .

على أن آلات البرنز لم تتمكن يوما ما من أن تحل محل حجر المسن (السبازج) ، أو حجر البلور الصخرى وذلك لأن كلا من البرنز ، أو النحاس كان لنا لا يأخذ فى الأحجار الصلبة . وأحيانا نجد أن النوعين كانا يستعملان معا ، ولذلك نرى القوم منذ الأسرة الأولى يصنعون المنشير من النحاس المركب فيه أسنان من السفرة ، وكذلك نجد أسنان المثاقيب من نفس الحجر .

ولما قضت الاعتقادات الدينية بعمل التماثيل ، كان لزاما على المختصين فى صناعة الأحجار الصلبة أن يوجهوا حذقهم الفنى طبعاً إلى الشكل الجديد وكانوا يتبعون فى صناعتهم الخطوات التى ذكرناها سالفاً .

ولا يتسرب إلى الذهن أن الفنان وبخاصة ناحت التماثيل كان عاملاً بسيطاً ؛ بل كان لابد له من أن يسيطر على أصول فنه حتى يمكنه أن يتبع خطوة خطوة تعاليم رئيس الفنانين ولأجل أن يصل إلى ذلك كان لابد من أن يتعلم أشياء أخرى غير الرسم ، كفن الكتابة ، إذ كان التمثال عند الانتهاء من فحته فى غالب الأحيان ينقش عليه اسم صاحبه وألقابه .

ثقافة الفنان المصرى

والآن تسأل عن النموذج الذى كان يستخدمه الحفار المصرى لأبراز تماثله ، والظاهر أنه كان هناك ثلاثة طرق ، وهى أولاً : أن ينقل المثال الصورة التى يشتملها من الطبيعة مباشرة . ثانياً : أن يحاكي نموذجاً متفقاً عليه من قبل .

ثالثاً : أن يصنع تماثله من الطبيعة بوساطة صورة مطبوعة من الأصل .

وقد ذكرنا آنفا أن التمثال كان يصنع في الأصل لضرورة دينية (أى لتحل فيه الروح المادية إذا اختفى الجسم الأصلي) . وذلك في عهد الدولة القديمة . ولكن فيما بعد نشاهد أن التمثال أصبح لا يوضع في سرداب بل كان يوضع في معبد الإله . والظاهر أن هذه الفكرة نتجت من أن المتوفى كان يتلمس حماية الإله . إذ تقول النصوص أن التمثال « كان يجلس في ظل البيت المقدس ، ويستمع إلى الأدعية والصلوات في الصباح من فم الكهنة » .

السبب في صناعة التماثيل

ولا نزاع في أن موضع التمثال سواء أكان في السرداب أم في المعبد لا يتطلب أن يرسم بأوضاع مختلفة ، كما تحت التماثيل التي توضع في الميادين العامة ، على أن التمثال المصرى كان في معظم الأحيان يصنع ليرى من الوجه . ولذلك كان لا يعتنى بنحت تفاصيل الأجزاء الخلفية ، كما أن الصورة التي كانت ترسم على جدران المقابر كانت ترسم جانبية . وذلك لأنه في الحالة الأولى كان التمثال يصنع لتعرفه الروح المادية عند ما تدخل في القبر أو تخرج منه . أما الصورة الجانبية للأشخاص وغيرها فكانت ترسم جانبية لأنها كانت دائما تمثل سائرة أو تنظر إلى شيء أمامها ، أو تسير نحوه مرسوما كذلك بشكل جانبي فكان المتوفى يرسم وهو ينظر إلى مائدة طعامه ، أو سائرا نحو باب الوهمى ، أو داخلا قبره . وهكذا كان حاملو القرايين وغيرهم يرسمون ذاهبين نحو الباب الوهمى .

سبب رسم الصور المصرية بوضع جانبي

وكان من جراء ذلك وجوب تمثيل المتوفى على الشكل المتقدم ، مع مراعاة أن وجه التمثال كان ينحت بوضع واحد دون إظهار أية

حركة فيها تغير ملامحه . ولذلك كان من السهل جدا أن يرسم للشخص عدة تماثيل ؛ ولم يكن التمثال في حاجة إلى أن ينقل ملامح الوجه كل مرة من صاحب التمثال بل كان يكفي بنقلها مرة واحدة . ولما كان التمثال يصنع لتحل فيه الروح المادية أبديا كان ينتخب للمتوفى صورته وهو في ريعان شبابه وعنفوان قوته .

أما طريقة نحت التمثال عن صورة مطبوعة من الأصل بالجبس ، فالظاهر أنها قد استعملت في عهد الدولة الحديثة في تل العمارنة ، وإن كان لدينا بعض نماذج من قوالب الوجه المطبوعة عن الأصل من الدولة القديمة . عثر عليها الأستاذ « ينكر » في حفائره بالأهرام وستنكلم عنها في حينها .

تدرج فن النحت البارز في الأسرة الأولى

يمثل فن النحت في عصر الأثر الأولى بعض نقوش نحتت على ألواح من حجر الشيست ، ورءوس الدبابيس ، وأوان من الحجر المختلف الأنواع ؛ وأشياء أخرى متنوعة من العاج ، وكذلك أشكال رجال وحيوانات حفرت في العاج ، والأحجار والفاشاني . نذكر منها هنا أهم ما عثر عليه : عدد من الأشكال المصنوعة من العاج تمثل رجلا ونساء عثر عليها في « هرا كنبوليس » ، والعرابة المدفونة . وكذلك عثر على ثلاثة تماثيل للإله « مين » في بلدة قفط وعلى تماثيل را كمين من الحجر الجيري لرجل في هرا كنبوليس ، وتمثال لرجل واقف في نفس المكان .

ثم تمثال صغير لرجل متربع في « هراكنبوليس » أيضا . ولكن مما يؤسف له أن معظم هذه التماثيل قد وجدت في حالة تفكك وتحلل شديدة . على أننا نشاهد مما بقي منها تقدما في المهارة الفنية عن عصر ما قبل الأسرات ، وبخاصة في عمل التماثيل الصغيرة ، وكذلك النقوش التي كانت تعمل بحجم صغير . فمثلا نجد أن رأس التمثال الصغير المتربع جيدة في صنعها مثل الصورة المحفورة على العاج ، وكذلك نشاهد مثل هذه المهارة والإتقان في أحد التمثالين الراكعين . أما تماثيل الإله « مين » الثلاثة فقد وجدت للأسف في حالة لا تمكنا من أن نحكم عليها بحق . ولكن يظهر على وجه عام أنها كانت لا تقل مهارة عما ذكرنا . وعلى الرغم من أن هذه التماثيل الكبير منها والصغير قد نحتت من مادة لينة ، فإن صناعتها بعيدة عن جودة تماثيل الأسرة الرابعة . حقا إن الفنان في هذا العصر قد وصل إلى إتقان ملامح الوجه الإنساني ، وتقاطيعه إلى درجة أصبح من السهل معها تمييز جنس صاحب الوجه في بعض الأحيان . ولكن من جهة أخرى كان نحت التمثال على وجه عام لا يزال يحتاج إلى إتقان . يضاف إلى ذلك أن الأشكال كانت لا تزال عليها مسحة من الجمود مما يجعلنا نحكم بأن الفن كان في هذا الوقت قريبا من عهد الطفولة ..

تدرج رقى صناعة
التماثيل

أما في النقش على الجدران فإن مثالي هذا العصر كانوا لا يزالون يعالجون صعوبة تمثيل الوجه الإنساني في وضع جانبي كما سئرى في عهد الدولة القديمة . وعند ما كان ممكنا تمثيل الذراع الأقرب للناظر خلف الجسم كان يمثل الصدر كأنه يواجه الإنسان . على حين أن باقي الجسم كان يمثل جانبيا ، وعند ما تكون اليدين قابضتين على شيء أمام الجسم كان يبدو

ظهر الكتف قبيحا كما حدث مثل ذلك في الأزمان التي تلت هذا العصر وكان جانب القدم الداخلى يظهر ممثلا ، فيرى لكل تمثال قدما ن يسريان ، أو قدما ن يمينان . ولكن اليدين كانتا ترسمان في العادة رسما صحيحا ، يدا يمينى ، ويدا يسرى ، لكل شخص . ومن المحتمل جدا أن إخفاق بعض النحاتين الذين أتوا فيما بعد في النقش على الجدران وغيرها . راجع إلى أن الفنانين في العصر الذى نحن بصدده قد وضعوا تقاليد في رسم الأشكال في وقت لم تكن فيه مهارة الفنان قد بلغت مبلغا عظيما من الرقى والإتقان .

الاعلام التي شاعت
في صناعة التماثيل

وقد كانت الأوضاع والحالات المختلفة ، التي ترسم بها الأشكال في هذا الوقت متداولة في نحت الدولة القديمة . ولكن ملابس الملك وأفراد الشعب كانت تختلف في أمور معينة إذ نجد أن التماثيل ، والأشكال كانت تمثل في هيئات وملابس خاصة ؛ كتمثال الإله « مين » والتماثيل الراكعة ، والدمى ، والأشكال المصنوعة من العاج لرجل مرتد عباءة ، وكل هذه لها نظائرها في الأزمان التي أتت بعد هذا العصر . وكانت التماثيل والأشكال الواقعة أذرعها في معظم الأحيان مدلاة على الجانبين . أما راحة اليد فكانت تمثل مفتوحة أو مقفلة في أوضاع مختلفة . وكذلك كانت تمثل القدم اليسرى تخطو إلى الأمام عند الرجال أما في النساء فكانت القدمان ترسمان . أو تمثلان منضمة إحداهما إلى الأخرى في معظم الأحيان كما هو الحال فيما بعد .

الأوضاع المختلفة
للتماثيل

وأهم ما يلفت النظر في أوضاع تماثيل العصر الأول من الأسرات هو وضع اليد اليمنى والساعد في بعض الأحيان على الصدر في تماثيل

الذكور ، وعلى التدى عند النساء ، وهذا الوضع يشاهد فى تمثال
هراكنبوليس وكذلك فى دى العاج للأنثى والذكور ، التى عثر عليها
فى نفس المكان .

وأقدم تماثيل جميلة عثر عليها ويرجع عهدا إلى أواخر الأسرة الثانية
وأوائل الأسرة الثالثة هى تمثال الملك « خع سخموى » (أواخر الأسرة
الثانية) ، وتمثال الملك « زوسر » فاتحة ملوك الأسرة الثالثة ، والأخير
مصنوع من الحجر الجبرى الأبيض ، عثر عليه فى سقارة ، وكذلك عثر له
على قطعة من تمثال من المرمر ، ورأس من الجرانيت . وهذه التماثيل
تعد أقدم تماثيل مؤرخة .

وقد عثر على تمثال الملك « زوسر » المذكور فى سردابه الذى أقيم له
بجوار الهرم المدرج وقد عمل خاصة لروحه المادية ، ومثل مرتديا عباءته
وعلى رأسه لباس مقدس يعلوه النمى الملكى (غطاء للرأس يشبه
الكوفية) ومثلت يده اليمنى مقفلة على صدره وهى قابضة على طرف
عباءته . أما يده اليسرى فمفتوحة ، وراحتها على ركبة اليسرى . أما تمثالا
الملك « خع سخموى » فيوجد واحد منها فى متحف القاهرة ، والثانى فى
متحف أكسفورد وقد عثر عليها « كويل » فى هراكنبوليس أحدهما
من الجير الأبيض — وجد مهشما تهشما شديدا ؛ والثانى من الحجر
الشيست ، ويكاد يكون سليما ، ويمثل الملك لابسا التاج الأبيض جالسا
على أريكة مكعبة الشكل فى هيئة تشع بالجلال والهيبة اللتين نشاهدهما
غالبا فى نماذج فن هذا العصر ، ويلاحظ أن اليد اليسرى موضوعة على
صدره ، واليد اليمنى على ركبة . وقد توشح بعباءة لها كان ، وقد لفته

تمثالا الملك
« خع سخموى »

كله ولم يظهر من جسمه إلا اليدان والقدمان .
ولا نزاع في أن صناعة هذه القطع تدل على أنها ملكية ، ويظهر
فيها تدرج الفن في الرق عن سابقتها ، وبخاصة في نحت الفم وتشكيله
أما سطح التمثال وصقله فكان لا يزال ينقصه شيء كثير من الدقة كما
كان الحال عليه من قبل .

ويقرب من صنع هذه التماثيل تمثالان للأميرة « رد زيت »
واحد منها من الجرانيت موجود الآن في متحف « تورين » والثاني
من الحجر الجيري الأبيض بمتحف « بروكسل » ،

صناعة تماثيل
علية القوم

أما تماثيل الأشراف في هذا العصر فلدينا منها بعض أمثلة ننحس
بالذكر منها تمثال « سبا » وزوجه « نسا » وهما من طرائف متحف
اللوفر . وكان « سبا » هذا من كبار موظفي رجال الدولة في عهد
الأسرة الثالثة .

على أن هناك تماثيل أخرى من صناعة خشنة لهذا العصر ويواسطها
يمكن التمييز بين الصناعة الملكية ، والصناعة الشعبية . وأهمها تمثال جالس
من الجرانيت لشخص يدعى « نزم عنخ » بمتحف اللوفر ، وآخر
له من الجرانيت الأسود بمتحف ليدن ؛ ولا نزاع في أن هذين
التمثالين يمثلان صناعة الفن الحر ، في الأحجار الصلبة خلال الأسرة
الثالثة . على حين أن قطعتي المرمر والجرانيت اللتين تنسبان للملك « زوسر »
وكذلك تمثال الأميرة « رد زيت » من حجر الديوريت ،
كلها تمثل الصناعة الملكية في نفس العصر في الأحجار الصلبة .
وهناك تماثيل أخرى كثيرة تشبه تمثال الأميرة « رد زيت » بحتم

الفرق بين تماثيل
الملوك والاشخاص

جدا أنها من هذا العصر ، ولكنها غير مؤرخة .

تماثيل العصر الأول من الأسره الرابعة

يعتبر تمثال الملك « خوفو » الصغير المصنوع من العاج أقدم تمثال
عثر عليه إلى الآن في عهد الأسرة الرابعة ، وقد كشف عنه الأستاذ
« فلندرزبترى » في معبد العراة . وكذلك عثر على قطع صغيرة من
صوره المنحوتة على الأحجار في حفائر الأهرام ، وعلى صورة له كاملة على
قطعة من الحجر الجيري الصلب ، وقد مثل فيها وهو لابس تاج الوجه
البحرى وتعد فريدة في بابها .

وعثر لغير الملوك في هذه الفترة على ثلاثة تماثيل تنسب إلى
عهد « سنفرو » ، أو عهد « خوفو » ، وهى تمثال صغير لموظف
كبير يدعى « متن » عثر عليه « لبيوس » الأثرى الألمانى فى سرداب
مقبرة هذا الموظف الواقعة بين أبو صير ، و سقارة ثم تمثال
الأمير « رع حتب » ، وقد عثر عليه فى سرداب مقبرته فى ميدوم ؛
ومعه تمثال زوجته « نفرت » ، ولا يفوتنا أن نذكر هنا تماثلا آخر
لسيدة يحتمل جدا أنها أم « خفرع » وهذا التمثال يرتدى ثوبا غريبا
فى زيه ، وقد عثر عليه فى منطقة اهرام الجيزة .

ولا نزاع فى أن أهم هذه التماثيل من الوجهة الفنية هما تماثلا « رع
حتب » . و « نفرت » ويرجع تاريخهما إلى عصر الملك « خوفو » ،
وربما ركبا معا بعد عهد هذا الملك ويرجع حسن صنعها وجمالها إلى

أجل تماثيل فى
الدولة القديمة
مصنوعة من الحجر
الجيرى

سهولة التحت في الحجر الذي صنعا منه.، وكان ذلك بشيرا بتحسن الصناعة في الأحجار الصلبة في عهدى الملكين « خفرع » و « منكاورع » ويلاحظ أن أهم ما تمتاز بها هذه التماثيل في وضعها ، أننا نجد اليد اليمنى موضوعة على الصدر أما اليسرى فموضوعة على الركبة مفتوحة . وأول مثال لهذا الوضع تمثال الملك « زوسر » من الأسرة الثالثة ، وتدل الأمثلة التي لدينا على ما يظهر أن هذا الوضع كان المتبع عادة في تماثيل الرجال الجالسين في أوائل الأسرة الرابعة .

أوضاع التماثيل الصغيرة والكبيرة في عهد الدولة القديمة

دلت الأبحاث الأثرية التي عملت إلى الآن على أن أكثر عدد من التماثيل وجد سليما هو للملك « منكاورع » . وقد وجدت على أوضاع مختلفة . ويمكننا أن نتخذها أساسا للمقارنة بتماثيل الملوك في عهد الدولة القديمة . والواقع أننا لم نجد إلى الآن أوضاعا أخرى جديدة للتماثيل الملكية غير التي وجدناها لهذا الملك . وقد كشف الأستاذ « ريزنر » عن تماثيل واقفين ، وواحد وعشرين تمثالا جالسا للملك « منكاورع » وتمثال واقف للملكة ، وتمثالين للملك والملكة واقفين ، وخمسة تماثيل يمثل كل منها الملك ، والإلهة « حتحور » ، وإلهة مقاطعة من مقاطعات القطر . ويشاهد في تمثال الملك الواقف المنحوت من حجر البورفير وتمثاله المصنوع من العاج وكذلك في مجاميع التماثيل أن القدم اليسرى للملك مخطو إلى الأمام ، والذراعين متدليان على الفخذين ، واليد مقفلة . ومن الغريب أننا نلاحظ خلافا للقاعدة المتبعة أن الملكة في تمثيلها مع التماثيل

تخطو بقدمها اليسرى إلى الأمام قليلا ، إذ القاعدة في كل تماثيل السيدات بوجه عام أن القدمين ملتصقتان . (ومن الشواذ تماثيل الأميرة تدعى « مرسى عنخ » ^(١) من عهد الأسرة الخامسة ويلاحظ فيه أن القدم اليسرى تخطو إلى الامام) ، ويشاهد في تماثيل الملك الجالسة أن الذراعين مثنيان عند المرفق ، واليد اليسرى مقفلة ومتكئة على الفخذ الايمن ، والايهام فيها إلى أعلى ، وممسكة بمنديل أما تماثلا الملك ، والملكة فيشاهد فيها أن الملكة تطوق الملك بذراعها الايمن ويدها اليسرى على ذراعه الايسر . وأما تماثيل مجاميع المقاطعات (الثالوث) فيظهر فيها خمسة أوضاع مختلفة على الأقل ونذكر هنا بعض التماثيل الأخرى الملكية التي عثر عليها في عهد هذه الأسرة وأهمها (١) تماثيل الملك « خوفو » الذي وجد في العرابة (٢) سبعة تماثيل جالسة للملك « خفرع » خمسة منها من حجر الديوريت ، وواحد من الشيست ، وواحد من المرمر ؛ وقد عثر على ستة منها في بئر معبد الوادى « لخفرع » في الحجرية التي كانت منصوبة فيها ، وواحد في معبد « فتاح » بميت رهينة . (٣) عثر على بقايا أكثر من مائتي تماثيل في حفائر الأهرام كلها مهشمة . ومن الأجزاء الباقية يستدل على أنها كانت آية في الإتيان الفنى ومن الأحجار الصلبة المختلفة الأنواع (٤) تماثيل الملك « خفرع » ، والإلهة « باست » من حجر الديوريت لم يتم صنعها ، عثر عليهما في معبد « خفرع » أيضا . (٥) تماثيل جالس للملك « منكاورع » من الديوريت بمعبد الإله « فتاح » بميت رهينة . (٦) سبعة تماثيل من الحجر الجيري مهشمة عثر عليها في حفائر الكونت « جلا رزا »

(1) Excav. at Giza, vol. II, pl. LXVI.

في منطقة الأهرام وكلها لأمرأ من أسرة « خفرع » (٧) تمثال جالس
 ملك غير معروف اسمه يحتمل أنه « ددف رع » عثر عليه في معبد
 « فتاح » بميت رهينة ، وهو مصنوع من المرمر . (٨) رأس جميل
 بلحية مصنوع من الحجر الجيري الأبيض لأمير في حفائر الجامعة بمنطقة
 الهرم ، ويمتاز بابتسامة على وجهه . (٩) رأس ضخم من الجرانيت
 الأسود للأمير « نب إم آخت » عثر عليه في حفائر الجامعة
 بمنطقة الهرم أيضا (١٠) تمثال صغير لملك من الحجر الجرانيت الأسود لم
 يعرف اسمه وجد في معبد الملكة « خنت كلوس » ، ويحتمل أنه للملك
 « منكاورع » والدها . (١١) تمثال جالس من الجرانيت للملك
 « نوسر رع » من ملوك الأسرة الخامسة ، وجد في معبد « فتاح »
 بميت رهينة (١٢) الجزء الأسفل من تمثال الملك « نوسر رع » يده
 اليمنى مقفلة على فخذه عثر عليه في بحيرة الكرنك . (١٣) تمثال جالس
 من المرمر للملك « منكاو حور » من الأسرة الخامسة متشح بملابس
 عيد « حب سد » عثر عليه بمعبد « فتاح » بميت رهينة . (١٤)
 قاعدة تمثال جالس للملك « يبي » من الأسرة السادسة عثر عليه في
 الكوم الأحمر ، ومصنوع من الجرانيت . (١٥) تمثال واقف من النحاس
 وآخر صغير من النحاس أيضا للملك « يبي الأول » عثر عليهما في
 هراكنبوليس ، والتمثال الكبير يفوق الحجم الطبيعي بقليل ويده اليمنى
 مقفلة ، ومدلاة على فخذه الأيمن ، ويده اليسرى ممدودة قابضة على
 عصا أما التمثال الصغير فيداه مقلتان

التمثيل التي عثر عليها
 للملك الاسر الرابعة
 والخامسة والسادسة
 في مختلف جهات
 القطر

ويلاحظ أن أوضاع كل هذه التماثيل تماكي تماثيل الملك « منكاورع »

الهم إلا تمثال الملك « منكاو حور » ، وتمثالي الملك « يبي الأول »
المصنوعين من النحاس . على أن التغير في تمثيل « منكاو حور »
يرجع إلى أنه ممثل بملابس عيد « حب سد » أما في تمثالي « يبي الأول »
فلأنه يرجع إلى تقليد صناعة التماثيل الخشبية للنحاس .

أوضاع التماثيل الخشبية في الأسرتين الخامسة والسادسة

كانت التماثيل التي تصنع جالسة ، أو واقفة مألوفة في التماثيل التي
من الحجر صغيرها ، وكبيرها ، وذلك في عهد الأسرتين الخامسة والسادسة .
وأهم تغير حدث ، في وضع التماثيل الجالسة كان ينحصر في تصوير اليد
المقفلة مقلوبة ، بحيث يكون ظهرها ، وعقل الأصابع في أعلى ، ففي
كتاب « بورخرت » عن التماثيل في الدولة القديمة ، نجد أن ٦١ تمثالا
تتبع التقاليد القديمة على حين أن ٣٦ تمثالا نجد فيها التجديد الذي
ذكرناه الآن .

وكان وضع التمثال واقفا هو السائد في التماثيل المصنوعة من الحجر
فجند في كتاب « بورخرت » ٣٤ تمثالا منفردة ، وعشر مجاميع كلها
واقفة . أما التماثيل الخشبية التي على نمط تمثال « يبي الأول »
النحاسي فجند منها تسعة تماثيل ؛ وكذلك عشر أخيرا في سقارة على تماثيل
من الخشب واقفين على أننا نجد في مجاميع تماثيل الدولة القديمة ، أوضاعا
مختلفة اختلافا عظيما . وعلى أية حال فإننا نلاحظ أن أوضاع تماثيل
الملكين « خفرع » ، و « منكاورع » كانت السائدة في الدولة القديمة .

سواء أكانت لأكابر رجال الدولة أم للموك والأمرأ .

الترتيب التاريخى لأوضاع التماثيل التى كان يستعملها الفنان المصرى

يظهر مما تقدم أن أوضاع اليدين والذراعين فى كل التماثيل كانت على ثلاثة أنواع فى ثلاثة عصور مختلفة (١) وضع اليد اليسرى أمام الجسم ، وتلك كانت من مميزات عهد الأسرة الثالثة ، وربما امتد ذلك إلى عهد الملك « سفرو » . والواقع أن ذلك كان أحد الأوضاع للتماثيل الصغيرة المصنوعة من العاج التى نسبت إلى عهد فجر الأسرات ، وهو ما يسمى بالعهد العتيق . (٢) وضع اليد اليمنى أمام الجسم ، وكانت خاصا بتماثيل « خوفو » ومن المحتمل أن ذلك كان التقليد فى عهده . (وتمثال « زوسر » على هذا الوضع ولو أنه من الأسرة الثالثة) (٣) وضع اليد مقفلة على الركبة اليمنى فى التماثيل الجالسة ، واليد اليسرى مفتوحة . وقد ظهر أولا هذا الوضع فى تماثيل « خفرع » . أما التمثال الواقف لنفس هذا العصر فكانت ذراعه مبسوطتين على الفخذين ، ويداه مقفلتين والأبهام ظاهرة . (٤) وهناك فوق ما ذكرنا ملاحظة خاصة بتماثيل الدولة القديمة المصنوعة من الحجر ، وعى أن كل تماثيل هذا العصر مقفلة اليدين ، أو واحدة مقفلة ، والثانية مبسطة ، ولم يحدث قط إلى الآن أننا وجدنا تماثلا من هذا العصر فيه اليدان مفتوحتان . أما تماثيل الأسرتين الخامسة ، والسادسة المصنوعة من الخشب فكانت تصنع حسب التقاليد المتبعة فى التماثيل الواقعة ، والقاعدة . والوضع الخاص بالتماثيل الخشبية الواقعة يمثل شيخ البلد .

ويوجد على أقل تقدير عشرة أمثلة من هذا الوضع في متحف القاهرة
ويوجد كثير غيرها في متاحف أوروبا وأمريكا . أما التماثيل الخشبية
للأطفال ، والسيدات فلا تختلف في وضعها عن التماثيل الحجرية .

تأثير تماثيل « خفرع » و « منكاورع » في صناعة تماثيل الأفراد في الاسرتين الخامسة والسادسة

يوجد في المتحف المصرى أكثر من مائة تمثال جالس من عهد الدولة
القديمة ، ويشمل ذلك العدد المجاميع من التماثيل ، وقد لوحظ أن ستين
تمثالا منها قد نحتت حسب التقاليد المتبعة في تماثيل الملك « خفرع » من
حيث الوضع ، ومنها نحو ٣٦ قد انحرفت عنه بتغيير بسيط ، وذلك في
كيفية وضع اليد اليمنى المقلعة . فمثلا نلاحظ في هيئة التماثيل أن راحة
اليد تكون مقلوبة إلى أسفل بدلا من جعل الأبهام إلى أعلى . وقد عثر
على ٣١ تمثالا من الستة والثلاثين في سفارة ويرجع تاريخها إلى الأسرة
الخامسة ، والظاهر أن هذه التماثيل قد أخرجتها مدرسة واحدة على رأسها
فنان واحد ، وتلاميذه الذين عملوا معه في منف ، وابتدعوا هذا التجديد
الذى يختلف بشئ بسيط عن إنتاج فنانى الجيزة ، وتقاليدهم . ويغلب
على الظن أن تقاليد الجيزة هى التقاليد الرسمية ، إذ وجدنا التمثال الوحيد
الملكى الذى عثر عليه من الأسرة الخامسة ، وهو للملك « نوسررع » قد
وضع على هيئة وضع تمثال الملك « خفرع » .

الفرق بين تماثيل
الجيزة وسفارة

على أننا إذا استبعدنا هاتين المجموعتين أى الستين تمثالا التى نحتت

في مدرسة الجيزة وال ٣٦ تمثالا التي نحتت في مدرسة سقارة لم يبق لدينا إلا بضعة تماثيل قد ظهر فيها بعض تغيير مخالف لكل ما سبق ، ففي اثنين منها نجد أن اليد اليسرى مقفلة وموضوعة على الركبة . وفي اثنين آخرين نجد أن اليدين مقفلتان . أما تماثيل الرجال الواقعة ، وتماثيل السيدات الجالسات فليس فيها اختلافات تقريبا ، ومن بين تماثيل السيدات الواقعة ثلاثة نجد في كل القدم اليسرى نخطو إلى الأمام قليلا ، ونجد ذلك الوضع في تمثال الملكة زوجة « منكاورع » ، وتمثال « مرسى عنخ » هذا إلى تمثال سيدة مع رجل واقفين فنجد يديها مقفلتين ومتدليتين على فخذيها كالرجل .

ومن كل ما تقدم يمكننا أن نستخلص بعض حقائق عن تماثيل الدولة القديمة تكاد تنطبق على كل ما عثر عليه حتى الآن . فمثلا نجد أن قطعتين مؤرختين ، وهما تمثال الأميرة « نزم رعنخ » والملك « خع سخموى » لكل منهما كرسي خشبي . وأن الذراع الأيسر موضوع أمام الجسم . غير أن الصناعة في كل منها مختلفة جدا ، وكذلك تمثال الملك « زوسر » له كرسي خشبي ، وذراعه الأيمن أمام جسمه ويلاحظ أن صناعة تماثلي « خع سخموى » ، و « زوسر » يظهر فيها الصناعة الملكية التي سارت في عهد الأسرة الثالثة . أما صناعة تمثال « نزم رعنخ » فيظهر فيها الصناعة الشعبية لهذه الفترة .

وهنا يجب أن نلفت النظر إلى أنه لا فائدة من تأريخ التماثيل التي عثر عليها قبل هذا العهد . إذ من المحتمل جدا أن فكرة صناعة التماثيل للملوك وللأفراد من الحجر لم تظهر قبل أواخر الأسرة الثانية ، والسند الوحيد

الذى تركز عليه فى ذلك هو انما لم نثر للآن على تماثيل من هذا النوع وربما تطالعنا الكشوف فيما بعد بما لم يكن فى الحسبان . وتم صناعة تماثيل الملكين « زوسر » ، و « خع سخموى » على أن بعض الفنانين الملكين قد وصلوا إلى درجة لا بأس بها جعلتهم يمثلون صورا حية تقرب من الحقيقة . ومن المحتمل جدا أنهم صنعوا تماثيل لكل ملك هذه الأسرة . أما تماثيل الموظفين فلا بد أنه قد صنعها طائفة من الفنانين أقل مهارة من مثالى الملك . وقد اتخذوا الجرانيت مادة محبة لهم ليظهروا فيها براعتهم الفنية . ولكن النتائج جاءت خشة ساذجة ، وبخاصة عند ما أرادوا أن يقلدوا التماثيل الملكية . على أنهم كانوا يصنعون بعض التماثيل من الحجر الجبرى مثل تماثيل الاميرة « ردزيت » و « سبا » ، وعلى ذلك يحتمل أنهما من نهاية الأسرة الثالثة ، أو من عهد الملك « سنفرو » وذلك عند ما أخذ استعمال هذا النوع من الحجر ينتشر فى عهد الأسرة الرابعة ، ثم أصبح المادة السائدة لصناعة التماثيل فى عهد الأسرة الخامسة . نجد بعد ذلك أمانا تماثيل الأمير « رع حتب » ، وزوجته « نفرت » وهما من أسرة الملك « سنفرو » . ومن المحتمل أنهما عاشا إلى عهد الملك « خوفو » الذى ظهر فى عهده كثير من الصفات العالية فى فن النحت المصرى إذ بلغ قوته من الإيقان ، وحسن الذوق .

وتدل التماثيل التى كشفت من عهد « خوفو » وما قبله بقليل ، على أن الفنانين قد ألبسوا تماثيلهم الجالسة ثوبا جديدا من الروعة والتجديد . مما يدل على أنهم لم يكونوا مرتبطين بالعهود التى سبقت إذ نجد فى الواقع على حسب ماوصلت إليه معلوماتنا أن الفنان أو جماعة الفنانين الذين صنعوا

صناعة تماثيل الافراد
فى عهد الاسرة
الثالثة وما قبلها

تمثال الملك « خفرع » ، ثم تماثيل الملك « منكاورع » قد ابتدعوا شكلا مقبولا للتماثيل في البلاط المصرى فى ذلك العصر يحمل فى ثناياه الروعة الملكية ، وأبهة الملك الحقيقية . فوجد للملك « خفرع » الذى كان (حسب معلوماتنا إلى الآن) أول من صنع له فنان المدرسة الجديدة أكثر من أربعة وعشرين تمثالا فى معبد فى الوادى فقط لا تزال آثار أماكنها ظاهرة إلى الآن حول جدار ردهة المعبد العظيمة بالحجم الطبيعى ، ومن المؤكد أنه صنع له أكثر من هذا العدد فى المعبد الجنائزى إذ أثبتت الكشف الحديثة أنه وجد له بقايا أكثر من ثلثمائة تمثال صغيرة ، وكبيرة من الأحجار الصلبة المختلفة الأنواع . ومن المحتمل أن الملك « منكاورع » قد صنع لنفسه ما يقرب من هذا العدد ، ولا أدل على ذلك من أنه قد صنع ثلوثا لكل مقاطعة من الاثنتين والاربعين مقاطعة التى يتألف منها القطر المصرى . وقد عثر على بعضها الأستاذ « ريزنر »

تماثيل الملوك فى عهد
الأسرة الرابعة

ويمكننا أن نقرر هنا أنه قد صنع على وجه التقريب فى عصرى هذين الملكين « خفرع و منكاورع » ما يربو على خمسمائة تمثال معظمها من الديوريت والمرمر ، والشيست وغيرها من الأحجار الصلبة على يد جيل واحد من الفنانين . ولا نزاع فى أن أساتذة من هذا العصر كان لهم تلاميذ قد خلفهم ، وبخاصة فى مثل هذه الأعمال الفنية العظيمة التى كان يتطلبها البيت المالك فى تلك الفترة ؛ ولذلك لا يستغرب أن تكون الأسرة الخامسة قد بدأت أعمالها العظيمة بطائفة من الفنانين المدربين الذين تلقوا دروسهم فى معامل « خفرع و منكاورع » . ولا نزاع فى أن هذه المعامل كانت تقام بجوار المعابد نفسها ، بل ربما كانت فيها ؛ كما يدل على

ازدهار صناعة
التمائيل الملكية
فى الإحجار الصلبة
وكثر عددها

مصانع قطع
الاحجار

ذلك القطع الكبيرة التي وجدناها لم تتم بعد في المعابد . وفي الوقت نفسه كان لتقدم فن المعمار أثر عظيم في عهد بناء أهرام الأسرة الرابعة أدى إلى استثمار المحاجر في مختلف جهات القطر ، وبخاصة حجر طرة الأبيض ، وأنتج طرقا فنية في قطع الأحجار ، وتهذيبها ، ومن ثم نشأت طاقة عظيمة من مهرة الحجارين . والواقع أن مصانع الأهرام كانت مدرسة عملية لكل الصناعات والحرف ، وهي التي وضعت الأساس للإتقان فن النحت والعمارة في المصور التي تلت .

سبب كثرة تماثيل
الافراد في عهد
الاسرتين الخامسة
والسادسة

وكان لتكون طاقة عظيمة من النحاتين ومدعم بأحجار طرة البيضاء السهلة النحت أثر عظيم في تخفيض تكاليف عمل التماثيل ، وسهلت الأمور لانتشار فن النحت في عهد الاسرتين الخامسة و السادسة انتشارا عظيما . لذلك نرى أن كل موظف كبير ، أو متوسط الحال ينحت لنفسه تماثالا يطابقه تماما ليوضع معه في سردابه الذي أقامه في قبره كما يشاهد ذلك في جبانتي الجيزة وسقارة .

ولم يقتصر هؤلاء العظماء على عمل تماثيل لأنفسهم فحسب ، بل كانوا يصنعون تماثيل لأفراد أسرهم ، وخدمهم مما يسهل علينا معرفة نسبة أفراد الأسرة بعضهم إلى بعض . ولم يقتصر عمل التماثيل على الجبانات الملكية ، ورجال بلاطها ؛ بل كذلك وجدنا تماثيل في جهات أخرى بعيدة عن مقر الملك . ولا نكون مبالغين إذا قررنا أنه لم يصنع في أى عصر من عصور التاريخ المصرى عدد من التماثيل يضارع ما عمل في عهد الدولة القديمة . والواقع أن الفرصة لم تسنح ثانية قط لمتوسطى الحال في مصر أن يصنعوا لأنفسهم تماثيل كما أتاحت لهم في هذا العصر .

وكان الفنانون بطبيعة الحال يقلدون تماثيل أساتذتهم الذين نحتوا تماثيل « خفرع » ، و « منكاورع » وهم الذين أصبحت أشكال تماثيلهم وأوضاعها ، تقليدا في مصر في خلال الدولة القديمة . هذا إذا استثنينا الأوضاع البسيطة التي أدخلت على التماثيل التي نحتت في سقارة . وأغرب شيء يلفت النظر في تماثيل هذا العصر قلة ما وجدناه منها لمالوك الأسرة الخامسة ؛ ولا نزاع في أن سراديب معابد أهرام (أبو صير) كانت تحتوى على عدد عظيم منها غير انه مما يؤسف له جد الأسف أن الحفائر التي قامت في هذه الجهة لم يعثر فيها إلا على قطعة صغيرة من تمثال ، وهو فم بالحجم الطبيعي من المرمر صنع صناعة دقيقة ؛ وقد وجد في معبد الشمس للملك « وسركاف » . هذا رغم أنه كشف عن خمسة سراديب ، في كل معبد من معابد هذه الأهرام ، وكذلك عثر فيها على مخازن عظيمة ذات حجم كبير ، وهذه المعابد قد خربت تخريبا ذريعا من الداخل كالأهرام الكبيرة . ولا بد أن التماثيل التي كانت فيها قد عرضت للتلف مدة آلاف السنين وبخاصة بعد سقوط الدولة القديمة عند ما قامت الثورة الاجتماعية وحطمت كل آثار المعابد . (انظر جزء أول ص ٣٩٨ الخ) فلم يبق منها شيء ؛ ولا غرابة إذا كانت التماثيل التي عثر عليها لهؤلاء الملوك قد كشف عنها في جهة أخرى .

سبب قلة تماثيل
الملوك في عهد
الاسرتين الخامسة
والسادسة

وبعد الدولة القديمة بقي وضع التماثيل واقعة تقليدا سائدا إلى أواخر التاريخ المصري . أما التماثيل الجالسة في عهد الدولتين الوسطى ، والحديثة فقد اتخذت شكل الوضع الذي كان متبعاً في سقارة مع بعض التجديد بأن تكون اليد اليمنى مقلوبة إلى أسفل ، وكذلك ظهر لأول مرة وضع

اليدى مفتوحين على فخذى التمثال الجالس فى الدولة الوسطى ، وهناك
أوضاع أخرى يمكن مشاهدتها فى مجموعة تماثيل الدولة القديمة .

الصناعات الدقيقة

ذكرنا فى عهد ما قبل الأسرات أنه وجد فى بعض المقابر ، قطع فنية
تدل على نبوغ المصرى منذ ذلك العهد السحيق فى صنع حليه ، وأدواته
المأتمية . ولا بد أنه كان بطبيعة الحال يستعمل مثلها فى حياته الدنيوية ،
ولذلك نعتبر أنه ضرب من السخافة والغلو ، ما يقال عن المصرى من أنه
كان يصنع هذه الأشياء ، لغرض دينى محض . إذ الواقع أن المصرى
كان يعتقد أن الحياة الآخرة هى صورة مطابقة للحياة الدنيا ،
وأن ما كان يستعمل فى دنياه يمكن أن يستعمله فى آخرته ، ولذلك
نجد كثيرا من الأدوات المنزلية المستعملة ، قد وضعت مع المتوفى فى
القبر ؛ وما ذلك إلا ليستم فى استعمالها فى الآخرة . ولا نكون مغالين
إذا قلنا إن المصرى كان يتذوق الفن لأجل الفن من
هذه الناحية ، ويتقنه لجه للإيقان لا لأجل أن يستعمله فى قبره فحسب .
لذلك إذا تكلمنا عن أثاث المتوفى فى قبره فإنما نتكلم عن أثاثه فى
بيته ، إذ كان الأول صورة من الثانى .

وقد ظهرت بعض صناعات دقيقة ، بلغت من الكمال حداً بعيداً ،
فى عهد الدولة الطينية ، ولا ادل على ذلك من قطع الأثاث ، والألواح
المرصعة بالعاج والمعادن التى كشف عنها فى سقارة ، والعراصة المدفونة .

الأثاث الدنيوى
كان يستعمل أثاثاً
جنازياً

مما ينبىء عن مهارة وحسن ذوق فى الزخرفة يسترعيان النظر . يضاف إلى ذلك المجوهرات التى وجدت فى قبر الملك « زر » ، إذ نجد فى نظمها ورشاقة تأليف مجاميعها من خرز ، وتعاويز ذات ألوان مختلفة ما يجذب النظر ويستوقفه إعجاباً ودهشة .

بعض بدائع حلى
المصر العتيق

ويجب أن نذكر هنا على وجه خاص سوار كل ما فيه من زخرف هو إفريز وجهات القصر الملكى يعلوه صور الإله « حور » . وأهم ما يلفت النظر فى هذه القنون الجميلة ؛ أنه ليس فيها ما يمله النظر . ويرجع الفضل فى ذلك إلى عدم استعمال مادة واحدة ؛ إذ كان وقتئذ الذهب والفيروز يستعملان . وتدل الأشكال المصنوعة من الأول فى هذا الحين على أن صناعته كانت قد تقدمت أكثر من صناعة الثانى ، مما يدل على أن صياغة هذا العصر ، كانوا قد تقدموا فى صناعتهم فى زمن قصير جداً .

تقدم الصناعة فى
هذا العصر

وتدل الآثار المكشوفة فى مقبرة « حمكا » على أن المدنية المصرية قد بلغت شأواً بعيداً فى أواسط الأسرة الأولى ؛ إذ تعتبر المجموعة التى وجدت فيها من الأسلحة ، والأدوات المختلفة التى صنعت بإتقان ، فريدة فى بابها . يضاف إلى ذلك مجموعة ثمينة من الأقراص رصعت من مواد مختلفة (الحجر ، والنحاس ، والخشب ، والعاج) وقد ثقب كل منها فى وسطه بثقب ينفذ منه عصا ، ولم يعرف إلى الآن استعمال هذه الأقراص . وقد زينت رقعة بعضها بمنظر صيد برية ، وبحرية ، أو بأشكال هندسية ثم عن رشاقة خلاصة ترجع إلى المهارة التى استعملها الفنان فى ترصيعها بالألوان المختلفة وإلى انسجام تأليف المناظر وتوزيعها حول العصا التى فى رقعة القرص ؛ وإلى الإتقان الفنى الذى أظهره الفنان فى كل هذه الأشكال المرصعة

القطع الفنية التى عثر
عليها فى مقبرة
« حمكا »

ولا يفوتنا أن نذكر هنا قطعة من الحجر الجيري الأبيض عثر عليها في هذه المقبرة وقد رسم عليها ثور بالألوان ولا يبعد أن يكون هذا أول رسم ظهر في التاريخ للعجل « أيس » إذ نجد في شكله كل ما ينطق على صفات هذا العجل التي عرفناها فيما بعد .

أما في عهد الأسرات التي تلت فلدينا بعض أمثلة تدل على أن الفن في هذه الفترة كان سائرا في طريقه نحو الرقي ، وبخاصة في عهد الأسرة الرابعة . إذ نجد صناعة المعادن ، وصناعة الأواني من الحجر والفخار ، وصناعة الأخشاب ، وكل الصناعات الأخرى الدقيقة ، قد برع فيها الصانع الفنان وضرب فيها بسهم صائب في الروتق والجمال والرشاقة بما قد يكون بلغه فنان عهد الأسرة الثالثة . ولكن لم يفتقها بعد صناعة في العصور التي تلت . وأعظم نموذج لصناعة هذا العصر ، الكنز الذي عثر عليه في مقبرة الملكة « حتب حرس » والدة الملك « خوفو » ، إذ نشاهد من بين طرائفه المحفة ذات الشكل الأنيق والزخرف البسيط مما يشهد بمقدار ما وصل إليه الصانع في هذا العصر من الذوق الفني الراقى . أما الخلاخيل المصنوعة من الفضة ، والمحلاة برسوم على شكل ذباب ضخمة والمرصعة بالفيروز ؛ واللازورد فتعد من النفائس التي يفخر بها فنان أي عصر من عصور التاريخ هذا إلى أن الألواح المطعمة بالقاشاني والذهب قد صنع بعضها وفق أشكال معروفة ، وبعضها وفق أشكال لم تكن في الحسبان ، وكذلك الإشارات الهيروغليفية المصنوعة من الذهب على إطار المحفة وأدوات الغسل والزينة المصنوعة من الذهب أو النحاس ، وثلاثة الأواني التي من الذهب النضار ويفوق كل ذلك النقوش العجيبة التي على جانبي باب الكوة التي تضم

ازدهار صناعة
المجوهرات في عهد
« خوفو »

كنز « حتب حرس »

سرير الملكة . كل ذلك يضع أمامنا صورة ناطقة لقوة الاختراع ،
والمهارة ، والدوق السليم في عهد أسرة « حتب حرس » . وتدل شواهد
الأحوال ، وظروف كشف هذا الكنز على أن معظم هذه الأدوات قد
نقلت من قصرها الخاص لتكون معها في مقرها الأخير . ولا غرابة في
هذا فإن « حتب حرس » هي أم الأسرة الرابعة ونسلها هم الذين بلغ
في عصرهم فن المعمار والنحت مبلغا لم تفقه أسرة من الأسرات التي تلت .
على أن هذه المهارة في الحرف الدقيقة لم تكن وقفا على فنانى الملوك
وصناعهم بل وجدنا كذلك ماثبت أن علية القوم ومتوسطى الحال منهم
كانوا يصنعون لأنفسهم جواهر ومصوغات تعد من فرائد الفن المصرى حتى
الآن . وقد جادت الصدف بالعثور على حجرة دفن لم تمس لسيدة يدل
قبرها على أنها من أصحاب اليسار وإن لم تكن من علية القوم (1) .
ومن هذه المقبرة يمكننا أن نعرف على وجه التقريب مقدار
تذوقهم للفن ، وللصناعات الدقيقة . وقد عثر على نفائس هذا القبر داخل
التابوت الحجري الذى فيه السيدة ، وكان أول مالفت النظر عند رفع غطاء
التابوت ، التاج المصنوع من الذهب الوهاج الذى كان يحيط برأس تلك
السيدة ويتألف من شريط طوله ٣٨ سم ، وعرضه ٢٥ سم محلى بثلاثة
أقراص من الذهب كل منها مرصع بنص من الكرنلين (حجر يشبه
العقيق) . . وهذا الشريط المصنوع من الذهب الخاص مثقوب فى وسطه
وعلى مسافتين متساويتين من الثقب الأوسط يوجد ثقبان آخران ، وذلك
ليثبت فيه ثلاثة الأقراص الذهب بأربطة أسطوانية الشكل ؛ وقد نقش

(1) S. Hassan, Excav. at Giza, Vol. II, p, 149 pls. L, LI, LII, etc.

القرص الذى يتوسط التاج برسم أربع من أزهار البشنين . أما الرسم الذى على كل من القرصين الجانبيين فيحتوى على زهرتين مفتحتين من أزهار البردى يتقابلان عند فص مستدير مرصع فى القرص ؛ وعلى كل من الزهرتين قد حط طائر يعرف باللغة المصرية القديمة « أخو » ينقر بمنقاره نهاية الزهرة . وكان يحمى هذا التاج آخر من النحاس الموشى بورقه رقيقة جدا من الذهب ، كأنها الهباء لتستبر لون النحاس الذى يقبل الصدا بسرعة وكان هذا الشريط كذلك مثقوبا مثل الشريط الذهبى فى ثلاثة مواضع فى كل ثقب مسار من النحاس . قد استعملا لحل التاج الذهبى خوفا من تثنيه . وقد عثر الأستاذ « أشتايندورف » على تاج مثله من النحاس فى منطقة الأهرام سنة ١٩٠٣ . ومن المحتمل جدا أن صانعيها واحد ، وقد قال الأستاذ « شيفر » العالم الأثرى الألمانى أن الطائر الذى ينقر الزهر هو « الفرموق » (مالك الحزين) ولكنه فى الواقع الطائر الذى يسمى الكركى « إيس » ؛ وهذا التاج يعد من فرائد الفن التى أخرجتها يد الصانع فى هذا العهد . وعثر حول رقبة هذه السيدة على قلادة جميلة الصنع من الذهب تحتوى على خمسين قطعة كل منها يمثل خنفساء ، وقد نظمت كلها فى خيط من الذهب يمر فى وسط كل منها ، ومن المحتمل جدا أن كلا من هذه القطع كان يعد تعويذة يرمز بها للإلهة « نيت » وأن السيدة التى نظمت هذا العقد بهذه الكيفية كانت ترغب فى حماية هذه الإلهة ولا يمكننا أن نعرف للآن لماذا كانت هذه الحشرة رمزا للإلهة « نيت » ، ومن المحتمل جدا أنها الحشرة « عنخ » (الحياة) التى ذكرت فى متون الأهرام (1)

كنز عثر عليه فى
مقبرة بحفائر الجامعة
بمنطقة الهرم من عهد
الأسرة الرابعة

(1) Pyr. 1301, C, etc.

ويظن بعض العلماء أنها الحشرة المقدسة التي سبقت « الجمل » (الجمران) وكانت الأولى تقديس منذ قبل الأسرات إلى الدولة القديمة والثانية كان تقديسها شائعا في العصور التي تلت إلى نهاية التاريخ المصري . وعثر على قلادة أخرى حول رقبة هذه السيدة يستدل من نظمها على أناقة الجنس اللطيف في هذا العصر ، وتتألف من محبتين من الذهب بينهما حبات من الذهب والخرز وقد وجد مع هذه القلادة ست قطع من البرنز الموشى بالذهب كل منها على شكل حرف النون بالمصرية أى كوج الماء وهذه كانت تنظم على مسافات متساوية في وسط القلادة لتعطيها صلابة ومثانة . أما جثة هذه السيدة فوجدت مغطاة بثوب مصنوع من الخرز ، وفي أطرافه قطع من النحاس مخروطة الشكل كانت توضع كأهداب لتجعله مسدلا على الجسم بدون حركة كثيرة . وقد عثر على قطع متماسكة تدلنا على كيفية نظم الخرز على هذا الثوب .

وكذلك عثر في مقبرة الأميرة « حمت رع » في حفائر الأهرام ، على رسم ثوب محلى بالخرز بألوانه الزاهية . أما أعجب ما كشف في هذه المقبرة فمقد قد انقرط نظمه ، وهو يتألف من حبات من الفيروز بلغ من دقتها وصغر حجمها أنه لا يمكن أن يلتقطها الإنسان بطرفي أصبعيه ، ومما يزيد العجب والدهشة أنها مثقوبة ولا يمكن لأى خياط أن ينفذ منها مهما كان دقيقا ، وهذه الحبة نفسها كانت مركبة داخل أخرى من الذهب مثقوبة أيضا ؛ وقد عثر على آلاف من هذه الحبات ، ولم يمكن نظمها للآن . وليس لدينا أى تعليق على كيفية صنعها غير أننا نتساءل عن تلك الآلات المتساهية في الدقة التي استعملت في ذلك العهد السحيق

دقة قطع الخرز
وصنعه

عهد الأسرة الرابعة أى منذ خمسة آلاف سنة تقريبا لصنع هذه الحبات .
وأظن أن الجواب على ذلك سيقى من العضلات وينضم إلى العضلات
المصرية الأخرى التى لم يهتد لحلها بعد .

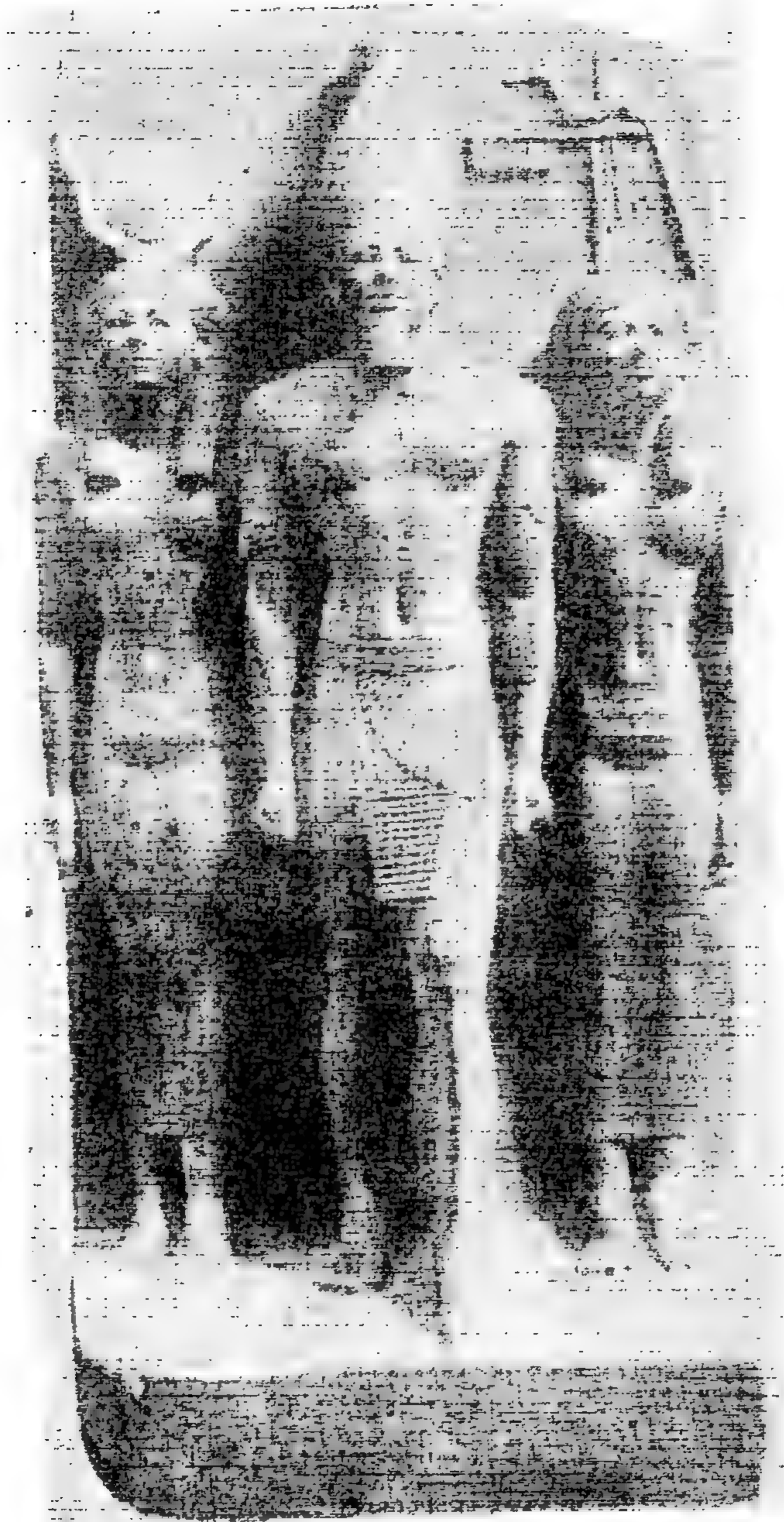
وقبل أن نختم كلامنا فى هذا الفصل الموجز عن الفن عند قدماء
المصريين نقول أن كل فن فى أية بقعة من بقاع العالم لا بد أن يمر
بأطوار ثلاثة . النشوء ، والارتقاء ، ثم الانحطاط . وأنه لم ينشأ فن فى
بلد ما لأجل الفن بل كان دائما بداية نشأته المنفعة قبل كل شئ فن الرسم
والتصوير والنحت فى كل التاريخ القديم كان الغرض منه السحر والدين ، وقد
استمرت هذه البواعث هى المقصودة ولكن على مر الأيام تربي الذوق الفنى وأصبح

الادوار التى يمر
بها الفن



الفنان يتذوق فنه فبرع فيه
حتى بلغ القمة ، وبعد ذلك
يأخذ الفن فى الانحطاط
لأسباب عدة منها ما هو
دينى ومنها ما هو اقتصادى
ولكن الروح القديمة التى
حافظت عليها التقاليد تنبعث
من وقت لآخر فى وسط
هذا الانحطاط فتبرز لنا بعض
قطع ممتازة تظهر لنا جمال الفن
المصرى كما كان فى عهد عنفوانه
فى وسط التدهور الذى حاق به .

الملك «خفرع» وبعد أجل قطعة حفر فى حجر الديوريت



الملك «منكاورع» يمثل بين إلهتين ، عثر عليه في معبد الوادي لهرمه بالجيزة.

مصادر فصل الفن

إن معظم ما كتب عن الفن المصرى لا يمكن فصله عن المعتقدات الدينية، إذ كان كل منها يؤثر فى الآخر لأن العقائد الدينية كان لها القدح الملى فى تسيير الفن وتطوراتها ولذلك نجد أحيانا مظاهر فى الفن لا تتفق مع ذوقنا الحديث ولكن كان لابد من وجودها خضوعا للعوثرات الدينية والجنازية واهم المصادر التى استقينا منها هذا الفصل ما يأتى :

(1) Capart, Les Débuts de l'Art en Egypte, Bruxelles, 1931.

ويبحث عن بداية الفن فى مصر بدقة وعناية .

(2) H. Schäfer, Von Ägyptischen Kunst, 3rd Ed. Leipzig 1930.

يعد هذا المؤلف أكبر عمدة فى تاريخ الفن المصرى

(3) Schäfer, und Andrae. Die Kunst des Alten Orient, Berlin, 1925.

هذا الكتاب يبحث عن تاريخ الفن فى الشرق القديم وبه فصل

ممتع عن مصر بقلم الأستاذ شيفر .

(4) Bissing, Ägyptische Kunstgeschichte, Berlin, 1934-35.

يشمل هذا الكتاب تاريخ الفن المصرى منذ البداية حتى الفتح العربى

والمؤلف له آراء خاصة فى الفن المصرى .

(5) Klebs, Die Reliefs des alten Reiches .

هذا المؤلف يشمل كل مناظر الحياة والصناعات والحرف فى عهد

الدولة القديمة فى صور متقنة متبوعة بالشرح .

(6) Maspero, Histoire générale de l'art en Egypte, Paris 1911 (Ars Una)

يعتبر مؤلف الأستاذ مسيرو هذا من امتع الكتب عن الفن . ورغم

قدم آرائه فإنه لا يزال يعتمد عليه فى كثير من البحوث .

(7) Petrie, The arts and crafts of Ancient Egypt, London, 1923.

هذا الكتاب مختصر بسيط عن الفنون والحرف في مصر في كل عصورها وقد ترجم للفرنسية .

- (8) Perrot et Chipiez, Histoire de l'art, dans l'antiquité t. I. : L'Egypte, Paris, 1882.

رغم قدم هذا الكتاب فإنه يعد من الكتب الهامة في تاريخ الفن المصرى المقارن .

- (9) Boreux, L'art Egyptien, Paris, 1926.

هذا الكتاب مختصر صغير عن الفن ويمتاز بصوره المتقنة .

- (10) Capart. Documents pour servir à l'Etude de l'art égyptien 2 Vol. Paris 1927-31

صور هذا المؤلف غزيرة ومفيدة في دراسة تدرج الفن .

- (11) Steindorff. Die Kunst der Aeypter. Leipzig, 1928.

يتناول هذا الكتاب فن البناء والتماثيل والصناعات الدقيقة بطريقة سهلة .

- (12) H. Ranke. The Art of Ancient Egypt. Vienna - London

وأهم بحوثه فن البناء والنحت والرسم بالألوان والفن التطبيقي .

- (13) Borchardt, Statuen und Statuetten Von Konigen und privateuten, 5 vol. 1911-1836.

في هذا المؤلف أكبر مجموعة عن التماثيل في الدولة القديمة ومنها عملت كل المقارنات التى تكلمنا عنها في فصل الفن .

- (14) Reisner, Mycerinus, Cambridge, Massachusetts, U. S. A. 1930.

كتب الأستاذ ريزنر في هذا المؤلف فصلا هاما عن التماثيل من (١٠٨ إلى ١٣١) في عهد الدولة القديمة وخاصة في عهد الأسرة الرابعة .

العلوم المصرية

يعزو المصري كل ما وصل إليه من علوم ومعارف إلى الإلهة تحوت (إله القمر) ، وبمخاصة علوم الفلك والحساب والطب ، ولا غرابة في ذلك فإن الكهنة كما يقال كانوا هم الطائفة المتعلمة في البلاد منذ فجر التاريخ ، وقد بقوا كذلك طوال مدة التاريخ المصري . فكانوا ينسبون كل ما هو مشرف وكل ما هو عظيم لآلهتهم ، ولكن كل ذلك كان من نسج خيال هؤلاء الطائفة رغم تبحرهم في العلوم . والواقع أن الحاجة وسنة الرقي والبيئة كانت الدافع الأكبر للتطور الذي نجده ساثرا نحو الكمال في الحياة المصرية العلمية والعملية على السواء فنشاهد أن ما كانت تحتاج إليه البلاد من أعمال الري العظيمة وإقامة المباني الضخمة كالأهرام والمسلات والمعابد وقطع التماثيل الهائلة ، كل هذا كان يتطلب تعمقا في المسائل الميكانيكية العلمية ، والهندسة التطبيقية ، مما كان لازما لنقل الأثقال وإقامتها في أماكنها المخصصة لها . هذا إلى أن التقن في صناعة المعادن ، وعمل الفخار ، والزجاج الملون ، والقاشاني قد كشف للمصري عن خواص الأشياء الطبيعية والكيميائية مما جعله ينفرد عن باقي العالم بالنبوغ في العلم الذي اشتق اسمه من كلمة « كمي » المصرية ولذلك كان المصري أول من حنط الأجسام وعرف تشريحها .

وتدل الأبحاث العلمية على أن المصري كان ماهرا في العلوم التطبيقية وفي المسائل الفنية ، ولكنه لم يكن موهوبا في البحوث النظرية المحضه ولذلك يقول « هردوت » ، أن علم الهندسة كان وليد الحاجة عند

تحوت إله العلم

الحاجة أم الاختراع

تفوق للمصري في
العلوم التطبيقية

سبب اختراع علم
الهندسة

المصرى وذلك عندما اراد أن يقسم الأراضي الزراعية إلى قطع متظمة .
وعلى أية حال ترى الحالة الاجتماعية في وادى النيل قد حثت نشوء
نظام ثابت عام للمقاييس . وقد استعمل المصرى فى المقاييس السطحية
الذراع والشبر والقبضة والأصبع والفيراط وكان الذراع العادى يساوى ٤٥٠ ر .
من المتر والذراع الملكى ٥٢٥ ر من المتر وهذان المقياسان كانا
يستعملان فى المباني العادية . أما فى حساب المساحات الكبيرة (١) فكان
يستعمل مقياس يسمى « إيترو » وهو « سونيوس » الأغريقى ويساوى
تقريباً نحو ٥٠٠٠ ذراعاً . وكان المساحون الملكيون يقيسون الأرض بوحدة
تسمى « ستا » وتساوى نحو ٢٧٥٦ متراً مربعا وكانت وحدة المكايل
تسمى « هنو » ويساوى ٤٥ سنتيمتراً أما معيار الوزن فكان « الدين »
ويساوى نحو ٩٢ جراماً . واستعمل المصرى الميزان لوزن الأشياء العادية
وبخاصة التى كانت تحتاج إلى دقة .

ولم تكن النقود بالمعنى المتعارف بيننا معروفة عند المصريين حتى العصر
الفارسى ، ولكن كان يوجد لديهم معيار لتقدير قيمة الأشياء يسمى « شعت »
للدفع به أو للمبادلة بما يساوى قيمته كما شرحنا ذلك .

علم الرياضيات

تدل الوثائق التى فى متناولنا على أن المصرى كان يستعمل الأرقام
فى الحساب منذ فجر التاريخ بل قبل عهد الأسرات بقليل ، ولكن لم تصل
إلينا وثائق مكتوبة عن الرياضيات إلا منذ زمن الأسرة الثانية عشرة .

(1) Griffith, Proc. S. B. A. 1892 p. 403.

ويمكننا أن نؤكد أنه منذ عهد الملك « نعرمر » كان يوجد في مصر نظام الأرقام بكل علاماته حتى العلامة التي تدل على ألف يضاف إلى ذلك أن نقوش حياة « متن » قد كشفت لنا عن وجود مقاييس للأراضي ، وقد حصل عليها بنفس الطريقة التي كانت متبعة في ورقة (رند) التي يرجع تاريخها إلى عهد الدولة الوسطى . وقد أعطى فيها مساحة سطح المستطيل مضبوطة . وكان المصري قد اتخذ وحدة للمقاييس السطحية الكبيرة « الحكات » وقد جاء ذكر ذلك في أوراق بردية ترجع إلى الأسرة السادسة (1) ومن المحتمل أنه كانت توجد وحدات للموازين أيضا .

ظهور الأرقام منذ
عصر ما قبل التاريخ

وخلافا لما ذكرنا لانجد لدينا ما يسمح بتتبع تاريخ بداية علم الرياضيات في مصر حتى الأسرة الثانية عشرة . وهي الفترة التي نجد فيها وثائق عظيمة ذات اصطلاحات ثابتة . وهذه الوثائق هي ورقة مسكو وورقة كاهون وبرلين . وكذلك يعزى إلى هذا العصر ورقة رند (2) وإن كانت النسخة التي وصلت إلينا كتبت في عهد الهكسوس . ومن هذه الوثائق يمكننا أن نأخذ فكرة عن علم الرياضيات المصري قبل أن يتأثر بالرياضيات الإغريقية .

الأوراق الرياضية
التي وصلت إلينا

وستترك أوراق الدولة الوسطى جانبا الآن وتقتصر في كلامنا على ورقة (رند) التي يعتقد بعض المؤرخون أنها كورقة « ادون سميث الطيبة » ترجع إلى عصور قديمة جدا قبل الدولة الوسطى . وقد اشترى رند هذه الورقة عام ١٨٥٢ من أحد المباني الأثرية

(1) Z. A. S. 48, p. 100. (2) Peet, The Rhind Mathematical Papyrus p. 9.

الواقعة بجوار معبد الرميوم بالأقصر وكان معها ورقة « ادون سميث »
الطية التي تكلم عنها فيما بعد . وقد ذكر كاتب الورقة أنها كتبت في
السنة الثالثة والثلاثين من حكم الملك « أبوفيس » وهذه النسخة منقولة
عن أصل من عهد الدولة الوسطى .

وقد قسم الأستاذ « يت » محتويات هذه الورقة إلى أربعة أقسام :
الأول : المقدمة : وتحتوي على جداول لحل الكسور التي بسطها اثنان . والباقي ثلاثة
كتب : الأول عن الحساب ، والثاني عن المقاييس ، والثالث عن مسائل حساية
والكتاب الثاني قسم إلى ثلاثة أقسام هي : كتاب الأحجام والاحجام
المكعبة ، وكتاب المسطحات ، وكتاب زوايا الميل الهندسية .

ورقة رند ومحتوياتها

وقد عرض المؤلف بعض مسائل حساية عن الدخل والخرج في مصالح
خزينة الدولة وعن المبادلات .

وقد استعمل في العمليات الحساية الجمع والطرح والضرب والقسمة ،
غير أنه كان يستعمل في الضرب والقسمة طريقة الجمع فمثلا لايجاد حاصل
ضرب ٨ x ٨ كانت المسألة تحل بالكيفية الآتية :

			مسألة ضرب	
٨	(مرة واحدة)	يساوى	٨	١
١٦	»	(مرتين)	١٦	٢
٣٢	»	(أربع مرات)	٣٢	٤
٦٤	»	(ثماني مرات)	٦٤	٨

أما في عملية القسمة فلنأخذ مثلا رقم ٧٧ مقسوما على ٧ فتكون
نتيجة ترتيبه كالآتي :-

مسألة فسه	فاستعمل نفس الطريقة الأولى في الضرب وجعل	٧	١
	يأخذ من جهة اليسار الأرقام التي يكون مجموعها ٧٧	١٤	٢
	فكانت ٧ و ١٤ و ٥٦ ثم أخذ ما يقابل هذه الأرقام	٢٨	٤
	من جهة اليمين فكانت ١ و ٢ و ٨ أى مجموعها رقم ١١.	٥٦	٨

أما حساب الكسور فكان ساذجاً إذ كان المصري يستعمل في العادة البسط ١ فإذا أراد مثلاً أن يكتب الكسر $\frac{١}{٦}$ كتبها كذلك $\frac{١}{٦} \frac{١}{٦} \frac{١}{٦} \frac{١}{٦}$ ومع ذلك نجد مستعملاً في كسورهم $\frac{٢}{٣}$ و $\frac{٢}{٤}$ وأحياناً كان الكاتب يريد أن يتلهم بهذه الاصطلاحات الكسرية فيعبر عن الرابع والعشرين من الشهر بالكيفية الآتية : $\frac{٢}{٣} \frac{١}{١١} \frac{١}{١١}$ يوماً فعلينا أن نأخذ $\frac{٢}{٣}$ من الشهر أى ٢٠ يوماً ثم $\frac{١}{١١}$ من الشهر أى ٣ أيام وأخيراً $\frac{١}{١١}$ من الشهر أى يوماً واحداً فيكون مجموع الأيام التي يقصد التعبير عنها $٢٠ + ٣ + ١ = ٢٤$ يوماً وسنكتفي هنا بهذا القدر عن الرياضيات في عهد الدولة القديمة على أن نعود للموضوع بإسهاب عند الكلام عن الرياضة في عهد الدولة الوسطى والحديثة .

علم الفلك عند قدماء المصريين

إن معلومات المصريين العامة عن علم الفلك لا تختلف كثيراً عن المعلومات الكلدانية الآشورية فيما يختص بالأجرام السماوية ؛ وتدل المصادر الوثيقة على أنه كان هناك علاقات متصلة بين القطرين منذ حوالي ٢٤٠٠ ق م وهو العهد الذي نزلت فيه أقوام كلدية وآشورية إلى أراضى الدلتا (١) . ولا بد أنه كانت توجد بين البلدين علاقات قبل هذا الوقت ولكنها كانت ضئيلة .

وتنحصر مميزات الفلك المصرى على وجه خاص باختراع النتيجة المصرية التى تكلمنا عنها فى (الجزء الأول ص ١٥٢) . على أن بعض علماء الفلك عارض أخيراً فى البحوث التى قام بها العلماء فى موضوع النتيجة المصرية قائلاً إنها لا تتركز على أساس علمى .

والواقع أن المصرى القديم كان يمتاز عن باقى أمم العالم بقوة ملاحظاته وميله إلى الأشياء العملية وبعده عن الفلسفة ونظرياتها كما نرى ذلك فى بحوثه فى علم الرياضيات والطب والهندسة وغيرها .

رصد الشمس

ولا أدل على ذلك من أنه كان فى (عين شمس) كاهن كان خاص لمراقبة سير الشمس يسمى الرأى العظيم ، وكذلك كان فى المعابد جماعات كهنه لمراقبة سير النجوم . على أن تقسيم السنة إلى أشهر قمرية كل منها ثلاثون يوماً ، أكبر دليل على معرفة تامة بمنازل القمر .

أما النجوم فتذكر لنا متون الأهرام من عهد الدولة القديمة أنها كانت

(1) Moret, Des Clans aux Empires, p. 246.

تنقسم إلى نوعين : النجوم التي لا تفتنى « إخموسك » أى التي تكون دائماً ظاهرة فى السماء . ثم النجوم التي لا تتعب وهى النجوم السيارة « إخموررز » وقد عرف المصرى من الأخيرة الخمسة التي ترى بالعين العارية وهى المشترى وزحل ، وعطارد ، والمريخ ، والزهراء . وقد شوهدت منذ الدولة القديمة على الأقل . أما النوع الثانى فينحصر فى ٣٦ نجماً (١) قد خصصها المصريون لمعرفة الوقت . وكان كل منها فى نظرم يعتبر إلهة لعشرة أيام من الثلاثمائة والستين يوماً التي تتألف منها السنة البسيطة ويخرج من ذلك أيام النسيء الخمسة . وأقدم قائمة بأسماء هذه الآلهة وجدت على غطاء تابوت من الدولة الوسطى فى طيبة وقد عثر على قوائم أخرى لهؤلاء الآلهة فى مقابر الملوك « سبتى الأول ورعمسيس الرابع » وكذلك وجدت مرسومة فى سقف معبد الرمسيوم وفى معابد البطالسة . أما البروج الاثنا عشر فلم تظهر إلا فى العصور المتأخرة جداً وقد استعيرت أسماءها من أسماء البروج اليونانية التي نقلتها بدورها عن الكلدانية فهى ليست مصرية وهذه البروج هى : الحمل والثور ، والقوس ، والعقرب ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة والميزان ، والدلو ، والحوت ، والجدي والجوزاء .

ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن أسماء الشهور التي تعزى إلى مصر قديماً قد نشأت فى العهد الإغريقى القبطى ، غير أن أسماءها قد أخذت من أسماء أعياد قديمة كانت تقام للآلهة الذين سموها بها وهى خمسة أيام النسيء ثم توت وبابه وهاتور وكيهك ويتألف منها فصل الفيضان ، ثم طوبة

(1) Ann. du Serv. Ant. t. I, p. 79. ; Spiegelberg Z. A. S. t. XLVII p. 146 ; XLIX p. 67. ; LVI p. 202.

أنواع الاجرام
السموية عند المصرى

أسماء الشهور ظهرت
فى العصر المتأخر

وأمشير وبرمهاث وبرمودة ويتألف منها فصل طلوع التبت ، ثم بشنس ، وبثونة وأيب ومسرى ويتألف منها فصل الصيف . وكان اليوم في نظرم ينقسم إلى اثنتي عشرة ساعة نهاراً واثنتي عشرة ساعة ليلاً . كانت فصول السنة وقد كانت تقاس . أوقات اليوم بساعات على أنواع مختلفة منها الساعات الشمسية أو المزولة وهي آلة تعرف ساعات النهار بواسطة الظل ولا يزال الفلاح المصري يستعملها حتى الآن ^(١) ، وساعة مائية وهي انا . ذو حجم معين مقسم إلى أقسام كل منها يفرغ في زمن محدد وقد عثر على واحدة منها ^(٢) أما خلال الليل فكانت كذلك تعرف الساعات بمراقبة النجوم ورصدها .

رصد النجوم

وقد عثر في مقابر الملوك من عهد الأسرة العشرين على قوائم نجوم بعضها خاص بالنصف الأول من الشهر وبعضها خاص بالنصف الثاني منه ، وقد عمل هذا الرصد بالنسبة لبعض أجزاء الجسم (على الرأس أو على ارتفاع العين أو الكتف) لرجل جالس أمام الراصد وهذا الراصد كان يرصد النجوم بآلة معلق بها خيط فيه ثقل . ويلاحظ أن الراصدين كانا في الجهة الجنوبية ^(٣) .

وقد كان يوجد بجانب علم الفلك الحقيقي علم التنجيم وكان يعتقد فيه المصريون كثيراً . إذ كان لكل شهر ولكل يوم ولكل ساعة إله حارس يتدخل في أقدار الناس وحظوظهم سعيدة كانت أو شقية . وقد

(١) ويلاحظ أنه في إحدى مواقع تحتمس الثالث في عمر (أوانا) و(مجدو) في جبال الكرمل نقرأ

أن الجيش كان يسير في وقت الظهيرة « في الساعة التي رجع فيها الظل »

Moret, Le Nil, p. 315.

(2) Erman-Ranke, Ægypten, p. 400. (3) Z. A. S. t. XII p. 222.

وقعت بعض حوادث الآلهة في تواريخ معينة فكان منها ما هو سعد وما هو بؤس . وكان من فائدة بنى البشر أن يعرفوا هذه الأوقات ولذلك ألف الكهنة والسحرة كتباً في هذا الموضوع وأقدمها يرجع إلى عهد الدولة الوسطى وقد عدد فيها أيام الشهر ونعت بعضها بكلمة (خير) أو بكلمة (شر) أو (خير وشر) معاً حسب الوقت فتجد في الشهر تسعة أيام شراً وثلاثة أيام خيراً وشرّاً معاً وما بقي خيراً .

علم التنجيم

ولدينا ثلاث ورقات من عهد الدولة القديمة تشمل كل منها أيام السنة وتمتاز بأنها عرفت السبب الخرافى للسعد أو النحس ، والخير أو الشر، وقد كان الأخير يكتب بالمداد الأحمر لون الإله « ست » رب الشر . وقد طبع العالم شاباس إحدى هذه الأوراق باسم نتيجة السنة للأيام السعيدة وأيام النحس (1) . فمثلاً يقول أن يوم ٢٦ توت يجب ألا يعمل فيه شئ، قط لأنه اليوم الذى تحارب فيه « حور » مع « ست » فهو مثلث شر ، على حين أن اليوم السابع والعشرين من شهر هاتور هو يوم الصلح بين « حور » و « ست » فهو مثلث سعد. الخ وكانت هذه الأوراق تلف بعناية وتستعمل تعاويذ تقي حاملها الشر وتمنحه الخير .

وقبل أن تترك موضوع الفلك عند المصريين ذكر العالم « ابل رى » أن الفلك المصرى لا يختلف عن الفلك الكلى والصينى فى عامته إلا فى نقطتين (2) : الأولى أننا لا نجد فى الفلك المصرى أية إشارة إلى خسوف

(1) Le Nil p. 531.

(2) Abel Rey, La Science Orientale avant les Grecs, p. 301.

القمر وقد يعزى هذا إلى قلة المصادر لدينا مع أنه قد وجد على الآثار المصرية إشارات فلكية عدة لم يأت فيها ذكر خسوف القمر ورسمه بهذا الحالة قط خلافا للآثار الكلدية والصينية ، هذا رغم أن « أرسطو » قد ذكر لنا أن المصريين كانوا يرصدون سير الفلك من زمن بعيد جدا والظاهر أن هذا الموضوع كان في نظر المصري ثانويا .

النقطة الثانية ولها علاقة بالأولى : هي أن القمر لم يلعب إلا دورا ضئيلا جدا بالنسبة لأهميته في كلديا والصين . إذ لا نجد له (خلافا لتعداد الأشهر بوساطته) أى دور هام في علاقته بالشمس كما هو الحال في كلديا فمن ذلك نلاحظ أن القمر لم يلفت نظر المصريين كالشمس أو النجوم . والواقع أن أساس الفلك المصرى يرتكز في معظمه على النجوم مما يدل على روح قوة الملاحظة العملية التى كانت تميز المصرى فى كل أعماله . ولكن كشف حديثا فى منطقة أبويس بالشرقية عن غطاء تابوت للعجل « باكاور » معبود هريط منقوش عليه منازل القمر فى بروج المختلفة أثناء الشهر والسنة كلها وعددها ٣٦ منزلا (١)

الطب

ذكرنا عند الكلام على الطقوس الدينية للدفن فى عصر ما قبل الأسرات أن المصريين كانوا أحيانا يشرحون الأجسام الآدمية وينتزعون ما عليها من لحم ثم يلقون العظام بكل دقة وعناية ويضعونها فى المقابر (أنظر جزء أول ص ٧٧) وفى هذا دليل على أن المصرى كان منذ الأزمان المتوغلّة فى القدم

(١) وقد كتب عن ذلك العالم « بورخارت » ضمن مذكراته الخاصة وأرسل لمدير خاترا أبويس خطابا يشرح فيه هذا الكشف والمذكرات الخاصة بالكشف المذكور لم تظهر إلى علم الوجود بعد.

يعرف تشريح الجسم وفصل أجزائه المختلفة بعضها عن بعض .

وفي العصر الطينى رأينا المصرى يحنط الجسم منذ الأسرة الثانية

وهذا دليل آخر نعلم منه أن المصرى كان يعرف تشريح الجسم ومعالجته
ظاهرا وباطنا وإن كان بعض العلماء يعتقد أن المخططين كانوا طبقة خاصة
غير طبقة الأطباء كما سنشير إلى ذلك فيما بعد .

وعلى أية حال فإن المصرى منذ فجر التاريخ كانت عنده فكرة واضحة

عن الأمراض وأسبابها وطبائعها .

ولا شك في أن علم الطب قد اكتسب في مصر أولا بالتجارب

والملاحظات ثم تلا هذا الدور تعليم فن الطب الحقيقى فى مدارس خاصة

ولا غرابة فى ذلك فقد كان الإغريق يشيدون بذكر الأطباء المصريين

ويتناقلون كتب طبهم ويحفظونها ليهتدوا بهديها (1) .

وتدل النقوش المصرية من عهد الدولة القديمة على أنه كان فى مصر أطباء

من كل نوع فى درجات مختلفة ، فقد كشف حديثا عن مقابر أطباء

فى منطقة الجيزة بحفائر الأستاذ ينكر وحفائر الجامعة المصرية نخص بالذكر

من بينهم طيب القصر الملكى « إرى » (2) ولم يكن « إرى » هذا طيب

القصر الملكى فحسب بل كان رئيس أطباء البلاط ، يضاف إلى ذلك أنه

كان متخصصا فى مرض العين والأمراض الباطنة ولذلك كان يحمل

لقب (الذى يفهم السوائل الداخلية وحارس الدبر) مما يدل دلالة واضحة

على أنه كان مختصا بالطب الباطنى وعالماً بالأمراض الخاصة بأعضاء الهضم .

وهذا الاختصاص فى عهد الدولة القديمة يعززه وجود أطباء أسنان للقصر

مهنة الطب فى عهد
الدولة القديمة

(1) Moret, Le Nil, p. 523.

(2) Z. A. S. t. 63 p.p. 53-70.

الملكي . والواقع أنه عثر في عهد الأسرة الرابعة على حالة تثل على تقدم جراحة طب الأسنان في ذلك العهد أي منذ ٢٨٠٠ سنة ق . م . إذ وجد فك في مقبرة من هذا العهد أجريت فيه عملية في التتوات السنجية وذلك بئقها لأجل إخراج المادة القيحية من دمل تحت الضرس الأول (١) كل ذلك يدل على معلومات قيمة مفصلة تشعر بالتخصص في فروع الطب . وتدل النقوش على أن وظيفة الطبيب كان يتناقلها الابن عن الأب كباقي صناعات مصر في ذلك العهد .

التخصص بين
الاطباء

وكلمة طبيب بالمصرية « سنو » ربما كان معناها المصلح او الشافي . والظاهر أن هذه الوظيفة كانت في بدايتها دينية إذ نجد غالباً أن صاحبها الذي يحمل لقب طبيب كان في الوقت نفسه كاهناً للإلهة مثل الإلهة « سلكت » أو الإلهة « نيت » .

وتدل الأحوال على أن نشأة الطب كانت في الوجه البحرى وأن أهم مراكزه كانت المعابد وبخاصة معبد عين شمس ومعبد الإلهة « نيت » في صا الحجر ومعبد الإله « أنوب » في بلدة (ليتوبوليس) ومعبد الإلهة « باست » (القطة) في تل بسة وكان كاهن تلك الجهة يحمل لقب كبير الأطباء . (٢)

نشأة الطب في الوجه
البحرى

وتدل النقوش التي وصلت إلينا على أن أقدم كتاب في الطب يرجع تاريخه إلى عصر الملك « أوسافيس » (دن) من الأسرة الأولى كما جاء ذكر ذلك في فاتحة ورقة « إيبس » (أول كتاب خاص بشفاء الأمراض هو الذى وجد بالكتابة القديمة في صندوق من عهد

(1) Hooton, Oral Surgery in Egypt during the Old Empire (Harvard African Studies, I) (2) Urkunden, t. I, 42.

الملك « أوسافيس » (ولدينا من جهة أخرى وثيقة من الدولة القديمة (انظر الجزء الأول ص ٣٤٢) تدل دلالة واضحة على أن الملك « فر إركارع » قد أحضر المخطوطات الطبية من مكانها الخاص للإسعاف مهندس العظيم الذي كان يحضر ، وعلى ذلك يمكننا القول بأنه كانت توجد كتب طبية منذ بداية الأسرة الخامسة (منذ ٢٨٠٠ ق . م .) ولكن لم يصلنا منها شيء بخط هذا العهد .

الوثائق الطبية منذ
الأسرة الأولى

وكل ما لدينا من الأوراق الطبية قد وصلنا من عصور متأخرة عن الدولة القديمة وإن كان بعضها يرجع إلى ذلك العهد وأهمها ما يأتي : (١) ورقة برلين ويرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد (٢) ورقة إيبس الموجودة الآن في متحف ليزج ويحتمل أنها كتبت في القرن السابع عشر ق . م (٣) ورقة هرست وهي الآن في جامعة كاليفورنيا (٤) ورقة لندن وربما يرجع تاريخها إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد (٥) وأهم من كل هذه الأوراق بردية ايدون سميث وقد ثبت من الفحص اللغوي أنها ترجع إلى عهد الدولة القديمة رغم أن النسخة التي عثر عليها يرجع تاريخها إلى عصر الهكسوس أو على وجه التقريب في عهد تحتمس الأول . والواقع أن محتوياتها قد فتحت لنا دينا جديدة في عالم الطب الجراحي في مصر فقد ثبت لنا بالبراهين الناصعة أن الطب المصري لم يكن يرتكز على مجرد تعاويذ سحرية في معظم الأحوال كما كان الأمر قبل درس محتويات هذه الورقة وكذلك أكدت لنا أن الطب كان متقدما في مصر منذ عهد الدولة القديمة وأنه كان قائما على أسس علمية محضة لا تختلف عن الطب الحديث في شيء ويرجع الفضل في إظهار كل هذا إلى الدرس

الأوراق الطبية التي
وصلت إلينا

الدقيق الذى قام به الاستاذ برستد (1) لهذه الورقة وبخاصة بعد أن ثبت أنها ترجع إلى عهد الدولة القديمة .

وتنقسم مواد هذه البردية إلى ثلاثة أقسام ظاهرة كل منها مأخوذ من منبع مختلف عن الآخر : القسم الأول يحتوى على سبعة عشر عموداً مكتوبة على وجه الورقة وتنحصر أهمية هذه الورقة المنقطة القرين من الوجهة العلمية فى محتويات هذه الأعمدة وهى بحث فى الجراحة وطب الجراحة ومعالجة الأمراض الظاهرة والتشريح ، والقسم الثانى يشتمل على تعويذة لإبعاد الهواء فى سنة الطاعون

ورقة ادون سمس
ومحتوياتها

والقسم الثالث تعويذة لإرجاع الشيخ إلى صباه . فنرى أن القسمين الأخيرين هما تعويذتان سحريتان تشبهان فى نوعهما الوثائق الطبية التى بقيت لنا من الطب المصرى القديم ، ولكن القسم الأول من الورقة هو كما ذكرنا وثيقة فريدة فى بابها قد قلبت كل الآراء التى كانت معروفة حتى الآن عن الطب المصرى رأساً على عقب إذ تحتوى على معلومات مرتبة ترقياً علمياً منطقياً فقد فحص مؤلفها الجسم الإنسانى من الرأس إلى القدمين ورتب مادتها بطريقة دقيقة وهى أوصاف طبية وبحوث عن حالات خاصة بجراحة العظام والعلاج الظاهرى وهذا يذكرنا بدقة المشاهدات التى نجدها فى الطب الحديث .

ونرى أن مؤلف هذه الورقة قد دون عشر مشاهدات (حالات) عن الجمجمة وسبعاً عن الأنف وعشراً عن الفك والأذن والشفتين وستاً عن الزور والرقبة وخمساً عن الترقوة والكتف ومشط الكتف وستاً عن الصدر ومقدمته

(1) Breasted, The Edwin Smith Surgical papyrus, Oxford, 1930.

وواحدة عن العمود الفقري . ومما يؤسف له جد الأسف أن الورقة قطعت عند هذا الحد . غير أن النظام العلمى لم ينحصر فى ترتيب أبواب هذه الوثيقة ووصف تشريح الجسم الإنسانى لأن ذلك وحده لاستخلص منه شيئا كثيرا (رغم أننا لم نشر عليه فى كل ما لدينا من الأوراق الأخرى) بل المهم أننا وجدنا مع كل مشاهدة أو حالة ما يأتى : - (١) العنوان العام الذى ينطبق على الحالة وهو : تعليمات لأجل (يتلو ذلك اسم المرض) - (٢) يأتى بعد ذلك الفحص الطبى و يعبر عنه بالصيغة الآتية : إذا فحصت إنسانا عنده (يتلو ذلك وصف أعراض المرض) (٣) تشخيص المرض و يبتدىء بالكلمات التقليدية الآتية : أما فيما يختص بذلك فإنه مريض يتألم من (اسم المرض) . (٤) رأى الطبيب أو كما تترجم اللفظة المصرية (الحكم) و يعبر عن رأى الطبيب فى الورقة بثلاث حالات فيقول : (١) مرض يمكننى معالجته (رأى حسن) (٢) مرض يمكننى محاربته (رأى فيه شك) (٣) مرض لا أعالجه (رأى يدل على اليأس) (٥) يعرض الطبيب العلاج و بعد ذلك تأتى شروح تفسيرية وعددها سبعون . ولسنا فى حاجة أن نذكر هنا أن الطبيب الذى ألف هذه الورقة كان صافى الذهن منظم الفكر منطقى القول فلم يكتف بجمع تعاويد سحرية ووصفات طيبة متخبطا فى ذلك خبط عشواء كما هو الحال فى الأوراق الطبية الأخرى التى عثر عليها حتى الآن وقصارى القول نجد فى هذه الورقة بحثا علميا رجع فيه المؤلف الى مصادر أصلية كانت لاتزال مجهولة فأبرزها أمانا بطريقة واضحة لأول مرة فى تاريخ البشر ولا غرابة إذن إذا اعتبرناه الجندى المجهول فى تاريخ الطب فى العالم .

ولا يتسع المجال لنا هنا للتكلم بالتفصيل عن الشروح السبعين التى تتبع الحالات التى ذكرناها إذ هى فى الواقع تعاريف للتعبير والألفاظ التى جاءت فى

المتن وكان الغرض منها غالبا تفسير بعض مسائل في التشريح لها أهميتها وسنكتفي هنا بذكر مثال واحد على جانب عظيم من الأهمية لأنه يصف وصفا دقيقا القلب والدورة الدموية التي جاء ذكرها في ورقة « إيبرس » بطريقة مبهمة وهو : « يوجد في القلب قناة تتصل بكل عضو في الجسم فإذا وضع الطبيب : أصابعه على مؤخرة الرأس أو على اليد أو على النبض أو على الذراع فانه يحس بالقلب لأن القلب متصل بكل عضو ويتكلم في كل عضو (1) .

والخلاصة أن محتويات هذه الورقة قد وضعت الطبيب المصرى في أول صحيفة الأطباء في العالم من الوجهة العلمية . والظاهر أنه كان يوجد في مصر في عهد الدولة القديمة بل وفي كل عصور التاريخ المصرى القديم أطباء يعالجون بالطرق العلمية وبجانبهم طبقة ثانية من الأطباء يعالجون بالسحر والطب معا وسبب ذلك طغيان العقائد الدينية وتدخلها في الأمور الدنيوية ، هذا الى تمسك المصرى بالمعتقدات القديمة الخرافية التي ورثها عن أجداده منذ عصر ما قبل الأسرات ولا تزال آثارها باقية إلى الآن عند عامة الشعب المصرى إذ نجد أن الجرم النفير لا يزال يعتقد في قوة التعاويذ السحرية مع وجود الأطباء الذين يعالجون بالطرق العلمية بين ظهرانيهم .

(1) Breasted, The Edwin Smith Pap. (The New York - Hist. Soc. Quart Bull.) 1922, Vol VI, p. 4-31.

التحنيط

لقد غالى هردوت كما يقول مسبرو (١) عندما ذكر أن المصرى كان لا يفرق بين الطبيب الكهنوتى وبين الطبيب الذى يعالج بالتعاونيد السحرية وأنه لا فرق بين الطبيب العام وبين الجراح المتخصص .

وقد ذكر بعض العلماء أن المصرى لم يكن نابغة فى علم التشريح لأن جراحة الجسم كانت محرمة فى العقائد الدينية ولذلك كان المخطون يؤلفون طبقة خاصة ليست لها علاقة بالأطباء وكان أفراد هذه الطبقة أقل درجة من الأطباء لأنهم كانوا مختصين بالجثث الآدمية وتحنيطها فحسب غير أن ورقة « إدون سميث » برهنت على أن الجراحة الطبية كانت متقدمة تقدا عظيما منذ الدولة القديمة . وعلى أية حال فإن ذلك لا يمنع من أن المخطين كانوا يؤلفون هيئة خاصة على علم تام بأجزاء الجسم وتركيبه من الوجهة التشريحية كما سدرى فى سياق الكلام عن طرق التحنيط منذ أقدم العصور إلى نهاية عهد البطالسة .

إن عملية التحنيط التى اختصت بها مصر دون سواها من ممالك العالم ، لم تحقق بدايتها إلا فى عهد الأسرتين الرابعة والخامسة رغم أن كويل (٢) عثر فى عهد الأسرة الثانية على عدد من المقابر كانت الأجسام المدفونة فيها مكفنة فى لفائف بعناية ودقة ، وكان كل عضو ملفوف على حدة مما يشعر بنوع من التحنيط الذى عرفناه فيما بعد . ولكن منذ عهد الأسرة الرابعة عثر على بعض أجسام محنطة تحنيطا تاما فى حفائر الجامعة

(1) Histoire Anc. des peuples de l'Orient, p. 214 (2) Quibell, Excav. at Saqqara, (1912-1914) p.p. 11, 19, 28, 32 pl. XXIX (3).

بمنطقة الاهرام . بعضها من الأسرة المالكة وبعضها من أفراد الشعب .
يضاف إلى ذلك أن صندوق الأحشاء الذى عثر عليه للملكة « حنب
حرس » والدة « تحوفو » لا يزال يحتوى على صرة مفروض أنها تضم
أحشاء المتوفاة . وهى محفوظة فى النظرون ، مما يدل على أن الجسم كان
مخطأ ، غير أنه لم يعثر عليه فى القبر (1) . وتوجد موميا من عهد الأسرة
الخامسة فى المتحف الملكى لكلية الجراحة فى لندن (2) ، ومن ذلك
العهد أخذ المصريون يحنطون الأجسام حتى أوائل العهد المسيحى .

والرأى الشائع حتى الآن هو أن التحنيط عند قدماء المصريين سر لم
يكشف عنه حتى الآن ، وهذا فى الواقع مخالف للحقيقة إذ أن معظم مواد
التحنيط وطرقه معلومة لدينا إلا بعض تفاصيل صغيرة ، وعلى العكس فإن
طريقة التحنيط معلومة الآن أكثر من العهد الذى كانت تستعمل فيه ،
فقد كانت كل هذه العمليات فى تلك الأزمان الغابرة لا تخرج عن دائرة
التجارب ، على حين أن كل المبادئ الأساسية معلومة لنا ! الآن
وأقدم وصف للتحنيط وصل إلينا من عهد هردوت (3) ومن بعده « ديدور »
الذى زار البلاد بعده بنحو أربعة قرون . وقد كتب كل منها كتاباً عما
رأى وسمع ومن ذلك عملية التحنيط .

طرق التحنيط كما
ذكرها « هردوت »

فذكر لنا هردوت أن المصريين كانوا يستعملون ثلاث طرق مختلفة
للتحنيط . فى الأولى وكانت باهظة الثمن ، كان نخاع المخ يستخرج بعضه
بالآلة خاصة والباقي بعقاقير لم يذكر لنا اسمها أما محتويات الجوف فكانت

(1) Reisner, Bull. Mus. of Fine Arts, Boston, XXVI (1928) No 157 (2) Elliot Smith, Egyptian Mummies, p.p. 74-5.

(3) H. II, 86 - 8.

تستخرج (وربما كان المقصود من ذلك أن يشمل محتويات الصدر ماعدا القلب ، والكليتين) وبعد تنظيف الجوف بنيذ البلح والتوابل ، كان يملأ بالمر وخيارشنبر وغير ذلك من المواد العطرية ولم (تعرف أسماؤها) ولم يكن الكندر منها وكان الجزء الذى يفتح من الجسم لأجل التحنيط يخاط ثانية . ثم بعد ذلك يعالج كل الجسم بالنظرون ، ثم يغسل ويلف فى لفائف من الكتان كانت تلتصق بالصمغ .

أما فى الطريقة الثانية فكان يستعمل زيت خشب الأرز الذى كان يحقن به الجسم ثم يعالج بالنظرون . والطريقة الثالثة وهى أرخصها كانت للفقراء وتتلخص فى تنظيف الأحشاء البشرية ثم بعد ذلك يعالج الجسم بالنظرون .

أما ما كتبه « ديدور » عن التحنيط فإنه يعطينا بعض تفاصيل لم يذكرها لنا « هردوت » . فإنه وإن كان قد ذكر لنا ثلاث درجات للاحتفال المائتى إلا أنه لم يذكر لنا إلا طريقة واحدة للحنيط ، وهى إزالة الأحشاء ما عدا القلب والكليتين وذكر لنا أيضاً تنظيف الأحشاء بنيذ البلح ومعه توابل مختلفة (لم يعين اسماءها) ثم بعد ذلك يدلك الجسم بزيت خشب الأرز ، ثم يمسح بالمر والقرفة ومواد مماثلة وذلك لتعطير الجسم وحفظه . وفى مناسبة أخرى ذكر لنا « ديدور » عند ما كان يصف قار البحر الميت « أنهم كانوا يحملون هذا القار إلى مصر ويبيعونه هناك لتحنيط الموتى ، لأنهم إذا لم يخلطوا هذه المادة بتوابل عطرية أخرى ، فإن الأجسام لا يمكن أن تحفظ مدة طويلة دون تعفن . ويجب أن نلفت النظر هنا إلى أن وصف كل من « هردوت »

ما ذكره ديدور
عن التحنيط

« وديدور » متأخر جداً ، وأن المدة التي تقع بين أول بداية استعمال التحنيط وما كتبه هذان الكاتبان تبلغ نحو ٣٠٠٠ سنة ولابد أنه في خلال هذه الفترة قد تغيرت طرق التحنيط تغيراً عظيماً ولذلك لا يمكننا أن نعد وصفها دقيقاً في تفاصيله . . . وسنلخص هاتين الطريقتين ونفحص ما فيهما من الأغلاط ونتكلم كذلك عن المواد التي استعملت في التحنيط حسب ما وصلت اليه البحوث العلمية الأخيرة .

ففي الطريقة الغالية الثمن ، كان المخ ، والمعدة والأمعاء تزال ما عدا القلب والكليتين وهذا القول يتفق في جملة مع النتائج التي وصلنا إليها بعد فحص عدة موميات ، إذ نجد أن القلب دائماً قد ترك في مكانه وكذلك الكليتان ، أما الأمعاء والأحشاء فقد أزيلت (١) غير أننا نجد أحياناً بعض عظام القوم وهم الذين كانت تحنط جثثهم بالطريقة الغالية جداً ، لم تزل أحشائهم . مثال ذلك الملكة « عاشيت » زوجة الملك « منوحيب » الثاني أحد ملوك الأسرة الحادية عشرة وكذلك جثة « مايت » التي يحتمل جداً أن تكون أميرة ، وقد وجد « ونلوك » (٢) كليتيهما في الدير البحري ، وفحصهما الأستاذ « دري » (٣)

أما تنظيف الأمعاء والأحشاء بنسب البلح ، والتوابل ، فهي عمليات لم تترك طبعا أي أثر

-
- (1) G. Elliot Smith (a) A Contribution to the Study of Mummification in Egypt. in Mem de l'Institut Egyptien, V fasc. I, 1906. (b) The Royal mummies in Cat. Gen. du Musée du Caire. & W. R. Dawson Making a Mummy in the J. E. A. XIII (1927) p. 40-9. (2) Winlock. Egyptian Exped 1920-1921 Bull. Metrop. Mus. of Art. New-York, 11, p.p. 36-52. (3) Derry, Report upon the Examination of Tut-Ankh Amen's Mummy in the Tomb of Tut-Ankh Amen by Howard Carter II, p. 146.

أما التجاويف التي كانت تتخلف في الجسم بعد هذه العملية فكانت تملأ بالمر وخيار شنبر ومواد أخرى عطرية ثم بعد ذلك يخط الجزء الذي فتح لاجراء عملية التحنيط . وقد ذكر لنا « هردوت » بصفة خاصة أن هذه العمليات كانت تحدث قبل معالجة الجسم بالنظرون ، ورغم أن الدكتور بتجرو Pettigrew (1) ، واليوت سميث (2) ، ودوسون يشكون في ذلك ، فإن ذلك من الجائز إذ ربما كانت توضع هذه المواد العطرية لتحفظ رائحة الجسم جميلة أثناء فتحه وقد لوحظ أن الفتحة التي كانت تعمل في الجسم للحنيط لم تخط ، هذا إلى أنه لم يمكن تمييز المر أو الخيار شنبر بالتحقيق في تجويف المعدة أو الصدر أما أهم المواد التي حشيت بها هذه التجاويف فقد وجدت أنها كتان (3) أو الكتان (4) والراتينج ، والشارة (5) ، أو نشارة (6) وراتينج ، وتراب ونظرون وحزاز صخرى ، وأحيانا توجد بصلة أو أكثر . ثم كان يعالج الجسم بالنظرون وقد ذكر ذلك « هردوت » فقط ، وسنتكلم عنه فيما بعد .

نتائج فحص مواد
الحنيط

بعد ذلك كان يغسل الجسم ولم يأت ذكر ذلك إلا في « هردوت » ولكن هذا أمر طبيعي كان لابد من حصوله . ويظن الكيائي « لوكاس » (7) أن العطب العظيم الذي يشاهد غالبا في لفائف الموميات ، القرية للجسم ، بالنسبة لللفائف الخارجية كان سببه نمو الفطريات التي تنشأ من لف الجسم وهو لا يزال مبللا ، مما يدل على أنه في هذه الاحوال قد غسل .

(1) History of Egyptian Mummies p. 83-4 (2) Elliot Smith & Dawson op. cit. p.p. 61. (3) Smith & Dawson op. cit. p.p. 82, 83, 85, 103. (4) Smith & Dawson op. cit. p.p. 75, 80, 97, 99, (5) Smith & Dawson op. cit. p.p. 114, 115, 117, 118, (6) Smith & Dawson op. cit p.p. 81 (7) J. E. A. XVIII 1932 p. 139-40.

بعد ذلك كان يدهن الجسم ، بزيت خشب الأرز ، ومسوح أخرى ثينة ثم يدلك بالمر ، والقرقة وما شابهها من التوابل ولم يأت ذكر ذلك إلا في « هردوت » ولكن نظرا للدور العظيم الذي تلعبه الزيوت والمسوح عند الأحياء ، فإن دهان الأموات لم يكن أمرا مستغربا .

وقد ذكر لنا « هردوت » في الطريقة الثانية حقن الجسم بزيت خشب الأرز ، ثم منع الحقنة من التسرب حتى نهاية معالجة الجسم بالنظرون . وفي الطريقة الثالثة التي وصفها « هردوت » لم يذكر لنا طبيعة الشربة التي كانت تستعمل لتنظيف الأحياء ، بل قال إن أى سائل حتى ولو كان ماء فإنه لو حقن به الجسم بكمية كافية لآتى بنتيجة . والمواد التي كانت تستعمل في تحنيط الجسم كما ذكرها « هردوت » و « ديدور » و « بلىنى » وما وصلت إليه البحوث الحديثة هي على وجه التقريب ما يأتى :

شمع النحل ، والفار والخيار شبر ، وزيت خشب الأرز والقرقة ، والصمغ والحناء ، وحب المرعر ، والنظرون ، والمراهم والبصل ، ونبذ البلح ، والرايننج ، (ويشمل ذلك صمغ الرايننج والبلاسم) والملح ، والشادر ، والتوابل وقطران الخشب ، أو الزيت وستكلم عن معظمها .

شمع النحل : كان يستعمل شمع عسل النحل في التحنيط لتغطية الأذنين والعينين والأنف والفم و لتحنيط الجرح وكذلك كان يستعمل الشمع في أجزاء أخرى من الجسم فمثلا وجد أنه كانت توضع طبقة منه على فخذي المومياء (1)

(1) Lucas, Preservative Materials used by the Ancient Egyptians in Embalming p. 5

القار تدل ظواهر الأمور على أن القار كان يستعمل في التحنيط والمقصود بالقار (الزفت الطبيعي) الذي كان يستخرج من البحر الميت كما جاء ذكر ذلك على لسان الكتاب الأغريق والرومان ، وقد ظل هذا هو الاعتقاد السائد عند الكتاب المحدثين الذين كتبوا عن التحنيط ولكن الكيائى « لو كاس » فحص هذا الموضوع ووجد أن الزفت لم يستعمل قط في تحنيط الأجسام الآدمية عند المصريين قبل عصر البطالمة (١).

والظاهر أن الخطأ في ذلك نشأ من أن كثيراً من هذه المادة وبخاصة ما وجد منها في موميات العصر المتأخر كانت سوداء وتظهر كالقار وكذلك لم تعمل تحاليل منظمة على يد كيائيين مهرة . وقد قام « لو كاس » وغيره وأثبتوا فعلاً أن هذه المادة السوداء ليست قارا .

القرقة وخيار شنبر : والقرقة كما هو معلوم هي لحاء شجريت في الهند وسيلان والصين والخيار شنبر من نفس فصيلة القرقة وليس بينهما فرق إلا أن الخيار شنبر نوع من التوابل حريف وقابض أكثر من القرقة . هذا إلى أن مذاقه أقل لذة . ولم يكن يستعمل قديماً من الخيار شنبر والقرقة لحاؤهما بل زهورهما وأعشابهما وخشبهما .

وأقدم إشارة لخيار شنبر في المتون المصرية هي ورقة هاريس التي يرجع تاريخها إلى الأسرة العشرين أما أقدم إشارة للقرقة فيرجع إلى عهد الأسرتين الثامنة عشرة .

(1) Lucas (a) Arch. Survey of Nubia, Report for 1907-1908, II, (1910) p.p. 372-4. (b) Preservative Materials used by the Ancient Egyptians in Embalming 1911. (c) J. E. A. t. I, 1914 p.p. 241, 245. (d) Ancient Materials, 1926 p. 122.

والثاسعة عشرة (١) ولم تذكر لنا المتون المصرية استعمال هذين الصنفين غير أنهما مما لاشك فيه كانا يستعملان لتشبية الطعام ، والتعطير ومن المحتمل أنهما يستعملان بنحورا وكما ذكر « هردوت » كانا يستعملان في التحنيط وقد عثر على بعض موميات يظن أنه وجد فيها بقايا القرفة ولكن ذلك ليس مقطوعا به . (٢)

زيت خشب الأرز Cedri, Succus Cedrium : الظاهر أن زيت

الأرز الذي ذكره كل من هردوت وديدور لم يكن مستخرجا من خشب الأرز بل من العرعر . ولكن اختلاف كل منها في كيفية استعماله (إذ يقول أحدهما أنه كان يحقن به والثاني يقول أنه كان يستعمل للمسوح) ، يدل على أن واحدا منها كان مخطئا أو أنه كانت توجد مادتان مختلفتان تستعملان ولما كان من غير المؤكد كيفية استعمال زيت الأرز فإنه من المستحيل التحقق من طبيعته . وقد استعمل زيت خشب الأرز في التحنيط حتى القرن الأول الميلادي . (٣)

الصمغ : يقول هردوت ان الصمغ كان يستعمل للصق لفائف الكتان التي كانت توضع فيها الموميا . وقد قال إن المصريين كانوا يستعملون بدلا منه الغراء . وقد وجد لوكاس الصمغ على موميات يرجع عهدها إلى الأسرة العشرين وكذلك وجد على وجه موميا « أمنتب الثالث » قطعة من القماش مشبعة بالصمغ (٤) ولما كان شجر السنط ينبت كثيرا في مصر في

(1) Breasted A. R. IV, 234, 344, 379. op. cit. II, 265, & III. 116.

(2) W. O'sburn, An Account of an Egyptian Mummy presented to the Museum of Leeds Philosophical & Literary Society (1828) p. 6.

(3) B. p. Grenfell & A. S. Hunt, The Amherst Papyrus II, p' 150,

(4) G. Elliot Smith, The Royal Mummies in Cat. Gen, du Musée du Caire, p. 48.

ذلك العهد وهو يعطى مادة الصمغ فمن المحتمل جداً أن كل الصمغ الذى كان يستعمل فى التحنيط كان محلياً . وقد ذكر « بلىنى » أنه فى أيامه كان أحسن نوع من الصمغ يجلب من مصر. (1)

الحناء : كانت الحناء تستعمل قديماً كما فى أيامنا هذه ، لتعطير المرام وللتجميل لخصاب راحة اليد والكفين والشعر . وهو نبات ينبت فى مصر بكثرة وهو يزرع فى الحدائق لرائحته الشديدة ، ولورقه ، وأهم استعمال له أن يتخذ أداة للزينة ، ومادة للصبغة .

وقد وجد أن بعض الموميات كانت فيها أصابع اليدين والرجلين مخضبة بالحناء (2) وقد وصف اليوت سميث شمر مومياً (3) « حتوى » من الأسرة الثامنة عشرة بأنه خضب بلون لامع مائل للأحمرارو يعتقد أنه صبغ بالحناء .

حب العرعر Juniperus, phoenicea : إن أقدم تاريخ عثر فيه على حب العرعر فى المقابر المصرية يرجع إلى الأسرة الثامنة عشرة (4) وكذلك عثر على هذه الحبوب فى مقبرة « توت عنخ آمون » . وكذلك يوجد فى المتحف المصرى حبوب عرعر من عهد الأسرة العشرين من خيثة الدير البحرى . والظاهر أن زيت هذه الحبوب كان يستعمل لمسوح المتوفى .

النطرون : استعمل فى التحنيط منذ الأسرة الرابعة حتى العصر الفارسى وقد كان حاثوت المخطط يسمى « مكان التطهير » وكان المتوفى يعالج فيه

(1) Pliny, XIII, 20; XXIV, 67. (2) P. C. Rouyer, Notice sur les embaumements des Anciens Egyptiens, dans Description d'Egypte, Mémoires Antiquités t. I, (1809) p.p. 207-20

(3) G. Elliot Smith op. cit. pl. 9.

(4) E. Schiaparelli, Relazione, Sui Lavori della Missione Archeologica Italiana in Egitto (1903-20) II, p. 165 .

بالنظرون الذى كان يعتبره المصريون مادة منطهرة عظيمة ، وقد دلت الأبحاث على أن الجثة كانت تعالج بالنظرون فى حالته الطبيعية لافى محلوله وقد جاء الخطأ الشائع فى أن الجسم كان يغمس فى النظرون من سوء فهم ترجمة ما ذكره هردوت فى هذا الموضوع (١). على أنه لا يزال بعض علماء التشريح يعارضون هذا الرأى (٢).

الدهان : لم يذكر لنا هردوت نوع الدهان الثمين الذى كان يمسح به الجسم بعد التحنيط ، على أنه من جهة أخرى ليس لدينا دلائل من الموميات تعرفنا تركيب هذه المواد . وقد ذكر فى بعض الاوراق البردية من عصر البطالسة (٣) الاحتفالات الدينية التى كانت تقام بعد أن يهيب الجسم ليلف فى الأكفان وفى خلال التكفين . وقد كان يستعمل فى الحالة الأولى نوع من الدهان مؤلف من صمغ الراتينج (الكندر واللبان والمر) وزيت أخرى مختلفة وشحم ، منها زيت خشب الأرز ، والشحم المغلى وشحم الثور . وفى ورقة أخرى نجد زيت الأرز وزيت الزيتون وبعد لف الجثة كان يصب عليها سائل أو شبه السائل الراتينجى . ولكن كنهه لم يعرف بالضبط . والظاهر من بعض التحاليل التى عملت أنه محتوى على قار الأرز المخلوط بالطين وبعض الروائح العطرية .

البصل : وجد البصل فى لفائف أكفان الموميات منذ الأسرة الثالثة عشرة وكذلك وجد قشر البصل على عين المتوفى . وكان يوضع فى التجويف

(1) Lucas, J. E. A. XVIII 1932 p.p. 125-40 (2) Lucas, Ancient Egypt. Materials p. 247 etc.

(3) Mariette, Les papyrus Egyptiens du Musée de Boulaq. & Maspero, Mémoires sur quelques papyrus du Louvre.

الجوفى ، وفى التجويف الصدرى وعلى الأذن . وفى عهد الأسرة العشرين والواحدة والعشرين والثانية والعشرين كان البصل يستعمل فى عملية التحنيط (١)

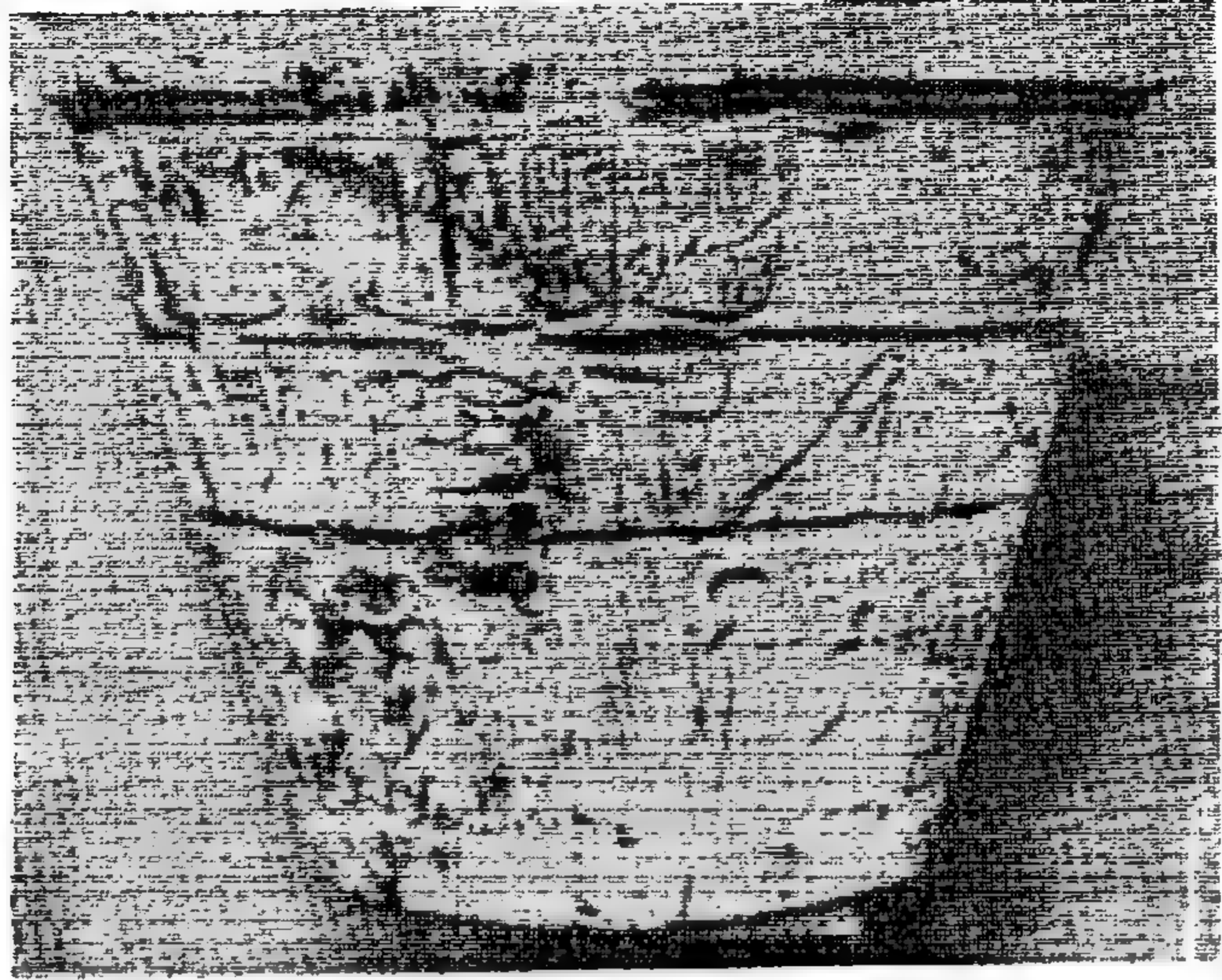
نبيذ البلح : ذكر كل من هردوت و ديدور أن نبيذ البلح كان يستعمل فى تنظيف الجثة ولكن ليس لدينا أى دليل مادى على ذلك إلا مقاله « دوسون » (٢) من احتمال وجود مادة كثولية فى بعض أنسجة الجثث المحنطة وربما كان ذلك معززا لرأى « هردوت » و « ديدور »

الملح : تدل الأبحاث الكيميائية أن الملح لم يستعمل جافا أو محلولا فى تحنيط الأجسام . ويمزى وجود الملح مع بعض الموميات فى العصور الأولى إلى أن النطرون الذى كان يستعمل فى التحنيط يحتوى على كمية عظيمة من الملح (٣) النشارة : ذكر لنا كل من « دوسون » و « اليوت سميث » أن النشارة كانت توجد وحدها أو مع الراتينج فى تجاويف الموميات منذ الأسرة الحادية عشرة والثانية عشرة (٤)

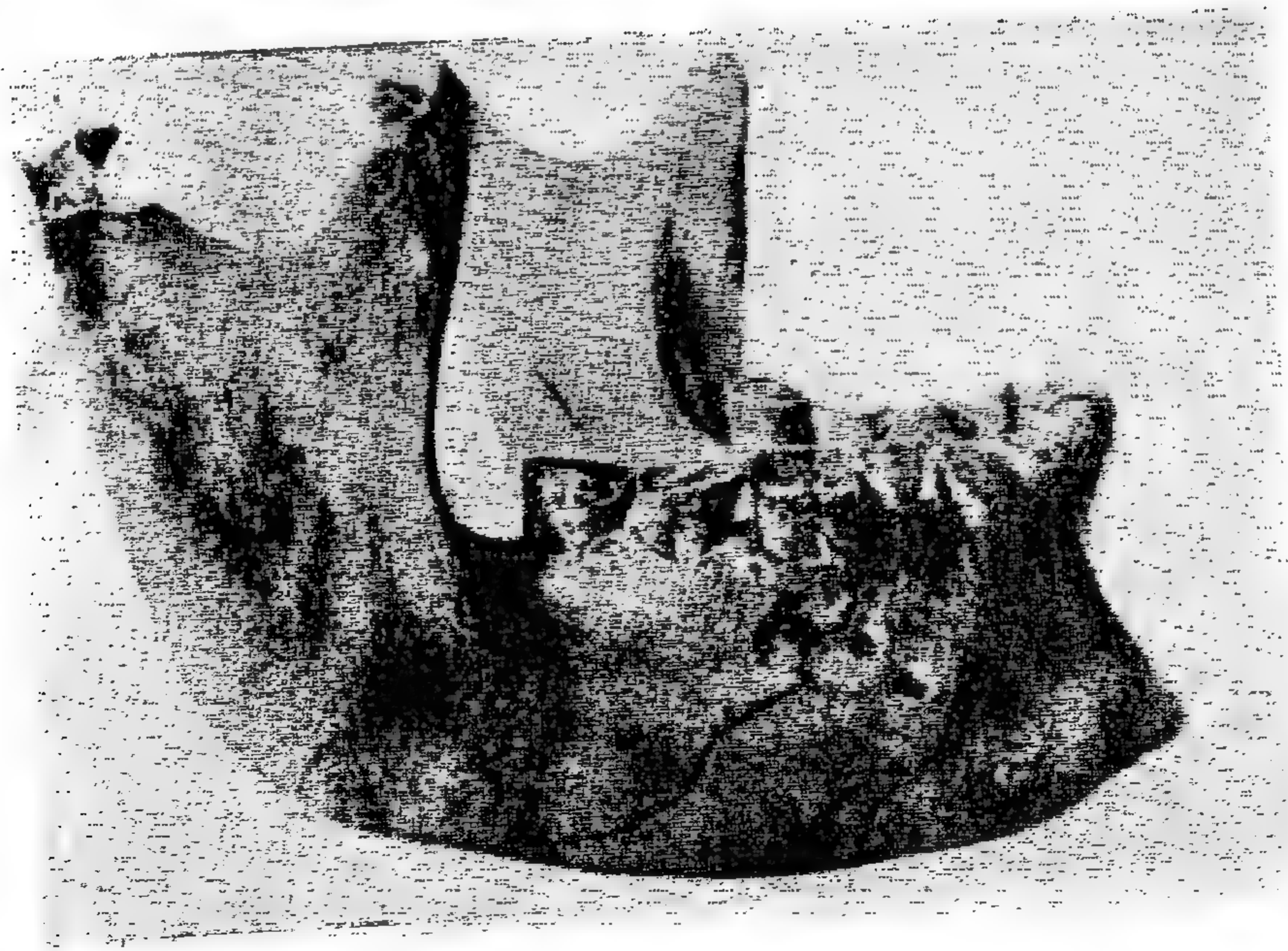
-
- (1) Elliot Smith, Mem. de L'Inst. Egyptien, V, 1906. fasc I, p.p. 28, 31. & Elliot Smith, The Royal Mummies p. 64. (2) Elliot Smith & Warren Dawson, op. cit. p. 125; J. E.A. XIII p. 49. (3) J. E. A. XVIII p. 127-9. (4) The Tomb of Yuua and Thuiu in Cat. Gen. du Musée du Caire, p.p. 75-7



آلة لمقياس ساعات الليل



ساعة مائة من الحجر مقسمة من الداخل



أثر عملية في التواء السخية ويرى الثقب الذي عمل لاختراع المادة القبيجة
من دمل تحت الفرس الاول

الكتابة



إن الرأي السائد بين علماء اللغات القديمة في العالم أن المصريين هم أول من اخترع نظاما للكتابة . والمتفق عليه حتى الآن أن الفينيقيين قد نقلوا عن المصريين نظام كتابتهم ومن ثم إلى أوروبا بعد تحوير وتبديل في شكل الحروف الأبجدية .

والواقع أن اختراع مصر للكتابة قد وضعها في مكانة ممتازة عن باقي أمم العالم وجعل الحياة العقلية تنمو وتزدهر فيها في وقت كانت الأمم الأخرى في أتحاء العالم قاطبة لا يزال أهلها يعيشون مع الحيوانات المفترسة في الغابات والأحراج ، ولذلك كان لزاما علينا أن نتكلم بالإجمال هنا عن الكتابة المصرية وكيفية نشوئها لأنها أقدم كتابة معروفة وتدل كل الظواهر على أن نظام الكتابة في مصر قد بدأ بالصور كما فعل غير المصريين ، وهذه الطريقة في الواقع غير محكمة وقد استعملت ليتذكر بها الإنسان شيئا ما في ذهنه ، ويصعب على شخص آخر أن يكشف الفكرة المراد التعبير عنها بالصور .

خذ مثالا خياليا لذلك : إذ اتفق شخصان على أن يورد أحدهما للآخر في مدة ثلاثة أشهر ثورا وفي مقابل ذلك يعطيه الطرف الآخر خمس جرات من عسل النحل . فيكفي لتفاهم كليهما رسم القمر ليعبر به عن الشهر ، والثور والنحلة والجرة ثم يضاف إلى ذلك ثلاث شرط أفقية لتدل على عدد الأشهر . وإذا وضعت أمام شخص آخر هذه الإشارات فإنه لا يمكنه أن يفهم بالتحقيق المراد منها .

وعلى ذلك كان لا بد لهذا التركيب الأول من أن يرتقى كثيرا . وقد حاول كل قوم على حدتهم بطرقهم الخاصة ذلك حتى وصلوا إلى كل أنواع الكتابات والكلمات والمقاطع .

وكان للمصريين وحدهم الحظ في أن اتبعوا طريقة مجدبة وصلوا بها إلى خير شكل للكتابة : الحروف الأبجدية .

وكانت الطريقة في أصلها بسيطة سهلة إذ كان الغرض الأول كتابة كلمات كان من الصعب أو من المستحيل رسمها ومن ذلك أتت الفكرة بأن يستبدل بالكلمة الصعبة الكتابة كلمة غيرها يمكن رسمها على أن تماثلها في النطق . وكان على القارئ أن يفهم من سياق المتن المعنى المقصود حقيقة وبخاصة حينما أصبح الاستعمال شائعا وكان كل فرد قد اعتاد مثلا في لفظة عصفور الجنة  « ور » أن يفكر في « ور » بمعنى عظيم ، وإذا ذكرت مثلا كلمة جعل « خبر »  فكر في « خبر » بمعنى يصير . ولما كان معنى الكلمة في اللغة المصرية - كما في اللغات السامية - يرتبط بحروفها الساكنة وأن حركات إعرابها تبين موقعها من الناحية النحوية ، أصبح يلتفت إلى أن الكلمة التي استعيرت لتحل محل أخرى يلزم أن تحتوى على حروفها الساكنة نفسها فحسب أما حركات الأعراب فلم يلتفت إليها فمثلا كلمة « نخل » في اللغة العربية كانت ترسم بشكل ثلاث نخلات متجاورة وكلمة « شعر » كانت ترسم بشكل حصلة من الشعر .

وكثير من العلامات التي كانت تستعمل في معنى واحد انتقلت إلى كلمات كثيرة على مر الأيام حتى أصبح من النادر أن تستعمل هذه الكلمات في معان خاصة وصارت لاتدل إلا على إشارات ساكنة (أى

أنها صارت تكون جزءا من كلمات أخرى تشترك معها في بعض حروفها .
فمثلا عصفور الجنة لم يعد يستعمل كما في المثال الأول ليدل على « ور »
بمعنى عظيم فحسب ، بل ليدل أيضا على الحرفين الساكنين و ، ر إذا
دخلوا في تركيب كلمات أخرى مثل حور ، سور ، ورس ، وريت الخ .
ومن هنا اكتسبت الكتابة إشارات مركبة من حرفين ساكنين .

وقد وصل أقوام آخرون الى هذه الخطوة بطريقة قريبة الشبه ،
ولكن المصريين تقدموا خطوة ثانية الى الأمام واستعملوا كلمات قصيرة
لا تحتوي على أكثر من حرف واحد ساكن لكتابة هذا الساكن مثلا

« ر » بمعنى فم كانت تستعمل لكتابة حرف الراء . « زت » (افم)

تأليف الحروف
الابجدية

كانت تستعمل لكتابة حرف الزاي (التاء علامة التأنيث) . « ش »

(بحيرة) كانت تستعمل لحرف الشين وهكذا . وكانت نتيجة هذه
الخطوة أن تكونت حروف أبجدية من أربعة وعشرين حرفا ساكنا وهي
التي انتهت فيما بعد إلى أرض كنعان وصارت الحروف الأبجدية التي أخذت
منها الحروف الأبجدية الأوربية .

وبهذه الحروف الأبجدية كتبت كلمات قصيرة مفردة مثال ذلك « ر »







(إلى) « م » (في) « إو » (يكون) ، أو

نهايات لغوية أصبحت توضح هكذا « خبرف » بمعنى هو يصير .

ولقد سهلت كذلك قراءة الإشارات التي تدل على كلمات فمثلا في

الضامة أو « فأس » من الجائز أن يفكر الإنسان في كلمات أخرى

للوح الضامة أو الفأس غير « من » و « مر » ولكن إذا أضيف الحرف

الأخير لكل منها « ن » و « ر »  و  فان التارى يرى فى الحال أن لفظتى « من » و « مر » هما المقصودتان .
 وكان كثير من الكلمات يكتب بالحروف الأبجدية فقط مثال ذلك  « بين » بمعنى (ردى) و  « نهت » بمعنى « شجرة جميز » ، على أن نظام الكتابة بقى خليطا من علامات تدل على ألفاظ فى معناها الأصلية أو المعنى المنقولة إليها ، ومن علامات أبجدية متصلة بها .
 وقد خلت الكتابة خطوة ثالثة نحو النمو وأدخل عليها عنصر جديد وهو ما يسمى « بالمخصص » فأضيف إلى الكلمة الواحدة إشارة تدل على المعنى المقصود من الكلمة . فمثلا « نهت » أى جميز أضيف إليها شجرة فأصبحت تكتب هكذا  . « نفر » أى جميل أضيف إليها ملف بردى لتدل على الشئ المعنوى فأصبحت هكذا  الخ .
 والكتابة التى تمت بهذه الطريقة كان من الممكن لكل مصرى أن يقرأها بسهولة وأن يفهم معناها على وجه التحقيق ، ويدهلك على ذلك أن المصرى لم يبذل أى مسعى لتغيير هذا النظام وجعله كله حروفا أبجدية . ولا شك فى أن لهذا النظام قائصه لأثنا نشعر بصعوبة كبيرة فى فهم كتب المصريين ، وسأعود إلى هذه النقطة ثانية .

أنواع الخط المصرى

تعودنا على عادة الأغريق — أن نسمى الكتابة المصرية « الإشارات المقدسة » (هيروغلىفى) وأن نسمى نوعا آخر خاصا « الهيراطيقى » والاسمان مستعملان فى لغتنا وليس هناك استعداد عند أى شخص لمحوهما وإن كان كل منهما سخيلا بعض السخف وبخاصة الأخير

لأنه — وهو الذى ترجم عنه معظم ما فى الكتب — ليس بكتابة خاصة مطلقا ولا يخرج عن كونه « خط رقعة » للكتابة الهيروغليفية والفرق بين الاثنين كالفرق بين حروف المطبعة وخط اليد .

. ومما ساعد الأدب المصرى بوجه عام الأدوات التى كان يستعملها الكتاب فى الكتابة . ولم يكن عملهم كعمل زملائهم البابليين وهو طبع إشاراتهم على ألواح من الطين فهذه طريقة انتجت أشكال الخط المسارى القبيح الشكل . والواقع أنهم كانوا يكتبون كما يكتب العالم الحالى الذى أخذ طريقة الكتابة عنهم . فكان عندهم المداد الأسود الثابت اللون ، وكانوا يطحنون المادة التى يأخذون منها المداد على ألواح من الخشب ، وكان عندهم أقلام يتخذونها من القصب ويبرون أطرافها ويديونها على حسب رغبة الكاتب ؛ وكان عندهم فوق ذلك ورق ناعم جميل منتخب من لباب سيقان البردى (١) ، كل هذه الأدوات كانت وسائل مساعدة على الكتابة مما لم يتبأ لغيرهم من الأئمة الأخرى ويمكن أن يشاهد إلى الآن فى النسخ الخطية الجميلة كيف كان الكاتب يرسم إشاراته ويده ثابتة وقلبه منشرح .

وكان من السهل أن تعمل ملفات طويلة من ورق البردى بضم الأوراق المنفصلة بعضها إلى بعض وإصاقها ، وبهذه الطريقة يسهل أن تعمل ملفات بأطوال مختلفة ؛ وهناك ملفات خطية بدیعة يبلغ طول الواحد منها عشرين أو أربعين مترا . وكانت الكتابة عادة على وجه واحد من ملف البردى وهو الوجه الذى تكون الألياف فيه أفقية حتى يأخذ القلم

استعمال البردى .
للكتابة

سيله بلا مقاومة . وهذه الطريقة تستلزم الإسراف فى الورق على أنه لم يكن فى مقدور كل فرد - من هذه الناحية - أن يستعملها . ولدينا أمثلة كثيرة تسترعى النظر للكتابة على وجهى الملفات للاقتصاد . والشخص الذى نحن مدينون له بأمتع مثال لدينا من هذا النوع هو صاحب ورقة « هريس » رقم ٥٠٠ إذ حصل على أوراق مكتوبة من البردى وغسل ماعليها من المداد وكتب على أحد وجهيها ثلاث مجاميع من أغاني الحب وأنشودة الشراب القديمة وجاء بعده كاتب آخر وكتب على الوجه الثانى من الورقة قصتين . وقد استعمل كاتب ورقتي « لينينجراد » ^(١) طريقة مختلفة وقد حفظت لنا هاتان الورقتان تعاليم للملك « مري كارع » ونبوة « نمرهه » وكان هذا الكاتب يشغل كاتب حسابات فأخذ وثائق من مصلحته والصق بعضها ببعض ونسخ الورقتين الآنف ذكرهما على الوجه الأيضا لتلك الوثائق على أن تكون ملكا له « ولأخ عزيز موثوق به » أما الفرد الذى لم يكن فى مقدوره الحصول على ورق البردى فكان يجد فى قطع الخزف مايسد حاجته . وهى مادة رخيصة الثمن تحمل على الورق . وقد يطلق هذا الاسم على قطع من الأواني الفخارية أو من الحجر الجيري الناعم ونشاهد هذه الآثار الكتابية ملقاة على الأرض فى أى مكان فى مصر . ولما كانت هذه القطع الخزفية يستعملها تلاميذ المدارس لكتابة تمارينهم فإن كثيرا من المتون المصرية قد تقل عنها

استعمال الخزف
للكتابة عليه

قهرتنا للمتنونة المصرية

إن الطالب الذى يوازن بين ترجمتين لمتن صعب من المتون المصرية

(١) انظر الجزء الاول ص ٤٢٠ الخ .

إحداها قديمة العهد والأخرى حديثة ، قد يشك في أن هاتين الترجمتين المتباينتين هما لقطعة واحدة . والسبب في ذلك هو نقص نظام الكتابة عند المصريين القدماء فالألفاظ المصرية لم توضع فوقها حركات تبين بالضبط موقعها من الجملة ونتيجة ذلك أنه يمكن نطق الكلمة بأشكال مختلفة تعطىها معانى متباينة : مثال ذلك « سزم » فإنها تحمل معنى من المعانى الآتية : سماع ، يسمع ، سمع ، سماع ، مسموع الخ ، وليس لدينا طريقة لتحقيق المعنى المقصود بالضبط إلا سياق الكلام . على أننا لانجد صعوبة حينما نبحث في متن بسيط ؛ فإننا نجد من السياق ومن الاستعلامات المعروفة لدينا حق المعرفة ما يعيننا على سهولة البحث . ونجد الأمر على عكس ذلك إذ كان المتن يحتوى على غير المؤلف من الجمل والأفكار فهناك يترك المترجم الأمين هذه الجمل من غير ترجمة غالبا أو يترجمها ويعترف بأن هناك تراجم أخرى لها يمكن اتباعها .

ولا يدهش القارئ عند ما يرى أن بعض التون قد ترك من غير ترجمة في كثير من الوثائق المصرية .

وهناك عقبات أخرى غير العقبات التى نصادفها بسبب غموض نظام الكتابة تعترضنا وربما أثارت منا ضحكا ، وهى ناشئة عن خفة الكاتب وجهله : على أن كثرة الأغلاط الكتابية فى كل مخطوط كتابى تكاد تكون لسوء الحظ أمراً عادياً . وليست هناك مخطوطات يعد الخطأ الكتابى فيها خطراً كما فى الكتابة الهيروغليفية ، فإنه يكفى للكاتب أن يضيف (خطأ) مخصصا إلى كلمة فيتغير معناها إلى معنى مختلف كل الاختلاف عما يقصده الكاتب ، وقد تؤدي غلطة من هذا النوع

صعوبة فهم التون
المصرية بسبب
الحروف الساكنة

جهل الكاتب

إلى خطأ في الترجمة ، وتسرب أمثال هذه الأغلط إلى سبل الوقوع وذلك لغموض طبيعة الكتابة وهذا الخطأ في الترجمة نتيجة طبيعية لهذا النظام الغامض . على أن المصريين القدماء كانوا أقل احتقالا منا بأمثال هذه الأغلاط ، فكانوا يصححون هذا الخطأ أثناء القراءة ومن الواجب أن تفرض حصول ذلك منهم ، وإلا فإنه لا يصدق أن فرداً كان ينقل كتاباً لاستعماله الشخصى ثم يفض النظر عما فيه من أخطاء كثيرة .

ولتكلم الآن عما خلفه لنا تلاميذ المدارس في عهد الدولة الحديثة - وأعني بذلك أوراق البردى وقطع الخرف التي كانوا يسطرون عليها واجباتهم اليومية التي يأمرهم بها معلمهم . يظهر أن هؤلاء التلاميذ كانوا لا يؤدون واجباتهم دائماً عن طيب خاطر لذلك كثرت الأغلاط الشنيعة التي كانوا يرتكبونها في مثل هذه المتون . ولم تخل أسس المتون عبارة من بعض الأغلاط ، وعلى ذلك لانشك في أن جزءاً كبيراً من متن موقعة « قادش » كان مصيره الغموض لولم نستند في تصحيحه إلى النقوش التي ساعدتنا على إصلاح كثير من أغلاطه وما كانت نسخة « بنتاور » لتغنيا عن ذلك شيئاً .

أغلط التلاميذ في نقل المتون

وكان التلميذ عند ما يكلف نقل كتاب يصعب عليه فهمه لما فيه من التعبيرات اللغوية القديمة يغير فيه تغييراً يضيع من المعنى ، وإذا كانت الحال كذلك فإننا نشكر الله إذا استطعنا أن نلمس الصواب في بعض أنحاء الموضوع الذي يتحدث عنه الكتاب ، وبما يؤسف له أن كتاباً قima كتاليم « دواوف » قد وقع فريسة في يد تلاميذ مدارس الأسرة

التاسعة عشرة ، ولا يعزينا عن ذلك أن نرى بعد بضعة قرون تلاميذ مدارس الأسرة الثانية والعشرين قد أساءوا من ناحيتهم — على النحو السابق — نقل كتابات الأدب المصرى الحديث . وقرر هنا أننا مدينون بالشكر للمدارس المصرية فقد حفظت لنا كثيراً من هذا الأدب من الضياع غير أن الشكر الذى يهديه مترجم أمثال هذه الكتابات المحشوة بالأغلاط لهذه المدارس سيكون دائماً ممزوجاً بشئ من القصور .

نظرة اجمالية فى تطور الادب المصرى

لقد بقى التاريخ المصرى والأدب المصرى ، وكل مايتعلق بالحياة المصرية سرا غامضا فى كل العالم حتى بداية القرن التاسع عشر ؛ أما ما نقله اليونان عن المصريين مدة اختلاطهم بهم فلم يكن إلا حقائق مشوهة نقلت بالرواية فضلا عن أن ماوصل إلينا لايمثل إلا جزءاً من تاريخ البلاد فى أيام شيخوختها وتدهورها . وقد كان اليونان الذين نقلوا إلينا بعض معتقدات المصريين وعاداتهم الموروثة من أزمان سحيقة ينظرون إليها بعين الاحتقار والرغبة مما لأنها لاتتفق مطلقاً مع دنيا حضارتهم . وقد بقى المصريون فى نظر الأوروبيين والمصريين الحاليين كالصينيين الأقدمين . ومن المدهش أنه رغم حركة الكشف الحديثة التى قامت فى عصرنا فإنهم لا يزالون معروفين بأنهم قوم لا ثقافة لهم ولا علوم ولا آداب كباقي أمم العالم حتى أن المصرى الحديث عندما يريد أن يتكلم عن الأدب فى مصر لا يذكر شيئاً عن مصر القديمة بل يقصر كلامه

نظرة الاغريق
والمصريين المعاصرين
إلى الادب المصرى

على الأدب العربي في مصر . وكأن مصر منذ فجر التاريخ حتى الفتح
العربي لم يكن لها شيء قط من التراث الأدبي يمكن أن يفاخر به
أبنائها كما يفاخر الفرنج بأدبهم الخاص في مختلف العصور ، والواقع أن المصري
لا يلام على جهله بأدب بلاده العتيق وربما يرجع السبب في ذلك إلى
عاملين هامين : الأول أنه منذ الفتح العربي اختفت لغة البلاد جملة وحلت
محلها اللغة العربية وآدابها فأسدل الستار على لغة القوم وأصبحت نسيا
منسيا ولم يبق للمصري مجال في أن يدرس تاريخها أو أدبها وبخاصة إذا علمنا
أن اللغة قد ماتت .

سبب جهل المصري
بالادب المصري
القديم

العامل الثاني أنه لما حلت رموز اللغة القديمة لم يعتن المصريون
بدرسها بل تركوا مجال هذا الدرس للأوربيين إلى عهد قريب جدا عندما
بدأ نفر من المصريين يتعلمون لغة البلاد القديمة ، ولكن رغم ذلك فإن
معظم المثقفين في مصر أو الذين يدعون أنهم مثقفون ، لا يزالون يعتقدون
أن مصر القديمة لم يكن فيها حياة أدبية وثقافة خلقية كالتي عند
الشعوب المتحضرة .

على أن المصريين في عهد تاريخهم الأول كانوا على عكس الفكرة
الشائعة عنهم ، إذ كانوا قوما لهم هبات عقلية ، وكانوا متوقدى العزيمة ، أيقاظا
على حين كانت أمم أخرى من الأرض لا تزال في سباتها ، ولقد
كانت نظرهم للعالم ملتهبة متوقدة مملوءة بالمغامرة كمنظرة الإغريق
الذين أتوا بعدهم بآلاف السنين . ويشاهد ذلك جليا فيما وصلوا إليه من
الأعمال الفنية الواسعة النطاق ، بل يشاهد بوضوح أكثر في أعمال
التصوير والنحت التي تبرز الحياة عندم فرحة ناطقة .

مكانة المصري
ومقدار ذكائه

إن قوما هذه مواهبهم جديرون بأن يجدوا سرورا في إعطاء أغانيهم وقصصهم شكلا أغنى وقنا أكثر . وكذلك نمت بينهم من وجوه أخرى حياة عقلية وعالم فكرى يبحث فيما وراء الأشياء الدنيوية ودائرة الدين . ومنذ أن اخترع المصريون نظام الكتابة نمت بينهم من زمن بعيد مجموعة من الكتابات المختلفة الأنواع تعهدوها بالتسمية ، وجعلوا لها صبغة أدبية وإن الكثير منا لم يحفل بها ولم يعتقد يوما بأن للمصريين القدماء أدبا يعتد به .

ولقد حفظ لنا التاريخ شيئا كثيرا من أعمال التصوير عند المصريين حتى استطعنا أن نكون عنها فكرة تكاد تكون ثابتة لا قبل التغير كثيرا ، على حين أن موقفنا بالنسبة للأدب المصرى - لسوء الحظ - لا يزال مختلفا جدا إذ ليس لدينا منه إلا شئ قليل . لأن العثر على مؤلف أدبى يتوقف على مصادفة غير متوقع حدوثها كبقاء ملف من البردى المش فى جوف الأرض من ثلاثة أو أربعة آلاف من السنين . ولذلك لم نعثر إلا على قطع منفردة كانت بلا شك فى الأصل أجزاء من مجاميع عظيمة من الكتابات ؛ على أن كل كشف جديد من ذلك النوع يضيف خاصية جديدة إلى الصورة التى صورناها لأنفسنا عن الأدب المصرى وهذه الصورة أصبحت فى الجملة تكاد تكون صحيحة لأنها تشمل على احتمال له قيمته الفعلية ؛ فإن كل مرحلة تاريخية يظهر لنا فيها الأدب المصرى مطبوعا بطابع خاص يميزه عن غيره ويتفق مع ما نعرفه عنها من الحقائق التاريخية وبقدر ما تنسج له طائفتا من استقراء آثار اللغة المصرية القديمة ، نستطيع أن نقول إن هناك دلائل تدل على أن العناية كانت موجهة إلى

لم يعلنا من الادب
المصرى الا القليل

تنمية اللغة . فهي غنية بالاستعارات والتشبيهات أى أنها « لغة مثقفة »
« لغة إنشاء وتفكير » للشخص الذى يكتب بها . ومن المحتمل أن أحد كتب
الأمثال القديمة^(١) على الأقل قد أنشئ فى عهد الدولة القديمة فى
خلال حكم الأسرة الخامسة (سنة ٢٧٠٠ ق . م تقريبا) وهذا هو
العصر المعروف لدينا بعصر المستوى العالى لفن التصوير على الخصوص .
ولكن يظهر أن الرقى التام للأدب المصرى القديم لم يبلغ غايته إلا فى
العصر المظلم الذى يفصل الدولة القديمة عن الدولة الوسطى^(٢) ، وكذلك
فى عهد الأسرة الثانية عشرة المشهورة (١٩٩٥ - ١٩٧٠ ق . م) .
وكتابات هذا العصر ظلت تقرأ فى المدارس خمسمائة سنة ولم يجرؤ أحد أن
يحيد عن لغتها أو أسلوبها فى الكتابة . والخاصية التى يمتاز بها هذا الأدب
القديم ظاهرة فى الولوع بالتعابير الممتازة ولانستطيع أن نسى ذلك تصنعا .
وحلاوة الألفاظ مع عذوبتها ، كانت تعد صناعة عالية لابد أن يبذل
الإنسان جهدا ليصل إليها . ويشاهد كذلك أن هذا كان حقيقة ميل هذا
العصر من نقوشه التى طالما كان يقوم بتأليفها جماعة من المتعلمين ، فإنها
كانت تكتب بالأسلوب المزخرف .

ازدهار الادب
فى عصر الاقطاع

وبعيد عن الصواب أن يقال إن كل مجهودات هذا العصر كانت
موجهة إلى تنسيق الألفاظ فحسب ؛ فإن كتاب هذا العصر أقدموا على

(١) انظر الجزء الاول ص ٣٩٩ الخ (٢) ثلاثة من أهم الكتب فى الادب القديم .
وهى تعاليم للملك « مرى كارع » وتعاليم دواوف وشكاوى الفلاح . كتبت فى عصر الملوك الذين
حكموا مصر الوسطى والدلتا من عاصمتهم هراكليوبوليس . ولا نعلم إلا الشئ اليسير عن هؤلاء
الملوك وهذا ما يجعلنا نظن أنهم لم يلعبوا دورا هاما فى ترقية الشعب المصرى ولكن من
المحتمل أن الادب ازدهر فى بلاطهم وهذا رأى « بلاكان » أيضا وهو يلفت النظر إلى مستوى الفن
العالى فى هذا العصر كما يظهر فى مقابر « مير »

الكتابة في موضوعات هامة ولم يجمعوا عن الخوض حتى في المسائل العميقة .
ونلاحظ من جهة أخرى أن الديانة تأخذ مكانا ثانويا في هذه
الكتابة ولا يكاد يذكر شئ في هذه الكتب الأدبية عن كل الآلهة الذين
كان المصريون يهتمون بهم كثيراً على حسب الفكرة الشائعة عنهم . ومن
المحتمل أن الاعتقاد القديم كان مجرد وراثه عند الفرد المذهب ، فكان
لزاما عليه أن يأخذ بناصره ظاهراً ، وكان يرضى نفسه في عالم فكره
بالفكرة غير المحدودة « الله » .

فكرة الوحدانية
عند المصري

وليس قصدنا أن نقض النظر عن الحقيقة الواقعة وهي أن جزءاً عظيماً
من هذا الأدب القديم قد ضاع ؛ وليس معنى هذا أنه لم يكن للمصريين
أدب فقد وجدنا أمثلة كثيرة . وعقيدتنا أن الضائع منها أكثر ، وما وجدناه
يرجع الفضل في عثورنا عليه إلى المصادفة المحضة ، فقد وجدنا بعضه في قبور
التلاميذ مدفوناً معهم . على حين أن كتباً من نوع آخر كانت تحفظ مع الأحياء .
فيدركها العفاء .

ومها يكن من أمر فإن المدارس لم يقل شأنها في العصر الثاني
للأدب ، وهو عصر الدولة الحديثة الأخير (حوالى ١٣٥٠ ق . م .) .
وقد نما هذا الأدب الحديث مضاداً للأدب القديم فإنه إلى هذا
الوقت كانت لغة الآداب القديمة هي لغة الأدب في كل القرون ، وغاية
ما حدث أن اقتربت من لغة المحادثات في الوثائق الحيوية أو في القصص
الشائع (١) وأخيراً أصبح الفرق بين اللغتين عظيماً إلى حد أن اللغة

(١) من ذلك قصة الملك خوفو والسحرة . وسيلاحظ القارىء سهولة لغتها حتى في الترجمة .

ظهور اللغة العامية
والكتابة بها

القديمة لم يعرفها أحد من عامة الشعب (١) . غير أن هذه القيود قد حلت في عهد الثورة الدينية العظيمة التي حدثت في أواخر عهد الأسرة الثامنة عشرة أيام « امنحوتب الرابع » ؛ فقد بدأ القوم يكتبون الشعر بلغة العامة . وقد كتبت بهذه اللغة « انشودة الشمس » الجميلة وهي عبارة عن منشور للإصلاح الديني . وقد اختفى كل جديد أدخل على هذا النظام الذائع بعد انهياره اللهم إلا نظام الكتابة بلغة العامة فإنه كتب له البقاء وذلك — بلا شك — لأن الأحوال التي استمرت إلى هذا الوقت قد أصبح بقاؤها مستحيلا . وفي عهد الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين ازدهر أدب قوى مكتوب باللغة الجديدة التي نسميها « المصرية الجديدة » . وفي عصر « المصرية الجديدة » كان كذلك للمدارس القمح المعلي ولكن كتاباتها في ذلك العهد اتخذت صيغة أكثر حياة مما كانت لها في العصر القديم . وهذه الحيوية تظهر بوضوح في أدب هذا العصر إذ رأى الناس الدنيا كما هي وشغفوا بها ، وعلى قدر ما وصل إلينا من كتاباتهم يلاحظ أن الأفكار العميقة ليس لها محل في أدبهم ، على أنه من الجائز أن كشفاً جديداً قد يصحح حكمنا من هذه الناحية .

ولم يستمر الأدب المصري الجديد طويلا في طريقه باستعمال لغة الشعب كما بدأ حقيقة (كما كنا نظن) إذ سرعان ما أخذ الكتاب يبحثون وراء تهذيب العبارات ، وهذه كانت علامة ظاهرة في الأدب القديم . وقد أصبحت لغة الفرد المذهب محلاة بالفاظ وجمل متقاة ، وكان

(١) ولولا أن كتابة الكلمات المصرية مهمل فيها كل الحركات الشكائية لظهر أمامنا الفرق عظيم جدا كما يجمعه القارىء الحديث بين اللغة الإيطالية واللاتينية أو اللغة العربية الفصحى واللغة العامية .

تنسيق العبارات
واستعمال ألفاظ
أجنبية

يجد سروراً في تزيينها بألفاظ أجنبية . وقد بقي هذا النوع من الأدب يهذب نحو خمسة قرون على ما يظهر ثم أصبحت لغته منعدمة ، وكان على الأولاد في المدارس أن يتعلموها ؛ وبذلك يظهر أنه قد قضى على الحياة الأدبية في مصر الآيلة إلى السقوط وقد بقي الحال كذلك عدة قرون إلى أن ظهر أدب جديد يسمى بالديبوطيقى .

قد تكلمت فيما سبق عن الكلمات الأجنبية التي كثرت في كتابات العصر الأخير من الدولة الحديثة ، وكلها تقريباً مستعارة من لغة أهل فلسطين وهي ترينا كما نعلم من مصادر أخرى العلاقات الينة بين مصر وفلسطين ويمكننا حينئذ أن نفرض أن « كنعان » قد تأثرت بمصر من ناحية الأدب كما تأثرت بها من ناحية النحت . ولا شك في أنه لو وصل إلينا شيء من الأدب الفينيقي لرأينا فيه التأثير المصري ؛ ولكن نرى في الأدب العبراني - وإن كان يقع في عصر متأخر بكثير عما نحن بصددده الآن - عدة أشياء تذكرنا جلياً بنوع من الكتابات المصرية كما في المزامير ونشيد الإنشاد في الأدب الحكيم عند العبرانيين . ومن المحتمل أن متشابهات من هذا النوع يمكن اقتفاء أثرها على الأقل من طريق غير مباشر بما يماثلها في اللغة المصرية وإذا كانت الحال كذلك فليس من البعيد أن نكون قد تأثرنا نحن أنفسنا بالحياة العقلية المصرية .

العلاقة بين الادب
المصرى والادب
العبراني

الكتاب المتعلمون

نجد من أقدم المصور فجوة عميقة تفصل المصري المثقف المتعلم تعليماً راقياً عن عامة القوم . وقد وجد ذلك عند ما اخترع المصريون الكتابه لأن الفرد الذي

أهمية الكتابة
والكتاب في المجتمع
المصري

كان يظهر البراعة فيها كان يحوز قصب السبق على إخوانه مهما كان مركزه في الظاهر حقيرا فإن الحاكم نفسه لم تكن له أهمية وقتئذ بدون مساعدة كتابه ، ولذلك كان لكبار الموظفين في الدولة القديمة سبب قوى في جبههم لتمثيل أنفسهم في هيئة الكتاب ؛ فقد كانت الكتابة هي المهنة التي وصلوا بها إلى مراكزهم وقوتهم . وكانت الطريق مفتوحة إلى كل وظيفة للشخص الذي تعلم الكتابة وعرف كيف يعبر عما في ضميره بالفاظ مختارة مهيبة .

وعلى ذلك فشا بين الكتاب نوع من الفطوسة والكبرياء والاعتزاز بطاقتهم . ويظهر هذا واضحا جدا في الأدب القديم الذي كونه ويجب أن توسم هذه الطاقة بالاحترام لأنها وضعت مثلا أعلى للموظف العظيم . فكان واجب الموظف أن يكون محايدا ، وأن يكون الشخص الذي يحول دون عبث القوى بالضعيف ؛ والحاذق الذي يعرف كيف يجد سيلا حتى بين أعقد المصاعب ؛ والفرد المتواضع الذي لا يقذف بنفسه قط إلى الأمام ؛ ومع ذلك فإن آراءه يؤخذ بها في مجلس الشورى . وكل كتابة أو قول له يجب أن يميز عن العامة . بهذه الروح كان الكتاب يعملون جيلا بعد جيل كما أنشأوا الشباب من أبناء طاقتهم على هذه المبادئ نفسها . وفي عهد الدولة الحديثة بقي الميل إلى البيروقراطية ومدارسها كما كان من قبل ، وعلى الرغم من كل الخلافات الظاهرة فإن رسائل المعلمين لم تعظ بشيء غير ما وعظت به كتب الحكمة القديمة . وليس هناك فرق إلا أن تعاليمهم كانت مستورة تحت ثوب أكثر حذقا وإن ما تنطوى عليه مرامهم من الكبرياء كان أكثر نجسا في هذه الكتابات منه في أي وقت آخر .

المغنون والقصصيون

مما لا جدال فيه أن الكتاب المتعلمين قد أنشئوا الأدب المصرى ،
غير أنه كان فى حيز الوجود قبلهم أفراد يمارسون فناً أقل من قههم
وكان لهذا الفن تأثيره على الأدب .

وكل من له اتصال تام بالمصريين فى عصرنا لا يسهه إلا أن يحمل معه ذكرى
غناء الفلاحين والبحارة تتجاوب فى الحقل الخضراء وعلى مياه النيل
الصفراء اللون . ولنا نعرف إذا كان هذا الغناء الخاص الذى
ينخرج من الأنف يرجع إلى الوراثة من الزمن القديم ، ولكن الشعور
بلذة الغناء يرجع بلا شك إلى الوراثة . فكل من الفلاح وصاحب المهنة
فى مصر القديمة كان يستعين على عمله الشاق بغنائه المتواضع حتى لقد كان
الغناء يعد جزءاً من العمل الذى يقوم به العامل ؛ يدلنا على ذلك أن المثال
عند تمثيل ما يريده كان يضيف الأغنية إلى الصورة الممثلة . وسنورد أمثلة
من هذه الأغاني فى العصور المختلفة فى المقام المناسب . ومن سوء
الحظ أن الأغاني التى كان يغنيها فئات القيان فى حضرة سادتهن لم
توجد ممثلة معهن ونشاهد فقط أن طائفة من البنات يغنين وفقاً لحركات
أخريات يرقصن ؛ ولا نيعد أن تكون تلك الأغاني ساذجة بريئة
كالأغاني التى كان يتغنى بها العمال . ونشاهد فى كل العصور مغنين مكفوفى
البصر (١) . وليس هناك شك فى أن هؤلاء التعسين كانوا يحترفون الغناء .
وكذلك كان هناك نساء اتخذن الغناء حرفة لهن ؛ وفى نهاية الدولة الحديثة
- فى قصة - « سياحة ونامون » سنشاهد مغنية مصرية فى سوريا عملت

حب المصرى للغناء
والموسيقا

نشر الحضارة
المصرية بالمغنين

(1) See, e. g, Blackman, Rock Jombs of Meir, II. pl. 12 f.

على نشر الحضارة المصرية من هذه الناحية .

وإذا كان كل من المبنى والمغنية قد وجد له مكانا في المناظر التي كانت ترسم على القبور ، فإننا نحاول عبثاً أن نجد القصصيين ممثلين . ولا عجب في ذلك فإن القصصى لا يعرض سلعته في بيت الأمير الشريف ، ولا في حقله بل كان يقص حكاياته على عامة الشعب وعلى قارعة الطريق ، وحياة الطرق لم تمثل في المقابر . ولا شك في أن القصصى في الزمان القديم كان يتمتع سامعيه كما يتمتع الشاعر المصرى في أيامنا هذه .

ولدينا قصص للعامة من كل عصور التاريخ تدل نفعتها ومحتوياتها على أنها من أصل قديم وإذا كان قصص الروائيين الحاليين تدور حول شخصية تاريخية مثل « الظاهر بيبرس » والحليقة « هرون الرشيد » ، فإن القصص القديمة كذلك لها علاقة بأشخاص لهم شهرتهم في التاريخ فلدينا قصة من العصر المسيحى في مصر خاصة « بقميز » ولدينا قصة من العصر الأغريقى عن « قطانب » ، وقد حفظ لنا هردوت مما كتبه حكاية ممتعة عن « رمبزينتس » ، وفى الأوراق البردية الديموطيقية قرأ قصة الملك يتوبستس وحكاية رئيس الكهنة خاموس وفى نهاية الدولة الحديثة نجد قصة الملك « تحتمس الثالث » وقصة ملك الهكسوس « ابوفيس » ومن أواخر الدولة الوسطى قرأ قصص الملك « خوفو » .

انتشار القصص فى
كل عصور التاريخ
المصرى

وقد نجد أمثال هذه النعمة الساذجة والتي قد تكون مبتذلة أحيانا ظاهرة فى كثير مما خلفه لنا المصريون فى خرافاتهم الدينية كأسطورة « إزيس » ، وخرافة إله الشمس المسن ورسوله الثمل (١) ، والإلهة التي

(١) كان كتاب الدولة الحديثة يفصلون الجمل بعضها عن بعض بواسطة نقط حمراء وكانوا يستعملون هذه النقط أيضا فى النصوص النثرية كنقط وقف .

لم يمكنها العودة ثانية إلى مصر. ويخيل إلينا أن هذه القصص كأنما وصلت على يد أفراد عرفوا ميول العامة وأذواقهم . على أنها وإن كانت قد وصلت إلى الدخول في الدين بهذا الشكل العامي فإن ذلك يمنع من أنها عامية الأصل .

أوزان الشعر

كل ما يكتبه المصري بلغة عالية يقع في أسطر قصيرة متقاربة الطول ولو أننا لانعرف شيئاً عن نغماتها إلا أننا نرجح كثيراً اعتبار هذه الاسطر أبيات شعرية منسوبة إلى وزن من الأوزان الشعرية . ولاشك في أن هذا صحيح في كثير من الأحوال ومحقق في الحالات التي يكون فيها على الدوام عدد محدود من الأسطر تتوازن معا كما يثبت ذلك المعنى . ويكون عدد الأسطر عادة ثلاثة أو أربعة كما ترى فيما يأتي :

انت تنزل في سفينة من خشب الصنوبر ،

تتحرك من المقدم الى المؤخر ،

وتصل الى قصر ك الجبل هذا ،

الذي بنيت لنفسك ،

فك منعم بالنبيذ والجمعة ،

والخبز واللحم والفطير ؛

وتذبح الثيران وتفتح أباريق النبيذ ،

والغناء الحسن أمامك .

ورئيس مضحكك يضحك بـ « كى » ،

وسابقك يحمل تيجان الازهار ،

ورئيس فلاحيك يقدم الدجاج ،

وصيادك يقدم السمك .

وكثير من أمثال هذه الأشعار تمتاز مقطوعاتها بأن كل منها تبتدىء بكلمات مشتركة في الكل . فمثلا في « مناظرة بين إنسان سم الحياة وبين روحه » نجد ثمانية للمقطوعات المركبة منها الأغنية الأولى تبتدىء كل مقطوعة منها بما يأتي : « انظر إن اسمي ممقوت » ومقطوعات الأغنية الثانية تبتدىء بما يأتي « لمن أتكلم اليوم ؟ » الخ

وفي أنشودة النصر « لتحتس الثالث » نجد رابطة المقطوعات بعضها ببعض في الحقيقة مزدوجة لأن السطر الثالث من كل مقطوعة يبتدىء بالفاظ واحدة أيضا ، فالأسطر الأولى تبتدىء بما يأتي : « إني قد أتيت حتى أجعلك تطأ » والسطر الثالث يبتدىء بما يأتي : « إني أريهم جلالك » أما كل من السطر الثاني والرابع فبدايته ليست مقيدة ..

غير أن هذه البدايات المتشابهة توجد كذلك في متون فقراتها مختلفة الطول ، وعدد سطورها ليس واحدا . ويمكن أن نعتبر هذه الفقرات غير المنتظمة مقطوعات ليست مقيدة في تركيبها . ولابد من أنه كانت هناك مقطوعات كهذه في الشعر ليست مقيدة في تركيبها ولا تظهر كأنها شعر لعدم تماثل الكلمات التي تبتدىء بها كل واحدة منها . وظاهر هنا أننا لازلنا نلص الحقائق في ظلام دامس ، ومن المحتمل أننا سنبقى دائما هكذا ، إذ أن السؤال الذي يتوقف عليه كل شيء لا يزال غامضا لدينا ولا يمكن الجواب عليه أعني : ماهو الوزن الذي كان يتبعه المصري في صناعة الشعر ؟

هذا السؤال لا يمكننا أن نجسر على الجواب عليه بأي فرض كان .

الشعر غير المقفى

وإذا فرضنا كما هو محتمل من الوجهة النحوية - أن كل كلمة في اللغة سواء أكانت اسما أم نعتا أم فعلا النخ - لها حركة خاصة فإنه ينتج من ذلك أن كل بيت من الشعر لابد أن يكون فيه من حركتين إلى أربع حركات ؛ وبذلك تكون آيات الشعر عندهم حرة في نغماتها وليست مقيدة بوزن . ومما يؤيد هذا الفرض أن مصري العصر المسيحي (الأقباط) كانوا ينظمون شعرهم بهذه الطريقة الحالية من القيود الوزنية مثل :

رجل آخر يذهب الى الخارج
يمكث سنة ثم يعود الى بيته
ولكن « ارشليت » قد ذهب الى المدرسة
وما عدد الايام حتى أرى وجهه .

ولابد أن المقطوعات الشعرية المصرية المركبة من أربعة أسطر كانت تشبه في نغماتها الرباعيات القبطية . على أن أمثال هذه النغمات الحالية من القيود الوزنية كانت تقرر كذلك في ظرف آخر . ذلك أنه حينما يكرر بيت من الشعر مثلا في أول المقطوعة فإنه يمكن وضع جملة أطول بدلا من اسم فردى ، فبدلا من « أوزير يستيقظ بسلام » الذي تبتدىء به المقطوعة الأولى فإنه يمكن أن يتغنى في الثانية « الباقي أبديا ؛ رب المأكولات الذي يعطى مايقوم الحياة لمن يحب ؛ يستيقظ بسلام » ، ولشعرهم ميزته الخاصة ، وهي العادة الغريبة في بابها التي تعودنا أن نطلق عليها « توازن أجزاء الجملة » فليس بكاف أن يعبر الشاعر عن فكرة مرة واحدة بل يجب أن يعبر عنها مرتين ، وعلى ذلك نجد جملتين قصيرتين ، معناها متشابه أو واحد : تتبع احداها الأخرى مثال ذلك : « القاضي يستيقظ » ، « نحتو مجلس » ، أو : « ثم تكلم هوّلا ،

السبب في عدم
امكان معرفة
أوزان الشعر المصري

تكرار المعنى
بألفاظ مختلفة

أصدقاء الملك» ، « وأجابوا أمام إلههم » . ففي كل من المثلين يلاحظ أن الجملة الثانية مرادفة لما قبلها ولا فائدة منها . مثال آخر : « وهم الذين يدخلون في هذا القبر » ، « وهم الذين يشاهدون مافيه » حيث نجد أن التكرار يحدث فكرة جديدة .

والسبب في التعبير بهذه الطريقة هو الغرام بزخرف القول فإن المتكلم يشعر بأنه يمكنه أن يستعمل جملة ثانية في معنى ما نطق به أولا ، وعلى ذلك لا يسهه إلا النطق بها في الحال مرة أخرى في شكل جديد . وعلى مر الأزمان أصبحت هذه طريقة مقررة في الكتابة ، إذ كانت تعد حلية طبيعية للكلام الراقى ، وقد عودنا كتاب العهد القديم هذا النوع الغريب من التعبير لأنه كان سائدا عند العبرانيين والبابليين ولذلك لم يدهشنا ذلك كثيرا في المتون المصرية . وتقدر تماما غرابة هذه الطريقة في التعبير بمجرد تحويل قطعة من شعر آخر إلى هذا الأسلوب المصرى .

وعلى أية حال فإن هذا التوازن أو الترادف في الجمل لم يوضع قط يوما من الأيام ليكون قابلا ثابتا للشعر ، ولكنه بقى دائما مجرد حلية لفظية كان من المحقق أن تستعمل بدون أى تحفظ في الوقت الذى يريد الشاعر فيه أن يعبر عما في ضميره بلغة عالية .

استعمال المترادفات
في لغة الشعر وسببه

وقد أدى كذلك الشغف بتنوع الأساليب إلى عادة الإشارة إلى الشخص المدوح في الأنشودة بأسماء جديدة وألقاب مختلفة . من ذلك « أنشودة الصباح » المترجمة فيما بعد : فإن البيت الواحد منها يتنوع بهذه الطريقة إلى مالا نهاية له . ويظهر هذا مملا وثقيلًا على آذاننا ، ولكن ذلك يرجع إلى أننا لم نتذوق بعد أسرار المسميات المختارة ولم نفهمها بعناية

وهذا النوع من الأسلوب خاص كذلك بأناشيد المديح التي يمتاز بها الأدب
المصرى وهي تبدى باسم المدوح مسبقا : بجملة تعجب ، مثال ذلك :
« المديح لك ! » أو « التعبد لك ! » . ثم يتبع هذا نعوت محضة ،
وأسماء ، وأسماء أفعال ، وجل موصولة تنعت الفرد المدوح وتعيد إلى الذاكرة
جليل أعماله (١) وتستمر هذه النعوت تباعا بلا نهاية ومن غير ترتيب
ويظهر ذلك جليا حينما لا يعير الشاعر ترتيب هذه النعوت المتابعة في ذهنه
أية أهمية . ومن ذلك يستخلص أن الشعر المصرى على وجه عام ليس له معنى
ومن يقرأ « تحذيرات نبى » (٢) التي يصف فيها بيؤس زمانه فإنه يدهش
حينما يرى أن هذا الشاعر لم يبذل أى مجهود فى ربط كلامه ببعضه ببعض
بطريقة منسجمة . فهو شاعر ، قلبه مفعم بيؤس بلاده فينفجر قلبه حينما بهذه
الشكوى ، وحينما بتلك . وعلى ذلك يمكن فهم أناشيده من هذه الناحية .
ولكن الإنسان إذا أنعم النظر فى جملة ما رآها شيئا مخالفا ؛ لذلك فالرجل
يتكلم على البديهة ، وعلى ذلك فكل كلمة استعمالها فى آخر البيت الذى
قاله تحذو به إلى فكرة أخرى جديدة ليس بينها وبين سابقتها علاقة
فيعبر عنها فى الحال . وإليك مثلا : يقول الشاعر أن كل شئ مفعم
بالحياة حتى الأطفال الصغار . وعند ذكر الأطفال يحضر فى ذاكرته أن
الأطفال يقتلون ويلقى بهم على تلال الصحراء ، ثم تذكره تلاع الصحراء
بالموميات التى تنزع هناك من القبور ويلقى بها عليها .

ويجب قبل أن نختم هذا البحث أن نذكر حليتين أخريين كان

(١) نجد مثلا لأناشيد المدح فيها بعد بين الاشارة الدينية فى العصر القديم .

(٢) جزء أول ص ٤٠٠ النخ .

الجناس في الشعر
المصرى

المصريون مولعين بتزيين كلامهم بهما . وليس حتما علينا أن نعدّها خاصيتين
مميزتين للشعر المصرى وهما الجناس ، وبداية الكلمات بحروف واحدة .
أما الجناس فكان أسلوباً محبباً لدى المصريين . وقد وجدت طقوس
دينية قديمة جداً لتقديم القرابين لوحظ فيها الجناس في كل اسم من أسماء
مواد الطعام واستعمل الجناس كذلك بنظام في قصيدتين من أدب الدولة
الحديثة قد دونتا فيما بعد^(١) غير أن هذا الجناس لا يمكننا وصفه في الترجمة .
وفي العصور التي نحن بصددّها الآن لا نلاحظ حالات الجناس الحرفي
إلا من وقت لآخر . مثال ذلك بيتان من الشعر يشيران إلى
« أمنحوتب الثالث » : « حاربت عصاه بلاد النهرين ، وأخضع قوسه
السود » .

ولابد أن الأشعار التي تبتدىء كلماتها بحروف متجانسة وجدت
في ذلك الوقت ، وإلا فكيف حصل المصريون في العصر اليوناني
- الذين لم يكونوا مطبوعين على التجديد - على نموذج أشعارهم التي
تبتدىء كلماتها بحروف متشابهة وهو النموذج الذي كانوا يميلون إلى استعماله
في نقوش معابدهم ؟ وقد كان رجال الدين في ذلك العصر يجدون لذة
في ذكر كلمات تبتدىء بحروف متشابهة في الجملة الواحدة . واستعمال مثل
هذه الأساليب يمكن أن يعزى أيضاً إلى الدولة الحديثة .

(١) أنشودة غرام ، والشعر الخاص بالمركة الحرية
Erman Literatur Der Aegypten P. 348

مختارات من أدب الدولة القديمة

أمثلة من الشعر

لم تكشف لنا الآثار حتى الآن عن أى نوع من الأغاني والأناشيد والأحاديث المنظمة من عهد الأسرة الأولى، ولكن رغم ذلك يجب أن نسلم بأنها كانت موجودة. والواقع أنه يوجد كثير من التراكيب الشعرية في لغة العصر التاريخي مما ترجع نغماته إلى العصر السحيق على أنه لم يبق لنا من هذا الشعر القديم إلا النزر اليسير، وهو على قلته لا يكشف لنا عن عذوبة الشعر الفطرية: لأن ما لدينا منه ينحصر في صيغ وأناشيد دينية ومع ذلك فإن الطالب المصري الذي يعرف كيف يقرأ ذلك الشعر الديني يمكنه أن يأخذ فكرة عامة عن حقيقة الشعر الديني المقابل له — فهو شيء مختلف جد الاختلاف عما يصوره لنا أدب مصر في عصر ازدهاره عند ما كان غنيا بنغماته وقوافيه. ولقد كان التعبير في هذا الشعر القديم حيا ساذجا، وكانت الأفكار متقلة غير مستقرة، وكانت الضمائر في هذه المتون تتغير فجأة من استعمال إلى استعمال وكل هذا يدل على طراقة الشعر وجدته — وإذا تفاضينا عن سذاجة هذه الصيغ القديمة وغرابتها فإننا نستطيع أن نكشف الغطاء من حين لآخر عن روح شعرية فطرية قل أن نجد لها في عصور أخرى أكثر تهذبا.

منتخبات من متون الاهرام

تكلمت عن متون الأهرام والغرض منها في الجزء الأول من ٢٥٧ الخ

وهذه المتون تهتم اهتماماً خاصاً برغبة المتوفى المعظم (الملك) في الابتعاد عن تمضية حياة مظلمة في العالم السفلى ، فإن هذا العالم هو مصير المتوفين العاديين ، أما المتوفى الأعظم فإنه يعيش في السماء كما تعيش الآلهة وهناك يمكنه أن يسبح مع إله الشمس في سفينه أو يسكن في حقول المنعمين أو يرح في حقول قربان الطعام أو حقل « يارو » ؛ ومن الممكن أن يصير نفسه إلهاً وقد اقتن الشعراء في تصوير هذا الدور كما شاء لهم خيالهم فلم يكتفوا بتصويره (الملك) في أروع مظاهر الاستقبال من الآلهة بل دفعوه إلى مرتبة الغزاة الفاتحين لعالم السماء .

وتتصل بهذه الأفكار فكرة أخرى لها علاقة بالإله أوزير الذى يعتبر المثل الأعلى للموتى من بنى الإنسان فقد قتل مرة ثم أعيد إلى الحياة وصار حاكم الأموات وهو بهذه الكيفية يعتبر في متون الاهرام أنه ساكن في السماء .

ولغة متون الاهرام عتيقة ولا يزال فيها محفوفاً بصعوبات عظيمة إذ تشير إلى حوادث وأساطير ليست معلومة لنا وبخاصة الأساطير الدينية .

١ - **سياهنة المتوفى الى السماء :** ^(١) إن الطائر يطير ! إنه يطير بعيداً عنكم أنتم أيها الناس . ولم يعد بعد على الأرض فهو في السماء .

وأنت يا إله مدينته أن روحه (كا) ^(٢) بجانبك وهو يندفع إلى السماء مثل الواق (اسم طائر ،) ويمتطى السماء مثل الصقر ، ويتهادى نحو السماء كجرادة . ^(٣)

(١) من فصل ٤٦٧ من متون الاهرام (٢) وقد سميت الروح المادية (٣) هذا النشيه الساذج قد حفظ في متون هرمين غير أنه لم يعجب ذوق الناشر المثقف الذى كان يحضر متون هرم « يبي » فوضع بدلاً من الجراد « حور أختي » آله الشمس وبذلك أفسد المعنى ، غير أن هذا الوضع كان يتفق مع ذوق الملك المتدين أكثر من مقارنته بجرادة

ب - ومنها ^(١) : ما أسعد الذين يشاهدونه متوجا بتاج « رع » !
ومثزه عليه كثر « حتحور » ، ورثه كرش صقر . وهو يصعد إلى
السماء بين إخوانه الآلهة .

ج - ومنها ^(٢) : إن قلبك معك يا « أوزير » ومعك قدماءك يا
« أوزير » ؛ ومعك ذراعاك يا « أوزير » . وإن قلبه معه ، ومعه قدماءه ،
وذراعه معه ^(٣) لقد أقيم له منحدر إلى السماء ليصعد عليه إلى السماء ^(٤)
إنه يصعد على دخان البخور العظيم .

إنه يطير كطائر ، ويحط كجمل في مقعد خال في سفينة « رع » :
قف ، اخرج إنك بدون حتى يجلس في مكانك ^(٥)
إنه في السماء - يجدف في سفنتك يا « رع » . وينزل على الأرض
في سفنتك يا « رع » .

وعند ما تكون فوق الأفق ، فإنه يكون هناك ، وعصاه في يده كملاح
سفنتك يا « رع » . إنك تصعد إلى السماء بعيداً عن الأرض ،
د - ومنها ^(٦) : استيقظ أيها القاضى ^(٧) ! يا « تحوت » ، انهض !

استيقظوا يانيام ! تحركوا يامن في « كنت » ! ^(٨) أمام الأنيس العظيم

(١) فصل ٣٣٥ من متون الاهرام (٢) فصل ٢٦٧ من متون الاهرام
(٣) كما ان جسم « أوزير » لم ينقص منه شيء فكذا كان حال المتوفى .
(٤) في عصرنا يصل سلكا من خشب أما في عصر قدماء المصريين فكانوا يبنون
منحدرات من اللبن للصعود عليها وذلك لقلّة الخشب في مصر (٥) أى أنه يسبح
كجدف في قارب الشمس ، واكراما له يخرج « رع » أحد الآلهة من مكانه ليحل المتوفى محله
(٦) فصل ٢١٠ من متون الاهرام (٧) اسم آله القمر « تحوت » الذى كان يفصل في
الخصومات بين الآلهة (٨) شمالى بلاد النوبة ، غير أنه من المحتمل هنا أنه يقصد بها مكانا
في السماء . والواقع أن المصريين كانوا يعتقدون أن عالم الآخرة كعالم الدنيا في أسمائه وشكله وصفاته

(طائر مائي) الذي ارتفع من النيل ، ولإله ابن آوى الذي خرج من شجرة الأثل (١) .

إن فيه لطاهر ، وإن تاسوعى الآلهة قد بجراه ، وإن لسانه الذي في فيه طاهر ، إنه يكره الروث ويعاف البول (٢) وهو يكره ما يكره . وهو يكره هذا ولا يأكل هذا

وأنما أيها التويمان اللذان يسيحان في السماء : « رع » و « تحوت » (٣) خذاه إليكما ليكون معكما : حتى يأكل مما تأكلان ؛ ويشرب مما تشربان وحتى يعيش مما تعيشان وحتى يسكن حيث تسكنان ؛ وحتى يصير قويا بما يجعلكما قويين ؛ وحتى يسيح هناك حيث تسيحان .

إن كوخه قد أقيم في « حقل يارو » ومرطباته في حقل « قربان الطعام » . وما كولاته معكما أيها الإلهان ، وشرابه كشراب « رع » إنه يحيط بالسماء « كرع » ويحترق السماء « كتحت »

هـ — المتوفى يظهر على السماء (٤) : « إن في السماء شجارا ، وإنا لنرى شيئا جديدا » هكذا تقول الآلهة الأولى (٥) .

وتاسوع (٦) « حور » يهر ، وإن أرباب الأشكال لفي دعر منه .

(١) كان المتوفى يظهر فجأة على هيئة عصفور بطير ، وعلى هيئة ابن آوى يتسلل الى الخارج .

(٢) كان المصري الاولى يمقت كل المقت أن يضطر الى أكل برازه بعد الموت (٣) الشمس

والقمر (٤) فصل ٢٥٧ من متون الاهرام (٥) التي تشاهد الشجار (٦) التاسوع

(بجت بالمصرية القديمة) هو اسم لآله الشمس والآلهة الثمانية التي تعد في الاساطير

المتفق عليها أنها أولاده وأحفاده وأولاد احفاده : شو وتنتوت ، جب ونوت ثم الاخوان

والاختان أوزير وست وإزيس ونفتيس . وزيادة على ذلك كان هناك تاسوع آخر

على رأسه حور فمتلا ترى فيما بعد وفيما سلف أيضا التاسوع المزدوج أى أن التاسوعين

قد ذكرا منضين الى بعض .

وكلا التاسوعين يخدمه ؛ وهو يجلس على عرش رب العالمين
والسموات مطويات يمينه ، وهو يشق معناها ^(١) ، ويزف في طريقه
إلى « خبر » ويفيب حيا في الغرب ، وسكان العالم السفلى ^(٢) يتبعونه
ويشرق مجددا في الشرق .

وذلك الذى فصل فى الشجار ^(٣) يأتى إليه مطأطأ الرأس . والآلهة
تخافه لأنه أكبر سنا من « الواحد العظيم » إنه صاحب السلطان على
مكانه . وهو الذى يقبض على القيادة ^(٤) . والأبدية تجلب إليه .
والحكمة ^(٥) موضوعة له عند قدميه . صبح له عاليا فرحا فانه قد استوى
على الأفق

و — المتوفى بلتهم الآلهة : ^(٦) إن السماء محجة بالغيوم
والنجوم تطر (؟) والأقواس تتحرك للرمى ، وأوصال آلهة الأرض
ترتعد ^(٧) حينما تشاهد كيف يظهر فى شكل واضح كإله
يعيش على آبائه ويأكل أمهاته . إنه رب ال . . . الذى لا تعرف

(١) الذى يتكون منه السماء وما يلى يصف كيف أن المتوفى يقوم بالسياحة اليومية
مع الشمس فى مجراها (٢) العالم السفلى أو السماء السفلى . (٣) الآلهة
« نخوت » منتشر آله الشمس (٤) الكلمة المصرية « حو » وهى تمثل مظهر
القوة الملكية التى تتجلى فى الكلمات التى تخرج من فم الملك

See A. H. Gardiner, Proceedings of the Society of Biblical Archaeology, XXXVIII. p. 49)

(٥) أى الحكمة التى يحتاج إليها للحكم

(٦) فصل ١٧٣ - ١٧٤ من متون الاهرام . ترجمة :

J. H. Breasted, Development of Religion and Thought in Ancient Egypt, p. p. 127, 129; R. O. Faulkner, Journ. of Egypt. Archaeology, X. p. p. 97, 103.

(٧) أى أن العالم بأجمه فى اوتباك بسبب الخوف منه . والأقواس هى جزء من السماء .

أمه اسمه (١). له الفخار في السماء ، وله القوة في الأفق مثل « آتوم »
والله الذي ولده ، وقد ولده ولكنه (المتوفى) أقوى منه . أرواحه
حوله وصفاته تحت قدميه ؛ وآلهته فوقه وصلاله على حاجبه وحيته (٢)
فوق جبهته : وقواه تحميه . إنه ثور السماء ، وقلبه ميال إلى
النطاح ؟ . وهو الذي يعيش على حياة كل إله ، وهو الذي يأكل أعضاءهم
عندما يكونون قد ملثوا بطونهم بالسحر في جزيرة « نبيسى » (٣)
وهو يظهر هكذا الواحد العظيم رب الخدم الإلهية وهو يجلس
وظهره إلى « جب » (٤) . وهو الذي ينفذ الحكم مع من خفي اسمه في يوم
ذبح المسنين (٥) . وهو رب طعام القربان الذي يعقد الحبل (٦) ويهيئ طعامه .
وهو الذي يأكل الناس ، ويعيش على الآلهة ، ويملك الجمالين ،
ويرسل الرسل (٧) . وهو الذي يلقف سحرهم ويبتلع سيادتهم . فالكبار
منهم غداؤه في الصباح ، والمتوسطون حجما وجته في المساء ، وصغارهم
أكلته في الليل . والمسنون من رجالهم والمسنات من نسائهم قد حصصوا
لبخوره (٨) والعظماء الذين في شمالي السماء يوقدون له النار تحت القدور
ووقود هذه النار أفخاذ المسنين (٩) وسكان السماء يخدمونه ، وقدور الطبخ
تمسح له بسيقان نسائهم .

(١) لانه إله أرفع مرتبة منها (٢) أى الحية التى تسمى الصل وهى شارة الملك
التي كان يعتقد فيها أنها تحرق أعداءه . (٣) من المعتقدات المعروفة أن آكلى
لحم الانسان كانوا يعتقدون أنهم بأكلهم لحم أعدائهم يكتسبون قوتهم أما جزيرة نبيسى
فإنها تذكر كثيرا في الحرافات المصرية (٤) إله الارض (٥) الذين حكمت
عليهم المحكمة بالاعدام . (٦) يحتمل أنه الحبل الذي يوقع به فريسته للذبح
(٧) كان له خدمه الذين ذكروا بأسماء غريبة في القطعة التى تلى هذا في متون الاهرام .
(٨) أى أنهم كانوا يحرقون كبخور . (٩) أى انها كانت تستخدم وقوداً .

وقد أحاط بالسمايين جميعا وقد اخترق شاطئ النهر . وهو « الواحد القوى » صاحب السلطان على الأقوياء وإنه لياكل من يعترضه نيئا (؟) ، ومكانه فوق رأس الأشراف الذين فى الأفق . وهو إله أكبر من أكبرهم سنا . الألوف تخدمه والمئات تضع له القرايين وقد منحه « أريون » (نجم) أب الآلهة عهدا بتعيينه واحدا عظيما قويا (١) وقد توج فى السماء من جديد ، وإنه ليلبس التاج ، كرب الأفق . وقد كسر عظم الظهر والنخاع الشوكى ، وقد اختطف قلوب الآلهة وقد أكل التاج الأحمر وابتلع التاج الأخضر وهو يعيش على رئات الحكماء ؛ ويرتاح لأن يعيش على القلوب وسحرها ويفرح حين يلتهم ال التى فى التاج الأحمر (٢) . وهو ينمو وسحرها فى بطنه وألقابه لم تقتصب منه . وقد ابتلع عقل كل إله .

مدة حياته الخلود ، وحدوده الأبدية إذا أراد فعل ، وإذا لم يرد لم يفعل ، وهنا تتجلى مكانته - وهو الواحد الداخلى فى حدود الأفق إلى أبد الآبدين . تأمل فان روحهم فى بطنه وسيادتهم معهم وإن فضلات طعامه تفضل طعام الآلهة وما ينحرق له هو عظامهم وأرواحهم معه وظلالهم مع زملائهم ؟ (٣)

المتوفى يأتى رسولا إلى أوزير (٤)

(رجاء موجه الى النوتى (المداوى) فى السماء لينقل المتوفى حيث يسكن أوزير) .

(١) مما يلفت النظر أن البيروقراطية تتدخل حتى فى وسط هذه الوحشية المتناهية فالآلهة آكل لحم الإنسان يحتاج إلى منحه عهدا ليعين فى وظيفة (٢) كان لتيجان قوى خارقة للعادة (٣) المني غامض (٤) متون الاهرام فصل ٥١٨

أيها العابر إلى « حقل قربان الطعام » أحضر لي هذا !
أسرع إنه هو ! . إنه هو تعال ! هو ، ابن سفينة الصباح التي قد ولدته
على الأرض ، إن ولادته تامة لاتشوبها شائبة وعلى تمامها حياة الأرضين .
إنه هو بشير العام ^(١) يا « أوزير » انظر ، إنه يأتي برسالة من إليك
« جب » : محصول العام سعيد ، ما أسعد محصول العام ، محصول العام
حسن ، ما أحسن محصول العام !

لقد نزل مع التاسوعين إلى « نهر الماء البارد » ^(٢) وهو المنشئ
للتاسعين ومؤسس « حقل قربان الطعام » ^(٣) . وقد وجد الآلهة .
منتظرين ، ملفوفين في ملابسهم ، ونعالهم البيضاء في أقدامهم . وعندئذ
ألقوا بنعالهم البيضاء على الأرض وخلعوا ملابسهم ^(٤) . « لم يهدأ لنا
قلب حتى أتيت » هكذا قالوا

مصير أعداء المتوفى

(من فقرة طويلة ^(٥) ؛ وهي خاصة بأعداء يريدون أن يقتصبوا
منه طعامه ونفسه)

إنه أقوى منهم حينما يظهر على شاطئ نهره . وقلوبهم تسقط بين
أصابعه ^(٦) . ويأخذ ممن في السماء أحشاءهم وممن في الأرض ^(٧) دمهم

(١) يظن أنه الشخص الذي يقدم تقريراً إلى سيده عن نتيجة المحصول كذلك
يحضر إلى أوزير رسالة سارة من إله الأرض « جب » ^(٢) اسم النهر
السمائي ^(٣) لا بد أن إلهاً أنشأ هذا المكان للآلهة والمنعمين وقد شبه
به المتوفى ^(٤) إشارة الفرح أو السرور وفي مصر الحديثة تخلع النسوة النعال
في الأرياف علامة على الاحترام عند المرور بشخص عظيم في قرنتهن ^(٥) فصل ٢٥٤
من متون الأهرام ^(٦) أى يمزقهم ^(٧) الطيور والحيوانات المقترسة

الأحر . القفر ورشهم ، والمضى مساكنهم ، والنيل المرتفع ^(١) أبوابهم
(ولكنه) فرح القلب ، فرح القلب ، هو ، الواحد الأحد ثور السماء
وقد جعل الذين عملوا له هذا يفرون ، وقضى على خلفائهم .

الفرح بالفيض ^(٢) : (من قرة طويلة بعض الطول ومعناها
مبهم) ؛ يرتش من يرون النيل في فيضان تام . والحقول تضحك
وشاطئا النهر فيضان وقربان الإله ينزل ^(٣) ووجوه القوم مستبشرة ،
وقلوب الآلهة فرحة .

أناشيد الصباح

كان يرحب بالآلهة في المعابد في الصباح بأنشودة تشتمل — على
الأخص — على النداءات التي كانت تكرر دائما « استيقظ في سلام »
ويتبع تلك النداءات في كل مرة اسم مختلف للإله ، وعلى ذلك كان
المفروض أن الآلهة كانت تستيقظ كذلك في السماء بهذه الطريقة نفسها
بوساطة آلهة أيضا . وهذا يساعدنا على فهم كنه هذه الأنشودة وهي
الأغنية التي كانت النسوة يوقظن بها الملوك في الصباح في أقدم عهود
مصر التاريخية .

ويمكن أن يفرض الإنسان أن ألفاظا مثل « أنت ياملك ، أنت ياسيد
مصر ، أنت يارب القصر » قد حلت محل الاسماء الإلهية في النسخة
الأصلية للأنشودة ، وكانت تغنيها النساء بهذا الشكل أمام مسكن الإله
على وتيرة واحدة وبدون انقطاع ما أسعفتها الذاكرة المغنية بأسماء صالحة

(١) نيل مرتفع يفرم بمائه (٢) فصل ٥٨١ من متون الاهرام (٣) حق الآلهة
ستحصل على طعام أكثر .

أ - إلى إله الشمس ^(١) : استيقظ بسلام ، أنت يَايها الواحد

المطهر ^(٢) ، في سلام ! استيقظ بسلام ، أنت يا حور الشرق ، في سلام استيقظ بسلام ، أنت يَايها الروح الشرق ، في سلام ! استيقظ بسلام ، أنت يا «حور أختي» في سلام ! أنت تنام في قارب الغروب ، أنت تستيقظ في قارب الصباح ، لأنك أنت الذي تشرق على الآلهة ، ولا إله يشرق عليك !

ب - إلى الفصل الملكي ^(٣) استيقظ في سلام ! يَايها الملكة العظيمة

استيقظ في سلام ؛ إن استيقاظك ممتلئ بالسلام . استيقظ في سلام ! يَايها الحية التي على حاجب (الملك الفلاني) ، استيقظ في سلام ؛ إن استيقاظك ممتلئ بالسلام . استيقظ في سلام ! يَايها الحية الصعيدية ، في سلام ، إن استيقاظك ممتلئ بالسلام . استيقظ في سلام ! يَايها الحية البحرية ، استيقظ في سلام ، إن استيقاظك ممتلئ بالسلام . استيقظ في سلام ! يا « رنوت » ^(٤) ، استيقظ في سلام ؛ إن استيقاظك ممتلئ بالسلام . استيقظ في سلام ! يا « وزيت » صاحبة الفاخر ، استيقظ في سلام إن استيقاظك ممتلئ بالسلام . استيقظ في سلام ! أنت يا صاحبة الرأس المتصبية ، وذات الرقبة العريضة ^(٥) ، استيقظ في سلام ، إن استيقاظك مفعم بالسلام . الخ الخ

(١) من متون الاهرام فصل ٥٧٣ (٢) الشمس تغسل نفسها عند خروجها

من الظلام . (٣) الحية التي توضع في تاج الملك وتمتد كآلهة

(٤) إلهة الحماد (٥) هكذا يصور العمل الملكي

تعاليم « فتاح حتب »

تعد تعاليم « فتاح حتب » أقدم مصدر في أدب العالم صور لنا الخلق المستقيم والواقع أن حكمة « فتاح حتب » التي جاءت عن تجارب ملخص لنا كثيراً من الأدب الخلقى لهذا العصر وكما جاء في مقدمة هذه التعاليم نجد أن الوزير المسن قد شعر بضعف الشيخوخة وطلب إلى الملك أن يسمح له بتعليم ابنه (ابن الوزير) ليحل محله في وظيفته . ولما قبل الملك ملتمس وزيره أخذ الأخير يحذر ابنه بالألا يسئ استعمال الحكمة التي سيقفه إياها بل ينتهج سبيل التواضع فقال : « لا تكونن متكبراً بسبب معرفتك ، ولا تتقن بأنك رجل عالم ، فشاور الجاهل والعاقل لأن نهاية العلم لا يمكن الوصول إليها ، وليس هناك عالم يسيطر على فنه تماماً . وإن الكلام الحسن أكثر اختفاء من الحجر الأخضر الكريم ، ومع ذلك فإنك تجده مع الإماء اللاتي على أحجار الطواحين » .

ثم يأتي بعد ذلك اثنتان وأربعون فقرة في نصائح مختلفة دون أي مجهود من المؤلف في ترتيبها أو تنظيمها بل كتب كلا منها عفواً حسبما كان يحضر ذهنه من تجارب الحياة ومسئوليتها . وسنكتفي هنا بذكر أهمها .

معاملة الخطيب : « إذا وجدت خطيباً في زمانه سليم العقل أمر منك فأثن له ذراعك وأحن له ظهرك . أما إذا تكلم هجراً فلا تقصرن حينئذ في مقاومته حتى ينادى به الناس : أنت إنسان جاهل .

ولكن إذا كان مماثلاً لك فأظهر بصمتك أنك أحسن منه إذا أخطأ في الكلام ، وعندئذ سيدحه السامعون ولكن اسمك سيعتبر حسناً بين العظماء . »

أما إذا كان شخصاً حقيراً ليس ندا لك فلا تقضين عليه لأنك تعلم أنه تعس احتقره وبذلك يؤتب نفسه . وإنه لقيح أن يضر الإنسان شخصاً محقرًا .

إنك تفوز بالحياة بمساعدة الحق والصدق : إذا كنت قائداً وتصدر الأوامر للجم الفقير فاسع وراء كل كمال حتى لا يكون نقص في طبيعتك . إن الصدق جميل وقيمه خالدة وإنه لم يتزحزح منذ يوم خلقه (١) والذي يتحظى نواميسه يعاقب . وهو أمام الضال كالطريق المستقيم . إن الخطأ لم يقد مقترفه إلى الشاطئ . حقيقة أن الشر يكسب الثروة ولكن قوة الصدق في أنه يمكث والرجل المستقيم يقول إنه متاع والذي (٢) .

أدب السلوك في الضيافة : إذا اتفق أنك كنت من بين الجالسين على مائدة من هو أكبر منك مقاماً فخذ ما يقدم لك حينما يوضع أمامك ، ولا تنظرن إلى ماهو موضوع أمامه بل انظر إلى ماهو موضوع أمامك . ولا تصوبن لحظات كثيرة إليه لأن ذلك مما تسمتز منه النفس إذا أحفظها الإنسان : وانظر بمحياك إلى أسفل إلى أن يحبك وتكلم فقط بعد أن يرحب بك واضحك حينما يضحك فإن ذلك يدخل السرور على قلبه وما تفعله يكون مقبولا لأن الإنسان لا يعلم مافي القلب (٣)

والرجل العظيم يتوقف عزمه على إرادة نفسه حينما يجلس أمام الطعام والرجل العظيم يعطى لمن يجاوره ولكن نفسه تمتد يدها من أجله

(١) « رع » الذي جلب الصدق إلى العالم (٢) يعني أن أحسن شيء ورثني إياه والذي هو أنه أنشأني على الصدق (٣) يجب أن تكون متحفظا في حضرة الرجل العظيم لأنك لا تعرف طامعه .

(البعيد) (١) والخبز يؤكل بأمر الله (٢)

كن أميناً في تبليغ الرسائل : إذا كنت فرداً ممن يوثق بهم وأرسلك رجل عظيم إلى آخر ، فاعمل بنصح في الأمر حينما يرسلك . فيجب عليك أن تبلغ الرسالة كما قالها ، ولا تكونن كتوما فيما يمكن أن يقال لك واحذر النسيان . واحرص على الصدق ولا تتخطه حتى لو كنت مخبراً شيئاً لايسر . واحذر أن تبجح الكلام ، فربما يصير العظيم محترقاً عند آخر بوساطة القاء الكلام كالعامه . « وصيرورة العظيم واحداً من العامة أمر تكرهه النفس . »

إذا حرثت وكان هناك نبات في الحقل ، وأعطاك الله الخير العيم فلا تشبع فك بجانب أقاربك (الباقي غير مفهوم)
لا تصغرن من شأن أولئك الذين ارتقوا في الدنيا : إذا كنت رجلاً متواضعاً ، وكنت في ركاب رجل ذائع الصيت من الذين على وئام مع الإله (الملك) ، فتجاهل ماضى وضاعته ، ولا تحقدن عليه ، بما تعرفه عنه فيما سلف ، واحترمه على حسب مكاته التي أصبح فيها لأن الغنى لا يأتى وحده

خصص لنفسك وقتاً لترويح نفسك : اتبع لبك مادمت حياً (روحك) ، ولا تفعلن أكثر مما قيل لك . ولا تنقصن من الوقت الذي تتبع فيه قلبك ، لأنه مكروه عند النفس (الكا) إذا انتقص وقتها (ويظهر

(١) كان الرجل العظيم يقدم عند الأكل ما لذ وطاب لمن هم بجواره ولكن إذا كانت حالته النفسية حسنة فإنه يمد يده للبعيد . (٢) قد يعنى بذلك الروح المادية وقد ورد في مكان آخر أن الله موجود في الإنسان .

على الأخص أن تحذيراً ذكر ضد؟) العناية الزائفة بمنزلك .
معاملة ابنك : إذا كنت محترماً ، وكان لك بيت ، وولد لك ابن
رضي الله عنه - فإذا عمل صالحاً ، ومال إلى طبعك ، وسمع تعاليمك ،
وكانت خطئه ذات نتيجة حسنة في بيتك ، ومعتنياً بآالك كما يجب ، فابحث
له عن كل شيء حسن .

فهو ابنك الذي ولدته لك « كاك » (نفسك) ولا تنفرن قلبك منه .
ولكن إذا عمل سوءاً ، وأعرض عن خطئك (نصائحك) ولم يعمل
حسب تعاليمك ، وصارت خطئه لاقية لها في بيتك ، وتحدى كل ما تقوله
..... عندئذ أقصه لأنه ليس ، ولم يولد لك

السلوك في بهو العظماء

إذا وقفت أو قعدت في البهو ، فانتظر بهدوء حتى يأتي دورك .
وأصغ إلى الخادم الذي يعلن ؛ ومن نودى فله مكان متسع ^(١) . والبهو
له نظامه ، وكل ترتيب فيه على حسب خيط القياس . وإن الإله هو
الذي يعين المكان الأول - ولا يصل الإنسان إلى شيء بالرفق .
كن حازماً في حديثك مع الناس .

أعلن عملك بدون خفاء ، وتقدم بأفكارك في مجلس سيدك
ويجب على الإنسان أن يقول بوضوح ما يعرفه وما لا يعرفه . (السطر
الأخير هكذا) : فهو صامت ويقول : « لقد تكلمت » .

معاملة أصحاب المظالم : إذا كنت ممن يقدم لهم الشكاوى ، فكن

(١) أي أن الإنسان ليس في حاجة إلى أن يندفع إلى الامام بحالة تتنافى مع الذوق

شفيقا حينما تسمع كلام المتظلم ، ولا تسيء معاملة إلى أن يغسل بطنه^(١) .
وإلى أن يقول ما قد جاء من أجله ، وإن المتظلم يحب كثيراً أن يهز
الإنسان رأسه إلى كلامه إلى أن ينتهى مما جاء من أجله
وأن مجلسا حسنا يسر القلب .

ولكن من يمثل القسوة نحو المتظلم ، فإن الناس يقولون : « لآى
سبب يفعل هو كذلك ؟ »

التحذير من النساء : إذا أردت أن تحافظ على الصداقة فى بيت
تدخله سيدا أو أخا أو صاحبا ، فاحذر القرب من النساء ؛ فإن المكان
الذى هن فيه ليس بالحسن .

ومن أجل هذا يذهب ألف إلى الهلاك : فإن الرجال يصيرون
بجائين بأعضائهن المبهرجة وبعد ذلك ! تصير مثل « حجر هرست »^(٢)
شيئا تافها مثل الحلم ، والموت يأتى فى النهاية .

التحذير من الشراة : إذا أردت أن يكون خلقك محمودا ، وأن
تحرر نفسك مما هو قبيح ، فاحذر الشراة فإنها مرض مملوء بالداء
ولا يشفى . والصداقة معها مستحيلة ، فانها تجعل الصديق العذب مرأ ،
وتقصى ذا الثقة من سيده ، وتجعل كلا من الأب والأم قبيحا وكذلك
الأخوال ، وتفصل الزوج من زوجته . وهى حزمة من كل أنواع الشر
وحقية من كل شئ مرذول . وإن الرجل الذى يتبع طريقة حقة فى

(١) ان المشابهة بين إزالة الهموم التى تثقل القلب وبين غسل البطن قد ورد ذكرها كذلك فى
شكاوى الفلاح

(٢) أى أن أعضاءهن المبهرجة تجذبك غير أنها بعد لفة قصيرة الامد تظهر باهتة اللون مثل
حجر هرست الذى يعتبر فى غير هذا المكان علامة العذاب .

سلوكه ويسير على الصراط السوى ، يعيش طويلا : ويكسب الغنى بذلك ولكن الشره لا قبر له (١) .

لا تكونن شرها في القسمة ، ولا تكونن ملحا إلا في حقك ، ولا تطمعن في مال أقاربك ، فإن التماس المتواضع يجدى أكثر من القوة . . .
فإن القليل الذى اختلس منه يولد العداوة (حتى) عند صاحب الطبع اللين
فائدة الزواج : إذا كنت رجلا ذا مكانة ، فأفس نفسك بيتا ،

وأحب زوجتك في البيت كما يجب (٢) . وعليك أن تملأ بطنها وتستر ظهرها ؛ والعطور هى دواء أعضائها . واشرح قلبها طالما عاشت فإنها حقل مشر لربها .

كن كريما مع أصدقائك : أشبع أصدقاءك بما جد لك كإنسان نال الخطوة عند الآله (الملك) ومن الحزم أن تفعل ذلك إذ ليس هناك إنسان يعرف مصيره إذا فكر في الغد . فاذا أصابت المقربين مصيبة فإن الأصدقاء هم الذين لا يفتشون يقولون مرحبا له فعليك أن تستبق ودهم لوقت السخط الذى يهدد الانسان .

كن حذرا في الكلام : إذا كنت رجلا ذا مقام سام يجلس في محفل سيده فوطن عقلك على ماهو حسن . الزم الصمت فان هذا أحسن من أزهار « تفت » . وتكلم فقط إذا كنت تعلم بأنك ستحل المضلات وإن الذى يتكلم في المحفل لفنان (في الكلام) . والكلام أصعب من أى حرفة أخرى .

(١) أى لا يجد قبرا يدفن فيه وهذا دليل على الفقر المدقع (٢) وفى رواية أخرى : وخذ لنفسك زوجة تكون سيده قلبك .

لا تتقن بالحظ : إذا أصبحت عظيمًا بعد أن كنت صغير القدر ،
وصرت صاحب ثروة بعد أن كنت محتاجا في المدينة التي تعرفها (موطنك
القديم) ، فلا تتسبن كيف كانت حالك في الزمن الماضي . لا تتقن بثروتك
التي أتت إليك منحة من الآله (الملك) فإنك لست بأحسن من غيرك
من أقرانك الذين حدث لهم ذلك (الفقر) .

احترام الرؤساء : أحن ظهرك لمن هو أعلى منك (رئيسك في إدارة
الملك) . وبذلك يبقى بيتك بخيره . ويدفع لك مرتبك في حينه .
ومقاومتك من في يده السلطة قبيح . والإنسان يعيش مادام متساهلا . .
الحزم في المصاحبة : إذا كنت تبحث عن أخلاق من تريد مصاحبة
فلا تسأله ، ولكن اقترب منه ، وكن معه منفردا وامتنح قلبه
بالمحادثة فإذا أفشى شيئا قد رآه ، وأتى أمرا يجعلك تنجبل له فعندئذ
احذر حتى في أن تجاوبه كن صبور الوجه مادمت حيا .
وسنكتفي بهذا القدر من نصائح « فتاح حتب » .

ولدينا نصائح وتعاليم أخرى يرجع عهد كتابها إلى الدولة القديمة ولكن
النسخ التي وصلتنا محرفة كتبت في عصور متأخرة وأهمها تعاليم « كاجني »
وتعاليم « دواوف » وسنكلم عنها في حينها .

٢ - من الدولة القديمة :

أغاني العمال

أغنية الرعاة : عند ما ينتهي الفيضان يسوق الرعاة أغنامهم فوق التربة اللينة
لتحرث الحقل بمخوافرها الحادة . وفي أثناء اشتغالهم بذلك كانوا يغنون في الدولة القديمة :

الراعى فى الماء بين الأسماك . ويتحدث إلى البلطى ويرحب بالـ
سمك . أيها الغرب ! من أين آتى الراعى ؟ راعى الغرب (١) .

أغنية السماكين : أثناء جرس الشبكة كانت تغنى هذه الأغنية : إنها
تأتى وتحضر لنا صيداً جميلاً !

أغنية حاملى المحفة : كان الرجال الذين يحملون سيدم فى محفته
يفنون : خير لنا أن تكونى مملوءة من أن تكونى خالية ! أو . ما أسعد الذين
يحملون المحفة ! خير لنا أن تكون مملوءة من أن تكون خالية !

الآغانى فى الولائم

عند ما كان أهل المتوفى يولون وليمة له فى قبره كانوا يجهزون أكلة
ويعتقدون أنه سيكون حاضراً معهم ، وكانت هذه الوليمة لا ينقصها شئ ، ما
يحتاج إليه فى مثل هذه المناسبة فكان فيها الخمر والموسيقا والأزهار
والعطور .

وقد حفظ لنا لوح قبر من العهد الإقطاعى بداية إحدى هذه الآغانى
التي كانت تطرب الضيفان أثناء هذه الولائم . وقد مثل عليه عواد بدين يغنى :
آه يأيها القبر لقد أقمت للأفراح ، لقد أسست لما هو جميل (٢) . ولدينا
أغنية كاملة تلفت النظر كانت تغنى فى مثل هذه المناسبات . وهى تصف
زوال كل الأشياء الدنيوية لتحث السامعين على التمتع بأكثر ما يمكن مدة

(١) معنى الغرب هنا غامض

(٢) المعنى : أنك لست مكان حزن .

(2) Steindorff, Z. A. S. XXXII. p. 124.

حياتهم . والدولة الحديثة التي قد حفظها لنا ^(١) عرفت أنها مأخوذة من بيت الملك « أتف » ^(٢) أى من قبره ، وقد كتبت أمام العواد أيضاً . وتوجد صورة كاملة منها بين أغاني الدولة الحديثة .

ما أسعد هذا الأمير الطيب ، والمقدر الجليل قد وقع ^(٣) تذهب أجسام وتبقى ^(٤) أخرى منذ عهد الذين كانوا من قبلنا . والآلهة ^(٥) الذين وجدوا في الزمن الغابر راقدون في أهرامهم ، والأشراف قد دفنوا في أهرامهم كذلك والذين بنوا بيوتاً قد أصبحت مساكنهم كأن لم تكن . فماذا جرى لهم ؟ لقد سمعت أحاديث « إمحوتب » و « حارددف » ^(٦) الذين يتحدث بكلماتهما في كل مكان — فما هي مساكنهما (الآن) ؟ جدرانها دمرت ومساكنها لا وجود لها كأن لم تكن قط .

ولم يأت أحد من هناك ليحدثنا كيف حال من قبلنا ويخبرنا عما يحتاجون إليه لتطمئن قلوبنا (؟) قبل أن نذهب نحن كذلك إلى المكان الذي ذهبوا إليه .

كن فرحاً حتى تجعل قلبك ينسى أن القوم سيحتفلون يوماً ما بعبوتك ، فضع نفسك ما دمت حياً ، وضع العطر على رأسك ، والبس الكتان الجميل ، وذلك نفسك بالروائح الذكية المقدسة .

(1) Preserved in Pap. Harris, No. 500, and partly also on a tombstone of the Eighteenth Dynasty. See W. Max Müller, Die Leibes poesie der alter Ägypter (Leipzig, 1899) p.p. 31 ff.

(٢) لا بد أنه أحد أفراد أسرة أتف في نهايتها

(٣) الموت (٤) على حسب النسخة الحديثة يكون المعنى : تحمل محملها .

(٥) الملوك القدماء (٦) من أشهر الحكماء وقد كان أمحوتب يعتبر أنه ابن فتاح أما حرددف فكان يعتبر أنه ابن الملك خوفو .

وزد كثيرا في المسرات التي تملكها ولا تجعل قلبك يكتئب . اتبع
رغباتك وافعل الخير لنفسك (؟) افعل ما تميل إليه على الأرض ولا
تفضب قلبك حتى يأتي يوم نعيك . ومع ذلك فإن صاحب « القلب
الساكن » ^(١) لا يسمع عويلهم وإن الصياح لا ينجي إنسانا من العالم السفلي .

وفي أسفل كتب هذا « الحداء »

اقض اليوم في سعادة ولا تجهدن نفسك ! اصغ ، لا يمكن أحدا أن
يأخذ متاعه معه . اصغ ، وليس في قدرة انسان قد ولى أن يعود ثانية .

ازدهار الأدب المصري في العهد الاقطاعي

لقد كان لانحلال السلطة الملكية وتآليف مقاطعات صغيرة مستقلة ، في
نهاية الأسرة السادسة أثر عميق في رجال الفكر الذين رأوا زوال ما كانت
عليه البلاد من المجد والسؤدد والاتحاد وانحدارها إلى الانحطاط والفوضى
والمشاغبات التي استعرت نارها بين أمراء تلك المقاطعات . وقد قامت في وسط
هذه الفوضى حكومة في هراكليوبوليس ولكن كما ذكرنا في الجزء الأول لم
نعرف عن حكامها من الوجهة السياسية إلا التزر اليسير ، ولكن رجال
الفكر في هذا العصر قد أسعفونا بوثائق كشفت لنا عن حقيقة حالة البلاد
النفسية والمادية والسياسية ولا نكون مبالغين إذا قلنا هنا إن هذا
العصر يعد أزهر عصور الأدب في كل تاريخ البلاد ، لأن كل الوثائق التي
وصلتنا تعبر عن شعور نفسي يصور لنا حالة البلاد في أيام بؤسها والواقع

(١) هو أوزير إله الموتى .

أن الإنسان أقدر على التعبير عن شقوته وبؤسه أكثر منه على تصوير فرحه وسروره وأهم هذه الوثائق ما يأتى :

١ - تحذيرات نبي : وقد اقتبسنا معظمها فى الجزء الأول عند الكلام على أسباب سقوط الدولة القديمة .

٢ - تعاليم الملك ختى لابنه مرى كارع : وقد اقتبسنا منها بعض مقتطفات عند الكلام على العهد الأهناسى عند ذكر حالة البلاد السياسية (انظر جزء أول ص ٤٢٠) وتمتاز هذه الورقة بما جاء فيها من الأفكار الدينية على أن مثل ذلك يكاد يكون معدوما فى كل التعاليم الأخرى . ومن الحكم الرائعة التى جاءت فيها :

قيمة حسن الكلام والحكمة : كن حاذقا فى صناعة الكلام ، لأن قوة الرجل لسانه : والكلام أقوى من أية محاربة والحاذاق لا يعارضه أحد . والذين يعرفون أنه عاقل لا يهاجمونه : ولا يلحقه مكروه أينما كان . ويأتى إليه الصدق بعد أن اختبر تماما (١) . كما كان يتكلم به الأجداد .

الله وبنو الإنسان : يمر الجيل من الناس ، والله الذى يرعى الخلف قد أخفى نفسه

احترم الآله فى طريقه (احتفاله) حتى لإله الذى سوى من أحجار

(١) المشابهة مأخوذة من صنع الجملة وكانت تصجن الارغفة المصنوعة من الشعير بالماء عجنا خفينا ثم تخمر ، ومن ثم تصنع الجملة فضلية العجين هذه قد عملت لك لان الصدق الذى فرغ من تشكيله من قبل يقدم اليك فى الكتابات القديمة .

كرمية ، أو من نحاس ، كالماء الذى حل مكان الماء (١) . ولا يوجد
نهر يسمح لنفسه أن يبقى مختبئاً ، إذ لابد له من أن يحطم السد الذى قد
أخفاه .

والروح يذهب إلى المكان الذى يعرفه ولا يضل طريقه بالأمس
فاجعل منزلك فى الغرب (الآخرة) جميلاً ، ومكانك فى الجنة
فاخراً كالرجل العادل الذى عمل عملاً صالحاً فذلك هو المكان الذى يرتاح
فيه قلبه (٢) .

إن الفرد الذى يحمل فضيلة الحق فى قلبه أحب إلى الله من ثور
الظالم (أى الثور الذى يقدم قرباناً) اعمل شيئاً لله حتى يعمل لك المثل
بقربان يوضع على المائدة وتقوش تمخداً اسمك : إن الله عليم بمن يعمل
له شيئاً .

وقد ختم هذا الملك الحكيم كلامه بتأملات تدل على اعتقاده بالوحدانية
ووصف خالقه المسيطر على العالم نذكرها فيما يلى : إن الله قد غنى عناية حسنة
برعيته فقد خلق السموات والأرض طبق رغبتهم وخفف الظماً بالماء وخلق
لهم الهواء حتى تحيا به أنوفهم وهم صورهم التى خرجت من أعضائه وهو
يرفع إلى السماء حسب رغبتهم ، وخلق النبات والماشية والطيور والاسماك
غذاء لهم وهو كذلك يعاقب قذبح أعدائه وعاقب أطفاله بسبب ما دبروه
حينما عصوا أمره (٣) . ويضع النور حسب رغبتهم كذلك يجعلهم ينامون

(١) بما أن الآلهة يخفى نفسه فلا بد من احترام صورته إذ أنها بدل كلف عنه (٢) تحتاج
الارواح الى قبور حسنة تحوى الطعام وتجد فيها سكناً صالحاً حينما تأتى الى الارض
لتنعم بالنور

(٣) انما الى اسطورة عصيان بنى الانسان انظر جزء اول ص ٢٤١ .

ويسمع عندما يكون وجعل لهم حكما من الفرج (١)

٣ - شجار بين إنسان قد سُم الحياة وبين روحه : (ورقة محفوظة

بمتحف برلين) تعد محتويات هذه الورقة أقدم وثيقة في متاولنا عن موضوع روحى فى تاريخ العالم وهى تشبه « كتاب يعقوب » الذى كتب بعدها بنحو ١٥٠٠ سنة . ولانزاع فى أن اختيار المؤلف لهذا الموضوع كان وقتا لحالة الاضطراب والفقر والعوز التى كانت تسود البلاد فى هذا العهد المظلم .

ومما يؤسف له جد الاسف أن مقدمة هذا الكتاب التى ذكرت فيها أسباب هذه الثورة الروحية قد فقدت ولكن مما بقى لنا من الوثيقة يمكننا أن نتلمس تلك الأسباب .

والواقع أن هذا البائس كان رجلا رقيق الروح ولكنه رغم ذلك قد داهمه الحظ العاثر إذ أصبح مريضا واتعد عنه أصدقائه ، وحتى إخوته الذين كانوا من واجبه أن يواسوه فى مرضه ، ولم يجد بجانبه خلا وفيا . وفى وسط تلك المصائب سرق جيرانه متاعه وماعمله من صالح بالأمس قد نسى اليوم ، ورغم أنه كان صاحب حكمة فإنه قد أقصى عندما كان يريد أن يتراجع عن حقه ، وقد حكم عليه ظلما ، واسمه الذى كان يجب أن يكون موضع الاحترام ، « أصبح تنافى أنوف الناس »

وفى هذا الوقت العصيب عندما كان يسبح فى الظلام واليأس صمم على أن ينتحر ؛ فتراه وهو واقف على حافة القبر ، على حين أن روحه كانت تفر من الظلمة فى فزع وتأبى أن تتبعه ، وبعد ذلك تجد فى الورقة أن

هذا التمس يكلم نفسه أى يتحدث إلى روحه كأنه يتحدث إلى شخص آخر .
وقد كان أول سبب فى عدم إطاعة روحه فى اتباعه إلى الآخرة
خوفها من ألا تجد طعاما فى القبر بعد الموت ، وقد يظهر ذلك غريبا
جدا لأول وهلة من رجل يشك كثيرا فى مثل هذه التحضيرات التى
كانت تعمل للمتوفى فى آخرته ، ولعل هذا التعليل حيلة أدبية يريد
الكاظم أن يتخلص منها إلى عدم فائدة هذه المعدات الجنازية .
والظاهر أن الروح نفسها قد اقترحت عليه الموت حرقا ولكنها فرت
بنفسها من هذه النهاية الفظيعة . ولما لم يكن من بين الأحياء لهذا
التمس صديق أو قريب يقف بجانبه ، ويقوم بالاحتفالات الجنازية ،
أخذ يستحلف روحه أن تقوم له بكل هذا ، ولكن الروح على
آية حال أبت الموت فى أى شكل وأخذت تصف فظائع القبر :
ثم فتحت روحى فيها وأجابت عما قلته : إذا تذكرت الدفن ،
فانه حزن ، وذكراه تثير الدمع . وتفعم القلب حزنا ؛ فهو ينتزع
الرجل من يته ويلقى به على الجبل (الجبانة) ولن تخرج قط
ثانية لترى الشمس . على أن هؤلاء الذين بنوا بالجرائيت الأحمر ،
وأقاموا حجر دفن فى الهرم ، وهؤلاء الجبلون الذين شيدوا هذا
المبنى الجليل وأصبحوا مثل الآلهة ، ترى موائد قربانهم هناك خاوية كموائد
أولئك المتعبين الذين يموتون على الجسر من غير خلف لهم ، فيتلع
الفيضان ناحية من أجسامهم وتلفحهم حرارة الشمس كذلك ويلتهمهم سمك
شاطئ النهر ويبعث بهم . اصنع إلى وإنه لجدير بالناس أن يصنوا .
تمتع يوم السرور وانس الهموم .

وهذا هو جواب الروح عندما تمثل أمامها منظر الموت ولكن البائس قد أكد أن « من كان في هرمه ومن وقف بجوار سرير موته » ، أحد الأحياء ، يكون سعيدا ، وقد سعى أن تقوم روحه بدفنه وبتقديم القرابين ، ووقف عند القبر يوم الدفن ، لتجهز السرير في الجبانة « ولكن كان مثله مثل ضارب العود في الأغنية التي ذكرناها فيما سبق ، فقد تذكرت روحه قبور العظماء التي خربت ، وموائد قربانهم التي أصبحت خاوية كموائد العبيد التعسفين الذين ماتوا كالذباب في وسط الأعمال العامة ، على جسور الرى ، وقد أصبحت أجسامهم عرضة للحر اللافح ، والأسماك الملهمة في انتظار الدفن . فلم يكن هناك إلا حل واحد لكل ذلك : « أن يعيش الإنسان جاعلا الحزن نسيا منسيا ، وينفخ بكيته في السرور .

ويلاحظ أنه إلى هذا الحد لم تختلف هذه المناظرة التي تنحصر كل فلسفتها في أن « يأكل الإنسان ويشرب ويكون مرحا لأنه سيموت غدا » عما جاء في أغنية الضارب على العود ، ولكن بعد ذلك نشاهد أنها تمشى نحو نتيجة هامة تمتاز بها عن تلك الأغنية إذ أخذت تبرهن على أن الحياة رغم أنها ليست فرصة للسرور ، والملاذ التي لاحد لها ، فإنها عبء لا يمكن احتماله أكثر من الموت . وقد أوضح هذا في أربع مقطوعات شعرية خاطب بها هذا التعس روحه . وهذه المقطوعات تؤلف الجزء الثاني من هذه الوثيقة ولحسن الحظ نجد معظمها مفهوما .

المقطوعة الأولى : تصف لنا مقت العالم بغير حق لاسم هذا التعس .

المقطوعة الثانية : نجد في هذا الشعر أن ذلك الشقي ينتقل من نفسه

ليصف هؤلاء الذين كانوا سيّاً في نفسه ، فينظر إلى مجتمع عصره فلا يجد فيه إلا الغش والخيانة والظلم وعدم الوفاء حتى بين أقاربه .

المقطوعة الثالثة : أنشودة في مدح الموت . على أننا نجد فيها تأملات

في ميزات الموت كما سنجد بعد ذلك بنحو ١٥٠ سنة فيما ذكره افلاطون عن عن أستاذه سقراط ولكنها أول شكوى لرجل حاق به الظلم . ومن المدهش أنها لا تحتوى على أفكار عن الإله ، بل تنحصر في خلاصه من آلام الماضي التي لا تحتل . ولا تنظر قط للمستقبل . هذا من مميزات العصر الذي عاش فيه . ولا نزاع في أن الصورة التي رسمها هذا الكاتب قد أخذت من الحياة اليومية في وادي النيل في تلك الفترة .

المقطوعة الرابعة . يختم هذا البائس كلامه بالالتجاء إلى العدالة في الآخرة

وبذلك قد جعل من الموت مدخلا إلى قاعة المحاكمة ، وكان عليه أن يذهب إليها بأسرع ما يمكن .

الشعر الأول

انظر إن اسمي ممقوت . أكثر من رائحة اللحم النتن . في أيام الصيف عند ما تكون السماء حارة .

انظر إن اسمي ممقوت . أكثر مما يمت صيد السمك . في يوم صيد تكون السماء فيه حارة .

انظر إن اسمي ممقوت . أكثر من رائحة الطيور . وأكثر من تل من الصفصاف ملء بالأوز .

انظر إن اسمي ممقوت ، أكثر من رائحة السمك . وأكثر من

شواطئ المستنقعات عند ما يصاد عليها .

انظر، إن اسمى ممقوت . أكثر من رائحة التماسيح . وأكثر من
الجلوس حيث التماسيح .

انظر، إن اسمى ممقوت . أكثر من زوجة ، عند ما يقال عنها
الأكاذيب لزوجها .

انظر، إن اسمى ممقوت ، أكثر من صبي شديد ، قد قيل عنه إنه . . لمن يكرهه (١)
انظر، إن اسمى ممقوت . أكثر من مدينة . أكثر
من ثائر ولى الأدبار .

الشعر الثاني

لمن أتكلم اليوم ؟ . الأخوات شر . وأصدقاء اليوم ليسوا جديرين بالحب
لمن أتكلم اليوم ؟ . الناس شرهون . وكل إنسان يقتال متاع جاره .
لمن أتكلم اليوم ؟ . اللطف قد باد ، والوقاحة صارت في كل القوم .
لمن أتكلم اليوم ؟ . فإن من كان ذا وجه باش أصبح خيثا وأصبح
الخير ممقوتا في كل مكان .

لمن أتكلم اليوم ؟ . فإن الذى يستفز غضب الرجل الطيب بأعماله الشريرة
يسر منه الناس (٢) ويضحكون كلما كانت خطيئته شنيعة .

لمن أتكلم اليوم ؟ . الناس يسرقون وكل إنسان يقتصب متاع جاره .
لمن أتكلم اليوم ؟ . فقد أصبح الرجل المريض هو الصاحب الذى

(١) يقصد بغير شك انه ولد من أم أخرى .

(٢) يسخر الناس من الرجل الطيب عندما يستفزه المني .

يوثق به ، أما الأخ الذى يعيش معه فقد صار العدو (١) .
لمن أتكلم اليوم ؟ إذ لا يذكر أحد الماضى ، ولن يفعل أحد الخير لمن
يسديه إليه .

لمن أتكلم اليوم ؟ الأخوات شر ، والإنسان صار يعامل كعدو رغم
صدق ميوله .

لمن أتكلم اليوم ؟ . إذ لا نرى الوجوه وأصبح كل نسان يلقي بوجهه
فى الأرض إعراضاً عن اخوانه (٢)

لمن أتكلم اليوم ؟ والقلوب شرهة . والرجل الذى يعتمد عليه القوم
لا قلب له .

لمن أتكلم اليوم ؟ . فالصديق الذى يعتمد عليه معدوم ، وأصبح يعامل
الانسان كأنه فرد مجهول رغم أنه قد جعل نفسه معروفاً (٣)

لمن أتكلم اليوم ؟ إذ لا يوجد أحد فى سلام ، والذى ذهب معه
لا وجود له (؟) .

لمن أتكلم اليوم ؟ . فإننى مثقل بالشقاء وينقصنى خل وفى .
لمن أتكلم اليوم : . فإن الخطيئة التى تصيب الأرض لا أحد لها .

الشعر الثالث

إن الموت أمامى اليوم . كمثل المريض حينما يشفى وكمثل الذى يمشى
فى الخارج بعد المرض .

(١) قد يعنى : بما أن أقاربه قد هجروه فإنه لم يعد له صديق الآن إلا من كان فى حالة سيئة

(٢) أى أنه لا يوجد انسان يواجه انساناً آخر وجهاً لوجه .

(3) See Gunn, Rec. de Trav., XXXIX. p. 105.

إن الموت أمامى اليوم كرائحة بخور المر . وكمثل إنسان يقعد تحت
الشرع فى يوم شديد الريح (١) .

إن الموت أمامى اليوم كرائحة زهرة السوسن وكما يقعد الانسان على
شاطئ السكر (٢) .

إن الموت أمامى اليوم كطريق معبد . وكما يعود الرجل من الحرب إلى بيته .
إن الموت أمامى اليوم كسماء صافية وكرجل . . . لمن لا يعرفه
إن الموت أمامى اليوم كرجل يتوق إلى رؤية بيته بعد أن مضى
سنين عدة فى الأسر .

الشعر الرابع

إن الذى هنالك (٣) ، سيقبض على (المذنب) كإله حى . ويوقع
عقاب الاجرام على من اقترفه .

إن الذى هنالك ، سيقف فى سفينة الشمس ويجعل أحسن القرايين
هناك تقدم للمعابد .

إن الذى هنالك سيكون رجلا عاقلا لم ينبذ (٤) . مصليا « لرع »
حينما يتكلم .

هذا ما قالته روحى لى : اترك العويل ظهرياً يا خلى ويا أخى . . .
سأسكن هنا إذا كنت ترفض الغرب . ولكن حينما تصل إلى الغرب

(١) ربما يقصد انه كمثل إنسان يعنى من التجديف (٢) يقصد الشاعر : وليمة على
شاطئ النهر البارد (٣) أى المتوفى (٤) لا شك فى ان الرجل السكاره للحياة
يشير هنا الى مصيره .

ويتحد جسك مع الأرض فإني سأنزل عندئذ بعد أن تستريح . دعنا
إذا نكن معا .

شكاوى الفلاح الفصيح^(١)

لدينا أربع نسخ من كتاب أطلق عليه علماء الآثار « شكاوى »
الفلاح ويرجع تاريخ كتابتها إلى عهد الدولة الوسطى . وهذا الكتاب
مثال للفصاحة ، فتعايره غاية في الرشاقة والبلاغة ؛ وموضوعه هو أن شخصا
فصيحا ألقى تسع خطب في ثوب شكاو من أبداع وأروع ما قيل بسبب
حادث ظلم وقع له^٢ . ومحور هذه الخطب مدح العدل وذم دناءة الموظفين ، ولكن
التعابير التي كانت تتدفق من فم الخطيب جعلتنا نكاد نقسى الغرض الذي قيلت
من أجله ولاشك أن هذه الخطب قد تظهر للقارئ الحديث مملة متشابهة ، غير
أنها ربما كانت في الحقيقة حسنة الوقع في أذن المصري ، يحس بما فيها
من رشاقة وحنق مما يتعسر علينا إدراكه ، وبخاصة إذا عرف أننا لم فهم
هذا الكتاب إلا بشكل ناقص جدا .

وقد وقعت حوادث هذه القصة في عهد الملك « نب كا ورع » أحد ملوك
هراكليوبوليس (أهناس المدينة الحالية) ويحمل لقب « خيتي » وقد حكم
البلاد في نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد (أنظر جزء أول ٤١٤ النخ) وتتلخص
القصة في أن فلاحا من مقاطعة الفيوم من إقليم وادي النطرون كان
يسكن ببلدة تسمى حقل النطرون . واتفق أن هذا الفلاح وجد مخازن
غلاله تكاد تكون خاوية ، فحمل حميره محصولات قريته واتجه نحو

(1) J. E. A., IX p.p. 5 etc .

اهناس طلبا للمبادلة بالفلال . وقد كان عليه أن يمر في طريقه إلى العاصمة بمنزل « تحوتى نخت » أحد موظفى « رنزى » الذى كان المدير العظيم لبيت الملك . وقد راقبت هذه الحير فى عين « تحوتى نخت » فدبر حيلة للاستيلاء عليها عنوة هو وأتباعه ، فالتخذ من أكل أحد الحير بضع سيقان من القمح سببا لضرب الفلاح ضربا مبرحا واغتصاب حميره وقد مكث ياب « تحوتى نخت » أربعة أيام يرجو فيها إرجاع حميره ولكن بدون جدوى . ولما علم هذا الفلاح بشهرة عدالة « رنزى » المدير العظيم لبيت الملك ، ولّى وجهه شطر المدينة ليشتكو إليه ما حاق به ؛ ولحسن حظ الفلاح صادف المدير العظيم لبيت الملك وهو يتأهب لركوب قاربه فأخذ يقص عليه ما أصابه بلغة فصيحة مما استرعى سمعه فأرسل أحد خدمه ليسمع قصة الفلاح . ولما عاد وأخبر « رنزى » بسرقة « تحوتى نخت » للحمير ، عرض المدير العظيم لبيت الملك الموضوع أمام زملائه من الموظفين وقد حذق المؤلف فى جعل جوابهم يتفق مع ما يحدث فى مثل هذه الاحوال ، وهو تحامل الموظف على التقير فى الدوائر الحكومية مما كان الحق فى جانبه ، ولذلك نرى أن زملاء المدير الكبير لبيت الملك قد انجازوا إلى جانب « تحوتى نخت » وأجابوا « رنزى » بفتور عظيم بأن المسألة ربما كانت تنحصر فى موضوع فلاح قد دفع ماعليه من الضرائب خطأ لرئيس غير رئيسه ، وأن « تحوتى نخت » قد استولى بحق على ما يستحقه من الضرائب . ثم تساءلوا فى غضب : هل سيعاقب « تحوتى نخت » من أجل قليل من التطرون وقليل من الملح ؟ فليطلب اليه أن يعيدها وهو لا يتأخر . « ويلاحظ أنه من خصائص هذه الطبقة أنهم

يتجاهلون الخير التي هي بيت القصيد والتي يسبب ضياعها موت هذا الفلاح وأسرته جوعاً . وعندما سمع الفلاح بذلك تقدم إلى « رنزي » وأخذ يقص عليه شكايته بفصاحة ولباقة :

الشكوى الأولى

عندئذ أتى هذا الفلاح ليقدم ظلامته إلى مدير البيت العظيم « رنزي » ابن « مرو » فقال . « يامدير البيت العظيم ، ياسيدى ، يا عظيم العظماء يا حاكماً على ما قد فنى ومالم يفن ^(١) ! وإذا ذهبت إلى بحر العدل ^(٢) وسحت عليه فى نسيم عليل ، فان الهواء لن يمزق شراعك وقاربك لن يتباطأ ، ولن يحدث لساريتك أى ضرر ، ومرسأك لن يكسر ، ولن يفوص (قاربك) حينما ترسو على الأرض . ولن يحملك التيار بعيداً ، ولن تذوق أضرار النهر ، ولن ترى وجها مرتاعاً . والسماك القفاز سيأتى إليك وستصل (يدك) إلى أسمن طائر . إنك أب لليتيم ، وزوج للأرملة ، وأخ المهجورة ، ومُزِر لذلك الذى لأُم له ^(٣) . دعنى أجعل اسمك فى هذه الأرض فوق كل قانون عادل ؛ فتكون حاكماً خلوا من الشره وشريفاً بعيداً عن الدنايا ومهلكاً للكذب ومقيماً للعدل ، رجلاً يلجى نداء المستغيث . إني أتكلم ؛ فهل لك أن تسمع . أقم العدل أنت يأبها المدوح الذى يمدح من المدوحين . أكشف عنى الضرائنظر إلى إن حلى ثقل « اختبرنى ، إني ضمت »

(١) أى حاكماً على كل شيء . (٢) يقصد بالسطور التالية التمدح ببدل « رنزي »

(٣) أى إنك لباس للطفل الفقير الذى ليس له أم تصنع له لباساً .

مقدمه الشكوى الثانية

وقد اتفق أن هذا الفلاح قد التى هذه الخطبة فى عهد الملك
« نب كاورع »

وقد ذهب المدير العظيم لليت « رنزي » بن « مرو » أمام جلالة
وقال : « سيدى لقد عثرت على أحد هؤلاء الفلاحين ، وفى الحق أنه
فصيح ، وهو رجل قد سرق متاعه ؛ وانظر إنه قد حضر ليتظلم لى من أجل ذلك . »
عندئذ قال جلالة : « بقدر ما تحب أن ترانى فى صحة دعه يتباطأ
هنا دون أن تجيب عن أى شىء قد يقوله . ولأجل أن تجعله يستمر
فى الكلام الزم الصمت . ثم مر بأن يؤتى لنا بذلك مكتوبا حتى نسمعه
ولكن مد زوجته وأطفاله بالمشوثة ؛ ثم انظر لا بد أن يأتى أحد الفلاحين
إلى مصر وذلك بسبب فقر بيته . وزيادة على ذلك مد هذا الفلاح
نفسه . فلا بد من أن تأمر باعطائه الطعام دون أن يعلم أنك أنت الذى
أعطيته إياه . وعلى ذلك أعطى عشرة أرغفة وإبريقين من الجعة كل
يوم . وقد تعود رب البيت العظيم « رنزي » بن « مرو » أن يعطى
تلك الأشياء أحد أصدقائه وكان هذا يعطيها إياه (إلى الفلاح) . ثم أن
المدير العظيم لليت « رنزي » بن « مرو » أرسل إلى شيخ بلدة
« سخت حموت » ليصنع الطعام لزوج ذلك الفلاح ومقداره ثلاثة
مكايل من القمح كل يوم .

الشكوى الثانية

ثم إن هذا الفلاح قد أتى ليتظلم له مرة ثانية وقال : يا أيها المدير

العظيم للبيت الملكي ، ياسيدى . يا عظيم العطاء ، يا أغنى الأغنياء ، يا من عطاؤه لهم واحد أعظم منهم ، يا من أغناؤه لهم واحد أغنى منهم . أنت يا سكان السماء ، ومثقال ميزان الأرض ، ويا خيط الميزان الذى يحمل الثقل ، يا أيها السكان لا تحرف . ويا مثقال الميزان لا تتحول ، ويا خيط الميزان لا تتذبذب . إن السيد العظيم يأخذ (فقط) مما ليس له مالك وينهب واحد (فقط) . إن أودك فى بيتك ، قدحا من الجمعة وثلاثة رغفان . وما الذى يمكن أن تصرفه لإطعام عملائك ؟ على أن الإنسان سيموت مع خدمه ؛ وهل ستكون رجلا مخلدا ؟

أليس من الخطأ - ميزان يميل وثقل ينحرف ورجل مستقيم يصير معوجا ؟ تأمل إن العدل يفلت من تحتك وذلك لأنه أقصى عن مكانه فالحكام يشاغبون ، وقاعدة الكلام تنحاز إلى جانب ، والقضاة يتخاطفون ما اغتصبه (؟) . ومعنى ذلك أن محرف الكلام عن دقته يخرج عن معناه (؟) فأتاح النفس يتلاشى على الأرض ؛ وذلك الذى يأخذ راحته يجعل الناس يلهثون ؛ والمحكم متلف (١) ؛ ومبيد الحاجات يأمر بصنعها ، والبلدة فيضان لنفسها والمنصف مشاغب »

ثم قال المدير العظيم للبيت « رنزي » بن « مرو » ، هل تعتقد فى قلبك أن ممتلكاتك أمر أهم من أن يقصيك خادمى ؟ « (٢) »
وقال هذا الفلاح : إن كيال أكوام الغلال يعمل لمصلحته الشخصية وذلك الذى يجب عليه أن يقدم حسابه تاما يجور على متاع غيره ؛

(١) حرفيا مقسم الارث متلف (٢) قاطع « رنزي » الفلاح بسؤال خشن : أيها أهم لديك المتاع الذى تدعيه أو الضرب بالعصا اذا استمرت فى شكائتك ؟ غير أن الفلاح لم يبره اهتماما .

وذلك الذى يجب عليه أن يحكم بمقتضى القانون يأمر بالسرقة . فمن
ذا الذى يكبح الباطل ؟ وذلك الذى يجب عليه أن يقضى على الفقر
يعمل بالعكس . ويسير الإنسان إلى الأمام فى الطريق المستقيم
بوساطة منحنيات . وآخر ينال الشهرة بالأضرار فهل تجد لنفسك
هنا أى شئ ؟ (١) « إن إصلاح الخطأ قصير ولكن الضرر طويل (٢) .
والعمل الطيب يعود ثانية إلى مكانه بالأمس . والواقع أن الحكمة
قول : « عامل الناس بما تحب أن تعامل به » ؛ وذلك كشكر
إنسان على ما عمله ؛ وكمنع شئ قبل تشكيكه مع أن الأمر قد
أعطى للصانع .

يتمنى الشر للأمير : ليت لحظة تخرب ، فتجعل كرمك رأسا على
عقب ، وتفتك بطيورك وتودى بدواجنك المائية . فالبصر قد غشى بصره
والمستمع قد صم ، وذلك الذى كان يجب أن يكون مرشدا أصبح
مضللا

« تأمل إنك قوى شديد البأس ، وإنك نشيط الساعد وقلبك
مفترس . وقد تختطك الرحمة ؛ ما مقدار حزن الرجل الفقير الذى قضى
عليه بجوارك . ومثلك كرسول التماسح بل انك تفوق « ربة الوباء » (٣)
فإذا كنت لائماك شيئا فهي لائماك شيئا كذلك ؛ وإذا كانت لاتدين
بشئ فكذلك أنت لاتدين بشئ ؛ وإذا كنت لاترتكيبها فهي لاترتكيبها

(١) قد يقصد بها : هل تجد نفسك ينطبق عليها هنا وصف من هذه الاوصاف .

(٢) إن الضرر يستمر مدة طويلة فى حين أن اصلاحه لا يحتاج إلا إلى فترة قصيرة، فانصاف .

الفلاح يتوقف على إصغاء « رنزي » إلى شكايته مدة قصيرة

(٣) هي الآلهة « سغنت » .

كذلك . وذلك الذى يملك خبزا يجب أن يكون رحيمًا ، وإن كان المجرم
فظا . على أن السرقات أمر طبعى لمن لا متاع له وكذلك خطف المجرمين
لأمتعة الغير . حقا إنه عمل مشين إلا أنه لا مندوحة عنه . ويجب على
الإنسان ألا يصبوب اللوم إليه لأنه يبحث لنفسه (١) . على أنك قد
غصصت بمخبرك وسكرت بمجتك ؛ إنك غنى . إن وجه مدير السكان
متجه إلى الأمام (ومع ذلك ؟) فإن القارب يتجه كما يشاء . فالملك
فى داخل قصره ، والدقة فى يدك ، ومع ذلك فإن المشاغبات منتشرة
فى جوارك . إن عمل الشاكي طويل والفصل فيه يسير يبطئ ، ويتساءل
الناس ما معنى ذلك الرجل الذى هناك (٢) . كن معينا حتى تظهر قيمتك
واضحة ، تأمل إن مسكنك قد أصبح موبوءا . اجعل لسانك يتجه إلى
الحق ، ولا تفضل . وإن لسان الرجل قد يكون سبب تلفه .

« لا تقل الكذب . واحترس من الموظفين . إن قول الكذب
نبتهم ، ومن المحتمل أن يكون خفيًا فى قلوبهم . وأنت يا أكثر الناس
علما ، هلا تريد أن تعرف شيئا عن أحوالى (؟) وأنت يا من تقضى
حوائج الماء تأمل فإني أملك مجرى ماء من غير سفينة ، وأنت يا مرشد
كل غارق إلى البرنج من غرقت سفينة ، نجنى (؟) . . . »

الشكوى الثالثة

ثم حضر هذا الفلاح مرة ثالثة ليشكو فقال : يا أيها المدير العظيم
ليت ، ياسيدى . إنك « رع » رب السماء فى صحبة حاشيتك . إن أقوام

(١) أن الإنسان يضر المحتاج إذا سرق ولكنه لا يضر رجلا غنيا كالدير العظيم لبيت .
(٢) حرفيا : يتساءل الناس : من هو ذلك الرجل الذى يتلصقا مع المدير العظيم لبيت الملك .

بنى الإنسان منك لأنك كالفيضان . وأنت كإله النيل الذى يخلق المراعى
الخضراء ويمد الأراضى القاحلة . ضيق الخناق على السرقة ، وارحم الفقير ،
ولا تكون كالسيل ضد الشاكي ؛ واحذر من قرب الآخرة . ارغب فى أن
تعيش طويلا كما يقول المثل : إن إقامة العدل هو « نفس الأنف » .
عاقب من يستحق العقاب وليس هناك شئ مماثل للاستقامة . هل الميزان يتحول ؟
وهل يميل لسانه إلى جهة ؟ هل يظهر « نحر » تساهلا ؟
فإذا كان الأمر كذلك فيمكنك أن ترتكب أضرارا . واجعل
نفسك معادلا لهذه الثلاثة ؛ فإذا أظهرت الثلاثة تساهلا فكن متساهلا . ولا
تجيب على الخير بالشر . ولا تضمن شيئا مكان آخر ^(١) . كيف ينمو الكلام
أكثر من عشب خيث — أكثر مما يتفق مع من يشمه ! فلا تجيب عليه
وعلى ذلك تروى المتاعب وينمو عليها غطاء . وقد كان لديه ثلاث فرص
تحملة على أن يعمل (؟) . قد الدقة على حسب الشراع ^(٢) وصد الفيضان
على حسب ما يقتضيه العدل . واحترس من أن تصطدم على الشاطئ ، مع
جل السكان . وإن أصدق وزن للبلاء هو إقامة العدل . ولا تكذب
وأنت عظيم . ولا تكون خفيًا وأنت رزين . ولا تقولن الكذب ؛ فإنك
الميزان . ولا تنكش ، فإنك الاستقامة . انظر إنك على مستوى واحد مع
الميزان فإذا اقلب اقلبت أيضا . لا تحيدن بل أدر السكان واقبض على
جل الدقة . لا تقتصين بل أعمل ضد المقتصب . وذلك العظيم ليس عظيما
ما دام جشعا . إن لسانك هو ثقل الميزان ، وقلبك هو ما يوزن به ، وشفتك

(١) ورد ذكر هذه الحكمة فى تعاليم « فتاح حجب » . (٢) هل معنى ذلك : ارشد السفينة
كما يتطلب الريح ، أى اعترف بشكايتى والاعانى سأستر فى الكلام كالفيضان .

هما ذراعه . فإذا سترت وجهك أمام الشرس فمن ذا الذى يكبح الشر؟
« تأمل إنك غسال يائس ، وشخص جشع لاتلاف صاحبه ، يهجر
شريكه من أجل عميله .

« تأمل إنك نوتى تعبر بمن معه الأجر؛ ورجل مستقيم فى معاملته
ولكن تلك الاستقامة أصبحت مذبذبة .

« تأمل إنك رئيس مخابز لايسمح لأحد خلو (مفلس) أن يمر إهمالا (؟) .

« تأمل إنك صقر لعامة القوم يعيش على أحقر الطيور .

« تأمل إنك مورد سروره الذبح ، إذ لايقوع عليه التقطيع .

« تأمل إنك راع لا وليس عليك أن تدفع . ولذلك يجب

عليك أن تظهر شراهة أقل من تمساح جشع ، والأمان قد انتزع من كل
مساكن البلاد قاطبة . أنت يأبها السامع ، انك لاتصنى ولماذا لاتصنى؟ واليوم
قد كبحت جراح المتوحشين ، وتقهقر التماسح . وما الفائدة التى تعود عليك ،
وقد وجد سر الصدق وسقط ظهر الكذب على الأرض ، ولكن لاتتجهز (١)
للغد قبل أن يأتى ، لأن الإنسان لايعلم المتاعب التى ستواجهه .

وقد قال الفلاح هذا الكلام إلى المدير العظيم للبيت « رنزي »

بن « مرو » عند مدخل قاعة المحاكاة ، ثم أمر حاجبين أن يتعهداه بسياط
وقد أثنياه ضربا بالسياط فى كل أجزاء جسمه .

عندئذ قال هذا الفلاح : « إن ابن « مرو » لايزال مستمراً فى غيه وإن

حواسه قد عميت عما ينظر ، وصمت عما يسمع ، وقد ضل عما ينسب إليه .

(١) يظهر أن الفلاح يحذر « رنزي » من الثقة التامة بالمستقبل : فمن يعرف ما تكون
نتيجة ظله ؟ .

انظر إن مثلك كمثل بلد لاعيد لها^(١) ، أو كطائفة لارئيس لها ، أو كسفينة لارباب لها ، أو كعصابة أشقياء لامرشد لها .

انظر إنك حاكم يسرق وعميد قرية يقبل (الرشوة) ومقتش اقليم كان يجب عليه أن يقطع دابر التخريب لكنه أصبح نموذجاً للمجرم .

الشكوى الرابعة

وبعد ذلك أتى هذا الفلاح ليشكو له للمرة الرابعة ووجده خارجاً من معبد « ارسافيس »^(٢) ، فقال له : « أنت أيها الممدوح ، ليت « ارسافيس » الذى تخرج من معبده يمدحك . لقد قضى على الخير وليس له اندماج حقاً . وقد ألقى الكذب على الأرض . هل أحضر قارب التعدية إلى البر؟ بماذا إذن يمكن الإنسان أن يعبر؟ على أن هذا العمل لابد أن ينفذ كرها (؟) وهل عبور النهر بالنعال طريقة حسنة؟ لا ، ومن ذا الذى يتمنى أن ينام الآن حتى مطلع الفجر؟ لقد قضى على السير ليلاً ، والسياحة نهاراً ، والسماح للإنسان أن يتعهد قضيته الحقبة . انظر إنه لافائدة لمن يقول لك : إن الرحمة قد تخطئك فما أعظم حزن الرجل الفقير الذى قد خرب بسبك » .

« انظر إنك صياد يشقى غليله ، وإنسان منغمس فى إرضاء ملاذه فيصيد جاموس البحر ، ويحترق (نبله) الثور الوحشى ، ويضرب السمك ، ويرمى شباكه للطيور . على أنه لا يوجد إنسان متسرع فى كلامه يخلو من العثار^(٣) . وليس هناك شخص خفيف القلب يقدر أن يكون حازماً فى كبح

(١) العييد هنا هو شيخ البلد (٢) إلى منطقة أهناش (انظر جزء أول ص ٢١٦) .

(٣) أى أن تسرع « رنزي » يجعله ظالماً .

شهواته . كن صبوراً حتى يمكنك أن تصل إلى العدل . اكبح جماح اختيارك حتى أن الشخص الذى تعود أن يدخل بسكون يمكنه أن يكون سعيداً . على أنه لا يوجد إنسان طائش يجيد عملاً ، ولا متسرع تطلب مساعدته . اجعل عينيك تتأملان ، وعلم قلبك . ولا تكون شديداً بمقدار قوتك خوف أن يحقق بك المكروه الذى يأكل هو الذى يتذوق ، والذى يخاطب يجب ، والنائم يرى الحلم (١) أما القاضى الذى تجب معاقبته فإنه يكون نموذجاً للمجرم . تأمل أيها الأحق فإنك قد ضربت . تأمل أيها المغفل فإنك سئت ، وأنت يائزح الماء تأمل فإنك قد دفنت . وأنت يا مدير السكان لا تجعل قاربك يرتطم . وأنت يا معطى الحياة لا تود بأحد ؛ ويا مخرباً لا تسبب خراب أحد . ويا أيها الفتى لا تكون كحرارة الشمس . ويا أيها الحمى لا تجعل التماسح يفترس . والآن هل سأقضى طول اليوم فى الشكوى الرابعة ؟ » .

الشكوى الخامسة

ثم أتى هذا الفلاح يشكو للمرة الخامسة وقال : يا أيها المدير العظيم للبيت ياسيدى . . . لا تحرم رجلاً رقيق الحال من أملاكه ، ولا ضعيفاً تعرفه ، فإن أملاك الرجل الفقير بمثابة النفس له ومن يقتصبها يكتم أنفه (٢) لقد نصبت لتسمع الشكاوى وتفصل بين المتخاصمين وتضرب على يد السرقة ولكن تأمل فإن ما تفعله هو أنك تنحاز إلى اللص . والإنسان يضع أماله فيك ولكنك أصبحت معتدياً لقد نصبت سداً للفقير لتحفظه من الغرق ولكن تأمل فإنك تياره السريع .

(١) ثلاثة أحوال للعة والطول ، فكما أن الطول يتبع العلة فى هذه الأحوال الثلاثة فكذلك يكون القاضى المتهم نموذجاً للمجرم (٢) الاتق هي مركز الحياة .

الشكوى الثامنة

وبعد ذلك أتى هذا الفلاح ليشكو مرة ثامنة فقال : « يَاها المدير العظيم لليت الملكي ، يا سيدى ! إن الناس يتحملون السقوط بسبب الطمع ، والرجل المغتال يعوزه النجاح ولكنه ينجح فى الخيبة . إنك جشع وذلك لا يتفق معك ؛ إنك تسرق وذلك لا يليق بك ، أنت يا من يسمح للإنسان بأن تشرف على قضيته الحقّة ذلك لأن ما يقيم أودك فى بيتك ، ولأن جوفك قد ملئ ، ولأن مكيال القمح قد طفح ، فاذا هز طفح وضاع على الأرض .

« آه أنت يا من يجب عليه أن يقبض على اللص ويا من يعدد الحكام وقد نصبوا ليدرءوا سوء ، وهم حمى للمعوز ، والحكام قد نصبوا ليقضوا على الكذب . وليس الخوف منك هو الذى يجعلنى أشكو إليك . إنك لا تبصر ما فى قلبى . وإنه لإنسان صامت من يجعله يرتد دائما عن توبيخك ، ولا يخاف ممن يطالبه بحقوقه ، وإن أخاه لا يؤتى به إليك من قارة الطريق (١) :

« إنك تملك قطعة أرضك فى الريف . ومكافأتك فى ضياع الملك وخبرك فى المخبز والحكام يعطونك ، ومع ذلك تغتصب ، هل أنت لص ؟ هل يؤتى لك بجنود لتصاحبك عند تقسيم قطع الأرض ؟ (٢) « أقم العدل لرب العدل ، الذى أصبحت عدالته موجودة (٣) .

(١) هنا يفاخر الفلاح بأن مثيله لا يوجد فى أى ركن من أركان الطريق (٢) هل تأخذ معك جنودا لتساعدك على السرقة عندما تقسم قطع الأرض ؟ (٣) ربما يقصد برب العدل آله الشمس « رع » الذى يعيش بالعدل .

أنت يأيها العلم ، وأنت يأيها البردية ، ويأيها الدواة ، ويا «نحوت»
ابتعدوا عن عمل السوء ، وعندما يكون الحق حقا فهو إذن حق لأن
العدل أبدى ، ويذهب مع من عمله إلى القبر ، وسيدفن وتطويه الأرض
أما اسمه فلن يمحي من الأرض بل سيذكر بسبب الحق وهكذا عدل
الله في كلمته ، هل هو ميزان ؟ إنه لايميل ، هل هو لسان الميزان ؟ إنه
لايمجد إلى جانب (لايزن غشا) وإذا حضرت أو حضر غيري فأجبه
ولا تبحين كأنسان يخاطب رجلا صامتا أو كأنسان يهاجم من لايمكنه أن
يدافع ، إنك لا تظهر الرحمة ، إنك لا ترق ، إنك لا تغنى (؟)
ولا تعطينى مكافأة على تلك الخطب التي تخرج من « فم رع » نفسه ،
انطق بالعدل وأقم العدل لأنه عظيم وكبير ويعيش طويلا ، والاعتماد
عليه يؤدي إلى العمر الطويل المحترم ، هل الميزان يحمي ؟ فإذا كان
الأمر كذلك فإن ذلك يكون بسبب كفته اللتين تحملان
الأشياء (١) ، ولا يجوز بنس في العدل ، وإن العمل الحقير لا يصل إلى
المدينة على أن أصغر الأشياء (؟) ستصل إلى الريف .

ثم يأتي بعد ذلك الشكوى التاسعة وهي لا تخرج عن هذه المعاني .
ونرى من هذه الشكاوى الفصيحة أنها تصف لنا ما آلت إليه البلاد
في تلك الفترة الصعبة من تاريخ البلاد ، كما وصفها كل الوثائق الأدبية
التي وصلت إلينا من هذا العصر .

الجيش والحروب

لقد حبت الطبيعة أرض مصر حدودا طبيعية جعلتها في الأزمان الغابرة منفصلة عن العالم الذى يحيط بها مما جعل إغارة جيرانها عليها من أشق الأمور وأصعبها ، فقد كانت صحراء لوبيا سدا منيعا لكل غارة من جهة الحدود الغربية ، على حين أن سواحلها الشمالية لم تعرضها لأى خطر ، إذ في ذلك العهد من تاريخها لم يكن لها أعداء لهم أساطيل تمخر عباب البحر ، يخشى من غاراتها ، أما الأقوام الذين يقطنون وراء حدودها الشرقية والجنوبية فإنهم كانوا أقل منها ثقافة ومدنية ، فكان خطرهم على تهديد سلامتها شيئا لا يحسب له حساب .

حدود مصر الطبيعية
حتمها الغارات قديما

من أجل ذلك بقيت بلاد مصر فترة طويلة من الزمن هادئة مطمئة في عقر دارها ، مما جعل أهلها بطبيعة الحال يشتغلون بالزراعة ، وسيظلون كذلك طول حياتهم وأهم عمل لهم فلاحه الأرض واستثمارها - على أن كل ذلك لا يعنى أن المصرى لم يكن بالرجل المحارب عند الحاجة ، إذ برهنت الأحوال على أن الجندى المصرى في ساحة الوغى يعد من أحسن جنود العالم وأشجعها وأكثرها صبرا . فقد جاء على مصر فترة من الزمن في تاريخها كانت هى سيدة ممالك العالم المتمدنين ؛ وذلك بقوة جيوشها وانتصاراتهم العظيمة التى وضعتهم فى قمة أمم الشرق ردحا من الزمن غير قصير .

عصر ما قبل التاريخ

على أن ما ذكرناه لا يقصد به أن مصر كانت معفاة من الحروب الداخلية والخارجية منذ ما قبل الأسرات لأن ذلك يناقى طبيعة البشر وسنن

الحروب الاولى

الرقى ؛ فقد عثر على بعض ألواح من عصر ما قبل التاريخ يستدل منها على قيام حروب بين المصريين وبدو الصحراء وأهل بلاد النوبة . وكذلك تدل الآثار على قيام حروب مستمرة بين سكان مصر أنفسهم ، وبخاصة بين الوجه القبلى والوجه البحرى ، وبقى النزاع قائماً إلى أن وجدت الأرضان فى عهد الفرعون مينا على قول معظم المؤرخين .

وما لدينا من الوثائق القليلة يلتقى بعض الضوء على اشتباك المصريين مع الأسويين فى حروب ، وكذلك على قيام حرب بين مصر العليا ومصر السفلى ، ولا أدل على ذلك من المناظر التى نشاهدها على لوحة الملك « نمر » ، وكذلك على رأس دبوس الملك « عقرب » فعلى هذين الأثرين نجد مناظر تدل على اشتباك المصريين معاً فى قتال عنيف . وكذلك اشتراك الأسويين مع أحد الخصمين لمساعدته . يضاف إلى ذلك أنه عثر على رأس دبوس ممثلة عليه حملة قام بها ملك الكاب « نخن » (الوجه القبلى) ، وتعد من الحملات الهامة جداً ضد بلاد الدلتا ؛ فقد حطمت الكتاب المصرية التى جمعها ملك الوجه البحرى لصد هذا الهجوم وكذلك قضت على جيش أنصاره من الأسويين جيرانه وحلفائه . وقد عثر فى « نخن »

الحرب بين الوجه

القبلى والوجه البحرى

(هراكنبوليس) (جزء أول ص ٨٥) على نقوش ملونة يرجع عهدها إلى ما قبل الأسرات وهى موجودة الآن فى المتحف المصرى ؛ يشاهد عليها بعض هؤلاء المحاربين القدماء ، وهم فى ساحة الوغى ؛ وتدل كيفية تسليحهم دلالة واضحة على تقدمهم فى فنون الحرب مما يشعر بوجود جيش فى البلاد . إذ نجد أن المحارب كان مسلحاً بجرية فى نهايتها قطعة من

الظران الحاد المدب ، أو من العاج . وكان يحى الجندى مهم زرد ودرع مصنوع من جلد الفهد .

وتدل المعلومات التى لدينا على أن بلاد القطر كانت مقسمة إلى مقاطعات تكاد تكون كل واحدة منها مستقلة ، حتى وحد « مينا » القطرين وبقي هذا النظام شائعا فى عهد الأسرتين الأوليين حتى قضى عليه آخر ملوك الأسرة الثانية تدريجاً ، وكان الفضل فى القضاء على هذا النظام يرجع إلى الفرعون « خع سخموى » ، ومنذ ذلك العهد أصبحت كل المقاطعات المصرية فى يد الملك . ولهذا بدأ يكون للبلاد جيشاً ثابتاً منظماً منذ أوائل الأسرة الثالثة ، وليس لدينا من الآثار ما يدلنا على وجود جيش موحد لكل البلاد المصرية قبل عهد « زوسر » وذلك لقلة المصادر ، ومما لانزع فيه أنه كان لملك الدلتا جيش ، وكذلك كان لملك مصر العليا جيش ، ولكن يغلب على الظن أن جنود كل جيش لم يكونوا خاضعين للملك . بل كانوا يجندون من المقاطعات ؛ التى كانت مقسمة إليها البلاد فى هذا العصر وكان يقود جند كل مقاطعة حاكمها لمساعدة مليكه وقت الحرب .

الأسرة الثالثة

ولما تولى « زوسر » حكم البلاد ، ووطد السلطة الإدارية فى يده ، كان لابد له من جيش قائم فى البلاد ليتمكن من القبض على ناصية الحال فى داخل البلاد وخارجها ، وفعلًا عثر على نقوش فى عصره تثبت وجود مصلحة خاصة لإدارة شئون الجيش .

وكان أهم ما عنى به هو حماية البلاد من الغارات الأجنبية ، التى كانت تجتاح البلاد من أطرافها ، وبخاصة أهل البدو . ولذلك قسم حدود البلاد

« زوسر » يؤسس جيشاً
لحماية البلاد

إلى مناطق أطلق عليها اسم (أبواب المملكة) وجعل في كل منها حامية ، وهذه التسمية تم عما يقصد بها أى أنها كانت المواطن التى يمكن أن ينقذ منها العدو إلى داخل القطر . وقد نصب على كل من هذه المناطق حاكم خاص يلقب (مرشد الأرض) « شمش تا » وقد كان لهؤلاء الحكام ، الكلمة العليا على حكام المقاطعات ؛ وكان فى يدهم إدارة الشرطة كل فى منطقته ؛ ولذلك كانوا مسئولين عن النظام والأمن فى هذه المناطق التى لا يمكن البلاد أن تعيش فى أمان إلا فى ظلها .

ومن أجل ذلك وضعت حاميات ثابتة للمحافظة على الحدود تحت سلطة هؤلاء الحكام (مرشدى الأرض) مباشرة ؛ وقد أقيمت لها المعاقل وكان لكل معقل إدارة عسكرية خاصة ؛ فكان له مخازن غلاله الخاصة التى بها يمكنه أن يقاوم إذا حوصروا وقد حفظت لنا أسماء بعض هذه المعاقل منذ الأسرة الثانية ، فقد عثر فعلا على خاتم نقش عليه اسم معقل « سحر حتب » وكذلك عثر على لقب لمعقل آخر من الأسرة الثالثة ، نقش على خاتم لكاتب هذا المعقل ويطلق عليه اسم (بطولة الأرضين) .⁽¹⁾

ورغم أن الأبحاث فى الحفائر العلمية ؛ لم تسفر للآن عن وجود مبان تعد قلاعاً من هذا العصر السحيق ، إلا أننا من جهة أخرى عثرنا على بعض نماذج تشير بإقامة معاقل فى هذه الفترة . وذلك أنه يوجد فى متحف برلين قطعة من قطع (لعبة الضامة) عثر عليها فى العراة المدفونة ويرجع عهدا إلى الأسر الأولى من التاريخ المصرى ؛ ويظن البعض أنها من عهد الأسرة الأولى نفسها . وهذه القطعة على هيئة برج صغير

(1) Weill, II-III Dyn. p. 194.

أى أنه يعلوه طنف على شكل رواق له شرفات يمكن منها الدفاع عن المكان . وهذه القطعة مصنوعة من العاج ولكن الحصن كان طبعاً في هذا العصر يصنع من اللبن . ولا غرابة في وجود نموذج الحصن في هذه الجهة . إذ تدل شواهد الأحوال على أنه أقيم في العراة حصن من أقدم الحصون المصرية وذلك ما كانت تتطلبه طبيعة المكان وحمايته . إذ كان أول ما يهتم المصري في هذه الأزمان السحيقة أن يحصن بلاده من مباغته الأعداء له . فكان يقيم الحصون في الأماكن التي يرى أنها معرضة لخطر الغزو . أو أنه يمكنه أن يصد العدو منها بسهولة . فكان من جهة يقيم الحصون في المواقع التي يكون فيها النهر ضيقاً . فإذا باغته العدو في النهر أصبح من الصعب عليه أن يخترق هذا المكان الضيق الحصن بسهولة ؛ إذ يكون في استطاعة المصري أن يقهره بنباله على كعب منه . ومن جهة أخرى كان ينتخب النقط الضعيفة التي كان يسهل للعدو أن ينفذ منها للبلاد ، وبخاصة عند بداية الوديان التي تشرف على الصحراء مباشرة . والتي يسهل البدو وغيرهم أن ينقضوا منها على البلاد وينهبوا ما شاءوا . فكان يقيم فيها الحصون ويجهزها بكل المعدات ، وهذه الأماكن كانت تسمى أبواب المملكة ؛ والواقع أنه أقيم في العراة المدفونة (1) حصن في أوائل التاريخ المصري ، وموقعه هو ككوم السلطان الحالي لأن المدينة تشغل شريطاً ضيقاً مستطيلاً من الأرض ، منحصر بين التربة وأول منحدر لجبال الهضبة اللوية ؛ وقد أقيم هذا الحصن ليحميها من غارات البدو . وكانت كل هذه الحصون (أبواب المملكة) مقامة على

(1) Maspero, Dawn of Civilisation, p. 450.

طراز واحد ، ولا تختلف بعضها عن بعض إلا في مقدار مساحة كل حصن ، وكشافة جدرانه الخارجية . وكان تخطيط الحصن يشبه سطحاً متوازى الأضلاع . وكان سوره الخارجى فى أغلب الأحيان مقسماً إلى كتل عمودية من المبنى يمكن تمييزها بسهولة من اختلاف وضع اللبن فيها . ففى قلعة الكاب وغيرها مثلاً نجد أن (مداميك) اللبن الساذج محدودة بعض الشيء قشبه بذلك قوساً عريضاً مقلوباً حافته الخارجية مثبتة بالأرض .

وفى أماكن أخرى كان يشاهد تماقب منظم للعقود فى طول الجدار ولم يعرف السر فى إقامة هذه الجدران بهذا الشكل . وقد ظن البعض أن البناء بهذه الكيفية يكون أكثر مقاومة ، عند حدوث زلزال أرضى وكان هذا الحصن مبنيًا على الطريقة التى ذكرناها . ولكن المقابر التى كانت تقام فى هذه البقعة المقدسة ، قد طفت على الحصن الأسمى حتى عهد الأسرة السادسة ؛ ثم أقيمت أخرى مماثلة لها على بعد نحو مائة متر من الجنوب الشرقى منها . وهذا المبنى الجديد يعد من أحسن القلاع الحربية المحفوظة لدينا الآن ويرجع تاريخ إقامتها إلى العهد الأقطاعى أى ما بين الأسرة السادسة والأسرة العاشرة .

والجزء الخارجى من هذا الحصن ليس فيه أبراج أو مبان بارزة من أى نوع كان . وهو على شكل مستطيل ، ضلعاه الطويلان متوازيان ويبلغ طول الواحد منهما نحو ١٤٠ متراً من الشرق إلى الغرب والضلعان القصيران متوازيان كذلك ويبلغ طول الواحد منهما نحو ٨٤ متراً من الشمال إلى الجنوب . ويمتاز الجدار الخارجى بمئاته فهو مبنى بدماميك أفقية مائلة بعض الشيء ، ومزينة بأخاديد عمودية تعكس ضوءاً

وظلا مختلفان باختلاف ساعات النهار . وهذه الجدران كان طولها لا يقل عن أربعين قدما تقريبا .

وكان المشى الذى يحدق بالسور متوجا بتراس صغير منخفض ، له شرفات مستديرة ، يصل إليه الإنسان بمراق مثبتة فى الجدران بكل اعتناء . ويحيط بهذا السور جدار حاجز ، له نوافذ ويبلغ ارتفاعه نحو خمسة أمتار تقريبا وبين السور نحو أربعة أقدام . والدخول إلى الحصن من باين ، هذا إلى أبواب سرية وفى تقط مختلفة بين البابين العظيمن . وكانت وقعا على خروج رجال الحامية . وكان الباب الرئيسى تخفيه كتلة عظيمة من المبنى فى النهاية الجنوبية من الواجهة الشرقية . أما المدخل المقابل لذلك فى الجدار الحاجز فكان فتحة ضيقة تغلق بأبواب ضخمة من الخشب . وخلف هذا الباب مكان لحفظ الأسلحة ، فى نهايته فتحة ثانية تماثل الأولى فى ضيقها ، تؤدي إلى ردهة مستطيلة محصورة بين السور الخارجى وبين البرجين البارزين ، وهناك باب آخر يوضع فى أحد أركان الردهة ، وكان ينتخب لهذا الغرض ، الركن الذى يكون بعيدا عن الأتظار . ولا شك فى أن مثل هذا الحصن . كان يعد من المناعة بدرجة تكفى لصد أى هجوم لأقوى جيش فى هذا العصر . على أن الطرق التى كان يمكن بها الاستيلاء على أى حصن ثلاثة : الأولى أن يتسلق العدو الجدران . والثانية أن يقوض الحصن . والثالثة أن يقتحم الأبواب . أما تسلق الجدران فكان من الصعوبة بمكان ؛ وذلك لارتفاع الجدران . يضاف إلى ذلك أن طلائع الجيش المهاجم ، كانوا يضطرون إلى الابتعاد عن الحصن بمسافة

بعيدة ؛ لأن جنود الحصن الذين يرابطون فى الأبراج كانوا يفوقون عليهم
سهامهم وغيرها من آلات الحرب ، ولكن إذا أحدث العدو
ثلمة فى البرج ، فإن الممرات الضيقة التى خارج الأسوار كانت تمكن
المحصورين من قهر العدو بالأحجار والمزاريق والحرايب ، كلما تقدموا فى
هجومهم . ومن جهة أخرى تجعل هدم مباني الحصن من الأمور المتعذرة .
وإذا حدث أن سلم حراس الباب الأول للمهاجمين ، فإن جماعة الأعداء
عندئذ يزدحمون فى الردهة كأنهم محصورون فى حفرة ، لأنه من العسير
على الفاتحين أن يقتحموا المكان كلهم دفعة واحدة ، ولذلك يكون
لزاما عليهم أن يهاجموا الباب الثانى تحت وابل من قذائف رجال الحصن ؛
وإذا ساءلهم الحظ وأفلحوا فى ذلك ، فإنهم يتكبدون خسائر فادحة
فى هذا السيل .

وفى هذا الوقت لم يعرف سكان وادى النيل شيئا عن المنجنيق ،
ولم يثر للآن على أى رسم للمنجنيق الذى يدار باليد فى كل الآثار
المصرية . وذلك لأنهم كانوا يقتحمون أى معقل ، بكسر أبوابه بالبلط
أو بحرق الأبواب نفسها ؛ وفى الوقت الذى يكون فيه الجنود المكلفون
بهدم أسوار الحصن منهمكين فى عملهم ، ييذل الرماة من الجنود جهد
طاقهم فى تصويب سهامهم إلى العدو المتحصن لإخراجه من مخبئه ، وفى ذلك
الوقت يعمل الجنود المختبئون خلف أستار متحركة بكل ما فى وسعهم
لكسروا قاياتهم ، وهدم شرفاتهم بحرايب معدنية الاطراف . وإذا هوجمت حامية
من الشجعان المستميتين فلا تغلب عليهم طريقة من هذه الطرق اللهم إلا إذا
حوصروا وضيق عليهم الحناق حتى يموتوا جوعا أو إذا حدثت خيانة تجعلهم يسلمون .

وكان إعداد الجنود المصريين ناقصا من جهة النظام والانسجام فكان الجنود المسلحون بالمقلع ، أو بالقوس والنشاب ، أو الحراب ، أو السيوف المصنوعة من الخشب ، أو العصي ، أو الحجارة ، أو البلط المصنوعة من المعدن ، يحاربون جنبا لجنب . أما لباس الرأس فكان قبة محشوة بالقش ، ويحمي الجسم درع صغيرة للمشاة الخفاف ، وعظيمة العرض لجنود الصف . وتتوقف نتيجة الواقعة على مبارزات فردية بين المتحاربين المسلحين بنوع مشترك من السلاح . والظاهر أن الجنود الذين يحملون الحراب هم الذين كانوا يقومون بالهجوم في خط واحد مختفين خلف درقة ضخمة ، وكانت جراح الجنود في العادة خفيفة ، وذلك راجع إلى أن المهارة التي كانت يظهرها المحارب في استعمال درعه قللت من خطر الجروح ولكن هذا لا يمنع الحربة من أن تصوب أحيانا إلى صدر المحارب فترديه ، والسيوف أو العصي تهوى على أم رأسه قهشما وتلقيه على الأرض لاهراك به . ولهذا السبب لم نجد إلا عددا قليلا من المجروحين في ساحة الوغى بعد انتهاء المعركة وقد أطلق عليهم المصريون الأسرى المضروبين وهذا يدل على كيفية أسرهم .

وفي عهد الملك ، « سنfro » تدلنا الآثار على أنه بعد عودته من حملة عظيمة ضد الزنوج أتم نظام حماية بلاده من غارات الأجانب ببناء قلاع في الوجه القبلي والدلتا وأطلق على كل منها اسم « حصن سنfro »⁽¹⁾ (حجر بلرم) يضاف أيضا إلى ذلك أن مصر على ما يظهر كانت تحصن النقاط الضعيفة في حدودها بإقامة أسوار ضخمة عظيمة الامتداد ، من ذلك ما يروى

(1) Br. A. R. t. I, p. 146 .

أن الملك « زوسر » أقام سوراً من اسوان إلى الفيلة يبلغ طوله نحو ١٢ كيلو متراً ليضمن سلامة حدوده الجنوبية ويعتقد بعض علماء الآثار أن السور العظيم الذى أقامه « امينمحيث الاول » لسد برزخ السويس فى وجه المغيرين لم يكن إلا تجديد السور أقيم فى عهد الدولة القديمة . ويعزز هذه النظرية أن اسم البحيرات المرة كما كتب فى متون الأهرام خصص فى نهايته بسور (هرم بيبى الاول) يضاف إلى ذلك أن الفرعون « سنفرو » قد خلد اسمه ضمن أسماء عدة قلاع فى هذه المنطقة (١)

ومما يدل على حرص فراعنة هذه الأسرة على حفظ النظام فى داخل البلاد والقضاء على الخصومات التى كانت تقوم بين الوجه القبلى والوجه البحرى ، ما أقامه ملوكها من الحصون لكبح جماح أى عصيان أو ثورة داخلية ، ولا أدل على ذلك من القلعة التى بناها « زوسر » وأطلق عليها اسم « بطولة الأرضين » .

ولاجدال فى أن الجيش فى هذا العهد كان فى تكوينه ملكياً . وكانت الفرق « عبر » فى عهد كل الأسر المنفية تتألف من شباب يقودهم رئيس « خرب » وهذا اللقب كان يحمله فى الإدارة المصرية كل من له وظيفة يسيطر بها على عدد من الموظفين .

وكان رئيس فرقة الشباب المجندين يطلق عليه لقب قائد فرقة الجنود . وقد وصلت إلينا هذه المعلومات من نقش على خاتم من الأسرة الثالثة . ومن ألقاب الأمير « رع حتب » (٢) الذى كان يسمى قائد الفرقة قبل أن يعين قائدا عاما للجيش .

(1) Baillet, Reg. Pharaonique, p. 241-2. (2) Weill, II-III Dyn, p.274.

وكان يتألف من مجموع هذه الفرق الجيش العام أو أى جيش آخر .
ولانزاع فى أن تأليف الجيش - كما يظهر - كان حديثا إذ لم يكن جيش
إقطاع قديم والدليل على ذلك لقب مدير « إمرا » الذى كان يحمله
قائد الجيش وهو لقب فى أصله إدارى ويدل دائما على تدخل
السلطة الرئيسية . فمثلا نجد أن حاكم الصحراء « نت نخت » (1)
كان يحمل لقب مدير الجيش « إمرا مشع » أى أنه كان القائد
الفعلى للجيش ؛ فكان فى عهد الفرعون « زوسر » يقود حملة
حرية إلى وادى مغارة . ويظهر أن الجيش كان مؤلفا من عدة
فئات كل منها على رأسه قائد جيش « إمرا مشع » وكل هذه الفئات
كانت تحت إمرة رئيس أعلى يطلق عليه قائد الجيوش الأعلى . وهذه
الوظيفة كان يتقلدها رجل من أكبر عظماء الدولة . وفى عهد الأسرة
الثالثة كان يحمل هذا اللقب على ما نعلم اثنان أحدهما « رع حتب » أحد
أولاد الملك . وكان يلقب بالأمرير والكاهن الأكبر لعين شمس
والثانى « نيسوزدف » وهو أمير ملكى .

أما الإدارة الحربية (2) فى عهد الأسرة الثالثة فمعلوماتنا عنها ضئيلة رغم
أن النقوش تدل على وجودها منذ الأسرة الثانية فمثلا نجد فى نقوش خاتم
من عهد الأسرة الثانية ما يشعرون بوجود مخازن غلال للحصون قبل حصن
« سزاحتب » مما يدل على أن الإدارة الحربية التى سنقرأ عنها فى المتون
فما بعد كانت موجودة وقائمة على نظام ثابت .

والواقع أن هذه الإدارة كانت موكلة إلى مصلحة خاصة أطلق عليها

(1) Weill, II-III Dyn, p. 129.

(2) Pirenne, Institutions, Vol. I, p. 311. الانقلاب الحامى بالجيش وإدارته والاسطول

اسم (بيت الأسلحة) « برعنا » وهذه المصلحة كما يدل عليها اسمها كانت مهمتها السهر على تسليح الجيش الذى كان مؤسساً على نظام ثابت ، وكانت فضلاً عن تموين الجيش تجمع بين دفتيها كل المكاتبات الحربية فمثلاً نجد أن مدير هذه المصلحة « نفر »⁽¹⁾ كان فى الوقت نفسه مدير مكاتبات الفرق الحربية . ومن هذه الألقاب يمكننا أن نستخلص أنه كان لكل فرقة كما كان لكل حصن ، موظفون إداريون ، وأن كل هؤلاء كانوا تابعين لإدارة واحدة مقرها (بيت الأسلحة) وسنرى عند الكلام على الجيش فى عهد الأسرة الرابعة ما يثبت هذا الاستنتاج . أما قواعد صنع الأسطول فكانت تحت إدارة شخصية عظيمة جداً بلقب (باني السفن) « مدب دبت » وكان للأسطول المصرى أهمية عظيمة فى ذلك الوقت ويتألف من سفن مختلفة الأنواع وأعظمها حجماً يبلغ طولها نحو ٥٠ متراً وقد أرسل الفرعون « سنfro » حملات بحرية إلى لبنان لإحضار خشب الأرز . وكان عدد سفن هذه البعثات يبلغ نحو الأربعين فى البعثة الواحدة (انظر جزء أول ص ٢٨٤) .

ورغم قلة المصادر التى عثر عليها عن النظام الحربى فى مصر فإن ما لدينا من الأسرة الثالثة كاف لتحقيق به من أن النظام الذى وجدناه فى الأسرة الرابعة كان متبعاً فى الأسرة الثالثة ، فكان يشمل (مناطق حدود) يحكم كل منطقة موظف خاص بلقب (مرشد الأرض) . وكانت كل منطقة يحمىها حصن وحامية ثابتة ، وجيش ملكى بقيادة قائد أعلى وهذا الجيش مقسم إلى فيالق كل فيلق يقوده قائد جيش « إمرامشع » وهذه الفيالق كانت مقسمة إلى فرق حربية « عبرو » يشرف على كل منها رئيس

(1) Pirenne, Instit. t. I, p. 316.

« خرب » . أما إدارة الجيش العامل المؤلف من شبان الأمة فكان لها ديوان خاص مقسم إلى مصالح أهمها مصلحة مخازن الغلال الحربية ، وإدارة الأسلحة ، وإدارة مصانع بناء سفن الأسطول .

الجيش في عهد الأسرة الرابعة

تدل الألقاب الحربية التي عثرنا عليها في عهد الأسرة الرابعة على أن المعلومات التي وصلت إلينا من عهد الأسرة الثالثة صحيحة في جملتها ففي عهد الأسرة الرابعة كان على رأس الجيش البري قائد الجيوش « إمرامشع » وكان في العادة ابن ملك ، ويجلس بين أعضاء المجلس الأعظم للعشرة ، مثل الأمير « مرإيب » بن الفرعون « خوفو » .

وكذلك « تنتي » فإنه كان يحمل في وقت واحد لقب قائد الجيش وقائد الأسطول ومن ذلك يمكننا أن نفهم السر في أنه كان يحمل لقب مدير البعثات الملكية . وكان « متن » أحد عظماء الدولة في نهاية الأسرة الثالثة يحمل لقب مدير البعثات في المديرية القريية من الدلتا في عهد الفرعون « سنفرو » وقد خولت له هذه الوظيفة أن يعلن أن حكام مقاطعات تلك الأقاليم تحت قدميه . وقد كان « متن » يحمل كذلك لقباً لم نثر عليه في المتون المصرية وهو « كبير المدينة في كل أماكنها » . ولا يبعد أن يكون بصفته قائد الجيش ومدير البعث الملكية صاحب السيادة على كل الموظفين في كل المدن التي كان سلطانه ووظائفه تجعله مسيطراً عليها .

أما الأسطول الذي تصلنا معلومات عنه في عهد الأسرة الثالثة فإنه كان في عهد الأسرة الرابعة يقوده موظف كبير يحمل لقب حاكم الأسطول « عزمردبت » أو لقب قائد الجيش أو ضابط عظيم للجيش البري

ومن ذلك يتضح أن في هذه الفترة كان جيش البر وأسطول البحر في قبضة فرد واحد، على حين أن مدير (بيت الأسلحة) كان ينتخب من بين أعظم عليّة القوم، يدل على ذلك أن «كا إن نيسوت» بن الفرعون «سنقرو» كان يتقلد هذا المركز. وقد كان لفرق الجيش ولكل وحدات الجنود إدارتها المؤلفة من كتبة، وقد حفظت لنا النقوش اسم أحد هؤلاء المديرين وهو «عأخي» (1) الذي كان يحمل لقب «مدير كتبة الفرق» هذا فضلاً عن أنه كان يحمل ألقاباً أخرى.

ولا نزاع في أن اختصاصات موظفي بيت الأسلحة كانت تختلف عن اختصاصات «كتاب الفرق» وذلك أن بيت الأسلحة كما يظهر من الاسم نفسه كانت مهمته الرئيسية تنحصر في تجهيز الجيش بمعداته الحربية أما كتاب الفرق فكانوا يؤلفون مصلحة إدارية ويهتمون بالإدارة الحربية فعملون على تجنيد الجنود اللازمة. وسنرى أن التجنيد كان في الواقع يقوم به في الأقاليم المختلفة حاكم كل إقليم ومن المحتمل جداً أن «عأخي» الذي كان يحمل لقب «مدير كتاب الفرق» كان مكلفاً بتجنيد العساكر وإدارة شئونهم في إقليم نفوذه، وذلك لأنه كان حاكماً المقاطعة «ساب عزمر».

الجيش في عهد الأسرة الخامسة

لم يطرأ على تأليف الجيش في عهد الأسرة الخامسة تغيير يذكر عما كان عليه في عهد الأسرتين الثالثة والرابعة إذ كان مؤلفاً من مجندين كان يطلق على الواحد منهم في هذا العهد «الشاب الجميل»؛ وتتألف منهم وحدات «عبر» كل منها تحت إمرة ضابط يحمل لقب رئيس الوحدة أو

(1) Junker, Giza, I pp. 132.

الفرقة « خرب عبر » ومن هذه الفرق مجتمعة كانت تتألف كتائب الجيش « عبر مشع » وعلى رأسها قائد يحمل لقب قائد كتائب الجيش .

وحرس الفرعون في القصر به فرق مختلفة من المجندين بإمرة « قائد فرق المجندين » وكانت تحمل كل واحدة اسما خاصا بها مثل « كم مقدار حب سحورع » (١) و « ما أجمل سحورع أمام القصر » ! وذلك مما يظهر اتصال هذه الفرق المباشر بالفرعون نفسه وتدل المعلومات المستقاة من وثائق هذا العصر على أنه كانت توجد فرق أخرى تتألف منها حاميات ثابتة في داخل البلاد وكانت تحت تصرف السلطة المدنية لضمان حفظ النظام ولتمكين رجال السلطة من الالتجاء إليها لتنفيذ القانون (٢) . وكان الجيش يرسل بعوثا إلى البلاد الأجنبية في محاجر سيناء وحمامات وكان كذلك يكلف أحيانا بالعمل في المحاجر داخل البلاد وبخاصة في محاجر طرة (انظر ص ٢٧٠ جزء أول)

وقد كانت العناية بالمجندين عظيمة جدا لتدريبهم على الأعمال الحربية فكان الجنود (الشباب الجليل) يتلقون دروسا حربية قد خصصت لها مصلحة قائمة بذاتها كان يشرف على إدارتها العليا القائد الأعظم للجيش ونذكر هنا على سبيل المثال « كا إم ثنت » الذي كان يحمل لقب قائد جيوش البر والبحر ومدير التعليم للجيش .

ولا يتسرب إلى الذهن أن الجيش المصري كان مؤلفا من جماعات من الرجال المسلحين يقود كل جماعة منهم سيدهم ، بل كان في الواقع جيشا

(١) Borchardt, Grab des K. Sahure, pp. 71-74 .

(٢) Décrets de Teti I. par Moret dans J. As. 1917 pp. 436-441.

حكوميا مؤلفا من وحدات حرية تحت إشراف ضباط فنيين ليس لهم أى عمل مدنى . وكان مظهر الجيش فى السلاح واللباس واحدا فى كل فرقة والبرهان على ذلك نجده فى الرسوم التى عثر عليها فى معبد الفرعون « سحورع » الجنازى إذ نرى فى مناظره (١) الجنود يخطون خطوات حرية ، وكلهم مجهزون بعدة واحدة وقابضون على سلاحهم بنظام واحد . ولا شك فى أن التعليم الحربى كان يلعب دورا هاما فى هذا النظام .

وكان الجيش فى ذلك الوقت مؤلفا من فرق تتألف منها فيالق ، كلها تحت إمرة القيادة العامة ، وكانت كل فيالق الجيش تخضع لقائد الجيوش العام الذى كان على ما يظهر هو القائد الأعظم لكل جنود مصر . وسنرى أن الجيش المصرى منذ عهد الأسرة السادسة كان يشمل غير فيالق المجندين ، عساكر مرتزقة ، وكان يقود الكل قائد الجيوش العام . ومع ذلك فإن الجيش الوطنى كان يؤلف وحدة تحت إمرة قائد « إمرأ خبر إن قرو » لقبه مدير رؤساء المجندين . وهو لقب لا يمكن أن يطلق إلا على قيادة الجيش النظامى المؤلف من كتائب جنود مصريين .

وكان قواد الجيوش دائما ينتخبون من بين الشخصيات العظيمة جدا وقد لاحظنا ذلك عند الكلام على الجيش فى عهد الأسرة الرابعة إذ كانوا ينتخبون من بين أمراء البيت المالك ، وفى عهد الأسرة الخامسة دللتنا الآثار على أنهم كانوا من حملة الألقاب الملكية العظيمة جدا فكانوا هم كلهم يحملون لقب حامل الخاتم الملكى والمقرب من الإله العظيم

(1) Borchardt, op. cit. pl. IX.

وكذلك كانوا يتحلون بأعظم الألقاب الفخرية مثل : « الذى فى قلب الملك » (أى صديقه الحميم) .

ويجب هنا أن نشير إلى لقبين يظهر أنهما من الألقاب الحربية وكان يحملهما القائد « شمو » ^(١) ولم يثر على أمثلة لها فى الدولة القديمة وهما : « إمرأ إستى تر و خرب إستى تر » . والظاهر أن معناهما . (قائد المسكرين الحريين للإله) أى الفرعون ، وهذان المسكران يحتمل أن يكون المقصود منهما هو مجموع جيش الوجه القبلى والوجه البحرى وذلك لأن قائدهما هو « شمو » الذى كان يحمل فى الوقت نفسه لقب القائد العام للجيش وأمير البحر العام لمصر قاطبة .

ومما تجدر ملاحظته هنا أن الفرعون فى هذه الألقاب يسمى الإله ولذلك لا يستبعد أن لقب « حامل الخاتم الإلهى (الملكى) الذى شاهدنا كل الضباط العظام كانوا يحملونه ؛ من الألقاب التى لها علاقة بالإدارة الحربية وقد دلت البحوث الجديدة على أنه فعلا لقب حربى .

الاسطول

كان الأسطول الحربى مجهزا ببخارة يطلق عليهم اسم (عبر) ولم يقبوا باسم « عبر نفرو » كتيبة مجندة . ومن المحتمل أن نستنتج من ذلك أن البخارة ليسوا بجنود الجيش البرى مجندين ، بل إنهم كانوا جنودا محترفين . وقد كانت كل سفينة « دبت » على ما يظهر تحت إمرة ضابط . أما لقب « الضابط المدير العظيم » فيظهر أنه كان يمنح لضابط على الرتبة تحت إمرته كثير من الضباط . وهذا الضابط الكبير لا بد أنه كان « رئيس أسطول » .

(١) L. D. II. 97, a, Saqqara .

على أننا نجد كذلك لقب « مدير الأسطول ورئيس الأسطول » وهذه الألقاب كان يحملها ضباط ذوو رتب عالية جداً .

والظاهر أن الأسطول الحربى كان مؤلفاً من سفن عظيمة « دبت عات » ولا بد أنه كانت منها السفن التى كان يبلغ طولها نحو ٥٠ متراً وقد جاء ذكرها فى حجر بلم فى عهد « الملك سنفر » .

والواقع أن كبار رجال الأسطول الحربى كانوا يحملون لقب « مديرى بحارة السفن العظيمة » . وقد كان الأسطول مقسماً إلى طائفتين من السفن ومن أجل ذلك يطلق على الأسطول كله اسم الأسطولين البحرين .

وهذه الألقاب المختلفة التى يحملها ضباط البحرية العظام يظهر أنها كانت تمنح من بين درجاتها رتبة ضابط ممتاز للأسطول ؛ ومن ذلك يتضح أنه كان لكل من الجيش والأسطول قيادته الخاصة ولكن رغم ذلك كانا منذ عهد الأسرة الثالثة تحت إمرة قائد واحد فى عهد الأسرة الثالثة كان الأمير الملكى « رع حتب » (1) قائد الجيش وأمير الأسطول . وفى عهد الأسرة الرابعة كذلك كان الأمير الملكى « مرإب » يحمل نفس اللقبين . وفى عصر الأسرة الخامسة قسم كل من الجيش والأسطول إلى فيلقين وذلك طبقاً لتقسيم البلاد إلى قسمين الوجه القبلى والوجه البحرى . ومع هذا نجد أن القيادة العليا كانت موحدة . فكان كل من الأمير الملكى « عنخ إيسى » (2) والأمير « كا إم ثنت » قائدا لجيش البر وأميرا لأسطول البحر ؛ وكذلك تقرأ أن « شمو » كان القائد الأعلى لجيوش البر والبحر . وقد لوحظ فى القاب

(1) Weill II - III Dyn. p. 274; Miss Murry, Index, p. 411.

(2) Mar. Mast. D. 8 pp. 189-190.

هؤلاء القواد العظام للبحر والبر أنهم كانوا يلقبون كذلك بلقب « مدير كل الأوامر الملكية ». ولابد أن ذلك كان بطبيعة الحال للجيش فحسب . ومن ذلك يتضح أن كلا منهم كان الممثل المباشر للسلطة الفرعونية في رئاسة جيوش مصر .

وتدل النقوش على أن الجيش كان منفصلا تماما عن السلطة المدنية ؛ وقد كان القائد الأعلى إلى الأسرة الخامسة عضوا في مجلس العشرة العظيم ، مثل « رع حتب » من الأسرة الثالثة « ومرايب » من الأسرة الرابعة ، ولا نزاع في أنهما كانا ضمن أعضاء هذا المجلس من الوجهة الحرية فقط إذ لانجد أنهما كانا يقومان بأداء أى عمل إدارى أو قضائى مثل الأعضاء الآخرين لهذا المجلس ؛ والواقع أن وجودهما بين أعضاء مجلس العشرة العظيم كان بمثابة رابطة بين الجيش والإدارة . وفي عهد الأسرة الخامسة فصلت الإدارة المدنية عن الإدارة الحربية فصلا تاما وذلك بعد الإصلاح الذى أدخل وبمقتضاه قسمت الإدارة والجيش إلى قسمين واضحين : لمصر العليا ومصر السفلى . ومن أجل ذلك لم نعد نرى أن قواد الجيش كانوا يجلسون ضمن أعضاء مجلس العشرة العظيم . ولكن فى مقابل ذلك أصبح كل منهم يلقب مثل الوزير « مدير كل أوامر الملك » . وقد ظهروا بذلك معادلين للوزير ، أى أنهم كانوا هم الممثلين للفرعون على رأس الجيش كما كان الوزير الممثل للملك على رأس الحكومة ، هذا إلى أن مدير الإدارة الحربية كان يجلس فى المجلس التشريعى الملكى . فكان « شمو » مدير بيت الأسلحة والأشغال والمخازن الحربية ؛ يظهر اسمه بين الموظفين الملكيين الذين يحملون لقب « رئيس الأسرار لأوامر الفرعون » . ويلاحظ هنا أنه

لم ينتخب من بين العشرة العظام للجنوب مثل رؤساء الأسرار ، مستشارا
سريا لكل أوامر الملك ، بل كانت مهمته قاصرة على أن يستشير
الفرعون فى المسائل الحربية فحسب .

الاداره الحربية

كان جيش مصر الثابت وجماعة ضباطه المحترفين . وقلاعه ، وأسطوله
يستلزم قيام إدارة هامة لتصرف الأمور ، وهى بيت الأسلحة الذى عرفناه منذ
الأسرة الثالثة وقد كانت إدارته دائما موكلة فى هذا العهد - مثل الجيش نفسه - إلى
أمير ملكى أو لزوج أميرة ملكية فكان بذلك بعيدا كل البعد عن الإدارة
المدينة وفى عهد الأسرة الخامسة أصبح بيت الأسلحة مزدوجا مثل الجيش : بيت
للوجه القبلى وآخر للوجه البحرى . وقد استمر موظفوه ينتخبون من أعلى
طبقات الموظفين وغالبا ما يكونون من قواد الجيش الذين كانوا من أعلى
طبقة من أشرف البلاد . ولذلك نرى أن « شمو » كان فى وقت واحد القائد
الأعلى لجيوش البر والبحر ومدير إدارة الحرية مما يدل على أن ديوان
إدارة الجيش كانت تحت سلطان القائد العام مباشرة رغم أنها كانت
تابعة مثل الإدارة المدنية لسلطة الوزير العليا .

ويشمل بيت الأسلحة عدة مصالح وبخاصة مصلحة الأشغال
(أنظر ص ٣٠ الح) لذلك نجد أن كل قائد أعلى للجيش كان يحمل لقب مدير
أشغال الفرعون ، ولا شك فى أن هذه المصلحة هى التى كانت تقوم ببناء
المعاقل وصنع سفن الأسطول وكان يدير الأخيرة مهندس السفن .
وكان من اختصاص هذه المصلحة كذلك إدارة شئون الفلال التى كانت
معدة لتموين مصلحة الأعمال الحربية ولتقوم بمخزن كل ما يلزم من المؤن فى

القلاع على أن اسم هذه المصلحة « بيت الأسلحة » كما ذكرنا يدل على أنها كانت تجهز الجيش بالأسلحة والملابس . ومن أهم أعمال هذه المصلحة ضمان حسن سير مصلحة وكلاء الجيش وهي التي كانت تمد الجيش بالأملاك والمعدات اللازمة لرجاله . والواقع أن الجيش المصرى لم يقم على السخرة ولا على السلب ، بل كان حتى في وقت الغزوات يعتمد في عدته وعتاده وطعامه على الإدارة الحربية . وقد قص علينا « ونى » أثناء الحملات التي كان يقودها في نهاية الأسرة السادسة أى في وقت تدهور الدولة المصرية وتمزيق شملها ؛ أن تموين الجيش كان على أحسن ما يرام حتى أنه لم يوجد جندى قد أخذ خبزاً أو نعلاً ممن كانوا في طريقه اغتصاباً ، ولم يكن من بينهم من أخذ عمداً ملابس من أى بلدة كانت : ولا من اغتصب معزاً من أى شخص كان (انظر جزء أول ص ٣٧٨) ومن جهة أخرى نجد أنه في خلال حملة شبه حربية أرسلت إلى خليج العرب في عهد الفرعون « إمحوتب » ، أحد ملوك الأسرة السادسة قد وضعت إدارة الجيش تحت تصرف الجنود والعمال نحو ٥٠ ثوراً و ٢٠٠ من الماعز لمئونتهم .

وكانت إدارة الجيش هذه قد بلغت من الكمال حداً عظيماً من الدقة . يدل على ذلك وثيقة غربية في بابها وصلتنا في هذا الصدد . وهو خطاب كتبه قائد الجنود الذين كانوا في محاجر طرة بالقرب من منف فقد وصل إلى هذا القائد أمر الوزير بإرسال كتيبة إلى منف لتأخذ أهبتها هناك ، ولكن هذه الكتيبة كانت قد مضت ستة أيام في منف منذ زمن قصير فاحتج القائد على ذلك قائلاً أنه كان يجب تموين الجيش مدة إقامته في العاصمة ، بدلاً من ضياع يوم كامل إذا أرسل إلى هناك ثانية . وذلك مما يعطل سير

العمل ويؤخره . وقد تدل هذه الوثيقة من جهة أخرى على أن الكتيبة أضاءت ستة أيام لتأخذ مئونها وعدتها بدون جدوى (؟) ؛ على أن حسن سير العمل في مصالح الجيش كان مضمونا لوجود كاتب لبيت الأسلحة والمصالح الإدارية التابعة لوحدات الجيش ؛ وذلك أنه كان لكل جيش موظفوه وهم كتاب الجيش الملكي وكل فرقة كان لها كتابها وهم كتاب الوحدات وكلهم تحت إمرة مدير كتاب الوحدات الحربية .

وكان الجيش كما نعلم مؤلفا من مجندين غير أننا لا يمكننا أن نعرف كيفية تجنيدهم إلا من متون يرجع عهدها إلى الأسرة السادسة ؛ إذ نجد في المرسوم الثالث من عهد الفرعون « يبي الثاني » الموجه إلى مدير الجنوب ، ما يشير إلى كيفية ذلك . وفي هذا الوقت أخذت مصر تنقسم إلى مقاطعات مستقلة تقريبا . ويظهر لنا من نقوش « وني » عند وصفه كيفية تجمع الجيش الملكي أن حكام المقاطعات والمراكز كانوا يأتون بالعساكر المجندين من الحصون والمدن التي كانوا يحكمونها .

ويمكننا أن نستنتج أنه في عهد الأسرات السالفة كان حكام المقاطعات مكلفين بفحص المجندين وتسجيل أسمائهم . غير أننا لا يمكننا أن نقرر مع ذلك أنه كان في قبضة أيديهم قيادة هؤلاء الجنود كما كان الحال في عهد الأسرة السادسة ، والواقع أننا لم نجد نجد في ختام الأسرة السادسة لقب القائد العام « إمرامشعو » ؛ إذ سيستولى على القيادة الحربية في هذا العهد حكام المقاطعات الذين أصبحوا أمراء إقطاعات ؛ على أن هذه السلطة نفسها لم يقبلها هؤلاء إلا بسبب الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها ، بوصفهم حكاما ملكيين ، ومن هذه الامتيازات أن يجندوا الجنود في

مقاطعتهم بمحض إرادتهم لخدمة مليكهم أو لتنفيذ مآربهم . ويجب أن نستخلص من نظام هذا الجيش الوطنى المؤلف من مجندين ، أن سكان القطر كانوا خاضعين إلى إدارة حرية . ولا يمكننا أن قطع بأن هذا التجنيد ينطوى تحت لوائه كل السكان أو بعضهم . ولكن من جهة أخرى يمكننا أن نلمس الحقيقة عن نوع الرجال الذين كانوا ينخرطون فى سلك الجندية من اللفظ الذى يعبر به عن الرجل الذى كان ينتخب للجندية ، إذ كان المصرى يعبر عن المجندين بكلمة « قرو » ومعناها « الشباب الفص أو الجبل » . ومن ذلك نعلم أن الطبقة التى كانت تتميز بهذه الصفة كان رجالها هم الذين يجندون فحسب على أن هذا الاستنتاج لا يخرج عن حد النظريات .

جيش الجنود المرتزقة

تدل النقوش التى دوت فى مرسوم دهشور^(١) ومراسيم قنط^(٢) ، ولوحة « ونى » (جزء أول ص ٣٧١ الخ) على أنه كان يوجد فى مصر جيش من الجنود الموالية « نحسى » وكان هذا الجيش يتألف من الزوج أو بتعبير أدق من النوبيين ومن المحتمل من اللوبيين أيضا ، وكانت الكتائب التى تؤلف من هؤلاء تكون جزءاً من الجيش المصرى ؛ إذ أنهم كانوا يظهرون فى ساحة القتال بين الجنود الذين جمعهم « يبي الأول » ليخضع بهم البدو تحت إمرة « ونى » وكانوا يؤلفون وخدم جيشاً مرتزقاً .

وكان الملوك يمنحونهم فى عهد الأسرة السادسة^(٣) أراضى وينشئون لمصلحتهم ضياعاً والتزامات معفاة من الضرائب الملكية . ويظهر أن هؤلاء الجنود المرتزقة

(1) Moret J. As. 1917 p.p. 387 et Suiv. (2) Op. Cit. 1916 p.p. 296-322. (3) Sphinx, XVII p. 118.

كانوا تابعين لنظام جديد وجد مذكورا في الألقاب منذ الأسرة الخامسة : يطلق عليه « جس بر » (الجيش المنظم) بجوار الجيش الوطنى . ومن المحتمل جدا أن يكون الفرعون قد نظم هؤلاء الجنود المرتزقين في العهد الذى حدث فيه الاقلاب العظيم في الأسرة المالكة . وكان يرأس جيش المرتزة هذا (مدير المرتزة) « إمرا جس بر » . وهذا اللقب كان يحمله دائما حاكم المقاطعة ولكنه كان خاصا بأصحاب الشأن والقوة منهم وبخاصة « إحي » (1) الذى كان يلقب كذلك ، مدير البعوث أو الحملات الفرعونية في البلاد قاطبة وكذلك كان يلقب به « وسر كاف عنخ » (2) حاكم مقاطعات الوجه البحرى و « بخنوكا » (3) و « وتب إم عنخ » (4) و « يبي عنخ » وقد أصبحوا وزراء وعينوا نوابا للملك في « نخن » (الكاب) . ومن ذلك يمكننا أن نقرر بأن (قواد الجنود المرتزة) كانوا من الموظفين الذين في يدهم سلطة حكام الأقاليم . ومن جهة أخرى كان يشمل جيش المرتزة على مصالح مختلفة ، واحدة منها لمقاطعات الشمال تحت سلطان حكامها ؛ فكان « وسر كاف عنخ » يلقب مدير مقاطعات الشمال في مصلحة الجنود المرتزة المزدوجة ، ومن ذلك يستتج أنه كانت هناك مصلحة أخرى للجنود المرتزة لمقاطعات الجنوب وهذه النظرية قد وطدت دعائمها بظايرها . وذلك أن مصلحة جيش الجنود المرتزة أصبحت مزدوجة مثل المصالح الإدارية في عهد الأسرة الخامسة وأصبح يطلق عليها « جسوى بر » ويمكن حينئذ تفسير هذا اللقب « باليت الذى يدير الجيشين من المرتزة »

(1) L. D. II, 88 a. b مسلة صغيرة من الجيزة (2) Br. A. R. t.I, No 276
(3) Mar. Mast. D. 70 p.p. 370 et Suiv. (4) Borchardt. Grab
des K. Neuserre p. p. 71-74.

ولجيش المرتزقة أمناء أسرار وبخاصة للبلاد الأجنبية : « كبير أمناء السرباب البلاد الأجنبية في بيت إدارة جيش الجنود المرتزقة » . وأبواب البلاد الأجنبية هي كما ذكرنا مناطق الحدود التي كانت تقام فيها حصون . ومن جهة أخرى نجد لكل من الأهرام الملكية والجبانات حرسا من الجنود المرتزقة . وقد ظهر في نقوش « وني » لقب مدير الجنود المرتزقة أيضا . وقد ذكر لنا « وني » قائمة بأسماء الشخصيات الهامة الذين جاء كل منهم على رأس جنوده ، مرتبة حسب مكانة كل منهم . وهم كما يأتي :

(١) الأمراء ، حاملو خاتم ملك الشمال . (٢) السمار الوحيدون ، والرؤساء العظام أصحاب الحصون العظيمة . (٣) حكام الحصون . (٤) السمار مديرو القوافل . (٥) رؤساء الكهنة . (٦) قائد الجيوش المرتزقة .

ثم يقول لنا المتن ، إن كلا من هؤلاء كان يقود جنودا من الجنوب ومن الشمال من الحصون ، ومن المدن التي يسيطرون عليها ومن « النحسى » أى الجنود المرتزقة الذين جلبوا من البلاد النائية : (انظر الجزء الأول ص ٣٨٠ الخ)

ومما سبق يتضح أن قواد الجنود المرتزقة كانوا مثل الضباط الآخرين الذين ذكرنا أسماءهم ، يقودون جنودهم إلى ساحة القتال . على أن قواد الجنود المرتزقة لم يكونوا حكاما لمقاطعات ولا مدن ، ولا ضياع ملكية معفاة من الضرائب مثل رؤساء الكهنة . كما أن حكام الأقاليم والمدن لم يكن تحت إمرتهم جنود من النوبيين في جيوشهم ، إذ لم نجد حاكم مقاطعة واحدا في عهد الأسرة الخامسة يحمل لقب رئيس الجنود المرتزقة . ومن ذلك نستخلص أن مصلحة الجنود المرتزقة هي التي تدير شؤون هؤلاء الموالين من النوبيين الموزعين في طول البلاد وعرضها وقد كانوا في الحقيقة

يؤلفون قوة من رجال الشرطة وحامية ثابتة قد وكل إليها المحافظة على الأمن في مناطق الحدود والمقاطعات وحراسة الجبانات والأهرام الملكية التي كانت دائماً مهددة بناهي القبور .

وكان الجيش مكلفاً بحراسة البعث التي كانت ترسل إلى مناجم سيناء . وحمامات ، وكانت الكتائب البرية والسفن الحربية ترافق البعث التي يرسلها الفرعون « إسيى » إلى شبه جزيرة سيناء لإحضار حجر الذهب . وكان يصحب هذه البعثة ضابط بحرى وثلاثة ضباط جنود برية .

وفي عهد الفرعون « ييى الأول » قامت حملة إلى سيناء تصحبها كتيبة من الجنود بإمرة قائد جيش ومعه عدد من الضباط البحريين وضباط الجنود البرية وكذلك أرسلت في عهد نفس الفرعون حملة إلى حمامات غير أنه لم يذكر في نقوشها قائمة بأسماء ضباط الحملة ، ولكن ذكر عرضاً فيها اسم ضابط سفينة وقد ذكر في متن يرجع تاريخه إلى أواخر الأسرة السادسة أن أمراء الفنتين قد قاموا بإحدى عشرة بعثة بحرية إلى جيل (يلوص) وبلاد « بت » (أنظر ص ٢٦٥) .

الجيش في عهد الأسرة السادسة

بقيت القيادة الحربية وراثية في الجيش المصرى حتى أواخر عهد الفرعون « ييى الأول » . وقد حاول فراعنة أول الأسرة السادسة أن يستبقوا السلطة المباشرة على الجيش في أيديهم بجعل القيادة في أيدي أشخاص من الأسرة المالكة ، يدل على ذلك أن قائدين للجيش في أوائل الأسرة السادسة كانا من أقرباء الفرعون الحقيقيين .

ولم يطرأ تغيير في نظام الجيش في عهد الملك « تيتى » بل بقي تحت

إمرة القائد الأعلى الذى كان ينصب عادة من أقرباء الفرعون ، وكان تحت أوامره ضباط فرق من المجندين ويهيمن على شئونهم « بيت الأسلحة » الذى كان تحت سلطان الوزير المباشر فى ذلك الوقت .

ويظن أنه قد حدث انقلاب فى عهد « يبي الأول » فى نظام الجيش بسبب انحلال الدولة وتقسيمها إلى مقاطعات مستقلة تقريباً ، فترى فى أواخر عهده أن الوظائف الحربية أصبحت نتيجة لهذا الانقلاب وراثية تقريباً ولذلك نجد أن « إيدو » (١) الذى قاد حملة إلى سيناء فى العام التاسع عشر من حكم « يبي الأول » ، كان يحمل لقب قائد الجيش الذى كان يلقب به والده « مري رع عنخ » من قبله ومن جهة أخرى نلاحظ أن لقبا جديداً ستكون له أهمية عظيمة فى عهد الفرعون « يبي الثانى » قد ظهر وهو « مدير القوافل » ، وقد اعتاد علماء اللغة المصرية بترجمته « بمدير التراجمة » . وقد وجد حاملو هذا اللقب بين أسماء رؤساء البعثات التى كانت ترسل إلى محاجر سيناء ووادي مغارة أو إلى بلاد النوبة التى تدفع الجزية للفرعون مثل أقطار « مجا » و « إيام » و « أرث » : و « واوات » الواقعة فى جنوبى مصر وهذه الأقطار قد أصبحت لها أهمية عظمى للتاج فى العهد الذى كانت فيه سلطة الفرعون تتناقص تدريجاً ويتبعها انضوب موارده المالية وقوته الحربية ، فكانت هذه الأقاليم الجنوبية فى الواقع تدفع له الجزية وتمده كذلك بالجنود المرتزقة الذين كانوا يغذون جيشه .

وقد جاء فى مرسوم دهشور فى عهد « يبي الأول » أن مدير القوافل كان تحت إمرة رئيس مديرى القوافل . وتدلنا النقوش على أنه كان هناك

(1) Sethe, Urk. II No 11 (New Ed.)

مديرو قوافل من درجات مختلفة ففى نقش من حكم « يبي الأول »
عثر عليه فى سيناء نجد مذكورا عليه اسماء جماعة ممن يحملون لقب مديرو
قوافل تحت إمرة غيرهم فى نفس الحملة غير أن أهميتهم أخذت تنظم ونقودهم
يزداد بسرعة ؛ وسنرى أن عدداً منهم سيصير قريباً من بين أعظم الموظفين
الملكيين ويصبح لهم الحق فى تقلد اللقب الفخرى « السمر الوحيد »
وكذلك ظهروا بين الذين يحملون لقب المدير الأعلى لأوقاف القصر
ومن ذلك نلاحظ أن القيادة العليا كانت فى سبيل التغير، فنجد
أن لقب القائد العام للجيش أخذ يختص ، وكذلك أصبح تجنيد الجنود
بإشراف الفرعون ضرباً من المستحيل ويرجع ذلك إلى قيام الأمارات
الإقطاعية فأخذ الجيش الذى كان يجنده الفرعون من داخل البلاد يتضاءل
تدريجاً حتى اختفى نهائياً ومن ذلك العهد لم يبق فى يد الفرعون إلا جيشه
المرتزق الذى كان يقوده مدير القوافل . وقد أصبح قواد هذا الجيش من
القوة فى عهد « يبي الثانى » إلى درجة أنهم صاروا أمراء إقطاعيين فى الفتنين
وأصبحوا من أهم حكام الإقطاع فى الجنوب ومن أعظمهم نفوذاً .

البعوث الفرعونية

تدل الوثائق والنقوش التى عثر عليها للآن على أن البعوث التى كان
يرسلها الملك إلى خارج البلاد أو فى داخلها ، كانت تجهز لأغراض ثلاثة
(١) بعوث لأغراض جنازية للفرعون نفسه (٢) بعوث تجارية (٣) حملات حربية .
فالنوع الأول من البعوث كان يرسله الفرعون إلى شبه جزيرة سيناء
فى وادى مغارة وكان يصحب كل بعثة حرس عظيم من الجنود ؛ وكذلك
كانت ترسل بعثات إلى محاجر حمامات و «حتوب» والظاهر أن كل رجالها

مدينون . والنوع الثاني بعوث بحرية إلى شواطئ البحر الأحمر وفلسطين الغرض منها التجارة . أما النوع الثالث فكانت حملات حربية محضة للنزو والفتوح في بلاد النوبة وغيرها ويستخلص من الوثائق التي لدينا عن هذا العهد أن البعوث التي زارت وادي مغارة إلى عهد الفرعون « يبي الأول » كان لواؤها معقودا لقائد جيش « إمرا مشع » أو ضابط بحارة الأسطول وتحت إمرة كل منهما عدد من ضباط الجيش : ضباط كتائب ورؤساء تراجمة أى جنود مرتزقة « إمراعا » وضباط بحريين وقواد سفن .

أما الموظفون المدنيون فكانوا يتألفون من المستخدمين ويعرفون بوظائفهم مثل مدير كذا أو رئيس كذا وكان من بينهم موظف أو أكثر من السلك القضائي مثل « القاضي الكاتب » و « القاضي المدير » وكذلك كان من بينهم عامل من مصلحة الأشغال الملكية مثل كاتب النحاس ، ومدير أشغال الحجر . وتدل الوثائق التي في متناولنا منذ عهد الملك « مر نرع » أن العنصر المدني والعنصر الديني كان لهما أهمية تتزايد ؛ حتى أن البعوث التي كانت ترسل إلى سيناء كان يدير شئونها أحد عظماء رجال الملك مثل حامل الخاتم الإلهي (الملك) يساعده موظفون مدينون وبرقتهم كتيبة من الجنود يشرف عليهم ضباط فرق ، وضباط بحريون ومديرو جنود مرتزقة .

أما البعوث التي كانت ترسل إلى محاجر حمات فلم يرافقها جنود حريون إذ كان يقودها إما مدير الأشغال الملكية عامة ، ورئيس مصلحة الأشغال العمومية ، أو شخصية من شخصيات الدرجة الأولى مثل حامل الخاتم الملكي ، وهي وظيفة حربية وقد كان تحت إدارة مدير كل الأعمال الملكية

اثنان من حاملي الخاتم الملكي . والواقع أن حاملي الخاتم هذين كانا هما نفسيهما اللذين كانا في البعثين اللتين أرسلتا في عهد الفرعون « يبي الأول » يقودهما مدير كل الأشغال الملكية ؛ « إخي » و « إحو »⁽¹⁾ . وقد قامت حملة ثالثة أخرى أقل أهمية برياسة حامل الخاتم الإلهي « إخي » . ويظهر من ذلك أن كان في خدمة الملك اثنان من حاملي الخاتم الإلهي (الملكى) ؛ أما الموظفون المدنيون الآخرون فكانوا مديري مبان ورؤساء عمال . وتجب هنا ملاحظة أن البعثة التي كان يقوم بها حامل الخاتم الإلهي (الملكى) كان الغرض منها جلب المواد اللازمة لبناء هرم الفرعون .

وأخيراً كان يصحب البعثة عادة قاض أو موظف قضائي أما البعوث التي كانت توجه إلى محاجر « حتوب » في مصر الوسطى فكانت أقل أهمية . وقد كلف برياسة واحدة منها في أواخر حكم « يبي الأول » حاكم مقاطعة « ون » (الارنب) وهو « ختم عنخس »⁽²⁾ وقام بحملة أخرى من هذا النوع في عهد الملك « مرن رع » ، حاكم الوجه القبلي « ونى » (الجزء الاول ص ٣٧٩) الجيش والبلاد الأجنبية : لم يكن في مقدور حكومة كل من الملكين « تيتي »

و « يبي الأول » أن تقف التيار الذي كان يدفع البلاد المصرية نحو الانحلال والانقسام ، وإن كانت قد ضمنت إلى حد ما ، ما يظهر هيبتها الحرية واستمرار سيادتها على أقوام بدو الشرق حتى فلسطين ، وكذلك على سكان بلاد النوبة الخاضعين لمصر . والواقع أنه كان في قبضة الحكومة في ذلك العهد جيش حسن الإدارة . فكان « بيت الأسلحة » تحت سلطان الوزير ، أما بناء السفن الحرية في « عهد « يبي الأول » ، فكان موكلاً إلى حاكم مقاطعة « ون » القوي « تيتي عنخ » .

(1) Br. A. R. t. I. p. 298-9

(2) Urk. II, No 14. (New Ed)

وكان للملك جنود تحت إمرة ضباط فنيين يقومون بالحملات خارج حدود البلاد . وقد بقى لقب « القائد العام للجيش » ، يستعمل فى عهد الأسرتين الرابعة والخامسة ، إلى عهد حكم « ييى الأول » . إذ أرسلت فى حكمه بعثة إلى محاجر « حتوب » على رأسها « إيدو » ويحمل لقب ، قائد الجيش ، وأمير الأسطول ، وهو ابن قائد الجيش « مرى رع عنخ » ومن هنا نرى أن قائد البعثة كان سلطانه ينتظم جنود البر والبحر الذين كانوا يرافقونها .

وقد حافظ الجيش على وحدته الحربية حتى عهد « ييى الثانى » إذ نجد فى قهوش سيناء ما يثبت لنا وجود لقب رئيس المجندين ، ولقب رئيس فرق المجندين . وقد ظلا يستعملان حتى نهاية حكم هذا الملك ، غير أنه رغم ذلك كان تأليف الجيش قد تغير تغيراً عظيماً فى عهد « ييى الأول » ويمكننا أن نفهم هذا من قهوش « ونى » .

وكان « ونى » هذا يحمل لقب مدير أوقاف القصر أى أنه كان كبير رجال البلاط ، وقد نصبه « ييى الأول » على رأس جيشه ليقوم بغزوة ضد البدو . وقد وصف « ونى » تأليف الفرق بأنها كانت بقيادة (١) الأمراء (٢) وحاملى أختام ملك الوجه البحرى (٣) والسمار الوحيدى ، ورؤساء الحصون العظيمة (٤) والرؤساء حكام الحصون (٥) والسمار مديرى القوافل (٦) ورؤساء الكهنة (٧) مديرى الجنود المرتزقة « إمرا جس بر » .

والمتن يوضح ذلك إذ يقول : « وكان كل واحد منهم على رأس كتيبة من جنود الجنوب وجنود الشمال ، والحصون والأوقاف (ويقصد بهذا الضياع العظيمة التى كانت معفاة من الضرائب وتابعة للمعبد) ، الذين

يقودونهم ، هذا إلى الجنود الموالين (نحسى) الذين جندوا من هاتيك البلاد
النائية (أى بلاد النوبة) . وأول ملاحظة تلفت النظر فى هذا النص هى أن
الجيش لم يعد تحت إمرة « قائد جيش عام » بل كان يقوده كبير رجال
البلاط « ونى » .

أما الجيش نفسه فيتألف من الجنود الذين أحضرهم رؤساء المقاطعات
حسب ترتيبهم فى المكانة وعلو المرتبة .

وكانت المقاطعات محكومة بأمرأى أو بحكام حصون ، والفرق بين حكام
حصون المقاطعات ، وحكام الحصون الذين كانوا ينصبون على أجزاء
المقاطعات ، هو أن الحكام فى الحالة الأولى يحملون لقب حامل خاتم
ملك الوجه البحرى أما فى الثانية فانهم لا يحملون هذا اللقب . ولذلك
نجد أن « ونى » كان يقصد بلفظة « إمرا » أى أمراء المقاطعات ؛
وحاملو خاتم ملك الوجه البحرى أى حكام المقاطعات الذين لم ينالوا
بعد رتبة أمير ، فهم بذلك حكام حصون وحاملو أختام ملك الوجه
البحرى فحسب .

وتدل الوثائق على أن السمار الوحيدين للحصون الكبيرة كانوا
حكام مقاطعات الدلتا . أما نواب الحصون فكانوا هم الذين يحكمون
مراكز المقاطعات . وعلى ذلك فإن كل حكام المقاطعات ونواب الحصون
الذين كانوا تحت سلطانهم ، كانوا يظهرون فى الجيش على رأس الفرق التى
جندت من رجال أقاليمهم . وقد كان بجانب الجنود التى جمعت من المقاطعات
آخرون جندهم رؤساء الكهنة أى كبار كهنة المعابد . وذلك أن المعابد كان
لها ضياع عظيمة قد أعفيت من الضرائب منذ نهاية الأسرة الخامسة وقد

كان من نتائج ذلك أن الإدارة العامة للحكومة وحكام المقاطعات ، لم يكن لهم الحق في أن يتدخلوا في شئون هذه الضياع الخاصة . ولذلك كان الكاهن الأعظم يتمتع بالسلطة التي خولتها له الحكومة دون أى تدخل من جانبها ؛ وقد كان الكاهن الأعظم منذ ذلك العهد هو الذى يجند الفرق الحربية من ممتلكاته ويقودها بنفسه للاشتراك مع عامة الجيش .

وأخيرا نجد بجانب هذا الجيش المصرى ، أن مديرى البعث التي كانت توجه إلى بلاد الجنوب ، يحضرون على رأس جنودهم المتحالفة ، المؤلفة من أهالى « إيام » و « إرثت » و « واوات » وكلها أقاليم واسعة في جنوبي الفتين ؛ وكذلك كان قواد الجنود المرتزقة يظهرون على رأس جنودهم .

وإذا اتخذنا نص « ونى » أساسا لحالة الجيش في عهد الأسرة السادسة فانا نشاهد أن شكل نظام الجيش قد تغير تغيرا تاما عما كان عليه منذ عهد الأسرة الخامسة ، إذ لم يعد مكونا من وحدات حربية بإمرة ضباط فنيين ليس لهم أى سلطان مدنى . بل أصبح الآن جيشا إقطاعيا محضا . ولذلك لم تعد الوحدة الحربية هي الفرقة « عبر » بل أصبح الجيش مقسما إلى فصائل « تس » مجموعة حسب تعداد الإقليم الذى جندت فيه وعلى رأسها أمير المقاطعة ، ونائب الحصن أو الكاهن الكبير الذى يحكم هذا الإقليم من الوجهة الدينية . أما جيش المرتزقة فقد بقى تحت قيادة رؤساء مختصين وهم قواد الجنود المرتزقة « إمرأ جس بر » الذين نعرفهم منذ الأسرة الخامسة وقواد القوافل الذين لم يظهروا إلا في عهد الأسرة السادسة . على أن الجيش وإن كان قد أخذ صبغة إقطاعية محضة فإنه مع ذلك كان تحت إمرة الملك مباشرة وكان هو الذى يعين رئيسه الذى

كان أعظم أشرف البلاط مكانة . وتدل نقوش « وني » أن نظام مجلس تموين الحملة كان كما يظهر موكلا إلى « وني » نفسه إذ نجده يفاخر بأنه لم يتم بوضع خطط الحملة وقيادة الجيش فحسب ، بل كان يسهر على حاجته وعلى نظام الجنود حتى لا يسرق واحد منهم دقيقا ، أو نعلا من سائح أو يقتصب ملابس من أية بلدة كانت . على أن الحملة التي نظمها « يبي الأول » وقادها « وني » ، تشعر بأن الملك كان لا يزال في يده وسائل قوية لأن هذا الجيش قد نقل بحرا من مصر إلى سواحل فلسطين مما يتطلب نفقات وتدابير خاصة .

ولم نجد في النقوش أى أثر في عهد « يبي الثانى » ، لجيش إقطاعى جمعه الفرعون ووضعه تحت إمرة قائد معين من قبله ، بل وجدنا أن رؤساء الحملات الحربية في عهد هذا الفرعون وهم مديرو القوافل أى رؤساء جماعات من النحسى (النوبيين) ، قد جندوا من بين الأقوام النوبيين الخاضعين لحكم مصر وبخاصة بين أهل « إيام » ويحيط بهم جنود مصريون . وهؤلاء القواد (إمارا) معروفون منذ حكم « يبي الأول » ؛ ولقد ظهر لقب مدير القوافل في المتون المصرية لأول مرة في نقوش « وني » وسيناء التي تروى قصة بعثة أرسلت في السنة ١٨ من عهد الملك « يبي الأول » ؛ وقد لاحظنا أن موظفيها كانوا تحت إمرة قائد « إمارا مشع » ؛ ويلوح أنهم كانوا في المرتبة التي بعد ضابط البحرية للأسطول ، غير أنهم كانوا أعلى مقاما من كل الضباط الآخرين الذين يرافقون الحملة . ونجد في الجيش الذى وصف لنا « وني » تأليفه فيما سبق أنهم ذكروا مباشرة بعد الأمراء ونواب المقاطعات وقبل الكهنة العظام ومديرى الجيوش المرتزة ؛ يضاف إلى ذلك

أنهم كانوا يحملون اللقب الفخرى « السمير » .

وعثر على نقش ساذج الصنع فى « توماس » من أعمال النوبة السفلى الواقعة عند تفرع طريق القوافل الذى يؤدى من جهة الشاطئ الأيسر للنيل إلى الواحات الكبيرة جاء فيه ذكر ثلاثة بعوث إلى بلاد « إرثت » والأقاليم الأخرى الجنوبية وكان يقود كلا منها « مدير قوافل » . وكان كل من المديرين فى البعثين الأولين يحمل لقب « الرئيس الأعلى لأملاك أوقاف القصر » وفى الحملة الثالثة كان رئيسها يحمل لقب « مدير أملاك أوقاف القصر » زيادة على لقبه الأسمى ؛ وكان مساعده يحمل لقب « مساعد مدير القوافل » . ومن ذلك يتضح أن أمراء القوافل الذين ذكرت أسمائهم على نقوش « توماس » كانوا من الشخصيات العظيمة الذين يحملون أعلى درجات الشرف فى البلاط الملكى .

وفى عهد الملك « من رع » نجد أن مدير قوافل كان مرءوسا فى حملة أرسلت إلى وادى مغارة . ومن ذلك يتضح أن لقب مدير القوافل يدل على وظيفة ضباط مختلفى الرتب . وقد عرفنا من مرسوم دهشور أنه كان يوجد لقب « مدير أعلى للقوافل » كان يمتد سلطانه على أقطار « مجا » و « إيام » و « إرثت » ، ومن المحتمل جداً أنه كان تحت سلطانه عدد من مديرى القوافل وكذلك عرفنا من منطوق هذا المرسوم أن مدير القوافل كان يقود جنوداً من المرتزقة قد جندوا من بلاد النوبة وعرفوا باسم « نحسى » (ربما كانت كلمة النخاسة مشتقة من هذا الأسم) ؛ وكان الملك يمولهم من ضياعه الخاصة حيث كانوا يقطنون ، وكان لهم الحق فى أن يستولوا على جزء من المحصول .

وكان مديرو القوافل يحملون ألقابا فخرية وألقاب شرف وذلك طبقاً للسلطة التي كانت في أيديهم . وقد ذكرنا فيما سلف أن بعض مديري قوافل لا يحملون ألقابا فخرية ، ولكن في نقوش « وني » نجد أنهم كانوا يحملون لقب « السمير » كما نجد آخرين يحملون لقب الشرف « خنت شى » قضية « سبك حتب » (انظر ص ٥٩) نجد أن هذا الرجل العظيم وابنه « تاو » كان كل منهما يحمل لقب « مدير قوافل » مع لقب قريب الملك وراثيا في وقت واحد .

وقد كان مديرو القوافل مكلفين على وجه خاص ، بالقيام ببعوث إلى بلاد النوبة . ومنذ عهد الفرعون « من رع » نجد أمراء قوافل قد استوطنوا الفتين بصفتهن حراس الحدود الجنوبية . ويظهر أن أقدم مدير قوافل في هذه الجهة هو « إرى » من عهد الملك « من رع » ويحمل لقب السمير الوحيد ، ومدير القوافل ، والواقع أنه كان شخصية ممتازة ، عظيم الاحترام لدى الفرعون إذ كان يقوم بوظيفة مرتل في الصلاة الملكية . ومن ذلك يتضح أنه لم يكن من أشرف الأقاليم بل كان موظفًا ملكيا ، وقد خلفه ابنه « حرخوف » ؛ وكان معاصرا للملكين « من رع » ثم « ييى الثانى » . وكان يلقب كذلك مدير القوافل ؛ ولكن نجم سعه قد علا بسرعة إذ قلده الملك أعظم الألقاب التي تدل على حظوته لديه : « المحبوب من سيده » ، « الذى فى قلب سيده » ؛ ثم رقى إلى رتبة أمير ، ونائب الملك فى « نحن » ، هذا إلى أنه كلف بعمل مرتل الفرعون وهى الوظيفة التى كان يشغلها والده .

وقد وكل الفرعون إلى « حرخوف » أمر حماية الحدود الجنوبية فى مصر العليا ولما كان هو حاكم الأقطار التابعة للملك فإنه استوطن فى وسط

جنوده بالقرب من الفتين حيث وجد قبره (انظر جزء أول ص ٣٨٨ الخ) وأشهر مديري القوافل بعد « حرخرف » في الفتين هو « يبي نخت » . والظاهر أنه ابن أحد الشخصيات العظيمة من الأجانب « حكا إيب » الذي وصل إلى قمة المجد ويلوح أنه رقى على ما يظهر بعد والده « بن إديب خو » أمير الفتين .

وقد دفن « حكا إيب » في اسوان ولكن ملاحظه لاتدل على أنه كان مصرياً . فقد مثل على جدران مقبرته محمد الشعر اسمr الجلد وفي منطقته خنجر . وكان بصفته مدير القوافل يقود الجنود المرتزة من النوبيين المسلحين بالقوس والنشاب ويتقدمهم اللاعبون على القيثارة . ولاشك في أنه كان من نسل أحد المرتزة النوبيين ، ولايعد أنه كان رئيس قبيلة دخل في خدمة الجيش المصري ثم أظهر براعة ورقى إلى أعلى درجة في قيادة الجنود المرتزة حتى حصل في النهاية من الفرعون على مقاطعة الفتين ولاية وراثية ؛ وقد بقيت الفتين منذ ذلك العهد إقطاعية لمدير القوافل حتى أتى « محو » ثم ابنه « سبني » وتركاً ظهرياً لقب رئيس الجنود المرتزة ، ولم يحافظا إلا على لقب إمارة الفتين التي وضعتهما في صف أقوى أمراء الإقطاعات المصرية . وتاريخ رؤساء هؤلاء الجنود له أهمية خاصة ؛ إذ نجد أن قدامايم كانوا رؤساء جنود مرتزة . ولم يكونوا أمراء مقاطعات بل كانوا موظفين ملكيين . وكانوا يقومون بحملات في بلاد النوبة في جهة أقاليم « إيام » و « إرثت » و « محو » و « تررس » و « سيثو » و « واوات » وكلها في جنوب الفتين ، ويعودون بثروة طائلة وقد كانوا يسيطون حمايتهم على رؤساء تلك الأقاليم التي كانت تعد بمثابة مستعمرة مصرية . وكانت

جيوشهم مؤلفة من مجندين من أهالى هذه الأقاليم وبخاصة من أهالى إقليم « إيام » ومعهم بعض الجنود المصريين . وهذه الحملات الاستعمارية كانت تقوم بغزوات تأديبية ضد السكان والرؤساء العصاة . وكان لأمراء القوافل أهمية خاصة عند الفرعون . وذلك أنه فى اللحظة التى كانت مصر تتمزق فيها إلى ولايات مستقلة ، وكانت السلطة الملكية تنكش بسرعة ، وكانت فيها موارد التاج تنقص يوما بعد يوم ، كان الملك يحفظ مباشرة تحت حمايته الأقاليم الجنوبية فكان يجيى منها جزية هامة ويمجد منها جيش الجنود المرتزة الذى كان يتألف منه فى عهد « يبي الثانى » آخر نواة الجيش الملكى (على الأقل فى الوجه القبلى) . وتذكر لنا إحدى النقوش التى على صخور الشلال الأول أن الملك « مرن رع » ذهب بنفسه هناك ليتقبل خضوع رؤساء « مجا » و « إرثت » و « واوات » .

ورؤساء المرتزة كانوا أكبر سند لسلطان الفرعون ، إذ كانوا ينصبون أمراء نائبين عن الفرعون فى « نحن » ، ثم بعد ذلك لقبوا أنفسهم أمراء ، وبذلك أصبحوا أمراء مقاطعات وأسياداً لمقاطعة الفتين ، وهى الحصن الجنوبى الذى يحمى مصر ضد غارات الأقوام النوبيين ، ويضمن حماية الطرق التى تؤدى إلى الأقاليم التابعة لمصر . وتدل النقوش على أن رؤساء الجنود المرتزة هؤلاء كانوا من أعظم حكام المقاطعات فى الوجه القبلى فى خلال النصف الأول من حكم « يبي الثانى » .

ولانزاع فى أن أمراء مقاطعة الفتين قد وصلوا الى مرتبتهم هذه عن طريق وظائفهم رؤساء قوافل « إمارعا » . ولم تقتأ النقوش التى دونت تاريخ

حياتهم تذكرنا بالحملات التي قاموا بها للملك في بلاد النوبة وفي جهات بلاد « بنت » ، وكذلك تحدثنا عن شدة البأس والقوة والشجاعة التي بها أخذوا ثورات أهالي « إيام » و « إرثت » و « واوات » و « مجا » . ولقد كانوا دائماً في نضال ، وكثيرا ما كانوا يقومون بمصيان وكان « حرخوف » يتدخل في حروبهم للمحافظة على سلطان الفرعون فكان يساعد فريقا ليقضى على فريق آخر . وقد أخضع « يبي نخت » عدة رؤساء قبائل وساقهم معه أسرى نحت أقدام الملك في منف . هذا إلى أن هذه الحملات كانت منبع ثروة عظيمة إذ أحضر حرخوف من حملة ثلاثمائة حمار محملة بالبخور ، والأبنوس والعاج وكل المتبجات الطيبة كالثيران والحيوانات الصغيرة . وكان كل من « حرخوف » و « يبي نخت » يفتخر بأنه حمل إلى الملك جزية أقاليم الجنوب ؛ على أن المركز الذي كان يشغله ، أمراء الفنتين عند الحدود الجنوبية لمصر باعتبارهم رؤساء طوائف المرتزقة جعلهم الأسياد الحقيقيين للأقاليم الجنوبية . وكان كل منها فوق ذلك يلقب « برئيس أسرار كل حدود الجنوب على حين أن « يبي نخت » و « سبني » كان كل منهما فضلا عن ذلك يحمل لقب مدير الأقطار الأجنبية .

والحقيقة أن إدارة الجيش الملكي والأقطار الأجنبية الجنوبية أصبحت في أيدي رؤساء المرتزقة الأقدمين الذين أصبحوا أمراء المقاطعة (الفنتين) وقد بقوا رغم ذلك الحلفاء المخلصين للملك ولكن عند ما تحولت ولايتهم إلى مقاطعة وراثية تقلص سلطان الفرعون عليهم وبذلك انتزعوا من يد التاج البقية الباقية له من السلطان الفعلي ، إذ تلاشى على نفوذ جيش المرتزقة مما قضى على الدخل الذي كان يجنيه الفرعون من ممتلكاته الأجنبية بقوة هذا الجيش .

الجيش فى العهد الامناسى

كانت حروب مصر فى عهد الدولة القديمة ضد اللويين فى الشمال الغربى من حدودها ، والنويين فى الجنوب وبدوسينا فى الشرق ؛ تختلف اختلافا يّنا عن حروب الشعوب المجاورة لها كأمم غرب آسيا ، إذ كانت الاخيرة تشن الغارات للحصول على القوت أو لاستغلال الأراضى . أما حروب الفراعنة فكانت فى هذه الفترة ، لصد غارات القبائل المجاورة وتأديهم ؛ أو للحصول على غنائم . ولاشك فى أن مصر كانت القاهرة المنتصرة فى هذه الحروب ، بسبب تقدمها فى الحضارة ، ومالديها من الأسلحة وحسن نظام فنونها الحربية ؛ التى كانت تفوق بكثير جيرانها الذين كانوا لايزالون على الفطرة فى كل مرافق الحياة . وكان يفوق مصر رغم تنظيم جيوشها وما لديها من عدد القتال ، شعوب غربى آسيا ، وقد بقيت تمتاز عنها فى هذه الناحية ، حتى بداية عهد الدولة الحديثة كما سنفصله فيما بعد .

فى أواخر عهد الأسرة السادسة ، انهار آخر سلاح للملك فى صعيد البلاد ، وذلك بانحلال جيشه من المرتزة ، وتفكك سلطانه بقيام الإمارات المستقلة . والظاهر أن الفرعون كان لايزال محتفظا ببعض السلطان فى بلاد الدلتا . ولكن على وجه عام ساءت الأحوال فى جميع البلاد ، وانهز الأسويون هذه الفرصة ، وعزوا البلاد وخرّبوا الدلتا تخريبا ذريعا ؛ واستوطنوا البلاد كما تدل النقوش على ذلك . وقد سادت الفوضى فى مصر خلال الأسرتين السابعة والثامنة ، حتى أننا لم نقف على حوادث ثابتة فى هذه الفترة يمكن الاعتماد عليها من الوجهة التاريخية ، ولكن سلطان حكام

المقاطعات ، والبلاد العظيمة ؛ كان لا يزال قائما .

وقد أُنقذ البلاد أسرة ملوك هرا كنبوليس (إهناس) في مصر الوسطى فكان أول عمل قاموا به على ما يظهر ، أنهم طردوا الغزاة ، وقاموا بتحسين الحدود المصرية (1) وبخاصة في الدلتا واتخذوا تدابير فعالة في الشمال الشرقى ، بتأسيس مدن صغيرة محصنة ؛ تبتدىء من الحدود عند طريق « حور » (بين القنطرة والقازم) ثم على طول نهر النيل ، حتى منطقة المنيا الحالية في مصر الوسطى . وقد جاء بعدهم « امينحيت الأول » الذى فكر فى تقوية هذه المعاقل ، وتدلنا الآثار على أنه بنى حصنا أطلق عليه « جدار الملك » فى وادى طميلات . ولم تكن هذه الحصون قائمة لحماية حدود الدلتا فحسب ، بل كانت فى الوقت ذاته لمراقبة القبائل السامية من الأقوام الرحل الذين كانوا مسلمين ، ولكنهم كانوا يجولون بين السويس ومصر الوسطى . ولا أدل على قيام هذا النظام فى عهد فراعنة الأسرة الثانية عشرة وضرورته لهم من أنهم عهدوا إلى أمراء المقاطعة السادسة عشرة بحراسة الباب الشرقى ولقبوا أمراءه بلقب حاكم الصحراء الشرقية (2) .

وقد دلنا النقوش على أن اليقظة كانت شديدة ، والحراسة ساهرة فى هذه المعاقل ؛ إذ يقول لنا « سنوهى » عندما فر من معسكر الجيش موليا الأدبار : « ثم أسلمت الطريق إلى قدمى متجها نحو الشمال ووصلت إلى « جدار الأمير » الذى أقيم لصد الأسيوين . وقد خبأت نفسى فى شجيرات خوفا من أن يرانى حارس النهار فوق الجدار ، وعند الغروب مررت ، ولما طلع فجر النهار كنت قد وصلت إلى « يتن » ووقفت عند جزيرة « قور »

(1) Erman, Literatur, (Sinuhe) p. 42. & 157. (2) A. Z. S, 65, p. 108.

(اسم للبحيرات التي عند برزخ السويس) .
وكذلك عند عودة « سنوهى » إلى مصر وجد نفس اليقظة إذ قال :
« ثم سرت نحو الجنوب ووقفت عند ممرات « حور » (على حدود مصر ، على
الفرع البلوزى للنيل ، ومنها كانت الجيوش المصرية تتحرك للغزو) . وأرسل
القائد الذى كان مكلفا بالحراسة هناك رسالة إلى مقر الملك تحمل الاخبار ،
فأرسل جلالة أحد ملاحظى الفلاحين ممن يثق بهم ، ومعه سفن محملة
باهدايا من الفيض الملكى للبدو الذين تبعونى وأرشدونى إلى ممرات
« حور » ، وقد ناديت كلا منهم باسمه (لكى يقدمهم إلى الموظفين
المصريين) . ولدينا كذلك لوحة معروفة فى مقابر أمراء بنى حسن تمثل جماعة
الساميين الرحل وقد أتوا إلى مصر بهدايا هى التى خولت لهم اجتياز
الحدود ، وهذه اللوحة تضع أمامنا صورة واضحة لدقة الحراسة ، وحسن
النظام ؛ فنشاهد فيها أن الذى يتقدم الجماعة هو الموظف الذى نراه دائماً فى
كل مناسبة ، وهو كاتب ملفات الفرعون . وهنا يقدم ياناً عن سبعة وثلاثين
أسيوياً ، ثم نرى بعد ذلك رئيس الحامية ، وهو الموظف المسئول ويحمل
لقب رئيس الصيادين .

ولقد عثر كذلك على لوحة من عصر الدولة الوسطى ، وهى الآن فى
متحف برلين ، لموظف آخر يحمل لقب رئيس الصيادين ، وفى الوقت نفسه
يلقب بمدير الصحراء الغربية^(١) وفى هذه اللوحة وصف مختصر لنشاطه ،
ويقظته بوصفه رئيساً للمرور والشرطة فى هذه الجهات فيقول : « لقد
وصلت إلى الواحات الغربية ، وفحصت كل أطرافها ، وأحضرت الهاربين

(1) El Bersheh, II, pl. 13. Cairo, 20539. L. 16.

الذين وجدتهم هناك ، ولقد ظل كل جنودى سالمين ، ولم ، تحدث أية خسائر فى الأقس بينهم » . يضاف إلى ذلك أننا نجد فى وصف البعوث التى كانت ترسل إلى وادى حمامات فى عهد الأسرة الحادية عشرة ؛ أن الصيادين كانوا فى الواقع كطلائع للبعوث . ولا شك فى أنه كانت تحت إمرتهم القبائل التى تسكن الصحراء كالعبادة والبشارين فى وقتنا الحالى .

ومما يدل على مقدار الهمة والنشاط واليقظة التى بذلها ملوك الأسرة الثانية عشرة ، ووسائلهم الناجعة فى تحصين مصر ما قاموا به من تحصين حدودهم الجديدة فى الجنوب ، إلى ما بعد الشلال الثانى بإقامة القلاع فى كل بلاد النوبة ، إلى جزر « بجه » و « الفتين » حتى تمكن مراقبة جميع الوديان والسبل الموصلة إلى وادى النيل . وقد بقى هذا النظام قائماً حتى عهد الدولة الحديثة أما داخلية البلاد ، فكان التحصين فيها قد أوقف ؛ منذ القضاء على عهد استقلال المقاطعات فى عهد الأسرة الثانية عشرة . والواقع أن عواصم كل المقاطعات كانت محصنة بقلاع ، وذلك لصدد غارات جاراتها إذا اعتدت إحداها عليها . ولقد كان هذا النظام بعينه متبعاً فى غربى آسيا حيث كانت كل عواصم المدن الكبيرة محصنة تحصيناً قوياً ، على أنه كان لمصر الملك والمعابد جدران تحيط بها ، ولكنها كانت تقام لأسباب أخرى اقتصادية وقانونية . إذ كانت تعد فى هذا الوقت معفاة من الضرائب .

الخدمة العسكرية : وقد كانت الخدمة العسكرية كما ذكرنا فى عهد الدولة القديمة ، خدمة إجبارية بطريق التجنيد . فكانت كل مقاطعة بما فيها المعابد وما تملكه يجند منها الجنود ليعملوا فى قطع الأحجار أو للقيام بغزوات فى الجهات التى تظهر فيها أية ثورة أو عصيان ، أو لمحاربة أمراء المقاطعات ،

ولا نعرف القاعدة التي كانت متبعة في التجنيد في البلاد ، والظاهر أنها موكولة للأحوال ، وقد عثر على لوحة من عهد الأسرة الثانية عشرة ، تلقى بعض الضوء على مقدار نسبة المجندين في هذه الفترة ، وإن كان ما جاء فيها لا يعد مقياساً يمكن اتخاذه قاعدة . وهذه اللوحة تخبرنا أن الإبن البكر لأحد الملوك كان كاتباً للجنود عند تجنيده بإحدى فرق إقليم طينة ، وأنه كان يأخذ المجندين بنسبة $\frac{1}{10}$ من الرجال . (1)

وتدل كل الأحوال أن النظام كان سائداً ، في فصائل الجنود الحربية ؛ منذ عهد الدولة القديمة . هذا إذا اتخذنا ما وجدناه على آثار هذه الفترة مقياساً ؛ إذ عثرنا في الرسوم التي على جدران الطريق الجنائزى لهرم الفرعون « وناس » أن كل فصيلة من الجنود كانت تحت إمرة ضابط معين ؛ فكان من بينهم ضابط الخمسة ، وضابط العشرة ، وقد ظن بعض المؤرخين أن هذا النظام لم يظهر إلا في عهد الدولة الحديثة ، على أن نماذج الجنود التي عثر عليها في مقابر جبانة أسيوط ؛ تشير بأن مثل هذا النظام كان متبعاً في تلك الفترة أيضاً . ولا غرابة في ذلك فإن الروح الحربية في هذا العهد الذي بلغ فيه نظام الأقطاع أوجه كانت شديدة نامية ، ويرجع السبب الحقيقي في ذلك إلى الحروب التي كانت متفشية بين حكام المقاطعات أنفسهم ، أو بينهم وبين الفرعون ، وذلك للاستيلاء على أراض زراعية ، من الأراضى التي يرويها ماء النيل . ولا غرابة إذا كنا في خلال الاسرتين التاسعة والعاشر نجد نقوشاً هامة في مقابر أسيوط ، عن أخبار الحروب الطويلة التي نشبت في هذه المدة ، ولعب فيها أمراء أسيوط دوراً هاماً ،

(1) Erman & Schäfer. A. Z. S. t. 38 p. 42.

بجانب الفرعون وكذلك نجد رسوما تدلنا على مبلغ تنظيم الجيش ، وفرقه وتسليحه هذا ؛ إلى أننا نجد في مقابر الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة في بنى حسن والبرشا وغيرهما مناظر تدلنا على اعتناء القوم بتمرين الشباب على الألعاب الرياضية ، وكذلك على مناظر تمثل مواقع حربية ، وحصار الحصون والقلاع وغير ذلك مما يدل على انتشار الروح الحربية . ولا شك في أن كل هذا كان موروثا عن الدولة القديمة ، فقد وجدنا مناظر تشبه ذلك في هذا العهد ، وبخاصة التمرين على الألعاب الرياضية (مقبرة « تي ») . وقد جادت الصدف بأن عثر في عام ١٨٩٥ على بعض نماذج من الجنود مصنوعة من الخشب في إحدى مقابر علية القوم في جبانة أسيوط ،

وقد شوهد فيها أن الضباط كانوا مميزين عن الجنود بوضعهم على حوامل كل منفصل عن الآخر (١) .

وهذه المجموعة من النماذج تنقسم إلى قسمين ، فالتى على اليمين تمثل مشاة الصف ، وحاملى الحراب . والتى على اليسار تمثل المشاة الخفاف والرماة . ويلاحظ أن هؤلاء الجنود قد مثلوا سائرين صفا صفا ، كل صف مؤلف من أربعة جنود عرضا وعشرة جنود طولا . ويشاهد أن حاملى الحراب . برغم أنهم لم يجهزوا بعدة واحدة مشتركة لكل الجنود كان ارتفاع قامة كل جندي منهم فوق المتوسط . أما لونهم الأحمر فقيم عن أصلهم المصرى الصميم ويضعون على رؤوسهم شعرا مستعارا قصيرا يقوم مقام القبعة وكان فى الحقيقة يحمى الرأس من ضربات العدو ، كما كانوا يلبسون على أجسامهم

(1) Grebaut. Musée Egypt. I, pl. 33-36, & Klebs, Reliefs, Nr. p. 154.

قيصاً قصيراً من النسيج الأبيض مشدوداً على وسط الجندى بشريط رفيع مكشوف بعض الشيء من الأمام ومسدول على منتصف الجسم حتى منتصف الفخذ فيه كيس مدلى ليستر عضو التناسل .

أما الرماة فكانوا خليطاً من المصريين واللوبيين الذين جندوا من بين القوم الذين يعيشون على حافة الصحراء ، وهم في الغالب أقصر قامة من حاملي الحراب ؛ ويلاحظ أن بعضهم كان غاية في القصر ، وكان بعضهم يرتدى على رأسه القبعة التي يلبسها حاملوا الحراب ، وبعضهم يلبس شعرا مستعاراً مختلفاً وبخاصة أصحاب الشعر المجعد الذي مثل مصفوقاً فوق بعضه . أما ملابسهم فكانت لا تتعدى شريطاً أبيض من النسيج مثبتاً على وسط الجندى بحزام من الجلد يتدلى منه شريط آخر مزين بألوان ، ويستر عضو التناسل . وهؤلاء القوم كان لون بشرتهم يميل إلى السمرة المائلة إلى السواد وهذا يرجع إلى فعل تأثير الشمس .

ويتسلح الجنود المشاة بحربة وخنجر ودرع ؛ ويبلغ طول الحربة قامة الرجل المتوسط الطول أي نحو ٧٠ سنتيمتراً ، وتنتهى كل حربة بسلاح مدبب على شكل ورقة الصفصاف ، وكان الجندى يحمل الحربة مرفوعة إلى نصفها وقت المسير ، ويكون جسم الجندى مع ذراعه الذي يقبض على الحربة زاوية قائمة . أما الدرة فشكلها مستطيل من أسفل ، ومقوس من أعلى ، ومادتها خشب خفيف كسى سطحه الظاهر بجلد ثور حيك بسير من الجلد ، وكانت تلون رقعة الدرة باللون الأبيض ثم تزين برسوم مختلفة ، ولا يوجد للدرة إلا مقبض واحد من الخشب مثبت في وسطها الداخلى حتى ثلثي ارتفاعها . وكان الجندى يحملها بذراعه المنعطف نحو الجهة اليسرى

وقت المسير؛ أما في ساعة الحرب، فكان يستعمل حربته ودرقه كأهالي قبائل إفريقية الذين لا يزالون يستعملون نفس هذا السلاح . فكانت الدرقه توضع أمام الجندى كأنها جدار متحرك ، وكانت تخفى الجزء الأعلى من فخذه ، والجزء الأسفل من البطن والصدر والكتفين ؛ أما الجزء المقوس منها فكان يمكن الجندى من أن يرى منه خصمه ، ويتتبع حركاته بكل دقة ، مع أنه كان يغطى وجهه في الوقت نفسه . أما الحربه فكانت ترفع إلى محازاة ارتفاع الرأس ، مع انحناء طرفها قليلا نحو الأرض . وكان لا يستعملها الجندى كما تستعمل الآن ؛ بل كان يجعلها تتزلق بين أصابع يده عند الطعن بها لتتطلق كما ينطلق المزارق ، ثم لا يلبث أن يقبض يده عليها قبل أن تصل إلى نهاية مقبضها وذلك ليذك الضربة ويجعلها تنفوس في جسم العدو .

أما الرماة فلم يكن لديهم من آلات الحرب إلا القوس وبضعة سهام لا تتجاوز الأربعة . وقد ذكرت لنا قوائم القرايين المائتية في الدولة الوسطى أنواعا عدة من الأقواس بأجهزتها ؛ وهذه القائمة تحدد لنا بصفة قاطعة معنى العلامة الهيروغليفية التي أراد بعض الأثريين أن يروا فيها المقلاع . والواقع أنها حبل قوس ؛ أى كان مصنوعا من خيوط من الجلد المجدول ، أو من ليف أو كتان أو قنب ، أو الشعر المجدول . أما حزمة السهام التي نجدها في غير هذا المكان فموضوعة في جلد ثعبان أو جلد أو قطعة من التسيج أو الكتان ؛ أما الكنانة فيقال إنها لم تستعمل إلا في عهد الهكسوس ، وذلك لأنها من أصل أسيوى ، كما يدل على ذلك اسمها . أما السهام فأطرافها مصنوعة من الظران وهي حادة في الغالب ؛ وكذلك كانت تصنع من

النحاس ، وهذا يبرهن على أن النحاس والظران كانا يستعملان معا رغم وفرة الأول ومئاته .

ولانزاع في أن السبب في وجود مثل هذه الجيوش المنظمة في المقاطعات ؛ هو قيام الاضطرابات التي استمرت عشرات السنين في داخل البلاد بين الامراء أنفسهم وبين الفرعون كما أوضحنا ذلك في حينه عند الحروب التي كانت منتشرة في طول البلاد وعرضها في تلك الفترة ، ولذلك كان يرى كل أمير مقاطعة عظيمة أنه لا يمكنه الاحتفاظ بكيانه إلا بتأليف جيش يعتمد عليه من أتباع مخلصين من المصريين وغيرهم من النوبيين واللويين ، والساميين الذين كانوا يتخذون هذه المهنة حرفة لهم ، حتى أن أحد حكام المقاطعات ، كان يفخر بأن جنوده على أحسن ما يكون من شدة العناية بالأهلين ، والأمن في إقليمه . إذ يقول : « وجاء الليل وكان كل سابل في أثناء الليل يشكرني ، لأنه كان آمنا كمن كان في منزله لأن رهبة جنودي قد حمته . »

على أن هذا الخليط من المجندين لم تجمعهم جامعة الوطنية بل جمعهم رابطة المنفعة المحضة ، فاذا تراخى أمير المقاطعة في إطعامهم أو ملاحظتهم عاثوا في الارض فسادا ، والنصوص القليلة التي ورثناها للآن عن هذا العصر تمدنا رغم قلتها بمعلومات لا بأس بها عن حالة هذه الجيوش في هذا الوقت المضطرب ، وترينا أنها كانت أحيانا كابوسا جاثما على الأهلين وذلك إذا ما غفل عن راحتها ولي أمرها .

ومن أجل ذلك نجد أن ابن حاكم مقاطعة هرموبوليس (الاشمونين في هذه الفترة) كان يفاخر بأنه حمى الأقليم من ظلم الجنود (محاجر حتوب) .

وقد كان طبعيا أن تكون هذه الجيوش الإقطاعية سندا للملك الحاكم عند قيام أى حرب ، ولكنها فى الوقت نفسه ، كانت دافعا لحاكم المقاطعة لإعلان العصيان على سيده عندما تسنح له الفرصة اعتمادا على ماله من قوة وسلطان .

ولهذا نرى أن بعض الحكماء يحذرون من ذلك فيقولون : « لا يداخلك ⁽¹⁾ الكبر اعتمادا على ماله من قوة يمثلها جنودك ، واحذر أن تشور ، فإن المرء لا يعلم ماذا يحدث وماذا يفعل إلا له (الملك) ليأقبك » ولكن بجانب هذا نرى أن أحد حكماء هذا العصر ينصح الملك بلجاجة أن يضع نصب عينيه سلامة جيشه والاستعاضة حالا عن يقد منهم : « وافق على ⁽¹⁾ العلاوات التى تمنح لرجال حرسك حتى يجدوا الكفاية من المأكّل وأعطهم الأرض ليستغلوها ، ويجب أن تكون فيها ماشية » . ومن ذلك نفهم أن احتياطي الجيش ، قد نظم على شكل مستعمرات فكان كل جندي يأخذ من سيده مقدارا معينا من الأرض ليعيش هو وأسرته من ريعه ؛ والظاهر أن هذا النظام قد بقى متبعا فى البلاد طول حكم الفراعنة بل والإغريق ؛ وفى القرن الخامس قبل الميلاد ، كان كل جندي يملك نحو سبعة أفدنة ونصف فدان من الأرض الصالحة ، ويعد أنه يعيش فى رغد من العيش . وتنسب الأساطير إلى « سوزستريس » الخرافى « سنوسرت الثالث » ؛ القانون الذى حدد به هذا المقدار من الأراضى ؛ ولم يكن يفرض على الجنود ضرائب ، وكذلك كانوا معفين من كل سخرة أثناء تأديتهم وظيفتهم فى ساحة القتال ، وفى غير هذا كانوا كباقي أفراد الشعب ، وقد

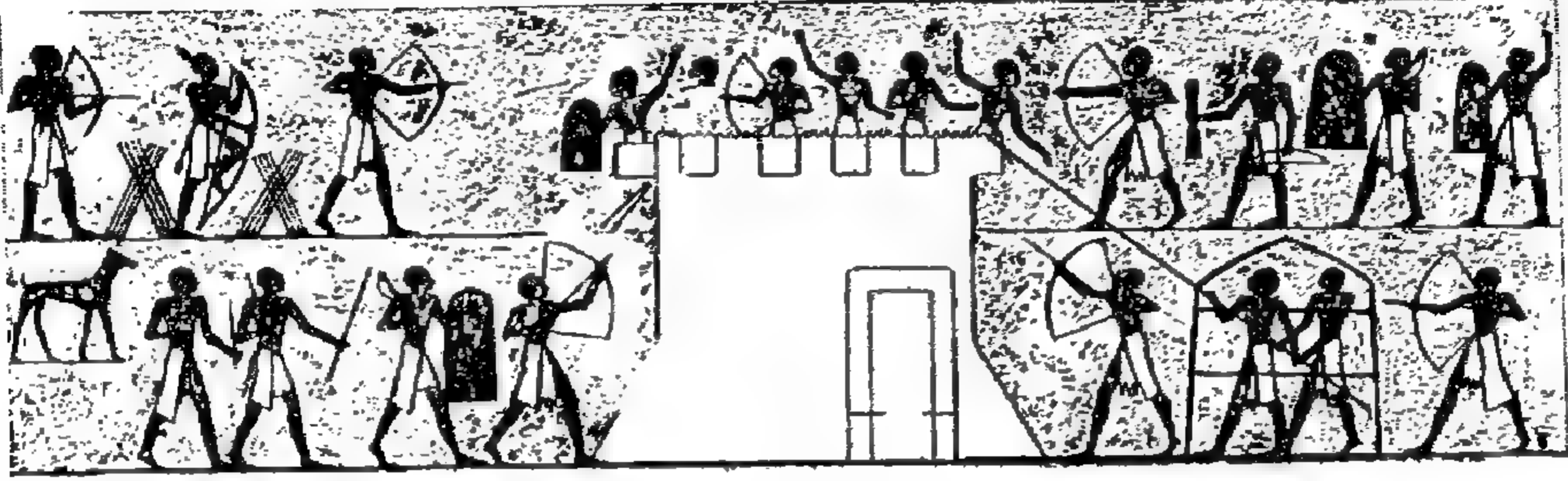
(1) Pap. Petersburg, 1116A; et ed. Gollenischeff L. 60.

كان الكثير منهم لا يملك أية ثروة أخرى . فكانوا بذلك يعيشون عيشة الفلاح المتقلبة فيفلحون الأرض ، ويحصدونها ، ويرعون ماشيتهم ما بين كل حرب وأخرى . أما أصحاب اليسار منهم ، فكانوا يؤجرون نصيبهم من الأقطان بأجر معتدل مما كان يزيد في دخلهم الذى ورثوه عن آبائهم ؛ وفى ذلك يقول « ديدور الصقلى » « كان الفلاحون يقضون حياتهم فى زراعه الأراضى استأجروها بأجور معتدلة من الملك أو من الكهنة « أو من الجنود المحاربين » ولما كان يخشى نسيان هؤلاء الجنود الشروط التى تملكوا بها هذه الأراضى ، أو أن يعتبروا أنفسهم ملاكا حقيقين كانت لا تترك نفس قطع الأرض فى أيديهم مدة طويلة إلا ماندر . وقد أكد هردوت أن أنصبتهم كانت تؤخذ منهم كل سنة ، ويعطون غيرها فى مثل مساحتها وإنه لمن الأمور الصعبة جداً أن نعتقد دوام استعمال قانون تغير الأراضى هذا ، غير أن هذا لم يمنع طبقة الجنود أن يكونوا من أنفسهم فئة أرستقراطية فيما بعد . ولم يكن فى مقدور الملوك وأمراء المقاطعات التفاضى عنها ، وكانت تدون أسماؤهم فى سجلات خاصة ، مع بيان ممتلكات كل واحد منهم فى وقته ؛ وكان هناك كاتب حربى خاص بهذا السجل فى كل مقاطعة ملكية أو ولاية إقطاعية وكانت وظيفته توزيع الأراضى ، وتسجيل الامتيازات ، يضاف إلى ذلك أنه كان فى زمن الحرب يقود الجنود الذين كانوا يجندون من الإقليم الخاص بسجله ، وفى هذه الحالة ، كان له مساعد يقوم نائباً عنه فى الحرب إذا قضت الضرورة بذلك .

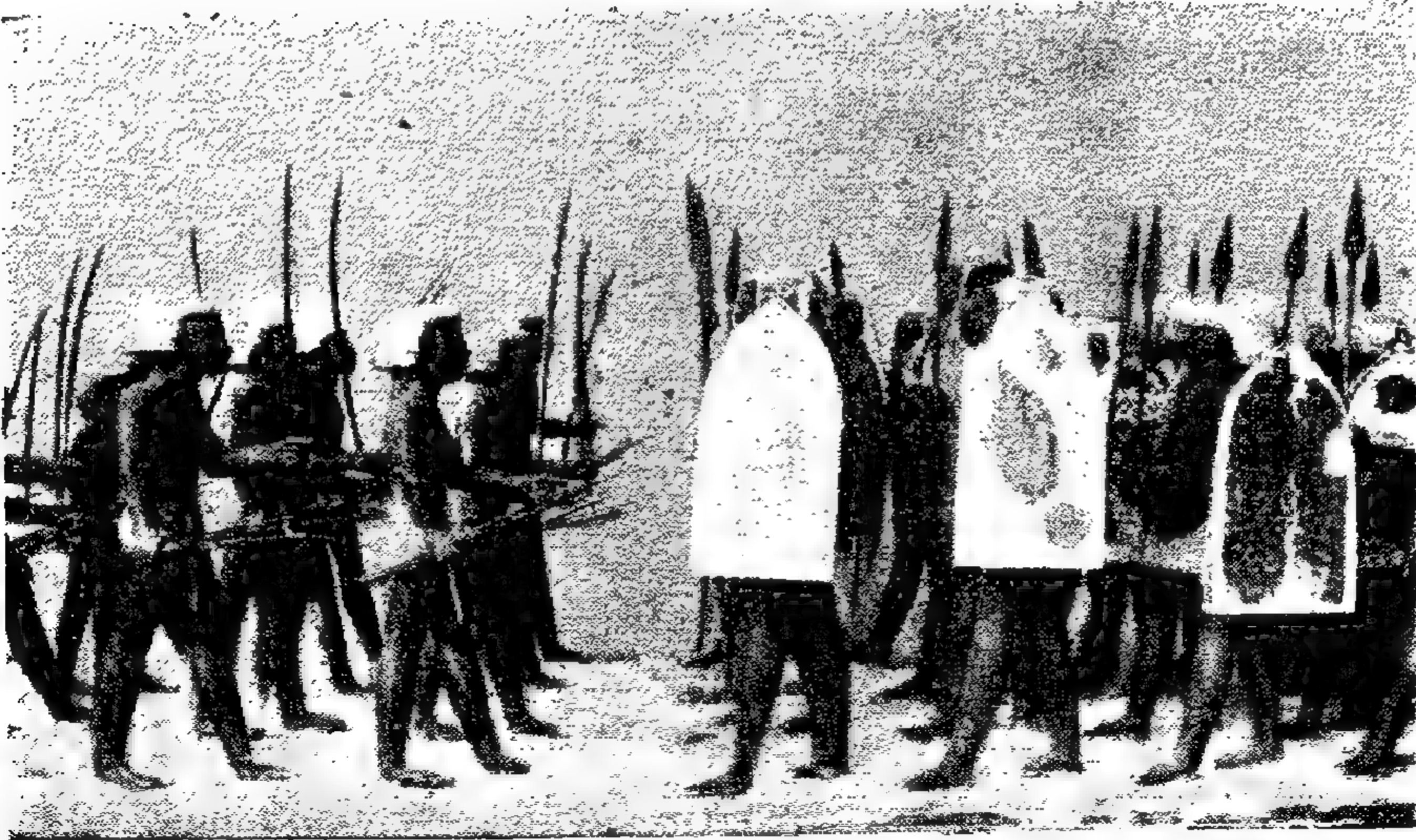
ولم تكن الخدمة العسكرية وراثية ، ومهما ظهرت فوائدها ضئيلة فى نظرنا فإنها كانت فى أعين الفلاحين عظيمة ، فى حين أن معظم الذين

أدوها ، كانوا يخرطون أولادهم في سلكها . وقد كان يؤخذ المجند وهو صغير السن إلى التكنات حيث كان يتعلم كيفية الرماية بالقوس والنشاب ، واستعمال بلطة الحرب ، والدبوس ، والحربة والدرقة ، وكذلك كانوا يتمرنون على الألعاب الرياضية التي تجعل الجسم مرناً ، وتدريبهم على فنون الحرب والسير العسكري ، والكر والفر والقفز ، والمصارعة بأيديهم مفتوحة أو بالمللأكة ، وكانوا يعدون أنفسهم للموقعة على شكل رقص حربي منظم أو بالوثب واللف ، والتلويح بالقوس والنشاب في الفضاء ؛ وعند الفراغ من تعلمهم كانوا يدمجون في الفرق المحلية ويمنحون امتيازاتهم ؛ وعند ما تكون الحاجة ماسة إلى أحد منهم ، كان يطلب بعضهم أو كلهم للانخراط في سلك الجيش ، وكانت الأسلحة التي في بيت السلاح توزع عليهم ، ثم يحملون في سفن إلى ميدان القتال ، ولم يكن المصري في هذه الفترة بطبعة حرياً لأن الحاجة لم تكن ماسة إلى ذلك ، ولأنه كان بطبعه زارعاً .

والواقع أن العصر الأهناسي هو أول مظهر من مظاهر النشاط والرجولة الحربية التي أخذت تنمو في البلاد تدريجاً ، وكان النواة التي نشأ منها جيش مصر من رجال مدربين بالوراثة وهم الذين كان من نسلهم الجنود الذين أسسوا ملك « أمنمحيث » وقاموا بحروب « سنوسرت الثالث » في بلاد النوبة ، وطرّدوا الهكسوس من مصر وتوغّلوا في آسيا حتى دجلة والفرات بقيادة « تحتمس الثالث » .



المجوم على حصن مصرى بجنود مسلحين بأسلحة مختلفة



جنود مسلحون من الهد الاقطاعى (أنظر ص ٤٩٣)

مصادر عن الجيش في عهد الدولة القديمة والعهد الاقطاعي

لم تصلنا وثائق عن الجيش في عهد الدولة القديمة حتى الآن وكل ما لدينا ينحصر في الألقاب والوظائف الخاصة بالأُمور الحربية وهذه وفيرة جداً، وبخاصة في عهد الأسرتين الخامسة والسادسة؛ ومنها أمكننا أن نكون هيكلاً لنظام الجيش في هذا العهد؛ وقد ساعدنا على ذلك بعض الرسوم التي عثر عليها في المعابد الجنازية. أما في العهد الإقطاعي فقد اسعفتنا الرسوم التي عثر عليها في مقابر أمراء المقاطعات تعززها الكتابات التفسيرية والمواقع البحرية والبرية التي حدثت في تلك الفترة.

على أنه من جهة أخرى لم تجمع كل المعلومات التي وردت في المتون المصرية عن الجيش بطريقة منظمة سلسلة يمكن بها تتبع تدرج الجيش والانتظمة الحربية في هذين المهدين اللهم إلا بعض تف متفرقة مبعثرة في كتب التاريخ وغيرها وأهمها ما يأتي :

(1) Kees, *Ægypten* : p. 227-242.

فحص الأستاذ كيس في هذا الفصل نظام الجيش المصري وأسلحته والحصون والقلاع بصفة عامة في مختلف العصور.

(2) Pirenne, *Histoire des Institutions de l'ancienne Egypte*. 3 Vol.

أهم ما يلفت النظر فيما كتبه الأستاذ بيرن عن الجيش في عهد الدولة القديمة أنه جمع كل الألقاب والوظائف ومنها أمكن استخلاص بعض حقائق غاية في الأهمية عن الجيش ونظمه في تلك الفترة الغامضة في تاريخ الحروب المصرية.

(3) Erman- Ranke, *Ægypten und Ægyptisches Leben*. p.p. 620-657.

كتب الأستاذ إيرمن مقالا عن جيش مصر وحروبها في مختلف عصور تاريخها القديم. غير أنه لم يذكر لنا شيئا كثيرا عن الجيش في عهد الدولة القديمة إلا أشياء طفيفة جداً.

(4) Maspero, The Dawn of Civilisation, p.p. 305, 306, 307, 452, 450-3.

تكلم الأثرى العظيم مسبرو عن الجيش عامة في كتابه هذا ونظامه وذكر ما كتبه هردوت وغيره من المؤرخين الأقدمين وعن بوصف الحصون في ذلك العهد، والجيش الإقطاعية ونظامها وعددها وأسلحتها.

(5) Bonnet, Waffen der Volker des Alten Orients, p. 70, 92, 135, 210.

تكلم هذا المؤلف عن الأسلحة التي كانت تستعمل في الشرق القديم عامة، وكتب عن مصر في جهات متعددة ووصف الأسلحة التي كانت مستعملة في مصر في كل عصورها القديمة.

(6) Wolf, Bewaffung des Altägyptischen Heeres.

يعد هذا الكتاب أحسن ما كتب عن التسليح في مصر قديما وقد عنى المؤلف برسم كل الآلات الحربية التي استعملها المصري القديم في كل عصور تاريخه. وقد ذكر لنا شيئا كثيرا عن الآلات الحربية في عهد ما قبل التاريخ وعهد الدولة القديمة.

(7) Grebaut, Musée Egyptien, pl. 33-36; & Wreszinski, Atlas, II pl. 15; Klebs, Reliefs MR. p. 154 f.

نجد في هذه المؤلفات مناظر للجيش في العهد الإقطاعي. هذا ونجد كثيرا من المعلومات وبخاصة الألقاب في المتون التي جمعها الأستاذ زيته عن الجيش في عهد الدولة القديمة في كتاب أركندن Urkunden عن الدولة القديمة.

(8) Breasted, A History of Egypt. p.p. 63, 84, 134-35, 153, 167-68.

أشار الأستاذ برستد في كتابه عن تاريخ مصر إلى الجيش في عهد الدولة القديمة بدون توسع وكذلك لمح عن وجود جيش قائم في عهد الدولة الوسطى).

الأسره فى عهد الدولة القديمة

نظام الفردية فى عهد الأسرتين الثالثة والرابعة

أقدم الوثائق التى تنبئ عن كيفية تأسيس الأسرة المصرية يرجع
عهدا إلى عصر متون الأهرام؛ إذ قرأ فى قهوشها أن الكهنة المصريين
القديما عند ما أرادوا أن يمثلوا للشعب تكوين العالم مثله فى صورة مما
يحدث أمام أعينهم، ويقع تحت حسهم وأضفوا عليها ثوبا دينيا عليه مسحة
من الغموض والرهبنة وإن كان فى أصله لا يخرج عن دائرة الحس والمحسوس .
لذلك يقول علماء اللاهوت فى أصل العالم إنه كان يطفو على سطح المحيط
الأزلى (نون) بيضة خرج منها الإله آتوم وهو المسيح فى التوراة والإنجيل
والقرآن آدم عليه السلام . ثم قص علينا الأسطورة أن الإله « آتوم »
وفى رواية أخرى الإله « رع » عطس وتقل قنشا من ذلك ذكر وأتى
وهما الإله « شو » (ولفظه يمثل صوت العطس) إله الفضاء ، والآلهة
« تفت » (وتمثل صوت التفتة) وهى إلهة الندى . ثم تناسل هذان الإلهان
« جب » إله الأرض « ونوت » إلهة السماء وكانت السماء والأرض رقعا
ثم فتقا . ثم كان منهما نسل فرزقا الإله « أوزير » والإله « ست » ثم
الآلهتين « إزيس » و « نفيس » . ويمجد الباحث فى الديانات المختلفة ما يشبه
ماورد فى هذه الأسطورة . وقد جاء فى أقاصيص المصريين أن العالم كان
يحكمه الآلهة قبل أن يحكمه بنو البشر ، وينسبون ملوك مصر إلى سلسلة النسب
الإلهى الذى ذكرناه آنفا .

وتدل متون الأهرام على أن الآلهة كان يرث بعضها بعضا كبنى

نظام الاسرة حسبما
جاء في متون الاهرام

البشر. وثبت ذلك من نصوص الأهرام إذ جاء فيها ما يأتي : — (1) « يا أوزير أنت ابن « جب » الأكبر وبكره وورثته ثم يقول : « إنه ابني وعزيزي وأول من ولد لي وهو الذي يجلس على عرش « جب » وهو الذي قد ارتاح إليه « جب » وهو الذي أعطاه ورثته أمام التاسوع الإلهي العظيم » . ومدلول هذا المتن يقرر بصراحة نظاماً للأسرة يظهر فيه الابن الأكبر بأنه هو وارث والده بعد وفاته ، وإن كان لا يمكن بالضبط أن تقرر في أي عصر أصبحت متون الأهرام معمولاً بها . ومهما يكن من شيء فإن بعضها يرجع إلى عصور سحيقة أعرق في القدم من عهد بناء الأهرام التي نقش عليها ، وبعضها حديث كتب في عهد بناء الأهرام ، من أجل ذلك يتعذر اتخاذ هذه المتون أساساً لمعرفة بداية تكوين الأسرة في عهد الدولة القديمة . وأقدم وثيقة شرعية وصلت إلينا لها علاقة بمحقوق الأسرة هي ترجمة حياة العظيم « متن » (2) الذي عاش في عهد أواخر الأسرة الثالثة وبداية الرابعة وهو ابن « إنبوإم عنخ » الذي كان موظفاً قضائياً ، أما أمه فتسمى « نبسنت » والمطلع على تاريخ حياة هذا الرجل العظيم يجمع معلومات هامة جداً عن توارث العقار في أسرته . وعلى ما يظهر أنه ورث جزءاً من أملاك والده يشتمل على أرض وفلاحيها وعلى ماشية فيقول : « الموظف القضائي « إنبوإم عنخ » ، قد وهب عقاره ولم يكن من محتوياته حبوب أو أثاث منزل بل كان يشمل ماشية وفلاحين » .

أهمية نصوص « متن »
من الوجهة الشرعية

أما أمه « نبسنت » فقد كتبت وصية لأولادها كان نصيب « متن » .

(1) Sethe, Pyramiden Texte. 1814. (2) Sethe, Urkunden, I, p. 17 et Suiv.; Moret, R. Tr. XXIX p.p.57, 75; Erman- Ranke, Ægypten, p.p. 99-100.

فيها ١٥٠ أرورا من الأرض . ويعتقد الأستاذ « موريه » أن « متن » قد وهب أولاده مدة حياته ١٢ أرورا من أطيانه . والواقع أننا لانعرف من أولاده بالضبط إلا ولداً واحداً ورد ذكره عرضاً ؛ ولا يبعد إذا أن أولاده الآخرين كانوا من الإناث . وهذه المعلومات كافية في وصف الموقف الشرعي للأسرة في أواخر الأسرة الثالثة .

مساواة المرأة للرجل
في عهد الأسرة الثالثة

فقرى أولادنا أم « متن » قد تصرفت بكامل حريتها في ملكها ، إما بالوصية أو بالهبة مما يدل على أنها كانت تملك في يدها سلطة شرعية مطلقة ، فلم تكن تحت سلطان زوجها أو تحت وصاية ابنها أو أى إنسان آخر ، وكذلك لم تختلط أملاكها بأموال زوجها أو أملاك أولادها الذين قسمت أملاكها بينهم . ولم يذكر لنا « متن » زوجته في نقوش قبره مما يدل على أنها كانت مستقلة عنه شرعاً ، ومن المحتمل أنه كان لها مدفن خاص وشعائر خاصة . ويلاحظ هنا أننا لم نر ميزة خاصة للأبن الأكبر أو حق وراثته الأولاد ، ولكن من جهة أخرى لم يذكر لنا « متن » أنه هو الابن الأكبر ولم يذكر لنا إخوته الذكور أو الإناث وذلك طبعاً لأن ثروته لم تختلط بثروتهم . نستنتج من هذا أن الأولاد كانوا يرثون عقار والديهم بالتساوى من غير تفرقة في أنصبتهم . وهذه النتيجة تظهر لنا شرعية إذا علمنا أن « متن » من جهة قد وهب أولاده أملاكه دون أن يميز بين الذكر والأنثى .

المساواة في الوراثة
بين الأولاد

ولدينا وثيقة لأحد العظماء من عهد « خوفو » تثبت حق وراثته الذكور والإناث أملاك والدم وأعني بذلك وصية الوزير والأمير « نى كا ورع » ابن « خوفو » ؛ وذلك أنه خلافاً لما أوصى به لزوجته قسم عقاره بين أولاده بوصية على وجه التساوى تقريباً . فأعطى كلا من ولديه ثلاث ضياع وأعطى

بنّا وطفلا آخر لم نعرف اسمه ضيعتين^(١) لكل منهما، ومن هذا المتن الأخير يتبين نظام الوراثة بين أفراد الأسرة المالكة، وقد نظم وفق مبادئ الحقوق العامة، ولا يبعد أن ذلك التقسيم كان في وقت عقد الزواج بين الرجل وزوجته، وأنه قد حددت فيه أملاك كل منهما، هذا لا يمنع الزوج من أن يوصي لزوجته بشيء من ممتلكاته تفوق غالبا نصيب أحد أولاده كما تدل على ذلك الوصايا التي عثرنا عليها من عهد الدولة القديمة. فمثلا الأمير « نى كاورع » السالف الذكر قد أوصى لزوجته بأربع ضياع. وهذا أكبر نصيب أخذه كل واحد من أولاده وهو ثلاث ضياع. وكذلك نشاهد أن « نكعنخ » أحد كبار رجال الدولة في عهد الملك « وسركاف » من الأسرة الخامسة قد جعل لزوجته تشاطره في جزء هام من دخل^(٢) إقطاعاته الجنازية. وكذلك أوصى الكاهن « إدو » الذى عاش في عهد كل من الملك « ييبى الأول » و « مرن رع » و « ييبى الثانى » لزوجته « دسك » بضيعة كاملة.

نصيب الزوجة من
أملاك بلها.

ولا يخفى إذا أن حقوق الأسرة في عهد الأسرة الثالثة قد ظهرت أمامنا متميزا بعضها عن بعض، وأن الأسرة نفسها تجلت في أضيق حدودها، إذ كانت تتألف من الأب والأم والأطفال فحسب ويعزز هذا الرأى أننا لم نجد فروع نسب في مصاطب الأسرة الثالثة؛ إذ اقتصر المتوفى على أن ينقش على جدران قبره تاريخ حياته أو يذكر لنا أسماء والديه وزوجته وأولاده كما نشاهد ذلك في مقبرتى « رع حتب » و « حسى » ولكن من جهة أخرى يذكر لنا المتوفى ألقابه غالبا كاملة، ولانزعاج فى أن هذه إمارات

الفردية فى الأسرة

(1) Br. A. R. t. I, 191-199. (2) Op. Cit. 213-235.

تدل على فكرة الفردية ، إذ أن الرجل كان يظهر نفسه قبل كل شئ ،
بمظهر المستقل المنزل لاعضوا من أسرة مترابطة العناصر ، فلم يفاخر بأجداده
بل كان كل فخره ينحصر في دائرة نفسه ومحيط ذاته . وفوق هذا فإن
الأسرة في هذا التكوين الضيق الأفق لم تكن تؤلف وحدة شرعية بل
كانت مؤلفة من شخصيات مميزة مستقلة فالزوج والزوجة على قدم المساواة
المطلقة ولكل منهما ملكه الخاص يديره ويتصرف فيه بكل حريته
والسلطة الزوجية معدومة ولا رقابة على النساء ، ونشاهد في قبور الأسرة
الثالثة أن النساء لم يدفن مع الرجال ، فلم يذكر لنا العظيم « متن » في نقوشه
اسم زوجته التي كانت على ما يظهر مدفونة في قبر غير قبره ، ولئن دفن
الكاهن الاعظم « حسنى » في عين شمس من عهد الأسرة الثالثة في
مقبرة واحدة مع زوجته « حتحور نفر حتب » فإن شعائر كل منهما كانت
على حدة ، وهذا يدل على استقلال الشخصية حتى في الدار الآخرة . على
أنا نشاهد أحيانا أن الزوجة كانت ترسم على قبر زوجها في عهد الأسرتين
الثالثة والرابعة بالحجم نفسه الذى كان يرسم به الزوج مما يبرهن على أنها
كانت مماثلة له في الشرف كما كانت مماثلة له في الحقوق .

المساواة بين الرجل
والمرأة في الحقوق
والشرف

ومن المحتمل جداً أن الزواج كان يعقد في عهد الدولة القديمة ، وإن
لم تصل إلينا أية وثيقة من هذا النوع ، ولكن إذا كانت المرأة تملك عقارا
خاصا بها ، فلا بد أن ممتلكاتها كانت تدون في وقت الزواج ، وعلى أية حال
نجد أن الزوجة كانت تفوز بحجز من املاك زوجها ويكون نصيبها في العادة
أكبر من نصيب أحد أولاده أخذاً من الوصايا التي ذكرناها . ومن الحق
أن نبين هنا أننا لم نعثر للآن على حظيات لعظماء القوم في عهد الأسرة

الثالثة ، ولكن يحتمل أن الملك كانت له حظيات وإن كان تعدد الزوجات معدوما بين عظماء القوم وعامة الشعب . ومن الجائز أن المصرى كان يتزوج مرتين كما هو الحال مع « شرى » ^(١) بن « مرليب » مدير كهنة الملك « برليب سن » فى الجبانة الملكية من عهد الأسرة الرابعة وكذلك « دوا كا » كاهن الملك « خفرع » فإنه قد رسم على نقوش مقبرته زوجتين ولكن لم يكن له إلا زوجة شرعية واحدة . والواقع أننا لم نجد فى رسوم القبور ما يشعر بأى نوع من الحظيات كما سنرى فى الأسر التى تلت الأسرة الرابعة . أما الولدان الذين يذكرون فى النقوش سواء أكانوا ذكورا أم أناثا فاتهم شرعيون وكانوا على قدم المساواة فى الحقوق فيرثون متاع والدم وأمههم ويتمتعون مدة حياتهم بهبات آبائهم .

انعدام تعدد الزوجات والحظيات بين عامة الشعب

وبدئى بعد هذا البيان أن المرأة كانت مساوية للرجل تماما فى الحقوق كما كانت قادرة مثله على تملك عقار مما يؤكد الاستنتاجات التى استخلصناها من المركز الشرعى للزوجة . ولا يفوتنا بيان أنه لا وجود للسلطة الأبوية على الأولاد البالغين ، إذ كان لهؤلاء أملاك خاصة منفصلة عن أملاك الأب والأم ولذلك كان فى مقدورهم أن يستفيدوا من كل هبة منهما ويمكنهم أن يتعاقدوا معهما ، وهذا مما كان يجعل فى يدهم كفاءة شرعية تامة مستقلة عن والديهم . وحالة الأنثى كحالة الذكور فلم يكن تحت رقابة الأب أو أية رقابة أخرى وذلك يثبت عدم وجود سلطة زوجية على المرأة .

عدم وجود السلطة الأبوية على الأولاد البالغين

(1) Mar. Mast. B. 3, p.p. 93 etc. Saqqara.

حق الوراثة

الأولاد هم الوراث
الشرعيون

كان عقار كل من الزوجين منفصلاً ، وكذلك كان كل منهما لا يرث الآخر إذ أن الوارثين هم الأولاد الشرعيون . فقد وجدنا أن « متن » قد استولى على عقار والده من غير وصية فامتلكه وفق القانون . وإذا كان « متن » قد أعطى أولاده هبة مدة حياته ، فإنه لم يكتب بذلك وصية فتملك عقاره أولاده بمقتضى القانون . على أن « متن » لم يرث عن أبيه فحسب بل كذلك ورث عن أمه . ٥٠ أرورا من الأرض . ومن ذلك نرى أن الذكور والأنثى كانوا يرثون دون أن تكون هناك أية رابطة أسرية واضحة تجمعهم . ولم يكن لزاماً على الأب أو الأم أن يترك لأولاده كل عقاره إذ لم نجد بين ما تركه « إنبوام عنخ » والد « متن » أى أنثى أو ريش ولا شك في أنه ترك هذا لزوجته إما بوصية وإما ضمن عقد الزواج .

ونجد في عقد أوقاف تركه لنا أحد كبار رجال الدولة في بلاط « خفرع » أنه اشترط حرمان خدام الروح « حموكا » الموكل بهم إدارة الأوقاف حق التصرف في أنصبتهم في الوقف لا بالوصية ولا بالهبة ولا بطريقة العوض . بل يجب عليهم أن يتركوها لأولادهم وأحفادهم من بعدهم إلى الأبد . فإذا كان هذا العقد يحتم هذه الشروط على حرية والد الأسرة (مدير الوقف) أى بعدم التصرف في أملاكه الموقوفة مدة حياته فإن في ذلك مايدل على أنه كان من حقه قانوناً أن يتصرف فيها لولا هذه الشروط . ومن ذلك يتضح أنه لم يكن هناك عقار أسرة غير مجزأ أجزاء مستقلة أى أن عقار الأب كمقار الأم كان كل منهما منفصلاً عن الثانى وأن وجود ذرية لها لا يفرض أى قيد على حقوق ملكية أحدهما ، وأن حقوق الأولاد

لا تكون شرعية إلا عند وفاة الأبوين وحينئذ تكون القسمة بينهما بالتساوى .

ومن ثم نوضح نظام الوراثة في عهد الأسرة الثالثة . فقد كانت تنفذ الوراثة عند الموت الطبيعي . أما ترتيب الورثة فقد نظمته القانون فالشرعيون منهم لهم الحق المطلق في عقار المتوفى (1) ولم يرع القانون في توزيع الإرث أصل العقار أو طبيعته . فلا يصبح ملكا للوارثين إلا مشفوعا بالتزامات واتفاقات وعهود كانت تفرض عليه وبخاصة الأوقاف الجنازية كما يتبين هذا في وصية « ثنتي » أحد أعضاء مجلس العشرة العظيم للجنوب ورئيس البعث (2) . وكان العقار الموروث يسلم لأولاد المتوفى ، ومن تناسل منهم فإذا انعدم هؤلاء آل الإرث إلى إخوانهم وأخواتهم . وكانت أنصبة الأولاد ذكورا وإناثا متساوية اللهم إلا إذا كانت هناك وصية تنص على التفرقة . وكان أولاد المتوفى يحملون محل والدهم في عقاره ، على أن الورثة لم يكن لهم الحق في أملاك والدهم إلا بعد وفاته فحسب . أما توزيع الإرث فكان يمكن عمله بوصية من المتوفى وكان من حقه أن يورث أفرادا ليسوا بوارثين له كزوجته ، وكذلك كان يمكنه أن يميز أحد أبنائه عن إخوانه كما ذكرنا آنفا . والظاهر أن التصرف الأخير كان لا يحرم أى ولد نصيبه الشرعى في إرث أبيه أو أمه ، فسرى في عهد الأسرة السادسة أن « حرخوف » يقول : « إني لم أفصل بين أخوين بطريقة تجعل الابن يحرم من ميراث والده » . وفي هذا النص

نظام الوراثة في عهد
الأسرة الثالثة

(1) Br. A. R.t. I, 231. (2) Une Nouvelle Dispositive Testamentaire de L'Ancien Emp. A. C. Insc. p.p. 538. Paris, 1914

دلالة على أن كل أولاد المتوفى كان لهم الحق في عقار والدهم (١) . ولا توارث بين الزوج والزوجة إلا بوصية .

الشعائر الدينية وإستمساك الأسرة بعروبتها .

وحدة الأسرة في
المهود القديمة والتغافا
حول جد مشترك

إن إقامة الشعائر الدينية ترجع إلى بداية التاريخ المصري . وتدل الدلائل على أن الأسرة في الأصل كانت تؤلف وحدة متماسكة متجمعة لإقامة الشعائر الدينية للجد الأكبر البعيد ، ولما اختفى هذا المظهر أصبحت إقامة الشعائر فردية مستقلة في الأسرة فلم تعد تربط أفرادها بعضهم ببعض إقامة شعائر الجد المشترك القديم ، بل كان لكل مصري شعائر دينية مستقلة مما يدل على أن نظام الأنساب التناسلية قد زال منذ زمن بعيد جداً . ولا نزاع في أن التفكك في روابط ديانة الأسرة وإقامة شعائرها يرجع إلى أزمان سحيقة ويمكن أن نشاهد آثار ذلك في الأسرة الأولى . فمن ذلك أن ملكات مختلفات من هذه الأسرة قد دفن في القبر الملكي ، وربما كان ذلك علامة على اشتراك الملكة في شعائر الملك ، ومن ناحية أخرى فلم أن إحدى الملكات قد دفنت في « نوبت » (نقاده وبلاص) وهي بلا شك تعتبر من الأسرة المالكة عابدة الإله « ست » ؛ وهي لم تدفن مع زوجها بل مع أجدادها ، لأن الوحدة الأسرية قد اضمحلت ولم يكن لزاماً على المرأة أن تقيم شعائر زوجها ، وذلك لأن سلطة الزوج كانت قد أفل نجمها ، أما شعائر الأسرة العامة فقد بقي منها القليل ، وهذا هو سبب دفن المرأة في جبانة أجدادها . ومن الطبيعي أن يحدث تفكك الأسرة تطوراً في الشعائر الدينية ، وذلك بالتوجه شطر الفردية التي وجدناها في الأسرتين الثالثة والرابعة فنشاهد أن الملكات الأسرة الرابعة قبورا منفصلة عن قبور الملوك .

آثار هذه الوحدة
وظهور نظام الفردية
في الأسرة

وفي المقبرة الملكية على مقربة من هرم « خوفو » مقابر عدة
للملكات ولأبناء الملك وبناته (1)، وكان لكل من هؤلاء الملكات والأمراء
شعائر خاصة قام منفصلة عن شعائر الملك ، وقد ذكر في نقوش « متن »
ما يدل على وجود أوقاف خصصت لإقامة شعائر الملكة « نى معات حاب »
على أن هذا لم يكن قاصراً على الملكات فحسب ، إذ تنبثا النقوش بأن
« حتحور نفر حتب » زوجة « خع باوسكر » وهو أحد رجال الدولة في عهد
الملك « خع با » الذى يقال عنه إنه أحد أخلاف « زوسر » على العرش ، كان
لهما شعائرها وقرايينها الخاصة ، (2) ومن ذلك يتضح أن الفردية المستقلة
قد امتدت حتى وصلت إلى إقامة شعائر الأموات وهذه الشعائر كان يحتفل
بإقامتها أولاد المتوفى الذكور والأناث وهذا كان آخر أثر للرابطة الأسرية
وإن لم يكن ذا صبغة خاصة ، وسنرى أن المتوفين كانوا يجتهدون في أيام
حياتهم أن يضمنوا استمرار إقامة شعائهم ، وذلك بإنشاء وقف دائم . على
أن الحكومة كانت تأخذ على عاتقها هذا العمل في بادئ الأمر فكانت
تمنح موظفيها مرتبات ضخمة مدة حياتهم ، ومن جهة أخرى تضمن لهم
الاحتفال بإقامة شعائهم ، فتجس عليهم دخلاً جنازياً خاصاً ولا أدل على
ذلك من أن « متن » قد خصص لنفسه دخلاً جنازياً يشتمل على اثنتى
عشرة ضيعة . أعطاه إياه التاج بصفته موظفاً ، ولم يمنح هذا الدخل
على أنه وقف ، ولكن قد ضمتها الحكومة مباشرة ومن هذا نرى
أن الحكومة كانت هي القائمة بتقديم القرايين الضرورية لإقامة شعائر

ظهور الفردية في
الشعائر الدينية

أصل الوقف

(1) Reisner, Mycerinus, p. 239. (2) Weill, II-III Dyn. p.p. 238 - 244. & Mar. Mast. p.p. 71-79.

موظفيها . ولدينا متون من عهد الأسرة السادسة تبرهن على أنه عند ما كان ينقطع نسل المتوفى تقوم الحكومة نفسها بتأدية شعائره . مثال ذلك أن « كارايبي نفر » حاكم مقاطعة أدفو يعلن : « أنه دفن كل رجل لم يعقب ولدا في مقاطعته وجهزه بأكفان من الأوقاف الدائمة (1) » . وكذلك يقول الوزير « رع نفر سشم » : « لقد دفنت من لا ابن له » (2) . وقد كان هناك إدارة خاصة تسمى (بيت الأبدية) « برزت » متصلة بمصلحة القربان ، وكان واجبها القيام بهذه الأعمال الخيرية . وليس لدينا أية وثيقة تشبه هذه من عهد « متن » ؛ ومن المحتمل أن تدخل الحكومة في موضوع إقامة شعائر الأسرة كان موجوداً في هذا العصر . حقاً أن « متن » قد ذكر لنا حقوق الالتزامات الجنازية التي كانت له من الأثنتي عشرة ضيعة التي كان يسيطر عليها بحكم وظيفته ، غير أنه لم يبين لنا إن كان لهذه الالتزامات موظف خاص يديرها . كالم يبين لنا الطريقة التي كانت تؤدي بها الشعائر ، ويمكننا أن نستنتج أن هذه الالتزامات كانت تنفذ حسب قواعد موضوعة . وسنجد أن هذه القواعد كانت في قبضة حاكم المقاطعة وهو الذي أصبح أميراً إقطاعياً .

تطور نظام الأسرة في عهد الأسرة الخامسة

كان من نتائج أهمية إقامة الشعائر الدينية للملك في عهد الأسرة الرابعة ، أن تألفت طائفة من الكهنة الملكيين كبيرة العدد قوية السلطان . وكانوا ينتخبون من بين موظفي البلاط وعظماء رجال الدولة والإدارة ، ولذلك أصل لقب المقرب كانوا يؤلفون طبقة خاصة في البلاد يطلق على كل منهم لقب (مقرب)

(1) Moret, un Monarque d'Edfu, de la fin de la VI Dy. C. R. Ac. Insc. 1918 p. 105. (2) Capart, Une Rue de Tombeaux à Saqqara, I, p.p. 17-26. Moret, op. cit. p. 105.

ميزات المقرب

« إمنح » وكان الملك يهب كلا منهم ضيعة وامتياراً فكانوا يتمتعون من دخل كهاتهم الذى كان فى الغالب عظيماً كما كانوا يتمتعون بدفن جثثهم فى الجبابة الملكية بصفتهم مقربين ، وكذلك كانوا يشاطرون بعد موتهم (حسب اعتقادهم) الملك فى حياته الأخرى الإلهية ، والواقع أن الملك الإله كان يمنح كهنته المقربين ميزات عدة إذ كان يصدق عليهم دخلاً جنازياً ويهبهم لوحات مائمية ومقابر وضياعاً دخلها كاف لإقامة شعائر المتوفى . وهذا العقار صغر مقداره أو كبير فإنه يدخل ضمن أملاك الموهوب له ، وبذلك كان من حقه أن ينقله إلى ورثته ، غير أن الهبات التى كان يعطاها الكاهن بصفته من المقربين كانت مقيدة بشرطين .

أوقاف المقرب

وما يشترط فيها

أولهما أن يكون الشخص الذى وهب له هذا العقار حاملاً لقب « مقرب » وثانيهما أن تحبس هذه الهبة لإقامة شعائر الموهوب له . وقد كانت هذه الهبات فى أغلب الأحيان تزيد على ما يحتاج إليه المتوفى لإقامة شعائره . أما الزائد على دخلها فيعد ملكاً حقيقياً للشخص الذى وهب له العقار . وهذان الشرطان اللذان لا بد من توافرها قد جعلوا الورثة من كهنة الملك لأنهم من المقربين . هذا إلى أن هؤلاء (المقربين) أصحاب المنزلة الرفيعة كانوا يتمتعون بتربية أولادهم فى القصر الملكى مع أنجال الملك فكانوا منذ نعومة أظفارهم يتحلون بالشعائر ، ويقلدون الألقاب ويمنحون الوظائف الفخرية التى تجعلهم (مقربين) إلى الملك . فمن ذلك أن الأمير « كارايبي نهر » الذى كان لا يزال طفلاً فى عهد يبي الأول قد تربى فى القصر الملكى مع الأمراء وأولاد حكام المقاطعات ، وكان يحمل لقب السمير الوحيد ، ومدير الضياع الملكية ، وذلك يدل على أنه رغم

أولاد المقربين يربون
فى القصر مع
أولاد الملك

حادثة سنة كان في طليعة « المقرين » . وهكذا أصبح المقربون « إنخو »
في عهد الاسرة الخامسة طبقة وراثية ، ولكن على الرغم من ذلك كان
تقليد الملك لا يزال ضروريا لحامل هذا اللقب . وكان قانون الوراثة المصرى
يقضى بتقسيم ممتلكات الوالدين بين أولادهما . والضياح الجنازية الموهوبة لمن
يحمل لقب المقرب خاضعة كذلك لقواعد وراثة الحقوق العامة ، إذ لابد أن
تقسم بين أولاد المقرب . ولما كان هذا التقسيم يؤثر على تقديم القربان وإقامة
شعائر المتوفى ، وجدنا أن المصرى قد لاحظ هذا منذ بداية الأمر
وأوقف الضياح التى وهبها إياه الملك وجعلها غير قابلة للتجزئة كما فعل أحد
عظماء عصر الملك « خفرع » السالف الذكر ، وكما فعل العظيم « سنو عنخ » .
وكانت هذه الاوقاف تفصل عن أملاك الواقف ، وتوضع تحت تصرف
طائفة من الكهنة بشروط خاصة تضمن بقاء تقديم القرابين على الدوام ،
وهذا التعاقد الذى أصبح به الكهنة ملاكا للضياح أو الإقطاعات قد جعل
هذه الممتلكات غير قابلة للتجزئة بل موقوفة أبديا . ويتضح مما تقدم أن
هذه العقارات قد أصبحت عينا موقوفة عليها التزامات أبدية للمتوفى . أما
ورثة صاحب هذه الاوقاف فلم يكن لهم حق فى هذه العقارات الموقوفة ،
اللهم إلا المراقبة على الكهنة فى تنفيذ شروط الواقف ، فإذا تراخوا فى
تنفيذها عادت الضياح الموقوفة إلى أسرة المتوفى . والواقع أن نظام حبس
عقار على إقامة شعائر المتوفى بهذه الكيفية كان يضمن استمرار تقديم
القربان وإقامة الشعائر ، ولكنه من جهة أخرى حرم أسرة المتوفى
مورد دخل هام .

وقف المقرب لا يتجزأ

وفى أواخر الأسرة الرابعة ظهر نظام جديد فى موضوع الوقف ، وذلك

لأن الأوقاف الجنازية أصبحت توضع في يد جماعة من أسرة المتوفى . وهذا النظام قد ضمن للمتوفى إقامة شعائره ، ومن جهة أخرى حفظ للأسرة دخل المتوفى الذي كان يتمتع به غيرهم . وعقد أوقاف « حتى » (1) والد « نكعنخ » من الأسرة الرابعة ويلقب مدير البيت ، قد جاء بهذه الكيفية ، إذ وكل « حتى » إدارة دخله الجنازي إلى رئيس إقامة شعائره ، وهو ابنه الأكبر الذي لم يكن لديه أي لقب يخول له هذا الإرث ، وكذلك نصب أولاده الآخرين كهنة له مشاركين الابن الأكبر في الملكية وفي دخل العقار الجنازي « الذي كان تحت يد الابن الأكبر » .

انتقال وقف المقرب
الى يد أسرته بإدارة
ابنه الأكبر

غير أنه لم يكن في مقدور واحد منهم أن يتصرف في هذا العقار لا بالوصية ولا بالهبه ولا يمكن تجزئته ، غير أنه كان من حق كل أن يترك نصيبه لابنه من بعده ، ولكن تحت سلطة الابن الأكبر للمتوفى ؛ وسلطان الابن الأكبر لم يكن في هذه الفترة حقا شرعيا ولا يحل إلا إذا اشترط المتوفى ذلك في عقد الوقف . ومن ذلك نرى أن « حتى » قد أنشأ شخصية مدنية مميزة كما فعل كل من عظيم بلاط خفرع السالف الذكر و « سنوعنخ » (2) وقد كان « حتى » يمتاز في وقفه بأن الطائفة المشرقة على هذا الوقف من أولاده ، وعلى رأسهم الابن الأكبر . بخلاف « سنوعنخ » الذي جعل المشرفين طائفة من الكهنة الذين لا يمتنون إلى أسرته بقرابة . وبعمل « حتى » تم تأليف جماعة أسرية لا ينقسم عراها يتوارثها جيل عن جيل . وتمتد سلطة الابن الأكبر فيها إلى كل فروع الأسرة الأصلية ، وهذه الجماعة الأسرية كانت قاصرة على ملكية الضياع الجنازية . وقد اشترط « حتى » صراحة أن

(1) Borchardt, Grab des K. Sahure, pp. 89 etc.

(2) Br. A. R. t. I, No. 231.

أن تكون سلطة ابنه الأكبر نافذة على إخوته الذكور والأناث فيما يختص بإدارة الإقطاعات الجنازية ، أما في أملاك الأسرة الأصلية فلم يكن للابن الأكبر عليها أى سلطان . وكانت ضياع الأسرة تتسع وتنمو من الهبات الملكية حتى أصبحت واسعة الأطراف ، فنشاهد في عهد الأسرة السادسة أن الملك وهب أحد عظماء بلاطه « إبي » ضيعة مساحتها ٢٠٤ أرورا . وهذا يوضح لنا أن العقار الجنازى مضافا إليه العقار الموروث عن الأجداد كان يزداد ازدياداً مطرداً . ولما كانت هذه الضياع توضع تحت تصرف جماعة من الأسرة فقد زادت بطبيعة الحال في ربط أواصر الأسرة ، وأصبح كل فرع منها يؤلف وحدة يمثلها الابن الأكبر . وهذه الفروع التى كانت تؤلف للمحافظة على الضياع العظيمة كانت تجمع في الوقت نفسه طبقة الاغنياء والعظماء الذين كانوا يزدادون قوة على كثر الايام وتوالى الأعوام . ويجب أن نذكر هنا أنه في عهد الأسرة الخامسة كان المقربون للملك يؤلفون طبقة أشرف حقيقية لها امتيازاتها ؛ إذ لم يستولوا من الملك على مدافن وأوقاف جنازية فحسب بل استولوا كذلك على ضياع جنازية مشمرة . وقد كان لقب المقرب يجلب معه دائماً ضيعة ملكية ، وهذه الأوقاف الأسرية كانت تجرى على وجه خاص في الأسر الشريفة الغنية ، ومن ذلك نرى أن سلطة الابن الأكبر ستصبح ميزة لأولاد الأشراف .

سلطة الابن الأكبر كانت تنحصر أولاً في إدارة العقار الموقوف فقط

المقربون كونوا طبقة الأشراف في البلاد

ولم يكن المقربون يستحوذون على الضياع الملكية فحسب ، بل كان لهم دخل الكهانة أيضاً . ولما أصبح أفراد هذه الطائفة في عهد الأسرة الخامسة من الوارثين ، احتكروا إقامة الشعائر الجنازية للملك وللإلهة « حتحور » وللإلهة « نيت » وللإله « رع » وللإله « فتاح » وللإله « مين » فحولوا بذلك

المقربون يحتكرون
أوقاف الآلهة أيضا

دخل أوقاف هذه الآلهة إلى عقار أسرى يتصرفون فيه . ونتج عن نظام الأوقاف الحرة والأوقاف الملكية أمران : أولهما ازدياد العقار الموقوف وانتشاره في طول البلاد وعرضها ثانيهما : تجمع كل الأوقاف في يد أسر الكهنة فأصبحوا من الأشراف وتمتعوا بخيرات الأوقاف كلها . ولما أصبحت التزامات وظيفة الكاهن وما تبعها من الضياع وراثية ، استحال كل ذلك إلى أملاك عقارية للكهنة وأصبح قلا مقصورا على أحد أولاد الكاهن .

كما كان لكل أولاد المتوفى الحق في وراثة هذه العقارات ، وهذا بلا شك هو السبب الذي دعا « نكعنخ » أن يضع التزاماته بصفته كاهنا أعظم للإلهة « حتحور » صاحبة قوص في يد جماعة من أسرته نظمت تحت إدارة ابنه الأكبر ، وبذلك جعل كل أولاده يستفيدون من دخل للكهنة لا يقبل التجزئة (1) ووصية « نكعنخ » لها أهمية خاصة في درس تطور الحقوق في عهد الأسرة الخامسة ؛ إذ تبرهن على أن الجماعة الأسرية قد نظمت لا لتحافظ على عدم تجزئة عقار خاص بإقامة شعائر الواقف فحسب ، بل لتحفظ لكل أفراد الأسرة دخل وظيفة دينية أصبحت وراثية . وقد كان « نكعنخ » هذا كما سبق ذكره الكاهن الأكبر للإلهة « حتحور » مالكا لضيعتين هاتين الأولى مساحتها ٥٠ أرورا حبست على إقامة شعائره الجنازية ، وقد منحه إياها جده « خنوكا » . أما الضيعة الثانية فكانت خاصة بالتزامات كاهن الإلهة « حتحور » الأكبر وقد منحه إياها الملك ومساحتها كذلك ٥٠ أرورا . ولما أراد أن يحافظ « نكعنخ » على وحدة الضيعة الأولى دون أن يحرم أولاده دخلها أوصى بها جماعة من

أهمية وصية العظيم
« نكعنخ » من الوجهة
الشرعية

(1) Sethe, Urkunden, I, 24.

أسرته . أما الضيعة الثانية فبدلاً من أن يضمها تحت تصرف واحد من أولاده جعلها كذلك تحت إشراف جماعة أخرى من أسرته ، وكان ضمن أعضائها زوجته وأولاده ، وقد عين لكل نصيبه من الدخل ، كما حدّد الواجب الذى يقوم به كل فى الاحتفال بإقامة شعائر الإلهة « حتحور » خلال مدة معينة من السنة .

وإذا كان « نكمنخ » قد تمكن من التصرف بوصية فى التزاماته باعتباره كاهناً أعظم للإلهة « حتحور » ، فإن ذلك دليل على أنه كان يعد الضياع التى تصرف فيها ضمن أملاكه بلا نزاع . وقد كانت جماعة الأسرة التى تتصرف منذ الآن فى كهنوت الإلهة « حتحور » تتألف من زوجة « نكمنخ » وبعض أولاده وكاهنين أجنيين عن الأسرة . وكان كل واحد من هؤلاء يخدم فترة معينة خلال مدة محدودة الأمد فى معبد « حتحور » كما جاء فى الوصية بوصفه كاهناً ، وكان يتسلم فى مقابل ذلك جانباً من دخل وظيفة الكهنوت بالنسبة لمدة عمله . وكان الابن الأكبر يتمتع بمكانة ممتازة ، فكان رئيس جماعة الأسرة ووارث والده (فى مكانه ككاهن) ومدير كل دخله . ولانزاع إذن فى أنه هو المدير لجماعة الأسرة . أما ضيعة « خنوكا » الجنازية فكانت تديرها جماعة من الأسرة تتألف من زوجة وبعض أولاد صاحب الوصية . ولكن إذا كان « نكمنخ » قد نصب على أوقاف جده « خنوكا » جماعة أسرية فإنه لم يدخل فى ذلك إقامة شعائره الخاصة ، بل خصص لأقامتها أوقافاً مستقلة ووكّل أمرها إلى أربعة من أولاده لم يذكروا فى الوصيتين السابقتين ، ويظهر أنهم من أم ثانية ، أما بقية أملاكه فقد وصى بها ابنه الأكبر « حن حتحور » ومع

أن المتن ممزق عند هذه النقطة ففي مقدورنا أن نفهم منه أن « نكعنخ » قد خص زوجته بمعاش فوق ما تركه لها في الوصيتين السابقتين . ولكنها بدورها قد أوصت بكل ممتلكاتها لابنها الأكبر « حن حتحور » الذي كان له أن يجمع في يده عقار والده ووالدته حسب الوصية على ما يظهر . وأسرة « نكعنخ » أسرة عريقة في الشرف ، ويحمل أعضاؤها منذ عدة أجيال لقب « رخ نيسوت » (المعروف لدى الملك) وكلهم يحملون كذلك لقب « المقرب » . والواقع أن الضياع التي كانت تملكها هذه الأسرة كانت لها أهمية عظمى ، إذ أنها تؤلف ثروة ضخمة ، فساحتها ١٢٠ أرورا أى نحو ٩٠ فدانا وكانت كافية منذ « خنوكا » لإقامة شعائره الدينية وشعائر والده ، وأمه وكل الأسرة . وهكذا أخذت إقامة شعائر الأسرة الجنازية تنظم شيئا فشيئا حول الضياع الوراثية الموقوفة . ولكننا من جهة أخرى نلاحظ أن « نكعنخ » لم يضم إقامة شعائره إلى بيت جده « خنوكا » ؛ ويتضح لنا كذلك أن إقامة الشعائر بقيت فردية مستقلة وإن كانت في الواقع ضيقة واحدة قد استخدمت لإقامة شعائر مختلفة . وهذا يدلنا على أن الضيقة كانت في الأصل مركز إقامة الشعائر ، لأن الذين يتصرفون في دخلها كانوا يستغلونه لمنفعتهم الشخصية ، ولكن الضيقة أصبحت بالتدريج عقارا للأسرة تحت سيطرة الابن الأكبر ، وتوحدت إقامة شعائر الزوجة التي كان يصرف عليها من ضياع زوجها ، وقد ضمها لنفسه الابن الأكبر .

بقاء إقامة الشعائر
فردية رغم الصرف
عليها من ضيقة واحدة

ونرى في وصية « نكعنخ » أن الابن الأكبر قد نصب وارثا لكل أملاك والده ووالدته ، وكان بصفته رئيسا لإقامة الشعائر

مكلفاً كذلك بإدارة ضياع الأسرة ، ولكن أهمية هذه الضياع قد زادت واتسع نفوذ الابن الأكبر حتى شمل عقار الأسرة الخاص . على أن الابن الأكبر لم يكن الوارث المطلق لوالديه ولكن أصبح بحكم العادة يكلف بوصية لإدارة كل عقار الأسرة كما فعل « نكفنخ » وبقى مركز الزوجة على حاله لم يحدث فيه تغير ، فقد أوصى « نكفنخ » حسب العادة المتبعة بدخل لزوجته ، ولكن ابنه الأكبر أصبح وارثه الأوحده ، ولا يمكن أن يسلم هذا الدخل للأرملة إلا ابنها الأكبر ؛ ولما كانت عضواً في كل من جماعتي الأسرة التي كان يدير شئونها الابن الأكبر كانت هذه الزوجة الأرملة تحت إدارة ابنها الأكبر وتعتبر خاضعة لسلطانه من أجل ذلك . والواقع أن إقامة الشعائر وإن حافظت على صبغتها الفردية فإنها كانت تمشي مع تطور الأسرة وهذا طبيعي . وأن الأوقاف الوراثية التي أعادت تماسك الأسرة بجميع شملها حول الهبات قد أحدثت من جهة أخرى بإقامة الشعائر صلة وثيقة تربط أعضاء الأسرة برباط متين . فإن دخل كل فرد منها كان كافياً في الأغلب لإقامة شعائر الأسرة كلها أو كثير من أفرادها . فقد كانت الزوجة والأولاد الذين كانوا كهنة جنازين لوالدهم يرون أن إقامة شعائرهم مشتركة مع شعائره وذلك بفضل الجزء الذي يمنحه إياهم من دخله الجنازي ، وهذا ما فعله « خنوكا » . والواقع أن مركز هؤلاء بالنسبة لوالد الأسرة في هذه الحالة كمركز المقرب بالنسبة للملك . فكما أن (المقرب) كان يحتفل بشعائر الملك ويتسلم جزاء هذه هبة خاصة ، كذلك كانت الزوجة والأطفال كهنة والد الأسرة يحتفلون بإقامة شعائره ويتقاضون جزءاً من إيراد أوقافه . ومنذ

الأولاد والزوجة
يصبحون كهنة مقربين
لرب الأسرة منذ
أواخر الأسرة الرابعة

ذلك العهد أصبحوا يسمون مقربين له «إمخو» ، ولذلك نجد الزوجة تعترف بأنها « مقربة » لزوجها والابن الأكبر كذلك « مقرب » لوالده . وهذه الألقاب بدأت تظهر في نهاية الأسرة الرابعة وأقدم مثل عشر عليه حتى الآن هي « حنوكا » ⁽¹⁾ التي عثر على مقبرة زوجها «إي» (مدير البيت) في حفائر الجيزة بمنطقة الأهرام . على أن وظيفة المقربة من زوجها أو المقرب من والده كانت لا توجد إلا في الأسر الشريفة التي تمتلك أوقافا محبوسة . وقد انمى لقب (المقرب) بين أفراد الأسرة في عهد الأسرة السادسة لأنه في عهد الأسرة الخامسة لم تكن وحدة الأسرة وحدة قانونية بل كانت تأتي من طريق الوصية للابن الأكبر بالإشراف على أملاك الأسرة . ومن جهة أخرى لم تكن الزوجة تحت سلطان الزوج ولم تشاطر في إقامة شعائره شرعا ، ولذلك عند ما كان الزوج يعترف بأنها مقربة له كانت تسارع إلى اعلان ذلك على قهوش قبر زوجها ، لأنها حظيت منه بمطف يماثل ما يحبو به الملك المقربين له . وكانت تنال إزاء ذلك مرتبا من أوقافه ولدينا وثيقة من أهم الوثائق التي عثر عليها في عهد الأسرة الخامسة تفسر لنا مركز أفراد الأسرة بالنسبة لأُملاك الأب وبالنسبة لارتباطهم كوحدة أسرية . والمتن هو وصية للسير الوحيد عظيم « نخب » ومدير القصر الملكي « وب إم نفرت » ⁽²⁾ . وقد تزوج من إحدى بنات الملك « نوسر رع » وتسمى « مريس عنخ » وابنهما الأكبر « إي » وقد ترك لنا « وب إم نفرت » وصية في مقبرة ابنه « إي » وهي تؤلف جزءا من مقبرته . فيشاهد على الجدار الغربي لمقصورة « إي » صورة والده « وب إم نفرت » وأمامه ابنه

(1) Excavations at Giza, I, p. 101. (2) Op. cit. II, pp. 190, fig 219.

يقبض يده على ملف من البردى ويشير الوالد يده إلى نص الوصية المنقوشة على الجدار وهذه ترجمتها : « سنة ضم الأرضين لحكم الملك في الشهر الثالث من فصل الشتاء واليوم التاسع والعشرين . السمير الوحيد «وب» يقول : لقد أعطيت ابني الأكبر المرتل « إبي » أوقاف حجرة الدفن الشمالية وكذلك مقصورة القرايين الشمالية وهما في بيت الأبدية في الجبابة ، على أن يدفن هو فيها وتقدم له القرايين على الدوام هناك بصفته مقرباً لي ، وليس لأحد الحق في ادعائها لنفسه أخا كان أو زوجة أو ولدا اللهم إلا ابني الأكبر الكاهن المرتل « إبي » وقد كتب أمام وجه « وب إم نفرت » : « علمت الوصية في حضرته وهو على قيد الحياة » . وعلى يمين نقش الوصية صورة خمسة عشر رجلاً متربعين على الأرض مولين وجوههم شطر الوصية وقد كتب اسم كل منهم وصناعته في أعلى صورته . وكذلك نقش بخط كبير فوق الشهود العبارة الآتية : « كتبت في حضرة شهود كثيرين ودونت يده » . ولا نزاع في أن هذه الوصية تعد من أعظم الوثائق التي وصلت إلينا من عهد الأسرة الخامسة بل في الدولة القديمة كلها من الوجهة القانونية والاجتماعية بالنسبة للأسرة . فهي تدلنا على علاقة أفرادها بعضهم ببعض ، إذ نجد أن صاحب الوصية يعين لابنه الأكبر جزءاً من أملاكه الجنازية على أن يكون دخله وقفاً على شعائر « إبي » نفسه وأن يكون وحده هو المشرف على هذا الجزء ، لأنه « مقرب » من والده . وقد أبعد من الوقف إخوته وزوجته وأولاده الذكور والإناث ؛ ويفهم من ذلك أنه كان لهم الحق في إرث أملاكه الأخرى لأن تحديد هؤلاء الأشخاص بالذات يشعر بحتمهم في هذا الوقف لولا وجود هذه الوصية . يضاف إلى ذلك أن دفن

وصية «وب إم نفرت»
وأهميتها من الوجهة
القانونية

الابن الأكبر في مقبرة خاصة به يوحى بأن نظام استقلال الأسرة كان لا يزال قائماً وأن الصلة بين الابن الأكبر وبين والده من هذه الناحية كونه « مقرباً له » ، ومن المستغرب أن زوجة « وب إم نفرت » لم تدفن معه في مقبرة واحدة على حين أنها مثلت معه في المقبرة بحجم واحد ووجد لها أربعة تماثيل من الحجر الجيري الأبيض في سرداب زوجها . ويحتمل أن الملك والدها قد أهداها هذه التماثيل الجميلة فوضعتها في قبر زوجها كما رسمت معه على جدران مقبرته . ومما يستوقف النظر في هذه الوصية وجود شهود على صحة العقد ؛ وهذا لم يكن متبعاً قط في نقوش الدولة القديمة على ما نعلم ، فهو دليل واضح على أن الوصية ، كانت لها أهمية بالنسبة إلى « إبي » الابن الأكبر الذى كان يخاف منازعات أفراد أسرته ولذلك قال في الوصية إنها : « كتبت وهو حي (يمشى) على قدميه » .

أما في عهد الأسرة السادسة فكانت الأسرة تؤلف وحدة شرعية إذ للابن الأكبر الحق الشرعى فى الإشراف على ثروة الأسرة ، والزوجة خاضعة لسلطان زوجها وتخول لها صفتها الزوجية حق الاشتراك فى إقامة شعائر زوجها مما لم يكن فى مقدورها الحصول عليه فى عهد الأسرة الخامسة إلا بوصية . وحق اشتراكها فى إقامة شعائر زوجها يجعلها زوجته الخاضعة لسلطانه فتصيب جانباً من أملاكه وإن كانت وصية « وب إم نفرت » تشير بأن للمرأة الحق فى ميراث زوجها بعد وفاته فى غير ما أوصى به ؛ ولكن من جهة أخرى نشاهد فى بعض الأحيان أن الزوج كان يمنح زوجته هبة كمؤخر صداق . وحدث مثل ذلك فى عهد الأسرة السادسة فى عهد « يبي

الأسرة تسكون
وحدة شرعية
بإشراف الابن الأكبر
فى عهد الأسرة
السادسة

الثاني « فذكر لنا « المقرب » « إِدو » (١) ما يأتي : « إن الضيعة التي أعطيتها زوجتي المحبوبة « دسك » تعتبر ملكها الخاص وذلك لأنني أحيتها كثيراً » .
والواقع أننا نعلم أن الضيعة التي أعطها « إِدو » زوجته هي إقطاعية ملكية وقد أيدت ذلك « دسك » نفسها بقولها : « إذا اغتصب أحد هذا الصداق المؤجل سأرفع ضده دعوى أمام الإله العظيم أي أمام محكمة المقربين التي يرأسها الفرعون نفسه وهي المحكمة التي يتقاضى فيها الأشراف في الخصومات التي لها علاقة بمقارهم (انظر صفحة ٦٥) . نخرج من كل ذلك بنتيجة أن الأسرة قد أعيد تنظيمها على قاعدة إشراف الابن الأكبر شرعا على أملاك والده ، وأن الزوج كان يستولى على كل حقوق المرأة . ويجعلها خاضعة تمام الخضوع لسلطانه . وحقوق الابن الأكبر لم تكن أمراً ضرورياً أو على الإطلاق ، فهو إنما نصب وصيا لتحصيل مال الوقف ولم يكن في يده غير إدارة عقار والديه . وقد شاهدنا في أوقاف الأسرة أن كل فرع منها كان يمثل الابن الأكبر وهذه القاعدة قد جرت كذلك على عقار الأسرة الخاص . وقامت « مس مري » (٢) بفحص انتقال العقار في عهد الأسرتين الرابعة والخامسة فوصلت إلى النتائج الآتية : أن العقار الموروث يمكن وقفه ويمكن تجزئته في عهد الأسرة الخامسة ، إذ في الواقع أن الإرث كان يتغير من جيل إلى جيل فكان يقسم أحيانا وأحيانا يزداد بإضافة ضياع جديدة . هذا إلى أن العقار الموروث قد استمر يقسم بين الوارثين حتى في فروع الأسرة ، وكذلك كانت المرأة تأخذ حصتها في ميراث الأسرة ، ويلاحظ أن الضياع الكبيرة

(1) Sethe, Urkunden, II, p. 23 (New Ed.)

(2) P. S. B. A. XVII, p.p. 240-245.

كانت تتزايد باستمرار منذ الأسرة الرابعة حتى نهاية الأسرة الخامسة . ولقد كان من جراء تغير مركز المرأة من الوجهة الشرعية أن حدث تغير عظيم من الوجهة الحلقية ، وذلك أننا لم نجد قبل الأسرة الخامسة تمثيل حظيات على المصاطب ، ولكن منذ الأسرة الخامسة نجد أن الأشراف كان لهم حظيات وكانوا فخورين بهن ومن هؤلاء العظيم « نى » ^(١) زوج الاميرة الملكية « نفر حتبس » فكانت له حظيات يرقصن له وقد استعرضن على جدران قبره وسنعرف فيما بعد أن نساء « الحريم » كن يمثلن كثيراً في عهد الأسرة السادسة ونجد الرقص الخليلع في مقبرة الوزير « مرا » ^(٢) في عهد الملك « تيتي » يحيط به شيء من أسرار الحريم ، وكذلك في مقبرة الكاهن « دوا كا » ^(٣) حيث نجد امرأة ترقص في وسط راقصين وراقصات عارية الجسد . ونشاهد كذلك منظراً في مقبرة « فتاح نفر ششم » ^(٤) مثلت فيه جنازة مارة أمام باب « الحريم » والنساء يولولن ويعولن أثناء مرورها قائلات : « يأيها الأب الوديع ياسيد الجميع » . وفي المتحف البريطاني ^(٥) يوجد رسم من عهد الدولة القديمة تظهر فيه صورة امرأة متمنقة بحزام لتطمئن سيدها على عافها . ولا شك في أنها كانت إحدى حظياته . وقد كان نساء الحريم يمثلن بمفتاح يتبعه ثلاث نسوة فالحظيات كن مخدرات ، كما جاء ذكره في « تحذيرات نبي » إذ يقول : « إن النساء اللاتي لم يرين النور قط قد ظهرن في العالم » ؛ ومن ذلك يتضح أن الحظيات لم يظهرن إلا في الوقت الذي بدأت تكون فيه المرأة تحت سيطرة الرجل ، فلم تعد بعد سيدة البيت الشاغرة بأنفها المستقلة بحقوقها .

ظهور الحظيات في الوقت الذي بدأت تكون المرأة فيه تحت سيطرة الرجل

(1) Montet, Scènes de la vie privée, p. 364. (2) Montet, ibid p. 366. (3) لم ينشر بعد. (4) Capart, Une Rue de Tombeaux, p. 79. (5) Revillout, Cours de Droit Egyptien I, p. 110.

حقاً إنها استمرت زوجة تتمتع بسلطان عظيم ، إذ كانت تشغل وظيفة كاهنة لزوجها أو للإلهة « حتحور » أو الإلهة « نيت » ، غير أنها لم تعد مساوية لزوجها ولو كانت أعرق منه نساء . وأصبحت المرأة سيدة البيت بحكم القانون لا غير ، وأصبح الرجل يعطف عليها بعد أن سلبها حقوقها ، أكثر من قبل ، فكان « تى » يلقب زوجته « بالزوجة المشغوف بها زوجها » . أما نساء الحريم فلم يكن زوجات شرعيات ، إذ لم نجد في القبور أسماء حظيات ولا أسماء أولادهن قط . والحقيقة أنه لم يؤلف جزءاً من الأسرة ، لأن أولادهن لم يكونوا شرعيين ولا ينسبون إلا إلى أمهاتهم .

الحظيات لم يؤلفن
جزءاً من الأسرة

ومن كل ما تقدم يمكن معرفة تكوين طبقة اشراف لها امتيازات ، فقد استولت على كل الوظائف الدينية والإدارية في البلاد وجمعت في قبضتها ثروة مالية تتزايد على التدريج ؛ وكان من نتائجها أن أخذت تقضى على الاستقلال الفردى في الأسرة رويداً رويداً ، وحل محله توحيد أواصر الأسرة ، بالتفافها حول الهبات الملكية التي أصبحت عقاراتها موقوفة ، وبقوة الروح في إقامة الشعائر ، وبالمركز الهام الذى أصبح يشغله الابن الأكبر ، وبانتقاص حقوق الزوجة تدريجاً حتى ذهب استقلالها شرعاً . كل هذه الأشياء قد تمت بسبب إعادة نظام تأليف الأسرة ، غير أنه يجب أن نلاحظ أن تجمع الأسرة الذى نراه فى الوصايا وفى المؤسسات الجنازية وفى شجرة الأنساب التى تظهر فى القبور ، كان من عمل العادة والعرف والتقاليد لا من عمل القانون .

تطور مركز الأسرة فى عهد الأسرة السادسة

تكلنا فيما سبق عن كيفية بداية تطور الأسرة فى عهد الأسرة

الخامسة وتجمعها تحت سلطان فرد واحد، وقد صار هذا التطور نحو الوحدة الأسرية يزداد على كثر الأيام حتى وصل إلى قمة الكمال في عهد الأسرة السادسة. وقد كانت بداية هذه الوحدة ما كسبه الابن الأكبر من حقوق الإشراف على أوقاف والده الجنازية، وكذلك إدارة عقار والده الخاص بوصية. وعلى ممر الأيام أصبح هذا الإشراف حقا مكتسبا يسرى على كل أملاك الأسرة ومن جهة أخرى نجد تطورا رجعيا في حقوق الزوجة؛ فأصبحت مكانتها ثانوية ونقص استقلالها الشرعى تدريجيا حتى فقدته نهائيا وأصبحت آخر الأمر تحت سلطة الزوج، وبعد مماته كانت تصير تحت سلطان الابن الأكبر، أو تحت إدارة وصى يعينه الزوج قبل مماته بوصية. وقضية « سبك حتب » التى شرحناها فيما سبق لاتدع مجالا للشك فى إمكان تعيين وصى أجنبى (ص ٥٩) إذ منها نعلم أن السلطة الزوجية والسلطة الأبوية قد تطورتا، فقد صارت أملاك الأسرة واحدة لاتتجزأ سواء أكانت فى يد « سبك حتب » الوصى أم فى يد الابن الأكبر « تاو ». وهذه الوحدة كانت تثول بحكم الشرع إلى الابن الأكبر ولكن كان للوالد الحق فى أن ينصب وصيا كما يختار هو. ويثبت هذا الرأى نقوش «مرى عا» أميرالمقاطعة العاشرة من الوجه القبلى (١) إذ يعلن ابنه «أنه صاحب كل أملاكه ورئيس أولاده». على أنه من المحقق أن كل ولد كان يحتفظ لنفسه بحقه بعد ممات أخيه الأكبر. ولا شك فى أن الابن الأكبر أو الوصى الذى كان يعينه المتوفى، لم يكن مالكا حقيقيا لعقار الأب، بل كان فى الواقع الأمين على أملاك الأسرة من ذكور وإناث، وهذا يؤكد لنا ما قاله خرخوف فى هذا الصدد (انظر ص ٥١٠)

مركز الابن الأكبر
فى عهد الأسرة
السادسة

(1) Sethe, Urk. IV, 22 (New Ed.)

أما نوع الأملاك التي كان يدير شئونها الابن الأكبر من عتار الأسرة فيمكن استنتاجها من نقوش « إبي » أمير طينة إذ يقص علينا إنشاء مؤسسة جنازية لإقامة شعائره الخاصة فيقول : « إني أسستها من قرى ضيعتي ومن الهبة الجنازية التي منحني إياها الملك ، ولا يدخل في ذلك أملاك والدي » . ومن ذلك نفهم أنه قد أقام مؤسسة من ماله الخاص وترك أملاك والده لأنه لم يكن له الحق في التصرف فيها إذ كانت ملكا لأفراد الأسرة كلها . وعلى أية حال سنجد مثل هذا القول يتكرر في نقوش الأسرة السادسة أي أن كل واحد قد أقام شعائره من ماله الخاص ، يضاف إلى ذلك أنه يمكننا أن نستنتج من قضية « سبك حتب » أن الزوج أصبح له سلطان شرعي على زوجته إذ مجرد تعيين وصي عليها وعلى أولادها لإدارة أملاكه يفهم منه أنه كان المسيطر على أملاكها مدة حياته ؛ وبذلك تكون قد فقدت استقلالها الشرعي ؛ وكذلك فقدت الرقابة التي كانت لها على أولادها في حداثة أسنانهم وانتقلت هذه الرقابة إلى الابن الأكبر أو الوصي ويؤيد هذه الاستنتاجات خطاب كتبه أرملة تدعى « نفر سفخي » لزوجها المتوفى . ومن هذا الخطاب نعلم أن « نفر سفخي » كانت لها ابنة أقيم عليها وصي ، وقد رفض الأخير أن يعطي الأرملة مالا لتربية ابنتها مما تستحقه من دخلها . ولذلك كتبت الأرملة لزوجها المتوفى خطابا تضرع إليه أن يتدخل في أمرها في عالم الآخرة حتى تنال حقها (1) . ومن هذا الخطاب نعرف أن الأم لم يكن لها حق الوصاية على ابنتها ولم يكن لديها المال لترفع به دعوى ضد هذا الوصي ولذلك لجأت

(1) Gardiner & Sethe, Egyptian Letters to the Dead. London. 1928 p. 115.

إلى الابتهاال لزوجها في عالم الآخرة ليكون لها شفيعا أمام القضاء الآلهي . ولا شك أن التطور التشريعي كان السبب الوحيد في تماسك أعضاء الأسرة وتكوين وحدة منها ، بل إن عدم استتباب الأمن في هذا العصر والحاجة لحماية الأرامل واليتامى كان من العوامل التي ساعدت على تقوية أواصر الأسرة وتماسك أفرادها وتضامنهم أمام أى خطر يهددهم . والواقع أن مصر أخذت تفكك وحدتها في عهد الأسرة السادسة إذ بدأت إدارة البلاد تنحل وتلاشت سلطة الملك وأخذت العقارات تتجمع بازدياد مطرد في أيدي طائفة خاصة . فقد جمع الأشراف في أيديهم الغنى والقوة وأصبح حكام المقاطعات الأقدمون أمراء وارثين كل منهم يفخر في مقاطعته بأنه لم يعتد على الملاك وأنه حامى الضعفاء فنجد مثلا « كاريبي نفر » أمير ادفو في أوائل حكم الأسرة السادسة يفاخر بأنه خلص الفقير من يد من هو أكثر منه ثراء (1) وكذلك يقول « خنوكا » أمير المقاطعة الثانية عشرة من الوجه القبلي : « إني لم أعتد قط على أملاك أى فرد ولم يوجد قط في المقاطعة رجل يخاف آخر لأنه أغنى منه (2) »

الاسباب التي دعت
إلى تماسك الأسرة

والواقع أن مثل هذا الإعلان لا يدل إلا على عدم الاستقرار وبخاصة من جانب الضعفاء كالأرامل والفقراء واليتامى ولذلك كانت الوصاية على المرأة في مثل هذه الأحوال المضطربة وسيلة لحمايتها .

نظام الأسرة الشرعي في أواخر الأسرة السادسة

لقد كان للتطورات التي ذكرناها فيما سلف أثر في تغير مركز

(1) Moret, Un Monarque d'Edfu au début de la VI Dy. C. R. Ac. Insc. 1918 p. 105. (2) Sethe, Urk. II, No 2 (New Ed.) & Br. A.R. t. I, No 280-8.

الأسرة بالنسبة للمجتمع المصرى ، إذ أصبحت وحدة اجتماعية تحت سيطرة الأب ، وكذلك صارت المرأة بعد زواجها تحت السلطة المطلقة لزوجها ، وبعد وفاة الزوج كانت تحت سلطان الابن الأكبر أو وصى يعينه الزوج . وبذلك لا يمكن المرأة المتزوجة أن تقف أمام القضاء فى أى موضوع إلا بإذن من زوجها أو الوصى عليها ، إذا كان الزوج متوفى ، كما أن سلطان الأب على أولاده قد ازداد فهو الذى يتولى أمور أملاكهم ويديرها ويتصرف فيها ومن حقه أن يعين عليهم وصيًا . أما إذا لم يترك وصية فالابن الأكبر بحكم القانون والعرف هو الوصى الشرعى عليهم وعلى أملاكهم يدير شئونهم لهم دون أن يتصرف فيها لحسابه الخاص . وإن مركز الأولاد الآخرين قد تغير من أساسه فقد كانوا فى عهد الأسرة الثالثة متساوين شرعا ولكن مرا كزهم الشرعية فى الأسرة السادسة كانت متفاوتة ؛ فإن الذكور كانوا متفوقين على الإناث ؛ إذ كان الذكر يعتبر الأكبر بالنسبة لأخته مهما كانت هى أكبر منه سنًا ولذلك لم نجد قط أن البنت قامت بدور الابن الأكبر ؛ هذا فضلا عن أن الأخير كان هو الفرد الوحيد الذى يمثل الأسرة فكان يعد رئيس إخوته الذكور والإناث كما أعلن ذلك الأمير « مري عا » . على أن حقوق الابن الأكبر كانت لاتزال مقيدة إذ يقضى الواجب عليه أن يسهر على مصالح إخوته حتى يكفل لهم أمرهم وقد كان يفاخر بكونه رب الأسرة ويباهى بالحب الذى تكنه له أمه وإخوته فيقول « كارايبي نفر » أمير مقاطعة ادفو : « إني أنا المحبوب من والده والمدوح من والدته ، والذى يحبه إخوته » ^(١) على أن السلطة التى كانت فى

ازدياد نفوذ الاب

تفضيل الذكر على
الانثى

(1) Moret. C. R. Ac. Insc, 1918 p. 105

يد الابن الأكبر على أمه وإخوته لاتنقسم عن الحقوق الواجبة لهم عليه .
وفي ذلك يقول الوزير « نفر سشم رع » : « كنت أرهب والدى وكنت
مؤدبا مع والدتى وأطعمت (1) أولادهما » . وكذلك يخبرنا « سنف عنخ » (2)
بأنه أقام مقبرة لأخوته فقال : « لقد بنيت هذا القبر لوالدى وإخوتى » . وتدل
ظواهر الأحوال على أن الأسرة كانت متجمعة تحت لواء واحد وهو لواء الابن
الأكبر الذى كان يعد المحيى لذكرى والده . فقد أعلن « زاو » (3) أمير مقاطعتى
طينة و« زوف » متكلماعن والده بأنه هو الابن الأكبر المخلوق من صلبه ؛ وعلى هذا
فالرابطة الأسرية لم تكن بين الأحياء فحسب بل كانت تمتد إلى الأجيال التى
خلت . ولا غرابة فى ذلك فإن هذا الجيل قد ورث الشرف والامتيازات
والثروة العظيمة عن أجداده . وقد ظهرت الأسرة وحدة قائمة بذاتها وأعضاؤها
هم الممثلون لهذه الوحدة ، وهذا ما يفسر وجود فروع أنساب مفصلة فى النقوش
التى على جدران المقابر منذ الأسرة الخامسة ، وعلى الأخص فى عهد الأسرة
السادسة . ويلاحظ أنه فى عهد الأسرة الثالثة كان يكتب على جدران قبر
الميت تاريخ حياته فقط ، ولكن فى عهد الأسرة السادسة كان يدون نسبه
قبل أن يدون ترجمة نفسه بأن يكتب : « أنه المحيى لذكرى أسرته ونسلها ،
والأمين على عقارها والكاهن الذى يقيم شعائرها » .

علاقة الأسرة بالابن
الأكبر

ومن الأمور التى تسترعى النظر أن أول ظهور سلسلة نسب كانت فى
عهد الأسرة الرابعة ، ويرجع السبب فى ذلك إلى تأليف طبقة أشراف جديدة .
حقاً إن أعضاء الأسرة المالكة كانوا عند ذكر أنسابهم يفخرون بنسبهم

أول ظهور سلسلة
النسب وأسبابها

(1) Sethe, Urk. III, No 36 (2) Sethe, Op. cit. t. III, No 42.

(3) Br. A. R. t. I, No 354.

العظيم . وفي الجملة فإن نسب الأسرة الرابعة المالكة معلوم لدينا ولكن عدا الأسرة الملكية كانت الأنساب قليلة ولا يرجع أقدمها إلى أكثر من عهد الملك « سنفر » . وتنحصر هذه الأنساب في بعض الأسر التي تحمل لقب « المعروف لدى الملك » ، ولا يرجع تاريخ أقدمها إلى أكثر من ثلاثة أجيال . وفي عهد الأسرة الخامسة أصبحت طبقة الأشراف وراثية وأخذت إيرادات الأسرة تتكون ، يضاف إلى ذلك أن الأشراف بدءوا يعرفون أنسابهم التي من أجلها أصبحوا أشرافا وصار لهم سلطان ومال عظيم . وقد وجدنا أن بعض الأسر يرجع نسبها إلى أربعة أجيال من أسر الأشراف الذين كان منهم الوزراء أو الذين كانوا يحملون لقب « المعروف لدى الملك » . وفي عهد الأسرة السادسة كان لقب « المقرب » في الأسرة هو الذي يجمع أعضائها حول رئيسها الذي كان يمثل في أكبر فروع الأسرة . ومنذ ذلك العهد لم يذكر في سلسلة الأنساب الفرع الأصلي فقط بل كذلك الفروع الثانوية .

لقب (المقرب) في
الأسرة السادسة

« الوراثة »

وفي عهد الأسرة السادسة كانت الملكية قد تطورت بدورها تطورا عظيما ، فبعد أن كانت فردية مستقلة أصبحت أسرية . حقا إن الابن الأكبر كان هو الذي يدير شئون أملاك الأسرة غير أنه لم يكن في مقدوره أن يتصرف فيها لحسابه ، إذ لم يكن في الواقع إلا أمينا عليها ، وبهذه الكيفية قد وجد تمييز ظاهر بين العقارات لم يكن معروفا في عهد الأسرتين الثالثة والرابعة . وقد كانت الثروة التي يرثها الابن الأكبر تتألف من أوقاف الأسرة ومن العقار الذي تركه له والده ، غير أنه لم يكن إلا أمينا عليها كما

ذكرنا . وكان له الحق هو واخوته الذكور في أن يكون لكل عقار خاص جديد يؤلف ملكا منفصلا عن أملاك الأسرة يتصرف فيه كما يشاء .

والظاهر أن أملاك الأسرة الخارجة عن الوقف كانت قابلة للتجزئة

ونفصل هنا بعض التفصيل نظام التوريث لهذا العقار : ذكرنا أن وراثة

إقامة الشعائر كانت تنتقل لابن المتوفى الأكبر ثم لأخيه الذي يليه سنا

قبل أن تعود لابنه . والواقع أننا نلاحظ أنه قد ذكر على مصاطب عدة

عدد من أولاد المتوفى يلقب كل منهم الابن الأكبر ، وأن أولاداً مختلفين

يلقب الواحد منهم بالابن الأكبر على قوش مصطبة الوالد ، ولابد أن

نستخلص من ذلك أنه عند وفاة الابن الأكبر كان ينتقل الميراث للابن

الأكبر الذي بعده وبهذه الكيفية يمكن أن يقوم أولاد كثيرون بدور

الابن الأكبر . وعندما يكون الأمر خاصاً بإقامة الشعائر ؛ فإن الإرث ينقل

للابن الأكبر من فرع الأسرة الأكبر . على أنه لو كان هذا النظام يسرى

على عقار الأسرة الخاص ، فإن أملاكها كانت تبقى دائماً موحدة ولكن

البحوث التي قامت بها « مس مري » حتى نهاية الأسرة الخامسة تدل على

أن أملاك الأسرة لم تكن وحدة بل كانت تقسم من جيل إلى جيل بين

فروع الأسرة المختلفة عندما يختفي آخر أخ . والظاهر أن هذا النظام بقي

معمولا به حتى الأسرة السادسة . ولكن على الرغم من ذلك تقرر هنا

أن عقار الوالد كان يقسم بين الأخوة ، ولم تدخل فيه الأوقاف كما تدل

على ذلك العبارات التي جاءت في قوش كل من « حرخوف » و « يبي نخت »

وغيرهما (انظر ص ٥١٠) . ومن ظاهر هذه النقوش نرى أن الذكور كانوا يقسمون

أملاك والدهم مع إغفال حقوق البنات .

سبب تعدد (الابن
الأكبر) على المقبرة

تقسيم أملاك الأسرة
بين فروعها

والظاهر أن الوحدة الأسرية كانت لا توجد إلا في مدة حياة الاخوة الذكور والأنثى ثم تختفي بعدهم ؛ إذ على أثر وفاة آخر ابن كان العقار الذى يشرف عليه يقسم إلى فروع حسب عدد الاخوة الذكور ومن المحتمل الأنثى ايضا (1) اما الأنثى فيغلب على الظن أنه كان لمن الحق كالدكتور في أن يكن أعضاء في الوقف مثل الذكور ، وعلى ذلك كن يأخذن نصيبا من إيراده . ولا أدل على ذلك من نقوش مصطبة « نكغنج »

البنات كان لمن حق الارث في العقار الموقوف

التي كان فيها تمثال أقامته ابنة المتوفى لوالدها وهى (المقربة) « إياخ نبت » وابنه المقرب « نى غنج سسى » . وكذلك نجد ابنة ثانية للعظيم « نكغنج » تسمى « رع إنت » كانت ضمن أعضاء جماعتي الأسرة اللتين ألفهما هذا العظيم إحداهما لإقامة شعائر الإلهة « حتحور » والثانية لإقامة شعائر جده « خنوكا » .

أما فيما يختص بإرث البنات في عقار والدها غير الموقوف ، فمعلوماتنا عنه ضئيلة ولا يمكن أن نستتج منها شيئا قاطعا غير أنه بعد الدرس الدقيق قد وصلنا إلى أن المرأة يمكنها أن ترث إقطاع والدها عند اختفاء

البنات ترث الاملاك غير الموقوفة ولكن يدير شئونها زوجها أو ابنها

نسل الذكور ؛ على أنها في الواقع كانت لاتدير هذا الإقطاع باسمها بل كان يتولى ذلك زوجها بما له من السلطة عليها . وإذا كانت أرملة فإن ابنها الأكبر يدير شئونها على أثر بلوغه السن القانونية إذا كان قاصرا .

وسنكتفي هنا لقلة المصادر بأن تصور أن ميراث المرأة في عقار والدها كان يجرى على حسب القواعد المتبعة فيما يختص بالعقار الموقوف . ويظهر أن المرأة لم تكن محرومة تمام الحرمان من إرث والدها ، ولم يكن الذكور وحدهم هم الذين كانوا يتمتعون بذلك .

(1) Pirenne, Instit. III, p. 359.

الاملاك الخاصة
لا تدخل في عقار
الاسرة

وقد كان العقار مقسماً إلى أملاك الأسرة والاملاك الخاصة والأول كان ملك الأسرة الخاص وكان الثاني ملكاً خاصاً لمن اشتراه ، لا يدخل في عقار الأسرة . وقد أعلن « إبي » (١) في صراحة أنه ترك كل الاملاك الموروثة من والده سليمة ، ولكن من جهة أخرى تصرف بكامل حريته في أملاكه الخاصة وتقدر بنحو ٢٠٣ أرورا منحها إياه الملك ليصبح من أثرياء الناس .

أما البنت فلم يكن هناك من الأسباب ما يدعو لحرمانها عقار والديها على أنه كان هناك عقار منقول غير الأرض عند الأسر الشريفة ، ولكن مما يؤسف له أن معلوماتنا عنه محدودة ، وتنحصر كلها في الرسوم التي نجدها ممثلة في المقابر وبخاصة المجوهرات والذهب وقد كان لها شأن عظيم في حياة البلاد الاقتصادية ، فمن ذلك أننا نشاهد في الضياع العظيمة الممثلة على قبور العظماء صناعات لطرق الذهب وسبكه ، وهؤلاء في الواقع لا يعملون إلا لأغراض جنازية ، هذا إلى أن الملك كان يوزع على كبار رجاله عطاءهم من الذهب ، وقد بقيت هذه العادة شائعة مدة الأسرة السادسة . فيقول المهندس المعمارى « مري رع فتاح عنخ » عند انتهائه من أى عمل كلفه إياه الملك « يبي الثانى » كان يعطيه ذهب الحياة « نبوعنخ » ويقصد من هذا مكافأة من الذهب ولا نزاع فى أن الذهب كان يؤلف جزءاً من عقار الأسرة وهذا هو السبب الذى من أجله نشاهد طائفة طيبة من الحلى كالقلاند والأسورة من الذهب مصفوفة كأنما رصت على رف قد رسمت فى كثير من مقابر هذا العصر .

إرت البنت فى
العقار المنقول

(1) Deir-el Gebrawi, I. p.p. 8 etc. et Br. A. R. t. I, No 375-9 & Urk. II, n. 82. (New Ed.) 32.

وقد لاحظنا في المقابر التي كشف عنها حديثاً في منطقة الجيزة أن كلا من المرأة والرجل كان يزين جثته كالأحياء محلي من الذهب والمعادن النفيسة والأحجار الكريمة ، ولا بد من أن المرأة كانت ترث هذا المتاع من والديها ، ويغلب على الظن أن معظم العقار المنقول كان يثول إلى المرأة إذ دل الكشف على أن الحللي الثمينة من الذهب والأحجار الكريمة كانت توجد عادة مع الإناث أكثر من وجودها مع الرجال (١) . ومما يلفت النظر ما نلاحظه في رسوم القبور من أن كبرى بنات المتوفى كانت لها مكانة خاصة منذ الأسرة الرابعة . فنشاهد أن « مرإيب » ابن الملك خوفو في مقبرته مع ابنه الأكبر ولكن في الوقت نفسه وجدناه مرسوماً مع ابنته الكبرى وهي قابضة بيدها على عصاه . أما الابن الأكبر فكان في يده قرطاس من البردي (٢) وهذا هو المثل الوحيد الذي شاهدنا فيه البنت تمثل في موقف من مواقف الابن الأكبر ؛ ومن المحتمل إذن أن والدها أراد أن تكون هي وريثة إذا قطع نسل الذكور . على أننا من جهة أخرى نشاهد كثيراً في نقوش المصاطب البنت ممثلة وهي قابضة على ساق والدتها . وهذا المنظر يرى في مقابر الأسر الرابعة والخامسة والسادسة (٣) .

ولا شك في أن تمثيل البنت بهذه الكيفية ينبئ عن أنها ستقوم مقام مكانة البنت الكبرى أمها وربما كان في هذا العصر تشريع للبنت الكبرى يشبه تشريع الابن الأكبر . والمنظر الذي نشاهده ممثلاً في مقبرة « هتقو » حاكم مقاطعة « زوف » يعزز هذا القول ؛ إذ نجد فيه زوجته « خنت كا » جالسة أمام مائدة قربان

(1) Excav. at Giza, II, p. 139-150. (2) L. D. II. 18-22.

(3) L. D. II. 23-25 Giza, & 27-29, 49. & Davies, Deir-el Gebrawi I, p.p. 8 etc.

وبنتها تقرب منها مقدمة القرايين ، مما يشير بأن البنت تقوم بدور خاص في إقامة شعائر والدتها وربما كان أوضح مثال لدينا في هذا الموضوع ما نشاهده في مقبرة رئيس كهنة الروح « فيفى » (1) . فنجد ممثلا على الباب الوهمى كلا من « فيفى » وزوجته « حتب حرس » أمام مائدة قربان وقد رسم خلف الأب ابنه الأكبر ورسم خلف الأم بنتها الكبرى وكل منهما يقدم قربانا للأب والأم ، على التوالي ، ومما يلاحظ في هذا الرسم أن كل زوج قد رسم بحجم واحد فالابن والبنت رسما متساويين والزوج والزوجة رسما بحجم واحد . فإذا كانت البنت تقوم بدور خاص في إقامة شعائر والدتها فلا بد من أنها كانت تستولى على جزء معين من عقار الأسرة الموقوف لإقامة الشعائر الجنازية . ومهما يكن من شئ فإن نظام الوراثة الفردى الذى لاحظنا وجوده حتى عهد الأسرة الخامسة ، وهو الذى ينحدر لكل الأولاد فى الأسرة أن يقسموا فيما بينهم أملاك آبائهم ، قد حل محله نظام جديد ينطبق فى معناه على نظام وراثة الملك . والواقع أن تكوين طبقة من الأشراف ، كان أفراد كل أسرة منها ملتفين حول الأوقاف الجنازية الخاصة بها ، قد جعل وراثة الأملاك الخاصة بإقامة الشعائر ضمن أملاك الأسرة تدريجيا . وقد طبق هذا النظام على عقار الوالدين الخاص . ويلاحظ هنا أنه كلما اتضح نظام الفردية ، وتدهورت السلطة الملكية ، ازداد نفوذ المعتقدات الجنازية ازديادا مطردا . إذ أن أصل نشأة طبقة القرابين يرجع إلى العقائد الدينية ، وهى المنبع الأصل الذى انبثت منه فكرة الإقطاع والضياع الجنازية التى كان من جرائها إعادة تجمع أفراد الأسرة بالتفافها حول هذه الضياع الجنازية الموقوفة .

تأثير العقائد الدينية
فى تكوين طبقة
الأشراف ووحدة
الأسرة

(1) Excav. at Giza, I, p.p. 99.

وأخيرا نجد أن قاعدة الوراثة التي كانت منبعه في انتقال الالتزامات الكهنوتية قد اوجدت نظاما قانونيا جديدا للوراثة حل محل نظام الحقوق القديم . ويلاحظ أنه في الوقت الذي كان ينمى فيه نظام الفردية وقد كان أصلا للحقوق الشخصية ، ويتلاشى فيه تجمع السلطة الملكية وهي الأساس للحقوق العامة قبل الإصلاح الاستبدادى الذي كان في عهد الأسرة الرابعة ، أصبح كذلك يحتاج تدريجا ذلك النظام الديوى الذي يسير على نهجه كل من الحكومة والأسرة.

الاولاد غير الشرعيين

أولاد الحظيات
لا يؤلفون جزءا من
الأسرة

لم تذكر لنا قهوش مقابر الدولة القديمة أولادا غير شرعيين ولكن على الرغم من ذلك ، نظن أن هذا العنصر من الاولاد كان ذاتا : فمنذ الأسرة الخامسة نجد أنه كان يمثل على مقابر بعض العظماء طائفة من النساء لم يذكرن بأسمائهن قط إلا مرة واحدة في أواخر الأسرة السادسة ، ومع ذلك كن يعتبرن في هذه الحالة نساء شرعيات كما سنوضح ذلك في حينه أما النساء الحظيات فإنهن لسن زوجات ولا يؤلفن جزءا من الأسرة ويجب أن نعتبرهن من طبقة الراقصات والقيان اللاتي يتخذهن أصحاب اليسار خليات ، ولم نجد هن أولادا ممثلين على جدران المقابر ، مما يدل على أن الآباء كانوا ينكرونهم ؛ وبالرغم من صمت النقوش عن هذا الموضوع ، فإنه في الاستطاعة أن نصل إلى مركز الطفل غير الشرعى منذ أواخر الأسرة السادسة . ويرجع الفضل في ذلك إلى خطاب عثر عليه في جبانة ، كتب على قطعة من القماش . وقد أرادت كاتبته « إرتى » أن مخاطب حبيبها « س عنخ » . إن فتاح « لكى تشرح له المأساة التي حاقت بطفلهما المولود سفاحا .

والواقع أن متن الخطاب مبهم وكل ما يمكن استخلاصه ما يأتي :

كانت الخادمة « إرتى » حظية لسيدها « س عنخ إن فتاح » وقد رزقت منه ولداً . وأوصى « س عنخ إن فتاح » وهو على سرير الموت أخاه « بحستى » أن يحافظ على أملاكه حتى يبلغ ابنه سن الرشد ويسلمها إياه . ولكن الأخ تقض عهده مع أخيه وانتهى الأمر بأن قسمت أملاك المتوفى بين ورثته الشرعيين . ولما لم يكن للحظية أية وسيلة لجأت إلى كتابة خطاب لمحبوبها والد ابنها تشكو فيه سوء معاملة أسرته لها ولابنها لعله يساعدوا في الآخرة فيرد حق ابنها إليه . وقد دل فحص هذه الوثيقة على أن الأولاد الذين يولدون عن طريق غير شرعى ليس لهم أى حق فى وراثته أملاك والدهم وأن الاعتراف بابن غير شرعى وجعله وارثاً والده بوصية أو بشرط ، كان على ما يظهر أمراً بعيداً . والسبب فى ذلك هو عدم إمكان تجزئة عقار الأسرة فى حالة وجود ورثة شرعيين ، وهذا يدل على أن عمل الوصية كان مقيداً . وقد دلت هذه الوثيقة على أن رابطة الأسرة كانت عظيمة إلى حد أن جعلت الأخوة وأولاد الأخ وارثين عندما تسمح بذلك أحوال الأسرة (1) .

الابن غير الشرعى
لا يرث وإن اعترف
به والده

إقامة شعائر الأسرة

كان من جراء النظام الجديد الذى ظهرت به الأسرة فى عهد الأسرة السادسة أن حدث تطور فى إقامة الشعائر الجنائزية . وفى عهد الأسرة الخامسة كان قوام أداء الشعائر الجنائزية الأوقاف التى كان يهبها الملك الأشراف

(1) Gardiner & Sethe, Egyptian Letters to the Dead, London, 1928. dans Chronique d'Egypte, Dec. 1928, p. 117.

فمثلا كان « ثنتى » (1) يتصرت في أوقاف والدته « بى » الجنازية لإقامة شعائره هو، وقد كان نصيب كليهما مستقلا، ولكن الأوقاف المحبوسة على إقامة شعائرها معا كانت واحدة فكانا بذلك مرتبطين برابطة لا انفصام لها ولكن من جهة أخرى نشاهد أن زوجة « ثنتى » كان لها شعائر خاصة منفصلة عن زوجها. وفي بداية الأسرة الخامسة نجد أن « مرسوعنخ » (2) قد أقام باباً وهما لوالدته في قبره، وكذلك نرى أولاده الثلاثة وعلى رأسهم ابنه الأكبر يقدمون له قربان، وتدل النقوش على أن شعائر الزوج والزوجة كانت في أكثر الأحوال موحدة إذ نشاهد كثيراً تمثيل الزوج والزوجة على جدران المقبرة جالسين أمام مائدة قربان واحدة. وهذا المنظر قد شوهد كثيراً منذ عهد الملك « خفرع » ولكن في الغالب كانت الزوجة تفصل إقامة شعائرها عن زوجها، فمثلا نجد أن زوجة (المعروف لدى الملك) «أخت حتب» (3) على الرغم من أن لها باباً وهما في مقبرة زوجها قد كان لها قربانها الخاص.

إقامة الشعائر بقيت
رغم الدفن في
مقبرة واحدة

والواقع أنه في هذه الفترة قد أخذت مقابر الأسرات تزداد ازدياداً مستمراً. ولكن يلاحظ أنه كان لكل عضو من أعضاء الأسرة في القبر باب وهى ومائدة قربان في الأغلب الأعم. ونلفت النظر هنا إلى أن دفن أفراد الأسرة في مقبرة واحدة لم يحدث إلا من جيلين، ومن ذلك يمكننا أن نستنتج أن إقامة الشعائر قد بقيت فردية في جملتها وإن كنا أحيانا نرى أن أعضاء الأسرة المختلفين يتحدثون جميعا في إقامة شعائهم وذلك إما بإقامة قبر واحد أو بتجمعهم حول وقف واحد مشترك.

(1) Moret, une Nouvelle disposition testamentaire. Ac. Insc 1914. p.p. 588. etc. (2) Exca. at Giza. Vol. I, p. 104. etc.
(3) Op. cit. p. 73 etc.

وكان لزاماً على الوارث أن يقيم شعائر المتوفى بعد استيلائه على أملاكه ويبنى قبره . على أننا لم نجد حتى الآن أثراً لإقامة شعائر الأسرة بصفتها وحدة تقيم شعائر الجد الأكبر لها . وهذا ينطبق تماماً على نظام الأسرة في هذا العهد إذ أنها رغم تملكها عقاراً أسرياً لا يتجزأ وجمعها برابطة قوية تمثل في سلطة الوالد ثم الابن الأكبر من بعده فقد لاحظنا أن الأسرة لا تصطبغ بصبغة رابطة الأجداد بل كانت في كل جيل تنقسم إلى فروع بقدر ما فيها من الأولاد الذكور وعلى ذلك نجد أن حقوق الأسرة وإقامة الشعائر يسيران حسب تطور واحد .

تفرع الأسرة

ونضيف إلى ذلك أن إقامة شعائر الأسرة قد لعب دوراً عاماً في التقدم الاجتماعي الذي قامت به طبقة الأشراف بما حصلوا عليه من السيادة في البلاد . وهذه السيادة تشبه تمام الشبه المكانة التي أخذتها إقامة الشعائر الملكية ، وما نتج عنها من تغيير في الحقوق الأصلية والمجتمع في مصر منذ الأسرة الرابعة إلى السادسة . وتفسير ذلك كما ذكرنا آنفاً أنه قد نشأ في عهد الأسرة الخامسة مقربون للأسرة ومقربون للأشراف فالمقربون للأسرة هم الذين كانوا يقيمون شعائر المتوفى من أرملته وأولاده وكانوا في مقابل ذلك يستقلون ضيعته الموقوفة على الشعائر .

أما المقربون للأشراف فكانوا يعملون على الأساس نفسه فشلا في الضياع الجنازية الكبيرة مثل ضياع « تي » أو « فتاح حتب » كان كتاب الحسابات للضياع يشتركون في إدارة إقامة الشعائر وذلك بتقديم القربان الذي كان الأساس لأداء الشعائر . وكانوا نظير هذا يحملون لقب المقربين لسيادهم مدة حياتهم ؛ ولا نزاع في أنهم كانوا يحملون هذا اللقب بعد موتهم لتقام شعائرهم من دخل ضياع سيدهم .

« مقربو » الأشراف

ومن كل ذلك نرى أن تماسك الأسرة والنظام الاجتماعى الذى حدث فى الضياع العظيمة، كان يدور حول إقامة شعائر المتوفى .

تمثيل الأسرة على جدران المقابر فى عهد الأسرة السادسة

إن النظام الذى ظهر به أفراد الأسرة على جدران المقابر فى عهد الأسرة السادسة يدل على أنه قد حدث فيها تطور يسير مبادئ سلطة الزوج والأب والابن الأكبر من بعده ثم إخوته الذكور بعد وفاته . فنجد أن إقامة شعائر المرأة تشترك مع إقامة شعائر زوجها، فتكون شطرا آخر منها . أو تكون وحدة معها . مثال ذلك أن « شش ششات » كبرى بنات الملك وزوجة « نفر ششم فتاح » كان لها مائدة قربان صغيرة موضوعة تحت مائدة قربان زوجها الكبيرة الحجم ، وقد جلست أمام مائدتها متربعة على الأرض مطوقة بذراعها ساق زوجها كأنها ابنته الأصلية ، وعلى الرغم من أنها البنت البكر للملك فإننا نشاهد أن إقامة شعائرها قد اندمجت فى شعائر زوجها بصفة ثانوية (1) وعلى العكس من ذلك نرى أن ثلاث أميرات لمقاطعة « زوف » كانت كل منهن ممثلة وهى جالسة على مائدة قربان واحدة مع زوجها مرسومة بحجمه (2) والظاهر أن كبرى البنات كانت تقوم بدور فى إقامة شعائر أمها إذ نجد أن كبرى بنات « خنت كا » قد مثلت حاملة القربان لوالدتها التى مثلت جالسة وحدها أمام المائدة . وهذا الدور بذاته قد لعبته كبرى البنات فى عهد الأسرة الخامسة .

على أننا نجد نساء لم يمثلن فى قبور أزواجهن وعلى الأخص فى عهد

(1) Capart, Rue de Tombeaux, I, p.p. 63-74.

(2) Davies, Deir-el Gebrawi, II, p. 19 etc.

كبرى البنات تقدم لوالدتها القربان

الفرعون « يبي الأول » كزوج الوزير « عنخ ما حور » (1) . وربما كان السبب في ذلك أنها بنت منسوبة إلى الأسرة المالكة وأن إقامة شعائرها من أجل ذلك تابعة لإقامة شعائر الملك .

وكان رئيس الأسرة في عهد الأسرة السادسة هو الأب ، وبعد وفاته يحل محله الابن الأكبر وهذا يفسر لنا السبب في تمثيل الابن الأكبر على مقربة من أبيه ، بطريقة تميزه بجلاء عن إخوته الذكور وأخواته الإناث ؛ فيشاهد قابضاً على عصا والده (2) أو يتبعه وهو ممسك بيده ، أو يرسم بجانبه بهيئة تشعر بالاحترام ، وفي الغالب يمثل واقفاً بين عصا والده وساقه أو على رأس إخوته الذكور والإناث في وضع يظهره كأنه أرفع منهم ومن أمه ذاتها مقاماً (3) ويصبح الابن الأكبر على أثر وفاة والده رب الأسرة . وقد ذكرنا أن أم « رع ور » قد مثلت واقفة أمامه في هيئة تشعر بالاحترام وهو جالس ، ولا شك في أن خضوع الأم لسيادة ابنها الأكبر كانت من أهم التطورات التي تشاهد في تماسك الأسرة ووحدتها وقد أخذت هذه الظاهرة تتجلى بارزة في عهد الأسرة السادسة .

مركز الابن الأكبر
في مناظر تمثيل الأسرة
يشعر بسيطرته على
أمه الأمومة

والواقع أنه منذ الأسرة السادسة حتى نهاية الأسرة الثانية عشرة كانت الأم ترسم غالباً جالسة على الأرض عند قدمي ابنها (4) . وعلى الرغم من أن الأم كانت تحفظ لنفسها كل سلطان الأم ، فإنها كانت من الوجهة الشرعية خاضعة لسلطان الزوج أو بعبارة أخرى كانت على قدم المساواة مع أولادها اللهم إلا الابن الأكبر الذي كان يمتاز في الحقوق ، لأنها

(1) Capart, Une Rue de Tombeaux I pl. XXXIV (2) Mar. Mast. E. 1-2 p. 376 (3) Davies, Deir-el Gebrawi I, p.p. 8 etc. (4) Gunn, Cemetery of Teti II, pl. 54.

بعد وفاة زوجها ستكون تحت إشرافه . وأظهر صورة تمثل لنا ذلك هي صورة أسرة أمير مقاطعتي « زوف » و « تاور » (1) ويشاهد في مقبرة الوزير « مري » (2) وفي مقبرة « فتاح شيبس » أن الزوجة ممثلة بحجم صغير جداً راحة عند قدمي زوجها ، رغم أنها أميرتان من دم ملكي ، ومثلها غيرهما من نساء عظماء القوم . والقاعدة العامة هي أن الزوجة كانت تمثل صغيرة بالنسبة لزوجها في كل أوضاعها . ولكن أحيانا نشاهدها ممثلة في حجم الزوج . وإذا فحصنا الأوضاع التي تكون فيها الزوجة ماثلة للزوج في حجمه نلاحظ أن ذلك لا يكون إلا في المناظر الخاصة ، أما في معظم المواقف الرسمية فإن صورة الزوجة تصغر ، وتتضائل ، بجانب صورة زوجها . على أننا لم نصادف إلا أمثلة قليلة رسمت فيها بحجم زوجها في المواقف الرسمية ؛ فزوجة أمير ادفو « كارا يبي نفر » قد رسمت بجوار زوجها بحجمه تماماً وهو مسك يده عصا الامارة وفي منظر آخر نجدها مرسومة بحجم صغير واقفة تحت عصاه (3).

الزوجة تمثل بحجم زوجها في غير المناظر الرسمية

ويظهر أن النساء للآتي كن يرسمن بحجم أزواجهن كن كلهن يحملن لقب « شبت نيسوت » (شريفة ملكية) . ويلاحظ أن النساء اللاتي يحملن هذا اللقب كان لهن الحق في أن يستولين على إقطاع والدهن وينقلنها إلى خلفهن . وقبل أن نختم موضوع تمثيل الأسرة في الأسرة السادسة يجدر بنا أن نلفت النظر إلى أسرة حاكم مقاطعة « وازيت » (العاشرة) التي كان على رأسها « مري عا » . إذ كانت زوجته « إسي » (4) قد مثلت عدة مرات

(1) Davies, Deir-El Gebrawi, I, p.p. 8. (2) Mar. Mast. E. 16.

(3) Sethe, Urkunden, IV, 13 (New Ed.)

(4) Davies, Deir el Gebrawi, t. II, pl. III, V, VII, XI, XVIII.

بمحجم زوجها وهي واضحة يدها على كتفه أو حول وسطه مستقبلة معه خضوع أفراد الأسرة . ولكن المدهش في هذه الأسرة أنها المثال الفذ المعروف لدينا في الدولة القديمة الذي نرى فيه أن الرجل كان له خمس زوجات شرعيات غير « إسي » ، وكان لكل منهن أولاد من « مري وع » الأب . ومن ذلك فهم أن « مري وع » كان له حريم على غرار حريم الملك ، من زوجات شرعيات ، وليس من بينهن إلا واحدة تحمل لقب الشرف ؛ وقد امتازت بأن مثلت بجانب زوجها ؛ أما البقية من نسائه فكان واقفات يقدمن الخضوع لهما . وقد مثلت هاتيك النسوة بعد أولادهن بمحجم بناتهن وأصغر من أولادهن الذكور . ومنذ ذلك العهد فهم المركز الذي كانت تشغله الزوجة العظيمة بتمييزها في الرسم عن بقية نسائه وأولادهن .

ويتضح مما سبق أن تمثيل أفراد الأسرة في عهد الأسرة السادسة وفي العصور التي قبلها كان يجري حسب مركز كل منهم في الأسرة فهو يماشي المركز الشرعي الذي كان يستمتع به كل في محيط الأسرة .

البنوة في عهد الدولة القديمة

بدهى أنه عندما يدلى أحد كبار العلماء ممن يعتد بقولهم برأى في موضوع ما ، ينفذ رأيه إلى قلوب الناس بقوة ويتهاك تلاميذه على اتباعه والاحتفاظ به وإن كان باطلا لا ظل له من الحق ؛ وقد يظل هذا الرأي متاقلا عدة أجيال إلى أن يتصدى له من عنده الشجاعة والجرأة لدحضه وهدمه من أساسه . وليس تقضه بالأمر الهين السهل ، فلا بد من الصبر والأناة والحكمة حتى يصل المحقق إلى إثبات رأيه ، لأن نزع الرأي القديم من الأذهان وإحلال رأى جديد صائب مكانه من أشق الأمور في التنفيذ .

والأمثلة على ذلك في التاريخ كثيرة . والآن لدينا مسألة من مسائل الاجتماع المصرى القديم من هذا القبيل ظاهرها فيه الرحمة وباطنها من قبله العذاب ؛ وربما كان سبب انتشارها والتمسك بها هو خرابتها بالنسبة لمسائل الاجتماع الإنسانية . تلك الفكرة هى سيادة الأمومة على الأبوة فى نسبة الأولاد . إذ اعتقد بعض العلماء العظام فى الآثار المصرية أن الابن كان ينسب إلى أمه فى معظم الأحوال ويرون فى هذا أثرا من آثار سيادة الأمومة فى مصر ؛ وبذلك يكرر هؤلاء العلماء أن الوراثة عن طريق فرع الأم أقرب من الوراثة عن طريق فرع الأب ، وعلى ذلك يكون أولى الناس بالأشراف على تربية الولد هو خاله لا والده . وهذا رأى يرتكز فى الواقع على متون قليلة جدا قد التقت من بين كل نصوص التاريخ المصرى . وقبل أن نفحص عن هذا الموضوع فحفا دقيقا علميا نورد هنا ما قاله المبرزون من علماء الآثار المصرية فى هذا الصدد .

أولا : يقول الأستاذ « إرمن » (1) : « يشاهد فى قوش مقابر الدولة القديمة غالبا ، بجانب اسم الزوجة ، ذكر اسم أم المتوفاة على حين أن اسم الوالد لا وجود له فى العادة ؛ وفى كثير من الأحيان يذكر نسب المتوفى من جهة والدته لا من جهة أبيه » . ومن المدهش أن المؤلف لم يذكر المصدر الذى استند فيه على هذا رأى . وستثبت بالبرهان أن الأمر كان على النقيض فى عهد الدولة القديمة .

ثم يقول : « وفى عهد الدولة الوسطى نجد فى أحوال كثيرة فى الأسر الشريفة أن الابن لا يرث والده ، بل ابن البنت البكر هو الذى

آراء العلماء فى نسبة الأولاد للأم

تؤول إليه الوراثة ، وكذلك في عهد الأسرة التاسعة عشرة كان والد الأم هو الذى على ما يظهر المشرف الطبيعى على الطفل . وإذا حدث أن الشاب كان له مستقبل باهر ، فإن الذى يستمتع بذلك هو جده من جهة أمه . « وقد أورد المصادر الآتية (1) .

ثم يقول : « ومع ذلك نجد الابن الأكبر يرث والده . ونرى فى كل العصور أن الأب يرجو أن يرثه ابنه فى وظائفه ، وكذلك كان الابن يسهر على إقامة شعائر والده ، وكان الملك يرى أنه واجب عليه أن يجعل الابن وارثا لأبيه . وكانت إقامة الشعائر واجبة للأب ولكل الأجداد . ثانيا : يقول الأستاذ موريه (2) « إن المرأة مع ذلك لم تفقد سلطانها أو امتيازاتها القديمة . فنجد أن الأولاد ينسبون غالبا إلى أمهاتهم أكثر مما ينتسبون لأبائهم وفى بعض الأحوال يكون الخال هو المشرف على أولاد أخته كما هو الشأن فى الجماعات التى تسود فيها الامومة » . وفى صفحة ١١١ من الكتاب نفسه يقول : كل طفل مصرى يعلن أنه ولد من الام كذا ، ويندر من ذكر اسم والده ، والواقع أن نسبة النسوة للام قد بقيت من هذا الماضى المتوغل فى القدم ، حتى بعد أن أصبحت سلطة الاب ووراثته أمرا ثابتا لا مرأ فيه (3) .

ثالثا : يقول الأستاذ « برستد » أن قانون الوراثة المتبع كان للبنت الكبرى ، ولكن يمكن تغيير ذلك بوصية ، وعلى ذلك يعتبر العقار الذى جاء من جهة الأم هو الأقرب وأن الوصي الطبيعى على الولد هو

(1) Pap. Sallier, 2, II, 3. & Pap. Anastasi 3, 6. & L. D. III, 12 d.

(2) Moret. Le Nil p. 318

(3) Br. Histoire d'Égypte trad. Fra. I, p. 86.

جده من جهة أمه لا والده الحقيقي » . وهنا ختم الاستاذ « برستد » كلامه ، غير أنه لم يذكر السند الذي ارتكز عليه في اثبات قوله هذا . والواقع أنه لا يوجد في كل ما لدينا من النقوش متن واحد يدل على ان البنت البكر قد ورثت أملاك والدها مفضلة على الابن .

ومن كل ما سبق يتضح أن الوثائق الوحيدة التي ذكرت في هذا الصدد ترجع إلى عهد الدولة الحديثة ، وهذه بلا شك وثائق متأخرة لا يمكننا أن نتلص فيها أى أثر لقدم هذه الفكرة . على أن الوثائق التي ذكرها « إرمن » ليس لها مناسبة قوية في موضوعنا . فأى شئ يمكننا أن نستخلصه من متن ورقة « سليه » الأدبية التي جاء فيها أن جداً من جهة الأم كان يتمتع بنجاح حفيده في سلك خدمته الحكومية . أما ورقة « انستاسى » فإن المؤلف يجذ فيها صناعة الكاتب ويحقر مهنة سائق العرب . وعلماء الآثار يترجمون الفقرة التي يعنيها بما يأتى :

« فكر فى أن تكون كاتباً ، لتقود كل العالم . تأمل إني إحدئك عن تلك الحرفة التعيسة وأعنى قيادة العرب ، فإنه قد قبل فى المعسكر احتراماً لجده من جهة أمه ... أى لأنه كان من أسرة عريقة . فماذا نستنتج من ذلك خاصاً بالبنوة من جهة الأم ؟ على أن ترجمة المتن مشكوك فيها إذ نجد أن « مسبرو » يترجمه بما يأتى :

وعند ما التحق بالمدرسة (الحرية) بوساطة جده من جهة أمه ... (1)

أما فى متن دنكيلر جزء ٣ صفحة ١٢ فإننا نجد فيه أن رجلاً من عهد الدولة الحديثة يقيم قبراً لجده من جهة أمه . حقا إن هذا المتن هام ، ولكن

(1) Du Genre Epistolaire, p. 42.

ما الذى نستخلصه منه غير ورع حفيد وعطفه على جده من جهة أمه ؟ وكل ما يستنبط من هذا المتن هو أن القرابة من جهة الأم كانت موجودة فى هذا العصر فحسب . وأول ما يمكن تقريره فى هذا الموضوع أن كل استنتاجات المؤرخين الذين اقتبسنا آراءهم هنا فيما يختص بالدولة القديمة خاطئة . أعنى بذلك قولهم إن المصرى فى هذا العهد كان على وجه عام يعرف والدته أما والده فينكره فى معظم الأحوال . ولكن الواقع يثبت ما ينقض هذا الزعم من أساسه . إذ دلت الإحصاءات التى عملت فى أنساب الأسر الرابعة والخامسة والسادسة أن فى (١) ٩٢ نسباً من غير الأسرة المالكة ، يوجد من بينها ٤٤ نسباً ذكر فيه الأب والأم على السواء و ٣٧ نسباً فضل فيها نسب الأب على الأم و ١١ ذكر فيها نسب الأم فقط .

وإذا فحصنا عن الانساب التى يرجع عهدا إلى ثلاثة أجيال فى قوائم الأنساب التى نحن بصدددها فإننا نجد عشرة منها تساوى فيها النسب للأب والنسب للأم وعلى الأخص أنساب مقاطعة امراء « زوف » ومقاطعة « تاور » و « قوص » فنجد أربعة يذكر فيها الجد من جهة الأب ، والاب ، والأم ، والأولاد ، وأربعة لم تذكر إلا النسل من الاب للابن ، ولا يوجد إلا ثلاثة لم يذكر فيها نسب الأب ، واحد منها فى نهاية الأسرة الرابعة وبداية الأسرة الخامسة ، وهو نسب « زوز ساويس » نسابة القصر الملكى (٢) فقد ذكرت لنا خلفها : أى أولادها وأحفادها . ونسب آخر فى عهد الأسرة الخامسة وهو للوزير « بجنو كا » إذ نجد اسم أم الوزير وزوجته

(١) جمع هذه الانساب الاستاذ بيرن فى كتابه . (Hist. Des Institutions vol. III, p. 401 - 418.) واستخلص منها هذه الحقائق .

(٢) Excav, at Giza, I, p. 104 etc.

وأولاده . وأخيراً في عهد الأسرة السادسة نرى أن الوزير « مري » يعرفنا أسم والدته وأولاده . وهذه هي الأنساب التي نيمكتنا أن نرى فيها عنصراً للأئمة ، ولكن الواقع أنه لا يوجد واحد من بينها يثبت تناسله من جهة الأم ، على أن الحال لم يذكر إلا في نسب واحد وهو نسب « حتيا »^(١) « زوج يبي عنخ » أمير قوص ولكن « حتيا » ووالديها لم يذكر إلا في مقبرة زوجها « يبي عنخ » الذي ذكر لنا عدداً من إخواته وأقاربه وخلفه وسلفه .

وعلى ذلك نكون في مأمن من الخطأ إذا عكسنا النتيجة التي وصل إليها علماء الآثار المصرية وقلنا : إنه في عهد الدولة القديمة كانت تحفظ مكانة عظيمة للأب والأم اللذين كانا في أغلب الأحيان معروفين . هذا على أن الأب والجد من جهة الأب كانا يذكران غالباً وحدهما ، ولم تذكر الأم وحدها إلا نادراً عند عدم وجود أب ، والجد من جهة الأب لم تذكر إلا نادراً جداً ، ولكن لم نشاهد قط أن البنوة كانت تنسب لفرع الأم . وقد ظهر مما سبق أن الابن الأكبر كان رئيس الأسرة بعد وفاة والده ؛ ولكن البنت الكبرى لم يكن لها شأن كبير يذكر ، وكانت الزوجة تحت سلطان ابنها الأكبر بعد وفاة زوجها في عهد الأسرة السادسة ؛ ولذلك يتبين في كل المقاطعات أن الوراثة تكون كالبنوة تتبع فرع الأب . والآن تتساءل أين سيادة الأئمة في البنوة ، ومن أين أمكن علماء الآثار أن يكشفوا أثراً لنسب البنوة للأم ؟ والواقع أن سبب هذا الخطأ الذي وقع فيه علماء الآثار هو الأخذ بالظاهر دون التعمق في البحث عن الأسباب

(1) The Rock Tombs of Meir, IV, p.p. I, etc. & IV, pl. IV, V, VII, IX.

وبخاصة في مقاطعة « زوف » إذ نجد أن الأمير « زوف شماي » قد استولى من والدته على المقاطعة المذكورة وكان يحكمها قبله جده من جهة أمه وهو « رع حم إيسى » . ولكن فحص هذه الوراثة قد أظهر أنها لا تخرج عن تطبيق دقيق لطبيعي لقانون الوراثة في فرع الأب وذلك أنه في أوائل الأسرة السادسة وقد ورث « هنوقو خيتتا » ومن بعده أخوه « رع حم إيسى » إمارة هذه المقاطعة ؛ وكان الأخير هو الابن الأكبر لأن ابنه « إيسى » كان يلقب « الشريف الملكي » (شبس نيسوت) ، وهذا اللقب كان لا يحمله إلا ولي عهد المقاطعة . والظاهر أن النسل من المذكور قد انقطع ، لأن مقاطعة « زوف » آلت إلى أمير مقاطعة طينة « إبي » زوج « رع حم » بنت « رع حم إيسى » . ولا شك في أن تلقيب « إبي » بأمير مقاطعة « زوف » يرجع سببه إلى أن زوجته قد ورثت هذه المقاطعة . ومما لا شك فيه أن « رع حم » لا يمكنها أن ترث المقاطعة إلا لسبب عدم وجود الوارث الأكبر ، هذا إلى أنها من جهة أخرى كان لازماً عليها أن تسلمها إلى زوجها « إبي » بصفته مشرفاً على أملاكها حسب القانون المصري ، فأخذ في يده سلطة الأمير على المقاطعة ، ومن هنا يتضح أن الأميرة « رع حم » قد نقلت مقاطعة زوف إلى أسرة أمراء طينة

وليس هناك من ريب بعد البحوث التي أدلينا بها في موضوع الأسرة في أن الوراثة والبنوة وإقامة الشعائر كلها على حد سواء كانت مرتبطة بنسل الأب في عهد الدولة القديمة .

والمتن الرئيسي الذي اتخذ علماء الآثار أساساً لنظرية البنوة يرجع تاريخه إلى الأسرة الثامنة عشرة أي لا يمت بصلة إلى الدولة القديمة في شيء . وهذا

المتن هو قهوش «بحرى» (1) وملخصه أن «أحمس» بن أمه «إيانا» ووالده «بابا» وكان «بابا» هذا ضابطا ، وقد أصبح أحمس بدوره ضابطا في سفينة والده ثم درج في الرقي حتى أصبح أمير بحر عظيما . وكان من الأبطال الذين حاربوا ضد الهكسوس ، ولم يكن يحمل لقب شرف ، ولكن الملك أنعم عليه بهبات عقارية عظيمة . وقد رزق ثلاثة أطفال : ولدين وابنة أسمها «قم» ، وقد تزوجت من «اقرونا» مربي الأمير «وزمر» (ابن تحتس الأول ؟) فأنجبا ولدا اسمه «بحرى» أصبح فيما بعد ضابطا في القصر ، ومنح لقب الشرف ، وقلب في عدة وظائف سامية . وقد أظهر في قهوش قبره بوضوح نسبه من جهة أمه وزوجته ، والسبب في ذلك ظاهر هو أن «بحرى» لم يكن له إلا جد واحد عريق في النسب وهو «أحمس» والد أمه فانتسب إليه للفخر به لا أقل ولا أكثر ولما كانت قد حظى بلقب الشرف في أيامه الأخيرة فإنه فاخر كذلك بأصل زوجته ذات المجد التليد المؤثّل . ويبدو للفاحص المدقق أن لا علاقة لهذا بالأئومة أو البنوة من جهة الأم ، فلكل أمر ملابساته وظروفه .

(1) Griffith, Tomb of Paheri, p.p. 7-9.



« وب أم نفرت » يقدم لابنه « أبي » نفس الرعية (انظر ص ٥٢٣)
والشهود الذين حفروا توبيخا

Abréviations

**Annales du Service des Antiquités de l'Egypte (Ann. Ser. Ant.)
(Ann. S. A.)**

**Bulletin de l'Institut français d'Archéologie Orientale (Bull. I.F.A.O.)
(B. I. F. A. O.)**

Journal of Egyptian Archæology (J. E. A.)

**Proceedings of the Society of Biblical Archæology (Proc. S. B. A.)
(P. S. B. A.) or (Proc. Soc. Bib. arch.)**

**Recueil des travaux relatifs à la philologie égyptienne et assy-
rienne... (Rec. Tr.)**

**Zeitschrift für Ägyptische Sprache und Alterthumskunde. (Z.
A. S.) or (A. Z.)**

Mémoires de l'Institut Egyptien (Bull. I. Egy.)

**Mémoires de la Mission française d'archéologie du Caire. (Mém.
Miss. du Caire)**

Breasted, Ancient records of Egypt. (Br. A. R.) or (A. R.)

Pyr. = Sethe, Pyramiden Texte.

H. = Hérodote.

L. D. = Lepsius Denkmäler

Agr. A. E. Hart. = Hartmann, Agriculture of Ancient Egypt.

**Pirenne = Pirenne, Histoire des Institutions de l'Ancienne
Egypte.**

W. M. = Wilkinson, Manners and customs

Comptes-Rendus de l'Académie des Inscriptions (C. R. Ac. Insc.)

فهرس (الجزء الثانى)

١. الحكومة فى عهد الدولة القديمة : (١) الملكة الطينية وإدارتها -
٧. (٢) الحكومة فى العهد المنى - ٩. ألقاب الشرف - ١٠. ألقاب
خاصة بالملك وقصره - ألقاب كهنوتية - ١٣. الكهنة المطهرون - ١٤. (٣)
الألقاب الإدارية الرئيسية ، وألقاب الإدارة الإقطاعية - ١٦. (٤)
طائفة الكتبة .

١٧. إدارة مصالح الحكومة وتسييرها : (١) بيت الملك « بر نيسوت »
١٨. بيت التحريات الملكية - ، بيت المكاتب أو إدارة المحفوظات ،
بيت العقود المختومة - ١٩. بيت رئيس الضرائب أو التوزيع (؟) - مصلحة
التوزيع أو الضرائب - ٢١. (٢) مصلحة الحقول (الضياع) - ٢٢. (٣)
مصلحة المالية - ٢٤. بيت الذهب « برنوب » - ٢٥. إدارة الشونة
المزدوجة - ٢٦. إدارة التموين - ٢٧. الجمارك والتجارة الخارجية - ٢٩.
حسابات الخزينة - ٣٠. (٤) مصلحة الأشغال العمومية .

٣٤. حكومة المقاطعات :

٣٨. السلطة القضائية : ٤٣. السلطة القضائية فى عهد الأسرة الرابعة
٤٥. قاضى الدينين « مدو رخت » - ٤٦. الإصلاح التشريعى ونظام
العدالة فى عهد الأسرة الخامسة - ٤٩. محاكم المقاطعات « حت ورت »
٥٠. المجلس « هايت » - ٥١. الإدارة القضائية « وسخت » - ٥٣ .
إدارة العرائض أو الشكاوى « سبر » ، الإدارة الرئيسية للعدل « حتى ورتى »
٥٤. قلم قضايا العدل والإدارة - ٥٥. النظام القضائى فى عهد الأسرة

الخامسة - ٥٨ . الاجراءات القضائية - ٦٣ . اجراءات محكمة الست العليا ،
قانون العقوبات - ٦٥ . محكمة المقربين ، مقضاة الاشراف .
٦٧ . مصادر فصل نظام الحكم والقضاء :

٦٨ ثروة مصر الطبيعية ومتجاتها :

٦٨ . الزراعة : الأشجار الكبيرة - ٦٩ . السنط ، النخيل - ٧٠ .
نخيل اللوم ، الجيز - ٧١ . البرساء (اللبخ عند العرب) - ٧٢ . شجرة
النبق ، شجرة الأثل ، شجرة الصفصاف - ٧٣ . شجر المحيط ، أشجار
التين ، الهجليج أو تمر العرب - ٧٤ . الاخشاب الاجنبية - ٧٥ .
الأبانوس « هبنى » ، البخور والروائح العطرية .

٧٦ . النباتات ذات الالياف : الغاب أو البوص - ٧٧ . السعد وحب
العزير ، البردى ، البشنين ، النباتات الطبية .

٧٨ . الحبوب التي كانت تزرع في مصر : ٨٠ . الخضر ، الفول -
٨١ . العدس ، الحمص ، الباميا ، الفاقوس ، البطيخ ، الكراث - ٨٢ .
الكرفس ، الحس ، البصل - ٨٣ . الثوم ، التوابل ، الكزبرة ، الكراويا ،
الينسون ، الكمون ، اشجار الفاكهة - ٨٥ . الرمان - ٨٥ . زراعة نباتات الالياف

الكثان - ٨٦ . زراعة القطن واستعماله في مصر - ٨٧ . النباتات التي
تستعمل في الصباغة - شجرة الزيتون وزيتها - ٨٨ . نبات البردى ،

٩٠ . زراعة البساتين : ٩٣ . الآت الفلاحة : ٩٥ . المحراث ،

الحشة (المنجل) . ٩٧ . طرق الزراعة : ١٠٠ . صيد الحيوان وتربيته :

١٠٠ . لحوم الصيد : ١٠١ . فصيلة الأيائل ، عشيرة الظباء ، المها -

١٠٢ . المؤذر أو الديشون أو المهة الوضحي ، التيتل ١٠٣ . غزال آدم ،
غزال إزابيل « جسا » ، الوعل أو البدن أو تيس الجبل - ١٠٤ . الكبش
البرى (مفلون) ، الماعز ، المنز الأهلية ، الزرافة - ١٠٥ . الثعلب ،
الأرنب الجبلى . ١٠٥ . الحيوانات التى تصاد لجلودها أو فرائها : الفهد

١٠٦ . العسنت أو فرس النهر . الذئب (ونش) ، الفيل ، وحيد القرن
أو الحريش . ١٠٧ . الحيوانات التى تصاد دفاعاً عن النفس أو للتسلية :

الأسد والبؤة ، التمساح - ١٠٨ . الصل أو التعبان

١٠٨ . كلمة عامة عن المراعى وتربية الحيوان :

١١٠ . الحيوانات التى كانت تختب لترويضها وتربيتها : ١١١ . الخنزير

١١٢ ، الضبع ، الدواجن - ١١٣ . الدجاج - ١١٤ . البيض ، النحل
وتربيته : ١١٥ . الحيوانات التى كانت تربي لمنتجاتها الصناعية : الغنم -

١١٧ . الحمار - ١١٨ . الثور ، الحصان ، الجمل

١١٩ . الحيوانات التى تربي لمساعدة الإنسان وحمايته : الكلب -

١٢١ . القطه - ١٢٢ . النمس المصرى (أو فأر فرعون) ، القرد

١٢٣ . الرفق بالحيوان والعناية بتربيته : ١٢٤ . الحظائر - ١٢٥ .

العناية بأجناس الحيوان - ١٢٧ . أمراض الحيوانات - ١٢٨ . معاملة الحيوان

برفق - ١٣٠ . تعداد الحيوان

١٣١ . أسماك النيل والبحيرات : ١٣٢ . (١) لاطس أو القشر ، (٢)

البطلى أو المشط ، (٣) البورى ، (٤) القنومة ، ١٣٣ . (٥) القرموط ،

- (٦) الشال - (٧) الشلبة - (٨) الفقاقة - (٩) البنى

١٣٦ - طرق الصيد وأنواعها : صيد الاسماك . ١٣٦ - أدوات

صيد الطيور : عصا الرماية (البومرايح) - ١٣٧ . شباك صيد الطيور -
صيد السمان بشبك الحقول - فخاخ الصيد -

١٣٨ - أدوات صيد الحيوانات البرية : القوس والشاب - فخاخ

صيد الغزلان واليائل - ١٣٩ . الخية - ١٤٤ . أنواع الأحجار التي
استعملت في مصر قديما : الحجر الجيري الأبيض - ١٤٧ الحجر الرملي -

١٤٨ . حجر الجرانيت - ١٥٠ . حجر المرمر - ١٥٢ . حجر البازلت -
١٥٤ . حجر الكوارتسيت

١٥٥ . الأحجار التي استعملها المصري في غير البناء : حجر البرشيا ،

١٥٦ . حجر الديوريت أو حجر جبل النار - ١٥٨ . حجر الديوريت ، حجر
الدوليت - ١٥٩ . حجر الظران أو الصوان ، الجبس - ١٦٠ . الأبسديان

وهو حجر السبع أو حجر البحيرة - ١٦١ . الصخر البورفيرى - ١٦٢ .
حجر الشيست والأردواز - ١٦٣ . حجر الثعبان ، وحجر استاتيت (الطلق) -

١٦٤ - قطع الأحجار ١٦٦ - كيفية صناعة الأحجار

١٦٩ - الأحجار الكريمة وشبه الكريمة : ١٧٠ . العقيق والجزع -

١٧١ . حجر الجشت (أمتست) - ١٧٢ . الزمرد المصرى -

١٧٣ . حجر الدم والعقيق الأحمر - الخلكيدونى أو العقيق الأبيض -

١٧٤ . المرجان - حجر الأمزون أو الفلسبار الأخضر ١٧٥ . حجر

سيلان - حجر الهمتيت - ١٧٦ . البشم أو حجر الجاد - حجر البشب -

١٧٧ . اللازورد - حجر الهمنج - ١٧٨ . اللؤلؤ - ١٧٩ . حجر الكوارتس

والبلور الصخرى ، الفيروز أو الفيروزج

١٨٠ . المعادن : ١٨١ النحاس - ١٨٥ الكرسوكولا - ١٨٦ . الدهنج ،

البرنز (الشبه) - ١٨٨ - صناعة البرنز - ١٨٩ النحاس الأصفر ، الذهب -

١٩٣ . الألكتروم - ١٩٥ . الحديد - ١٩٩ . الرصاص - ٢٠٠ .

الفضة - ٢٠٣ القصدير - ٢٠٤ . الشب - ٢٠٥ . النظرون .

٢٠٦ . الشئون الاجتماعية : نظام العمل وقانون العمال في عهد الدولة

القديمة - الأعمال الحكومية - ٢١٠ . المصانع الحكومية - ٢١١ قانون العمال

الملكيين - ٢٢٠ . طرق المواصلات : ٢٢٣ . طرق النقل بالقواب وصناعتها -

٢٢٦ . الملاحة - ٢٣٠ التجارة الداخلية والعملة : ٢٣٣ . التجارة الداخلية -

٢٣٧ . النقود - ٢٤١ . العملة الحقيقية والعملة الحسابية -

٢٤٦ . تجارة مصر الخارجية وعلاقتها بالاقاليم المتاخمة : - العلاقات

بين مصر وآسيا - ٢٥٣ . علاقة مصر بجزر البحر الايض المتوسط -

٢٥٨ . علاقة مصر بالبحر الأحمر وبلاد بنت في عهد الدولة القديمة -

٢٦٦ . العلاقات التجارية مع البلاد المتاخمة - ٢٦٩ . العلاقات التجارية بين

مصر وبلاد النوبة والسودان .

٣٧٦ الفن : الفنون والحرف الدقيقة في العصر الطيني وما بعده -

٢٧٧ . فن المعمار - ٢٨١ . جبانات هذا العصر ومقابرهم - ٢٨٨ . السبب في

تقدم بناء المصاطب وتعدد حجراتها - ٢٩٠ . مقابر الملوك - ٢٩٥ . فنا النقش

والنحت في عهد الدولة القديمة - ٣٠٨ . تمثال القرين « كا » أو الروح

المادية والتماثيل الأخرى التي توجد في قبر المتوفى - ٣١١ . تاريخ فن

صناعة التماثيل منذ أقدم العصور إلى نهاية الدولة القديمة — ٣١٤ . الطرق

الفنية في صناعة التماثيل — ٣٢١ . تماثيل الخشب —

٣٢٨ — تدرج فن النحت البارز في الأسرة الأولى

٣٣٣ تماثيل العصر الأول من الأسرة الرابعة

٣٣٤ . أوضاع التماثيل الصغيرة والكبيرة في عهد الدولة القديمة

٣٣٧ . أوضاع التماثيل الخشبية في الأسرتين الخامسة والسادسة

٣٣٨ . الترتيب التاريخي لأوضاع التماثيل التي كان يستعملها الفنان المصري

٣٣٩ . تأثير تماثيل « خفرع » و « منكاورع » في صناعة تماثيل

الأفراد في الأسرتين الخامسة والسادسة .

٣٤٥ . الصناعات الدقيقة .

٣٥٣ . مصادر فصل الفن .

٣٥٥ . العلوم المصرية . ٣٥٦ . علم الرياضيات — ٣٦٠ — علم

الفلك عند قدماء المصريين — ٣٦٤ . الطب — ٣٧١ . التحنيط ومواده :

٣٧٦ . شمع النحل — ٣٧٧ . القار — القرقة وخيار شبر — ٣٧٨ . زيت

خشب الأرز — الصنع — ٣٧٩ . الحناء — حب العرعر — النظرون

— ٣٨٠ . الدهان — البصل — ٣٨١ . نبيذ البلح — الملح — التثارة

٣٨٣ . الكتابة : ٣٨٨ . فهنا للمتون المصرية — ٣٩١ . نظر إجمالية في تطور

الادب المصري : — ٣٩٧ . الكتاب المتعلمون — ٣٩٩ . المقنون

والقصصيون — ٤٠١ . أوزان الشعر — ٤٠٧ مختارات من أدب الدولة

القديمة : — أمثلة من الشعر — منتخبات من متون الأهرام — ٤٠٨ . سياحة

المتوفى إلى السماء - ٤١٠ . المتوفى يظفر على السماء - ٤١١ . المتوفى يلهم
الآلهة - ٤١٣ . المتوفى يأتي رسولا إلى « أوزير » - ٤١٤ . مصير أعداء
المتوفى - ٤١٥ . الفرح بالفيضان ، أناشيد الصباح - ٤١٧ . تعاليم
« فتاح حتب » ، معاملة الخطيب - ٤١٨ . إنك تفوز بالحياة بمساعدة الحق
والصدق ، أدب السلوك في الضيافة - ٤١٩ . كن أميناً في تبليغ الرسائل ،
لا تصفرن من شأن أولئك الذين ارقوا في الدنيا ، خصص لنفسك وقتاً
لترويح نفسك - ٤٢٠ . معاملة ابنك ، السلوك في بهو العظماء - ٤٢١ .
التحذير من النساء ، التحذير من الشراة - ٤٢٢ . فائدة الزواج - كن
كريماً مع أصدقائك ، كن حذراً في الكلام - ٤٢٣ . لا تكن بالخطأ ؛
احترام الرؤساء : الحزم في المصاحبة .

٤٢٣ . أغاني العمال : أغنية الرعاة - ٤٢٤ . أغنية السماكين ، أغنية
حاملی المحفة . ٤٢٤ . الأغاني في الولايم :

٤٢٦ . إزدهار الادب المصرى في العهد الإقطاعى : ٤٢٧ . تحذيرات
نبي ، تعاليم الملك ختي لابنه « مري كا رع » ، قيمة حسن الكلام
والحكمة ، الله وبنو الإنسان - ٤٢٩ . شجار بين إنسان قد ستم الحياة
وبين روحه - ٤٣٢ . الشعر الأول - ٤٣٣ . الشعر الثاني - ٤٣٤ . الشعر
الثالث - ٤٣٥ . الشعر الرابع - ٤٣٦ . شكاوى الفلاح الفصيح - ٤٣٨ .
الشكوى الأولى - ٤٣٩ . مقدمة الشكوى الثانية ، الشكوى الثانية - ٤٤٢
الشكوى الثالثة - ٤٤٥ . الشكوى الرابعة - ٤٤٦ . الشكوى الخامسة -
٤٤٧ . الشكوى الثامنة .

٤٤٩ . الجيش والحروب : عصر ما قبل التاريخ - ٤٥١ . الأسرة الثالثة

٤٦١ . الجيش في عهد الأسرة الرابعة — ٤٦٢ . الجيش في عهد الأسرة
الخامسة — ٤٦٥ . الأسطول — ٤٦٨ . الإدارة الحربية — ٤٧١ .
جيش الجنود المرتزقة — ٤٧٤ . الجيش في عهد الأسرة السادسة — ٤٧٦ .
البعوث الفرعونية — ٤٧٨ . الجيش والبلاد الأجنبية — ٤٨٨ . الجيش في
عهد الإهناسي — ٤٩١ . الخدمة العسكرية .

٥٠١ . مصادر عن الجيش في عهد الدولة القديمة والهد الإقطاعي :

٥٠٣ . الأسرة في عهد الدولة القديمة : نظام الفردية في عهد الأسرتين

الثالثة والرابعة — ٥٠٩ . حق الوراثة — ٥١١ . الشعائر الدينية واستمساك
الأسرة بعروتها — ٥١٣ . تطور نظام الأسرة في عهد الأسرة الخامسة
٥٢٧ . تطور مركز الأسرة في عهد الأسرة السادسة — ٥٣٠ . نظام الأسرة
الشرعي في آواخر الأسرة السادسة — ٥٣٣ . الوراثة — ٥٣٩ . الأولاد غير
الشرعيين — ٥٤٠ . إقامة شعائر الأسرة — ٥٤٣ . تمثيل الأسرة على جدران
المقابر في عهد الأسرة السادسة — ٥٤٦ . البنية في عهد الدولة القديمة —
٥٥٥ . مختصرات أسماء بعض المصادر — ٥٥٦ . فهرس — ٥٦٤ .
خطأ وصواب .

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٦٤	١٢	هر	وادي الهر	٧	٣	موكل	موكلة
١٦٤	١٢	الفطيرة	فطرة	١٠	٦	ألقاب	ألقابا
١٦٥	٣	قطع	قطعا	١٤	١	الرئيسية	الرئيسية
١٧٤ و ١٩٧ و ١١ و ١٨	أدقنا	دفنة	عصرنا إلا اذا احتوى على نوكراتيس (كوم جيف)	٤٧	٨	آخرين	آخرين
١٨٦	١٤	عصرنا على	عصرنا على	٥٧	١	مودع	مودعة
١٩٧ و ١٩٨ و ١٨ و ١٦	٦	قراش	قراش	٦٣	٩	وضوح	وضوح
٢٠٠	٧	مدينة	مدينة	٦٦	الهامش	لقاضى	لقاض
٢٠٠	١٧	الذهب	الفضة	٦٧	٦	أهما	أهما
٢٢٤	١٩	وكان	كان	٧٢ و ٧٣ و ٢ و ٤	عشر	عشرة	عشرة
٢٣١	١	كان يقام	كانت تقام	٨١	١	هردوت	يقول هردوت
٢٤١	٩	صندوق صغير	صندوقا صغيرا	١٠١	٦	مقبرة مير	مقبرة بمير
٢٥٢	٩	استعملت	استعمل	١٠٩	٢	ثورا	ثور
٢٥٢ و ٤٩٥ و ١٧ و ٧	محازاة	محازاة	محازاة	١٢٥	١٦	أوساط	أواسط
٢٥٥	٢	مقطوع	مقطوع به	١٤٠	١	الفر	الفر
٢٦٣	١١	ورجال	ورجالا	١٤٠	١٧	أن	أنه
٢٦٧	١١	العامى	العاصى	١٤٧	٨	كلبشا	كلبشة
٢٨٧	١	كوضع	وضع	١٤٨	١٢	تافا	طيفة
٢٨٧	١	أن	كان	١٥٢	١١ و ١٢	الديوريت	الدولوريت
٢٨٧	٧	بئر عمودى	بئر عمودية ...	١٥٣	٧	خطاب له	خطاب منه
٢٩٢	الهامش	الحجرتان اللتان	الحجرتين اللتين	١٥٤	٤	وتكون	تكون
٢٩٤	٤	فان أصلح	فان ما أصلح	١٥٥	١٣	أسمرا	أسمر
٣٠٤	١٧	لأحد	١٦٣	١٦	براميا	البرامية
٣٠٧	٨	نستطيع	نستطع	١٦٣	١٧	شابت	شيت

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٤٠٩	١٣	الهامش سلما	سلم	٣١٩	٦	فاحم	فاحا
٤٢٩	١٣	كانوا	كان	٣١٩	١١	يكونا	يكون
٤٦١	١٩	الذى	الذى لم	٣٢٢	٤	أن
٤٧٨	٢	نفسهما	أنفسهما	٣٢٥	١٨	سم ١٥	سم ٤٠
٤٨٧	٢٠	على نفوذ	نفوذه على	٣٤٦	٥	سوار	سوارا
٤٨٩	٢	هيرا كنبوليس	هركليو بوليس	٣٥٦	٨	ذراعا	ذراع
٤٩٤	١٤	سم ٧٠	سم ١٧٠	٣٦٠	١٤	كان
٤٩٨	٦	استأجروها	التي استأجروها	٣٦٣	١٢	فيه	فيه
٥١٦	١٩	الأصلى	الأصلية	٣٧٨	٧ و ٩	منها	منها
٥٤٧	١٧	فيه على	عليه في	٤٠١	٨	آيات	آياتا

الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٠٤٠٨ / ٢٠٠٠

I . S . B . N 977 - 01 - 6753- 3



هذا هو العام السابع من عمر «مكتبة الأسرة» ..
ومنذ سنوات طوال لم يلتف الناس حول مشروع ثقافى
كبير كما التفوا حول هذا المشروع الثقافى الضخم حتى
أصبح مشروعهم الخاص، وطالبوا باستمراره طوال العام.
واستجبنا لهذا المطلب الجماهيرى العزيز إيماناً منا
بأهمية الكتاب؛ وبالكلمة الجادة العميقة التى يحتويها؛ فى
إعادة صياغة وتشكيل وجدان الأمة واستعادة دورها
الحضارى العظيم عبر السنين.

لقد استطاعت «مكتبة الأسرة» .. أن تعيد الروح إلى
الكتاب مصدراً هاماً وخالداً للثقافة فى زمن الإبهارات
التكنولوجية المعاصرة.. وها نحن نحتفل ببدء العام
السابع من عمر هذه المكتبة التى أصدرت (١٧٠٠)
عنواناً فى أكثر من «٣٠ مليون نسخة» تحتضنها الأسرة
المصرية فى عيونها وعقولها زاداً وتراثاً لا يلى من أجل
حياة أفضل لهذه الأمة.. ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن
ومكتبة فى كل بيت.

سوزان مبارك

مكتبة الأسرة 2000
مهرجان القراءة للجميع



مركز
خمس جنديات